الوصايا النبوية

أ. حامد أحمد الطاهر

ضياء سعيدة

دار الفجر للتراث

الوصايا النبوية

أ/ حامد أحمد الطاهر

دار الفجر للتراث
خلف الجامع الأزهر - القاهرة
٥١٤٧٢٤٨ - ٥١٤٧١٧٩
٠١٢٧٤١٨٣٤٨

﴿وقل رب زدني علما﴾

* الكتاب: الوصايا النبوية

* المؤلف: أ/ حامد أحمد الطاهر

* الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م

* الناشر: دار الفجر للتراث - القاهرة

* عدد الصفحات: ٦٨٨ صفحة

* رقم الإيداع: ٥٥٦٢/ ٢٠٠٥م

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر / القاهرة

تليفون ٥١٤٧١٧٩ - تليفون وفاكس ٥١٤٧٢٤٨

محمول - ٠١٢٧٤١٨٣٤٨

إهــداء

إلى روح الأخ الكريم / **جمال محمود**

كُنت أخي الذي لم تلده أمي.

عشنا سويًا وقد جمعتنا الدنيا قليلاً، ثم فرقتنا كثيراً.

ولكن عزائي أن بك عرفنا الطريق فسلكناه.

إلى لقاءٍ تحت ظل عدالة قدسية في جنة الرحمن.

❁ ❁ ❁

أخوك المحب

سامي علي عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

(انتصار عقيدة السلف)

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له، نحمده حمد الشاكرين، ونشكره شكر الحامدين، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا وإليك المصير، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. . .

أما بعد،،،،،،

إنّ الإسلام عقيدة حق، ونظام حياة، قاعدة وسلوكًا وعملاً، ولا مكان فيه لكواذب الأماني، وهوان الدِّعة، وتعود الكسل.

وعقيدة المسلم زادٌ يدفعه إلى الاستقامة على طريق الحياة السوي، ورقابة تتطلب منه إتقان الصنع فيما قدمت يداه، وعزاء، وراحة، وعوض لمن جدوا وكدوا، ولم ينالوا فرصة الظفر بالمنى والجاه.

إنها إذًا عقيدة على هداها يقوم المسلم على إصلاح الحياة وعمارة الكون بروح صادقة وثّابة، لا تُثنيه عن عزمه المتاعب، ولا تصده عن قصده المصاعب، كالصخرة الصماء الراسخة أمام الرياح العاتية، فإذا ما أضناه طول المسير، وناءت بعظيم الأمور طاقته، استمد من عقيدته بَرَد الراحة والاطمئنان، والاستقرار، ووجد الدافع الذي يحفزه دائمًا إلى الإقدام، ومصدر هذه العقيدة إنما هو الوحي الذي لا ينطق عن الهوى، وهو الوحي الصادر عن الله تعالى، وهو عزَّ وجلَّ أعلم بما يُصلح عباده، ومن هنا فعقيدتنا ليست معارف أو إدراكات نظرية فحسب، وإنما هي

وجدان وانفعال، والتقاء واتصال، وتذوق ومناجاة، وعلم وعمل، ومراقبة لله تعالى في كل اتجاه فلا يزال المؤمن يُراقب ربه حتى تصبح ميوله ورغباته ودوافعه وعواطفه تبعًا للتعاليم التي جاء بها الوحي، وهنا تكتمل العقيدة وتصفو السريرة ويصح العمل؛ لأن العقيدة بلا عمل روحٌ ولا جسد، والعمل بدون عقيدة جسد ولا روح، ولهذا خط الإسلام الطريق الصحيح السوي الذي يكفل صلاح الجماعة والفرد، وينشر في ربوع العالم الخير والفضيلة.

وقد جاءت الدراسات التي اهتمت بما ورد في القرآن من برامج ومناهج عملية لإصلاح الفرد والمجتمع، وهكذا جاءت الدراسات التي عُنيت بالسُّنة النبوية وما فيها من وصايا وعبر وعظات وهو ما نسلكه في هذه الدراسة التي بين أيدينا، فقد اتجهنا لمعلم البشرية ﷺ لنرى ما قد سطره من روعة وجلال في أحاديثه التي أُوتي فيها جوامع الكلم، فوالله ما عرفت الأجيال صحائف من روعة وجلالٍ كتلك التي سطرها محمد ﷺ في تاريخ البشر، عظة لمن تدبر واعتبر، صاغها مَقالة رُشدٍ، ووصية هدى؛ لتكون نبراسًا للعالمين وأملاً للقانطين.

لقد عدنا إذًا إلى الوحي تارة أخرى حيث صحيح السنة المطهرة بعد القرآن الكريم؛ لننجو كما نجا من قبلنا، فإن مثل السُّنة كمثل سفينة نوح من ركبها فقد نجا ومن تركها فقد غرق.

وهي طريقنا للجنة، وهي أصل لمن أراد أن يكون من الفرقة الناجية، وهي الخير إذا عُدم الخير، وهي النور إذا عمت الظلمة، فخير الناس قرنه ﷺ ثم الذين يلونهم، فالذين يلونهم.

وكل بُنيان أُسس على غير اتباع لسنته ﷺ بناءٌ على شفَا جُرف هارٍ عمًّا قليل سينهار بصاحبه، ولذلك حذر السلف فقالوا- كما روى الأوزاعي- رحمه الله- : «اصبر على السُّنة، وَقِفْ حيث يقف القوم، وقُل ما قالوا، وكُفَّ عما كفوا، وليسعك ما وسعهم».

إنه إذن اتباع بلا ابتداع حيث قال مالك رحمه الله: «من أحدث في الإسلام

بدعة يرى أنها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ قد خان الرسالة».

إن عودتنا هنا للوحي، والسُّنة، وأقوال السلف إنما هي لإنقاذ كثير ممن سلكوا هذا الطريق من دهاليز خلفية سلكوها بعيدًا عن الحق، فمع مَرِّ العصور، وكرِّ الدهور انحسر الغبار عن أن الخير يكمن في اتباع السُّنة، فياليت الجميع وفَّر هذه الأوقات الثمينة التي ضاعت في معارك وهمية استنفدت طاقات، وأنفسًا، كان حقًّا عليها الإذعان للحق.

لقد هتف ابن قيم الجوزية: «إن نور الحق أضوأ من نور الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تَعْشُو عنه، والطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهو على الطريق كالأعلام. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)».

وصدق أيضًا إذ قال: «لص الحرص لا يمشي إلا في ظلام الهوى».

إن متبع السُّنة كالفرس يرى في الظلام كما يرى في النور، وبعضهم امتطى الحمار ظنًّا منه أنه الخير.

سوف ترى إذا انجلى الغبار ❁ أفرسٌ تحتك أو حمارٌ

وهذا هو الإمام أحمد يأتيه أحدهم فيقول: أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام. قال: والسُّنَّة.

وكثيرًا ما كان يدعو فيقول: «اللهم أمتنا على الإسلام والسُّنة».

وصاح ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٥٠٤) قائلاً: «يجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله».

وقد حدد ابن باديس رحمه الله وظيفة العلماء، لأن في رأيي أن العلماء هم الدعاة، والدعاة هم العلماء فقال: «من دعا إلى الله ورسوله فهو من دعاة الله، يدعو إلى الحق والهدى، ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمدٌ ﷺ فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال، فالمسلم المتبع للنبي ﷺ لا يألو جهدًا في

الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كلّ واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين».

لقد صاح ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم».

إذًا نحن نريد العودة إلى مضمار الاتباع، وإلى متابعة النبي ﷺ، والسير على طريق السلف، فقد تكاثرت الكتب التي تقطر مخالفة لهذا المنهج الرباني، فراح أصحابها يستدلون بضعاف الأحاديث، ومناكيرها، وباطلها، وموضوعاتها مما لا يصح له سند ولو ابتغيت نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء.

ولذلك فقد أعرضنا عن الأحاديث الضعيفة وجئنا بالصحيح هنا، ورحم الله العلامة الألباني لما قال: «فإذا تتبعت أخي المسلم كلام أهل العلم الموثوق بهم في معرفة الأحاديث الضعيفة، وجب عليك تجنبها والتحذير منها، وبذلك تستعد نفسك لتقبل ما يلقى إليك من الأحاديث الأخرى الصحيحة وإحلالها من قلبك المحل اللائق بها من القبول والعمل، وحينئذٍ تصفو روحك، ويستنير لُبك، وتنجو من الأمراض الخفية التي كانت ألمت بك بسبب سيطرة الأحاديث الواهية التي يَقترن بها دائمًا التصديق بالخرافات، والتُّرهات، والأباطيل فضلاً عن الأحكام والآراء المخالفة».

لقد ذهبنا إلى حيث منطقة النجاة: الوحي، وصحيح السنة المطهرة.

ثم نخلت كتب الزهد والرقائق للإتيان بما وافق عقيدتنا السلفية من كلام أئمة الدين وعلمائه بعيدًا عن توسيع دائرة النقل من الغث والسمين، حيث تختلط النتوء الفاسدة بالأعمال الصالحة، وإنما سِرْنا- كما يقول ابن قيم الجوزية- مع أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد، ولقد نفعني هنا ابن الجوزي ذلك الواعظ الذي انحسر غبار الزمان عن تفوقه الملحوظ في هذا المجال، فأكثرت من النقل عنه بعيدًا عن

تساهله في مجال الحديث.

ويرحم الله الرافعي يوم قال في «وحي القلم» (٣/ ٢٨٥) عن الشعر أنه: يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر ليكون الشعر عونًا لنا على إيصال ما نريد دونما طغيان له على الكتاب. . . وإن من الشعر لحكمة.

ويرحم الله ابن الجوزي ساعة قال في «صيد الخاطر صـ ١٠٠»: «فمن الناس من يُعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يُعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر، وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم، ويعرفهم طريق الحق».

لقد أطلت بعض الشيء في أبواب هذا الكتاب وأعلم أن من الخطباء من سيجعله له مرجعًا إن شاء الله وإنما قصدت استيفاء الأمر أولاً وآخرًا، ليكون ذلك سهم أضرب به في هذا المجال، فإن كثيرًا منهم يتحدث دون استيفاء للموضوع المتحدث فيه إما جهلاً أو نسيانًا أو لقلة مصادره، فجمعنا له هنا ما استطعنا والله يغفر لنا تقصيرنا، فلينقل هو ما شاء وليمسك ما شاء.

ولا يفوتني هنا أن أدعو بالرحمة والمغفرة لأخي- رحمه الله- الأستاذ/ جمال محمود، صاحب فكرة هذا الكتاب، وأن أدعو بالتوفيق والسداد لأخي/ سامي عبد اللطيف، الناشر الفاضل الذي أدين له بعد الله تعالى بشكر عميق.

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يرزقنا الإخلاص، وأن يعم النفع على المسلمين جميعًا.

❁ ❁ ❁

كتبه: راجي عفو ربه
أبو أنس السلفي
حامد أحمد الطاهر البسيوني
دمنهور- البحيرة

[العقائد]

[١] التوحيد سبيل النجاة.

[٢] الإيمان بالله تعالى.

[٣] الإيمان بالقضاء والقدر.

[٤] الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] التوحيد سبيل النجاة

عن عُبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ شَهِدَ أنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمداً رسول اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ**»(١).

❁ ❁ ❁

*** التوحيد لماذا؟**

لسنا في حاجة منذ البداية أن نُذَكِّر كثيرًا ممن سلكوا طريق العمل الإسلامي، والدعوة إلى الله تعالى أن التوحيد هو نقطة البداية والانطلاق، وهو نقطة النهاية والختام، وأن كلمة (لا إله إلا الله) وحدها كفيلة بإنقاذ الإنسان وقلبه من ظلمات الوحشة والأوهام، وهي كفيلة بأن تنجي روح الإنسان من آلام الحزن والكمد، وأن تضمن له فرحًا أبديًّا وسرورًا دائمًا.

إن عقيدة الإسلام وهي عقيدة التوحيد -حتى نذكِّر البعض- هي درع الأمة الذي صدّت به عن نفسها الغزوات والأخطار ولا زال هذا الدرع وحده كفيلاً بوقوف هذه الأمة على أرجلها من جديد بعد أن ترنحت وفقدت توازنها بسبب الجراحات الثاخنة، والطعنات الموجعة التي تعرضت لها، ولئن كان الجسد قد ترنح وفقد توازنه، فإن الروح ما زالت قوية صامدة تتحدى الطعنات.

وإن المذاق الذي عرفه السلف في ضوء عقيدة التوحيد، وتلك الأقوال والأفعال

---

(١) صحيح: مسلم (٢٩/ ٤٧) في الإيمان.

التي أضاعت كتب السير والتواريخ لتدفع المرء دفعًا إلى إعادة الحديث واستمراريته وديمومته عن عقيدة التوحيد، تلك العقيدة التي جعلت المسلم وثيق الصلة بربه ففاز فوزًا عظيمًا في دنياه وفي أخراه، وما هو حريٌّ بالحديث عنه: لماذا الحديث عن عقيدة التوحيد؟

(١) لأنها دعوة الأنبياء جميعًا:

فالأنبياء جميعًا سلكوا مسلك تربية العباد، فأرادوا بناء أنفس سليمة على أساس صحيح، وعقيدة صلبة، فلم يجدوا خيرًا من أصول دينهم وهو الوحي **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** (النجم: ٣ ، ٤).

فمع الوحي ينتفي الهوى ويضيع ويفقد، فمنذ خُلِق الهوى خُلق الهوان، وما أمرهم الوحي إلا بالانقياد لله تعالى ظاهرًا وباطنًا، وهو الإيمان، والإيمان لا يكون إلا بعقيدة سليمة صحيحة.

لأن العقيدة تسمو بالروح، وتعلق الإنسان ببارئه، لترتقي بصاحبها عن الماديات إلى الفطرة السليمة بدلاً من الانزلاق في مهالك الشيطان الذي يحاول استغلال الشهوات المزين حبها في القلب للخروج بالإنسان عن طريق الاستقامة ومن هنا جاءت العقيدة لتقيم اتزانًا بين الرغبات الروحية والمادية، فكانت دعوة الأنبياء إلى العقيدة أولاً رغم أنهم واجهوا انحرافات أخلاقية ومادية، كما واجه شعيب عليه السلام انحرافات في تطفيف الميزان، وقطع الطرق، وواجه هودٌ وصالح عليهما السلام طغيان عاد وثمود، فلم يبدأوا دعوتهم بالدعوة إلى العودة إلى الأخلاق وما شابه وإنما كانت دعوتهم: التوحيد أولاً، كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** (النحل: ٣٦)، وقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء: ٢٥).

فالتوحيد هو الذي بعث الله به المرسلين، وقام عليه سوق الجهاد، وأنزل به الكتب، وانقسم الناس فيه إلى كافر ومؤمن، وشقي وسعيد.

فلابد أن نبدأ من العقيدة وإحيائها في القلوب والعقول، وعدم إضاعة الوقت في غيرها وإلا كان ذلك هدرًا خالصًا لمنهج الأنبياء، ومخالفة صريحة للنبي ﷺ الذي

عاش من أول لحظة يدعو إلى التوحيد، فراح يطوف أسواق العرب في مواسم الحج يقول: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»(١).

وقال لعمه أبي طالب وهو على فراش موته: «**يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد** - وفي رواية - (**أشفع**) **لك بها عند الله**»(٢).

وبعد الهجرة وقبل الوفاة بعام واحد قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ....**» الحديث(٣).

بل إن مجمل رسالته قتال الناس حتى يشهدوا بالتوحيد، كما روى عنه أبو هريرة أنه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله**»(٤).

وبهذا فإن أول أصوات الهزيمة الإيمانية على الإطلاق، وأول نذر الكوارث الحقيقية إنما هو في انسحاب العقيدة من مجال الدعوة، والتربية، حتى تصبح كل فكرة من الأفكار بلا عقيدة رمادًا تذروه الرياح، لأنه لا رب، ولا إخلاص، ولا معرفة، ولا محبة، ولكن تشويه لجمال الدين، وإصابة لوجه الحياة بالتشوه والقبح، وأسوأ الكوارث على الإطلاق - والتي ظهرت كنتيجة طبيعية لانسحاب العقيدة من مجال التربية هي أن المسلمين الآن صاروا يصفون الأعداء بصفات القدرة، والقوة، والجبروت، فتزعزع الإيمان في القلوب، فتعلقت الأمة بغير الله تعالى، وابتغى الجميع حكم الجاهلية، وصحّ قول ابن قيم الجوزية: «إن التوحيد أشق شيء وأنزهه، وأنظفه، وأدنى شيء يخدشه، ويؤثر فيه كالثوب الأبيض، يؤثر فيه أدنى أثر»، وقد خدشت والله!!

إن أجمل ما في العقيدة السليمة الصحيحة أنها وحيٌ نقيٌّ من الخرافة، خالصة من الشوائب، بعيدة عن أباطيل الشرك، سالمة من هوة التأويل.

---

(١) صحيح: أحمد (٣/ ٤٩٢) و (٤/ ٣٤١) في المسند عن ربيعة الدِّيلي.
(٢) صحيح: البخاري (١٣٦٠) في الجنائز، مسلم (٢٤/ ٣٩) في الإيمان عن المسيب رضي الله عنه.
(٣) صحيح: البخاري (١٣٩٥) في الزّكاة، مسلم (١٩/ ٢٩) في الإيمان.
(٤) صحيح: البخاري (٢٩٤٦)، مسلم (٢١/ ٣٣) في الإيمان.

(٢) أن التوحيد سببٌ في دخول الجنة والإبعاد عن النار:

ويدل على ذلك حديث الباب، فإن النار حرامٌ على كل من شهد بالتوحيد.

وفي رواية مسلم عن طارق الأشجعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعْبَد من دون الله حُرِّم ماله ودمه، وحسابه على الله**».

وفي رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه (خلفه) على الرَّحْلِ قال: «**يا معاذ**»، فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك، فقال: «**يا معاذ**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**ما من عبدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرّمه الله على النار**» قال: يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذًا يتَّكِلُوا**» فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا(١).

وقال - كما في رواية أبي هريرة -: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة**»(٢).

ومن رواية عثمان رضي الله عنه: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٣).

ومن رواية أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه مَنْ مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**» قلت: وإن زنى وإن سرق، قال: «**وإن زنى وإن سرق**».

وفي رواية: أن أبا ذر قالها ثلاثًا فقال ﷺ في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**»، فخرج أبو ذر وهو يقول: «على رغم أنف أبي ذر»(٤).

ومن رواية جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»(٥).

---

(١) صحيح: البخاري (١٢٨) في الإيمان، مسلم (٣٢/ ٥٣) في الإيمان.
(٢) صحيح: مسلم (٢٧/ ٤٤) في الإيمان.
(٣) صحيح: مسلم (٤٣/ ٢٦) في الإيمان.
(٤) صحيح: البخاري (١١٨٠)، مسلم (٩٤/ ١٥٣، ١٥٤) في الإيمان.
(٥) صحيح: مسلم (٩٣/ ١٥١) في الإيمان.

(٣) أن التوحيد هو أول الأوامر الإلهية والمقصود من كل الأعمال :

فقد سبق أن التوحيد هو دعوة الأنبياء جميعًا، وقد كان ﷺ قد أمر معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه ﷺ إلى اليمن أمره بالدعوة إلى التوحيد أولاً.

ثم جاء في حديث جبريل عليه السلام أنه ﷺ قال عن الإسلام: **«أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»**(١).

وفي رواية البخاري عن أبي هريرة - في نفس الحديث أنه ﷺ قال: **«أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المفروضة، وتؤدي الزكاة المكتوبة»**(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: **«بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»**.

وفي رواية مسلم: **«بُني الإسلام على خمسٍ: على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»**(٣).

والتوحيد هو مقصود كل الأفعال الشرعية السابقة لأنه أولها، فقد قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾** (الحج: ٢٦).

فمقصد الحج الأعظم والأكبر هو تحقيق التوحيد، وهو أصل القضايا باتفاق، فكل أعمال البر، وجميع الطاعات في الحياة، وما يوصى به بعد الممات لابد أن يكون لله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

فالعقيدة أولاً وآخرًا، وابتداءًا وانتهاءًا.

إن المسلم لو نظر في حياته وعباداته لوجدها جميعًا تسير على التوحيد.

فعند لحظة الولادة يؤذن في أذنه: الله أكبر ... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن محمداً رسول الله. وهكذا عند الصلاة، وفي الحج: لبيك اللهم لبيك

---

(١) صحيح: مسلم (٨) في الإيمان عن عمر رضي الله عنه.

(٢) صحيح: البخاري (٥٠) في الإيمان، مسلم (٩، ١٠) في الإيمان.

(٣) صحيح: البخاري (٨) في الإيمان، مسلم (١٦) في الإيمان.

. . . لبيك لا شريك لك لبيك.

وفي الدعاء عند التوبة: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

و«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت.......» سيد الاستغفار.

وفي كل الأذكار والأدعية التوحيد أولاً ثم الاستغفار والتوبة وسؤال.

وعند الموت: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، فالتوحيد مقصود الأعمال إذن!!

(٤) والانحراف عن التوحيد هو السبب الأول في فساد الأمم عمومًا وفي فساد الإنسان خاصة:

لأنه في عالم الشرائع لا تقوم الشريعة إلا على العقيدة، فلو خلت تلك الشريعة من العقيدة، فسدت ولم بقيت شريعة صحيحة، يتضح ذلك حينما غير عمرو بن لحي الخزاعي عقيدة العرب، إلى الوثنية بعد الحنيفية، فتغيرت أمة العرب، لأنها فقدت عقيدة التوحيد التي قامت عليها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخُزاعيِّ: **«رأيتُ عمرو بنَ لُحَيٍّ الخُزاعيّ، يجرُّ قُصْبَهُ في النار، فما رأيت رجلاً أشبهَ برجلٍ منكَ بهِ ولا بكَ منه»**. فقال أكثم: عسى أن يضرَّني شَبَهُهُ يا رسول الله؟!

قال: **«لا؛ إنَّكَ مؤمنٌ، وهو كافرٌ، إنَّه أوَّلُ من غيَّرَ دينَ إسماعيلَ؛ فنصبَ الأوثانَ، وبحرَ البحيرةَ، وسيَّبَ السائبةَ، ووصلَ الوصيلةَ، وحمى الحامي»**(١).

فبعد إفساد عمرو بن لُحي لعقيدة الشريعة التي جاء بها إبراهيم، وتبعه على ذلك

---

(١) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ١٢١- ابن هشام)، وابن جرير (٧/ ٥٦)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (٨٣) بسند حسن عن محمد بن إبراهيم عن أبي صالح السمَّان عن أبي هريرة، وهناك طريق أخرى عن أبي هريرة بسند حسن أيضًا عند ابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦٠٥)، وانظر «البداية والنهاية» (٢/ ١٨٧- ١٩٣) لابن كثير، و(قُصْبه): أمعاؤه، و(البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي): قرابين متنوعة تُقدَّم إلى آلهة الطواغيت والكفار الباطلة؛ فلا يستفاد منها، ولا من لحمها بسبب اعتقاداتهم الشركية المنكرة.

إسماعيل؛ صارت ديانة وثنية، والعربُ عُـباد أوثان، ولو بقوا مُصرين على الانتماء - جملة - إلى إبراهيم ودينه وشريعته، ولو بقوا يتمسكون - عمومًا - ببقايا مما جاء به؛ كتعظيم البيت، والطواف به، والقيام بالحج والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وهدي البدن، وغيرها من أنواع التقرب إلى الله.

وكذلك كانت رسالة موسى وعيسى رسالة توحـيد وشريعة سماوية، فلمّا فقدتا عنصر التـوحيد بقول اليـهود: ﴿**عزير ابن الله**﴾ ! وبقول النصارى: ﴿**المسيح ابن الله**﴾! صارتا ديانتين كافرتين، لا يجوز نسبتهما إلى الله، ولا إلى هذين النبيين الكريمين.

قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ (التوبة: ٢٩، ٣٠).

عن أبي سعيـد الخُدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة، أذّن مؤذن: تتبع كل أمة ما كانت تعبد؛ فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عُزير ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا ربنا، فاسقنا، فيشار: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون.**

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فكذلك مثل الأول، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، نحن ننتظر ربنا الذي نعبد، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: لا نشرك بربنا شيئًا، مرتين»[١].

---

(١) صحيح: البخاري (٤٥٨١) في التفسير، مسلم (٣٠٢).

والشاهد من الآيتين والحديث، أن اليهود والنصارى أفسدوا رسالتي موسى وعيسى - رسالتي التوحيد والإيمان - بعبادتهم لعُزير وعيسى وقولهم فيهما ما قالوا؛ فصاروا بذلك مشركين كافرين، وتحولت تانكم الرسالتان - بتصرفهم الخبيث وتحريفهم الدنيء - إلى ديانتين وثنيتين كاذبتين لا يجوز نسبتهما إلى الله، ولا إلى ذينك الرسولين الكريمين، ولو بقي منهما الكثير الكثير من شرائع موسى وعيسى.

لقد اتضح للقارئ أن عقيدة التوحيد بالنسبة لجميع شرائع الأنبياء - بمن فيهم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام - كالأساس للبناء؛ فلا قيام ولا حياة للجسد إلا بالروح.

كما أن ارتكاب المنهيات، وترك المأمورات دليل عدم رسوخ الأصول الإيمانية التي دعا إليها الرسول ﷺ، وحث على التمسك بها؛ حيث قد نفى - صلوات الله وسلامه عليه - الإيمان عن مرتكبي بعض المخالفات الدينية حال فعلها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ - قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»**(١).

ففي هذا الحديث - وغيره مما جاء مماثلاً له - تأكيد تبعية الجوارح لإيمان القلب.

إن الذين يدعون إلى تصحيح عقائد الناس، وإصلاح عبادتهم، وإقامة حكم الله في القلوب إذاً هم من يسيرون حقيقة على درب النبي ﷺ الذي ربى أصحابه على العقيدة، والعبادة، والإخلاص، والأخلاق، لا على العواطف والأحداث، فأوجد الله تعالى جيلاً عجزت البشرية عن تكراره وتربية أمثاله.

(٥) أن التوحيد هو سبيل تحقيق العبودية لله عز وجل:

فقد قال تعالى: **﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** (الزمر: ١ - ٣).

وقوله تعالى: **﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا**

(١) صحيح: البخاري (٥٥٧٨)، مسلم (٥٧) في الإيمان.

ﵟيُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍﵞ (فاطر: ١٣، ١٤).

وقوله تعالى: ﵟوَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَﵞ (المؤمنون: ١١٧).

فالعبودية تتأتى بالتوحيد لا بسواه، ومعنى التوحيد الإخلاص لله تعالى وعبادته، والكفر بما يُعبد من دونه، فلا يعرف قلبه إلا الله تعالى حبًّا، ورجاءً، وخوفًا، وطمعًا، وتوكلاً، واستعانة، وخضوعًا، وإنابة، وطلبًا(١).

فلا إله إلا الله تقتضي: أن لا إله غير الله، وأن الله هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبةً له وإجلالاً، ومحبة، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه وتوحيده(٢).

(٦) أن التوحيد يبعث الإطمئنان في قلوب أصحابه:

وقد قالوا: «من كان بالله أعرف، كان لله أخوف، وكان لله أعبد»؛ لأنه سيعلم أن الخلق لله، والأمر له، فلن يضره شيء، وسط المعامع، وفي خضم الفتن، وفي ادلهام حُلَك الليالي، وحين اجتماع الهموم، واشتداد الكروب، وحين تعظم الأهوال، وحين تكفهر الأجواء، وتنقطع الأسباب، هنا ينماز الموحدون عن غيرهم، كما ينمازون في الآخرة عن بقية الأمم، فتراهم لا يطلبون العون إلا من الله، ولا يطلبون المدد إلا من الله، فسرعان ما تزول الشدائد، وتنمحي الأهوال، وتذوب الكربات كما يذوب الرصاص في النار، وتذهب إلى حيث لا عودة.

ألا ترى الرسل حين قال لهم الذين كفروا: ﵟلَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاﵞ (إبراهيم: ١٣). قالوا: ﵟوَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَﵞ (إبراهيم: ١٢).

ويا للروعة حينما يقول تعالى: ﵟالَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍﵞ (آل عمران: ١٧٣، ١٧٤). لقد انحسر غبار

---

(١)، (٢) «تحقيق كلمة الإخلاص» (صـ ١٣، ١٤) لابن رجب.

الزمان عن حقيقة واحدة: أن عقيدة التوحيد هي طوق النجاة!!

لما كان يوم مؤتة وتكاثر عدد الروم حتى وصل إلى مائتي ألف، وكان عدد رجال العقيدة ثلاثة آلاف أراد بعضهم الانسحاب فهتف عبد الله بن رواحة: «إنما نقاتلهم بهذا الدين، لا نقاتلهم بعدد ولا عدة، فامضوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن إما ظفر وإما شهادة»، ولما طُعن القواد الثلاثة: زيد، وجعفر، وابن رواحة، وأخذ الراية سيف الله خالد الذي لم يكن قد مضى على إسلامه آنذاك إلا القليل قال له أحدهم: إلى أين اللجوء يا خالد؟ ألى جبل سلمى؟ أم إلى أجا؟ قال: لا إلى سلمى، ولا إلى أجا بل إلى الله الملتجا.

وقد كان خالد منذ أيام يطوف حول صنم، فلما ذاق طعم التوحيد وخالطت بشاشة الإيمان قلبه نطق بالحكمة والحق: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ (آل عمران: ١٥١).

لقد نفت هذه الكلمات عن قلب خالد ظلمة الكفر، وأثبتت نور التوحيد، فلم يعد في قلبه متسع لغير الله.

ولعلي أقول صارخًا: ماذا فعل بنا التعلق بغير الله، وبيده مقاليد السموات والأرض؟! لقد ارتبطنا بكل شيء ونسينا مَنْ بيده كل شيء؟

وراح المسلمون يعطون آذانهم لإذاعات كاذبة خاطئة تريد بث روح اليأس والقنوط في قلوبهم، وإشعارهم بأن الغرب على كل شيء قدير، وشعارهم كذبًا وزورًا وبهتانًا: «جاءنا للتو في نبأ عاجل»!! فأين الأمن؟

إن الأمن عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢).

أي لم يخلطوا إيمانهم بتعلق بغير الله، أو بشرك أيًا كانت صورته.

لو كانت الدنيا كلها علينا ومعنا الله فالنصر لنا.

ولو كان معنا ملء الأرض جندًا وعدة دون الله ونحن نواجه جيشًا من النمل لهزمنا!!

(٧) أن التوحيد سبب لمغفرة الذنوب، والشرك سبب لدخول النار

فقد سبقت الأحاديث الدالة على ذلك، ومعها نذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

وقوله: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء: ١١٦).

إن عقيدة التوحيد إذًا هي الداعمة لمسيرة الإيمان، العاصمة من الأهواء التي لا تستند إلى حق، ولا تستمد من عِلْم، تقي من سعار الشهوات التي يلهث وراءها الخلق بغير دليل ولا ضابط، فالله تعالى الذي خلق الخلق وهو سبحانه الذي أنزل الحق وعرّفه للناس، وهو أعلم بهم يطب لهم من أمراضهم، ويُقوِّم لهم من عوجهم، فإذا النفوس انحرفت عن الفطرة، وحادت عن الطريق المستقيم فلن يردها إلى صوابها، ولن يعيد إليها صفاءها، إلا عقيدة التوحيد، وعلى هذا فمن ظفر بالتوحيد ربح الدنيا والآخرة، سعيد مشكور، وتجارته لن تبور، وذنبه مغفور، ولا أدلّ على ذلك من حديث البطاقة!!

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله سيُخلِّص رجلاً من أُمَّتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كُلُّ سجل مثل مد البصر، ثُمَّ يقول: أتنكر من هذا شيئًا، أَظَلَمكَ كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عُذرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنَّه لا ظُلم عليك اليوم، فتخرُجُ بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أَحْضِرْ وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فقال: إنَّكَ لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات، وثقُلت البطاقة فلا يثقُل مع اسم الله شيء»**[١].

(١) صحيح: صححه الألباني (١٧٧٦) في «صحيح الجامع».

*** من أدلة التوحيد:**

واتباعًا لمنهج القرآن في بناء العقيدة على العلم والبرهان ساق القرآن بعض الأدلة التي تثبت هذه العقيدة وتؤيدها ومنها:

١- أن ما في الكون من سنن ثابتة، وقوانين مطردة، ونظام محكم يدل على وحدة الخالق لهذا الكون؛ لأنه لو اشترك في الخلق أكثر من إله لفسد الوجود؛ لأن من شأن الإله أن يكون نافذ الأمر مطلق الإرادة، كامل القدرة. فإذا كان كل واحد منهم متصفًا بهذه الصفات فلابد أن تظهر آثارها في الوجود، وعندئذٍ يقع التنازع والاختلاف الذي يؤدي إلى الفساد، ويتفق هذا مع ما استقر في فطرة البشر من أن تعدد الرئاسة يؤدي إلى تضارب الآراء واختلاف الأهواء، فإذا كان هذا من صفات البشر الذين يتصور انقياد بعضهم لبعض، فكيف يكون الأمر بالنسبة للألوهية التي تقتضي الكبرياء والعلو والهيمنة والقيُّوميَّة؟

وهكذا يؤدي التعدد إلى الفساد، ولما كان الكون بريئًا من الاختلاف منزَّهًا عن الفساد فإن ذلك دليل على وحدة خالقه وصانعه، وهو الله تعالى. وفي ذلك يقول القرآن:

- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا (أي السموات والأرض) آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤٢، ٤٣).

٢- أوضح القرآن الكريم أن الإيمان بإله واحد هو الذي يستقيم مع الفطرة الإنسانية؛ لأن مثل هذا الاعتقاد يؤدي إلى استقامة الشعور، ووحدة الاتجاه، ووحدة الولاء؛ لأن صاحب هذه العقيدة يرجع الأمر كله لله: خلقًا ورزقًا، وإحياء وإماتة، وتصريفًا وتدبيرًا، وإعطاء ومنعًا، ورفعًا وخفضًا، فإذا آمن الإنسان بهذا إيمانًا راسخًا ثابتًا في القلب والضمير، فإنه لن يتوجه - عندئذٍ - بقلبه ومشاعره وعبادته إلا لهذا

الإله وحده، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، لا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، ولا يطلب حوائجه إلا منه، تقر عينه بعبادته، ويهفو قلبه إلى قربه ومحبته، يصبر على بلائه، ويرضى بقضائه، يشكو إليه ضره، ويرجو منه خيره وبره، وهو - في هذا كله - موصول القلب بربه، ليس بينه وبين مولاه حجاب، ولا وسائط ولا أسباب لأن معبوده قريب مجيب، حاضر لا يغيب، لا تنفد خزائنه، ولا تنقطع مواهبه، فهو يتقلب في خيره وعطائه، فيزداد لله شكرًا وطاعة وقربًا، فإذا كان المؤمن، على هذه الحال، استقامت نفسه، واطمأن قلبه، وتوحدت مشاعره، وتحدّدت قبلته: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦).

أما إذا آمن بأكثر من إله، فإنه لن يهدأ له بال، ولن يستقر له قرار، ولن يحس قلبه طمأنينة ولا سكينة، لأن لكل واحد منهم واجبات ومطالب واجبة الأداء، وعندئذٍ يحس بالحيرة والعجز، لأنه لن يستطيع الوفاء بهذه المطالب جميعًا، فإذا أدى حق واحد منهم قَصَّر في حقوق الآخرين، وإذا أرضى واحدًا أسخط الآخرين، وعليه - عندئذٍ - أن ينتظر السخط والعقوبة ممن وقع في حقه التقصير.

ويمكن استخلاص هذه المعاني من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ (الزمر: ٢٩).

والآية تقارن بين رجلين:

أحدهما: مملوك لعدد من الشركاء المتشاكسين، الذين تختلف مصالحهم وأهواؤهم.

وثانيهما: مملوك لسيد واحد، فهل يتساوى هذان الرجلان؟ والإجابة البديهية: أنهما لا يستويان، لأن الأول منهما يكون موزَّع النفس والخاطر بين هؤلاء الشركاء مُقسّم الوقت والجهد والعمل بينهم، على عكس الثاني الذي يتجه بقلبه ومشاعره ووقته وجهده إلى سيد واحد فقط.

والإيمان بالتوحيد يؤدي - إذًا - إلى التوافق النفسي الذي لا تشعر النفس معه بانقسام أو انفصام، أما الوقوع في براثن الشرك والتعدد فإنه يؤدي إلى مشاعر مُرهقة من الخوف والقلق والحيرة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

- ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ١٣).

- ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ (الأنعام: ٧١).

* التوحيد والفطرة:

وهكذا يكون الإيمان بالتوحيد مستقيمًا مع دواعي الفطرة، التي غرسها الله تعالى في الإنسان عند خلقه له، ويتفق هذا مع الاعتقاد الديني في أن الله تعالى خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، وأخذ عليه العهد بطاعته وعبادته، وليس غريبًا أن يُلقِّن آدم ذريته عقيدة التوحيد، ثم يتفق هذا - كذلك - مع الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأنه لا تبديل لها، ويدل على ذلك الحديث القدسي الذي يقول الله تعالى فيه: «.... **وإني خلقت عبادي حُنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سُلطانًا**»(١).

وينحاز إلى هذا الرأي كثير من أصحاب الدراسات الإنسانية والاجتماعية الذين لاحظوا وجود عقيدة التوحيد لدى بعض القبائل البدائية المنعزلة عن الحضارة، وهي قبائل متفرقة في مواطن كثيرة من الأرض كإستراليا وأمريكا، وقد انتهت هذه الدراسات إلى أن الروح الإنسانية إذا كانت قادرة على أن تعرف الله فإنه يجب أن تكون قادرة على إدراك أنه لا يوجد إلا إله واحد، وهذا يؤكد أن الدين البدائي الذي اعتنقه الإنسان القديم كان توحيديًّا وليس تعدُّديًّا، ويستند هؤلاء إلى معطيات التاريخ التي تثبت أن كل صور الدين كانت توحيدية، أُسِّست على عبادة إله واحد، متميز عن الكون، وقد كانت هذه العقيدة وحيًا من الله تعالى إلى الإنسان الأول، ثم جاء الوحي المتتابع ليؤكدها ويقويها، فيما عرفناه من الرسالات الإلهية لدى اليهود ومن جاءوا بعدهم من الرسل ولا ينكر هؤلاء أن البشرية قد وقعت في الشرك والتعدد في فترات كثيرة من تاريخها، ولكنهم يلاحظون أنه على الرغم من هذا

(١) صحيح: رواه مسلم وسبق تخريجه.

التعدد، كانت الشعوب تعتقد في الوقت نفسه بوجود إله أعلى أو أعظم، مما يدل على أصالة عقيدة التوحيد، في النفس البشرية.

ولعل مما يؤكد هذا أن الإنسان إذا نزل به ضر أو وقع له مكروه لا يجد أمامه ملجأ ولا ملاذًا إلا الله الواحد الأحد.

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٦٧).

- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (يونس: ٢٢).

وإنما تتجه النفس إلى الإله الحق وحده دون سواه، لاعتقادها أنه هو - وحده - الذي يستطيع أن يكشف عنها ضرها، ويصرف عنها ما نزل بها من مكروه أو بلاء، لأن بيده مقاليد كل شيء، أما من سواه فإنه ليس له من الأمر شيءٌ.

وقد اضطر فرعون - الذي ادعى الألوهية، وقال للناس: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨) إلى الإقرار بهذا عند الغرق، حيث قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠).

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٣).

*** من فضائل كلمة التوحيد:**

يقول سفيان بن عيينة رحمه الله: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أفضل من أن عرفه (لا إله إلا الله)، وإن (لا إله إلا الله) لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، ولأجلها أُمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه حلال، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل، وبها كلّم الله موسى كفاحًا[١]. حين قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (طه: ١٤)».

---

(١) كفاحًا: مواجهةً. انظر «تحقيق كلمة الإخلاص» (صـ ٣٧، ٣٨).

وللإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله رسالة لطيفة سمّاها: «تحقيق كلمة الإخلاص» عدّ فيها فضائل لكلمة التوحيد، وهي كالتالي:

(١) فهي كلمة الوحي التي نزل بها على الأنبياء والرسل.

فقال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء: ٢٥).

وقال: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾** (النحل: ٢).

وهذه الآية أول ما عدّد الله من النعم في سورة النحل التي تسمى آية النعم.

(٢) وهي ثمن الجنة.

وقد سبق أنه: **«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»**.

(٣) وهي كلمة كريمة على الله تعالى.

فقد جاء عن عياض الأنصاري أنه ﷺ قال: **«إن لا إله إلا الله كلمة حق على كريم، ولها من الله مكان، وهي كلمة جمعت وشركت، من قالها صادقًا أدخله الله الجنة، ومن قالها كاذبًا أحرزت ماله، وحقنت دمه، ولقي الله فيحاسبه»**[١].

(٤) وقد سبق أنها نجاة من النار.

(٥) وهي توجب المغفرة وتمحو الذنوب والخطايا.

وقد رُؤي أحد السلف في منامٍ بعد الموت فسُئل عن حاله فقال: ما أبقت لا إله إلا الله شيئًا.

قلت: وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب موقن، إلا غفر الله لها»**[٢].

(٦) قلت: وهي أفضل الذكر.

فقد جاء في حديث جابر بن عبد الله عنه ﷺ أنه قال: **«أفضل الذكر: لا إله إلا**

---

(١) حسن: الهيثمي (١/ ٢٦) وعزاه للبزار في مسنده.

(٢) صحيح: صححه الألباني (٢٢٧٨) في «الصحيحة».

الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»[١].

(٧) وهي أفضل ما قاله النبي ﷺ والنبيون من قبله.

فقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «.... وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[٢].

(٨) وهي الأثقل بين كلمات الله تعالى.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «إن نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لولده: ...... وآمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات والأرضين السبع كُنَّ حلقة مبهمة إلا قصمتهن - كسرتهن - لا إله إلا الله»[٣].

(٩) وهي كلمة التقوى.

فقد قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح: ٢٦).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسيرها: هي لا إله إلا الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى[٤].

فهي كلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، وهي براءة من الشرك.

(١٠) وأنها أعلى شعب الإيمان.

كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «الإيمان بضعٌ وستون - أو بضع وسبعون شعبة - فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[٥].

---

(١) حسن: الألباني (١٤٩٧) في «الصحيحة».

(٢) حسن: حسنه الألباني (٣٠١٥) في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: صححه الألباني (١٣٤) في «الصحيحة».

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٣).

(٥) صحيح: البخاري (٩) في الإيمان، مسلم (٣٥) في الإيمان.

(١١) وقد سبق أنها سبب لعصمة الدم.

(١٢) وأنها أول أركان الإسلام.

وسوف يأتي في الذكر أنها سبب لزيادة الثواب، وعتق الرقاب، ومضاعفة الحسنات ومحو السيئات.

*** من معاني: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يُحيي ويُميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير.**

إن كل كلمة من هذه الكلمات تزف بشرى سارة، وتبث أملاً دافئًا، وفي كل بشرى شفاء وبلسم، وفي كل شفاء لذة معنوية، وانشراح روحي، وعلو، وسمو، وارتشاف من رحيق عقيدة التوحيد.

الكلمة الأولى: «لا إله إلا الله»

هذه الكلمة تتقطر بشرى عظيمة وأملاً بهيجًا كالآتي:

إن روح الإنسان المتلهفة إلى حاجات غير محدودة، والمستهدفة من قبل أعداء لا يُعدّون ... هذه الروح المبتلاة بين حاجات لا تنتهي وأعداء لا يحصرون، تجد في هذه الكلمة العظيمة منبعًا ثرًّا من الاستمداد، بما يفتح لها أبواب خزائن رحمة واسعة ترد منها ما يطمئن جميع الحاجات وتضمن جميع المطالب .. وتجد فيها كذلك مرتكزًا شديدًا ومستندًا رضيًّا يدفع عنها جميع الشرور، ويصرف عنها جميع الأضرار. وذلك بما تُري الإنسان من قوة مولاه الحق، وترشده إلى مالكه القدير، وتدله على خالقه ومعبوده. وبهذه الرؤية السديدة والتعرف على الله الواحد الأحد، تنقذ - هذه الكلمة - قلب الإنسان من ظلام الوحشة والأوهام، وتنجي روحه من آلام الحزن والكمد، بل تضمن له فرحًا أبديًّا، وسرورًا دائمًا.

الكلمة الثانية: «وحده».

هذه الكلمة تشرق أملاً وتزف بشرى سارة كالآتي:

إن روح البشر، وقلبه المرهقين بل الغارقين إلى حد الاختناق تحت ضغوط ارتباطات شديدة وأواصر متينة مع أغلب أنواع الكائنات، يجدان في هذه الكلمة ملجأ أمينًا، ينقذهما من تلك المهالك والدوامات. أي أن كلمة «وحده» تقول معنى:

إن الله واحد أحد، فلا تتعب نفسك - أيها الإنسان - بمراجعة الأغيار. ولا تتذلل لهم، فترزح تحت منتهم وأذاهم .. ولا تحنى رأسك أمامهم وتتملق لهم .. ولا ترهق نفسك فتلهث وراءهم .. ولا تخف منهم وترتعد إزاءهم .. لأن سلطان الكون واحد، وعنده مفاتيح كل شيء، بيده مقود كل شيء، تنحل عقد كل شيء بأمره، وتنفرج كل شدة بإذنه .. فإن وجدته فقد ملكت كل شيء، وفزت بما تطلبه، ونجوت من أثقال المن والأذى ومن أسر الخوف والوهم.

الكلمة الثالثة: «لا شريك له».

أي: كما لا ندّ له ولا ضد له في ألوهيته لأن الله واحد، فإن ربوبيته وإجراءاته وإيجاده الأشياء منزهة كذلك من الشرك. بخلاف سلاطين الأرض، إذ يحدث أن يكون السلطان واحدًا متفردًا في سلطنته إلا أنه ليس متفردًا في إجراءاته، حيث إن موظفيه وخدمه يعدّون شركاء له في تسيير الأمور وتنفيذ الإجراءات، ويمكنهم أن يحولوا دون مثول الجميع أمامه، ويطلبوا منهم مراجعتهم أولاً! ولكن الحق سبحانه وتعالى وهو سلطان الأزل والأبد، واحد لا شريك له في سلطنته، فليس له حاجة قط في إجراءات ربوبيته أيضًا إلى شركاء ومعينين للتنفيذ، إذ لا يؤثر شيء في شيء إلا بأمره وحوله وقوته، فيمكن للجميع أن يراجعوه دون وسيط، لعدم وجود شريك أو معين، ولا يقال عندئذٍ للمراجع: لا يجوز لك الدخول في الحضرة الإلهية.

وهكذا تحمل هذه الكلمة في طياتها أملاً باسمًا وبشارة بهيجة، فتقول:

إن الإنسان الذي استنارت روحه بنور الإيمان، ليستطيع عرض حاجاته كلها بلا حاجز ولا مانع بين يدي ذلك الجميل ذي الجلال، ذلك القدير ذي الكمال، ويطلب ما يحقق رغباته، أينما كان هذا الإنسان وحيثما حلّ.

فيعرض حاجاته ومطاليبه كلها أمام ذلك الرحيم الذي يملك خزائن الرحمة الواسعة، مستندًا إلى قوته المطلقة، فيمتلئ عندئذٍ فرحًا كاملاً وسرورًا غامرًا.

الكلمة الرابعة: «له الملك».

أي أن الملك كله له، دون استثناء .. وأنت .. أيضًا ملكه، كما أنك عبده ومملوكه، وأنت عامل في ملكه ..

فهذه الكلمة تفوح أملاً وتقطر بشرى شافية، وتقول:

أيها الإنسان! لا تحسب أنك مالك نفسك .. كلا .. لأنك لا تقدر على أن تدير أمور نفسك .. وذلك حمل ثقيل، وعبء كبير، ولا يمكنك أن تحافظ عليها، فتنجيها من البلايا والرزايا، وتوفر لها لوازم حياتك .. فلا تجرّع نفسك إذن الآلام سُدى، فتلقي بها في أحضان القلق والاضطراب دون جدوى، فالملك ليس لك، وإنما لغيرك، وذلك المالك قادر، وهو رحيم، فاستند إلى قدرته، ولا تتهم رحمته .. دع ما كدر، خذ ما صفا .. انبذ الصعاب والأوصاب وتنفس الصعداء، وحز على الهناء والسعادة.

وتقول أيضًا:

إن هذا الوجود الذي تهواه معنىً، وتتعلق به، وتتألم لشقائه واضطرابه، وتحس بعجزك عن إصلاحه .. هذا الوجود كله مُلك لقادر رحيم. فسلّم الملك لمولاه، وتخلّ عنه فهو يتولاه، واسعد بمسراته وهنائه، دون أن تكدرك معاناته ومقاساته، فالمولى حكيم ورحيم، يتصرف في ملكه كيف يشاء وفق حكمته ورحمته، وإذا ما أخذك الروع والدهشة، فأطل من النوافذ ولا تقتحمها، وقل كما قال الشاعر إبراهيم حقي:

لنرَ المولى ماذا يفعلُ ✿ فما يفعل هو الأجمل

الكلمة الخامسة: «له الحمد».

أي أن الحمد والثناء والمدح والمنة خاص به وحده، ولائق به وحده، لأن النعم والآلاء كلها منه وحده، وتفيض من خزائنه الواسعة، والخزائن دائمة لا تنضب.

وهكذا تمنح هذه الكلمة بشرى لطيفة، وتقول:

أيها الإنسان! لا تقاسي الألم بزوال النعمة، لأن خزائن الرحمة لا تنفد، ولا تصرخ من زوال اللذة؛ لأن تلك النعمة ليست إلا ثمرة رحمة واسعة لا نهاية لها. فالثمار تتعاقب ما دامت الشجرة باقية.

واعلم أيها الإنسان أنك تستطيع أن تجعل لذة النعمة أطيب وأعظم منها بمائة ضعف، وذلك برؤيتك التفاتة الرحمة إليك، وتكرمها عليك، وذلك بالشكر

والحمد. إذ كما أن ملكًا عظيمًا وسلطانًا ذا شأن إذا أرسل إليك هدية - ولتكن تفاحة مثلاً - فإن هذه الهدية تنطوي على لذة تفوق لذة التفاح المادية بأضعاف الأضعاف، تلك هي لذة الالتفات الملكي والتوجه السلطاني المكلل بالتخصيص والإحسان، كذلك كلمة «له الحمد» تفتح أمامك بابًا واسعًا تتدفق منه لذة معنوية خالصة هي ألذ من تلك النعم نفسها بألف ضعف وضعف، وذلك بالحمد والشكر، أي: بالشعور بالإنعام عن طريق النعمة، أي: بمعرفة المنعم بالتفكر في الإنعام نفسه، أي: بالتفكر والتبصر في التفات رحمته سبحانه وتوجهه إليك وشفقته عليك، ودوام إنعامه عليك.

الكلمة السادسة: «يُحيي».

أي: هو الذي يهب الحياة، وهو الذي يديمها بالرزق، وهو المتكفل بكل ضروراتها وحاجاتها، وهو الذي يهيئ لوازمها ومقوماتها. فالغايات السامية للحياة تعود إليه، والنتائج المهمة لها تتوجه إليه، وتسع وتسعون بالمائة من ثمراتها ونتائجها تقصده وترجع إليه.

وهكذا فهذه الكلمة تنادي هذا الإنسان الفاني العاجز، وتزجي له البشارة، نافخة فيه روح الأمل، وتقول:

أيها الإنسان! لا ترهق نفسك بحمل أعباء الحياة الثقيلة على كاهلك الضعيف، ولا تذهب نفسك حسرات على فناء الحياة وانتهائها. ولا تظهر الندم والتذمر من مجيئك إلى الحياة كلما ترى زوال نعيمها وتفاهة ثمراتها..

واعلم أن حياتك التي تعمر وجودك إنما تعود إلى «الحي القيوم» فهو المتكفل بكل حاجاتها ولوازمها. فهذه الحياة تعود إليه وحده، بغاياتها الوفيرة، ونتائجها الكثيرة. وما أنت إلا عامل بسيط في سفينة الحياة. فقم بواجبك أحسن قيام، ثم اقبض أجرتك وتمتع بها، وتذكر دائمًا: مدى عظم هذه الحياة التي تمخر عباب الوجود، ومدى جلالة فوائدها، وثمراتها، ومدى كرم صاحبها وسعة رحمة مولاها.. تأمل ذلك واسبح في فضاء السرور، واستبشر به خيرًا، وأدّ شكر ما عليك تجاه مولاك.. واعلم بأنك إن استقمت في أعمالك تسجل في صحيفتها أولاً نتائج سفينة الحياة هذه، فتوهب لك حياة باقية، وتحيا حياة أبدية.

الكلمة السابعة: «ويميت».

أي: أنه هو الذي يهب الموت، أي: هو الذي يسرّحك من وظيفة الحياة، ويبدل مكانك في الدنيا الفانية، وينقذك من عبء الخدمة، ويحررك من مسئولية الوظيفة. أي: يأخذك من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

وهكذا فهذه الكلمة تصرخ في أذن الإنس والجن الفانين وتقول:

بشراكم.. الموت ليس إعدامًا، ولا عبثًا، ولا سدى ولا انقراضًا، ولا انطفاءً، ولا فراقًا أبديًا.. كلا فالموت ليس عدمًا، ولا مصادفة، ولا انعدامًا ذاتيًا بلا فاعل.. بل هو تسريح من لدن فعال حكيم رحيم، وتبديل مكان، وتغيير مقام، وسوق نحو السعادة الخالدة.. حيث الوطن الأصلي.. أي هو باب وصال لعالم البرزخ.. عالم يجمع تسعًا وتسعين بالمائة من الأحباب.

فحي على جنات عدن فإنها ✿ منازلنا الأولى وفيها المخيم

الكلمة الثامنة: «وهو حي لا يموت».

أي: إن الكمال والحسن والإحسان الظاهر في الموجودات وسيلة للمحبة.. يتجلى بما لا يمكن وصفه وبما لا يحده حدود وفوق الدرجات العلى من مالك الجمال والكمال والإحسان، فومضةٌ من تجليات جماله سبحانه تعادل جميع محبوبات الدنيا بأسرها.. هذا الإله المحبوب المعبود له حياة أبدية دائمة منزهة عن كل شوائب الزوال وظلال الفناء، مبرأة عن كل عوارض النقص والقصور.

إذن هذه الكلمة تعلن للملأ جميعًا من الجن والإنس وأرباب المشاعر والفطنة وأهل العشق والمحبة وتقول:

إليكم البشرى.. إليكم نسمة أمل وخير، إن لكم محبوبًا أزليًا باقيًا، يداوي الجروح المتمخضة من لوعة الفراق الأبدي لمحبوباتكم الدنيوية ويمسها ببلسمه الشافي بمرهم رحمته. فما دام هو موجودًا، وما دام هو باقيًا فكل شيء يهون.. فلا تقلقوا ولا تبتئسوا. فإن الحسن والإحسان والكمال الذي جعلكم مشغوفين بأحبائكم ليس إلا لمحة من ظل ضعيف انشق عن ظلال الحجب والأستار الكثيرة جدًا لتجلٍّ واحد من تجليات جمال ذلك المحبوب الباقي، فلا يعذبنكم زوال أولئك وفراقهم، لأنهم

جميعًا ليسوا إلا نوعًا من مرايا عاكسة، وتبديل المرايا وتغييرها يجدد ويجمّل انعكاسات تجلي الجمال، وشعشعته الباهرة، فما دام هو موجودًا، فكل شيء موجود إذن.

الكلمة التاسعة: «بيده الخير».

أي: أن الخير كله بيده، وأعمالكم الخيرة كلها تسجل في سجله، وما تقدموه من صالحات الأعمال جميعها تدرج عنده.

فهذه الكلمة تنادي الجن والإنس، وتزف لهم البشرى، وتهب لهم الأمل والشوق فتقول:

أيها المساكين! لا تقولوا عندما تغادرون الدنيا إلى المقبرة: «أواه.. وا أسفاه.. واحسرتاه، لقد ذهبت أموالنا هباءً، وضاع سعينا هدرًا، فدخلنا ضيق القبر بعد فسحة الدنيا!.. لا.. لا تصرخوا يائسين، لأن كل ما لديكم محفوظ عنده سبحانه، وكل ما قدمتموه من عمل وجهد قد سجل ودوّن عنده، فلا شيء يضيع ولا جهد ينسى، لأن ذا الجلال الذي بيده الخير كله سيثيبكم على أعمالكم، وسيدعوكم للمثول أمامه بعد أن يضعكم في التراب.. مثواكم المؤقت.

فما أسعدكم أنتم إذن، وقد أتممتم خدماتكم، وأنهيتم وظائفكم، وبرئت ساحتكم.. وانتهت أيام المعاناة والأعباء الثقيلة. فأنتم ماضون الآن لقبض الأجور واستلام الأرباح.

أجل! إن القادر الجليل الذي حافظ على البذور والنوى - التي هي صحف أعمال الربيع الماضي ودفاتر خدماته وحجرات وظائفه - ونشرها في هذا الربيع الزاهي وفي أبهى حلة، وفي غاية التألق، وفي أكثر بركة وغزارة، وفي أروع صورة.. إن هذا القدير الجليل لا ريب يحافظ أيضًا على نتائج حياتكم ومصائر أعمالكم، وسيجازيكم بها أحسن الجزاء وأجزل الثواب.

الكلمة العاشرة: «وهو كل شيء قدير».

أي: أنه واحد أحد. قادر على كل شيء، لا يشق عليه شيء، ولا يؤوده شيء، ولا يصعب عليه أمر، فخلق ربيع كامل - مثلاً - سهل ويسير عليه كخلق زهرة

واحدة. وخلق الجنة عنده كخلق ذلك الربيع وبالسهولة واليسر الكاملين.

فالمخلوقات غير المحدودة التي يوجدها ويجددها كل يوم، كل سنة، كل عصر، لتشهد كلها بألسنة غير محدودة على قدرته غير المحدودة.

فهذه الكلمة أيضًا تمنح أملاً وبشرى وتقول:

أيها الإنسان! إن أعمالك التي أديتها، وعبوديتك التي قمت بها، لا تذهب هباءً منثوراً، فهناك دار جزاء خالدة، ومقام سعادة هانئة قد هيئ لك، فأمامك جنة خالدة متلهفة لقدومك، مشتاقة إليك. فثق بوعد خالقك ذي الجلال الذي تخر له ساجدًا عابدًا، وآمن به واطمئن إليه، فإنه محال أن يخلف وعدًا قطعه على نفسه، إذ لا تشوب قدرته شائبة أو نقص، ولا يداخل أعماله عجز أو ضعف، فكما خلق لك حديقتك الصغيرة ويحييها، فهو قادر على أن يخلق لك الجنة الواسعة، بل قد خلقها فعلاً، ووعدك بها؛ ولأنه وعد فسيفي بوعده حتمًا ويأخذك إلى تلك الجنة.

وما دمنا نرى أنه يحشر وينشر في كل عام على وجه البسيطة أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع النباتات وأمم الحيوانات وبانتظام كامل وميزان دقيق، وفي سرعة فائقة وسهولة تامة.. فلابد أن هذا القادر الجليل، قادر أيضًا على أن يضع وعده موضع التنفيذ.

وما دام القادر المطلق يوجد في كل سنة آلاف النماذج للحشر والجنة وبمختلف الأنماط والأشكال.. وما دام أنه يبشّر بالجنة الموعودة، ويعد بالسعادة الأبدية في جميع أوامره السماوية.. وما دامت جميع إجراءاته وشئونه حقًّا وحقيقة وصدقًا وصائبة.. وما دامت جميع آثاره تشهد على أن الكمالات قاطبة إنما هي دلالات على أنه منزّه عن كل نقص أو قصور.. وما دام نقض العهد وخلاف الوعد والكذب والمماطلة هو من أقبح الصفات، فضلاً عن أنه نقص وقصور.. فلابد أن ذلك القدير ذا الجلال، وذلك الحكيم ذا الكمال، وذلك الرحيم ذا الجمال سينفذ وعده حتمًا مقضيًّا، وسيفتح أبواب السعادة الأبدية، وسيدخلكم - أيها المؤمنون - الجنة.. موطن أبيكم آدم عليه السلام.

الكلمة الحادية عشر: «وإليه المصير».

أي أن الذين يرسلون إلى دار الدنيا.. دار الامتحان والاختبار للتجارة وإنجاز الوظائف، سيرجعون مرة أخرى إلى مرسلهم الخالق ذي الجلال، بعد أن أدّوا وظائفهم وأتموا تجارتهم وأنهوا خدماتهم وسيلاقون مولاهم الكريم الذي أرسلهم.. أي: إنهم سيتشرفون بالمثول بين يدي ربهم الرحيم، في مقعد صدق عند مليكهم المقتدر، ليس بينهم وبينه حجاب. وقد خلصوا من مخاض الأسباب وظلام الحجب والوسائط وسيجد كل واحد منهم ويعرف معرفة خالصة كاملة خالقه وربه وسيده ومليكه.

فهذه الكلمة تشع أملاً وتتألق بشرى يفوق كل تلك الآمال والبشارات اللذيذة، وتقول:

أيها الإنسان! هل تعلم إلى أين أنت سائر؟ وإلى أين أنت تساق؟

فقد ذكر في ختام الكلمة الثانية والثلاثين:

أن قضاء ألف سنة من حياة الدنيا وفي سعادة مرهفة، لا يساوي ساعة واحدة من حياة الجنة! وأن قضاء حياة ألف سنة وسنة بسرور كامل في نعيم الجنة لا يساوي ساعة من فرحة رؤية جمال الجميل سبحانه. فأنت إذًا أيها الإنسان راجع إلى ميدان رحمته، صائر إلى أعتاب ديوان حضرته. فما الحسن والجمال الذي تراه في أحبتك في الدنيا - فتشتاق إليهم وتفتن بهم، بل ما الحسن والجمال في جميع موجودات الدنيا إلا نوع ظلٍّ من تجلي جماله سبحانه، وحُسن أسمائه جلّ وعلا. فالجنة بلطائفها ولذائذها وحورها وقصورها ما هي إلاّ تجلٍّ من تجليات رحمته سبحانه، وجميع أنواع الشوق والمحبة والانجذاب والجواذب ما هي إلا لمعة من محبة ذلك المعبود الباقي وذلك المحبوب القيوم! فأنتم ذاهبون إذًا إلى دائرة حظوته ومقام حضرته الجليلة.. وأنتم مدعوون إذًا إلى دار ضيافته الأبدية.. إلى الجنة الخالدة. فلا تحزنوا ولا تبكوا عند دخولكم القبر، بل استبشروا خيرًا واستقبلوه بابتسامة وفرح.

وتتابع هذه الكلمة وظيفتها في بث نور الأمل والبشرى وتقول:

أيها الإنسان! لا تتوهم أنك ماضٍ إلى الفناء، والعدم، والعبث، والظلمات، والنسيان، والتفسخ، والتحطم، والانهشام، والغرق في الكثرة والانعدام. بل أنت ذاهب إلى البقاء لا إلى الفناء، وأنت مسوق إلى الوجود الدائم لا إلى العدم، وأنت ماضٍ إلى عالم النور لا إلى الظلمات وأنت سائر نحو مولاك ومالكك الحق، وأنت عائد إلى مقر سلطان الكون.. سلطان الوجود.. سترتاح وتنشرح في ميدان التوحيد دون الغرق في الكثرة أبدًا، فأنت متوجه إلى اللقاء والوصال دون البعاد والفراق!.

اعلم يقينًا أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو «الإيمان بالله».. واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية.. هو «معرفة الله» التي في ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة.. هي «محبة الله» النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه.. هو «اللذة الروحية» المترشحة من تلك المحبة.

أجل! إن جميع أنواع السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذة، إنما هي في «معرفة الله».. في «محبة الله». فلا سعادة، ولا مسرة، ولا نعمة حقًّا بدونها، فكل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلاً وواقعًا أو استعدادًا وقابلية.

بينما الذي لا يعرف خالقه حق المعرفة، ولا يُكنُّ له ما يليق من حب وود، يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين، ويظل يعاني من الآلام والأوهام ما لا يحصر.

نعم! إن هذا الإنسان البائس الذي يتلوى ألمًا من فقده مولاه وحاميه، ويضطرب من تفاهة حياته وعدم جدواها، وهو عاجز وضعيف بين جموع البشرية المنكودة.. ماذا يغنيه عما يعانيه ولو كان سلطان الدنيا كلها!! فما أشد بؤس هذا الإنسان المضطرب في دوامة حياة فانية زائلة وبين جموع سائبة من البشر إن لم يجد مولاه الحق، ولم يعرف مالكه وربه حق المعرفة! ولكن لو وجد ربه وعرف مولاه ومالكه لالتجأ إلى كنف رحمته الواسعة واستند إلى جلال قدرته المطلقة، ولتحولت له الدنيا الموحشة روضة مؤنسة وسوق تجارة مربحة.

[٢] الإيمان بالله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزالُ النَّاسُ يَتساءلون حتّى يُقال: هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فمن خَلَقَ اللهَ؟ فمن وَجَد مِنْ ذلك شيئًا فَليقُل: آمنتُ بالله»[١].

✿ ✿ ✿

- الإيمان بالله تعالى أصل العقيدة ومحورها، وأساس لغيره من عقائد الدين كالإيمان باليوم الآخر والكتب الإلهية والنبوة ونحوها، وهو أصل للالتزام بما جاء في الدين من العبادات والأخلاق والأحكام.

فمن الضروري أن تنال هذه العقيدة الأساسية حظها من العناية والاهتمام، بعيدًا عن الشك والأوهام والظنون؛ لتكون قائمة على الفهم والاقتناع واليقين: **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾** (الأنفال: ٤٢).

- إن الإيمان بالله تعالى إنما نظر الإسلام إليه على أنه أمر مستقر في الفطرة الإنسانية كما قال تعالى: **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾** (الروم: ٣٠) وفي حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ: **«يقول الله عز وجلّ: خلقت عبادي حنفاء (مسلمين) فاجتالتهم الشياطين»**[٢].

ومن حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه أو يسلمانه»**[٣].

- كما أن الإسلام ينظر إلى أن الإيمان بالله تعالى أثر من آثار الميثاق الأول الذي أخذه الله تعالى على آدم وذريته كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤/ ٢١٢) في الإيمان- باب(٦٠).

(٢) صحيح: مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها.

(٣) صحيح: البخاري (١٣٥٨) في الجنائز، مسلم (٢٦٥٨) في القدر.

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).

وكما قالوا: فلست تجد واحدًا أحدًا إلا وهو مقرٌّ بأن له صانعًا ومدبرًا، وإن سمّاه بغير اسمه، أو عبد شيئًا من دونه ليقربه منه عن نفسه، أو وصفه بغير صفته ... فكل مولود يولد في العالم على ذلك العهد والإقرار، وهي الحنيفية التي وقعت في أول الخلق وجرت في فِطر العقول.

ولا يصح إذًا أن يكون الإيمان بالله تعالى موضع شكٍّ، بل هو أمر ضروري ما دامت فطرة الإنسان سليمة، وهذا هو الذي عبّر الأنبياء عنه حين كذبهم قومهم فقالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

ولكن قد تتعرض النفس البشرية لعوامل تصرفها عن الاستجابة للفطرة، والاعتراف بوجود الله تعالى إما غفلة منها، أو جهلاً، أو جحودًا، وعنادًا، وهنا تحتاج إلى المعالجة وإلى ما يعيدها إلى الإيمان الموافق لطبيعتها فتخرج من الحيرة التي تعذبها وتؤرقها ولتصحو من غفلتها، ولتخرج من جهالتها، وهنا تتدخل السماء لتنقذ هذا البشر المسكين من حيرته، وجهله، وغفلته، فإذا بالله تعالى يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٥).

فالحاجة إلىٰ النبي حاجة ملحة لا تُسد إلا ببعثته ولو كان على الأرض ملائكة من نور لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فما بال البشر وهم من طينٍ وروح؟!

ثم جاءت الأدلة القرآنية تتحدث في مضمار واحد للدلالة على وجود الله عز وجلّ، وهي أدلة تعتني بإظهار الخلق كدليل على وجود الخالق، فهو سبحانه الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله عز وجلَّ، فإنكم لن تُدرِكوه إلاَّ بالتصديق»**[(١)].

---

(١) حسن بمجموع طرقه وشواهده: كذلك قال الألباني (١٧٨٨) في «الصحيحة» و(٢٩٧٥، ٢٩٧٦) في «صحيح الجامع».

وفي رواية ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «**تفكّروا في خَلق الله، ولا تفكّروا في الله**»(١).

فقال تعالى:

- ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾ (الأنعام: ٩٥).

- ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (يونس: ٣).

- ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (غافر: ٦١ - ٦٤).

وهي آيات تدعو إلى النظر والتأمل في أحوال الوجود، وتدفع إلى التساؤل والبحث والنظر؛ لأن ذلك كله في النهاية سيقود النفس البشرية إلى الإيمان بالله تعالى إن لم تجحد، وتعاند بل لابد من الإذعان للحق.

- ولا يكتفي القرآن بذكر هذه التنبيهات بل يواجه صراحة نزعة التمرد والكفر التي قد تنساق إليها بعض النفوس: جحودًا، وكبرًا، وعلوًا. فقد قضت إرادة الله تعالى أنه: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٣).

*** الأدلة الشرعية والمادية على وجود الله تعالى:**

وكمنهجنا تمسكنا منذ البداية بالدليل الشرعي من الوحي أي: القرآن أو صحيح السنة المطهرة.

إذ الدليل الشرعي فيه الغنى عن غيره، فإن الفلاسفة والمتكلمين جعلوا في أدلتهم نوعًا من الصعوبة حتى صارت حكرًا عليهم أو على طائفة منهم. أما الأدلة الشرعية

---

(١) كسابقه تمامًا.

فإنها تخاطب الجميع دون اختصاص «وقد شهد شاهد من أهلها»، فهذا هو الكندي الفيلسوف الأول عند المسلمين قارن بين المعرفة البشرية المعتادة، وعلم الأنبياء عليهم السلام، وقد أوضح أن الأولى تحتاج إلى تكلف ومعاناة في طلبها، وأنها تتطلب زمانًا طويلاً، وجهدًا جهيدًا في تحصيلها، وليس هذا هو شأن علوم الأنبياء التي ينالونها بفضل من الله تعالى، دون جهد ولا طلب ولا زمان، ثم وصف علمهم بالإيجاز والبيان والإحاطة بالمطلوب على نحو لا يتحقق للمعرفة البشرية.

وقد استدل لفكرته هذه بما تضمنته الآيات الأخيرة من سورة «يس» من أدلة على البعث والإيمان بالآخرة، وبعد أن شرح هذه الأدلة واستخلص دلالاتها وخصائصها قال: «فأي بشر يَقْدرُ بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقَدْرِ حُروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسول الله ﷺ فيها؟ ... كَلَّت عن مثل ذلك الألسن المنطقية... وقَصُرَتْ عن مثله نهايات البشر، وحُجِبَتْ عنه العقول الجزئية».

ونستطيع إجمال هذه الأدلة في الآتي:

(١) دليل الخلق:

وهذا دليل لا يقبل المنازعة حيث أن البشر يعلمون تمام العلم أنهم قد خلقوا لأن الواقع نفسه يُري الإنسان كيف يولد له الابن من نطفة حتى يمر بمراحل الخلق فيولد بعد ذلك إنسانًا تام الخلقة، ولا يستطيع أحد من البشر ادعاء الأبدية لأن الجميع يرى نهاية البشر كما يرى بداياته، ونفس الأمر ينطبق على بقية المخلوقات في هذا الكون، ولذلك فظاهرة الخلق تتسم بالوضوح، والبداهة، فركز القرآن عليها فقال سبحانه:

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ١، ٢). ثم لم يكن غريبًا أن تتكرر الإشارة إلى ظاهرة الخلق في آيات كثيرة من القرآن الكريم، لا يقتصر الحديث فيها على خلق الإنسان، بل يتناول أنواعًا كثيرة من الخلائق سواه. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٧).

- ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾

(الطارق: ٥ - ٧).

- ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١).

- ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ (الأعلى: ١- ٥).

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر: ٢٧).

- ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (الصافات: ١٥٠).

- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣).

- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٩).

- ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

إذن فالخلق قد استوفى الله تعالى فيه كل شيء كما جاء في القرآن: الخلق المرئي، وغير المرئي.

وإذا كانت ظاهرة الخلق على هذا النحو من الظهور والعموم فإن من شأنها أن تدفع العقل إلى التساؤل عن سبب وجودها، خاصة وأن فكرة السببية من الأفكار المودعة في الفطرة الإنسانية، وهي تعني أن كل فعل له فاعل، وكل مخلوق له خالق، ومما يدل على وضوح هذه الفكرة وبداهتها أن الطفل الصغير قادر على إدراكها منذ سنوات عمره الأولى، حتى إنَّ الصبي إذا رأى ضربة حصلت على رأسه قال: من ضربني؟ . . . وبكى حتى يعلم من ضربه، وإذا قيل له: ما ضربك أحد، أو هذه الضربة حصلت بنفسها، من غير أن يفعلها أحد، لم يقبل عقله ذلك وحتى أن الإنسان يلجأ إلى التفسير السببي ولو جُهِلَ الفاعل.

فعندما تقع جريمة لا يعرف فاعلها «تقيد الجريمة ضد مجهول» فهو ليس بمعدوم على كل حالٍ.

وبمقتضى هذا القانون الفطري يربط العقل بين المخلوقات وخالقها وبين الموجودات ومُوجِدِها فإذا غفل العقل عن هذا الربط جاءت إليه أدلة القرآن لتذكِّره بهذه الصلة، ولتبينَ له أن المخلوقات لا تخلق نفسها، بل إنها محتاجة - في وجودها إلى خالق أعلى، له من صفات العظمة والكمال ما يجعله قادرًا على أن يمنحها هذا الوجود.

ولعل من أظهر الأدلة التي ساقها القرآن في هذا المقام ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟
- أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟
- أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٥ - ٣٧). كاد قلبي أن يطير(١).

إن هذه الآية وحدها سأل فيها الله تعالى ثلاثة أسئلة:

الأول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟ والإجابة أن الخلق من غير خالق غير ممكن، لأن كل مخلوق يحتاج إلى خالق.

والثاني: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ والإجابة البديهية: لا لأن الإنسان ينشأ وليدًا صغيرًا عاجزًا عن تلبية حاجياته بنفسه حتى أبسطها وهي الطعام والشراب، ويولد غير مختارٍ لأبويه، ولا يحدد ميقاتًا لولادته ولا لموته، ولو هاجمه مرض أو وحش فما استطاع لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا دفع عن نفسه هذا كله، إذًا فالخالق سبحانه لابد أن يتصف بهذه القدرات، وقد اتصف فهو سبحانه الخالق بلا منازعة.

وقد فشل النمرود في جداله لإبراهيم عليه السلام حين ادعى الإحياء والإماتة فعفا عن سجين حكم عليه بالإعدام وأمر بقتل الآخر فكان الإفحام من الخليل إذ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير- تفسير سورة الطور.

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أما السؤال الثالث الذي يتعلق بالكون: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؟ ولا يستطيع مُدّعٍ - مهما كانت جُرْأتُهُ - أن يدعي أنه خلق السموات والأرض، لأنهما أسبق من الإنسان وجودًا، والمتأخر لا يخلق المتقدم، لأن السبب سابق على المسبَّب: وجودًا أو رتبة، ثم لأنهما أكبر من الإنسان خلقًا، ولذلك يحتاجان إلى علم وقدرة لا يستطيع أحد أن يزعم امتلاكهما، وعلى الرغم من تقدم العلم وتطور أجهزته واكتشافاته، فإن جزءًا كبيرًا من أسرار هذا الكون لم يُكتشف بعد، أي أنه ما يزال مجهولاً للإنسان، ولذلك لا يجرؤ أحد من البشر على أن يتطاول فيدعي أن له صلة بخلق السموات والأرض، والنتيجة التي يمكن استخلاصها من هذه الأسئلة هي أن الخلق فعل من أفعال الله تعالى، ولا يصح نسبته إلى أحد سواه.

ولذلك فإن القرآن قد ذكر النتيجة في موضع آخر فقال سبحانه: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (لقمان: ١١).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ (فاطر: ٤٠).

وفي النهاية: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ومن روائع القرآن في إثبات عجز ما سوى الله تعالى عن الخلق يقول سبحانه في لهجة ممزوجة بالتحدي عن هذه الآلهة المدعاة أنها لا تستطيع ولن تستطيع خلقًا لأي شيء من العدم مهما كان صغيرًا أو ضئيلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

وإذا عجز هؤلاء عن خلق الذباب - مع ضآلة شأنه إذا قورن بغيره من الأنواع والفصائل- ثم إذا عجزوا عن أن يستردوا من الذباب ما يأخذه منهم - فإنهم يكونون عن خلق غيره أكثر عجزًا. وهكذا ينتهي التأمل في ظاهرة الخلق إلى الإيمان بوجود خالق عليم حكيم. وهو دليل على بساطته إلا أنه ملائم لكافة المستويات العقلية.

وواجب على كل مسلم الإقرار بخلق الله تعالى، ومدافعة الخطرات والوساوس والهواجس التي يبثها الشيطان في السؤال الشيطاني: **«هذا خلق الله فمن خلق الله؟»** فيستعيذ بالله **«وليقل: آمنت بالله»** كما هو نص حديث الباب، فاللجوء إلى الله في هذا الأمر أفضل بدلاً من الاسترسال مع خواطر الشك والحيرة، ليعيده - بإبعاد الشيطان - إلى سلامة العقل، وطمأنينة اليقين ونقاء الفطرة ولابد أن نعلم أمرين هنا:

الأول: أن الله تعالى خالق كل شيء، ولا يمكن هنا استخدام قانون السببية لأنه تعالى: **«الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء»**.

الثاني: أن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

فللمخلوق صفاته القاصرة المتناهية، وصفات الخالق سبحانه لا حدود لها ولا نطاق فهو مستغن عن عباده، وعباده إليه فقراء، وهو سبحانه الذي له الكمال في كل شيء.

(٢) دليل القصد والتدبير:

- عني القرآن الكريم - في كثير من آياته - بتوجيه نظر الإنسان وفكره إلى ما في وجود الكون والإنسان من دلائل القدرة والقصد، ومواطن الاعتبار، فهذا الكون الفسيح الأرجاء، المترامي الأطراف، الزاخر بأنواع شتى من الخلائق والكائنات يخضع لنظام دقيق، لا يحتمل الخلل، وسُنن ثابتة لا تسمح بالصدفة، فكل شيء فيه بمقدار، وهو يسعى إلى غايات محددة، طبقًا لنظام مرسوم، وهذا يدل على إتقان الصنع وكمال التدبير، ودقة التقدير، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:

- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣، ٤).

- ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

- ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥).

- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٣٨ - ٤٠). إلى آيات كثيرة أخرى.

ويزداد الشعور بما في الوجود من دقة وإتقان، كلما ازداد الإنسان علمًا بالكون خاصة وأن الكون يبلغ من الضخامة مبلغًا يُذْهل العقل، ويكفي أن نشير إلى أن وحدة القياس فيه هي سرعة الضوء التي تبلغ ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة وتتباعد فيه بعض الأجرام الفلكية حتى لتقاس المسافات بينها بالسنوات الضوئية، بل بالملايين من هذه السنوات[(١)].

إن هذه النجوم والأفلاك والكواكب تقع كلٌّ منها في مدار خاص به لا يشاركه فيه غيره، ولكلٍّ منها سرعته وكتلته وحركته المنضبطة التي لا تختلف ولا تتغير ولو جزءًا من أجزاء الثانية الواحدة، وبذلك يتحول الكون إلى محراب من محاريب العبادة التي يكتشف فيها العلماء ما يهدي الإنسان إلى الله تعالى.

والنظر في قاع البحار، كالنظر في جو السماء، فلقد قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ١٩ - ٢٢). فاللؤلؤ حيوان ولعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار، فهو يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها، وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رملٍ، أو قطعة حصى، أو حيوان ضارٌّ عنوة إلى الصَدَفة، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة. وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة[(٢)]، وأما المرجان فهو

---

(١) السنة الضوئية: هي حاصل ضرب سرعة الضوء في (٦٠) في الثانية، ثم يضرب الحاصل في (٦٠)، وهو عدد الدقائق، ثم في (٢٤) وهو اليوم، ثم في عدد أيام السنة، وهو عدد ضخم نعجز عن قراءته وتصوره!!

(٢) الله والعلم الحديث صـ ١٠٥ نقلاً عن الظلال (٦/ ٣٤٥٣).

من عجائب مخلوقات الله، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخرٍ أو عشب، وفتحة فمه التي في أعلى جسمه محاطة بعددٍ من الزوائد يستعملها في غذائه، فإذا لمست فريسة هذه الزوائد، وكثيرًا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء، أصيبت بالشلل في الحال، والتصقت بها، فتنكمش الزوائد وتنحني نحو الفم حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان ومن عجائب ودلائل قدرة الخالق أن هذا الحيوان - المرجان - يتكاثر بطريقة أخرى هي «التزرر»، فتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترًا، والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة، نراها في البحار صفراء برتقالية، أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء زمردية، أو غبراء باهتة[١].

وقد كان الإمام الشافعي رائعًا حينما طلب منه جمع من الدهرية برهانًا على وجود الله تعالى، فاستخدم ورقة التوت كدليل فقال: تأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير، وتأكلها النحلة فيكون منها العسل، وتأكلها الظباء فتنتج المسك، وتأكلها الشاة فيكون منها البعر!![٢].

وقد استخرج الشافعي هذا من القرآن فقد قال تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

وعلى هذا النحو نفسه يأتي قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨).

إن النباتات والفواكه تتعرض كلها لظروف واحدة: تربة واحدة، مناخ واحد، ماء

---

(١) السابق (صـ ١٠٦، ١٠٧) والمصدر نفسه.

(٢) ابن كثير (١/ ٧٧).

واحدٌ، وهواء واحـد، ورغم ذلك كله فإنها تأتي مـختلفة في ألوانهـا، وأشكالها، وطعومـها، وهذا يعني أن الأمـر لا يخضع لتفسير آلـي أصم، ولو كان ذلك حقًّا لتشابهت في كل شيء، ولكنهـا اختلفت فيما بينهـا فدلّ ذلك على أن للكون مدبرًا سبحـانه خلق كل شيء مختلفًا عن الآخـر: الجبال، الدواب، الثمـرات، البشر مما يدعو إلى التأمل والتدبر.

إن الإنسان نفسـه أمر عجيب: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠). فهذه الأعضـاء التي يتكون منها جسد الإنسـان، من الخلية الحيـة إلى المخ، وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة حتى أن المادة المخية وحدها تحتوي على أكثر من اثني عشر ألف مليون من الخلايا، تتصل إحداها بالأخرى عن طريق ليف عصبي، ولكل ليف عـدة فروع، وتتـصل الخـلايا ببعـضـها عـدة آلاف من مـلايين المرات بواسطة هذه الألياف، ثم تعود الخلايا تعمل كأنها خلية واحدة.

ويكشف العلم عن مظاهر التفـرّد التي يتصف بها كل فرد علـى حِدَة، بحيث لا يتفق شخصان اتفاقًـا كاملاً في صفاتهما وخصائصهـما، ولا ينحصر هذا التفرد في الجوانب النفسيـة لبني الإنسان، بل إنه يمتد ليشمل الجوانـب المحسوسة لهم، ويمكن أن نسوق في هذا الصدد ما لاحظه العلماء من اختـلاف بصمات الأصابع، وشحمة الأذن، وذبذبات الصوت، وحدقة العين، وتكوين الجلد، وخلايا الأنسجة، وجميع أجزاء الجسم المركبة، وتركيبهـا الكيماوي. وينطبق هذا الاختلاف حتى على التوائم المولودة من بويضـة واحدة، وهذا كله لا يقع صُدفـة، وإنما هو- عند المؤمنين - أثر من آثار العلم الإلهي الذي لا يعزُب عنه شيء، وهو راجع إلى سعـة القدرة الإلهية التي لا يُعجزها شيء.

ثم تتـجلى هذه الآثار واضحـة - كذلك - في عـملية التكاثر والتـوالد التي تتم دائمًا بين ذكـر وأنثى، وتخضع لقـانون مطرد لا يتخلف، على الرغم من اخـتلاف الأجناس والأنواع والفصائل، فـي الإنسان والحيوان والنبات، وقـد أشار القرآن إلى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩). وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦) ويذكر علماء التكاثر أن الجنس البشري كـله - بأعداده الهائلة - يعود في نشأته

إلى كائنات دقيقة جدًا، يمكن أن تُجمع في قُمع من أقماع الخياطة (كستبان)، وأن هذا الحيز الصغير يتسع لكل ما في النفوس من الأحاسيس والحوافز والأسرار، ولكل ما في العقول من الأفكار والفلسفات والمبتكرات ولكل ما في الضمائر من العقائد والأخلاق والأشواق، ولكل ما في الأجسام من الوظائف.. ولكل ما بين هؤلاء وأولئك من الأواصر والعلاقات.

(٣) دليل العناية:

ليست علاقة الله تعالى بالكون والإنسان مقصورة على الخلق، وما تضمَّنه من إتقان وتقدير، بل إن هذه العلاقة تمتد لتشمل عناية الله تعالى بالوجود كله، وهي علاقة حفظ ورحمة، وإمداد له بأسباب الخير وعوامل الصلاح، وهي عناية عامة دائمة لا يتصوَّر وجود الكون دُونها لحظة واحدة من الزمان: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾** (فاطر: ٤١).

أ- ومن مظاهر هذه العناية أن الكون ملائم لحياة الإنسان، على نحو يدل على القصد وتتجلى فيه العناية، ولكن الإنسان قد يغفل عن هذا المعنى؛ لأن حياته المنتظمة، وعلاقته المستقرة بالبيئة تصرفه عن كثير من التأمل لها، والنظر فيها، كما تحول أُلْفَتُهُ لها واعتياده عليها دون تخيل «الاحتمالات» التي كان يمكن أن تكون عليها، ويؤدي هذا التعوُّد إلى الكسل العقلي الذي يُفقده الشعور بالدهشة إزاء الوجود من حوله، ولهذا تضمن القرآن كثيراً من الآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر في الوجود، للتعرف على مظاهر العناية الإلهية بالكون والإنسان، ومن هذه الآيات:

- **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (القصص: ٧١ - ٧٣).

ب- وقد تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن تسخير كثير من الكائنات والموجودات، التي أخضعها الله تعالى لقوانين ثابتة، بحيث تكون الحياة مُهيأة لمعيشة

الإنسان وحياته، ولولا ذلك لما كانت حياة الإنسان ممكنة، وفي هذا الصدد يتحدث القرآن عن تسخير الشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والأنهار، ونزول الأمطار، وصلاح الأرض للزراعة والإثمار، وما جعل الله فيها من عوامل الاستقرار بسبب الجبال الرواسي ويتحدث القرآن كذلك عن تسخير الحيوان لمنفعة الإنسان إلى غير ذلك من وجوه التسخير والقهر الإلهي، الذي تتجلّى به نعم الله الكثيرة، الظاهرة منها والباطنة، وهي نعم ينتفع بها البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ولكن أهل الإيمان يستدلون بها على وجود الله ورحمته، وعنايته وإحسانه ومن هذه الآيات التي عنيت ببيان هذا الأمر قوله تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤).

- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٣ - ١٦).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨).

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (المؤمنون: ١٧) إلى آيات كثيرة أخرى.

جـ - ويدلُّنا التأمل في حياة الإنسان أن آثار الرحمة الإلهية تحيط به من كل جانب، وأنها تتصل به منذ أن تبدأ رحلة حياته في بطن أمه، حيث ييسر الله له عوامل الحياة والنمو والاكتمال والغذاء والوقاية، إلى أن يخرج إلى الوجود، مزودًا في بدنه بهذه الأجهزة التي تحفظ عليه حياته دون تدخُّل منه، وتُزَوِّده بالقدرة على

فهم الوجود، وتسخير الكائنات، واستثمار المنافع التي بثها الله تعالى من حوله، ويتفق هذا كله مع كونه مستخلفًا من الله تعالى في الأرض وسيدًا في الكون.

- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

د - وتمتد آثار الرحمة الإلهية لتشمل عالم الحيوان، وتتمثل هذه الرحمة فيما أودعه الله تعالى في فطرته من عوامل الهداية لتحقيق منافعه، والبعد عما يضره ويؤذيه، وهي هداية عامة ترجع إلى صفة من صفات الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ٢، ٣) وقد استند موسى عليه السلام إلى هذه الصفة في حديثه عن الله تعالى، فعندما سأله فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟ قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٤٩، ٥٠).

وتجلي هذه الهداية في أنواع كثيرة من الحيوان والطيور، ومما يظهر فيه ذلك عالم النحل، والنمل، وأسراب الطيور والأسماك التي تهاجر من مكان إلى مكان، ومن بيئة إلى بيئة، ولقد يظهر في سلوك بعض الحيوان ما يثير الدهشة والعجب، فالحيوان الزاجل يطير المسافات الطويلة، ويتعرف على طريقه دون مُرشد أو دليل، والثعلب إذا اشتد به الجوع استلقى على ظهره وتظاهر بالموت حتى يجد فريسة فينقض عليها، والأنثى ترفع ولدها في الهواء - عقب ولادته حينًا بعد حين، وتُحوله من مكان إلى مكان؛ لأنها تضعه كقطعة لحم فهي تخشى عليه من الهوام والنمل ونحو ذلك، والأنثى من السباع من الفيلة، إذا دنا وقت ولادتها تقترب من مواضع الماء، حتى إذا أتاها المخاض ولدت في الماء، خشية على وليدها، لأنها تلد قائمة، فلو ولدت على جسم صلب لأصيب وليدها بأذى، والعصفورة إذا سقط فرخها من عشه تستغيث، حتى يجيء ما حولها من العصافير لكي يعاونوها على حمله، والنملة إذا رأت طعامًا لا تستطيع حمله وحدها، ذهبت إلى النمل ثم عادت بهم ليتعاونوا جميعًا على حمله وهكذا وهكذا «وهذا باب واسع جدًا» كما يقول بعض العلماء.

هـ - وقد جاء العلم الحديث - بما توصل إليه من اكتشافات وملاحظات ونتائج

علمية - ليقدم لنا من الدلائل والشواهد ما يؤكد عناية الله تعالى بالكون والإنسان والأحياء بصفة عامة.

ومن ذلك أن الأرض تقع على مسافة معينة من الشمس، تُعد هي المسافة المثلى، ولذلك كانت ذات حرارة مناسبة، وضغط جوي محتمل، وجاذبية ملائمة، ولو زادت المسافة عما هي عليه لزادت البرودة وتجمدت الأشياء، ولم تَعد الأرض صالحة للحياة، ولو قلت المسافة عما هي عليه، لزادت الحرارة، واحترقت الموجودات، ولزاد الضغط الجوي إلى درجة يتعذر معها نمو الإنسان واستقامة بدنه، ثم إن الأرض تدور حول محورها، وحول الشمس، ويؤدي هذا إلى تقلّب الليل والنهار، وتغير الفصول، وتجدد الحياة، وزيادة مساحة الأرض الصالحة لسكنى الإنسان، ويحيط بالأرض غلاف جوي ذو وظائف متعددة، فهو - من جهة - يشتمل على الغازات اللازمة لحياة الأحياء، خاصة الإنسان، ثم هو - من جهة ثانية - يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلى الأرض ثم إنه يساعد - من جهة ثالثة - على حفظ حرارة الأرض في الحدود الملائمة للحياة.

ثم يوجه العلماء النظر إلى بعض الظواهر التي تحدث على نحو غير متوقع، ومن هذه الظواهر ما يتعلق بالماء من حيث التمدد والانكماش، فالقاعدة العامة أن المواد تنكمش بالبرودة، فيقل حجمها، لكن الماء لا يتبع هذه القاعدة التي تطبق على المواد جميعًا، لأنه عندما يصل إلى درجة ٤ مئوية فما دونها يزداد حجمه بدلاً من أن يقل، وتقل كثافته، محققًا بذلك مصلحة كبرى للإنسان وللأحياء، لأنه عند تجمّده مع قلة كثافته يُكون طبقة عازلة، تحفظ جزءًا من الماء تحتها دون تجمد، وبذلك تبقى الأسماك - وغيرها من الكائنات التي تحيا في الماء - حية. ولما كانت المناطق القطبية ثلجية، فإن هذا الثلج الطافي فوق الماء ينساب من القطبين إلى المحيطات، فإذا تعرض لأشعة الشمس ذاب بفعل الحرارة، ويحدث هذا كله بسبب مخالفة الماء للقاعدة العامة في الانكماش، ولو أنه كان خاضعًا لها خضوعًا مطلقًا، لتحول الماء كله عند برودته إلى ثلج، ولغاص هذا الثلج في قاع المحيطات، مؤديًا إلى تجمدها جميعًا، ولو حدث ذلك لانعدمت التيارات البحرية، ولانعدم المطر، لعدم التبخّر، ولأدى هذا في النهاية إلى أن تتعذر الحياة أو تنعدم. وهكذا تكون مخالفة القاعدة

العامة مخالفة مقصودة، وهي أثر من آثار الرحمة الإلهية والعناية بالوجود.

ومن النماذج التي تتجلى فيها هذه العناية ما حدثنا به العلماء عن تركيب الهواء، فالهواء مكون من الأكسوجين بنسبة ٢١٪ ومن النتروجين بنسبة ٧٨٪ ومن بعض الغازات الأخرى، وهذه النسبة ثابتة في البيئة الطبيعية، وهي ملائمة للحياة تمامًا.

ويقول العلماء: إن نسبة الأكسوجين لو زادت عما هي عليه لزادت نسبة وقوع الحرائق؛ لأن هذا الغاز سريع الاشتعال، ولو نقصت لما تمكن الإنسان من التنفس، ولأصيب بالاختناق، ولما أصبح الدم نقيًا بصورة كافية. ومعنى ذلك أن ثبات نسبة الأكسوجين يُعد أمرًا ضروريًا لانتظام الحياة، بسبب الحاجة الضرورية له في التنفس، وفي تحويل الغذاء إلى وقود وطاقة في الجسم، ويتم الحفاظ على ثبات هذه النسبة بتدبير قائم على الحكمة، ودال على الرعاية والعناية، حيث إننا عند التنفس نأخذ الأكسوجين من الجو في حركة الشهيق، ثم نُخرج الهواء في حركة الزفير محمّلاً بغاز ثاني أُكسيد الكربون، وهو غاز خانق، لكنه يؤدي فائدة عظمى للحياة؛ لأن النباتات تتنفسه لتأخذ منه حاجتها من الكربون الذي لا غنى لها عنه في بنائها وتكوينها، وعندما تقوم النباتات بعملية التنفس لهذا الغاز تقوم بعملية «الاختزال» تستبقي بها الكربون ثم تُخرج الأكسوجين الذي يحتاج إليه الحيوان والإنسان، وبذلك يتحقق التوازن الضروري لاستمرار الحياة ثم إن غاز النتروجين الذي يمثل العنصر الأكبر في الهواء (٧٨٪) يقوم بفوائد محققة، لأنه يعمل على تخفيف حدة اشتعال الأكسوجين، ثم إنه يساعد على إخصاب الأرض التي تحتاج إليه لنمو النبات، والأرض تحصل عليه من جذور بعض النباتات، أو عن طريق المطر المصحوب بالرعد والبرق. وقد لجأ الإنسان أخيرًا إلى استخلاص هذا العنصر من الهواء بطريقة صناعية، ليستخدمه في تخصيب الأرض التي يحيا عليها الإنسان والحيوان.

(٤) دليل النبوة

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن النبوة والأنبياء، ويمكن الاستدلال بذلك على وجود الله تعالى: بما أمدّ الله تعالى به الأنبياء من معجزات ترجع إلى

قدرة فوق مستوى طاقة البشر، فلم يكن للأنبياء قدرة على المجيء بمثلها، بل إن بعضها كان مثار دهشة الأنبياء أنفسهم، وقد كان هذا هو الذي أحس به موسى عليه السلام حين أمره الله تعالى بأن يُلقي عصاه فلما ألقاها تحولت أمام عينيه إلى حية تسعى، وليس بغريب أن يحس بالرهبة من هذا الأمر الغريب الذي لم تجر العادة به، وعندئذٍ قال الله تعالى له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (طه: ٢١).

وهكذا ترتبط المعجزات والآيات بإرادة الله تعالى وقدرته، فلم يكن في قدرة نوح عليه السلام أن ينزل الأمطار، وأن يفجر العيون، وأن يحدث هذا الطوفان، الذي هو حدث كوني تعجز عنه قدرة البشر، ثم لم يكن في قدرته أن يعيد الأرض إلى طبيعتها، وإنما يحدث ذلك بقدرة إلهية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤)، ولم يكن في طاقة إبراهيم عليه السلام أن ينقذ نفسه من النار التي قذفه فيها قومه لولا أن الله تعالى جعلها عليه بردًا وسلامًا، ولم يكن في استطاعة موسى عليه السلام أن يُحول البحر إلى طريق يبس يمر عليه هو وقومه بل إن ذلك أمر لا يستطيعه إلا من خلق هذا الماء، وحدد طبيعته وخصائصه، ومن ثَمَّ يمكن له أن يتصرف فيهما بإرادته وقدرته، ثم لم يكن في قدرة الرسول ﷺ أن يأتي من عند نفسه بهذا القرآن الذي قال الله عنه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨). وهكذا وهكذا.

ولكن كيف تكون النبوة دليلاً على وجود الله تعالى؟

(١) لأن هذه الآيات لابد أن يكون لها سبب، والسبب راجع إلى من أرسلهم وهو الله تعالى.

(٢) والسبب الثاني يعود إلى أن العذاب الذي أنزله تعالى بالمكذبين للأنبياء عليهم السلام هو عذابٌ قدري كوني، تعجز عنه القدرة البشرية، وثَمَّ فلا تفسير له إلا أن يكون بأمر الخالق وهو الله سبحانه وتعالى، ومن أمثلة هذا العذاب:

غرق من كفر بنوح في الطوفان، وتوجيه أنواع من العذاب إلى فرعون وقومه حين قالوا لموسى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٢، ١٣٣). وقد أحس هؤلاء أن رب موسى هو الذي فعل بهم ذلك، ولذلك طلبوا إليه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب.

ومما يؤكد هذه الدلالة أن الأنبياء كانوا ينذرون أقوامهم بالهلاك إذا لم يستجيبوا لأمر الله تعالى، وكان إنذارهم يأتي أحيانًا محددًا بمدة معينة، قد تكون ثلاثة أيام، كما هو شأن صالح عليه السلام مع قومه حين عقروا الناقة التي جعلها الله له آية: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٥). ثم نزل بهم العذاب على النحو الذي أنذرهم به، وقد يكون الإنذار لمدة أقل من ذلك، مثلما كان الشأن مع قوم لوط حينما أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

ثم تحقق فيهم وعيد الله تعالى، على حسب ما أخبر به والعذاب - على هذا النحو - يدخل في باب المعجزات والآيات الدالة على صدق الأنبياء عليهم السلام فيما أخبروا به عن الله تعالى، يمكن اعتباره دليلاً على وجود الله، الذي اصطفاهم للرسالة، وأمدهم بأدلة صدقها.

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٣٢ - ٣٦).

❁ ❁ ❁

[٣] الإيمان بالقضاء والقدر

عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤمن عَبدٌ حتى يُؤمن بالقَدَرِ خَيره وشَره، حتى يَعْلَمَ أنَّ ما أصابهُ لم يَكُن لِيُخْطِئَهُ، وما أَخْطَأهُ لم يَكُن لِيُصيبَهُ**»[١].

✿ ✿ ✿

لقد جعل الله تبارك وتعالى الإيمان هو سر بقاء هذه الأمة وعنصر وجودها حين حببه إلى القلوب وزينه فيها، حتى صارت عقيدة المسلمين ذلك الدرع الواقي والحامي للأمة من كل سوء، ومن كل من رماها به، فإذا هي تثبت في الشدائد، وتتغلب على الصعاب، وتهزم كل تحد يواجهها لتداوم المسير الإيماني في همة بلا فتور، وعزيمة ممضاة بلا خور.

ومن عناصر هذه العقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ذلك العنصر الذي يبعث على الطمأنينة، لأنه ظل وارف من الأمن إلى جوار الله تعالى، فلا يأس يسكننا به ولا قنوط، وإنما في منهج الرحمن أمن مخاوفنا.

إن الإيمان بالقضاء والقدر أحد الأركان الستة للعقيدة كما جاء في حديث مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - في حديث جبريل - عليه السلام. لما قال سائلاً النبي ﷺ: «**أخبرني عن الإيمان**»، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[٢]، فهو أصل من أصول عقيدة المسلمين، بل هو - أي الإيمان به - من صميم العقيدة الإسلامية.

والإيمان بالقضاء والقدر نابع وناتج عن الإيمان بتوحيد الربوبية حيث إن توحيد

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني (٧٥٨٥) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: مسلم (٨) في الإيمان.

الربوبية يعني الإيمان بقدرته سبحانه على الخلق والتقدير، فقال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وهو عز وجلّ القائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

وهو سبحانه القائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠).

فالله تعالى هو الرب: أي المدبر، والمالك، والسيد، والخالق، ويقتضي تمام الإيمان بربوبيته: الإيمان بالقضاء والقدر، لأن الكل تحت مشيئة الله تعالى وتحت تدبيره لأنه مَنْ خلق عز وجلّ.

وقد جاء في الحديث عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**خلق الله كل صانعٍ وصنعته**»[(١)].

*** خطورة التكذيب بالقضاء والقدر:**

قال الإمام الذهبي رحمه الله[(٢)]: «أجمع سبعون رجلاً من التابعين، وأئمة المسلمين والسلف وفقهاء الأمصار، على أن السُّنة التي تُوفي عليها رسول الله ﷺ أولها: الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم لأمره، والصبر تحت حُكمه، والأخذ بما أمر الله به، والنهي عما نهى الله عنه، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشره . . . ». اهـ.

وعدّ رحمه الله التكذيب بالقدر من الكبائر، وساق لذلك عدة أحاديث نذكر الصحيح منها.

(١) فالله تعالى لا يقبل منه عملاً ولا شفاعة.

حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً: عاقٌ، ومنان، ومُكذب بالقدر**»[(٣)].

---

(١) صحيح: «الصحيحة» (١٦٣٧) للألباني.

(٢) الكبائر (صـ ١٤٧، ١٤٨) للذهبي بتحقيقي.

(٣) حسن ورجاله ثقات: كذلك قال الألباني رحمه الله (١٧٨٥) في «الصحيحة».

(٢) والقدرية شرار هذه الأمة.

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«أُخِّر كلام في القدر لشِّرار هذه الأمة»**[(١)].

(٣) ولا يدخلون الجنة.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة عاقٌّ، ولا مكذب بقدرٍ، ولا مدمن خمر»**[(٢)].

(٤) وهم كالمجوس بين المسلمين والمجوس عبدة النار.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«القدرية - أي منكرو القدر - مجوس هذه الأمة، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**[(٣)].

(٥) وهم مكذبون.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا مرفوعًا: **«سيكون في أمتي قوم يكذبون بالقدر»**[(٤)].

(٦) وسيقع فيهم الخسف - وهو الزلزال - والمسخ: وهو التشويه.

وجاء رجل إلى ابن عمر - كما روى الترمذي - فقال: إن فلانًا يقرئك السلام، فقال: إنه بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يكون في هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ، أو قذفٌ في أهل القدر»**[(٥)].

(٧) ومنكر القدر ناقص الإيمان.

وعن علي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»**[(٦)].

---

(١) حسن: الألباني (١١٢٤) في «الصحيحة».

(٢) حسن: الألباني (٦٧٥) في «الصحيحة».

(٣) حسن بشواهده: الألباني (٤٣١٨) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: الألباني (١٠٦) في «المشكاة».

(٥) صحيح: الألباني (١٧٨٧) في «الصحيحة».

(٦) صحيح: الألباني (٧٥٨٤) في «صحيح الجامع».

وقال الحسن البصري رحمه الله: والله لو أن قدريًّا صام حتى يصير كالحبل، ثم صلى حتى يصير كالوتر، لكبّه الله على وجـهه في سقر، ثم قيل له: ذُقْ مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر، ولقـد قال تعالى: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١) (القمر: ٤٨، ٤٩) فيعذب أحدهم في سقر (وهي النار).

ومنكرو القدر على مرتبتين:

القـدرية: وهم من قـالوا: لا قدر والأمـر أُنف، يعني مسـتأنف، وهذه الطائـفة ظهرت مبكرًا على يد معبد الجهني. ويسمون القدرية الأوائل.

ثم ظهرت طـائفة المعتـزلة الذين نفوا القـدر تمامًا، وأثبـتوا الحرية للإنـسان لكي يحاسب عـلى عمله، وبذلك فـإنهم لم يتركوا خـطيئة من خطايـا الأمم الكافرة إلا وقالـوا بها، وأكبـرها أنهم: أجـروا على الخالق سـبحـانه وتعالى صـفات البـشر، وأوجبوا عليه ما يشاءون.

الجبـرية: وهم الذين جعلوا الإنسـان ريشة في مهب الريح، وهم أتبـاع جهم بن صفوان الذي عدّ الإنسان وسـعيه كشجرة تثمر، وماءٍ يجـري، وأرضٍ تهتز، وحجر يتحرك، وشـمسٍ تطلع وتغرب، فأفعالـه كلها جبرٌ، وتكليفـاته جبر!!(٢)، وهاتان فرقتان ضالتان جاء منهم أذىً كثير، وبدعٌ كثيرة.

نهي قاطع!!

وقد كان النبي ﷺ حاسمًا في هذه المسألة فنهى الأمة عن الحديث فيه تمامًا وشدّد على ذلك.

فـعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ خـرج عليهم وهـم يتنازعون في القـدر، فغضب حتى احمّر وجهه، حـتى كأنما فُقِئ في وجنتيه الرمان فقال: «**أبهذا أُمرتم؟ أم بهـذا أُرسلت إليكم؟ إنما هلك من قـبلكم حين تنازعـوا في هذا الأمـر، عـزمت عليكم ألا تنازعوا فيه**»(٣).

---

(١) زاد المسير (٨/ ١٠٢).

(٢) «الملل والنحل» (١/ ٨٧) للشهرستاني.

(٣) حسن: حسنه الألباني (٩٨، ٩٩) في «المشكاة»، وهو عند الترمذي.

فالنهي هنا عن السؤال التقليدي:

هل أنا مسير أم مخير؟!!

هل أنا مجبر أم حر؟!!

والواجب الابتعاد عن هذا السؤال الذي نهى النبي ﷺ عنه، وحتى لو رضينا به، فإن الكون مجموعة من الخيوط والأحداث المتشابكة التي ستجعلنا نفعل إذا انسقنا وراء الأسئلة من هذا القبيل - إلى ما وصل إليه من قبلنا حين توقفوا عند سؤال: البيضة أولاً أم الكتكوت؟!!

وإليك ما قاله الإمام السمعاني رحمه الله: «الأولى هو الإيمان بالقضاء والقدر، لأن السبيل إلى معرفة ذلك هو التوقف على الكتاب والسُّنة دون قياس أو عقل، لأن من عدل عن التوقف ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأنه - أي القدر - سر من أسرار الله تعالى التي ضُربت دونها الأستار، واختص به الله تعالى، وحجب عن العقول والخلق معانيه، وواجبنا أن نتوقف، فلا القدر يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقربٌ، وسر القدر لا ينكشف إلا بعد دخولهم الجنة». اهـ.

فمحاولة البحث والاستقصاء وراء هذه المسألة لن يعطيك إلا واحدة من ست: أن تكون من شرار الأمة، أو ناقص الإيمان، أو مجوسي عرضة للخسف والمسخ، أو كذاب أو مكذب، ولن تدخل الجنة!!

وكم كان جعفر الصادق رحمه الله بارعًا حين قال: «إن الله تعالى أراد بنا شيئًا، وأراد منا شيئًا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منّا أظهره لنا - وهو العبودية - فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منّا».

وكان من دعائه رحمه الله: «اللهم لك الحمد إن أطعتك، ولك الحجة إن عصيتك، لا صنع لي ولا لغيري في إحسان، ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة».

وما أجمل الرضا بقضاء الله تعالى وقدره، دون تشتيت للجهود، وتضييع لوقت المسلم الثمين في قضية حُسمت منذ البداية أنها لغير صالحه، والنتيجة معلومة لمن سار في هذا الطريق الشائك بمنتهى الحماقة: الضلال، أو الكفر، أو الجنون!!

* تعريف القضاء والقدر

قال الراغب الأصفهاني: «والقضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو: التقدير، والقضاء هو: الفصل والقطع».

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة (الشيء) المعد للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل.

وهذا كما قال عمر: «أفر من قضاء الله إلى قدر الله». رواه البخاري.

تنبيهًا إلى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فإذا قضي فلا مدفع، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٢١)، وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١)، وقوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (هود: ٤٤). أي: فصل؛ تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه(١).

قلت: وهذا يعني أن القدر: ما قدره الله تعالى.

والقضاء: هو القدر حين ينفذ أو القدر الذي قضى الله تعالى تنفيذه.

وقال ابن حزم: «معنى قضى وقدر: حكم ورتب، ومعنى القضاء والقدر: حكم الله تعالى في شيء بحمده، أو ذمه، أو تكوينه، أو ترتيبه على صفة كذا، وكذا إلى وقت كذا وكذا»(٢).

وقالوا: القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال.

والقدر: الحكم بالجزئيات على سبيل التفصيل.

قلت: ومما أعجبني هنا قول ابن الأثير: «القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»(٣).

فالقضاء والقدر إذا اجتمعا اختلف معناهما، وإذا تفرقا اتحد المعنى كقاعدة:

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني- ط دار الفكر- (صـ ٤٢٢).

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٣/ ٧٨).

(٣) «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٧٨).

الشيئان إذا اجتمعا تفرقا، وإذا تفرقا اجتمعا[١].

*** نوعا القضاء:**

وللقضاء نوعان هما:

١- القضاء الشرعي.

٢- والقضاء الكوني.

وهنا لابد من التفرقة بين حقيقتين: «الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلق الله تعالى ومشيئته، وبين الحقيقة الدينية الآمرية المتعلقة برضاه ومحبته»[٢].

لأننا إن لم نفرق بين هذين النوعين من القضاء والمشيئة فسوف نقع في الجبرية والتي يراد بها: نفي حكمة الرب الثابتة في خلقه وأمره، وما كتبه على نفسه من الرحمة، وما حرمه على نفسه من الظلم، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التي شهد بها النص مع العقل والحس، واتفق عليها سلف الأمة، وأئمة الدين[٣]. وهنا نوضح كل قضاء منها على حدة:

١- القضاء الشرعي:

وهو ما اقتضت الحكمة إيجاده، أو تحليله، أو تحريمه. ويسمي بـ(الأحكام الشرعية) ويدخل فيه فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور. كما قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ (لقمان: ١٧).

ومثاله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

وهو قضاء محبب إلى الله تعالى لأن الله تعالى قال عن ذاته: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

ولا يأمر سبحانه إلا بمصلحة ولا ينهى إلا عن مفسدة.

---

(١) هذا من قولنا. (أبو أنس السلفي) واستفدناه من كلام العلماء رحمهم الله.

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية (صـ ١١٧).

(٣) «جواب أهل العلم والإيمان» (صـ ١٧٨).

ولكن لا يلزم وقوع هذا القضاء، فليس كل الناس يطيع الله تعالى، وليس كل الناس يعبده سبحانه. والدليل: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣).

وأحوال الناس تتحدث بذلك، فاليهود والنصارى حرفوا كتبهم فضلوا وأضلوا، وكثير من المسلمين انحرف عن الاتباع إلى الابتداع والمعصية.

٢- القضاء الكوني القدري:

وهو ما اقتضت حكمته سبحانه إيجاده، وهو ما يلزم وقوعه.

ويكون فيما يحبه الله تعالى، وفيما لا يحبه.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (مريم: ٣٥).

وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤).

وهذا هو القضاء موضوع البحث، لأنه قضاء يترتب عليه: الإيمان والكفر، أو نقص الإيمان، أو زيادته، أو السكينة والطمأنينة أو القلق وغيرها.

*** مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:**

وهي مراتب المقصود منها أن نحقق أمرين:

الأول: إثبات تقدير الله تعالى للأمور.

والثاني: تحقيق الإيمان بالله تعالى، ومنه الإيمان بالقضاء والقدر.

والمراتب هنا أربعة:

١- العلم.

٢- الكتابة.

٣- المشيئة.

٤- الخلق والإيجاد.

ويجمعه قول الراجز:

علمٌ كتابه مولانا مشيئة ✿ وخلق هي إيجاد وتكوين

١ - العلم:

ويقصد به الإيمان بأن الله تعالى يعلم بكل شيء جملة وتفصيلاً قبل وقوعه حاضرًا ومستقبلاً، وماضيًا فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

فعلمه سبحانه بما في البر والبحر: علم عام بالكليات، وعلم تام بالجزئيات - وهو العلم التفصيلي.

وعلمه بما تسقط من ورقة علم بالماضي، والحالي، والمستقبل، وهو علم شامل كاملٌ تامٌّ إذًا حيث إن علم البشر يقتصر على ما هو كائن، أما ما كان فلا يصل إليهم كاملاً إلا بالوحي، وما يكون - وهو الغيب - ففي علم الله تعالى.

وعلمه بما يسقط من حبة في ظلمات الأرض: علم كامل تام محيط بكل شيء فهو سبحانه يسمع ويرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى جذور النبات تحت الأرض، وعروق النملة، وسريان الماء والطعام في جسدها، وهذا لا يكون إلا لله تعالى.

وعلمه سبحانه ممزوج بحكمته كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

فهو يعلم ما يحتاجه البشر، ولكنه ينزله بقدر لا يطغى به العباد ولا يفسدون، وإنما قدّر سبحانه ذلك بحكمته: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ولا يجوز في حقه سبحانه النسيان وهو القائل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

بل إنه عز وجل ليعلم الخطرة والوسوسة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (ق: ١٦).

وهناك أمور اختص سبحانه بعلمها دون اطلاع البشر عليها فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤).

وما أكثر ما في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥)، و﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، و﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، وغيرها من آيات إثبات العلم الكامل والتام لله عز وجل.

٢ - الكتابة:

ومعنى الكتابة: أنه سبحانه لما علم الأشياء بعلمه القديم كتبه في اللوح المحفوظ.

والدليل على ذلك: قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج: ٧٠).

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢).

وكان الحسن البصري إذا سمع هذه الآية قال: سبحان الله ومن يشك في هذا؟[١].

*** ولكن ما هو اللوح المحفوظ؟**

لقد راحوا يصورونه على أنه لوح من ياقوتة، أو من ذهب وزمرد وما إلى ذلك، ولا نعلم عنه شيئًا لأنه غيب، ومستند علوم الغيب دائمًا الوحي: القرآن أو صحيح السنة وقد فقدتا هنا فكل قول مردود على أصحابه.

ودليل الكتابة من السنة:

حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[٢].

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**». قال: «**وكان عرشه على الماء**»[٣].

ومن ذلك حديث ابن عباس: «**رُفِعَت الأقلام وجفت الصحف**»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١).

(٢) صحيح: صححه الألباني (٢١٦٢) في القدر من سنن الترمذي.

(٣) صحيح: مسلم (٢٦٥٣) في القدر.

(٤) صحيح: سبق تخريجه.

إذن فلا زيادة ولا نقصان، لأن رفع القلم معناه عدم الحاجة إليه، فقد انتهى تقدير الأمور عند هذا الحد.

وقد جاء في الحديث عن سويد بن عبد الله أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي: أبي سفيان، وبأخي معاوية»، فقال النبي ﷺ: **«قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يُعجل شيئًا قبل حِلّه، أو يؤخر شيئًا عن حِلّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرًا وأفضل»**(١).

وحِلّه: يعني حلوله ووقوعه وحينه.

* **فائدة:**

وَعَت امرأة فرعون هذه المسألة، فاستثمرت دعوتها ولم تضيعها بالدعاء على فرعون وقومه، فإنها قد علمت أن لعمر فرعون أجل ووقت ثم يقضي فيه، فدعت لنفسها بالنجاة من بطشه وطغيانه، والدخول إلى الجنة كما قال تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** (التحريم: ١١) وهذا من فقهها - يرحمها الله -.

ولكن اعلم: أن معنى كتابة الله تعالى للأمور ليس معناه النسيان فهو سبحانه لا يضل ولا ينسى.

وليس معناه إجبار الله تعالى وقهره على ما قدّر وقضى، وإنما الأمر هو تقدم علم الله تعالى باكتساب النفس للفعل وصدوره عنها - ولله المثل الأعلى - فهذا يشبه علم المخترع بآلته، والوالد لولده.

وقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(٢) مرفوعًا وأوله: **«إن أحدكم يجمع خلقه ...»**، ثم قال: **«ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي، أو سعيد ...»** الحديث.

---

(١) صحيح: مسلم (٢٦٦٣/ ٣٢) في القدر.

(٢) صحيح: البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق، مسلم (٢٦٤٣) في القدر.

*** أنواع الكتابة:**

(أ) كتابة كونية وقد سبقت.

(ب) وكتابة عمرية وتراها في حديث عبد الله بن مسعود يكتبها الملك.

(جـ) كتابة سنوية في ليلة القدر فقد قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤).

(٣) المشيئة:

ومعناها أنه سبحانه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ومشيئته سبحانه تشمل كل شيء: كل حركة أو سكون في الأرض أو في السماء بما فيه فعل العبد نفسه.

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام: ١١٢).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وهنا نفرق بين أمرين: فعل الله تعالى ومشيئته، وفعل العبد ومشيئته.

فأما فعل الله تعالى: فمقرون بالحكمة، لأنه عزّ وجل حكيم، فعله صواب، وقوله حق، وصنعه متقن.

ومعنى الحكمة: العلم النافع والعمل الصالح، وقد لا ترى أنت الحكمة الإلهية لقصور علمك، بينما حكمته سبحانه وتعالى عمت الأشياء وحيّرت الألباء.

وفعل العبد: في أحوال كثيرة يحكم بالغضب، وربما فعل السفه وهو المعصية.

أما مشيئة العبد: فواقعة، وإلا فلِمَ اختار آدم الأكل من الشجرة؟ ولِمَ اختار بعضهم الكفر على الإيمان واستحب الضلالة على الهدى؟

ولكن القاعدة: إذا فعلت الشيء فبمشيئة الله، وإن لم تفعله فلم يشأ الله تعالى.

فأنت تقرأ هذا الكتاب - مثلاً - لم يجبرك أحدٌ على قراءته، ولكن الله تعالى شاء لك هذا ولو لم تجده لن تقرأه لأنه سبحانه لم يشأ ذلك، وأنت بحثت عنه واشتريته بمشيئتك فلك مشيئة، ولله مشيئة ولكن مشيئته سبحانه غالبة قاهرة.

(٤) الخلق والإيجاد:

ومعناه أن الله تعالى خلق كل شيء وقدره بما فيه فعل العبد.

فقال سبحانه: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الزمر: ٦٢).

وقال: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (الصافات: ٩٦).

وقال: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (القمر: ٤٩).

وقال: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (الشمس: ٧، ٨).

وفي حديث حذيفة الذي سبق: «**خلق الله كل صانع وصنعته**».

فالفعل يضاف للإنسان كسبًا وإلى الله تعالى خلقًا: فهو مصلٍّ مطيع، أو عاصٍ. ولو شاء الله لما كان كذلك وإنما نحاسب على أمرين: القدرة والإرادة.

فالإنسان قدر على اكتساب هذا الفعل وأراده، وكله بمشيئة الله تعالى فيستحق هنا الثواب أو الجزاء ولذلك فالله تعالى قال: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان: ٣).

وقال: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ (النساء: ١٦٠).

وقال: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦).

وقد جاء حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة**»، فقال رجل: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ**﴾[١] (الليل: ٥ - ٧).

وهذا الحديث يطمئن المؤمنين، ولكن الذين في قلوبهم مرض من ناحية عقيدة القضاء والقدر فإنه يزيدهم إلى مرضهم مرض، فهو يبدأ بالجبر، ويتوسط بالعمل،

---

(١) صحيح: البخاري (١٣٦٢) في الجنائز، مسلم (٢٦٤٧) في القدر.

وينتهي بآيات قرآنية.

فما العمل؟ اعمل كما عملوا - أي السلف - والزم غرزهم، واسلك طريقهم، واتبع سبيلهم وكُفّ عما كفوا، وقل بما قالوا؛ لأن في ذلك التسليم المطلق لله تعالى وفيه ارتياح العقول؛ لأن التفكير سيبعث على الشك في الله تعالى. وقد سلّم السلف للقدر وأخذوا بالأسباب فما كان منهم إلا أن فازوا في الدنيا والآخرة.

*** السلف والقدر:**

أما إمام السلفيين ﷺ، فإنه كان يتسحر للصوم ويأمر أمته به.

ويوم هاجر خطط وأعدّ، وأخذ بالأسباب، وتوكل على الله.

ويوم أحد ظاهر بين درعين آخذًا بالأسباب، ولكن لم يمنعه هذا من الإصابة يومها.

وهكذا كانت حياته كلها أخذًا بالأسباب وتوكلاً على الله تعالى.

وأما الفاروق عمر رضي الله عنه وصحابة النبي ﷺ: فقد روى[1] عبد الله بن عباس أن عمر رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ - موضع بالشام - لقيه أمراء الجند - أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. فقال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم. وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام فاختلفوا. فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي الأنصار. فدعوتهم. فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّح على ظهر فأصبحوا عليه - قصد أنه عزم على العودة - فأصبحوا عليه فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟ فقال

(١) صحيح: البخاري (٥٧٢٩) في الطب، مسلم (٢٢١٩) في السلام.

عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كانت لك إبلٌ هبطت واديًا له عُدْوتان - والعدوة: ثنية الوادي وشاطئه-: إحداهما خصبة والأخرى جدبة. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علمًا. سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به - أي الطاعون - بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»**. قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف.

- إن جملة القول:

أن الله تعالى وضّح الطريق وبينه، وألهم الإنسان الهدى والتقى، وعرفه الإيمان والكفر وخيّره بين هذا وذاك، وجعل له مشيئة، ولله فعله، ولك فعلك، ولا ندري فوق ذلك شيئًا.

*** بِمَ يُستعان على القضاء والقدر؟**

(١) بالصبر والرضا وأجر الصابر معلوم. وقال ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره له كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**(١).

(٢) بالأخذ بالأسباب فالمريض يذهب إلى الطبيب، والطالب يذاكر لينجح.

(٣) وبالدعاء فإنه لا يرد القدر إلا الدعاء، وللدعاء مع القدر ثلاث مراتب:

إما أن يكون الدعاء أقوى من القدر فيرده.

وإما أن يكونا على قدرٍ واحدٍ من القوة فيختصمان في السماء ويتصارعان.

وإما أن يكون القدر أقوى فيدخر دعاء العبد إلى يوم القيامة.

(٤) رد الأمر إلى الله بقولك: **«قدّر الله وما شاء فعل»**(٢)، وهذا كله مندرج تحت قوله تعالى: **﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾** (الحديد: ٢٣).

*** ثمار الإيمان بالقضاء والقدر:**

(١) تمام الإيمان بربوبية الله عزّ وجلّ ووحدانيته.

---

(١) ، (٢) رواهما مسلم.

(٢) الطمأنينة وراحة القلب كما ذكر الله تعالى أنه مقدر الأمور القاضي بها، ولله در النبي ﷺ يوم علمنا العزاء: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى**».

(٣) العصمة من الغرور، والتبرؤ من الحول والقوة، لا كفعل قارون لما قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾ (القصص: ٧٨). فكان الجزاء: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**﴾ (القصص: ٨١).

(٤) الشجاعة فلا يذل المؤمن لأحدٍ ولا يدنس نفسه بالهوان لعلمه أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيءٍ لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، فلا يذل لأحدٍ، وإنما هو عزيز النفس، مستنير القلب بالإيمان بقضاء الله ولطفه فيه.

(٥) عدم التواني والكسل والخضوع للأوهام.

(٦) العصمة من الحسد والحقد، ولله در الحسد بدأ بصاحبه فقتله.

(٧) عدم القعود عمن العمل لأن من تمام الإيمان بالقضاء والقدر العمل، وبذلك فالقضاء دافع للعمل وللسعي، مذهب لليأس، منشط للهمة، وإنما قعد من قعد حين قعدت همته وخار عزمه، واتخذ غير سبيل المؤمنين، وقد ضلّ من كانت العميان تهديه.

✿ ✿ ✿

[٤] الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة - كذا كان الحريري يقول: فقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأَقْبُر**»؟ فقال رجلٌ: أنا. قال: «**فمتى مات هؤلاء**»؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «**إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قُبُورها، فلولا أن لا تَدَافَنُوا لدعوت الله أن يُسْمِعَكُم من عذاب القبر الذي أَسْمَعُ**»[١].

✿ ✿ ✿

يقول الحسن البصري: «ما رأيت حقًّا أشبه بباطل من الموت».

وهذا تصوير دقيق لموقف الناس من هذه الحياة وما بعدها، فهم مع يقينهم باستحالة الخلود على وجه الأرض، ومع إحساسهم بأن الموت يفض المجامع ويحصد الآجال، فإنهم قلَّما يعملون لمسكنهم الأخير الذي سيتوارون فيه وقلَّما يستعدون له الاستعداد اللائق في غدهم المرتقب.

إن مشهد الموت مشهد مريع: جسد ساكن، عين ولا بصر، يد ولا بطش، أُذن ولا سمع، قدم ولا مسير، دم لا يتدفق، قلب لا ينبض، ومع ذلك فالكل سرعان ما يتناسى هذه الحقائق.

وأفظع من هذا وذاك القبر كما روى عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»، ثم قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**»[٢]

(١) صحيح: مسلم (٢٨٦٧/ ٦٧) في الجنة وصفة نعيمها.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني (١٣٢) في «المشكاة».

وهو ﷺ الذي وقف على شفير القبر ينادي: **«يا إخواني لمثل هذا اليوم فأعدوا»**(١).

إن القبور دار غريبة، منازل رهيبة، غـرباء متجاورون، بين الأجداث والبِلَى، قبر يتقلب في درجات النعيم، وآخر في دركات الجحيم.

لقـد وقف عمر بـن الخطاب رضي الله عنه يبكي عند المقبـرة، حتى بلّ الـثرى، فقال عبد الرحمن بن عوف: مـا يبكيك؟ فقال عمر: ويحك يا ابن عوف!! أنسيت هذه الحفرة.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه: أبا فلان!! لقد أرقت الليلة مفكرًا. قال: فيم يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة - أو قال: ثالثه - في قبره، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتًا يجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الريح، وبلى الأكفان، بعـد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقـاء الثوب. قال: ثم شهق شهـقة خرّ مغشيًـا عليه، فقالت فاطمة: ويحك يا مـزاحم أخرج هذا الرجل عنا، فلقد نغَّص علينا أمـير المؤمنين الحـياة منذ ولي، فليـته لم يل، قـال: فخرج الـرجل، وجاءت فاطمة، فجعلت تصب على وجهه الماء وتبكي، حتى أفاق من غشيته، فرآها تبكي! فقـال: يا فاطمة مـا يبكيك؟ قالت: يا أمـير المؤمنين! رأيت مصـرعك بين أيدينا، فـذكرت مـصرعك بين يدي الله، وتخليـك من الدنيا، وفـراقك لها، فـذاك الذي أبكاني. قال: حسبك يا فاطمة! فلقد أبلغت. ثم مـال ليسقط، فضمته إلى صدرها - أو قال إلى نفسها - فقالت: بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين ما نستطيع أن نكلمك بكل ما نجد لك في قلوبنا. فلم يزل على حاله تلك حـتى حضرت الصلاة، فصبت على وجهه ماء ثم نادته: الصلاة يا أمير المؤمنين! فأفاق فزعًا(٢).

إنه إذًا هول المطلع، ولذا هتف ﷺ في الصـحابة من حوله، وفي أمتـه من بعده كما روى عنه جابر بن عبد الله فقال: **«لا تمنوا الموت فإن هول المطلع شديد»**(٣).

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه عن البراء، وحسنه الألباني (٧٨٤٤) في «صحيح الجامع».

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز (صـ ١٦٢، ١٦٣) دار الفجر للتراث.

(٣) صحيح: الهيثمي (١٠/٢٠٣) وعزاه لأحمد والبزار بإسناد حسن.

ولذلك فإن عثمان رضي الله عنه كان يتمثل بقول القائل:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ❁ وإلا فإني لا أخالك[١] ناجيا

وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله تعالى إما برضاه، وإما بسخطه، ويوم تعرض فيه على ربك آخذًا كتابك إما بيمينك، وإما بشمالك.

وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور لم تبت فيها قط. وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة[٢].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني: مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه لا يدري أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكاني: فراق الأحبة محمد وحزبه، وأحزنني هول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار»[٣].

*** يدفن العبد في الأرض التي خلق منها:**

وقد قال الله تعالى: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**﴾ (طه: ٥٥).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ما من مولود إلا وقد ذُرّ عليه من تراب حفرته**»[٤].

وفي حديث الترمذي أنه ﷺ قال: «**إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل إليها حاجة**»[٥].

وأنشدوا:

---

(١) أخالك: أظنك.

(٢) «التذكرة» (١/ ٨٤) للقرطبي.

(٣) ابن المبارك (٢٤٩) في الزهد، وهو حسن.

(٤) حسن بالشواهد: أبو نعيم (٢/ ٢٨٠) في «حلية الأولياء».

(٥) صحيح: الترمذي (٢١٤٦) في سننه.

مشيناها خُطى كُتبت علينا ✿ ومن كُتبت عليه خُطى مشاها
وأرزاق لنا متفرقات ✿ فمن لم تأته منه أتاها
ومن كُتبت منيته بأرض ✿ فليس يموت في أرض سواها

وقد كان السلف الصالح يوصي أحدهم أن يدفن بالمدينة إن وافق موته هناك لحديثه ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن مات بها»(١).

فها هو عمر رضي الله عنه يدعو فيقول: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، ووفاة في بلد نبيك»(٢).

وإن كانت البقاع لا تقدس أحدًا، وإنما بشرف العمل الصالح يضاعف العمل إن كانت البقعة مباركة.

* **موعظة:**

أرى أهل القصور إذا أميتوا ✿ بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرًا ✿ على الفقراء حتى في القبور
لعمرك لو كشفت الترب عنهم ✿ فما تدري الغني من الفقير
ولا الجلد المباشر ثوب صوف ✿ من الجلد المباشر للحرير
إذا أكل الثرى هذا وهذا ✿ فما فضل الغني على الفقير

يا هذا، أين الذي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، ولقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرًا، وبدلت من بعد غناك وعزك ذلاً وفقرًا، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره، ويا من سلب من أهله ودياره؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد، وموقفك الصعب الشديد، أو ما علمت يا مغرور أن لا بد من الارتحال إلى يوم الشدائد والأهوال، وليس ينفعك ثَمَّ قيل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان، ما بطشت اليدان، ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك

---

(١) صحيح: الترمذي (٣٩١٧).

(٢) صحيح: مالك (١٠٢١) في الموطأ.

فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران، يا غافلاً عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان، أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك، إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك، حين يضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولابد لك أن ستعلم، لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تتقلب مع الأهواء، وتخبط خبط العشواء، ويعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك، يا نائمًا في غفلة وفي غبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان، أتزعم أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غدًا، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا، وأم تميز بين الأسد والرشا، كلا والله لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (النجم: ٣٩، ٤٠).

فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمن منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار، بل أكثر من الأعمال الصالحات، وراقب الله في الخلوات رب الأرض والسموات، ولا يغرنك الأمل، فتزهد عن العمل، أو ما سمعت الرسول حيث يقول، لما جلس على القبور: «**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**» أو ما سمعت الذي خلقك فسواك يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وأنشدوا:

تزود من معاشك للمعاد ✿ وقم لله واعمل خير زاد

ولا تجمع من الدنيا كثيرًا ✿ فإن المال يجمع للنفاد

أترضى أن تكون رفيق قوم ✿ لهم زاد وأنت بغير زاد

وقال آخر:

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيًا ✿ والقوم حولك يضحكون سرورًا

فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا ✿ في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

وروي عن محمد القرشي أنه قال: سمعت شيخنا يقول: أيها الناس: إني لكم ناصح، وعليكم شفيق، فاعملوا في ظلمة الليل لظلمة القبر، وصوموا في الحر قبل يوم النشور، وحجوا يحط عنكم عظائم الأمور، وتصدقوا مخافة يوم عسير.

*** عذاب القبر حقيقة لا وهم:**

وعادة ما تتجدد فرية قديمة جديدة حين يزعم بعضهم أن عذاب القبر وهمٌ لا حقيقة له، وقد شعر السلف وعلماؤهم بهذا فقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٢٥٢) كما ذكر ذلك الإمام القرطبي في «التذكرة»:

صحت الأخبار عن النبي ﷺ في عذاب القبر على الجملة فلا مطعن فيها ولا معارض لها. قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد»: الآثار الثابتة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق ممن كان منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام ممن حقن دمه بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام والله أعلم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ويرتاب المبطلون. قال ابن عبد البر: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن هذه الأمة تبتلى في قبورها»** ومنهم من يرويه: **«تسأل»** وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك، وهذا أمر لا يقطع عليه والله أعلم.

وقال القرطبي: وقول أبي محمد عبد الحق أصوب وهو: أن عذاب القبر ليس موقوفًا على المنافقين، ولا مختصًّا بالكافرين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين وكلٌّ على حاله من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلله، وإن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر والمنافق.

والأدلة على عذاب القبر منها ما هو شرعي، ومنها ما هو عقلي.

(أ) الدليل الشرعي:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٤).

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: **«عذاب القبر»**(١).

(١) قال ابن كثير (٥/ ٢٣٩) في تفسيره: إسناد جيد.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٥، ٤٦).

فاستدل العلماء بهذه الآية على وجود عذاب القبر، لأن الله تعالى جعل عرض آل فرعون على النار بين أن حاق العذاب بهم، وبين دخولهم النار يوم القيامة. فهذه هي حياة البرزخ التي قال الله تعالى عنها: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠، ١٠١). وأصل البرزخ السد والحاجز فهو حاجز بين الدنيا والآخرة.

وقد استفاضت الأحاديث في السنة النبوية دالة على عذاب القبر:

١- عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧). قال: «**نزلت في عذاب القبر. يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي. ونبيي محمد، فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧)»(١).

٢- وأثبتت السنة سؤال الملكين في القبر - وسيأتي حديث البراء بن عازب كاملاً عما قليل.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار وقد أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة فيراهما جميعًا**».

قال قتادة: «وذكر أنه يفسح له في قبره أربعون ذراعًا».

قال مسلم: سبعون ذراعًا، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون ثم رجع إلى حديث أنس قال: «**أما المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت، ولا تليت، ويُضرب بمطارق من حديد ضربة بين أُذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين**».

---

(١) صحيح: مسلم (٢٨٧١).

قال النحويون في معنى قوله: «ولا تليت» الأصل في هذه الكلمة: الواو، أي ولا تلوت إلا أنها قلبت ياء ليتبع بها دريت، وقد جاء من حديث البراء: «**لا دريت ولا تلوت**»، على ما رواه الإمام أحمد بن حنبل، أي: لم تدر ولم تتل القرآن، فلم تنتفع بدرايتك ولا بتلاوتك.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الميت يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشغوف، ثُم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام، فيُقال: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: لا، وما ينبغي لأحد أن يرى الله؟، فيُفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يفرج له فرجة قِبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال: هذا مقعدك، ويُقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تُبعث إن شاء الله تعالى، ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مرعوبًا فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته، فيفرج له فرجة قِبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرفه الله عنك، ثم يفرج له فرجة قِبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيُقال: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله**»[1].

٣- وتحدثت السنة المطهرة عن عذاب القبر صراحة. كما في حديث ابن عباس أنه ﷺ مرّ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله**». فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدًا، وعلى هذا واحدًا، ثم قال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[2].

٤- بل وأخبر اليهود بعذاب القبر، فصدّق النبي ﷺ على كلامهم.

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: إنكم تفتنون في القبور، فارتاع رسول الله ﷺ وقال:

---

(١) صحيح: ابن ماجه (٤٢، ٦٨) وفي «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) صحيح: البخاري (٢١٨) في الطهارة، مسلم (٢٩٢) في الطهارة، واللفظ لمسلم.

«**إنما يفتن يهود**»، قالت عائشة: فلبثنا ليالي. ثم قال رسول الله ﷺ: «**هل شعرت أنه أوحي إليّ: أنكم تفتنون في القبور؟**»، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يستعيذ من عذاب القبر(١).

٥- وكان ﷺ يستعيذ من عذاب القبر.

وخرَّج البخاري عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»(٢). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًّا أخرجها الأثبات الثقات.

٦- وأخبرت السنة المطهرة أن البهائم تسمع عذاب القبر.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عجائز يهود المدينة، فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن عجوزين من عجائز يهود المدينة قالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. قال النبي ﷺ: «**صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم**» قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر. خرَّجه البخاري أيضًا، وقال: تسمعه البهائم كلها(٣).

وقد أجاد الإمام القرطبي رحمه الله حينما عرض لهذه المسألة فقال: قال علماؤنا: وإنما حادت به البغلة لما سمعت من صوت المعذبين ولم يسمعه من يعقل من الجن والإنس لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لولا أن لا تدافنوا ....**» الحديث. فكتمه الله سبحانه عنا حتى نتدافن بحكمته الإلهية ولطائفه الربانية لغلبة الخوف عند سماعه فلا نقدر على القرب من القبر للدفن أو يهلك الحي عند سماعه إذ لا يطاق سماع شيء من عذاب الله في هذه الدار، لضعف هذه القوى، ألا ترى أنه إذا سمع الناس صعقة الرعد القاصف أو الزلازل الهائلة هلك كثير من الناس، وأين صعقة الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكة بمطارق الحديد التي يسمعها كل من يليه؟ وقد

---

(١) صحيح: النسائي (٤/ ١٠٤، ١٠٥) في سننه.

(٢) صحيح: البخاري (١٣٧٧) في الجنائز.

(٣) صحيح: البخاري (٦٣٦٦)، مسلم (٥٨٦).

قال ﷺ في الجنازة: **«ولو سمعها إنسان لصعق»**(١).

قال القرطبي: قلت: هذا وهو على رءوس الرجال من غير ضرب ولا هوان، فكيف إذا حل به الخزي والنكال واشتد عليه العذاب والوبال؟ فنسأل الله معافاته ومغفرته وعفوه ورحمته بمنه.

*** حكاية:**

قال أبو محمد عبد الحق: حدثني الفقيه أبو الحكم بن برجان وكان من أهل العلم والعمل رحمه الله أنهم دفنوا ميتًا بقريتهم من شرق إشبيلية، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريبًا منهم. فإذا الدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع. ثم ولت فارة كذلك - فعلت مرة أخرى - قال أبو الحكم - رحمه الله - : فذكرت عذاب القبر، وقول النبي ﷺ: **«إنهم ليعذبون عذابًا تسمعه البهائم»**. والله عز وجل أعلم بما كان من أمر ذلك الميت، ذكر هذه الحكاية لما قرأ القارئ هذا الحديث في عذاب القبر ونحن إذ ذاك نسمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج رضي الله عنه.

قلت: وقد اعترف العلم الحديث أن الحيوانات تتنبأ بالزلازل والكوارث قبل وقوعها. فهذا ممكن إذًا بالنسبة لنا أن نثبت به عذاب القبر وسماع الحيوانات له.

*** أما الدليل العقلي:**

١- فإن أحدنا لو كان معه اثنان وناما، فرأى أحدهما في نومه أنه يعذب، وراح يتألم لذلك ثم أخبر بذلك لصدقه من يسمعه، ولو أخبره الثاني أنه كان ينعم في نومه لصدقه لأن هذا مما تواترت البشرية على تصديقه، وهو أن الإنسان في حال نومه يصبح في عالم آخر يرى فيه من مات، وربما رأى أمرًا مستقبليًا حادثًا، أو شخصًا لم يولد بعد، أو يرى ميتًا من ملايين السنين، فإذا كان هذا جائزًا في الحياة، فكيف لا يجوز بعد الممات؟

٢- والدليل الثاني: هو أننا فلا نستطيع أن نجري أحكام عالم الشهادة على عالم

---

(١) صحيح: البخاري (١٣١٦) في الجنائز.

الغيب، فالنائم ليس كالمستيقظ، فالمريض مثلاً حينما يكون تحت تأثير المخدر لا تجري عليه أحكام الأحياء المستيقظين، وهو نفسه ينتقل إلى عالمٍ آخر مليء بالعجائب، فمن المحال أن نقول: إن العالم الذي يراه النائم، والمُخدَّر، والميت هو نفسه العالم الذي نعيشه، ونجري عليه أحكام عالمنا، خاصة إذا تعلق الأمر بالروح التي هي من اختصاص خارج اختصاصنا فهي «عالم ما وراء الطبيعة» أو «الميتافيزيقا» كما يسميها الفلاسفة، وأدعياء الحضارة، ونحن كمسلمين نعترف بأن الروح من أمر الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

وكذلك يعترف غير المسلمين الذين يبحثون عن (الضمير - والحدس الأخلاقي - والروح، والحياة الروحية) وغيرهما من العوالم التي افترضها الغرب المادي البعيد عن الدين.

فهم مقرون بأن للروح عالمها، وللجسد عالمه، ولكن دون سيطرة على عالم الروح، إذًا فهناك قوة علوية - هي القدرة الإلهية القادرة القاهرة - هي من تسيطر على هذا العالم.

٣- وعلى الجانب الآخر فإننا إذا تمسكنا بمسألة (المغمى عليه) فإننا رغم كوننا بجواره فإننا لا نشعر مطلقًا بما يحدث له، بل يغيب عنّا ذلك تمامًا، وكذلك من يحلم في منامه، رغم أنه لا زال على قيد الحياة، ورغم أنه أمامنا، إذًا فهناك من يُسيِّره، ويتحكم في مصيره، وهناك ما يمكن حدوثه له دون أن نراه، فكيف بمن دُفن ومات وسكت روحه وجسده؟! وانتقل إلى عالم آخر غير عالمنا، إن هذا شبيه بالكهرباء نحسها ولا نراها، وبذبذبات الإرسال نؤمن بها ولا نحسها ولا نراها، فكيف نؤمن بالصنع البشري، ولا نؤمن بالقدرة الإلهية؟!

٤- وإذا قال قائل: المومياوات، وما أكله الحيتان في البحار والوحوش هل هذه قبور لأصحابها ويجري عليها العذاب؟ قد يكون هذا صحيحًا، ولكن القدرة الإلهية تفوق هذا السؤال، ثم إننا قلنا: إنه عالم الغيب الذي غاب عنّا فلا نعلم عنه شيئًا.

* **حديث البراء بن عازب الجامع لأحوال الموتى، وأهل المقابر**[١]:

حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو، وقال أبو داود: حدثنا عمرو ابن ثابت سمعه من المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء - يعني ابن عازب - وحديث أبي عوانة أتمهما، وقال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنما على رءوسنا الطير، وقال: عمرو بن ثابت: وقع، ولم يقله أبو عوانة، فجعل يرفع بصره، وينظر إلى السماء ويخفض بصره، وينظر إلى الأرض، ثم قال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**» قالها مرارًا، ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقاء**».

قال عمرو في حديثه: ولم يقله أبو عوانة، وإن كنتم ترون غير ذلك.

«**وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، ومعهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها، فيجلسون منه مد البصر، فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفه عين**» قال: **فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾** (الأنعام: ٦١). » قال: «**فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت، فتعرج به الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الروح؟ فيقال: فلان، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا، فيفتح له، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى السماء السابعة، فيقال: اكتبوا كتابه في عليين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾** (المطففين: ١٩ - ٢١) **فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: ردوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرى**» وقال: «**فيرد إلى الأرض، وتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه، ويجلسانه فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت**» قال: «**وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي**

---

(١) وقد صححه الألباني (١٥٦، ١٥٩) في الجنائز.

الآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧). قال: «وينادي منادي السماء: أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره، ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب، فيقول: أبشر بما أعد الله لك أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: بشَّرك الله بخير، من أنت فوجهك الذي جاء بالخير؟ فيقول: هذا يومك الذي كنت توعد أو الأمر الذي كنت توعد، أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعًا في طاعة الله، بطيئًا عن معصية الله فجزاك الله خيراً. فيقول: يا رب أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «فإن كان فاجراً وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك، فجلس عند رأسه فقال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، أبشري بسخط من الله وغضبه، فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار، فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين» قال: «فتفرق في جسده فيستخرجها، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشُّعب في الصوف المبتل، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على حند فيما بين السماء والأرض، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم، فيقولون: ردوه إلى الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى» قال: «فيرمى به من السماء» قال: وتلا هذه الآية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

قال: «فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينتهرانه ويجلسانه، فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك» قال: «فيقال: لا دريت فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقال: أبشر بعذاب الله وسخطه، فيقول: من أنت فوجهك الذي جاء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة الله سريعًا إلى معصية الله».

وقال عمرو في حديث عن المنهال عن زاذان عن البراء عن النبي ﷺ: «فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار ترابًا» أو قال: «رميمًا فيضربه بها ضربة

تسمعها الخلائق إلا الثقلين، ثم تعاد فيه الروح فيضربه ضربة أخرى». لفظ أبي داود الطيالسي وخرَّجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه: وزاد فيه: «ثم يقيض له أعمى أصم معه مرزبة من حديد فيضربه بها ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره» وزاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد: «لو اجتمع عليه الثقلان لم ينقلوها فيضرب بها ضربة فيصير ترابًا، ثم تعاد فيه الروح، فيضرب بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين، ثم يقال: أفرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار» وزاد فيه عند قوله: «وانقطاع من الدنيا: نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار وسرابيل من قطران يحتوشونه فتنتزع نفسه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل يقطع معه عروقها، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك في السماء وكل ملك في الأرض».

وخرَّج أبو عبد الرحمن النسائي بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا احتضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض؟ فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال: ما أتاكم؟ قالوا: ذُهِبَ به إلى أمه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح خبيثة حتى يأتوا به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح؟ حتى يأتوا به أرواح الكفار».

* أسباب عذاب القبر:

(١) البول: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أكثر عذاب القبر من البول»(١).

(٢) النميمة: كما مرّ في حديث ابن عباس: «أما أحدهما فكان يمشي بين الناس

---

(١) صحيح: الحاكم (١/ ١٨٣) وصححه ووافقه الذهبي.

بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بولته» وقد سبق.

(٣) ومجموعة أفعال ذكرها النبي ﷺ في حديث من رؤيا رآها ﷺ فروى سَمُرة بن جندب قال: كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها، فيقول ما شاء الله، فسألنا يومًا فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا. قال: «لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كلوب[١] من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر[٢] أو صخرة، فيشدخ[٣] بها رأسه، فإذا ضربه تدهده[٤] الحجر فانطلق ليأخذه فما يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور[٥] أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عُراة، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فِيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج، رمى في فِيه[٦] بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا، حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي الشجرة وأدخلاني دارًا لم أر قط أحسن منها، فيها شيوخ، وشباب، ونساء، وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب، قلت: طوفتماني الليلة

---

(١) كلوب: مفرد (كلاليب) وهي الحديدة المعقوفة.

(٢) فهر: حجر كالكف.

(٣) يشدخ: يكسر.

(٤) تدهده: تدحرج. والشدق: جانب الفم.

(٥) التنور: الفرن.

(٦) فِيه: فمه.

فأخبراني عما رأيت، قالا: نعم الذي رأيت يشق شدقه: فكذاب يحدث بالكذب، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة، والذي رأيته يشدخ رأسه، فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة، وأما الذين رأيتهم في الثقب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكل الربا، والشيخ في أصل الشجرة: إبراهيم والصبيان حوله: فأولاد الناس. والذي يوقد النار: مالك خازن النار، والدار الأولى دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار: فدار الشهداء وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذلك منزلك، فقلت: دعاني أدخل منزلي: قال: إنه بقي لك عمر، ولم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك»(١).

وعلّق القرطبي رحمه الله على هذا الحديث فقال: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لا أبين في أحوال المعذبين في قبورهم من حديث البخاري، وإن كان منامًا فمنامات الأنبياء عليهم السلام وحي، بدليل قول إبراهيم عليه السلام: **﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾** (الصافات: ١٠٢). فأجابه ابنه: **﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾** (الصافات: ١٠٢).

قلت: لقد عدّ ﷺ في هذا الحديث أصنافًا من المعذبين وهم: «الكذاب - والنائم عن القرآن - والزناة - وآكل الربا».

(٤) ويضاف إليهم حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(٢).

*** بُشرى لعباد الله المؤمنين في قبورهم.**

قال كعب الأحبار: «إذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة فتجيء ملائكة العذاب من قِبل رجليه، فتقول الصلاة: إليكم عنه، فيأتون من قِبل رأسه. فيقول: الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه لله عز وجل في دار

---

(١) صحيح: البخاري (٧٠٤٧) في الرؤيا، مسلم مختصرًا (٢٢٧٥/ ٢٣) في الرؤيا.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني (٥٢١٣) في «صحيح الجامع».

الدنيا، فيأتون من قبل جسمه فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه، وأتعب بدنه وحج وجاهد لله عز وجل لا سبيل لكم عليه، فيأتون من قِبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين، حتى وقعت في يد الله عز وجل ابتغاء لوجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: نم هنيئًا، طبت حيًّا، وطبت ميتًا».

* **ما ينجي من عذاب القبر وفتنته:**

الأول: روى مسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان**»(١)، فالرباط من أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت كما جاء في حديث أبي هريرة: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة**» فينقطع ذلك بنفاده وذهابه، كالصدقة بنفادها، والعلم بذهابه، والولد الصالح بموته، والنخل بقطعه إلى غير ذلك مما ذكر، والرباط يضاعف أجره لصاحبه إلى يوم القيامة لقوله عليه السلام: «**وإن مات أجري عليه عمله**».

وقد جاء مفسرًا مبينًا في كتاب الترمذي عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «**كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر**»(٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود بمعناه وقال: يؤمن من فتاني القبر، ولا معنى للنماء إلا المضاعفة وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى لأن أعمال البر لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منهم بحراسته بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام، وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة.

مسألة الرباط: هو الملازمة في سبيل الله، مأخوذ من ربط الخيل ثم سمي ملازم الثغر من ثغور المسلمين: مرابطًا. فارسًا كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الرباط

---

(١) صحيح: مسلم (١٩١٣) في الإمارة.

(٢) صحيح: الترمذي (١٦٢١)، أبو داود (٢٥٠٠).

في سبيـل الله، والرباط اللغوي هو الأول، وهو الذي يشخص إلى ثغر مـن الثغور ليرابط فيه مدة ما، فأما سكان الثـغور دائمًا بأهلهم الذين يعمرون ويكتسبون هناك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين. قاله علماؤنا.

الثاني: روى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: **«كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»**(١).

وعن المقـداد بن معـد يكرب قال: قـال رسول الله ﷺ: **«للشـهيـد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»**، لفظ الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وقال ابن ماجه: **«يغفر له في أول دفعة من دمه ويحلى حلة الإيمان»** بدل **«ويوضع على رأسه تاج الوقار»**(٢).

قال القرطبي: عند التـرمذي وابن ماجه (ست خصـال) وفي متن الحديث (سبع) وعلى مـا ذكره ابن مـاجه: **«ويحلى بحلة الإيمان»** تكون ثمـانية، فيكـون الحديث: «للشهيد عند ربه ثمانية خصال».

الثالث: عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبـر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا بقبر إنسان يقرأ سـورة الملك حتى ختـمها فـقال ﷺ: **«هي المانعة هي المنجيـة تنجيـه من عذاب القبر»**(٣).

وخرّج الـترمذي عن ابـن عباس أيـضًا: **«أن من قـرأها كل لـيلة جاءت تجادل عن**

(١) صحيح: النسائي (٤/ ٩٩).
(٢) صحيح: ابن ماجه (٢٧٩٩)، الترمذي (١٦٦٣).
(٣) صحيح: الترمذي (٢٨٩٠).

صاحبها»[١]، وروي أنها المجادلة تجادل عن صاحبها، يعني: قارئها في القبر، وروي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتان.

الرابع: خرج النسائي عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يسار يقول: كنت جالسًا عند سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكرا: أن رجلاً مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته، فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله ﷺ: **«من يقتله بطنه لم يعذب في قبره»**، أخرجه الطيالسي في مسنده، قال: حدثنا شعبة، قال: أخبرني جامع بن شداد، فذكره وزاد، فقال الآخر: بلى[٢].

الخامس: روى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»** وقال: هذا حديث حسن غريب[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر، وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء»**[٤].

وما يصل للميت بعد وفاته من ثواب كثير وكثير، فارجع إليه في باب الجنائز.

---

(١) صحيح: الدارمي (٣٤١٣).

(٢) صحيح: النسائي (٤/٩٨)، والطيالسي (١٢٨٨).

(٣) صحيح لغيره: الترمذي (١٠٧٤).

(٤) انظر ما قبله.

[العبادات]

[١] الصلاة.

[٢] الزكاة.

[٣] الصوم.

[٤] الحج.

العبادات

تمهيد

* كلمات في العبادات:

إن الإيمان بالله عقيدة قلبية، يوثقها إقرار باللسان، وعمل بالأركان التي فرضها علينا الله تعالى، وجعلها شرطًا للإيمان بدينه وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فهو يُقوِّم الإنسان ويهذب وجدانه، ويجعله متكاملاً في أخلاقه، مستقيمًا في حياته، يسير بين الناس بخُلق السماء، ويحيا بينهم بهدي الأنبياء.

وتبقى العبادة دلالة على صدق الإيمان وتمامه وتكامله، لأن الإيمان يزيد وينقص كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة، فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والعبادة هي أولى الطاعات بعد التوحيد، أما من ادعى الإيمان ولم يعمل كان إيمانه كشجرة ولا ثمر، أو كماء آسن لا يصلح لسُقيا إنسان ولا حيوان ومن ثَمَّ يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

فالعبادات عنوان الإيمان ودليله، وهي مظهر من مظاهر ذكر الله تعالى، وشكره على نعمه التي أسبغها على عباده ظاهرة وباطنة، وهي رباط المودة والمحبة تربط المسلم بالمسلم فتؤلف بين القلوب حتى يصير الفرد مرتبطًا بإخوانه كأنهم جسد واحد في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

* العبادات وعقيدة المسلم:

إن هذه العبادات المتصلة بالعقيدة تسمو بوجدان الإنسان فتهذب سلوكه، وتحصن المجتمع من غوائل الهوى، ودوافع الشهوة، والأمة التي يحافظ أفرادها على هذه

العبادات أمة تسمو وتسعد، وترقى وتنهض، وتتبوأ مكان السيادة لأنها تراقب ربها، وتخلص في عملها، وتعد العدة لكل موقف من حياتها، مستلهمة هدي نبيها الذي يقول: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها**».

والعبادات لا تقبل إلا إذا قرنت بالإخلاص لله وإتقان كل امرئ ما وكل إليه من عمل في هذه الحياة، والأمم حينما تمر بها فترات من الشدة تكون في أشد الحاجة إلى الرجوع إلى الله، تتصل به عن طريق العبادة، وتطلب منه النصر عن طريق أداء ما فرض عليها. وأن أمتنا الإسلامية في حاضرها في أشد الحاجة إلى الرجوع إلى الله، والعمل بكتابه والتمسك بسنة نبيه، والسير على هدى السلف الصالح، مع إعداد العدة التي ترهب أعداء الله وأعداءنا. قال الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ (الأنفال: ٦٠).

والعبادات توقظ ضمير الفرد، وتربي شعوره، وترقق وجدانه، وتشعره برقابة ربه عليه قبل رقابة الناس، ومن ثَمَّ يخاف الله لأنه يحس بأنه يسمعه ويراه، فيخلص في عمله، ويتقن صنعه، ويعاشر الناس بخلق فاضل، ويكون به إيجابيًّا في حياته يألف الناس ويألفونه ويحبهم ويحبونه.

*** العبادات وإصلاح المجتمع:**

هذه العبادات التي فرضها الله علينا هي السبيل القويم لإصلاح المجتمع وتقويم أخلاقه: فالصلاة التي فرضها الله تطهيرًا للنفس، وتهذيبًا للوجدان، وضبطًا للزمن بضوابط الذكر المتصل بالله، وتدريبًا عمليًّا على ما يصلح أمر الإنسان في دنياه وأخراه، وتنمي في الإنسان بواعث الالتزام واحترام الوقت وتقديره، والنشاط لأداء كل عمل في ميقاته: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾ (النساء: ١٠٣). وهي رياضة على الأدب، وتمرين على اكتساب الفضائل، وتجنب الفرد ارتكاب الفواحش والرذائل يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ (العنكبوت: ٤٥).

والصيام كذلك فريضة لتربية الإرادة، وتقوية العزيمة، والخروج بالنفس من شهواتها لتظفر بالتقوى التي هي جماع الفضائل الخلقية وتحقيق النفع للبشرية،

يوضح ذلك رب العزة إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣). ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «الصومُ جُنة»[١] . أي: وقاية من الشر والآثام.

والزكاة أيضًا باب لطهر المال بعد طهر النفس، وإقامة للتكافل الاجتماعي، وبرهان أكيد للإيمان الصادق الذي يحقق أن المال مال الله، والإنسان مستخلف فيه كما أوضح الله سبحانه في قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧)، وكما يقول سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

والحج كذلك مؤتمر عام وتلبية لنداء الله عز وجل، وتحقيق للمنافع المشتركة، فيه يجتمع الجميع تحت راية التوحيد: لا مكان فيه لتفرقة بين جنس أو لون أو شعب، فلا إحن ولا بغضاء، ولا تنابز ولا جدال أو شحناء يقول الله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).

*** العبادات طريق إلى محبة الله تعالى وولايته:**

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي رواه النبي ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال: **«من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه ...»**[٢] الحديث.

فالفريضة هي الطريق الأول إلى محبة الله تعالى وولايته.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: **أفضل العبادات أداء الفرائض واجتناب المحارم**[٣]، وأحب الأعمال إلى الله هي أداء الفريضة، ثم تؤدى بعد ذلك النوافل:

---

(١) حديث صحيح: البخاري (١٩٠٤) في الصوم، مسلم (١١٥١) في الصيام عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسيأتي بتمامه.

(٢) صحيح: البخاري (٦٥٠٢) في الرقاق.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (صـ ٥٨٩) حديث (٣٨).

وهي ما زاد على الصلوات المكتوبة كالتطوع بقيام الليل والسنن، أو صيام التطوع، والصدقة دون الزكاة، والعمرة دون الحج.

وفضل الله تعالى واسع في العبادات من الفرائض والنوافل، والمسلم فيها كالنحلة تنتقل بين الأزهار ثم تخرج الرحيق عسلاً نقيًّا، إلا أننا نحذر من عدة أمور أثناء انخراط المؤمن في العبادة:

أولاً: إياك وتكليف نفسك ما لا تطيق، وإلا انقلب الأمر بضعف النفس وترك العبادة، أو الملل والإقلاع عن العبادة تمامًا. وروى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة. فقال: «**مَنْ هذه؟**» قلت: فلانة لا تنامُ الليل. فقال: «**عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا**»، وكان أحب الدين - يعني العمل - إليه مادام عليه صاحبه[1]. والدين هنا هو العمل.

وفي رواية: «**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ**»[2].

وفي رواية: «**عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملّوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُووم عليه وإن قلّ**»، وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه[3].

والأحاديث في هذا المضمار كثيرة، والأهم هو الدوام على العمل وإن قلّ حسبة لله تعالى.

ثانيًا: احذر من تحول العبادة إلى عادة: فبممارسة العبادة كثيرًا تتحول إلى عادة، ومجرد حركات آلية تؤدى، وواجبات تقضى، ومعلوم أنه لقبول العمل شرطين: النية، وموافقة العمل للكتاب والسنة.

فإذا ضللت الطريق إلى النية، ضللت الطريق إلى قبول عملك، وتحولت العبادة إلى عادة.

ولكنه ... مع تجدد النية، وتجدد المحاسبة تستطيع الثبات على عبادتك والشعور بلذتها كما كان بعض السلف يقول: كابدت قيام الليل أعوامًا واستمتعت به بقية عمري.

---

(١) صحيح: البخاري (٤٣) في الإيمان، مسلم (٧٨٥/ ٢٢٠) في صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: مسلم (٧٨٣/ ٢١٨) في صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: البخاري (٦٤٦٦)، مسلم (٧٨٢/ ٢١٧) في صلاة المسافرين وقصرها.

والعبادة تحتاج دائمًا إلى همة عـالية، وترك للشهوات والملذات، ولذا فإن طريقها - العبادة - طريق الرجال لا يعترف بمخنثي العزم، أو المتكاسلين والمتخاذلين.

وها هو ابن الجوزي يصـيح ويهتف في نفـوس وقلوب الذين سلكوا الطريق إلى الله فيقول: فتارة يقـال للخليل - إبراهيم - عليه السلام: اذبح ولدك بيدك، واقطع ثمرة فؤادك بكفك، ثم قُم إلى المنجنيق لتلقى في النار.

وتارة يقال لموسى عليه السلام: صم شهرًا، ليلاً ونهارًا.

ثم يقال للغضبان: اكظم، وللبصير: اغضض.

ولذي المقول: اصمت، ولمستلذ النوم: تهجد.

ولمن مات حبيبه: اصبر، ولمن أصيب في بدنه: اشكر.

وللواقف في الجهاد بين اثنين: لا يحل أن تفر[(١)].

لابد إذًا من المجاهدة، والمحاسبة، وتجديد النية دون غفلة أو سهو أو تقصير.

ثالثًا: عدم الاهتمام بالنافلة على حساب الفريضة: فبعضـهم يقومْ الليل حتى يغلبه النوم فلا يصلي الـصبح، وآخرون يسـرفون في أداء العمـرة دون أن يكون لأحدهم حجة.

رابعًا: طلب القبول من الله تعالى وعدم الاغترار بالعمل: فقد أمر الله تعالى إبراهيم وإسمـاعيل عليهـما السلام ببناء البـيت العتيـق، ومع ذلك راح الاثنان يدعوان الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

فقـد يفتح باب العمل ولا يفـتح باب القبول، فـيكون استدراجًـا من الله تعالى للعبد، من أجل هذا فإن النبي ﷺ قال - في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : **«لن ينجي أحدًا منكم عـمله»** قـال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟ قـال: **«ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا»**[(٢)].

فالتـعويل على رحمـة الله تعالى لا على العمل والعـبادة: **«... فوالله الذي لا إله**

---

(١) صيد الخاطر (صـ ٩٣، ٩٤).

(٢) صحيح: مسلم (٢٨١٦/ ٧١) في صفة القيامة، وبنحوه عند البخاري (٦٤٦٤) في «الاعتصام».

غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب بعمل أهل النار فيدخلها ...»(١).

ومن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجلّ كقلبٍ واحدٍ يصرفه حيث يشاء»**. ثم قال ﷺ: **«اللهم مُصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**(٢).

ومن حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ كان يكثر من قول: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** فقيل له: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: **«نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجلّ يقلبها كيف شاء»**(٣).

فالمسلم يحذر من الاغترار بعمله، ويرجو رحمة ربه عز وجل، وإلا كان الزلل، والسقوط في بئر سحيقة من سوء الخاتمة والنفاق كابن عبد الرحيم!!

قال ابن كثير رحمه الله في «حوادث عام ٢٧٨هـ» : وفيها توفي ابن عبد الرحيم قبّحه الله.

ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصرو بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها. فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر، وتصعد إليّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشقّ عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن. فقالوا: يا فلان ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أني أُنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ

---

(١) صحيح: البخاري (٣٢٠٨) في بدء الخلق، مسلم (٢٦٤٣) في القدر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: مسلم (٢٦٠٤) في القدر.

(٣) صحيح: الترمذي (٢١٤٠) في القدر وصححه الألباني.

(٢) ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٢، ٣).

ثم قال: وقد صار لي فيهم مال وولد[١] - يقصد أنه لا يستطيع العودة، فانظر إليه: صوّام، قوّام، مجاهد، وعى القرآن ثم كفر بالرحمن وعبد الصلبان لا لشيء إلا أنه بدّل الهُدى وأطاع الهوى مغترًّا بعبادته، وتلك عقبى الذين نافقوا بعملهم، واغتروا به، بعدوا كل البعد عن رحمة الله تعالى فلن ينالوها، ولو ابتغوا نفقًا في الأرض أو سُلّمًا في السماء.

وهل يقوى على الوقوف أمام العواصف ساق ليس له جذر؟!

وقال مالك بن دينار: «الخوف على العمل ألا يتقبل أشد من العمل».

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهم أيقبل منهم أم لا؟».

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وراجي رحمة الله هو الذي عمل من أجلها، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨).

ومن أراد المنزلة العليا في الجنة فليتبوأ المنزلة العليا في الدنيا، واحدة بواحدة، وكل بؤس وشقاء يزول مع أول غمسة في الجنة.

❁ ❁ ❁

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٧١) ط دار الفجر للتراث بتحقيقي.

[١] الصلاة ... الصلاة!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»(١).

✿ ✿ ✿

*** مكانة الصلاة في الإسلام:**

فإن الصلاة سكينة النفس، وطهارة الروح، ومظهر العلاقة الحقيقية بين المخلوق والخالق، والضعيف والقوي، والفقير والغني، فالناس يكونون في أصدق أحوالهم وأزكى أوقاتهم، عندما يقفون خشوعًا بين يدي ربهم الكبير، يؤدون حقه، ويرجون رفده، ويطلبون هداه، ويبدون خضوعهم المطلق له، وحاجتهم الدائمة إليه، والمؤمنون مكلفون في الغدو والآصال، ومن قبل طلوع الشمس وبعد غروبها، أن يترددوا على ساحة الله العظيم، يتلون كتابه وقوفًا، ويسبحون بحمده ركعًا وسجودًا، ويحيونه ويسلمون على نبيه جلوسًا، وهم في هذه الأعمال المباركة يشعرون بما ينبغي لله من طاعة وتوقير، وما يجب أن تكون عليه نفوسهم من طهر وصفاء.

ولقد جعل النبي ﷺ للصلاة منزلة لا تعدلها منزلة حين جعلها عماد الدين ورأس الأمر وعموده كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «.... **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**»، قلت: بلى يا رسول الله. قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد ...**»(٢) الحديث.

---

(١) صحيح: أحمد (٣/ ١١٧) في المسند، ابن ماجه (٢٦٩٧) في الوصايا، وصححه الألباني (٣٨٧٣) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: قطعة من حديث رواه الترمذي (٢٦١٦) في الإيمان، وصححه الألباني هناك.

ثم إن الصلاة هي أول ما أوجبه الله تعالى على عباده من العبادات والفرائض، فتولى إيجابها بمخاطبته رسول الله ﷺ ليلة المعراج من غير واسطة. كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال كما في حديث المعراج: «... **فرضت عليَّ خمسون صلاة، حتى جعلها الله تعالى خمسًا**». ثم قال: «**إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرًا**»(١).

والصلاة خير موضوع يستحب الاستكثار منه كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر**»(٢).

وهي أول ما يحاسب عليه العبد، نقل عبد الله بن قرط قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»(٣).

وهي آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا، جعل يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»(٤).

وهي آخر ما يفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله، قال رسول الله ﷺ: «**لتنقضن عُرى الإسلام عُروة عُروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة**»(٥).

والصلوات كفارات لصغائر الذنوب كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**الصلوات الخمس كفارة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا ما اجتنبت الكبائر**»(٦).

ومن حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**الصلوات الخمس كفارة لما بينهن إذا**

---

(١) صحيح: البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق، مسلم (١٦٤/ ٢٦٤) في الإيمان.
(٢) حسن: حسنه الألباني (٣٨٧٠) في «صحيح الجامع».
(٣) صحيح: صححه الألباني (١٣٥٨) في «الصحيحة».
(٤) هو حديث الباب.
(٥) صحيح: صححه الألباني (٧٠٧٥) في «صحيح الجامع» عن أبي أمامة رضي الله عنه.
(٦) صحيح: رواه مسلم وغيره.

ما اجتنبت الكبائر»[١].

ويبقى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ثم قوله ﷺ كما في رواية جابر رضي الله عنه: «بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة»[٢].

وفي الحديث الآخر: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة»[٣].

وقوله ﷺ فيما يرويه عن بُريدة رضي الله عنه: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[٤].

* **الصلاة والقرآن الكريم:**

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة، ويقرنها بالذكر تارة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥)، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤).

وتارة يقرنها بالزكاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)، ومرة بالصبر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ١٤٥) وطورًا بالنسك: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر: ٢). ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

وأحيانًا يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها، كما في سورة «المعارج» وفي أول سورة «المؤمنون»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١ - ١١).

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣٨٧٤) في «صحيح الجامع».
(٢) صحيح: رواه مسلم، وانظر «صحيح الجامع» (٢٨٤٨).
(٣) صحيح: صححه الألباني (٢٨٤٩) في «صحيح الجامع».
(٤) صحيح: صححه الألباني (٤١٤٣) في «صحيح الجامع».

إن الصلاة واجبة على المسلم في الحضر والسفر وفي الصحة والمرض وفي الحرب والسلم لا تسقط عن المسلم ما دام فيه عقل وإدراك.

وقد شدد الله النكير على من يفرط فيها، وهدد الذين يضيعونها، فقال جل شأنه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩).

وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤، ٥).

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التي تحتاج إلى هداية خاصة، سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيمًا لها، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠).

والعجيب أن كثيرًا من الأنبياء كانت الصلاة تمثل جزءًا كبيرًا من حياتهم وقصصهم مع أقوامهم!

فإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠).

وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ (مريم: ٥٥).

وفي قصة مناجاة الله تعالى لموسى عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤).

وفي قصة عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١).

وفي قصة شعيب عليه السلام قال له قومه: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (هود: ٨٧).

فالصلاة حلية الأولياء، وزينة الأنقياء، وعبادة الأصفياء، ودأب الأنبياء، ووصية رب الأرض والسماء.

وهكذا ترى الصلاة تحتل مكانة عالية سامية بين العبادات، لا ترقى إليها عبادة أخرى، فإنما فرضها الله تعالى على عباده ليتمتعوا بطاعته، ويظفروا بمناجاته، بل

هي أعظم الفروض وأولها، بلا وساطة جاء الأمر بها وتاركها خارج مارق يستتاب ليعود إلى حظيرة الإيمان، إذ الصلاة حدٌّ فاصل بين المؤمن والكافر، وبين الصالح والفاجر، جعلها الله تعالى علامة للإيمان الصادق.

ومن هنا جاءت وصية النبي ﷺ: **«الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»**.

وجاء قوله حين قال: **«حبب إليّ من دنياكم النساء والطّيب، وجعلت قُرة عيني في الصلاة»**(١).

إن للصلاة أمرًا عجيبًا، فإن الله تعالى فرض الصلاة على عباده جميعًا الكبير والصغير، وفرضها على الغني والفقير، وأوجبها على القوي والضعيف، والمريض والصحيح، أوجب الله الصلاة حتى في حال السفر الذي هو مظنة العجز، وموضع التيسير، أوجب الله الصلاة حتى في حال القتال، في الوقت الذي تلتحم فيه الصفوف، وتضطرب القلوب وتزهق الأرواح، قال تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا**﴾ (البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩).

فإن خفتم من العدو فصلوا كيفما استطعتم راجلين أو راكبين، ولا تضيعوا الصلاة، ولا تعرضوا عن دعوة الله. ﴿**فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢٣٩).

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾ (النساء: ١٠٢، ١٠٣).

ولكن ما الذي يجعل النبي ﷺ يجعل الصلاة آخر وصية له مؤكدًا عليها، محذرًا من تركها؟ ولِمَ احتملت الصلاة هذه المكانة العظمى؟ إن للصلاة أسرارًا وفوائد نذكرها لنوضح ارتقاء الصلاة لهذه المكانة العالية السامية في الإسلام.

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣١٢٤) في «صحيح الجامع» عن أنس رضي الله عنه.

* من أسرار الصلاة:

١- الصلاة مناجاة بين العبد وربه، تؤكد وجوده سبحانه، وتوقظ عقيدة التوحيد في القلوب:

فقد جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه - أو إن ربه بينه وبين القبلة»(١).

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبل وجهه إذا صلى»(٢).

وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجلّ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل: فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله عز وجل: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله عز وجل: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مجدني عبدي وفوض إليّ عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(٣).

والمناجاة هي: مخاطبة الله تعالى مباشرة ودون واسطة، تشعر المرء بوجود الله تعالى وجودًا حقيقيًا، وأنه قريب منه، يسمع دعاءه، ويلبي نداءه ويستجيب له.

فليس غريبًا ولا عجيبًا أن تكون الصلاة علامة الإيمان الصادق الذي لا يتصف به إلا المؤمنون كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال: ٢ - ٤).

وإذا واظب المصلي على هذه المناجاة خمس مرات في اليوم والليلة، تيقظت قواه الروحية، وأحس أن الله يمده بالقوة والعون، وأنه سبحانه معه لا يتخلى عنه،

---

(١) صحيح: البخاري (٤٠٥) في الصلاة، مسلم (٥٥١) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) صحيح: البخاري (٤٠٦) في الصلاة، مسلم (٥٤٧/ ٥٠) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: مسلم (٣٩٥) في الصلاة.

فتقوى عزيمته، ويمضي إلى غايته متوكلاً على ربه، مهما اعترضته الصعاب والعقبات.

وإذا ظفر بمطلوبه، فإن ذلك لا يزهيه، ولو قدر أنه لم يبلغ ما يريد فإنه لا يحزن، ولا ييأس، بل يمضي في الطريق، واثقًا بالله، ومتوكلاً عليه.

إن المسلم في صلاته يعلن عن هويته العقدية حين يأبى الركوع أو السجود لغير الله تعالى، ومن أجل هذا فإن الحق سبحانه جعل الصلاة تالية التوحيد، والركن الثاني من أركان الإسلام ثم جعل الصلاة في كل وقت فدعاك أيها المسلم للتعبير عن عقيدتك وتوحيدك.

لقد دعاك الله إلى جمع هو أعظم جمع، دعاك إلى فريضة هي أعظم فريضة في الإسلام بعد الشهادة، أمرك بالصلاة حين ينبثق الفجر شكرًا لله على نعمة النهار، وافتتاحًا لليوم الجديد بطاعة هي أفضل الطاعات، وقربة هي أجل القربات ثم دعاك حين ينتصف النهار إلى فريضة الظهر شكرًا لله على ما أعطاك من قوة، ومنحك من نعمة، ويسر لك من رزق، ودعاك إلى فريضة العصر حين يبقى ربع النهار الأخير، وتمضي ثلاثة أرباع اليوم، لتتعظ من تقلب الزمان وتعلم أن الدنيا كلها صائرة إلى فناء وزوال، دعاك إلى المغرب لتشكر ربك على نعمة الليل، كما شكرته على نعمة النهار، ثم دعاك إلى صلاة العشاء لتختم عمل اليوم بطاعة كما افتتحته بطاعة، ليجزل لك الفضل، ويفيض عليك العطاء، فلماذا تعرض وتدبر؟ ولماذا تتوانى وتكسل؟

إن افتتاح الصلاة: الله أكبر . . أكبر من الملذات، أكبر من الدنيا، أكبر من الطواغيت، أكبر من كل شيء، وفي السجود والركوع تمجيد، وتحميد، وتعظيم، وتقديس، وتسبيح: (سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي العظيم، سبوح قدوس رب الملائكة ورب الروح، ربنا ولك الحمد)، وكلها تعبيرات لسانية عن هوية المسلم العقدية ألا وهي عقيدة التوحيد.

كما أن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله بالذكر والدعاء، والضراعة والخضوع لكبريائه وعظمته.

وهذا من شأنه أن يضفي على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها ويحفزها ذلك على العمل الجاد والأمل في وجه الله الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

وذلك أن في الصلاة تجتمع عدة عبادات: تلاوة للقرآن، وذكر لله تعالى، ودعاء، وركوع، وسجود، وتسليم، ورضا، فكانت الطمأنينة، فكان النبي ﷺ يشتد عليه الأمر ويحزبه يصلي لله تعالى، كما قال حذيفة رضي الله عنه: «كان إذا حزبه أمرٌ صلى»[(١)].

ومن شأن العقيدة أنها تطهر الإنسان من الرذائل والقبائح، وكذلك تفعل الصلاة إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⁽١٤⁾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥) فالصلاة كجزء من العبادات تربي الحس العقدي في المسلم الذي يبعث على الخير، ويحض عليه، ويمنع الشر، ويحذر منه.

(٢) الصلاة تعلم الثبات والكرم:

ولقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

فهي تزكية للنفس والروح، وتطهير للقلوب من الآثام والشرور.

فالصلاة تؤثر في نفس المصلي تأثيرًا عميقًا، وتهذب أخلاقه تهذيبًا كبيرًا فتجعله هادئًا وادعًا، مطمئنًا راضيًا، ثابتًا رزينًا، رحيمًا شفيقًا، شاكرًا لنعم الله، صابرًا على أحكام الله.

وبالإضافة إلى هذا فإن الصلاة تغرس في النفس فضيلتي الثبات والكرم، وهما من أكرم الخصال وأشرف الخلال. والمصلي إذا أفاض الله عليه النعم والآلاء لا يستأثر بها، بل يشرك فيها غيره، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ⁽١٩⁾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ⁽٢٠⁾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ⁽٢١⁾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ⁽٢٢⁾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٣).

فالمصلي يثبت حين العطاء ويشكر، ويثبت حين المنع ويصبر فأمره له كله خير،

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٤٧٠٣) في «صحيح الجامع».

لكن هذا لا يكون إلا لمن أدام الصلاة، وكان من القانتين الخاشعين كما قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

فمثل هذه الصفات السابقة لا تتحقق إلا إذا أقبل المصلي على صلاته بوعي كامل، ويقظة تامة، وتأمل حقيقي في أقوال الصلاة وأفعالها وهو المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١، ٢).

وهذا كله يحتاج إلى المكابدة والمعاناة، والصبر على الصلاة نفسها، لأن الإنسان تكثر جواذبه الأرضية ما بين شيطان يوسوس، ونفس أمارة بالسوء، وشهوات زينت له مما يحتاج إلى المجاهدة والمكابدة؛ ليحصل المسلم على اللذة التي لا تعدلها لذة حين يختلي بربه في الصلاة وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه: ١٣٢).

فهذه الآية عبرت عن وجوب الخشوع في الصلاة، والصبر والاصطبار عليها، وعدم الانشغال بأي هوىً أرضي ولو كان الرزق الذي تضمن الله تعالى وتكفل به، فإن متابعة الصلاة والدوام عليها تيسير للأرزاق، وبركة للأقوات، وتفريج للكربات، وتنزل للرحمات.

الصلاة خير مفزع للناس في تلك الظروف العصيبة، وأحسن ملجأ لهم في الأوقات الرهيبة، ولذلك يوصينا الله بالاستعانة بها على مصائب الحياة فيقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) وكان ﷺ إذا حزبه أمر (نزل به مهم أو أصابه غم) فزع إلى الصلاة.

فالصلاة لا تعلم العبودية فقط قدر ما تحقق السعادة للمرء المسلم في حياته، تحقق له السعادة المادية، والنفسية، فتجعله هادئ النفس مطمئن البال.

*** وصية للخشوع في الصلاة:**

ومرّ عاصم بن يوسف، بحاتم الأصم[1] وهو يتكلم في مجلسه فقال: يا حاتم كيف تصلي؟ قال: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة،

---

(١) هو حاتم بن يوسف، لم يكن أصمًّا، لكنه تصامم مرة فسمي (الأصم)، عابد زاهد، له أقوال في المحبة والزهد، وقد صحب شقيق البلخي.

وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأسلم بالسُّنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجلّ، وأخاف ألاّ تقبل مني.

فقال عاصم: فأنت تحسن أن تصلي[(١)].

ولكن ماذا يفعل من ابتلي بالوسوسة في الصلاة؟

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي، وبين قراءتي يلبسها[(٢)] عليّ. فقال رسول الله ﷺ: **«ذاك شيطان يقال له: خِنْزَبُ. فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثًا»**.

قال عثمان: ففعلت ذلك. فأذهبه الله عز وجلّ عني[(٣)].

(٣) الصلاة تكفر الذنوب وترفع الدرجات:

فالصلاة تكفر الذنوب، وتستر العيوب، وتزيد الحسنات، وترفع الدرجات: **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾** (هود: ١١٤).

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره فنزلت هذه الآية. فقال الرجل: ألي هذه؟ قال ﷺ: **«لجميع أمتي كلهم»**[(٤)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: **«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟»**، قالوا لا يبقى من درنه شيء! قال: **«فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**[(٥)].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر»**[(٦)].

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/٢٩٦) لابن الجوزي.

(٢) يلبسها: يخلطها عليّ.

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٠٣) في السلام.

(٤) صحيح: البخاري (٥٢٦) في مواقيت الصلاة، مسلم (٢٧٦٣/ ٣٩، ٤٠) في التوبة.

(٥) صحيح: متفق عليه.

(٦) صحيح: رواه مسلم.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة»[١].

وعن أبي هريرة أيضًا أنه ﷺ قال: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، بضعًا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه[٢] إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رُفِعَ له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه اللهم اغفر له. اللهم تُب عليه. ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحْدِث فيه»[٣]. ويُحدث: يفسو أو يضرط.

ومن حديث ثوبان رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ بها عنك خطيئة»[٤].

(٤) والصلاة أحب الأعمال إلى الله تعالى:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة في وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[٥].

(٥) وفي الصلاة قرب من الله تعالى:

وقال الله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩).

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[٦].

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٢١٤٤) في صحيح الجامع.

(٢) لا ينهزه: لا يقيمه، ولا ينهضه.

(٣) صحيح: مسلم (٦٤٩/ ٢٧٢) في المساجد ومواضع الصلاة، وبنحوه عند البخاري.

(٤) صحيح: مسلم (٤٨٨) في الصلاة.

(٥) متفق عليه.

(٦) صحيح: مسلم (٤٨٢/ ٢١٥) في الصلاة.

ولذلك كان من دعائه ﷺ في سجوده الدعاء بالمغفرة، والاستغفار، والتوبة.

فقد كان ﷺ يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**» ثلاث مرات[(١)].

وكان يقول: «**اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوّره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**»[(٢)].

وفي حديث عائشة أنه ﷺ كان يقول في سجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[(٣)].

وفي رواية لمسلم: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**».

ومن حديث عائشة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبوح قدوس، رب الملائكة ورب الروح**»[(٤)].

وفي رواية عن عوف بن مالك: «**سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء والعظمة**»[(٥)].

وفي رواية عن أبي هريرة: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجُلّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**»[(٦)].

إن سجود المسلم لله تعالى سجود علو للقلب، وعنوان حرية من عبودية غير الله تعالى، وبراءة من كل ند وضد وشريك لله تعالى، تقربه من ربه كما قال القائل:

سجدة تخفض فيها الجباه ولكن ✿ عزّ فيها مُسبح وتعالى

ظنها الجاهلون غُلاً على العبد ✿ ولكن تحطم الأغلالا

خرّ فيها لساجدٍ كل شيء ✿ يرهب الكون قوله والفعالا

تثبت الوجه والجوارح في الأرض ✿ ولكن تقلقل الأجبالا

---

(١) صحيح بشواهده: الإرواء (٣٣٣) للألباني عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم.

(٣) صحيح: البخاري (٢/ ٢٤٧) في صفة الصلاة، مسلم (٤٨٤) في الصلاة.

(٤) صحيح: مسلم (٤٨٧) في الصلاة.

(٥) حسن: أبو داود (٨٧٣) في الصلاة.

(٦) صحيح: مسلم (٤٨٢) في الصلاة.

تهدم الشرك والوساوس في النفس ❁ ولكن تشيد الأجيالا
في سكون، وللقلوب مسيرٌ ❁ سخر الأرض رهبة وجلالا
هي لله، وحده، فقرت ❁ ومَحَت كل غاشم يتعالى
من وعاها: وعى السيادة في ❁ الأرض جلالاً، ورحمة، وجمالاً[(١)]

لقد فهم السلف معنى السجود وأنه قرب من الله تعالى، فقال أبو رجاء العطاردي رحمه الله: «ما آسى على شيء أخلفه بعدي، إلا أني كنت أعفر وجهي في كل يوم وليلة خمس مرات لربي عز وجلّ».

وكان عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول: ما جاء وقت الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق، وما دخل وقت الصلاة قط إلا وأنا لها مستعد[(٢)].

بينما كان أداؤهم الصلاة على قدر اشتياقهم لأدائها، وفهمهم لقربها، إن دخلوا في الصلاة خشعوا وقنتوا كأن أحدهم يرى عرش ربه أمامه بارزاً يخاطبه ويحادثه، فأهملوا العيون، وأتعبوا الأبدان.

هذا هو عبد الله بن الزبير: كان إذا قام في الصلاة كأنه عودٌ من الخشوع، تنزل العصافير على ظهره ولا تحسبه إلا جذم[(٣)] حائط[(٤)].

وعن أسماء أن عبد الله بن الزبير كان يصلي في بيته فسقطت حية من السقف على ابنه هاشم. فصاح أهل البيت: الحية. ولم يزالوا بها حتى قتلوها، وعبد الله ابن الزبير يصلي ما التفت ولا عَجَّل، ثم فرغ بعد ما قتلت. فقال: ما بالكم؟ قالت أم هاشم: أي رحمك الله. أرأيت إن كنا هُنّا عليك. أيهون عليك ابنك؟ فقال: ويحك. ما كانت التفاتة - لو التفتها - مبقية من صلاتي[(٥)].

وأما علي بن الحسين زين العابدين فقد وقع حريق في داره وهو ساجد، فجعلوا

---

(١) مجلة «المسلمون» السنة الأولى (٩٦١) لعبد الوهاب عزام.
(٢) الزهد (صـ ٢٥٢) لأحمد.
(٣) جذم: أصل.
(٤) «حلية الأولياء» (١/ ٣٣٥).
(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٢٩٣).

يقولون له: يا ابن رسول الله: النار! يا ابن رسول الله النار! فما رفع رأسه حتى أطفئت فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: ألهتني عنها النار الأخرى(١).

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية المسجد، ففزع أهل السوق لهدمه، وإنه لفي المسجد في صلاته، فما التفت، فلما قيل له. قال: ما يدريكم أين قلبي؟(٢).

لقد فهم عبد الله بن الزبير أن السجود حدائق ذات بهجة، وروض للمرضى فاستلقى فيه حتى قال الذين رأوه: ركع ابن الزبير - أو سجد - يومًا ركعة، فقرأت البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وما رفع رأسه!!

(٦) الصلاة مفتاح الجنة، وهي نجاة من النار:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: **«من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف»**(٣).

وعن أم حبيبة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: **«من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها حُرِّم على النار»**(٤).

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ الله له نُزلاً من الجنة كلما غدا أو راح»**.

ومن حديث أبي زهيرة بن رُؤَيْبَة أنه ﷺ قال: **«لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها»**(٥). ويلج: يدخل.

ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من صلى البردين دخل الجنة»**(٦)، ومعلوم أن البردين الفجر والعشاء، أو الفجر والعصر.

---

(١) السابق (١/ ٣٤٠).

(٢) الزهد (صـ ٣٠٦) لأحمد.

(٣) جيد الإسناد: أحمد (٢/ ١٦٩) في المسند، وجوده المنذري (١/ ٣٨٦) في «الترغيب والترهيب».

(٤) صحيح: صححه الألباني (٥٨٣) في «صحيح الترغيب».

(٥) صحيح: مسلم (١٣٤/ ٢١٣) في المساجد.

(٦) متفق عليه: البخاري (٥٧٤)، مسلم (٦٣٥/ ٢١٥).

ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من صلى الضحى أربعًا، وقبل الأولى أربعًا، بُني له بيت في الجنة**»(١).

(٧) رضا الله تعالى، والأجر الجزيل، والنور التام يوم القيامة:

فقد جاء من حديث بريدة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**بشّر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»(٢).

وما من شك أن هذا النور جزء من النور الذي يسعى به المؤمنون يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ (الحديد: ١٢).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

وقد سبق حديث: «**من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة**».

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مَنْ خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاجّ المُحْرِم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه - لا يتعبه - إلا إياه فأجره كأجر المعتمر، وصلاةٌ على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين**»(٣).

ومن حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة، تامة، تامة**»(٤).

ومن حديث عثمان رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلّى الليل كله**».

وفي رواية: «**من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء**

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٦٣٤٠) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: صححه الألباني (٢٨٢٣) في «صحيح الجامع».

(٣) حسن: حسنه الألباني (٦٢٢٨) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: صححه الألباني (٦٣٤٦) في «صحيح الجامع».

والفجر في جماعة كان كقيام ليلة»[(١)].

(٨) شهود الملائكة لعباد الله المصلين:

فإن الملائكة تشهد كل عمل صالح يقصد بذلك ملائكة الرحمة والحفظة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨).

وقال ابن كثير: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر[(٢)].

وقد قال أبو هريرة عن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «**تشهده ملائكة الليل والنهار**»[(٣)].

وذلك أن صلاة الفجر تجتمع فيها ملائكة الليل والنهار كما جاء في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**».

ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(٤)] (الإسراء: ٧٨).

ومن حديثه أيضًا أنه ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون**»[(٥)].

(٩) أن المصلي في حفظ الله تعالى وذمته:

وفي رواية جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**»[(٦)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣٤١، ٦٣٤٢).
(٢) ابن كثير (٥/ ٧٨).
(٣) صحيح: الترمذي (٣١٣٥) في التفسير، وصححه الألباني هناك.
(٤) صحيح: البخاري (٦٤٩) في الأذان، مسلم (٦٤٩) في المساجد.
(٥) صحيح: البخاري (٥٥٥) في المواقيت، مسلم (٦٣٢) في المساجد.
(٦) صحيح: مسلم (٦٥٧/ ٢٦١، ٢٦٢) في المساجد.

وقال النووي رحمه الله: الذمة هنا الضمان، وقيل: الأمان[١].

(١٠) المصلي مرحوم برحمة الله تعالى:

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعًا»**[٢].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلّت فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل، فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»**[٣].

(١١) والصلاة خير من كل شيء:

فالمنادي ينادي: الصلاة خير من النوم.

والمنادي ينادي: الله أكبر ... حي على الصلاة ... حي على الفلاح.

كأنه يقول: حي على الثواب، حي على الأجر، حي على الخير، حي على القرب، حي على رضى الله تعالى.

فيا عبد الله: أرأيت لو أن عظيمًا قد دعاك إلى المثول بين يديه في وقت معين، أفكنت تعرض عن دعوته؟ أو تتأخر عن إجابته؟!

لو أن ملكًا من ملوك الأرض، أو زعيمًا من زعمائها، قد أقام حفلاً ثم دعاك إلى تشريف هذا الحفل في وقت عينّه، وفي زمن حدّده، أفلا تسرع إلى ذلك الحفل؟ وتبادر إلى تلبية الدعوة؟

هذا ملك الملوك، هذا رب الأرض والسموات، قد دعاك إلى الوقوف بين يديه، وأمرك بالمثول على باب رحمته ورضوانه كل يوم وليلة، فلماذا تعرض عن إجابته، وتتلكأ في امتثال دعوته؟

لقد جرت عادة ملوك الدنيا وحكام الأرض، أن يقيموا على أبوابهم حجابًا وبين

---

(١) النووي (٣/ ١٥٤) على شرح مسلم.

(٢) حسن: الألباني (٣٤٩٣) في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: صححه الألباني (٤٣٩٤) في «صحيح الجامع».

أيديهم حراسًا، فلا يلقون أحدًا إلا بعد استئذان ولا يؤذن إلا لمن ارتضوا.

لكن رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، قد تجلى من علياء كبريائه، ودعا خلقه إلى مناجاته ودعائه، وأذن لهم أن يقفوا بين يديه كلما أرادوا، بل حتم عليهم أن يقرعوا باب جوده وكرمه كل يوم وليلة خمس مرات يسبحون بحمده، ويتمدحون بفضله، ويغترفون من بحار نعمائه. . .

سبحانك اللهم يا ربنا، وتباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، تحفى الأقدام في الوصول إلى رئيس، أو التقرب من كبير أو عظيم، وأنت أقرب إلى خلقك من أنفسهم، وأسمع لدعائهم وأبصر بتضرعهم، لم تجعل بينك وبين عبادك حجابًا يمنعونهم من مناجاتك، أو يحولون بينهم وبين تجلياتك، أو يدفعونهم عن التقرب إليك، والمثول بين يديك، من تقرب منك شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب منك ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاك يمشي صببت عليه رحمتك، ومنحته رضوانك، وأنت القائل في كتابك الذي أيدت به نبيك: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٦).

وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»(١).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ركعتان خفيفتان بما تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم**»(٢).

(١٢) الصلاة تؤكد وتقوي روابط الأخوة والمحبة بين المسلمين، وتجعل المسلم عضوًا نافعًا في مجتمعه:

وإذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس، وتطبعه بطابع خلقي جميل، فإن هذه الصفات تجعل المقيم لها رضي النفس، حسن الخلق، عضوًا نافعًا في المجتمع الذي يعيش فيه، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج، ويعم خيرها الناس.

---

(١) صحيح: مسلم في صلاة المسافرين- باب (١٤) رقم (٩٦).

(٢) صحيح: صححه الألباني (٣٥١٨) في «صحيح الجامع».

ثم إن الإسلام حبب في صلاة الجماعة، وأوجب صلاة الجمعة كل أسبوع. واجتماع أهل الحي في اليوم خمس مرات، مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماعًا أوسع مدى، يقوي الروابط الاجتماعية، ويشد أواصر الصلات بين الجماعة، ويشعر كل واحد بأنه أخ لكل من في المسجد، وأنه مساو له، فتنمو روح المساواة الحقيقية، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عظيم وحقير، فكلهم عباد الله.

وبهذه الممارسة العملية للمساواة تنتفي فوارق اللون وفوارق الثراء، وفوارق الدم، فيشعر الفرد شعورًا حقيقيًّا بأنه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنها للفرد.

ويكفي أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**رجل قلبه معلق بالمساجد**».

وهذا ما يعطي أهمية لصلاة الجماعة التي ضيعها كثير من المسلمين بحجة العمل أو الانشغال، أو بالتكاسل وقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (المنافقون: ٩).

قال المفسرون: المراد بذكر الله تعالى في هذه الآية: الصلوات الخمس فمن اشتغل بماله في بيعه وشرائه وضَيْعته وأولاده عن الصلاة في وقتها كان من الخاسرين.

وقد قال الله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ (مريم: ٥٩).

قال ابن عباس: ليس معنى أضاعوها: تركوها بالكلية ولكن أخروها عن وقتها.

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين رحمه الله: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس، فمن مات وهو مصرٌّ على هذه الحالة ولم يتب وعده الله بغيٍّ وهو واد في جهنم بعيد قعره، خبيث طعمه.

وقال الله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ (الماعون: ٤، ٥). أي: غافلون عنها، متهاونون بها.

سماهم مصلين، لكنهم لما تهاونوا بها، وأخروها عن وقتها وعدهم بويل وهو شدة العذاب، وقيل: هو وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره وهو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن وقتها إلا أن يتوب إلى الله ويندم

على ما فرط، . . . وقد سبق حديث: «**ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانًا ولا نجاة يوم القيامة، وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأُبي بن خلف**».

إنما يحشر تارك الصلاة مع هؤلاء الأربعة، لأنه إنما يشتغل عن الصلاة بماله أو بملكه أو بوزارته أو بتجارته، فإن اشتغل بماله حشر مع قارون، وإن اشتغل بملكه حشر مع فرعون، وإن اشتغل بتجارته حشر مع أبي بن خلف تاجر الكفار بمكة.

وقال ابن حزم: لا ذنب بعد الشرك أعظم من تأخير الصلاة عن وقتها، وقتل المؤمن بغير حق(١).

*** وهذه طائفة من الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين في حكم تارك صلاة الجماعة.**

فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أنطلق معي برجالٍ معهم حزمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاة في الجماعة، فأحرق بيوتهم عليهم بالنار**»(٢).

وجاء أعمى إلى النبي ﷺ فطلب منه الرخصة في الصلاة في بيته فرخص له ﷺ ثم دعاه فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**»، فقال: نعم. فقال: «**أجب**»(٣).

ومن رواية أبي داود عن عمرو بن أم مكتوم أنه قال: إنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، وأنا ضرير البصر، شاسع الدار - أي بعيد الدار - ولي قائد لا يلائمني فهل لي رخصة أن أصلي في بيتي؟ فقال: «**هل تسمع النداء؟**»، فقال: نعم. فقال: «**فأجب فإني لا أجد لك رخصة**»(٤).

فكيف بصحيح البصر، السليم الذي لا عذر له؟!

لقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يصلي في جماعة ولا يُجمّع فقال: إن مات على هذا فهو في النار.

---

(١) «الكبائر» للذهبي (صـ ١٨) إلى (صـ ٢٠) بتصرف يسير.

(٢) صحيح: البخاري (٦٤٤)، مسلم (٦٥١/ ٢٥١) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: مسلم (٦٥٣) في صلاة المسافرين.

(٤) صحيح: أبو داود (٥٥٢) في الصلاة.

وقال أبو هريرة: لأن تمتلئ أذن ابن آدم رصاصًا مذابًا خير له من أن يسمع النداء ولا يجيب.

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا -يعني يوم القيامة-، فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، فإن الله شرّع لنبيكم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق أو مريض، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف، أو حتى يجيء إلى المسجد لأجل صلاة الجماعة(١).

وقال ابن عمر: كنا إذا تخلف منا إنسان في صلاة العشاء والصبح في الجماعة أسأنا به الظن أن يكون نافق.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (القلم: ٤٢، ٤٣).

قال كعب الأحبار: «ما نزلت هذه الآية إلا في الذين تخلفوا عن الجماعة».

وقال إبراهيم التيمي: يعني إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة.

وقال سعيد بن المسيب: «كانوا يسمعون: (حي على الصلاة - حي على الفلاح) وهم أصحاء سالمون».

وقال بعض السلف: «ما فاتت أحدًا صلاة الجماعة إلا بذنب أصابه»(٢).

السلف وصلاة الجماعة:

أما الربيع بن خُثيم رضي الله عنه وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود فقد أصابه الفالج - أي الشلل أعاذنا الله منه - فكان يخرج إلى الصلاة يتوكأ على رجلين. فيقال له: يا أبا محمد، قد رخص الله لك أن تصلي في بيتك. أنت

---

(١) صحيح: مسلم (٢٥٦/ ٦٥٤) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) نقلاً عن «الكبائر» للذهبي.

معذور. فيقول: هو كما تقولون. ولكن أسمع المؤذن يقول: (حي على الصلاة، حي على الفلاح) فمن استطاع أن يجيبه ولو زحفًا أو حبوًا فليفعل.

وقال حاتم الأصم: فاتتني مرة صلاة الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولدٌ لعزاني أكثر من عشرة آلاف إنسان، لأن مصيبة الدين عند الناس أهون من مصيبة الدنيا.

وقال عبيد الله بن عمر القواريري رضي الله عنه: لم تكن تفوتني صلاة العشاء في الجماعة قط، فنزل بي ضيف فشُغِلت بسببه، وفاتتني صلاة العشاء في جماعة، فخرجت أطلب الصلاة في مساجد البصرة، فوجدت الناس كلهم قد صلوا، وغلقت المساجد، فرجعت إلى بيتي .... فصليت العشاء سبعًا وعشرين مرة ثم نمت فرأيت في المنام كأني مع قومٍ على خيلٍ وأنا أيضًا على فرس، ونحن نستبق، وأنا أركض - أي أجري - فرسي فلا ألحقهم. فالتفت إليّ أحدهم. فقال لي: لا تتعب فرسك فلست تلحقنا. قلت: ولِمَ؟. قال: لأنا صلينا العشاء في جماعة، وأنت صليت وحدك، فانتبهت وأنا مغموم حزين لذلك[1].

* **فضل الصلاة في جماعة:**

وقد سبق حديث: **«من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له منزلاً في الجنة كلما غدا أو راح».**

وسبق حديث: **«صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، وتصلي الملائكة عليه ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه يقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم تُبْ عليه، ما لم يؤذ فيه أو يحدث فيه».**

وسبق حديث: **«بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».**

وسبق حديث: **«من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى الصبح**

---

(١) نقلاً عن الذهبي (صـ ٢٨، ٢٩) في «الكبائر».

في جماعة فكأنما صلى الليل كله».

وللاستزادة ارجع إلى جزئية: «رضا الله تعالى، والأجر الجزيل، والنور التام يوم القيامة».

* حكم تارك الصلاة:

لقد أوجب الله الصلاة علينا في كل حال، فضيعها الكثير، إنهم قوم لا يصلون في وقت الأمن، فكيف يصلون في وقت الحرب؟ قوم لا يعرفون الله في وقت الرخاء، فكيف يجيبهم في زمن البلاء؟ المؤذن يناديهم بأعلى صوت، من أعلى مكان: حي على الصلاة، أقبلوا على سبب الفوز والفلاح، فهل ترى من سميع؟ هل ترى من مجيب؟: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** (الأنفال: ٢ - ٤).

أما علمت مكانة الصلاة من الدين؟ ألم تسمع بعظمتها وجلالها في الإسلام؟ ألم تعلم بأنها حد فاصل بين الكفر والإيمان؟ أما بلغك قول الله رب العالمين، في محكم كتابه المبين: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** (الماعون: ٤، ٥). فإذا كان الذي يخرج الصلاة عن وقتها، ويجمعها مع أخواتها له هذا الويل والعقاب، فماذا يكون حال التارك لها رأسًا، المعرض عن الصلاة أصلاً؟

وقد جاء في حديث مسلم عن جابر رضي الله عنهما: **«بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة».**

وفي صحيح البخاري عن بريدة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من فاتته صلاة العصر حبط عمله».**

وبنص صحيح الإسناد عن التابعي عبد الله بن شقيق التابعي قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة.

وبسند حسن عن ابن عباس كما قال المنذري (١/ ١٩٥) في «الترغيب»: «من ترك صلاة واحدة متعمداً لقي الله تعالى وهو عليه غضبان».

وبنص صحيح عن النخعي قال: من ترك الصلاة فقد كفر.

وهذه النصوص تتعاضد فيما بينهـا على كفر تارك الصلاة، إلا أننا وجدنا تفصيلاً للأمر عند الشيخ الألباني رحـمه الله في تعقيبه على حديث (٨٧) في «الصـحيحة» وهو عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا أنه ﷺ قال: **«يُدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيامٌ ولا صلاةٌ، ولا نسكٌ ولا صدقةٌ، وليسري على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها»**. قال صلة ابن زفر لحذيفـة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون صلاة ولا صـيامًا ولا نسكًا ولا صدقة؟ (ثلاث مـرات) ويعرض عنه حذيفة ثم قال: يـا صلة تنجيهم من النار (ثلاثًا).

ثم قال رحمه الله: **حكم تارك الصلاة.**

هذا وفي الحديث فائدة فقهية هامة، وهي أن شهادة أن لا إله إلا الله تنجي قائلها من الخلود في النار يوم القيامـة، ولو كان لا يقوم بشيء من أركان الإسلام الخـمسة الأخرى؛ كالصلاة وغيرها، ومن المعلوم أن العلماء اختلفوا في حكم تارك الصلاة، خاصة مع إيمانه بمشروعيتهـا؛ فالجمهور على أنه لا يكفر بذلك، بل يفسق، وذهب أحمد - في رواية - إلى أنه يكفر، وأنه يقتل ردة لا حدًّا، وقد صح عن الصحابة أنهم كانوا لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. رواه الترمذي والحاكم.

وأنا أرى أن الصواب رأي الجـمهـور، وأن ما ورد عن الصحـابة ليس نصًّا على أنهم كانوا يريدون بـ(الكفر) هنا الكفر الذي يخلد صـاحبه في النار، ولا يحتمل أن يغفره الله له، كيف ذلك وهذا حذيفة بن اليمان وهو من كبار أولئك الصحابة - يرد على صلة بن زفر - وهو يكاد يفـهم الأمر على نحو فـهم أحمد له - فيـقول: «ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون مـا صلاة ...»، فـيجـيبـه حذيفـة بعد إعراضه عنه: «يا صلة؛ تنجيهم من النار. ثلاثًا».

فهذا نص من حـذيفة رضي الله عنه على أن تارك الصلاة - ومثلها بقـية الأركان - ليس بكافر، بل مسلم ناج من الخلود في النار يوم القيـامة؛ فاحفظ هذا؛ فإنه قد لا تجده في غير هذا المكان.

وفي الحديث المرفوع ما يشهد له، ولعلنا نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثم وقفت على «الفتاوى الحديثية» (٢/٨٤) للحافظ السخاوي، فرأيته يقول بعد أن ساق بعض الأحاديث الواردة في تكفير تارك الصلاة - وهي مشهورة معروفة:

«ولكن؛ كل هذا إنما يحمل على ظاهره في حق تاركها جاحدًا لوجوبها مع كونه ممَّن نشأ بين المسلمين؛ لأنه يكون حينئذٍ كافرًا مرتدًّا بإجماع المسلمين، فإن رجع إلى الإسلام؛ قُبل منه، وإلا قتل. وأما مَن تركها بلا عذر - بل تكاسلاً مع اعتقاد وجوبها -؛ فالصحيح المنصوص الذي قطع به الجمهور أنه لا يكفر، وأنه - على الصحيح أيضًا - بعد إخراج الصلاة الواحدة عن وقتها الضروري - كأن يترك الظهر مثلاً حتى تغرب الشمس، أو المغرب حتى يطلع الفجر - يستتاب كما يستتاب المرتد، ثم يقتل إن لم يتب، ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، مع إجراء سائر أحكام المسلمين عليه، ويؤول إطلاق الكفر عليه لكونه شارك الكافر في بعض أحكامه، وهو وجوب العمل؛ جمعًا بين هذه النصوص وبين ما صح أيضًا عنه ﷺ أنه قال: **«خمس صلوات كتبهن الله** ... (فذكر الحديث، وفيه:) **إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»**، وقال أيضًا: **«من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»**...

إلى غير ذلك، ولهذا لم يزل المسلمون يرثون الصلاة ويورثونه، ولو كان كافرًا؛ لم يُغفر له؛ لم يَرِث ولم يُورَث.

وقد ذكر نحو هذا الشيخ سليمان ابن الشيخ عبد الله في «حاشيته على المقنع» (١/ ٩٥-٩٦)، وختم البحث بقوله:

«ولأن ذلك إجماع المسلمين؛ فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدًا من تاركي الصلاة تُرك تغسيله والصلاة عليه، ولا منع ميراث موروثه، مع كثرة تاركي الصلاة، ولو كفر؛ لثبتت هذه الأحكام وأما الأحاديث المتقدمة؛ فهي على وجه التغليظ والتشبيه بالكفار لا على الحقيقة؛ كقوله عيه الصلاة والسلام: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**، وقوله: **«من حلف بغير الله، فقد أشرك»**، وغير ذلك.

قال الموفق: «وهذا أصوب القولين».

أقول: نقلت هذا النص من «الحاشية» المذكورة؛ ليعلم بعض متعصبة الحنابلة أن

الذي ذهبنا إليه ليس رأيًا لنا تفرَّدنا به دون أهل العلم، بل هو مذهب جمهورهم، والمحققين من علماء الحنابلة أنفسهم؛ كالموفق هذا - وهو ابن قدامة المقدسي - وغيره؛ ففي ذلك حجة كافية على أولئك المتعصبة، تحملهم إن شاء الله تعالى على ترك غلوائهم، والاعتدال في حكمهم.

بيد أن هنا دقيقة قَلَّ من رأيته تنبَّه له، أو نبَّه عليها، فوجب الكشف عنها وبيانها، فأقول:

إن التارك للصلاة كسلاً إنما يصح الحكم بإسلامه، مادام لا يوجد هناك ما يكشف عن مكنون قلبه، أو يدل عليه، ومات على ذلك قبل أن يستتاب؛ كما هو الواقع في هذا الزمان، أما لو خُيِّر بين القتل والتوبة بالرجوع إلى المحافظة على الصلاة، فاختار القتل عليها، فقتل؛ فهو في هذه الحالة يموت كافرًا، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا تجري عليه أحكامهم؛ خلافًا لما سبق عن السخاوي؛ لأنه لا يُعقل - لو كان غير جاحد لها في قلبه - أن يختار القتل عليها، هذا أمر مستحيل معروف بالضرورة من طبيعة الإنسان، لا يحتاج إثباته إلى برهان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في «مجموعة الفتاوى» (٢/ ٤٨):

«ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يقتل؛ لم يكن في الباطن مقرًّا بوجوبها، ولا ملتزمًا بفعلها، وهذا كاف باتفاق المسلمين؛ كما استفاضت الآثار عن الصحابة بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة... فمن كان مصرًّا على تركها حتى يموت؛ لا يسجد لله سجدة قط؛ فهذا لا يكون قط مسلمًا مقرًّا بوجوبها؛ فإن اعتقاد الوجوب، واعتقاد أن تاركها يستحق القتل، هذا داع تام إلى فعلها، والداعي مع القدرة يوجب وجود المقدور، فإذا كان قادرًا ولم يفعل قط؛ علم أن الداعي في حقه لم يوجد».

ثم قال رحمه الله: قلت: هذا منتهى التحقيق في هذه المسألة، والله ولي التوفيق[١].

ولم يبق إلا أن نهتف بالمسلمين من تاركي الصلاة: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم).

---

(١) من «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٧٥- ١٧٨) للعلامة الألباني رحمه الله.

[٢] الزكاة ... والصدقات

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ اسْتَطاعَ مِنْكُم أن يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ ولو بِشِقٍّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ ومالٍ وحاضرة، فأخبرني كيف أصنع؟ وكيف أنفق؟ فقال ﷺ: «**تُخْرِجُ الزَّكاةَ مِنْ مالك، فإنها طُهْرَةٌ تُطهِّرُك، وتَصِلُ أقرباءك، وتَعْرِفُ حق المسكين والجار والسَّائِلِ**»(٢).

❁ ❁ ❁

*** أحكام الزكاة والصدقة:**

(١) معنى الزكاة:

الزكاة لغة: النماء والطُّهر(٣).

وقد لوحظ هذا المعنى في المعنى الشرعي حيث لوحظ فيها نماء المال وبركته، وتطهيره من الغرور به، ونظرة الحقد والحسد إليه من جانب المحرومين.

وقال الكمال بن الهمام: ومناسبة للقوي أنه سبب له إذ يحصل به النماء، بالإخلاف منه تعالى في الدارين، والطهارة للنفس من دنس البخل والمخالفة، وللمال إخراج حق الغير منه إلى مستحقه، أعني الفقراء(٤).

---

(١) صحيح: البخاري (١٤١٧) في الزكاة، مسلم (١٠١٦/ ٦٦) في الزكاة، واللفظ له

(٢) صحيح: أحمد (١٢٣٣٤) في «المسند» (٣/ ١٣٦)، وقال الهيثمي (٣/ ٦٣) في «المجمع»: ورجاله رجال الصحيح، وصححه العلامة شاكر هناك.

(٣) لسان العرب- مادة: زكا- (١٨٤٩) طبعة دار المعارف.

(٤) «فتح القدير» (٢/ ١٥٣)، وانظر الدكتور أحمد يوسف سليمان (صـ ١٧٣) «العبادات في الإسلام».

والزكاة شرعًا: اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى - راجيًا بذلك نماء له وطهارته، وقد يطلق على نفس إخراج هذه الحصة، أو هي حصة مقدرة، من مال مخصوص في وقت مخصوص في جهات مخصوصة[١].

(٢) حكم الزكاة والدليل عليه:

الزكاة فرض على كل مسلم ومسلمة بشروطٍ خاصة، وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة.

والدليل من القرآن: قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ (التوبة: ١٠٣).

وقد تكرر ذكر الزكاة في القرآن مُعرفة: ثلاثين مرة[٢].

ذكر في سبعة وعشرين موضعًا منها مقترنة بالصلاة ما عدا موضعًا واحدًا. ذكرت الزكاة في آية مستقلة بعد آية واحدة من الآية التي ذكرت فيها الصلاة، وهو قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ (المؤمنون: ٢ - ٤).

والمتبع للآيات الثلاثين التي ذكرت فيها الزكاة يجد أن ثمانين منها في السور المكية، وأن سائرها في السور المدنية.

ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧٧).

وقد يستعمل لفظ الصدقة ويراد به الزكاة كقوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٠٣).

وأما من السنة: فقد وردت كثير من الأحاديث والسنة تدل على فرضية الزكاة. من تلك الأحاديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال: «**إنك تأتي أقوامًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله،**

---

(١) «صحيح فقه السنة» (٢/ ٥)، «فقه الزكاة» (١/ ٣٨).

(٢) «فقه الزكاة» (١/ ٤٢)، «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» للأستاذ محمد عبد الباقي- مادة (زكا).

وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم صدقة من أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»**(٢).

(٣) تاريخ فرضها(٣):

ورودها في آيات من السور المكية، ووجودها مقترنة بالصلاة يشعر أنها كانت مفروضة على المسلمين في مكة، ولكن لم تحدد مقاديرها إلا في المدينة ولعله كان المراد بها أثناء العهد المكي مطلق الإنفاق في وجوه الخير، أما في المدينة في السنة الثانية من الهجرة فقد فرضت الزكاة المعروفة، التي هي أحد أركان الإسلام، ونحن نميل إلى التوجيه الأخير؛ لأنه لا معنى لأن تفرض، دون أن يعرف المفروض عليهم والمقادير التي يجب أن يخرجوها، ولا المقادير التي تجب فيها (الأنصباء كما سيأتي).

(٤) حكمة مشروعيتها:

من العبادات في الإسلام ما هو بدني محض، ومنها ما هو مالي محض، ومنها ما يجمع بين المالية والبدنية. فالصلاة عبادة بدنية، وكذلك الصوم، والزكاة عبادة مالية أما الحج فعبادة مالية وبدنية.

والمعروف أن المال شقيق الروح - فإخراجه دليل الإيمان، وبرهان اليقين. والحكمة في مشروعيتها: استئصال شأفة الحقد، بما تدفع المسلمين إليه من التضامن الاجتماعي، وغرس بذور الألفة والمودة، ونشر التعاون بين أفراد المجتمع. وذلك لأنها تعلم المسلمين أن الزكاة ليست تفضلاً من الأغنياء على الفقراء، يخرجها

---

(١) صحيح: البخاري (١٣٩٥) في الزكاة، مسلم (١٩/٢٩- ٣١) في الزكاة.

(٢) صحيح: البخاري (٨) في الإيمان، مسلم (١٦) في الإيمان.

(٣) اعتمدت هنا اعتمادًا كليًا على كتاب الدكتور (أحمد يوسف سليمان. أستاذ الشريعة بدار العلوم) «العبادات في الإسلام»- جزء الزكاة.

الأولون ممتنين بها، ويقبلها الأخيرون في مـذلة ومسكنة، بل هي حق الفقير في مال الغني. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٤، ٢٥).

وبالزكاة يحدث نوع من التوازن بين الطبقات الاجتماعية، فإن الإسلام يرفض أن يوجـد من يسكن القصـور الشامـخة، وبجـواره من لا يجد مـأوى ولو بين مقـابر الموتى، كمـا يرفض أن يوجد من يضع يده على بطنه شاكـيًا التخمـة، وبجواره من يضع يده على بطنه شاكـيًا الجوع والمخمـصة، لأن هذه الفوارق الضخـمة هي التي تولد الكراهية والأحقاد، التي هي (الكراهية) سـبيل الملحدين إلى إحداث الثورات، وإثارة القلاقل بغية ركوب الموجة للوصول السريع إلى عروش الدول، ومراكز القيادة فيها.

وليس في نظام الزكـاة أدنى غبن للأغنياء، بل إنه راعى الأنـواع التي تجب فيـها الزكاة، ومقاديرها، والكمـية التي طلب إخراجها، بحيث تتعـادل مع جهد الإنسان وتعبه من جـهة، ومع تفضل الله عليه ورحـمته به من جهـة أخرى (وإن كان الكل فضلاً من الله)، فإذا كان تعب صاحب المال لتثـميره كثيرًا، أوجب الشرع الإسلامي فيه زكـاة بمقدار قليل، وإذا كان جهد الإنسـان في تثمير هذا المال قليـلاً أوجب فيه زكاة بمقـدار أكثـر. وهكذا. كمـا سنرى - خلال حـديثنا عن زكاة الزروع والثـمار والتـجارة والركـاز وغيـرها من أنواع الأموال - على أن الإسـلام لم يقرر الزكـاة، للطوائف المذكورة في مصارفها، والتي سنعرض لها عند حديثنا عن مصارف الزكاة، كالفقـراء والمساكين والعاملين عليهـا. . . إلخ، لم يقرر لهم أخذها إلا بعـد استنفاد جـهدهم فـي الوسائل الخـاصـة المشـروعة، في الارتزاق من أجل الحـصـول على كفـايتهم، ولذلك لا نجد آية واحـدة من آيات القرآن الكريم، ولا حديثـا واحدًا من أحاديث النبي ﷺ فيما نظن يطلب أي منها من هؤلاء أن يأخذوا أموال الأغنياء، بل الموجود في المصادر الأصليـة للتشريع الإسلامي الحث على التعـفف، والتحذير من السؤال والتـشوف للأخذ من مـال الغير، والحض على أن تكـون يد المؤمن هي اليد العليا.

كما أن الزكاة من أهم عوامل الرواج الاقتصادي، وذلك لأنها تحارب الكنز، ومن تجرأ وكنز ماله، مدخرًا له ومانعًا من إنفاقه أو استثماره، فإن الزكاة تنقصه كل عام بنسبة ٢,٥٪ . الأمر الذي يدفع صاحب المال دفعًا إلى أحد أمرين: الأول إنفاقه. والثاني استثماره. وفي الإنفاق والاستثمار أكبر الدوافع للرواج الاقتصادي.

ويرى بعض العلماء أنه عن طريق الزكاة، يمكن حل كثير من المشكلات الاجتماعية، ومهما رفع دعاة الاشتراكية(١) رءوسهم، ونادوا بها فيما بين الناس، فإنك لست واجدًا في تعبيرهم ولا في واقع حياتهم ما يقرب من تلك الاشتراكية النابعة من ضمير الإيمان، والتي يجعلها الإسلام دينًا، تقترن الدعوة إليه بالدعوة إلى الصلاة وشهادة التوحيد، والتي يكون بها كل المال ملكًا للأمة، تحفظه اليد المستخلفة فيه وتنميه، ثم تنتفع به كلها، ويخرج من أحد جانبيها، ويقع في الجانب الآخر، فهو منها كلها وإليها كلها، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة، كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية، ولا خادم فيها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هي شخصية المجتمع، الذي لا قوام له إلا بتكامل هاتين اليدين على بقائه وخيره، ولعله بهذا يظهر مرة أخرى معنى الوسطية، التي حل بها الإسلام المشكلة المالية، تلك المشكلة التي ظل بها العالم - في أمسه وحاضره - يتردد بين طرفي الإفراط بالطغيان بالمال، والتفريط بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الإنساني، وسخر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة، وأفلست دعاوى المدعين، الذين يخدمون أنفسهم في واقع الأمر، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الإنساني. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٢) (الأنعام: ١٣٢).

*** ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يُعط فيها حقها تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يُعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها»، قال: «ومن**

---

(١) يقصد عدالة الإسلام الاجتماعية.

(٢) «الإسلام عقيدة وشريعة» لفضيلة الشيخ/ محمود شلتوت رحمه الله إمام الأزهر الأسبق (صـ ٩٥) ط دار الشروق.

حقها أن تُحلب على الماء» قال: «ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعارٌ، فيقول: يا محمد، فأقول: إني لا أملك لك شيئًا قد بلغت، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رُغاء فيقول: يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلغت»[١].

وتطؤه: تدوسه، وبأخفافها: بأقدامها، وأظلافها: كالأقدام للغنم، ويعار: صوت الشاة، ورغاء: صوت الإبل.

* وعنه أيضًا أنه ﷺ قال: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»**. قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: **«ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها: حلبها يوم وردها إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار»** قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: **«ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار»**[٢].

(٥) حكم مانع الزكاة:

الزكاة من الفرائض المجمع عليها، والتي تناقلتها الكافة عن الكافة، نقلاً متواترًا ثابتًا، حتى أصبح من ينكرها ينكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، وهو بذلك يصبح كافرًا يقتل كفرًا، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر الإسلام إلا إذا كان قريب عهده بالإسلام. فإنه يُعلّم.

أما من اعتقد وجوبها، ولكنه امتنع عن أدائها، فإنه يأثم، وعلى الحاكم للدولة

---

(١) صحيح: البخاري (١٤٠٢) في الزكاة، مسلم (١٨٣١/ ٢٤) في الإمارة.

(٢) صحيح: مسلم (٩٨٧/ ٢٤) في الزكاة.

الإسلامية أخذها منه ولو بالقوة.. ولو تكونت مجموعة ذات شوكة، ومنعت الزكاة، اعتبروا من الخارجين على السلطة الشرعية. فيجب على الإمام حربهم، فقد قال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما تُوفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله تعالى**».

فقال: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق(٢).

وقد رغَّب التشريع الإسلامي في إخراجها، ورهَّب من منعها.

ومن ذلك الترغيب قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ (الذاريات: ١٥ - ١٩).

وفي الترهيب من عدم أدائها: قال الله تعالى: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (آل عمران: ٨٠).

وقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

وقال النبي ﷺ: «**من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له**

---

(١) صحيح: البخاري (١٣٩٩) في الزكاة، مسلم (٢٠/ ٣٢) في الإيمان.

(٢) صحيح: البخاري (١٤٠٠) في الزكاة، مسلم (٢٠/ ٣٢) في الإيمان.

زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه[١]. ثم يقول: أنا كنزك. أنا مالك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ . . . الآية[٢] (آل عمران: ١٨٠). قاع قرقر: أي أرض واسعة مليئة بالماء، وعقصاء: ملتوية القرنين، وجلحاء: لا قرن لها، وعضباء: التي انكسر قرنها الداخلي.

وهذه هي العقوبة الأخروية، وأما العقوبة الدنيوية فقد تحدث عنها النبي ﷺ فقال: - كما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - : «... **وما منع قومٌ زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا...**»[٣].

(٦) على من تجب الزكاة؟

لا تجب الزكاة إلا على من توفرت فيه الشروط الآتية:

١- الإسلام: فالمسلم هو الذي تجب عليه، لأنها عبادة إسلامية، فلا يلزم بها غير المسلم، ولهذا الاعتبار أبت سماحة الإسلام وحساسيته المرهفة في معاملة غير المسلمين، واحترام عقائدهم، أن يفرض عليهم، - وإن كانوا مقيمين على أرض الدولة الإسلامية - ضريبة لها صبغة دينية واضحة، حيث إنها تعد شعيرة من شعائر الإسلام الكبرى، وعبادة من عباداته الأربع، وركنًا من أركانه الخمسة، ولكن يمكن أن يفرض عليهم الإمام ضريبة تعادل الزكاة، تحت أي اسم غير اسم الزكاة لمصلحة المجتمع، الذي يعيش فيه المجتمع[٤].

٢- التكليف (البلوغ والعقل): أما الصغير فلا تجب عليه إخراج زكاة ماله، وكذلك المجنون، لأنهما غير مكلفين، ولكن يخرج عنهما وليهما، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ قال: «**ابتغوا في مال اليتيم** -أو في أموال اليتامى-، **لا تذهبها**- أي: **لا** تستهلكها -**الصدقة**». قال في «المجموع»: أخرجه الشافعي في مسنده، وقال البيهقي والنووي: إسناده صحيح[٥].

---

(١) لهزمتيه: شفتيه.

(٢) صحيح: البخاري (١٤٠٣) في الزكاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) حسن: قطعة من حديث رواه ابن ماجه (٤٠١٩) في الفتن- باب (٢٢)، وحسنه الألباني (١٠٦) في «الصحيحة».

(٤) «فقه الزكاة» (١/ ٩٨).

(٥) «المجموع» (٥/ ٢٨١).

٣- ملكية نصاب الزكاة: بحيث يكون هذا النصاب فاضلاً عن حاجته الضرورية.

٤- وأن يحول عليه الحول الهجري: - يعني العام الهجري - ما عدا زكاة الزروع والثمار وما يلحق بها، والركاز والمعادن، وما يشبهها. كما سيأتي تفصيل ذلك.

(٧) مصارف الزكاة:

المقصود بمصارف الزكاة الجهات التي تصرف فيها، وهذه الجهات ثماني، هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

*** الصنفان الأول والثاني: الفقراء والمساكين:**

وسوف نخص كلاً منها بكلمة توضحه، وتبين مدى عناية التشريع الإسلامي به.

الفقير هو المحتاج المتعفف الذي لا يسأل[١]، والمسكين هو المتذلل الذي يسأل، وأما عند الفقهاء بخصوص الزكاة، فالفقير عند الأحناف من يملك شيئًا دون النصاب الشرعي في الزكاة، أو يملك ما قيمته نصاب، ولكنه يحتاج إليه في استعماله والانتفاع به، أما المسكين فهو الذي لا يملك شيئًا[٢]، وهو كذلك عند المالكية ولكن بالنظر إلى كفايته وعدم كفايته، فالفقير عندهم من لا يملك قوت عامه، والمسكين من لا يملك شيئًا[٣]، وأما عند الشافعية فالفقير هو من لا يملك ما يكفيه من الضروريات له، ولمن تلزمه نفقته، كمن يحتاج إلى مائة، وليس له إلا عشرون أو ثلاثون، أو هو من يملك أقل من نصف كفايته.

والمسكين من يملك مالاً يكفيه، وهو أكثر من نصف كفايته[٤].

أما الغني الذي يملك النصاب، أو يجد كفايته في حدود الشرع، فلا يأخذ من الزكاة شيئًا، إلا إذا كان من العاملين عليها، أو الغارمين، كما سيأتي، على أنه

---

(١) تفسير الطبري (جـ ١٤) (صـ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) انظر وجهة نظر الأحناف في الفقير والمسكين في «فتح القدير» (جـ ٢) (صـ ٢٦٠).

(٣) حاشية الدسوقي على «الشرح الكبير» (جـ ١) (صـ ٤٩٢)، حاشية الخرشي (جـ ٢) (صـ ٢١٢).

(٤) «نهاية المحتاج» لشمس الدين الرملي (جـ ٦) (صـ ١٥١- ١٥٣)، «المجموع» للنووي (جـ ٦) (صـ ١٣٥، ١٤٢).

يجب أن يلاحظ أن الفقير القادر على الكسب لا يأخذ شيئًا من الزكاة، مادام قادرًا على الكسب، ويجد العمل الذي يكفيه هو وعياله(١).

ولذلك فيشترط في الفقير عدة شروط لكي لا يأخذ الزكاة وهي:

١- أن يجد العمل الذي يكتسب منه.

٢- أن يكون هذا العمل حلالاً شرعًا.

٣- أن يقدر عليه من غير مشقة شديدة فوق المحتمل عادة.

٤- أن يكون ملائمًا لمثله، ولائقًا بحاله، ومركزه الاجتماعي، ومروءته.

٥- أن يكتسب منه قدر كفايته وكفاية من يعولهم(٢).

أما إذا لم تتوفر فيه هذه الشروط جميعها، فإنه يأخذ من الزكاة، من سهم الفقراء أو المساكين، ويكون ما يأخذه قدر كفايته سنة كاملة على الأقل. والأولى أن تقيم الدولة المسلمة من مال الزكاة المؤسسات والمصانع، ليعمل بها القادرون على العمل من الفقراء والمساكين ولا يجدونه، أو أن تنشئ به الشركات والمصانع، ثم تملكها لهم فتدر عليهم دخولاً ثابتة تكفيهم، ويوزع عليهم هذا الدخل سنويًا أو شهريًا.

*** الصنف الثالث: العاملون عليها:**

الغرض من العاملين عليها، القائمون على جمعها من الأغنياء، ثم توزيعها على الأصناف المستحقة، وهذا معناه، أن «العاملين عليها» جهاز إداري لشئون الزكاة، من جباة يحصلونها ومن موزعين يوزعونها على أهلها(٣).

ومعنى هذا أن المسئولية هنا على الدولة الإسلامية، بأن تعين هؤلاء العمال وتقسمهم إلى قسمين:

القسم الأول: الجامعون لها. ويشبهون مأموري الضرائب.

القسم الثاني: الموزعون لها. ويشبهون الضمان الاجتماعي.

---

(١) انظر «المجموع» (جـ ٦) (صـ ١٣٦).

(٢) المرجع السابق، وانظر «فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٥٥٩).

(٣) «فقه الزكاة» (جـ ٢) (صـ ٥٧٩).

ويشترط في العامل الذي يقوم بجمع الزكاة أو توزيعها عدة شروط أهمها:

١- أن يكون مكلفًا أي بالغًا عاقلاً.

٢- أن يكون أمينًا.

٣- أن يكون كفئًا للقيام بالمهام الموكولة إليه جمعًا أو توزيعًا.

وهذه الصفات مأخوذة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، وهي نفسها صفات العامل المسلم في أي مجال من مجالات العمل. ويعطى العامل من سهام الزكاة، وإن كان غنيًّا؛ لأنه يأخذ بصفته عاملاً، لا بصفته فقيراً، ولأنه بمثابة الأجير، الذي تؤجره الدولة للقيام بعمل محدد، فإذا أداه استحق أجره.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل جار مسكين، فتصدق على المسكين، فأهداها المسكين للغني»** . (رواه أبو داود).

*** الصنف الرابع: المؤلفة قلوبهم:**

وهم كل من أعطي من الزكاة لاستمالته إلى الإسلام، أو الثبات عليه، أو كف شره عن المسلمين، أو رجاء نفعه في الدفاع عنهم، أو نصره على عدو لهم.

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى تأليف القلوب حول الإسلام، فإننا نلاحظ أن الذين يدخلون الإسلام أفواجًا كل عام، لا يجدون معاونة ولا تشجيعًا، على حين نرى أن الجمعيات التبشيرية والإرساليات، تقوم باحتضان كل من يعتنق المسيحية، وإمداده بكل المساعدات المادية والأدبية[(١)].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه. قال: فجاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة. رواه مسلم.

وذهب الأحناف إلى أن سهم المؤلفة قلوبهم قد سقط بإقرار الله لدينه، فقد جاء

---

(١) «العبادات» للدكتور/ رفعت فوزي. (صـ ٣٣٨) الطبعة الأولى.

عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس، وطلبوا من أبي بكر نصيبهم، فكتب لهم به، فجاءوا إلى عمر، وأعطوه الخط فأبى ومزقه، وقال: هذا شيء كان النبي ﷺ يعطيكموه تأليفًا لكم على الإسلام، وأغنى عنكم، فإن ثبتم على الإسلام، وإلا فبيننا وبينكم السيف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، فرجعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: الخليفة أنت أم عمر؟ بذلت لنا الخط فمزقه عمر، فقال: هو لو شاء. وقد علل الأحناف ذلك (سقوط سهم المؤلفة) بأن الدفع إليهم في حياة النبي ﷺ للإعزاز، وقد صار عدم الدفع إليهم هو الإعزاز. ولعل أقوى ما ذكروه في هذا الصدد، إنه حكم مغيا بانتهاء علته[١] .

والأولى أن لا يقال: سقط، بل يقال: أُجل العمل به في زمن الخلفاء الراشدين لإعزاز الله الإسلام، فإن احتاج إليه المسلمون، لإعزاز دينهم، صرفوه من سهام الزكاة.

وعند الشافعي لا يتألف الكافر، أما الفاسق فيعطى عنده من سهم المؤلفة قلوبهم[٢]، ولكن الذي نختاره أن سهم المؤلفة قلوبهم ينبغي أن يحيا من جديد، لتأليف قلوب الناس حول الإسلام، ويدخل في ذلك طبع الكتب التي تبين مزايا الإسلام، أو التي ترد على خصومه وشانئيه، ونشر الصحف الإسلامية، والمجلات الإسلامية، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية التي تشرح حقائق الإسلام، أو ترد على أباطيل خصومه، ومساندة الأقليات المسلمة في بلدان العالم.

*** الصنف الخامس: في الرقاب:**

والمعني أن يخصص جزء من الزكاة لإعتاق الأرقاء، ومساعدة المكاتبين من أجل الحصول على حرياتهم. والغرض هو القضاء على الرق، ومحاربة العبودية. وإذا كان الرق قد ألغي، فإنه يمكن صرف هذا السهم في دفع الغرامات عن المسجونين الذين سجنوا من أجل عدم استطاعتهم دفعها، والعمل على فك الأسرى من

---

(١) انظر «شرح العناية على الهداية»، «فتح القدير» (جـ ٢) (صـ ٢٦٠).

(٢) انظر تفصيلات أنواع المسلمين، وأنواع الكفار الذين يأخذون أو لا يأخذون من عليهم المؤلفة قلوبهم في «المجموع شرح المهذب» (جـ ٦) (صـ ١٤٤).

المسلمين باستخدام هذه الأموال، وتحرير الشعوب الإسلامية المستعبدة الواقعة تحت يد الاحتلال الأجنبي[١].

* **الصنف السادس: الغارمون:**

الغارمـون جمع غـارم، وهو من عليه دين، بينـما الغريم هو الدائـن، وسمي بذلك لما في مـعنى الغرم والغـرامة والغـرام من الملازمـة، فلما لزم الدين سـمي غارمًا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥)[٢].

والغارمون نوعان أصلاً:

النوع الأول: الغارمون لمصلحة أنفسهم، ويشمل هذا النوع صنفين:

(أ) من استدان في مصلحة نفسه في أمر مباح من غير سرف ولا معصية، إلا أن يكون قد تاب منها، كمن استدان للقوت أو للكساء، أو للزواج أو لبناء مسكن.

(ب) من أصابته كارثة، أو نزلت به جائحة فأذهبت ماله.

فعن مجـاهد: «ثلاثة من الغارمين رجل ذهب السيل بماله، ورجل أصـابه حريق فذهب بماله، ورجل له عيال وليس له مال فهو يدان، وينفق على عياله». رواه عبد الرزاق في مصنفه[٣].

فالأثر السابق يشمل من استدان لمصلحة نفسه، ومن أصابته جائحة.

والزكاة بهذا تقوم بنوع مـن التأمين الاجتماعي، ضد الكوارث ومفـاجآت الحياة، سبق كل ما عرفه العالم - بعد - من أنواع التأمين . . .

غير أن التأمين الذي حققـه الإسلام لأبنائه بنظام الزكاة أسمى وأكمل وأشمل من التأمين الذي عرفه الغرب في العصر الحديث بمراحل ومراحل، فالتأمين على الطريقة الغربية لا يعوض إلا من اشترك بالفعل في دفع أقساط محددة لشركة التأمين، وعند

---

(١) «العبادات» (صـ ٣٣٩، ٣٤٠)، «فقه الزكاة» (جـ) (صـ ٦١٢- ٦٢١).

(٢) انظر مادة (غرم) في «لسان العرب» (صـ ٣٤١٧) طبعة دار المعارف- مصر.

(٣) «فقه الزكاة» (جـ ٢) (صـ ٦٢٣).

إعطاء التعويض يعطى الشخص المنكوب على أساس المبلغ الذي أمَّن به، لا على أساس خسائره وحاجاته، فمن كان قد أمن بمبلغ أكبر، أعطي تعويضًا أكثر، ومن كان مبلغه أقل كان نصيبه أقل مهما عظمت مصيبته، وكثرت حاجاته، وذوو الدخل المحدود يؤمنون بمبالغ أقل، فيكون حقهم إذا أصابتهم الكوارث أدنى، وذلك لأن أساس نظام التأمين الغربي للتجارة والكسب من وراء الأشخاص المؤمن لهم، أما التأمين الإسلامي، فلا يقوم على اشتراط دفع أقساط سابقة، ولا يعطي المصاب بالجائحة إلا على أساس حاجته، وبمقدار ما يعوض خسارته[١].

ويشترط في الغارم المدين لمصلحته ليسدد عنه دينه من مصارف الزكاة عدة شروط أهمها:

١- أن يكون في حاجة إلى ما يقضي به الدين.

٢- أن يكون قد استدان في طاعة أو في معصية وقد تاب منها.

٣- أن يكون الدين حالاً لا مؤجلاً.

٤- أن يكون من ديون العباد لا من ديون الله كالكفارات، لأن دين العباد يحبس فيه، بينما دين الله يستتاب ويستغفر منه، أو يظل في ذمته إلى أن يعفو الله عنه، أو يعاقبه به.

والدين الإسلامي لا يشجع أتباعه على الاستدانة، بل ولا يبيحها إلا للضرورة الملحة الملجئة، وإذا استدان المسلم في هذه الحالة، فإنه ينوي السداد مخلصًا ويبذل في سبيل ذلك قصارى جهده، فإن استطاع السداد فخيرًا فعل، وإلا تدخلت الدولة المسلمة وسددت عنه من أحد مصارف الزكاة (مصرف الغارمين).

والتشريع الإسلامي بذلك يراعي مصلحة الدائن (صاحب الدين)، حتى يشيع التضامن والتعاون بين أفراد المجتمع، والذي من صوره الإقراض الحسن، ويعمل على المحافظة على حقوق الناس وأموالهم.

النوع الثاني: الغارمون لمصلحة غيرهم، وهم فئة من الناس، يتدخلون لإصلاح

---

(١) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٩٢٤).

ذات البين بين المتخاصمين، وقد يؤدي تدخلهم هذا إلى دفعهم بعض الغرامات أو تحملهم بعض الحمالات (الديات). فهؤلاء من أهل المروءة والنجدة، يسارع أفراد المجتمع بمساعدتهم دون أن يسألوا أحدًا، وينبغي أن لا يروا في أخذهم المال لتحملهم الغرامات ذلاً أو ضعة، بل شرفًا وسؤددًا، وتمكينًا لأفراد المجتمع من المساهمة في أعمال الخير، وقد كان العرب في الجاهلية يمدحون بذلك، كما مدح زهير بن أبي سلمى هرم بن سنان في شيء من ذلك في معلقته المشهورة، وقد أقر الإسلام ما كان عليه العرب في الجاهلية من أعمال المروءات، ووجهها وجهة إسلامية، يجعل الغاية منها إسلامية، وهي ابتغاء وجه الله، بينما كانت في الجاهلية للرياء والفخر.

فعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة[(١)]، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: **«أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها»**، ثم قال: **«يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة[(٢)] اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش» - أو قال: - سدادًا[(٣)] من عيش- ، ورجل أصابته فاقة[(٤)]، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا[(٥)] من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قوامًا من عيش - أو قال: - سدادا من عيش»**. رواه مسلم.

ولا فرق في المدين بين أن يكون حيًّا أو أن يكون ميتًا، قال الخرشي: «ولا فرق في الدَّين بين أن يكون حيًّا أو ميتًا»[(٦)]، وقال القرطبي: «قال علماؤنا وغيرهم: يقضى منها دين الميت؛ لأنه من الغارمين»[(٧)].

---

(١) الحمالة: ما يتحمله الإنسان لإصلاح ذات البين من ديات ونحوها.

(٢) الجائحة: الأمر المهلك الذي يهلك زرعه أو يحرق متاعه.

(٣) السداد: ما تسد به الحاجة والخلل.

(٤) الفاقة: الفقر.

(٥) ذَوو الحجا: أصحاب العقول الراجحة.

(٦) حاشية الخرشي على «الشرح الكبير» (جـ٢) (صـ ٣١٨).

(٧) تفسير القرطبي (صـ ٣٠٢٤). وهذا هو مذهب مالك، أما أبو حنيفة فيرفض أن يؤخذ من سهم الغارمين لسداد دين الميت، لأنه لا يحبس فيه.

ويقاس على هؤلاء الغارمين كل من ساهم في مشروع من المشاريع الخيرية في المجتمع، كبناء مسجد، أو مدرسة، أو مستشفى، أو ملجأ لليتامى ... إلخ، فعلى أفراد المجتمع مساعدته ويصح أن يساعد من سهم الغارمين، لأنه يدخل ضمنهم.

ويمكن أن يقاس عليهم أيضًا من كان في حاجة إلى القرض، من باب قياس الأولى، يقول المرحوم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة: «أعتقد أن القياس الصحيح، والمقاصد العامة للإسلام في باب الزكاة تجيز لنا القول بإقراض المحتاجين من سهم الغارمين، على أن ينظم ذلك، وينشأ له صندوق خاص، وبذلك تساهم الزكاة مساهمة عملية في محاربة الربا، والقضاء على الفوائد الربوية»(١).

*** الصنف السابع: في سبيل الله:**

سبيل الله: طريقه، وإذا ورد هذا التعبير في القرآن الكريم مقرونًا بالإنفاق، فقد يكون معناه: عموم أعمال البر والصدقات والخير، وقد يكون معناه خاصًّا بالحرب والجهاد. والمعنى الأول العام، لا يصلح حمل التعبير عليه هنا، وإلا لاتسع مجال الإنفاق وخرج عن الأصناف الثمانية، التي يعتبر «سبيل الله» إحداها، والأليق - كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي -: هو المعنى الثاني (الجهاد والحرب في سبيل الله) (٢) كقوله ﷺ: **«لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»**. أخرجه البخاري.

ولكن مجال الجهاد في سبيل الله واسع، فقد يكون بالسلاح، وقد يكون بالكلمة مقروءة أو مسموعة، ومنه قوله ﷺ: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند ملك جائر»**. رواه النسائي.

ولكن الحرب لا تكون في سبيل الله إلا إذا كانت لإعلاء كلمة الله. فقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**. رواه البخاري.

---

(١) من «فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٦٣٤).

(٢) السابق (صـ ٦٣٥، ٦٣٦).

ولكن توجيه هذا السهم لإعداد الجيوش وشراء الأسلحة - في عصرنا الحديث لا يكفي، بل إن شراء الأسلحة يبتلع هذا السهم، ويبلع جميع أسهم الزكاة ولا تسد قطرة بعد أن غلت أسعار الأسلحة.

ولكن يمكن أن يساهم في بعض النواحي الجهادية، التي لا تقل قيمة عن السلاح مثل إنشاء المدارس الإسلامية، وإعداد الدعاة لإعداد القوى التي يمكنها التصدي للإلحاد والتشكيك فيه بأسلحة العصر(١).

* **المصرف الثامن: ابن السبيل:**

السبيل: الطريق. وابن السبيل: ابن الطريق. والمراد الملازم له، وهذا من كنايات العرب الذين يعقدون نسبًا بين الشيء وملازمه فيقولون: ابن ليل، وأخو حرب، على الملازم لأيٍّ منهما.

والغرض من ابن السبيل الذي يأخذ قسطًا من الزكاة: المسافر إذا نفدت نفقته، أو لم يكن معه شيء.

وقد عني المشرع الإسلامي «الكتاب والسنة» بابن السبيل، فأوصى به وجعل له سهمًا في الفيء والغنيمة والزكاة.

وحكمة تشريع العناية بابن السبيل:

أن الإسلام حث على السفر والترحال لأغراض كثيرة. كالجهاد والتجارة وطلب العلم والحج وغير ذلك، فشرع الإسلام العناية بالمسافر الذي ينقطع زاده، أو تنفد نفقته، من باب التكافل الاجتماعي، خصوصًا إذا أدركنا أن الإسلام حث على العناية بابن السبيل، في الوقت الذي لم تكن فيه الفنادق والمطاعم العامة والمحطات المعدة للاستراحات على الطرق الطويلة.

والقارئ لسيرة سلفنا الصالح لعهد قريب، يجد أنهم كانوا يوقفون الوقوف لهذه الأغراض النبيلة، ويوصون بها من أموالهم الخاصة.

ولكن المؤسف أن هذا الوقف الخيري أوقفه القانون الآن، وأبطل العمل به.

---

(١) انظر في هذا «الإسلام عقيدة وشريعة» (صـ ١٠٥)، «فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٦٥٠-٦٧٠)، «فقه السنة» (جـ١) (صـ ٣٣٣، ٣٣٤)، «العبادات» (صـ ٣٤٢، ٣٤٣).

شروط ابن السبيل الذي يأخذ من الزكاة:

يشترط في حق ابن السبيل، الذي يحق له شرعًا الأخذ من سهم الزكاة عدة شروط، حتى لا يفتح الباب على مصرعيه لكل مدع، فتضيع أموال المسلمين سدى، وتعطى غير من يستحقها، ويحرم منها المستحق لها، وهذه الشروط هي:

١- احتياجه للأخذ في موضعه هذا؛ ليتمكن من الوصول إلى بلده.

٢- أن يكون سفره في غير معصية، إلا إذا تاب أثناء سفره.

ومعنى هذا أن المسافر سفرًا مباحًا له أن يأخذ، وقد منعه المالكية، الذين اشترطوا أن يكون سفره في طاعة[١]، والفرق كبير بين أن يكون سفره في غير معصية، وأن يكون سفره في طاعة، فإن من كان سفره مباحًا يأخذ على الشرط الأول، لأن سفره في غير معصية، ولا يأخذ على الرأي الثاني، لأنه كان سفره في غير طاعة بل في أمر مباح.

٣- عدم وجود من يقرضه قرضًا حسنًا، لأنه إن وجد المقرض، اقترض ولم يأخذ من سهم الزكاة، ولما في القرض من حفظ لكرامته، ولما في الصدقة من أكل أوساخ الناس، ولأنه قد يوجد من هو أمس منه حاجة إلى الزكاة، لأنه لا يستطيع الاقتراض، وقد رجح ابن العربي والقرطبي المالكيان أنه يأخذ حتى لو وجد من يقرضه، حتى لا يكون لأحد عليه منة وفضل، وقد أمكنه أن يأخذ من الزكاة، وهي من فضل الله ومنّه وكرمه[٢].

ويعطى ابن السبيل من سهم الزكاة المخصص له ولأمثاله قدر كفايته من الغذاء والكساء، ويهيأ له ما يركبه من وسائل المواصلات حتى يعود إلى بلده.

وتوجد صور كثيرة لابن السبيل في عصرنا الحديث منها: الغني الذي انقطع عن ماله، ومن نفي من بلده لغرض سياسي، والتاجر الذي صارت أمواله ديونًا على الناس وضاعت أو احترقت صكوكه، والمسافر لمصلحة إسلامية كعلم نافع أو حرفة

---

(١) حاشية الخرشي على متن خليل (جـ٢) (صـ ٢١٩).

(٢) انظر «أحكام القرآن الكريم» لابن العربي (جـ٢) (صـ ٩٧٠)- ط دار المعرفة- بيروت، تفسير القرطبي (صـ ٣٠٢٦) ط الشعب.

ضرورية، والمشردون الذين لا مأوى لـهم إلا أرصفة الطرق، واللقطاء الذين يلفظهم أهلوهم خوف الفقر أو العار(١).

إلى أيٍّ من هؤلاء الأصناف تصرف الزكاة؟:

لقد حدد الله سبحانه وتعالى بنفسه مصارف الزكاة، ولم يدع ذلك لاجتهاد المجتهدين، ولكن هل من موجبات صرف الزكاة لمستحقيها أن تصرف إلى هؤلاء الأصناف الثمانية؟ وماذا لو صرفناها عليهم فتوزعت بذلك، مما أدى إلى قلة نصيب الآخذ من الزكاة؟ وهل إذا وُزعت على هؤلاء يأخذ كل فرد مبلغًا مساويًا للآخر؟

إن هذه النقاط كلها مواضع اجتهاد للفقهاء؛ لأنه لم يرد فيها نص قاطع؛ ولأن الآية التي ذكرت أصناف مصارف الزكاة وإن حصرتهم في ثمانية فإنها تعتبر من الآيات المجملة من حيث ضرورة أو عدم ضرورة تغطيتهم جميعًا بالعطاء.

وقد انتهى الاجتهاد المعاصر في فقه الزكاة إلى النقاط التالية:

١- إذا كثر مال الزكاة فينبغي تعميم هذه الأصناف، فلا يجوز حرمان أي صنف منهم مع قيام سبب استحقاقه ووجود حاجته.

٢- ليس من الضروري التسوية بين كل صنف وآخر بل يعطى كل صنف حسب العدد والحاجة.

٣- يجوز صرف الزكاة لصنف واحد إذا اقتضت ذلك مصلحة شرعية، وإذا كان فلا يلزم التسوية بين أفراد هذا الصنف، إنما المهم أن يكون التفاوت على أساس مصلحة شرعية بعيدًا عن الهوى.

٤- للفقراء والمساكين الأولوية على أي صنف آخر غيرهم لأنهم الهدف الأصلي من فريضة الزكاة.

٥- يسقط سهم العاملين إن وزعها صاحبها بنفسه، وإن وزعها العاملون ألا يزيد نصيبهم عن $\frac{1}{8}$ حصيلة الزكاة حتى لا تكون الزيادة على حساب مصارف الزكاة الأخرى.

---

(١) انظر ذلك في «فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٦٧٠- ٦٨٥)، «فقه السنة» مجلد١ (صـ ٣٣٥، ٣٣٦)، «العبادات» (صـ ٣٣٤- ٣٤٥)، «الإسلام عقيدة وشريعة» (صـ ١٠٥).

٦- إذا كان مال الزكاة قليلاً كأن تكون زكاة مال شخص ليست ثروته كبيرة، فإنه يجوز صرفها لصنف واحد، بل لفرد واحد خصوصًا إذا كان صرفها لعدة أصناف أو لعدة أشخاص أمرًا يجعل الفائدة المرجوة منها تافهة أو قليلة الغناء(١).

الذين لا تصرف لهم الزكاة:

إذا كنّا قد ألمنا إلمامة سريعة بالأصناف الثمانية الذين فرض لهم الإسلام الزكاة، فإن هذا يجعلنا نتسائل عمن لا يصح أن يأخذوا من الزكاة شيئًا.

إن الذين حرم عليهم المشرع الإسلامي الأخذ من الزكاة هم:

١- الأغنياء:

إلا لعاملٍ على جمعها أو توزيعها، أو لغارمٍ، أو من يؤلف قلبه، أو ابن السبيل الغني في بلده فقد قال النبي ﷺ: «**لا تحل صدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين، فتصدق على المسكين فأهدى المسكين إليه**». رواه أبو داود مُرسلاً ومتصلاً.

ويدخل مع الشخص الغني كل من تلزمه نفقته، لأننا إذا أعطينا الزكاة للغني لأخلَّ ذلك بمقصودها الأصلي وهو إغناء الفقراء وأهل المسكنة.

٢- الأقوياء المكتسبون:

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله فقال: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى، حلس(٢) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال: «**ائتني بهما**»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: «**من يزيد على درهم؟**» مرتين أو ثلاثًا، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به**»، فأتاه فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يومًا**»، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم

---

(١) فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٦٦٢- ٦٦٤)، «العبادات» (صـ ٣٤٧- ٣٤٩).

(٢) الحلس: كساء غليظ.

فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث: لذي فقر مدقع[١]، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع[٢]**». رواه أبو داود.

وذلك لأنه لو جاز إعطاؤها للقوي لاستمرأ ذلك بعض من لا كرامة عندهم، كالذين نشاهدهم من أصحاب الكنوز الذين يحترفون التسول، ولأن العمل في الإسلام عبادة، وحتى يحفظ رسول الله ﷺ كرامته حذره من السؤال فقال: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم[٣]**». رواه البخاري ومسلم والنسائي.

٣- الكافر:

فقد أجمع المسلمون على أن الكافر لا يأخذ من الزكاة؛ لأن الزكاة جزء من مال المسلمين يُأخذ من أغنيائهم ويعود على فقرائهم، لما في ذلك من التضامن؛ ولأن الكافر لا يستحق أن يعان؛ لأنه إن أخذ هذا المال فقد يتقوى به على محاربة الإسلام وأهله.

أما أهل الذمة (اليهود والنصارى الذين يعيشون في ذمة المسلمين وأمانهم) فقد أجاز أبو حنيفة، ومحمد بن الحسن صاحبه صرف زكاة الفطر إلى من يستحقها منهم؛ لعموم الوصف بالفقر في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ**﴾ (التوبة: ٦٠). وقوله: ﴿**وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ (البقرة: ٢٧١).

ولأن هذا من باب إيصال البر إليهم. قال الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة: ٨).

كما استدل الأحناف بأن رسول الله ﷺ قال: «**تصدقوا على أهل الأديان كلها**».

قال الكمال بن الهمام: «روى ابن أبي شيبة مرسلاً: حدثنا جرير بن عبد الحميد

---

(١) الفقر المدقع: الفقر الشديد.

(٢) المراد تحمل الديات.

(٣) قطعة لحم.

عن أشعث عن جعفر عن سعيد بن جبير قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا إلا على أهل دينكم**»، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧٢). فقال ﷺ: «**تصدقوا على أهل الأديان كلها**».

وقال أيضًا مرسلاً: «حدثنا أبو معاوية عن الحجاج عن سالم المكي عن محمد ابن الحنفية قال: «كره الناس أن يتصدقوا على المشركين فأنزل الله سبحانه: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ (البقرة: ٢٧٢). فتصدق الناس عليهم»[١].

ويشهد لهذا الرأي الذي اخترناه ما رواه الشيخان بسنديهما عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن**»، قالت: فرجعت إلى عبد الله، فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد[٢]، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته فاسأله فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفتها إلى غيركم. قالت: فقال عبد الله: ائتيه أنت. قالت: فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما؟ ولا تخبره من نحن. فدخل بلال فسأله، فقال: «**من هما؟**» فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال: «**أي الزيانب؟**» فقال: امرأة عبد الله. فقال: «**لها أجران؛ أجر القرابة وأجر الصدقة**». رواه البخاري ومسلم.

٤- آل محمد ﷺ:

فإن رسول الله ﷺ وآله لا يجوز لهم أخذ الزكاة، والمراد بآل محمد ﷺ قرابته من بني هاشم وبني عبد المطلب، والدليل على ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي ﷺ: «**كخ كخ**»؛ ليطرحها ثم قال: «**أما شعرت أنا**

---

(١) «فتح القدير» (جـ٣) (صـ ٢٦٧).

(٢) كناية عن الفقر.

لا نأكل الصدقة». وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»**.

والحكمة في ذلك أن رسول الله ﷺ أراد أن ينزه نفسه وآله عن أخذ الصدقات؛ ليضرب للمسلمين المثل الأعلى في التعفف لا الأخذ، وليكون ذلك تطبيقًا عمليًّا للمبدأ الذي أعلنه: **«اليد العليا خير من اليد السفلى»**.

فإن إعطاء المال من غير مبادلة فيه نوع من المنَّة والتفضل من جانب المعطي على الآخذ، وقد لا تظهر هذه المنَّة بالنظر لعامة الناس الذين يتولى الإمام القبض عنهم من الأغنياء ثم الصرف لهم، أما الإمام نفسه الذي يباشر القبض من المؤمنين الصدقات فأولى به ألا يحمل عنقه هذه المنة، وأهل بيته بمنزلته في ذلك(١).

ولأنه لو جاز له ولآله أخذها لظن به الظانون ما ليس بحق، فأراد أن يسد هذا الباب بالكلية(٢).

ولأن آل بيت رسول الله ﷺ يأخذون جزءًا من الخمس المخصص لهم من الغنائم شرعًا كما في قوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** (الأنفال: ٤١).

وكذلك لهم نصيب في الفيء؛ أي المال الذي يصيبه المسلمون بلا حرب. قال الله تعالى: **﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** (الحشر: ٧).

لكن إذا مُنعوا حقوقهم من الغنائم والفيء فهل يجوز أخذهم نصيبًا من الزكاة؟

لا شك أن إكرام آل البيت- بيت رسول الله ﷺ- أمر يحتم على المسلمين حمايتهم من مذلة الفقر أو السؤال ومساعدتهم، ومد يد العون إليهم بكل سبيل بل هم أولى بكل نوع من التكريم والإعزاز من غيرهم، أليسوا آل بيت رسول الله ﷺ؟ ويكفي أن الله تبارك وتعالى قال: **﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾** (الشورى: ٢٣).

---

(١) «فقه الزكاة» (جـ٢) (صـ ٧٣٩).

(٢) «حجة الله البالغة» للدهلوي (جـ٢) (صـ ٥١٢).

ولذلك يجوز أخذهم من الزكاة إن احتاجوا إليها، بل هم أولى بذلك من غيرهم.

شروط المال الذي تجب فيه الزكاة:

المال في اللغة: كل ما يرغب الناس في اقتنائه.

وشرعًا عند الإضافة: كل ما يمكن حيازته والانتفاع به على وجه معتاد.

وعند الشافعية، والمالكية، والحنابلة: كل ما يتمول به من أعيان ومنافع[١].

والمراد بالمال الذي فيه الزكاة، ويشترط في هذا المال الذي تجب فيه الزكاة عدة شروط هي:

١- الملك التام لهذا المال، بمعنى أن لصاحبه القدرة على التصرف فيه ابتداء إلا لمانع، أي إنه يمكنه التصرف فيه بقدرته ابتداءً لا بتوكيل من غيره، أو تسليط من غيره عليه، فإن الوكيل يمكنه التصرف في المال الذي وُكل بالتصرف فيه، ولكنه لا يعد مالكًا له ملكًا تامًّا، ومن ثَمَّ فلا يدفع زكاته، بل يدفعها مالكه ملكًا تامًّا. والدليل على ذلك إضافة المال لمالكه عند طلب الزكاة منه كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٣)، وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ (الذاريات: ١٩).

ولذلك فإن الدَّين إذا كان يرجى الحصول عليه بأن يكون المدين عند موعد السداد غنيًّا أو يظن به ذلك فإنه يزكيه، أما الدَّين الذي لا يرجى الحصول عليه فإنه لا يزكيه إلا بعد قبضه، ويزكيه في هذه الحالة عن السنوات الماضية إن مضت عليه سنوات.

٢- النماء: أي أن يكون المال الذي تجب فيه الزكاة ناميًا بالفعل أي زائدًا بسبب استثماره، أو ناميًا بالقوة أي قابلاً للنماء وإن كان لم ينم لأن صاحبه كنزه فلم يستثمره.

والحكمة في اشتراط النماء أن الزكاة تخرج من هذا الزائد، حتى إذا واسى الغني الفقير لا يصير هو الآخر فقيرًا، وبذلك يتحقق قول النبي ﷺ: **«ما نقص مال من**

---

(١) «فقه الزكاة» (جـ١) (صـ ١٢٥).

صدقة». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

ولأن صاحب المال إذا رأى عليه فيه زكاة ما دام قابلاً للنماء نماه أو لم ينمه فإنه يبادر بتثميره بدلاً من كنزه وادخاره. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: **«ليس على المسلم في فرسه ولا عبده صدقة»**. رواه مسلم.

وقال النووي: «هذا الحديث أصل في أن أموال القنية لا زكاة فيها»(١).

٣- بلوغ النصاب: أي القدر الذي حدده له الشرع، وسيأتي أن لكل نوع من أنواع المال- تقريبًا- نصابًا إذا بلغه وجبت فيه الزكاة، لأن رسول الله ﷺ لم يفرض الزكاة في أنواع المال المختلفة إلا إذا بلغه.

واشتراط النصاب موضع إجماع من العلماء، والحكمة في اشتراط النصاب هي:

أن الزكاة إنما هي ضريبة تؤخذ من مال يحتمل المواساة، ولا معنى لأن تؤخذ من الفقير ضريبة وهو في حاجة إلى أن يعان لا أن يعين، والنصاب هو الحد الفاصل بين الغنى والفقر، فمن ملكه اعتبر في مصاف الأغنياء الذين يستطيعون أن يواسوا غيرهم، ومن لم يملكه اعتبر في مصاف الفقراء الذين تجب إعانتهم(٢). ومن ثَمَّ فقد قال النبي ﷺ: **«لا صدقة إلا عن ظهر غنى»**. رواه البخاري معلقًا.

٤- الزيادة عن الحوائج الأصلية: ولذلك قال الله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾** (البقرة: ٢١٩).

أي إن الإنفاق في وجوه البر إنما يكون من المال الزائد عن الحاجات الأصلية التي تدفع عن الإنسان الهلاك حقيقةً كالنفقة والسكن، وآلات الحرب، والثياب المحتاج إليها لدفع الحر والبرد، أو تقديرًا كالدين، وآلات الحرفة، وأثاث المنزل، ودواب الركوب، وكتب العلم لأهلها(٣).

والمراد أيضًا حاجات صاحب المال الأصلية وحاجات من يعولهم: من الزوجة

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (جـ٧) (صـ ٥٥). والمراد بالقنية: الأشياء التي يقتنيها الإنسان لينتفع بها، لا ليتاجر فيها.

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ١٥١).

(٣) حاشية ابن عابدين (مـ ٦).

والأولاد، والأب، والأم إن كانا في عياله، وإخوته الصغار إن كانوا كذلك. وبالجملة كل من يلزمه الإنفاق عليهم.

٥- حولان الحول عليه: أي دوران العام كاملاً عليه وهو في حيازته، ومن بدء اكتمال النصاب ما عدا الزروع والثمار وما يلحق بها، فإنها تجب فيها الزكاة بمجرد جنيها أو حصادها لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١).

واشتراط الحول رأي جمهور الفقهاء، كما حكاه ابن رشد[(١)].

والحكمة في اشتراط مضي عام كامل على المال بالغًا النصاب أن يكون أمام صاحبه فرصة كاملة لاستثماره وتنميته، وكان تقدير هذه الفترة بسنة كاملة؛ لأن فيها الفصول الأربعة، فإذا لم ينم في فصل فقد ينمو في الآخر، ومن هذا النماء يكون الجزء الخارج من مجموع النصاب والنماء وهو الذي يسمى زكاة.

أنواع المال الذي تجب فيه الزكاة:

المال الذي تجب فيه الزكاة أنواع متعددة وهي:

أولاً: الثروة الحيوانية.

ثانيًا: الذهب والفضة والحلي والنقود.

ثالثًا: الثروة التجارية.

رابعًا: الثروة الزراعية وملحقاتها.

خامسًا: الثروة المعدنية.

سادسًا: المستغلات من العمارات والمصانع ونحوها.

سابعًا: الدخل من كسب العمل والمهن الحرة.

وفي الصفحات القادمة سوف نتناول كل نوع منها بكلمة موجزة توضح المراد به، والنصاب فيه- إن كان يشترط للزكاة فيه نصاب- ومقدار الواجب إخراجه، والحكمة التشريعية من هذا الإيجاب، وسوف نتناولها بنفس الترتيب السابق سائلين المولى عز وجل أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الخطأ في القول والعمل.

---

(١) «بداية المجتهد» (جـ ١) (صـ ٢٦١، ٢٦٢).

أولاً: زكاة الثروة الحيوانية:

امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان فسخَّر له الكثير من الحيوانات التي يأكل لحومها، ويشرب ألبانها، ويمتطي ظهرها، وينتفع بجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها، ويتخذ من بعضها أثاثًا يتمتع به وزينة يتحلى بها.

قال الله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٥- ٨).

وقال ذاكرًا هذه النعمة العظيمة وطالبًا منَّا الشكر عليها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٧١- ٧٣).

ومن صور هذا الشكر أداء حق الله فيها، ومن أوكد ما يجب من حق الله فيها أداء الزكاة.

ومن أشهر الثروات الحيوانية: الأنعام، والمراد بها: الإبل، والبقر، والغنم، والخيل وما يشبهها.

شروط وجوب الزكاة في الثروة الحيوانية:

لا تجب الزكاة في الثروة الحيوانية إلا إذا توافرت فيها الشروط التالية:

١- أن تبلغ النصاب: ولكل نوع من الحيوانات نصاب خاص سوف نذكره بعد قليل.

٢- أن يحول عليها الحول: لقوله ﷺ: «**وليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول**». رواه أبو داود، وهو حسن وقد اختلف في رفعه[١].

---

(١) ذكر النووي أن الشيرازي في «المهذب» لم يحتج بهذا الحديث لأنه ضعيف، ثم ذكر أن البيهقي رحمه الله قال: «الاعتماد في اشتراط الحول على الآثار الصحيحة فيه عن أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وابن عمر وغيرهم ، انظر «المجموع» (جـ ٥) (صـ ٣٠٧)، وقد حسنه ابن حجر، انظر «بلوغ المرام» (صـ ١٤٥).

٣- أن تكون سائمة: أي ترعى في كلأ مباح، فلا تكلف مالكها نفقات إطعامها. وقد نص النبي ﷺ على شرط السوم فيها عندما قال: «**في الإبل السائمة في كل أربعين بنت لبون**». رواه البخاري؛ لأن الحيوانات السائمة تعلف إذا قصد بذلك درها لإنمائها، والزكاة إنما تكون في المال النامي. وقد خالف الإمام مالك في هذا فأوجبها في الأنعام ولو كانت معلوفة. وإذا كانت بعض الأحاديث لم يرد فيها تقييد الزكاة في الأنعام بوصف السوم، فإنه يحمل على أساس أنه ذكر فيها هذا الوصف في موضع آخر من باب حمل المطلق على المقيد.

٤- ألا تكون عاملة في الحقل بالحرث والدرس والسقي وحمل الأثقال وما إلى ذلك، فإن كانت عاملة فلا زكاة فيها، فإنها تشبه ما يتخذ للقنية لا ما يتخذ للنماء.

وقد ورد فيها قوله ﷺ مرفوعًا: «**وليس في العوامل شيء**»(١).

وسوف نتناول هنا زكاة الأنواع التالية من جنس الثروة الحيوانية:

١- زكاة الإبل.

٢- زكاة البقر والجاموس.

٣- زكاة الغنم.

٤- زكاة الخيل.

٥- زكاة حيوانات أخرى تشبه هذه المواشي في أنها سائمة.

١- زكاة الإبل:

أقل نصاب الإبل خمس وفيها إذا بلغت هذا العدد، وكانت سائمة، وحال عليها الحول، وليست عاملة أن يخرج عنها شاة رغم أن الشاة ليست من جنس الإبل، وكلما كثر عددها كثر الخارج منها إلى أن يصل العدد إلى حد معين فيجب فيه إخراج بعض أنواع الإبل بتفصيل خاص كالتالي:

من [١ - ٤] لا زكاة فيه.

من [٥ - ٩] فيها شاة.

---

(١) انظر تخريجه في «نصب الراية» للزيلعي (جـ ٢) (صـ ٣٦٠).

من [١٠ - ١٤] شاتان.

من [١٥ - ١٩] ثلاث شياه.

من [٢٠ - ٢٤] فيها أربع شياه.

من [٢٥ - ٣٥] فيها بنت مخاض. وهي الناقة التي أتمت سنة.

من [٣٦ - ٤٥] فيها بنت لبون. وهي الناقة التي أتمت سنتين ودخلت في الثالثة.

من [٤٦ - ٦٠] فيها حقة. وهي التي أتمت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة.

من [٦١ - ٧٥] فيها جذعة. وهي التي دخلت في الخامسة.

من [٧٦ - ٩٠] ابنتا لبون.

من [٩١ - ١٢٩] حقتان.

من [١٣٠ - ١٣٩] ابنتا لبون وحقة.

من [١٤٠ - ١٤٩] حقتان وبنت لبون.

من [١٥٠ - ١٥٩] ثلاث حقاق.

من [١٦٠ - ١٦٩] أربع بنات لبون.

من [١٧٠ - ١٧٩] ثلاث بنات لبون وحقة.

من [١٨٠ - ١٨٩] حقتان وابنتا لبون.

من [١٩٠ - ١٩٩] ثلاث حقاق وابنة لبون.

من [٢٠٠ - ٢٠٩] أربع حقاق أو خمس بنات لبون.

وهكذا كلما زادت يحسب على الخمسين حقة، وعلى الأربعين ابنة لبون(١).

والدليل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: إن أبا بكر الصديق كتب هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله، فمن سئلها من

(١) انظر «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ١٧٤، ١٧٥)، «العبادات» (صـ ٢٤١).

المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعط: في أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمسًا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى، فإذا بلغت ستًّا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى، فإذا بلغت ستًّا وأربعين إلى ستين ففيها حقة: طروقة الفحل، فإذا بلغت واحدًا وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة، فإذا بلغت ستًّا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها، فإذا بلغت خمسًا من الإبل ففيها شاة». وفي هذا الكتاب: «ومن بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده وعنده بنت لبون فإنها تقبل منه، ويعطيه المصدق عشرين أو شاتين». رواه البخاري مفرقًا وجمعه النووي بحروفه(١).

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «والذي يظهر لي أن تعيين النبي ﷺ لبعض هذه التقديرات كان بصفة الإمامة والرياسة التي له ﷺ على هذه الأمة حينئذ، لا بصفة النبوة، وصفة الإمامة تعتبر ما هو الأنفع للجماعة في الوقت والمكان والحال المعين وتأمر به، وقد تأتي بغيره لتغير الزمان أو المكان أو الحال أو تغيرها كلها بخلاف ما يجيء بصفة النبوة، فهو يأخذ صورة التشريع الملزم لجميع الأمة في جميع الأزمنة والأمكنة، ويدخل في هذا- عندي- تحديد الفرق بين كل سن وسن بشاتين أو عشرين درهمًا مع أن الفرق في مثل هذه الأحوال لا يثبت على قيمة واحدة جامدة، فإن النسبة بين الإبل والشياه لو ظلت ثابتة فإن تقويم الشاتين بعشرين درهمًا لا يثبت، فقد تغلو قيمة الشياه أو تنخفض القوة الشرائية للدرهم أو يحدث العكس، كما هو معلوم ومشاهد الآن، فالنبي ﷺ حين قدر الشاة بعشرين درهمًا قدرها باعتباره إمامًا حسب سعر الوقت، فلا مانع عندنا من تقدير الفرق بغير ذلك تبعًا لاختلاف القيمة والأسعار»(٢).

---

(١) «المجموع شرح المهذب» (جـ ٥) (صـ ٣٨٣).

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ١٩٠).

ونحب أن ننبه إلى أن الأعـداد المحصورة بين كل مـقدارين من المقادير السـابقة، كالعدد المحصـور بين كل [٢٥ - ٣٥]، يسمى وقصًا، وهو عفو لا شيء فـيه. كما أن النصاب يجب في صغار الحيوانات وكبارها.

٢- زكاة البقر والجواميس:

نصاب زكاة البقر والجواميس تحدده الأعداد التالية:

من [١ - ٢٩] لا شيء فيه.

من [٣٠ - ٣٩] فيه تبيع أو تبيعة (له سنة وطعن في الثانية).

من [٤٠ - ٥٩] فيه مسن أو مسنة (له سنتان وطعن في الثالثة).

من [٦٠ - ٦٩] فيه تبيعان أو تبيعتان.

من [٧٠ - ٧٩] فيه تبيع أو تبيعة، ومسن أو مسنة.

من [٨٠ - ٨٩] فيه مسنان أو مسنتان[(١)].

والدليل على ذلك بعض الأحاديث، والتي منها حـديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمـن وأمرني أن آخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعًا أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة». رواه أصحاب السنن الأربعة.

وما بين الأعداد وقص لا شيء فيه، ويحسب ضمن النصاب الصغار والكبار كما سبق في الإبل.

٣- زكاة الغنم:

أما نصاب الغنم والواجب فيها فيمكن إيجازهما في التالي:

من [١ - ٣٩] لا شيء فيه.

من [٤٠ - ١٢٠] شاة.

من [١٢١- ٢٠٠] شاتان.

من [٢٠١- ٣٠٠] ثلاث شياه.

---

(١) «العبادات» (صـ ٢٤٢).

وهكذا في كل مائة شاة، وما بين المئات وقص لا شيء فيه، ويحسب ضمن النصاب صغار الغنم وكبارها كما سبق في الإبل والبقر والجاموس.

والدليل على ذلك ما جاء في حديث أنس: «وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة». رواه البخاري مفرقًا.

ونحب أن ننبه إلى أن زكاة الأنعام يجب أن تكون خالية من العيوب فالله تعالى قال: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

كما أن الخلطة- المشاركة- لا تأثير لها على نصاب الزكاة لقوله ﷺ كما في حديث أنس السابق: **«ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة»**.

ومذهب الشافعي هو أوسع المذاهب القائلة بتأثير الخلطة في حكم الزكاة، ويشترط لها عنده أن يكون سراحها واحدًا، ومسرحها واحدًا، وراعيها واحدًا، وفحلها واحدًا، والمشرف واحدًا، والحالب واحدًا، وموضع الحلب واحدًا[١].

ولكن إلغاء تأثير الخلطة بوجه عام أفضل وأولى خصوصًا في التطبيق المعاصر على الشركات الكبيرة، فإن معاملة هذه الشركات معاملة الشخص الواحد أيسر على إدارة الزكاة؛ لما فيه من تبسيط الإجراءات، وتيسير التعامل، وتقليل الجهود والنفقات[٢].

٤- زكاة الخيل:

من المجمع عليه: أن خيل الركوب والحمل والجهاد لا زكاة فيها، وأن الخيول المتخذة للتجارة فيها زكاة عروض التجارة التي سنتحدث عنها بعد قليل، وأن الخيل المعلوفة لا زكاة فيها.

إنما الخلاف بين الفقهاء في الخيل السائمة للنماء والنسل، وهي الخليط من الذكور والإناث، أما الذكور فقط فلا زكاة فيها، وأما الإناث فقط ففيها الخلاف التالي:

---

(١) «كفاية الأخيار» (جـ ١) (صـ ١٨٢).

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٢٢١).

١- رأى الجمهور أنه لا زكاة فيها، وعليه فلا زكاة على الخيول جميعًا عند الجمهور إلا المتخذة للتجارة.

٢- رأى أبو حنيفة أنه يجب فيها الزكاة.

دليل الجمهور أن النبي ﷺ قال: **«ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»**. أخرجه البخاري ومسلم.

ولأن الخيل إنما كانت تتخذ للجهاد في سبيل الله فعفا الشرع عن الزكاة في جميع أنواعها؛ ليرغب الناس في اقتنائها فتكثر مركبات الجهاد.

- أما مذهب أبي حنيفة رحمه الله فدليله حديث البخاري: **«الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فهي لذلك أجر، ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر»**. رواه البخاري ومسلم.

وقد أوَّل ذلك بعض الناس على أن المراد بالحق الواجب فيها هو العارية، ولكن هذا غير صحيح، فقوله: **«ولا في رقابها»** بعد قوله: **«ولم ينس حق الله في ظهورها»** برر تأويل ذلك بالعارية لأن ذلك مما يمكن- على بعده- في ظهورها، فعطف رقابها ينفي إرادة ذلك(١).

والدليل الثاني لأبي حنيفة: قياسها على الإبل.

ونصابها عند أبي حنيفة خمس، ومقدار الواجب فيها: إن كانت خيلاً عربية يدفع عن كل فرس دينارًا، أو يُقومها ويعطي عن كل مائتي درهم خمسة دراهم، وإن كانت غير عربية قومها لا غير(٢).

والذي أميل إليه هو رأي أبي حنيفة خصوصًا في زماننا هذا بعد أن أصبحت الخيول تعتبر من الثروات التي تدر على أربابها دخولاً كبيرة، ولم تعد ذات قيمة كبيرة كما كانت في الحروب خلال الأزمنة الغابرة؛ ولأن أخذ الزكاة عن الإبل وعدم

---

(١) «فتح القدير» (جـ ٢) (صـ ١٨٤).

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٢٣٠).

أخذها عن الخيول تفريق لا مسوغ له بين الأغنياء، والأولى أن تُقوَّم ويؤخذ عن كل مائتي درهم خمسة دراهم أي ربع عُشر قيمتها.

وسوف نعرف قريبًا أن هذا هو نصاب الفضة، وسوف نعرف مقداره بالنقود بعد قليل إن شاء الله. ويلحق بالخيل كل الحيوانات التي تشبهها من حيث قابليتها للنماء، إذا كانت سائمة. وهذا ما رجحه الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، والأستاذ عبد الوهاب خلاف، والأستاذ عبد الرحمن حسن[١].

ثانيًا: زكاة الذهب والفضة:

درج الناس من قديم الزمان على اتخاذ الذهب والفضة ثمنًا للأشياء لندرتهما ونفاستهما، ولذلك أوجب الشرع الإسلامي الزكاة فيهما على أية صورة كانا: نقودًا، أو تبرًا، أو سبائك، أو تحفًا. ولكن إذا اتخذا حليًا للنساء يعفى عن الزكاة فيهما بشروط خاصة.

والدليل على وجوب الزكاة فيهما من الكتاب قوله تعالي: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

فقد هددت الآيتان كل من يكنز المال ولا ينفقه في سبيل الله، وهذا شأن مانع الزكاة؛ لأن المال المزكى ليس كنزًا.

ومن السنة حديث أنس السابق، وفيه: «**وفي الرقة[٢]: في مائتي درهم ربع العشر، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها[٣]**». رواه البخاري.

وحكمة مشروعية الزكاة في النقدين هي دفع مالكها إلى عدم كنزها، لأنه إن كنزها فسوف تنقصها الزكاة؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلق المال ليتداول بين الناس فتقضى به مصالحهم.

---

(١) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٢٢٣) نقلاً عن حلقة الدراسات الاجتماعية للأساتذه المذكورين.

(٢) الرقة: الفضة.

(٣) ربها: صاحبها. وهذا يدل على عدم فرضية الزكاة ما لم تبلغ مائتي درهم.

نصاب الذهب والفضة:

في الذهب إذا بلغ عشرين ديناراً نصف دينار. أي ربع العشر.

وفي الفضة إذا بلغت مائتي درهم خمسة دراهم. أي ربع العشر أيضًا.

يدل على ذلك قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمس أواق من الورق**[١] **صدقة...**». رواه البخاري ومسلم.

وقوله ﷺ: «**إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء**- يعني في الذهب- **حتى يكون عشرين ديناراً، فإن كان لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار**». رواه أبو داود.

وإذا كان الأصح أن هذا الحديث موقوف على الإمام علي كرم الله وجهه فإن المقادير في الأنصباء توقيفية، أي لا مجال فيها للرأي، فلولا أن عليًّا سمعه من رسول الله ﷺ لما قال به، فله حكم الحديث الذي يرفعه الصحابي إلى النبي ﷺ.

ولكن لماذا قدر النبي ﷺ هذا المقدار بالذات ليكون نصابًا للذهب والفضة، وما يبلغ قيمتهما من أية نقود يتعامل بها الناس كالنقود الورقية في زماننا؟

قال صاحب كتاب «حجة الله البالغة» شاه ولي الله الدهلوي: «إنما قدر (النصاب) بخمس أواق (من الفضة) لأنها مقدار يكفي أقل أهل بيت سنة كاملة، إذا كانت الأسعار موافقة في أكثر الأقطار، واستقرئ عادات البلاد المختلفة في الرخص والغلاء تجد ذلك»[٢].

ومقدار هذا النصاب هو خمس وثمانون جرامًا من الذهب.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: أما نصاب الذهب فلا يضبط الآن إلا بالوزن وهو (٨٥ جرامًا) فيجب على مالكها تزكيتها بإخراج (٢,٥٪) منها[٣]، وذلك لأن الدينار الرسمي وزنه (٤,٢٥ من الجرامات)، وأما الدرهم فوزنه (٢,٩٧ جرامًا).

---

(١) الورِق: بكسر الراء أحد أسماء الفضة.

(٢) (جـ ٢) (صـ ٥٠٦).

(٣) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٢٦١).

وبناءً عليه فنصاب الذهب = ٤,٢٥ × ٢٠ = ٨٥,٠٠ جرامًا من الذهب.

ونصاب الفضة = ٢,٩٧٥ × ٢٠٠ = ٥٩٥,٠٠٠ جرامًا من الفضة.

وفي أي وقت من الأوقات غلت الأسعار أو انخفضت يمكن معرفة القيمة الورقية للنصاب بضرب ٨٥ جرامًا في ثمن الجرام الواحد من الذهب، أو ضرب (٥٩٥) جرامًا من الفضة في ثمن الجرام الواحد منها. والناتج في الحالة الأولى هو نصاب الذهب، وفي الحالة الثانية نصاب الفضة.

ووفق كتابتنا لهذه السطور وصل جرام الذهب حوالي اثني عشر جنيهًا فيكون نصابه = ٨٥ × ١٢ = ١٠٢٠ جنيهًا. أي حوالي ألف جنيه. فمن ملك ألف جنيه تقريبًا زائدة عن حاجاته الضرورية، ومر عليها عام كامل فإنه تجب عليه فيها الزكاة بواقع ٢,٥٪، وهذا النصاب هو بالفعل كما لاحظ الدهلوي ما يكفي أقل أهل بيت في زماننا سنة كاملة فمن ملكه اعتبر غنيًّا، ومن ملك دونه اعتبر فقيرًا.

ومجمل ما اشترطه العلماء لإيجاب الزكاة في النقدين أربعة شروط:

١- بلوغ النصاب، حتى لو ملكه الشركاء كما في الشركات المساهمة.

٢- حولان الحول عليه.

٣- الفراغ من الدين.

٤- الزيادة عن حاجاته الأصلية.

أما زكاة الأواني والتحف فتجب إذا بلغت نصابًا، ومضى عليها الحول، وأما الحلي من الذهب والفضة بالنسبة للنساء فلا زكاة فيها ما دامت في حدود الزينة، ويعرف ذلك بالعرف، فإن اتخذت المَرأة من المصوغات وسيلة للكنز والادخار وجبت زكاة ما زاد عن الزينة التي تتزين به مثيلاتها في مجتمعها وبيئتها وفي نفس مستواها الأدبي والاجتماعي.

وأما الرجال ففي لبسهم لنحو الخاتم من الفضة لا زكاة لأنه يحل لهم لبسه، وأما التزين بالذهب كما يفعل بعض الشباب في هذه الأيام من لبس خواتم الذهب وسلاسل الذهب المدلاة من أعناقهم فمحرم عليهم؛ لنهيه ﷺ الرجال عن لبس الذهب، لأنه لا يليق بما يجب أن يكون عليه الرجال من جد وخشونة، فيجب

عليهم فيه الزكاة إذا بلغ نصابًا وحال عليه الحول.

والذي اخترناه هنا هو الأصح في مذهب الشافعي، وكان غيره قد ذهب إلى وجوب الزكاة في الذهب على النساء والرجال جميعًا، ولكن هذا يتنافى في حق النساء مع إباحته لهن إذ كيف يبيح الشرع للمرأة التزين به ثم إذا تزينت أوجب عليها فيه الزكاة؟

لقد تساءل صاحب «كفاية الأخيار» هل تجب الزكاة في الحلي المباح؟ ثم قال مجيبًا عن تساؤله: «فيه قولان: أحدهما: تجب الزكاة؛ لأن امرأة أتت النبي ﷺ وفي يد ابنتها سلسلتان غليظتان من ذهب، فقال لها ﷺ: **«أتقضين زكاة هذا؟»**، فقالت: لا. فقال لها: **«أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟»**، فخلعتهما وألقتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله». رواه أبو داود بإسناد صحيح.

والقول الثاني: وهو الأظهر أنه لا تجب لأنه معد للاستعمال المباح فأشبه العوامل من الإبل والبقر. رواه مالك في الموطأ بإسناد صحيح إلى ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما.

وكانت عائشة رضي الله عنها تحلي بنات أخيها أيتامًا في حجرها فلا تخرج عنه الزكاة.

وأجيب عن الحديث الأول بأنه ﷺ لم يحكم على الحلي مطلقًا بالوجوب إنما حكم على فرد خاص منه، وهو قوله هذا لأنه كان فيه سرف بدليل قوله: «غليظتان» ونحن نسلم بأن ما فيه سرف يحرم لبسه وتجب فيه الزكاة(١).

ثالثًا: زكاة الثروة التجارية:

أباح الله تبارك وتعالى التجارة ما دامت في غير محرم، وأمر بأن يكتنفها الإخلاص والنصيحة، وسماها فضل الله. فقال: ﴿**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ (المزمل: ٢٠).

---

(١) (جـ ١) (صـ ١٨٦) ط الحلبي.

وقال محذرًا من أن تلهي التجارة صاحبها عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٨).

وعتب على من كانوا مع النبي ﷺ وهو قائم يخطب فلما سمعوا أصوات اللهو تبشر بقدوم إحدى القوافل التجارية تركوا النبي ﷺ قائمًا يخطب وهرعوا إليها منفضين عنه إلا قليلاً منهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة: ١١)(١).

حكمة مشروعية زكاة التجارة:

فرض الله سبحانه وتعالى زكاة التجارة تقديمًا للشكر إليه على ما أنعم به من نعمة المال، ووفق إليه من الكسب الحلال، وجعل التجارة واسطة بين المنتج والمستهلك، وأدر عليهم نظير ذلك الثروات الطائلة، وجعل اقتصاديات الأمة كلها في أيديهم يقبضون على أزمتها.

عروض التجارة:

والثروة التجارية في تعبير الفقهاء تسمى «عروض التجارة» أي ما يعرض منها للبيع، وهي كل ما عدا النقدين: الذهب والفضة. أو هي بتعبير آخر: «ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح»(٢).

شروط وجوب الزكاة في عروض التجارة:

١- أن تكون هذه البضائع معدة بالفعل للتجارة.

٢- أن تبلغ قيمتها نصابًا. وهو نفس النصاب المقرر للنقود (٨٥ جرامًا من الذهب). ويعتبر ذلك بنهاية العام.

٣- أن يحول على هذا النصاب حول كامل بعد اكتماله واشتغال صاحبه بالتجارة الفعلية.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في «الناسخ والمنسوخ» لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (صـ ٣١٩، ٣٢٠) ط عالم الكتب- بيروت، والحديث في هذا الموضوع رواه البخاري.

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٣١٤).

الدليل على وجوب الزكاة في عروض التجارة:

من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

قال ابن العربي: «ما كسبتم: يعني التجارة»[١].

ومن السنة: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع». أخرجه أبو داود.

وقد أجمع على وجوبها الصحابة والتابعون وكل السلف، ولم يخالف في ذلك إلا الظاهرية[٢]، وبالقياس على الماشية والحرث والذهب والفضة بجامع اتخاذها جميعًا للنماء[٣].

كيف يزكي التاجر تجارته؟

يقوم التاجر بحصر عروضه وماله، ويدخل في ذلك البضاعة الموجودة تحت يده في محله بالإضافة إلى الأموال السائلة والأموال الموجودة في المصارف ويتاجر بها، وكذلك الأموال التي له كديون مرجوة السداد، وإذا كانت عليه ديون خصمها من المجموع، وباقي الطرح إذا بلغ نصابًا أخرج منه ربع العشر، ولا يدخل في التقدير آلات العمل في المحل كالموازين وواجهات العرض ومستودعات البضائع، وتقدر القيمة بوقت إخراج الزكاة حسب البيع بالجملة، ويكون القدر الذي يخرجه كزكاة بما يصلح للفقير إما من عين البضاعة، وإما من قيمتها، ولعل الأفضل أن يعطي الفقراء القيمة لأن الفقير يستطيع أن يشتري بالقيمة ما يشاء، وهو ما مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، ولكن إذا أحس المزكي أن الفقير سيتصرف في المال تصرفًا لا يفيده بل ينفقه على الملذات التافهة، فعليه عندئذٍ أن يعطيه القيمة من البضائع إن رأى أنها تسد إحدى حاجاته.

---

(١) «أحكام القرآن» (جـ ١) (صـ ٢٣٥) ط المعرفة بيروت.

(٢) ناقش ابن حزم أدلة الفقهاء في وجوب زكاة عروض التجارة، وانتهى إلى أن فيها صدقة مندوبة، انظر: المسألة (٦٤٢) الجزء الخامس من «المحلى» (صـ ٣٤٧- ٣٧٠).

(٣ ، ٤) الفتاوى الكبرى (جـ ١) (صـ ٢٣١).

رابعًا: زكاة الزروع والثمار:

لقد أنعم الله على الإنسان فسخر له الأرض وأنزل الماء من السماء وأخرج الزروع والثمار من باطن الأرض؛ لتكون طعامًا له ولأنعامه.

قال الله تعالى: **﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾** (عبس: ٢٤- ٣٢).

وقال: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾** (الواقعة: ٦٣- ٦٥). لذلك استوجب الشكر.

حكمة مشروعية زكاة الزروع والثمار:

شكرًا لله على نعمته؛ ولأن الفقراء يرون الزرع والثمر وتتطلع أنفسهم إليه، فلو لم يعطوا منه لحسدوا صاحبه وتمنوا زوال نعمته بل لدفعهم الحقد إلى إفسادها.

الدليل على مشروعيتها:

من الكتاب قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾** (البقرة: ٢٦٧).

قال ابن العربي: **﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾**: يعني النبات[١].

وقال: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الأنعام: ١٤١)، ولما كانت سورة الأنعام مكية فقد رأى بعض العلماء أنها منسوخة وهو رأي السُّدي، وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها: إنها نزلت بالمدينة[٢].

ومن السُّنة قوله ﷺ: **«فيما سقت السماء والعيون وكان عثريًا[٣] العُشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العُشر»**. رواه الجماعة.

---

(١) «أحكام القرآن» (جـ ١) (صـ ٢٢٥).

(٢) تفسير القرطبي، مجلد، (جـ ٤) (صـ ٢٥٣٥، ٢٥٣٦)، ط الشعب.

(٣) النبات العثري: أي الذي يشرب بعروقه.

وقد أجمع العلماء على وجوب الزكاة في الزروع والثمار بوجه عام، وإن اختلفوا بعد ذلك في التفاصيل.

الحاصلات الزراعية التي تجب فيها الزكاة:

اختلف العلماء في تعيين الحاصلات الزراعية التي تجب فيها الزكاة، فذهبت الشافعية والمالكية إلى أن الزكاة في الزروع والثمار، لا تجب إلا في كل ما يقتات ويدخر من الحبوب والثمار وذهب أحمد إلى أن الزكاة في كل ما يبس ويبقى ويكال، أما أبو حنيفة فذهب إلى وجوب الزكاة في كل ما يخرج من الأرض ويبتغى به النماء قليلاً كان أو كثيرًا، رطبًا كان أو يابسًا، يبقى من سنة إلى سنة أو لا، يوسق أو لا يوسق، يُسقى بماء جار أو يُسقى بماء السماء[1].

وأولى هذه المذاهب بالترجيح هو مذهب أبي حنيفة، فهو الذي تقويه عموم النصوص من القرآن والسنة، وهو الذي يوافق حكمة تشريع زكاة الزروع والثمار وليس من العدل الذي يتغياه التشريع الإسلامي أن تفرض الزكاة على صاحب حقل القمح أو الشعير، ويعفى منها صاحب بستان المانجو أو التفاح، على أنه يجب أن يكون وهو عنده بمثابة ضريبة على الأرض يؤخذ من الخارج منها.

ومعتمد مذهب أبي حنيفة عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

وقوله ﷺ : «**فيما سقت السماء العشر**». أخرجه البخاري[2].

مقدار النصاب:

النصاب في الزروع والثمار خمسة أوسق بدليل قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**». رواه الجماعة. وضرورة بلوغ الزروع والثمار هذا القدر حتى يخرج

---

(١) انظر مذهب الشافعية في «المجموع» (جـ ٥) (صـ ٤١٣)، وهو نفسه مذهب محمد، وأبي يوسف من الأحناف، وانظر مذهب المالكية في حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (جـ ١) (صـ ٤٤٧)، ورأي الحنابلة في «المغني» (جـ ٣) (صـ ٣- ٧)، ورأي الأحناف في «فتح القدير» للكمال بن الهمام، ومعه «شرح العناية» لأكمل الدين البابرتي (جـ ٢) (صـ ٢٤٢).

(٢) نص حديث البخاري: «**فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريًّا العشر**».

منها الزكـاة هو رأي جمهـور الفقهـاء، بخلاف أبي حنيـفة الذي رأى أن الزروع لا نصاب لهـا بل كل ما أخرجـته الأرض قليلاً كـان أو كثيرًا فـيه العُشـر، ونحن قد وافقناه في وجـوب الزكاة في كل ما تخـرجه الأرض، ولكننا نخـالفه هنا ونرى أن رأي الجمهور أولى في تحـديد قدر معين إذا بلغته الزروع والثمار وجـبت فيه الزكاة؛ لقوة دليل الجمهور، وضعف استدلال أبي حنيفة، فإن حديث: «**فيما سقت السماء العُشر**». عام قد خصـصه حديث: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**». بمعنى أن فيمـا سقت السماء العُشـر إذا كان قد بلغ خمسـة أوسق، والنبي ﷺ ساق الحديث الأول لبيان ما تجب فيه الزكاة، وفي الثاني حدد القدر الذي تجب فيه هذه الزكاة.

وكلمـة «أوسق» جمـع وسق. والوسق: سـتـون صـاعًا. والصـاع ٥ $\frac{١}{٣}$ أرطال بالعراقي، والنسبة بين الرطل العـراقي والرطل المصري هي ٩ : ١٠ فالصاع بالرطل المصري يساوي:

٥ $\frac{١}{٣}$ × $\frac{٩}{١٠}$ = $\frac{١٦}{٣}$ × $\frac{٩}{١٠}$ = $\frac{٤٨}{١٠}$ = ٤,٨ أرطال.

والصاع يساوي ١ $\frac{١}{٣}$ قدح أي ٤ $\frac{١}{٦}$ كيلة؛ لأن الكيلة ثمانية أقداح.

يعني هذا أن الكلية فيها ٦ آصع والإردب ٧٢ صاعًا.

أي أن الخمـسة الأوسق تساوي ٣٠٠ صـاعًا (٥ × ٦) وهذه الكمـية بالأرادب تساوي ٣٠٠ ÷ ٧٢ = ٤ $\frac{١}{٦}$ إردبًا.

وبالوزن يعتبر الصاع ٢,١٧٦ كيلو جرام.

والنصـــاب كله هو = ٣٠٠ × ٢,١٧٦ = ٦٥٢,٨٠٠ أي ٦٥٣ كـــيلو جـــرام تقريبًا[١].

أما غـير المكيـلات فيمـكن وزنها. وغيـر المكيلات والموزونات فـيمكن تقـديرها بمقارنتهـا بأوسط حبوب البلد كالأرز والقمح والشـعير فما يسـاوي نصاب أحد هذه الحبوب فـهو نصابه. فإذا افتـرضنا أن بلدًا يشتهر بزراعة القـرنفل ويأكل الأرز مثلاً

---

(١) انظر «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٢٨٥).

فإننا ننظر في ثمن (٦٥٣ كيلوجرام) من الأرز كم يساوي وثمنه هو نصاب القرنفل. . . وهكذا.

وتقدير النصاب إنما يكون بعد جفاف الثمار وتقشيرها وتنقيتها وطرح ما يحتاجه الزارع للأكل منه هو وأولاده أثناء الحصاد أو الجني.

ويمكن تقدير هذه الكميات من الثمار والنباتات وهي لا تزال في بساتينها وحقولها بما يُعرف بالخرص (التخمين) الذي يقوم به أهل الخبرة والتجربة.

والدليل على مشروعية الخرص أن النبي ﷺ خرص على امرأة بوادي القرى حديقة لها عام تبوك وكان خرصه عشرة أوسق، وقال للمرأة: **«أحصي ما يخرج منها»**، فأحصته فكان كما قال ﷺ. أخرجه البخاري ومسلم.

وعند حساب الزكاة يجب أن يطرح من المحصول قيمة الديون التي على الزارع سواء أكان مستدينًا لها على الزرع أم التي استدانها للنفقة على نفسه وذويه، كما يطرح إيجار الأرض إن كان مستأجرًا لها، وما استهلكه من المحصول استهلاكًا شخصيًّا، ويُنظر في الباقي مقارنًا له بالطريقة التي تم بها الزرع، والمؤشر إلى ذلك هو سقاية الأرض، فإن كانت من النوع الذي يسقى بالراحة دون تعب أو عناء كالأرض التي يشرب زرعها بجذور لوجودها بجوار الترع والقنوات وفي مستوى أقل من منسوب الماء فيندفع إليها لريها دون عناء، فعليه- والحالة هذه- أن يخرج العُشر زكاة، ومثل ذلك الأرض التي تسقى بماء السماء.

وإن كانت من النوع الذي لا يرتوي إلا بالآلات الرافعة للماء وما يشبهها فعليه أن يخرج نصف العُشر، فقد قال النبي ﷺ: **«فيما سقت السماء والعيون العُشر، وفيما سقي بالنضح نصف العُشر»**. رواه البخاري.

ولأبي داود: **«إذا كان بعلاً العُشر، وفيما سُقي بالسواقي أو نضح نصف العُشر»**.

ما يلحق بالثروة الزراعية:

ويلحق بزكاة الزروع والثمار أشياء هامة هي:

١- زكاة العسل؛ لعموم قوله تعالى: **﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾** (البقرة:٢٦٧). وللأحاديث الواردة في ذلك، والتي منها أن النبي ﷺ أخذ

من العسل العُشر. رواه الدارقطني.

وهي وإن كانت أحاديث ضعيفة فإنه يقوي بعضها بعضًا. وبالقياس على ما فرض الله فيه الزكاة من الزروع والثمار، فإن الدخل الناتج من العسل يشبه الدخل الناتج من استغلال الأرض، والشريعة الإسلامية لا تفرق بين متماثلين، ولا تجمع بين متفرقين، وهذا هو مذهب أبي حنيفة إن كانت الأرض التي فيها النحل عثرية هو مذهب أحمد بن حنبل.

قال الأثرم: «سُئل أبو عبد الله- يعني أحمد بن حنبل- أنت تذهب إلى أن في العسل زكاة؟ قال: نعم، أذهب إلى أن في العسل زكاة العُشر، قد أخذ عمر منهم الزكاة. قلت: ذلك على أنهم تطوعوا به؟ قال: لا بل أخذه منهم»(١).

وأما الشافعية والمالكية فليس على العسل عندهم زكاة لأنه مائع خارج من الحيوان فأشبه اللبن، واللبن لا زكاة فيه فكذلك العسل(٢).

والحقيقة أن هذا قياس مع الفارق فإن اللبن تجب في أصوله من الماشية الزكاة بخلاف العسل.

والنصاب في العسل خمسة أوسق أي(٦٥٣ كيلو جرام) كنصاب الزروع والثمار، وهو تقدير أبي يوسف ومحمد بخلاف أحمد الذي قدر في مذهبه النصاب بعشرة أفراق (جمع فَرَقَ أو فِرق) وهو مكيال يسع ثلاثة آصاع فيكون المجموع ثلاثين صاعًا، وهذه الكمية هي نصف الخمسة أوسق التي تساوي ستين صاعًا، وهذا الذي اخترناه أفضل لتتسق النظرة الواحدة إلى العسل (المقيس) والزروع والثمار (المقيس عليه)(٣).

٢- المنتجات الحيوانية كبيض الدجاج، والجبن، والألبان، فإن هذه المنتجات تدر على أصحابها ثروات طائلة فينبغي أن تلحق بزكاة الزروع والثمار بجامع أن أصل كل منها لم تجب فيه الزكاة، ونعني بالألبان هنا ألبان الحيوانات التي لم تجب فيها

(١) «المغني» (جـ ٣) (صـ ٢٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٧١٤).

الزكاة كالحيوانات المعلوفة أو العاملة.

والقاعدة التي نخرج بها هنا: أن ما لم تخرج الزكاة في أصله تجب في نمائه وإنتاجه كالزرع بالنسبة للأرض، والعسل بالنسبة للنحل، والألبان بالنسبة للأغنام، والبيض بالنسبة للطيور، والحرير بالنسبة لدود القز.

وهذا ما ذهب إليه الإمام يحيى من أئمة فقهاء الشيعة، فأوجب الزكاة في القز كالعسل لتولدهما من الشجر، لا في دودة كالنحل إلا إذا كان للتجارة(١).

وتقدر قيمة الخارج بما يساوي (٦٥٣ كيلو جرام) من أشهر أقوات البلد ويُخرج من ذلك العُشر.

٣- كما يلحق بذلك المستغلات. ونعني بالمستغلات كل الأموال التي لا تجب الزكاة في عينها، ولم تتخذ للتجارة ولكنها تتخذ للنماء فتغل لأصحابها فائدة وكسبًا بواسطة تأجير عينها أو بيع ما يحصل من إنتاجها.

ففي عصرنا الحديث أموال كسيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي) والكبيرة (الأتوبيس) وسيارات النقل، والسفن التجارية، والطائرات التجارية، والمحلات التي تؤجر الأثاث في الأحفال والمناسبات (محلات الفراشة) وغير ذلك كثير، بالإضافة إلى المصانع والعمائر فهذه كلها يشملها لفظ (المستغلات) فهذه المستغلات تُلحق بالأراضي الزراعية من حيث أن كلاً منهما يجبي إلى صاحبه ثمرة منشآته، وإن كان الفارق بينهما ضئيلاً، وهو أن الأرض ليس لها عمر زمني بينما غيرها من المصانع والعمائر وأثاث الفراشة... إلخ لها أعمار زمنية، بمعنى أنها تتآكل وتتناقص عامًا بعد عام، ولكن يمكن تقدير هذا الفارق عند حساب دخل هذه المستغلات فيخصص جزء من هذا الدخل السنوي يُخصم منه لتجديد هذه المنشآت أو لبناء غيرها، والباقي تُخرج منه الزكاة على أن يُعفى مالكها من الزكاة إذا كانت على قدر كفايته أو لم تبلغ قدر النصاب.

ونصاب هذه المستغلات هو نصاب النقود أي (٨٥ جرامًا من الذهب) سنويًا، ويكون الخارج كزكاة (٢,٥٪) فهي في هذه الناحية تشبه النقود، وفي أصلها تشبه

(١) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٤٣١)، «عن البحر الزخار» (جـ ٢) (صـ ١٧٣).

الأراضي الزراعية.

٤- والكلام على المستغلات يجرنا إلى الكلام عن زكاة الأسهم، والسندات، وشهادات الاستثمار، والتأمين.

فالأسهم جمع سهم، والمراد به حصة في إحدى الشركات المساهمة؛ لأن ظروف العصر الحديث، ووجود الإنتاج الكبير أدت إلى وجود الشركات المساهمة، والسهم يدر على صاحبه ربحًا إذا ربحت الشركة، وقد يخسر إذا خسرت الشركة، ولذلك فالشركات المساهمة أقرب الشركات المعاصرة لشكل الشركة الشرعية من وجهة نظر إسلامية. فملكية السهم مباحة شرعًا، والربح الذي يحصل عليه صاحبه ربح حلال طيب، فإن كان صاحب السهم أو الأسهم يتخذها للتجارة في سوق الأوراق المالية فعليه إذا بلغت قيمتها نصابًا (ثمن ٨٥ جرامًا من الذهب) وحال عليها الحول أن يخرج زكاتها وهو ربع العُشر كما سبق عند حديثنا عن عروض التجارة.

أما إذا كان يتخذها للاستغلال فإن عليه إذا بلغت نصابًا وحال عليها الحول أن يُخرج زكاتها (٢,٥٪) ربع العُشر شأنها في ذلك شأن كل المستغلات، ونصابها هو نفس نصاب الذهب والفضة (٨٥ جرامًا).

أما السندات فجمع سند، وهو صك بمديونية الشركة التي لها حق إصداره لحامله، ويدر فوائد سنوية ثابتة، وهي فوائد ربوية، وبناءً عليه فلا تؤخذ عن هذه الفوائد زكاة لأنها حرام، والله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، ولكن يدفع مالكها إن بلغت نصابًا (ثمن ٨٥ جرامًا من الذهب) وحال عليها الحول زكاة أصولها، كما يدفع زكاة الديون مرجوة الأداء كما سبق.

وأما شهادات الاستثمار فهي في الحقيقة سندات مهما تخفت وراء أسماء وهمية ما دامت لها فوائد ثابتة، ولا يشارك مالكها في الخسارة كما يشارك في الأرباح.

وأما التأمين فهو أنواع: منها التأمين على الحياة، بمعنى أن المؤمَّن عليه يدفع أقساطًا شهرية فإذا تعرض للموت دفعت شركة التأمين لأسرته مبلغًا متفقًا عليه وذلك كنوع من أنواع بيع الأمان ودفع الخوف عن النفس. وهذا العقد- من وجهة نظرنا- حرام لما يكتنفه من الغرر؛ لأن قدر المال المدفوع من المؤمَّن عليه غير

معروف، وكذلك أصل الدفع؛ لأنه معلق بمجهول.

ومنه التأمين التعاوني، ومعناه أن يشترك مجموعة من الأشخاص في دفع مبالغ معينة تكون مرصودة لمن يصيبه منهم خطر تدفع هذه المبالغ إليه كنوع من التعاون، وهذا مشروع لما فيه من التعاون على البر والتقوى والتضامن من أجل مجابهة الأحداث والمخاطر، وما يدفعه الآخرون للمصاب هو نوع مشروع، وفي عقود التبرعات يجوز الغرر؛ لأن المتبرع يدفع بمحض إرادته بغية التعاون لا الكسب؛ ولأن الطرف الآخر إذا لم يأخذ شيئًا فلا ضرر عليه؛ لأنه لا يلتزم شيئًا.

ومنه التأمين التجاري. ومعناه: أن شركة التأمين تأخذ أقساطًا من المؤمَّن عليه غير أنه إذا حدث لتجارته خطر عوضته عنها. وهذا حرام لنفس الأسباب التي ذكرناها في التأمين على الحياة.

ومنه التأمين الاجتماعي. ومعناه: أن يشترك مجموعة من الأشخاص في دفع أقساط شهرية مثلاً ليأخذها من بلغ منهم درجة العجز عن العمل يُنفق عليه منها كما تفعله الحكومة المصرية مع العاملين، وهو حلال. فالتأمين على الحياة، والتأمين التجاري لا نجيزهما بينما نجيز التأمين التعاوني والاجتماعي(١).

وفي هذه الأنواع كلها ما حُرِّم منها وما حَل ينبغي على المؤمَّن عليه أن يحسب دائمًا قيمة ما دفعه من أقساط فإن بلغت نصابًا (نصاب الذهب أو الفضة) وحال عليها الحول أخرج عنها الزكاة بواقع (٢,٥٪) حتى لا يقع تحت طائلة التهديد والوعيد الموجَّه إلى كل من كنز ماله ولم يطهره بالزكاة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٥).

٥- وهذا يسوقنا إلى الكلام عن زكاة كسب العمل والمهن الحرة. والحق أن كسب العمل والمهن الحرة والمرتبات والأجور والمعاشات لها ثلاث حالات:

---

(١) انظر تفصيلاً وتوضيحًا لأحكام التأمين كتاب «التأمين» للدكتور حسين حامد- ط الاعتصام، وكتاب «التأمين التجاري والبديل الإسلامي» للدكتور غريب الجمال، وكتاب «التأمين» لأستاذنا الدكتور عبد الناصر العطار.

الحالة الأولى: أن تكون أقل من النصاب (ثمن ٨٥ جرامًا من الذهب) أي لا تزيد على الحاجات الأصلية لصاحبها وحينئذٍ لا شيء فيها؛ لأنه لم يتحقق فيها الشرط الأساسي الذي يوجب فيها الزكاة وهو الغنى بملكية النصاب الزائد عن الحاجات الأصلية.

الحالة الثانية: أن تبلغ النصاب الفائض عن الحوائج الأصلية وليس لصاحبها مال غيرها، فحينئذٍ يحسب لهذا المال حول كامل، فإن مر وهي لا تزال في حوزته زكى عنها، ولا يشترط استمرار كمال النصاب طوال العام بل يكتفى كماله في أول العام وآخره.

الحالة الثالثة: أن تأتي هذه الدخول على مال عند مكتسبها، وعندئذٍ تكون مثل نماء المال الذي يُضم إلى أصله، ويعتبر حوله بحول أصله، ويخرج الزكاة من الجميع إذا كان المال الأصلي قد بلغ النصاب، فإذا كان لم يبلغ النصاب، وبلغ به النصاب حسب الحول من وقت تمام ملك النصاب.

هذا وإن كان بعض فقهاء التابعين يستحب أن يتصدق الكاسب من ماله الذي كسبه مباشرة دون انتظار مضي الحول حتى يكون هذا شكرًا لله عز وجل فيبارك الله له فيه ويزيده تحقيقًا لوعده: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

فمن أراد أن يأخذ بما استحبه التابعون فبها ونعمت، وأما الواجب فهو الرأي الأول أي لا تجب الزكاة فيها إلا إذا بلغت نصاب النقود لأنها نقود، وهو عشرون دينارًا (ثمن ٨٥ جرامًا من الذهب) أو مائتي درهم من الفضة (ثمن ٥٩٥ جرامًا من الفضة) وقيمة الزكاة هي نفس القيمة في النقود أي ربع العُشر (٢,٥٪)[١].

وهناك من يرى أنه يجب في المهن الحرة غير التجارية كالطب والمحاماة نصف العُشر؛ قياسًا لها على الأراضي الزراعية التي تُسقى بالآلات، ولكن ربع العُشر أولى لتتسق مع غيرها من المستغلات؛ ولأن الجهد البشري فيها أكثر، فإن الطبيب أو المحامي أو المهندس يبذل من الجهد أكثر مما يبذله الزارع للأرض[٢].

---

(١) «العبادات» (صـ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) «التطبيق المعاصر للزكاة» (صـ ٣١٠، ٣١١)، «عن العبادات» (صـ ٢٧٩).

خامسًا: زكاة الثروة المعدنية والبحرية:

١- زكاة الثروة المعدنية:

تشمل الثروة المعدنية ثلاثة أشياء:

(أ) المعادن.

(ب) الكنوز.

(ج) الركاز.

والمراد بالمعدن: «كل ما يخرج من الأرض وغيرها مما له قيمة كالذهب والفضة والرصاص والحديد والياقوت والزبرجد والعقيق والكحل والمعادن الجارية (السائلة) كالقار والنفط والكبريت ونحو ذلك»[١].

أما الكنز: فهو المال المدفون في الأرض بفعل الإنسان.

وأما الركاز: فمأخوذ في اللغة من الثبات. ويشمل ما ركزه الخالق وما ركزه المخلوق، أي أن الركاز يشمل المعادن والكنوز، ولذلك فإن فقهاءنا كثيرًا ما يعالجون هذا الموضوع تحت عنوان الركاز، وهو ما سنسير عليه.

دليل وجوب الزكاة في الركاز:

١- من الكتاب قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾** (البقرة: ٢٦٧). فلفظ «ما» في قوله **﴿مِمَّا﴾** لفظ عام يشمل الركاز، ويشمل الزروع والثمار.

٢- ومن السنة قول النبي ﷺ: **«العجماء جبار، والبئر جبار، والمعدن جبار، والركاز الخمس»**. رواه الجماعة.

ومعنى الحديث: أن الحيوانات إذا انفلتت من صاحبها فأصابت إنسانًا فدمه هدر، وأن من استأجر أجيرًا ليبحث له عن معدن، فحفر له فانهار عليه فدمه هدر، ومن حفر بئرًا فسقط فيه إنسان فمات فلا ضمان عليه، وأن على من حصل على معدن

---

(١) «المغني» (جـ ٣) (صـ ٥٣)، وهذا هو مذهب الإمام أحمد، وقال مالك والشافعي: لا يجب شيء إلا في الذهب والفضة، وذهب أبو حنيفة إلى أن الزكاة لا تجب إلا فيما يتمدد من المعادن.

من باطن الأرض إذا بلغ نصابًا أن يخرج الخمس.

والراجح أن نصاب الركاز هو نفس نصاب الذهب والفضة، فمن استخرج ما تساوي قيمته عشرين ديناراً (٨٥ جرامًا من الذهب) أو مائتي درهم من الفضة (٥٩٥ جرامًا من الفضة) فعليه الزكاة فيه.

وليس معنى اشتراط النصاب فيما يستخرج من المعدن ضرورة أن ينال في الدفعة الواحدة نصابًا بل ما ناله بدفعات يضم بعضها إلى بعض في الجملة؛ لأن المستخرج من المعادن هكذا ينال غالبًا فأشبه تلاحق الثمار، على أن الأمر في ذلك يترك لتقدير الجزاء؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧)[١].

ولكن من الذي يملك الركاز ليخرج زكاته؟

المختار أن تملك الدولة هذه الألوان الهامة من المعادن حتى لا تفتح أمام جماهير الشذاذ واللصوص للاختلاف عليها، ولكي يمكنها صرفها في مصالح البلاد، وهو رأي المالكية[٢].

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «وذلك لأن البترول والثروة المعدنية لها المنزلة الأولى في ثروة البلاد وقوتها، حتى أن قوات الأمم تقاس بما تملك من ينابيعه، أو ما يكون تحت سيطرتها من أرض تجري فيها عيونه، ويرى المالكية- على الرأي المشهور عندهم- أن المعادن سواء أكانت فلزات قابلة للطرق والسحب أم غير قابلة، أم كانت سوائل تسير في باطن الأرض كالبترول ونحوها كلها تكون ملكًا لبيت مال المسلمين، وأمرها لولي الأمر يتصرف فيها لمصالح المسلمين، يقطعها لمن يرى في إقطاعه إياه مصلحتهم، ولا يكون الإقطاع إقطاع تمليك فلا يملك المنجم بما فيه بل إقطاع انتفاع لمدة معينة معلومة، أو مدة حياة من أقطعه، ولا فرق في ذلك بين معادن توجد في أرض مملوكة وغير مملوكة»[٣].

وعلى الدولة بناءً على هذا أن تخرج الخُمس، ويكون هذا الخمس زكاة، وعليها

(١) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٤٤٨).

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ١) (صـ ٤٤٨).

(٣) المرجع السابق.

أن توزعه على مصارف الزكاة خلافًا لقول في مذهب الشافعي الذي رأى أنه خمس كخمس الغنيمة فيُنفق فيما ينفق فيه خمسها، ومصارف الزكاة ثمانية محصورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (التوبة: ٦٠). وسيأتي شرح ذلك بالتفصيل في بحث خاص.

وأما مصرف خمس الغنيمة فقد حدده الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١)[1].

هذا وقد أجمع العلماء على أن حولان الحول ليس شرطًا في وجوب زكاة الركاز.

٢- زكاة ما يخرج من البحر:

ذهب جمهور العلماء إلى عدم وجوب الزكاة فيما يخرج من البحر من أسماك وعنبر ومرجان، ولكن ذهب بعض الفقهاء إلى وجوبه بل وينسب إلى أحمد نفسه.

قال ابن قدامة: «ولا زكاة في المستخرج من البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه في ظاهر قول الخرقي، واختيار أبي بكر... وعن أحمد رواية أخرى أن فيه الزكاة؛ لأنه خارج من معدنه فأشبه الخارج من معدن البر، ويحكى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ من العنبر الخمس، وهو قول الحسن والزهري، وزاد الزهري في اللؤلؤ يخرج من البحر... وأما السمك فلا شيء فيه بحال في قول أهل العلم كافة إلا شيء يُروى عن عمر بن عبد العزيز رواه أبو عبيدة عنه وقال: «ليس الناس على هذا ولا نعلم أحدًا يعمل به، وقد روي عن أحمد أيضًا»[2].

ولكن هذا الذي رفضه ابن قدامة؛ لأنه لا نص فيه ولا إجماع ولا يصح قياسه عنده على ما فيه الزكاة هو الأولى بأن نأخذ به في عصرنا الحديث بعد أن تطورت

---

(١) قال النووي: «قال الشافعي والأصحاب: يجب صرف الخمس مصرف الزكوات، هذا هو المذهب، وبه قطع الجمهور»، ثم ذكر أن الخراسانية حكوا قولاً عنه أنه مصرف الخمس. انظر «المجموع» (جـ ٦) (صـ ٤٧).

(٢) «المغني» (جـ ٣) (صـ ٥٥، ٥٦).

حرفة الصيد وما ترتب عليهـا من صناعات وما يقوم عليها وبها من ثروات طائلة لو رآها فقهاؤنا القدامى لما ترددوا في فرض الزكاة فيها. وهل يعقل أن تجب الزكاة على من ملك عشـرين جملاً أو بضـعة أرادب من الشعـير أو ما قيـمته خـمس وثمانون جرامًـا من الذهب، ويعفى من ذلك مَنْ يسـتخـرج من البحار غـالي اللؤلؤ وأطنان الأسماك؟!

إن القانون الدولي أباح لكل دولة أن تملك اثني عشر مـيلاً من البحار والمحيطات التي تطل عليها، وأصبحت هذه المسافات مصادر للصيد خصوصًا صيد الأسماك.

يقول المرحوم الشيـخ محمد أبو زهرة: «ولو أن أئمتنا الأجلاء عـاشوا في عصرنا لقرروا ما قررناه- يعـني من وجوب الزكاة- فالاختلاف بيننا وبينهم اخـتلاف عصر وزمان لا اختلاف دليل وبرهان»(١).

ويقدر نصـاب الخارج من البـحر بما قـدر به زكاة الركاز أي إذا بـلغ الخارج من البحـر ما قيمـته (٨٥ جرامًـا من الذهب أو ٥٩٥ جرامًا من الفـضة) ففيـه الزكاة، ويجب فيه الخُمس، ولا يشترط أن يحول عِليه الحول.

ويدل على هذا أنه روي عن ابن عبـاس رضي الله عنهما عندمـا سأل إبراهيم بن مسعـود- وكان عاملاً بعدن- عن العنبـر فقال: «إن كان فيـه شيء فالخُمس». رواه عبد الرزاق في مصنفه(٢).

* ونورد هنا مبحث زكاة الفطر لعلاقته بالزكاة، وحتى يكتمل البحث:

زكاة الفطر:

معناها وتاريخ فرضها:

المراد بزكاة الفطر: الزكاة التي تجب بسبب الفطر في رمـضان، وتسمى أيضًا زكاة الفطرة، كأنها من الفطرة التي هي الخلقة لما في إخراجها من تزكية النفوس.

وقد فرضت في السنة الثانية من الهجـرة، وهي نفس السنة التي فُرض فيها صيام شهر رمضان.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»- العدد الثامن- السنة الرابعة.

(٢) عن «العبادات» للدكتور رفعت فوزي.

وتمتاز زكاة الفطر بأنها زكاة عن الأشخاص كما كانت الزكوات السابقة زكاة عن الأموال.

حكمها والدليل عليه:

هي زكاة واجبة أو مفروضة. والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين». رواه الجماعة.

فكلمة «فرض» تفيد الوجوب والالتزام، كما يؤكد ذلك اقترانها بحرف «على» الذي يفيد الإلزام، وكذلك ورد في بعض الروايات: «أمر رسول الله ﷺ»(١)، ولذلك فهي مفروضة عند الشافعي وأحمد ومالك، وواجبة عند أبي حنيفة، فالأحناف يفرقون تفرقة دقيقة بين الفرض والواجب، فالفرض: ما ورد بدليل يقيني، والواجب: ما ورد بدليل ظني(٢) إلا في باب الحج فالفرض غير الواجب عند الأحناف والشافعية.

حكمة مشروعيتها:

الحكمة من مشروعية صدقة الفطر أمران:

الأمر الأول: يتعلق بالصائمين، وهو أنها تطهر صومهم مما قد يكون قد بدر منهم أثناء الصيام من لغوٍ أو رفثٍ أو إخلال ببعض آداب الصوم.

الأمر الثاني: يتعلق بالمتصدق عليهم، وهو أنها تغنيهم في هذا اليوم (يوم العيد) عن ذل السؤال، وفي هذا ما فيه من إشاعة روح المحبة والمسرة بين أفراد المجتمع المسلم أغنيائه وفقرائه على السواء.

وسوف نلاحظ بعد قليل أن قلة ما يجب إخراجه في هذه الزكاة، وإخراجه مما يسهل على الناس تقديمه والتصدق به كان لغرض إتاحة الفرصة أمام أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع أغنيائهم وفقرائهم؛ ليشاركوا في السعادة بأداء هذا الواجب.

وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (جـ ٧) (صـ ٥٨).

(٢) نقصد بالدليل اليقيني: القرآن الكريم، والسنة المتواترة. والدليل الظني: أخبار الآحاد.

طهرة للصائم، وطعمة للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أدَّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات». رواه أبو داود.

على مَنْ تجب زكاة الفطر:

تجب زكاة الفطر على كل مسلم حرًّا كان أو عبدًا، ذكرًا أو أنثى، كبيرًا أو صغيرًا بشرط أن يدرك جزءًا من رمضان وجزءًا من شوال، أما الجنين فلا تجب عليه إلا عند ابن حزم رحمه الله الذي أوجبها عليه إذا مضى على الحمل مائة وعشرون يومًا، وهي المدة التي يتخلق فيها إلى أن تنفخ فيه الروح.

واحتج بأن رسول الله ﷺ فرضها على الصغير، والجنين في رأيه يشمله لفظ الصغير[(١)].

ولا شك أن هذا إفراط منه رحمه الله في الظاهرية، فإن الجنين لا يعتبر شخصًا كاملاً إلا بعد ولادته، ولعل ابن حزم لو قال: يستحب التزكية عنه- كما هو رأي سيدنا عثمان بن عفان كما روى هو عنه- لكان رأيًا سديدًا. والله أعلم بالصواب.

ولا يشترط في المخرج لها أن يكون مالكًا لنصاب المال على رأي الجمهور بل يكفي أن يكون لديه مقدارًا زائدًا عن قوته وقوت عياله ليلة العيد ويومه.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «والذي أراه أن للشارع هدفًا أخلاقيًّا تربويًّا وراء الهدف المالي من فرض هذه الزكاة على كل مسلم غني أو فقير ذلك هو تدريب المسلم على الإنفاق في الضراء كما ينفق في السراء، والبذل في العسر كما يبذل في اليسر، ومن صفات المتقين التي ذكرها القرآن الكريم أنهم ينفقون في السراء والضراء، فقال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٣، ١٣٤).

وبهذا يتعلم المسلم وإن كان فقير المال رقيق الحال أن تكون يده هي العليا، وأن يذوق لذة الإعطاء والإفضال على غيره، ولو كان ذلك يومًا في كل عام»[(٢)].

---

(١) «المحلَّى» (جـ ٦) (صـ ١٣٢).

(٢) «فقه الزكاة» (جـ ٢) (صـ ٩٣٠).

مقدار الواجب فيها:

سبق ذكرنا حديث رسول الله ﷺ الذي يحدد مقدار الواجب وهو الصاع، وقد ثبت كون هذا الصاع من التمر والشعير والزبيب والأقط[١]، ولم يثبت عنه ﷺ صاع من قمح على التحقيق، كما لم تصل أحاديث نصف الصاع منه إلى درجة الصحة.

وقد يكون القمح في بعض البلاد أرخص من التمر أو أرخص من الزبيب، فالأولى أن يكون هذا الصاع من غالب قوت أهل البلد قمحًا كان أو غيره.

وتجوز الزيادة على الصاع إحسانًا وبرًّا إلا إذا اعتقد المخرج لهذه الزكاة أن ما فرضته السُّنة لا يكفي، وأن ما يخرجه هو برأيه أولى من السُّنة وأفضل، فإذا اعتقد هذا فهو مبتدع وعليه أن يضبط نفسه بضوابط السُّنة والوقوف عندها.

كما يجوز إخراج القيمة وهو مذهب أبي حنيفة؛ لأن الفقير يستطيع بالقيمة شراء ما يشاء بقيمة الصاع من المال أما إذا أخذ طعامًا فقد يكون في غير حاجة إليه فيبيعه بأبخس الأثمان، والقيمة هي ثمن الصاع من غالب قوت أهل البلد، وهذا ما لم تكن هناك أزمات في الأقوات، فإن كانت فإخراج الطعام في هذه الحالة أفضل بلا ريب؛ لأنه ماذا عسى أن يصنع الفقير إذا أخذ المال ولم يجد ما يشتريه؟ ويدخل في الحسبان مراعاة أحوال الفقير وأسرته معه، فإن من الملاحظ أن بعض الفقراء يفضل أخذ القيمة لينفقها على ملذاته التافهة، ومتعه الرخيصة بينما أفراد أسرته يتضورون جوعًا، أو يشكون العري والفاقة.

عمن يخرجها المزكي:

يخرجها المزكي عن نفسه، وعن كل من تلزمه نفقتهم الصغير والكبير كزوجته وولده الصغير وأخيه إن كان في عياله، ووالده ووالدته إن كانا كذلك، وطفله الذي ولد قبل أذان فجر ليلة العيد فأدرك جزءًا من رمضان وجزءًا من شوال، وكذلك من مات ممن يعولهم بعد أذان فجر ليلة العيد.

---

(١) اللبن المجفف.

وقت إخراجها:

يجوز إخراجها من أول يوم من رمضان وإذا كانت الدولة هي التي تجمعها فيستحسن أن يكون ذلك من منتصف الشهر ولكن الأفضل لمن يخرجها بنفسه أن يكون ذلك قبل الدخول في صلاة عيد الفطر، لأن من أدَّاها بعد ذلك فإنما هي صدقة من الصدقات، ومن فاته وقتها ولم يخرجها فهي دين عليه في ذمته نحو الفقراء ويجب عليه أن يردها إليهم.

إلى مَنْ يخرجها:

يخرجها لنفس الأصناف الثمانية الذين يخرج إليهم زكاة ماله، لأنها زكاة فيجب أن يصرفها في مصارف الزكاة، ومصارف الزكاة هي التي ذكرناها سابقًا.

مقدار الصاع النبوي:

الصاع = ٤ أمداد = $\frac{١}{٦}$ كيلة مصرية = ٢,١٥٧ كيلو جرام، وقد يزاد عليها للاحتياط.

*** مشكلة كل عام:**

وهي الخلاف بين آراء المسلمين هل تخرج الزكاة حبًّا أم تخرج بالقيمة؟

وقد سبق رأي أبي حنيفة أن القيمة تجزئ، ونحت المدرسة السلفية في مصر هذا المنحى أخيرًا حين أقر الدكتور محمد بن إسماعيل المقدم جواز إخراجها بالقيمة، وكذلك قال صاحب (صحيح فقه السُّنة صـ ٨٤) وقيدها بالضرورة أو الحاجة أو المصلحة الراجحة.

قلت: ومصر من البلاد- خاصة مدنها- التي لا تعترف بقيمة الحب والزروع قدر اهتمامها واعترافها بالمال لحاجة أهلها إلى الكساء قبل الطعام في أغلب الأحوال، كما يحتاجون إلى سداد ديونهم خاصة في ظل هذه القضايا المتكاثرة في المحاكم حول (شيكات بدون رصيد) و (إيصالات أمانة) وغيرها من هذه القضايا التي كثرت مؤخرًا، أما إن كان إخراج الحب أفضل بالنسبة لأهل المحلَّة والبلد فموافقة السُّنة أولى. والله تعالى أعلم.

*** الصدقات:**

وهي كل ما دون الزكاة من مال وغيره.

وقد حث القرآن عليها وأمر بها النبي ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ...**﴾ الآية. (البقرة: ١٧٧).

وبيَّن الله تعالى أن الإنسان لن ينال ما يحب من ثواب الله إلا إذا أنفق مما يحب من الأموال التي يملكها فقال: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ (آل عمران: ٩٢).

وقد نص على أن من صفات المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السموات والأرض أنهم ينفقون في كل وقت وعلى كل حال في السراء والضراء فقال: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وذكر ما ينتظر المؤمنين على صدقاتهم من ثواب عظيم فقال: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٦١)...

وغير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على إنفاق المال في البر والإحسان تطوعًا وندبًا طلبًا لمرضاة الله تعالى غير متبعين ذلك بمنٍّ أو أذى.

على أنه قد تتعدد أشكال الصدقات:

* ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس؛ تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»**(١).

والسُّلامى: كناية عن مفاصل وعظام البدن.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٩٨٩) في الجهاد، مسلم (١٠٠٩) في الزكاة.

* ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**على كل مسلم صدقة**» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**»، قالوا: فإن لم يستطع؟ أو لم يفعل؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فليأمر بالمعروف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فليمسك عن الشر فإنه له صدقة**»[١].

* ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**خلق الله ابن آدم على ستين وثلاثمائة مِفْصَل، فمن ذكر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبَّح الله، وعزل حجراً عن طريق المسلمين، أو عزل شوكة، أو عزل عظمًا، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلامى أمسى من يومه وقد زحزح نفسه من النار**»[٢].

* ومن حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مَنْ منح لبنًا أو وَرِقًا**[٣]- فضة- أو أهدى زقاقًا[٤] كان له مثل عتق رقبة»[٥].

* ومن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**أربعون خصلة أعلاها منحة العنز ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها أو تصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة**»[٦].

* ومن حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق، وأن تفرغ من دلوك في إنائه**»[٧].

* وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله**». قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تعين صانعًا أو تصنع لأخرق**». قلت: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «**فكف شرك عن الناس فإنها صدقة**».

---

(١) صحيح: البخاري (١٤٤٥) في الزكاة، مسلم (١٠٠٨) في الزكاة.
(٢) صحيح: مسلم (١٠٠٧) في الزكاة.
(٣) قصد بذلك: إقراض المال.
(٤) قصد: هداية الطريق، وإرشاد الأعمى.
(٥) صحيح: صححه الألباني (١٩٥٧) في كتاب «البر والصلة» من «سنن الترمذي».
(٦) صحيح: البخاري (٢٦٣١) في الهبة.
(٧) صحيح: طرفه الأول عند البخاري (٦٠٢١) في الأدب، ولفظه عند الترمذي (١٩٧٠) في=

* ومن حديث أبي حري الجهني رضي الله عنه أنه قال: سألت النبي ﷺ عن المعروف فقال: «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي- من يطلب الماء- ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك بوجه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض»(١).

* بل لقد علا الإسلام حتى جعل في سقاية الحيوان ورعايته صدقة وأجر كما في حديث: «في كل كبد رطبة أجر»(٢).

* كما جعل سداد الدَّين عن المدين وإنظار المعسرين صدقة كما جاء عن بريدة مرفوعًا أنه ﷺ قال: «مَنْ أنظر معسراً فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدَّيْن، فإذا حلَّ الدَّيْن فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة»(٣).

* وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «لا يغرس مسلمٌ غرسًا، ولا يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة».

* شروط قبول الصدقة:

(١) أن تكون من المال الطيب الحلال:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)»(٤).

= البر والصلة، وصححه الألباني هناك.

(١) صحيح: صححه الألباني (٢٧٢٢) في الاستئذان من «سنن الترمذي» ط الرياض، وشسع النعل: سير النعل.

(٢) صحيح: البخاري (٢٣٦٣) في الشرب، مسلم (٢٢٤٤) في السلام.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٢١٤٨) في الصدقات من «سنن ابن ماجه» ط الرياض.

(٤) صحيح: مسلم (١٠١٥) في الزكاة.

* ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لا يتصدق أحدٌ بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا...**».

وفي رواية: «**ما تصدق عبدٌ بصدقة من مال طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه...**»[١].

* ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**لا يقبل الله صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول**»[٢]. فالصدقة بالحرام غير مقبولة، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (المائدة: ٢٧).

* وقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**من كسب مالاً حراماً فتصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه**»[٣].

* وقال أبو عبد الله الباجي الزاهد رحمه الله: «خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل، والعمل على السُّنَّة، وأكل الحلال، فإن فُقِدت واحدة لم يرتفع العمل، وذلك إذا عرفت الله عز وجل ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الحق ولم تعرف الله لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السُّنَّة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع».

* وسُئل ابن عباس رضي الله عنه عمن كان على عملٍ فكان يظلم، ويأخذ الحرام ثم تاب فهو يحج ويعتق ويتصدق منه فقال: «إن الخبيث لا يُكَفِّر الخبيث».

* وقال ابن مسعود: «إن الخبيث لا يُكَفِّر الخبيث، ولكن الطيب يُكَفِّر الخبيث».

* وكان أبو الدرداء قد ضرب مثلاً لمن أصاب مالاً حرامًا فتصدق به كمن أخذ مال يتيم ثم تصدق به على أرملة وكساها به!!

(١) صحيح: البخاري (١٤١٠) في الزكاة، مسلم (١٠١٤) في الزكاة.

(٢) صحيح: مسلم (٢٢٤) في الطهارة.

(٣) حسن: ابن حبان (٣٢١٦) في صحيحه، وحسنه الأرناؤوط.

* وقال الحسن البصري: «أيها المتصدق على المسكين ترحمه ارحم من قد ظلمت»(١).

قلت: وهذا كله يجمعه قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة: ١٠٠).

(٢) أن تكون الصدقة من أجود المال لا رديئه وخبيثه:

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

فقد كان بعض الناس على عهد النبي ﷺ أصحاب نخل- كما روى البراء بن عازب رضي الله عنه- وكان الرجل إذا أراد أن يتصدق جاء بالتمر فيه الشيص- وهو التمر الذي لم ينضج- والحشف- وهو التمر اليابس- والقنو- وهو عذق النخل من الرطب- قد انكسر، فأنزل الله تعالى هذه الآية يحذرهم من الإنفاق من خبيث أموالهم ورديئه(٢).

وروى ابن عباس أن بعضهم كان يشتري الطعام الرخيص فيتصدق به فأنزل الله هذه الآية(٣).

إن الله تعالى في هذه الآية يحث العباد على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض من الحبوب والثمار، وهذا يشمل النقدين والعروض كلها المُعَدَّة للبيع والشراء والخارج من الأرض من الحبوب والثمار ويدخل في عمومها: الفرض: الزكاة، والنفل: الصدقة-، وأمر الله تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث وهو الرديء الدون يجعلونه لله، ولو بذله لهم مَنْ لهم حق عليه لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه الإغماض والمغاضاة، فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء.

والكمال: إخراج العالي.

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» حديث (١٠).

(٢) صحيح: الحاكم (٢/ ٣٨٥).

(٣) صحيح: الحاكم (٢/ ٣١١).

والممنوع: إخراج الرديء. فإن هذا لا يجزئ عن الواجب(١).

(٣) أن لا يبطل الصدقة بالمن والأذى:

وقال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** (البقرة: ٢٦٤).

وقال القرطبي رحمه الله: «المن: التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطى فيؤذيه».

والمن من الكبائر. وقد ثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**». وفي رواية: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة...**». وعدّ منهم «**المنَّان**».

والأذى: السب والشتم، وهو أعم من المن لأن المن جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وقال علماؤنا رحمة الله عليهم: فمن أنفق في سبيل الله ولم يتبعه منًّا ولا أذى كقوله: ما أشد إلحاحك! وخلصنا الله منك! وأمثال هذا فقد تضمن الله له بالأجر، والأجر الجنة، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه، لأنه يغتبط بآخرته فقال: **﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** (البقرة: ٢٦٢)، وكفى بهذا فضلاً وشرفًا للنفقة في سبيل الله تعالى(٢).

وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لآخر: أحسنت إليك، وفعلت وفعلت.

فقال ابن سيرين: اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصي.

وكان بعضهم: يقول مَنْ مَنّ بمعروفه سقط من شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجره.

وأنشد الشافعي:

لا تحملن من الأنام ❁ بأن يمنوا عليك منة

---

(١) «تفسير السعدي» (صـ ١٦٦).

(٢) القرطبي (٣/٣٠٨، ٣٠٩).

واختر لنفسك حظها ✿ واصبر فإن الصبر جنة
مِنَنُ الرجال على القلوب ✿ أشد من وقع الأسنة

وقال غيره:

وصاحب سلفت منه إليَّ يدٌ ✿ أبطأ عليه مكافاتي فعاداني
لما تيقن الدهر حاربني ✿ أبدى الندامة مما كان أولاني
أفسدت بالمن ما قدمت من حسن ✿ ليس الكريم إذا أعطى بمنان(١)

* **حديث رائع:**

وروى مسلم بمعناه في الزهد أن عمر رضي الله عنه روى من حديثه ﷺ أنه قال: **«إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوا عليه بوقارٍ ولين، أو ببذل يسير، أو رد جميل فقد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خولكم الله تعالى».**

قلت: ودليل ذلك قصة أعمى، وأقرع، وأبرص بني إسرائيل تصوَّر لهم الملك ليسألهم ويمتحنهم فيما أعطاهم الله عز وجل من مال.

وما أروع من قال:

تراه إذا ما جئته متذللاً ✿ كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وكان علي بن الحسين رحمه الله إذا رأى السائل قال: «أهلاً بمن يحمل زادي إلى الآخره ثم يُقبِّل السائل ثم يناوله الصدقة»(٢).

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول إذا رأى سائلاً: «مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي».

(٤) ويجب الإخلاص واستصغار العطية.

(٥) إخفاء الصدقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً:

فقد قال الله تعالى: **﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ**

---

(١) «الكبائر» (صـ ١٤٣، ١٤٤) للذهبي رحمه الله.

(٢) «الزهد» (صـ ٢١٥) للإمام أحمد.

لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧١).

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

وفي الحديث: «**صدقة السر تطفئ غضب الرب**».

وقد كان علي بن الحسين يحمل جُرب الدقيق على ظهره بالليل ويتصدق بها ويقول: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب».

وقد وجدوا آثار سوادٍ في ظهره لما غسّلوه فقالوا: ما هذا؟ قالوا: كان يحمل جُرب الدقيق على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة.

وكان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين(٢).

قلت: وإظهار الصدقة في بعض المواطن خيرٌ لتعليم الناس والحث عليها، ويبقى أن إسرارها خيرٌ وأفضل.

* فضائل الزكاة، وجزاء المزكي:

وقد سبق بعض هذه الفضائل في حكمة مشروعية الزكاة، ونضيف إليها الآتي:

(١) أنها من صفات المتقين المستحقين لرحمة الله عز وجل. قال تعالي: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ (الذاريات: ١٥- ١٩)

(٢) أنها من صفات المؤمنين المستحقين لرحمة الله عز وجل. قال سبحانه: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**﴾ (التوبة: ٧١).

(٣) أن الله ينميها ويربيها لصاحبها. قال تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ (البقرة: ٢٧٦).

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣٧٦٠) في «صحيح الجامع».

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٣٤١).

وقال ﷺ: **«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل»**[١].

(٤) أن الله تعالى يظل صاحبها من حر يوم القيامة. قال النبي ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه...»**[٢].

(٥) قال رسول الله ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال...»**[٣].

(٦) أنها سبب لنزول الخيرات، ومنعها سبب في منع الخيرات. وفي الحديث: **«... وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»**[٤].

(٧) أنها تكفر الخطايا والذنوب. ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»**[٥].

(٨) أنها تزكي أخلاق المزكي وتشرح صدره. فالزكاة تنتشل صاحبها من زمرة البخلاء وتدخله في زمرة الكرماء، وهي تشرح صدره فإن الإنسان إذا بذل ماله عن طيب نفس وسخاء فإنه يجد في نفسه انشراحًا[٦].

(٩) الوقاية من مصارع السوء، وتزيد في العمر. فقد جاء في الحديث: **«صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء»**[٧].

وجاء أيضًا: **«صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»**[٨].

---

(١) صحيح: البخاري (١٤١٠)، مسلم (١٠١٤).
(٢) صحيح: البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).
(٣) صحيح: مسلم (٢٥٨٨).
(٤) ابن ماجه (٤٠١٩) في سننه، وصححه الألباني (١٠٥) في «الصحيحة» بشواهده.
(٥) الترمذي (٦٠٩) في سننه، وأحمد (٥/ ٥٣١) وهي محتملة التحسين.
(٦) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (٢/ ٢٥)، وانظر «صحيح فقه السنة» (٢/ ١- ٨) بتصرف يسير.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) صحيح: صححه الألباني (٣٧٩٥، ٣٧٩٦، ٣٧٩٧) في «صحيح الجامع».

(١٠) والمتصدق والمزكي سائر على درب الأنبياء متبع لآثارهم وهداهم.

وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ويقول سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣).

ثم يمدح سبحانه وتعالى سيدنا إسماعيل عليه السلام؛ لأنه كان يمتثل أمر الله ويأخذ به أهله فيقول: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم: ٥٥).

ثم يذكرها الحق تبارك وتعالى في مواثيقه لبني إسرائيل إذ يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٨٣).

كما جاءت على لسان المسيح في وصاياه قال تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١).

هكذا كان يأمر الحق سبحانه وتعالى عباده السابقين بالزكاة على لسان رسلهم، فلما نزل القرآن الكريم على خاتم المرسلين كانت فريضة الزكاة قرينة الصلاة، آمرًا بالبر بالفقراء، والإحسان إلى المساكين، وتأدية حق السائل والمحروم، واستجابةً لنداء الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

ثم تتابعت الآيات توضح أن الزكاة علامة من علامات الإيمان، وأنها مظهر من مظاهر شكر الله على نعمه، وعنوان لتعاون المسلم مع بني جنسه.

يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (المزمل: ٢٠).

(١١) والمتصدق والمزكي حصل على بشرى صريحة من الله تعالى بالنفقة عليه فقال تعالى في الحديث القدسي: «أَنْفِق أُنْفِق عليك». متفق عليه.

*** صور من حياة المتصدقين:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل بفلاة[1] من الأرض فسمع صوتًا في سحابة يقول: اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة[2] فإذا شرجة[3] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول بمسحاته[4]، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبد الله لِمَ سألتني عن اسمي؟ فقال: سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثُلثه، وآكل أنا وعيالي ثُلثه، وأرد ثُلثه**»[5].

وتلك عاقبة الذين اتقوا وأنفقوا، أما البخلاء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (آل عمران: ١٨٠).

❁ ❁ ❁

---

(١) الفلاة: الأرض الواسعة.

(٢) الحرَّة: الأرض بها حجارة سوداء.

(٣) الشَرجة: مسيل الماء إلى الأرض السهلة.

(٤) المسحاة: المجرفة من حديد.

(٥) صحيح: رواه مسلم.

[٣] رمضان والصيام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يبشر أصحابه يقول: «**قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه، تفتح به أبواب الجنان، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغل فيه الشياطين، فيه ليلة خيرٌ من ألف شهر ومن حُرِم خيرها فقد حُرِم**»(١).

❁ ❁ ❁

تمهيد:

لا يكاد شهر رجب يقبل ومن ورائه شعبان حتى يتنسم الناس عبير الشهر القرآني الفريد، ولا يكاد يطلع على الناس هلاله حتى يغمر الدنيا فيض من الخشية الهادية، وشعاع من الذكر الرفيع. الله أكبر الله أكبر صدع بها في أذان الفجر في أول يوم منه خلفاء بلال، فيمسك المسلمون عن ملاذهم بعد أن هيأوا النفس للطهر، والقلب للخشية، واللسان للذكر، ويقبلوا في هذا الجو المشحون بالطهر على شهر الله وقد دعاهم داعيه يناديهم: «.. يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر..»، فتراهم صوَّمًا قوَّمًا خشَّعًا هجَّدًا ركعًا سجَّدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا.

فحَقٌّ لقلوب المسلمين أن تلتقي في هذا الشهر على المحبة والإخلاص وصفاء النفوس.

اتى رمضان مزرعة العباد ❁ لتطهير القلوب من الفساد
فأدِّ حقوقه قولاً وفعلاً ❁ وزادك فاتخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها ❁ تأوَّه نادمًا يوم الحصاد

---

(١) صحيح: أحمد (٢/ ٢٣٠، ٣٨٥) في المسند، والنسائي (٤/ ٢٦، ١٢٨) في الصوم، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «التعليق على المسند» (١٢/ ٩٥).

إن الصوم عبادة روحية، وفريضة خالصة تقبل عليها النفوس المؤمنة في شهر رمضان، وتراه راحةً وروحًا، وروضًا للمرضى، وحدائق ذات بهجة، لا تراه عبئًا ثقيلاً، ولا حملاً تنوء به الأنفس بل تقبل عليه إقبال الظمآن على الماء البارد في اليوم الصائف؛ لعلمها أن الصيام يصلها بالله تعالى، ويربي في النفس التقوى.

قال مُعلَّى بن الفضل: «كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم».

وقال يحيى بن أبي كثير: «كان من دعائهم: اللهم سلِّمني إلى رمضان، وسلِّم لي رمضان، وتسلمه مني متقبلاً».

ولقد كانوا- أي السلف- يعدون بلوغ شهر رمضان وصيامه نعمة عظيمة على مَنْ أقدره الله عليه، فكم من دفين واراه بطن الثرى يتمنى لو عاد يصوم يومًا ويقوم ليلة من رمضان!! وكم من مريض عيي يرجو العافية؛ ليصوم يومًا من رمضان.

وقد جاء في الحديث أن ثلاثة استشهد منهم اثنان، ومات الثالث على فراشه بعدهما، فرُؤي في المنام سابقًا لهم، فقال النبي ﷺ: «**أليس صلى بعدهما كذا وكذا صلاة، وأدرك رمضان فصامه؟ فوالذي نفسي بيده إن بينهما لأبعد مما بين السماء والأرض**»(1).

فكم ممن أمَّل أن يصوم هذا الشهر فخانه أمله فصار إلى ظلمة القبر، وكم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومؤمل غدًا لا يدركه، فإذا بلغت رمضان وصمته فتلك نعمة لا تعادلها نعمة إلا أن يغفر الله تعالى لك، وأن يعتق رقبتك من النار.

الصيام عبادة وفريضة قديمة:

لقد شاءت إرادة الله جل جلاله أن يكون الصوم فريضة قديمة تعبَّد الله بها الإنسانية منذ فجر التاريخ، ولم تأت في القرآن الكريم عبادة مثل الصيام نص الله في فرضيتها على أنها كتبت علينا كما كتبت على الذين من قبلنا، وما فريضة الصيام في الأديان بعامة إلا إشعار بوحدة الدين، فدين الله واحد في أصله ومقصده: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ (آل عمران: ١٩). ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن**

---

(١) حسن الإسناد: كذلك قال الشيخ شعيب الأرناؤوط (١٤/ ١٢٧) في تعليقه على المسند.

يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وأيضًا فشرع الله على خلقه واحد في جوهره وغايته وإن اختلفت رسوم بعض العبادات في بعض الشرائع: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وهذا وذاك إنما يفرض على البشر قاطبة الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، ويجعل التفريق بينهم كفرًا بالله الواحد القهار: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وعقب التابعي الجليل مجاهد رحمه الله على هذه الآية فقال: «كتب الله تعالى صيام شهر رمضان على كل الأمم من قبلنا»، وكذلك قال الحسن البصري(١).

وما فرضية الصيام في الإسلام بخاصة إلا لأنه عبادة السر بين الخالق والمخلوق التي يبرز فيها جهاد النفس والانتصار عليها.

* **تشبيهان لرمضان:**

وللإمام ابن الجوزي رحمه الله تشبيهان لرمضان:

الأول: قال: الشهور الإثنى عشر. كمثل أولاد يعقوب عليه وعليهم السلام، وشهر رمضان بين الشهور كيوسف بين إخوته، فكما أن يوسف أحب الأولاد إلى يعقوب كذلك رمضان أحب الشهور إلى علام الغيوب.

وإن كان في يوسف من الحلم والعفو ما غمر جفاهم حين قال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢).

فكذلك شهر رمضان فيه من الرأفة والبركات والنعمة والخيرات، والعتق من النار، والغفران من الملك القهار.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٧).

وارتد يعقوب بقميص يوسف بصيرًا، وصار بصره منيرًا، وصار قويًّا بعد الضعف، بصيرًا بعد العمى، فكذلك المذنب العاصي إذا شمَّ روائح رمضان وجلس فيه مع المذكرين وقرأ القرآن وأطاع الله تعالى يصير إن شاء الله مغفورًا له بعد أن كان عاصيًا، وقريبًا بعد أن كان قاصيًا ينظر بقلبه بعد العمى ويسعد بقربه بعد الشقا(١).

وقالوا:

جاء شهر الصيام بالبركات ❁ فأكرم به من زائر هو آت

والثاني: مثل رمضان كمثل رسول أرسله سلطان إلى قومٍ فإن أكرموا شأنه وعظموا مكانه وشرفوا منزلته وعرفوا فضيلته رجع الرسول إلى السلطان شاكرًا لأفعالهم مادحًا لأحوالهم راضيًا لأعمالهم، فيحبهم السلطان على ذلك فيحسن إليهم كل الإحسان، وإن استخفوا برعايته وهونوا لعنايته ولم ينزلوه منزلته من الإكرام، وفعلوا به فعل اللئام فيرجع الرسول إلى السلطان وقد غضب عليهم من قبيح أفعالهم وسيء أعمالهم فيغضب السلطان لغضبه، كذلك يغضب الله سبحانه وتعالى على من استخف بحرمة شهر رمضان(٢).

وقالوا:

إذا رمضان أتى مقبلاً ❁ فاقبل بالخير يستقبلُ

لعلك تخطئه قابلاً ❁ وتاتي بعذر فلا يُقبل

* **تعريف الصيام:**

الصوم والصيام لغةً: الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل: للصائم لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح(٣).

وشرعًا: هو إمساك مخصوص من شخص مخصوص من وقت مخصوص(٤).

فالإمساك المخصوص: عن الطعام والشراب والنكاح.

---

(١) «بستان الواعظين» (صـ ٢٨٠، ٢٨١) بتصرف.

(٢) السابق (صـ ٢٨٦).

(٣) اللسان (٢٥٢٩، ٢٥٣٠).

(٤) «كفاية الأخيار» (٢/ ٢٠٤).

والشخص المخصوص: المسلم المكلف الخالي من موانع الصيام: كالحيض والنفاس للمرأة.

والوقت المخصوص: من طلوع الفجر الصادق إلى مغيب الشمس.

وحديثنا عن صوم رمضان وهو الصيام المفروض بنص القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وفي الحديث الصحيح: «بُني الإسلام على خمس..... وصوم رمضان».

وقال القرطبي: «وقال جمهور الأمة: من شهد أول الشهر وآخره فليصُم، ما دام مُقيمًا، فإن سافر أفطر، وهذا هو الصحيح، وعليه تدل الأخبار الثابتة»[١].

وقد فُرض الصيام في العام الثاني للهجرة، وبذلك يكون النبي ﷺ قد صام تسع رمضانات[٢].

*** معنى رمضان:**

وقعت تسمية رمضان من الرمضاء: وهي الرمل الحامي من حر الشمس، ثم بقي هذا الاسم مصاحبًا له أي زمنٍ كان.

وسُمي رمضان: لأن الصائم يرمض فيه، أي يحترق جوفه من العطش.

وسُمي رمضان: لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة[٣].

*** الاستبشار والتهنئة بقدوم رمضان:**

وقد ذكرنا حديث الباب وفي أوله أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يبشر أصحابه..» ثم ذكر الحديث.

قال ابن رجب الحنبلي: «قال بعض العلماء: هذا الحديث أصلٌ في تهنئة الناس بعضهم بعضًا بشهر رمضان».

---

(١) تفسير القرطبي، وانظر ابن العربي المالكي (١/ ٨٢، ٨٣) في «أحكام القرآن».

(٢) «المجموع» (٦/ ٢٠٢).

(٣) «الأسنى» للقرطبي (١/ ١٧١).

وكيف لا يُبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان؟ وكيف لا يُبشر المذنب بغلق أبواب النيران؟ وكيف لا يُبشر العاقل بوقت يُغل فيه الشيطان؟ من أين يُشبه هذا الزمان زمان؟

فيا مَنْ طالت غيبته عنا، قد قربت أيام المصالحة.

ويا مَنْ دامت خسارته قد أقبلت أيام التجارة الرابحة!!

إن رمضان يأتي ومعه إحياء لعبادة الصيام وهي العبادة التي طالما التزمها الصالحون لما رأوا فيها خيرًا كثيرًا لا يرونه في غيرها.

* فهذا أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ما أفطر بعد رسول الله ﷺ إلا في مرض أو سفر حتى لقي الله تعالى(١).

* أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقد خرج غازيًا في البحر، والريح طيبة، والشراع مرفوع، فنادى منادٍ: يا أهل السفينة قفوا أخبركم. حتى والى بين سبعة أصوات، فوقف أبو موسى على صدر السفينة فقال: مَنْ أنت؟ ومِنْ أين أنت؟ أو ما ترى أين نحن؟ وهل نستطيع وقوفًا؟ فأجابه الصوت: ألا أخبركم بقضاءٍ قضاه الله تعالى على نفسه؟ إن الله قضى على نفسه أنه من عطَّش نفسه لله في يومٍ حار كان حقًّا على الله أن يرويه يوم القيامة. فكان أبو موسى يتوخّى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه(٢).

* وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «ألا أدلكم على الغنيمة الباردة؟ الصوم في الشتاء»(٣).

* ولما كان معاذ بن جبل رضي الله عنه على فراش وفاته راح يقول: «اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»(٤).

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ١٧٩).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٦٠).

(٣) وقد روي هذا بسند حسن مرفوعًا (٣٨٦٨) كما في صحيح الجامع.

(٤) «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩).

* ومات عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو صائم ليفطر مع رسول الله ﷺ.

ويقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

* صام بعض التابعين حتى اسْوَدَّ من طول صيامه.

* وصام الأسود بن يزيد حتى اخْضَرَّ جسمه واصْفَرَّ فكان إذا عوتب في رفقه بجسده يقول: كرامة هذا الجسد أريد.

* وقيل لآخر مريض: أفطر. فقال: كيف أفطر وأنا أسير لا أدري ما يُفعل بي؟

* ومات عامر بن عبد الله بن الزبير وهو صائم ما أفطر[١].

* واحتضر إبراهيم بن هانئ صاحب الإمام أحمد وهو صائم، وطلب ماءً، وسأل: أغربت الشمس؟ فقالوا: لا. وقالوا له: قد رُخص لك في الفرض وأنت متطوع، فقال: أجل أمهلوا ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات: ٦١). ثم خرجت نفسه وما أفطر.

*** من عجائب الصائمين:**

* وكان أحدهم حمالاً يحمل أثقال الناس على ظهره فيصبح صائمًا ثم ينطلق إلى عمله وقد أعدت له زوجته طعامًا ليكون غداءه، فيحمله ثم يتصدق به على فقير أو مسكين، ويواصل يومه ثم يعود إلى أهله يتناول معهم عشاءهم وما هو إلا إفطاره!!

* ولما دُفن عبد الله بن غالب كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرؤي في المنام فسُئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

وهَبْنِي كتمت السر أو قلت غيره ✿ أتخفى على أهل القلوب السرائر

أبى ذاك أن السر في الوجه ناطق ✿ وأن ضمير القلب من العين ظاهرٌ

* وبعضهم يستبشر بقدوم رمضان مدعيًا أنه شهر البركة إلا أنه لا يرى البركة إلا في طعامه وشرابه، فإذا مرت أيامٌ معدودات من هذا الشهر الكريم نكص على عقبيه لأن رمضان منعه شهوات وملذات، وتلك صفات أهل العصيان والخطيئة.

---

(١) «لطائف المعارف» (صـ ٥١) وما بعدها.

* وآخرون يفطرون جهاراً نهاراً سقط قناع الحياء عن وجوههم، و«**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»، لا ترى أحدهم إلا شيطانًا مريدًا، لعينًا ملعنًا، مقيتًا ممقتًا، بغيضًا مبغضًا، كأنما هو صندوق حوى القبح لا حيَّاه ربي، وذاك بشره بعذاب أليم إن لم يتب إلى الله تعالى.

وقد نقل لنا صاحب «فقه السنة»[١] عن الإمام الذهبي رحمه الله قوله: «وعند المؤمنين مقررٌ أن من ترك صوم رمضان بلا عذر أنه شرٌّ من الزاني ومدمن الخمر بل يشكون في إسلامه ويظنون به الزندقة والإخلال». اهـ.

حق للمؤمنين أن يفرحوا بشهر لياليه أضوأ من نور الشمس في رائعة النهار في كبد السماء، فلا دعاء فيه إلا وهو مسموع، ولا عمل فيه إلا وهو مرفوع، ولا خير إلا مجموع، فإذا جاء رمضان فإنه سيد الشهور قد أتى فاغتنمه فقد لا يعود.

* من أسرار رمضان والصيام:

(١) الصيام والتقوى:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣).

والغاية منه التقوى. والتقوى: كلمة جامعة لكل خصال الخير والبر والإحسان. إنها مفتاح الصلة بالله الكبير المتعال. إنها وصية الله في الأولين والآخرين، ودعوة الأنبياء والمرسلين، وسبيل كل نصر وغاية كل مؤمن. ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ (النحل: ١٢٨).

إن تقوى الله هي العاصم من الشر. ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٠١).

فالتقوى تعطي معية الله تعالى، وتعصم من الوقوع في الخطأ، والصيام طريق من طرق الوصول إلى التقوى.

---

(١) «فقه السنة» (١/ ٣٢٢).

(٢) كبح جماح النفس وتربية الإرادة فيها:

والصوم مدرسة لتربية الإرادة القوية التي تكبح جماح النفس وتفطمها عن شهواتها ورغباتها، وتتسامى بها عن العبودية لعاداتها ومألوفها خصوصًا إذا نزلت بالإنسان الملمات.

وما أحوج الأمة إلى عزمات أبنائها وقوة إرادتهم في مواطن الخطر، والأيام دول، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

إن المرء حين تكون إرادته قوية يستطيع أن يوجِّه حياته التوجيه الذي يصون كرامته، ويعلي من قيمته، ويحله بين لداته وأقرانه المكان الكريم اللائق به.

وهو أقوم طريق لتربية مَلَكة المراقبة لله عز وجل هذه المراقبة التي توقظ في المسلم ضميره ويحيا بها فؤاده، ويكون دائمًا على ذكر من ربه، وكيف لا وهو يعلم أن الله معه حيث وجد، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩).

والقلوب إذا عمرت بالإيمان، وامتلأت بالخشية لله عصمت صاحبها من الزلل، وحفظته من الانحراف والميل مع الهوى، والوقوع في معاصي الله.

إن الصيام يقوي الإرادة الإنسانية، ويجعل من المسلم رجلاً ماضي النفس، صلب العزيمة، منتصرًا على غرائزه، مالكًا لزمام نفسه، مستعليًا على شهوته، مستويًا على طريق الله، ومن ثَمَّ فقد أصبح واجبًا في كل عام شهرًا كاملاً يتكرر بتكرر الأعوام؛ ليكسب النفس المؤمنة قوة المقاومة وصلابة العزم وتجدد الطاقة. إنه أشبه ما يكون بمصل سنوي يقاوم في النفس رغباتها ودناياها، ويجدد قدرتها على هذه المقاومة، أو هو أشبه ما يكون بضرب من التدريب العملي والنفسي لإعداد لبنات الأمة للحياة العزيزة الكريمة في دنيا تلعب فيها السفاسف بالنفوس، وتذهب فيها الدنايا بالرءوس، دنيا لا يثبت على أرضها إلا الحق الأصيل المبني على صلب الإرادة وقوى العزيمة: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

إن الحياة لا بد فيها من عزيمة صادقة تصدع غوائل النفس وترد هواجس الشر، وتبطش بالهوى الكذوب، وتنطلق بالإنسان إلى الجهاد الحر الكريم في شتى الميادين.

والصوم في هذا المجال خير معوان على صقل النفوس وتربيتها، والسمو بها إلى

آفاق عليا من الطهر والصفاء، فلا تتحكم فيها نزعات الإثم ووساوس الشر وشهوات الجسد، وإنما تكون دائمًا نقية تقية تخشى الله وترجو رحمته وتهاب حسابه وتتوقى عقابه. .إن غاية الصوم وثمرته تربية التقوى في نفس المؤمن وتعميق الإيمان في كيانه وبعث الشكر لربه الذي أنعم عليه بكل شيء. . والصيام يعد النفوس ويهيئها لكل هذا، فإن الامتناع عن أهم رغبات الجسد وحاجاته الضرورية امتثالاً لأمر الله وقربانًا إليه يقود إلى التقوى ويدعو إليها من ناحية، ويضعف تحكم القوى الشهوية في الإنسان فلا تسيطر عليه من ناحية أخرى.

وتلكم حقيقة يرشدنا إليها النبي ﷺ كما روى عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**(١).

ومن حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«الصيام جنة من النار كجنة أحدكم من القتال»**(٢).

إن النفس كالطفل والصوم مرحلة من مراحل فطامها عن بعض شهواتها، فإذا رأى الماء وهو صائم في يوم قائظ فهفت إليه نفسه كبح جماحها، ولو فعل هذا مع كل شهوة تقابله لصار إنسانًا حرًا قويًا يسود نفسه ولا تسوده؛ لأن الصيام لا يعلم الكبت بل ضبط المشاعر والتحكم في النفس بوعي وشعور.

(٣) تعلم مراقبة الله تعالى:

وهي نتيجة بديهية للتقوى، وبها يصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان فتعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقد عقب ابن كثير رحمه الله على قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣). فقال رحمه الله: «يقول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين من هذه الأمة وآمرًا إياهم بالصيام، وهو الإمساك

---

(١) صحيح: البخاري (٥٠٦٥) في النكاح، مسلم (١٤٠٠/١) في النكاح. والباءة: تكاليف الزواج، ووجاء: أصله رض الخصيتين؛ فالصوم يقطع الشهوة.

(٢) صحيح: صححه الألباني (٣٨٧٩) في «صحيح الجامع».

عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك».

إن الإنسان يمكنه فعل ما حُرم عليه في الصوم بعيدًا عن أعين الناس ولكن ما يمنعه إلا مراقبة الله تعالى؛ لأن الصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره لأنه ليس يظهر من ابن آدم بفعله إنما هو شيء في القلب(١).

إن الصوم سر بين العبد وربه، وأمانة بين المخلوق وخالقه لا يدخلها رياء، ولا يعتورها نفاق بها يتأصل الإيمان في الوجدان، إنه عبادة لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، ولا يكون الجزاء عليها إلا من الله سبحانه والذي اختص هذه العبادة لنفسه وأضافها إلى ذاته.

وذلك فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله عز وجل: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».

وفي رواية: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي**».

وفي رواية للبخاري: «**لكل عمل كفارة، والصوم لي وأنا أجزي به**»(٢).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «إذا كان يوم القيامة فإن الله تعالى يحاسب عبده، ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله حتى لا يبقى إلا الصوم فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنة»(٣).

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٤٠).

(٢) صحيح: البخاري (١٩٠٤) في الصوم، و(٧٥٣٨) في التوحيد.

(٣) رواه البيهقي (٣٥٨٢) في «شعب الإيمان».

ولكن لماذا يضاعف العمل في الصيام وفي رمضان؟

* لأن الصيام من الصبر، حيث إن الصبر أقسامه ثلاثة:

صبر على طاعة الله: والمسلم يصبر على الصوم.

وصبر عن معصية الله: والمسلم يصبر بالصوم عن الحلال والحرام.

وصبر على أقدار الله المؤلمة: وفي الصيام منها الجوع والعطش وضعف النفس والبدن.

فالصائم صابر، ولذا قال تعالى: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** (الزمر: ١٠).

* لشرف شهر رمضان: فإن بعض الأماكن شرفها الله تعالى، وكذلك بعض الأزمنة كما شرف المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى على المساجد كلها، وضاعف فيها الصلوات، كذلك فالصائم في رمضان يضاعف عمله كما قال ﷺ: **«عمرة في رمضان تعدل حجة معي»**(١).

فضوعفت العمرة في رمضان رغم كونها واقعة طيلة العام ولصاحبها أجره إن وافق عمله السنة، وأخلص فيه.

ومن أجل ذلك قال النخعي رحمه الله: «صوم يوم في رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة في رمضان أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة»(٢).

*** ثم إن في الصيام طاعة مطلقة لله تعالى وكمال للإيمان وذوق لحلاوته:**

إن النفس إذا اشتد توقانها إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان، فقد خاف الصائم من ربه وهو في خلوته، وامتثل أمره، واجتنب نهيه، ورغب في ثوابه فشكر الله تعالى له ذلك.

---

(١) صحيح: البخاري (١٧٨٢) في العمرة، مسلم (١٢٥٦) في الحج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) «لطائف المعارف» (صـ ٢١٧، ٢١٨) لابن رجب الحنبلي.

ولذلك قال بعض السلف: «طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره».

وفي الصيام قدَّم المسلم طاعة ربه على شهواته، فصارت لذته في ترك شهوته لله تعالى لإيمانه باطلاع الله تعالى عليه، ولو ضرب المؤمن ألف مرة في رمضان ليفطر ما أفطر لعلمه أن الله تعالى يكره ذلك، فصار هواه موافقًا لأمر مولاه، ولذته في طاعته فذاق حلاوة الإيمان فكان كما قال فيه النبي ﷺ: «**ثلاثة من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان... .وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذف في النار**»(١).

وكان كما قال يوسف عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ (يوسف: ٣٣).

*** فما لجرح إذا أرضاكم ألمٌ ***

وقالوا:

عذابه فيك عذب ✿ وبعده فيك قربُ
وأنت عندي كروحي ✿ بل أنت منها أحبُّ
حسبي من الحب أني ✿ لما تحب أحبُّ

*** وفي ترك الشهوات فوائد وفوائد منها:**

* **كسر النفس**: فإن الشبع والري والجماع يحملون على الغفلة والنسيان، وقديمًا قالوا: «لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فتناموا كثيرًا».

وقد أمر النبي ﷺ جموع الشباب كما بينا أن يستجيروا بالصيام من جيوش الشهوات ليأمنوا في حصنه من الوقوع في المنكر، إذ الصوم وِجَاءٌ وجنةٌ وحصن حصين.

* **تخلي القلب للذكر والفكر**: فالشهوات تقسي القلب وتعميه، وتركها والإقلال منها يرقق القلب ويخليه للذكر والفكر.

قال ابن القيم: «ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني ولاسيما الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قرت عينه

---

(١) صحيح: البخاري (١٦) في الإيمان، مسلم (٤٣) في الإيمان.

بمحبوبه وتنعم بقربه والرضا عنه، وألطاف محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليه كل وقت، ومحبوبه حفي به معتز بأمره مكرم له غاية الإكرام مع المحبة التامة له. أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحب؟ فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجل منه، ولا أجمل ولا أعظم ولا أكمل منه؟ ولا أعظم إحسانًا إذا امتلأ قلب المحب بحبه، وملك حبه جميع أجزاء قلبه. أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً؟!»(١).

* **والصيام يضيق مجاري الدم**: وهي مجاري الشيطان فتسكن الوساوس وتذهب الهواجس.

* **ويعرف الغني نعمة الغنى، ويعاني ما يعانيه فقراء الأمة.**

ولكن لن يشعر بهذا من صام عن الطعام والشراب فقط، فإن الصيام عن الطعام والشراب هو أهون الصيام على الإطلاق تستطيعه البهائم كما يستطيعه الإنسان.

وسوف يكون لنا مع أنواع الصائمين وقفة.

(٤) رمضان شهر الخيرات:

ورمضان شهر لا يعلم الخير والفضل فيه إلا الله تعالى، وقد أطلعنا سبحانه على بعض فضله:

* **فهو شهر تفتح فيه الأبواب - أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النيران:**

فروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين**».

وفي رواية لمسلم: «**...فُتِّحت أبواب الرحمة، وغُلِّقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**»(٢). وفي رواية الترمذي: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومَرَدة الجن، وغُلِّقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: با باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة**»(٣).

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٥٤).

(٢) صحيح: البخاري (١٨٩٨) في الصوم، مسلم (١٠٧٩/ ١، ٢) في الصيام.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦٨٢) في «سنن الترمذي» كتاب الصوم.

وحديث الباب أيضًا فيه دليل على ذلك، فقد جاء فيه نفس المعاني. وصدق القائل إذ قال:

إذا رمضان أتى مقبلاً ❁ فأقبل فبالخير يستقبل

*** وهو شهر تكفر فيه الذنوب:**

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

وإيمانًا: أي اعتقادًا بحق فرضية صومه.

واحتسابًا: أي عزيمةً لطلب الثواب من الله تعالى.

فيصوم المسلم رمضان فرضًا عليه يؤديه، ورغبةً في ثوابه طيبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه(٢).

وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**...ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا ما اجتنبت الكبائر**».

فالمؤمن يعلم أنه إن لم يقبل عمله ويغفر له في رمضان فإنه خاسر لا محالة فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**رغم أنف رجلٍ ذكرت عنده فلم يُصل عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكِبَر فلم يدخلاه الجنة**»(٣).

لقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول في نهاية رمضان: «مَنْ المقبول منا فنهنيه؟ ومَنْ هذا المحروم منا فنعزيه؟».

متى يُقْبل من رُدَّ في ليلة القدر؟ متى يصلح من لا يصلح في رمضان؟

متى يصح من كان به فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان؟

كل ما لا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فإنه يقطع ثم يوقد في النار!

---

(١) صحيح: البخاري (١٩٠١) في الصوم، مسلم (٧٥٩) في صلاة المسافرين.

(٢) «فتح الباري» (٤/ ١١٥) لابن حجر، والكلام للخطابي رحمه الله.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦) في «الإرواء».

مَنْ فرط في الزرع في وقت البذار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسار.

*** وهو شهر يعطى فيه الأجر على خدمة الصائمين:**

وقد جاء في حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«مَنْ فطَّر صائمًا فله مثل أجره من غير أن يُنْقص من أجر الصائم شيء»**(١).

وكان الحسن البصري، وعبد الله بن المبارك رحمهما الله يقومان بإعداد الطعام لإخوانهم في رمضان ويخدمونهم حتى يفطروا.

*** أن الأجر فيه لا ينقص ولو نقص فكان تسعًا وعشرين ليلة:**

* وجاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«شهران لا ينقصان شهرا عيد: رمضان وذو الحجة»**(٢).

ومعنى هذا أن رمضان وذو الحجة سيَّان في الفضل، وأن كل ما ورد في فضلهما وأجرهما وثوابهما حاصل بكماله وإن كان الشهر تسعًا وعشرين(٣).

*** وفي رمضان ليلة القدر وهي خير من ألف شهر كما سيأتي.**

*** وهو شهر القرآن وسيأتي أيضًا.**

(٥) ومن أسرار وفضائل الصيام أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وقد سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال: **«... ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**.

ومن حديث رواه الحارث الأشعري رضي الله عنه وفيه أنه ﷺ قال: **«إن الله سبحانه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها... وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك»**(٤).

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٤١٥) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: البخاري (١٩١٢) في الصوم، مسلم (١٠٨٩/ ٣١، ٣٢) في الصيام.

(٣) «فتح الباري» (٤/ ١٥٠).

(٤) صحيح: صححه الألباني (١٧٢٤) في «صحيح الجامع».

قال أبو حاتم رحمه الله: «شعار المؤمنين يوم القيامة التحجيل بوضوئهم في الدنيا فرقًا بينهم وبين سائر الأمم، وشعارهم في القيامة بصومهم طيب خلوف أفواههم أطيب من ريح المسك ليُعْرفوا من بين ذلك الجمع بذلك العمل»(١).

قال ابن قيم الجوزية: «إنما مثل ﷺ ذلك بصاحب الصرة التي فيها المسك لأنها مستورة عن العيون مخبوءة تحت ثيابه كعادة حامل المسك، وهكذا الصائم صومه مستور عن مشاهدة الخلق لا تدركه حواسهم، والصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث. فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعًا صالحًا، وكذلك أعماله فهي بمنزلة الرائحة التي يشمها مَنْ جالس حامل المسك، كذلك مَنْ جالس الصائم انتفع بمجالسته وأمن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم، هذا هو الصوم المشروع لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب».

وخلوف فم الصائم: هي رائحة ما يتصاعد منه من الأبخرة لخلو المعدة من الطعام بالصيام وهي رائحة مستكرهة في مَشام الناس في الدنيا لكنها طيبة عند الله حيث كانت ناشئة عن طاعته وابتغاء مرضاته.

وقال مكحول: «يروح أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح، فيقال: هذه رائحة أفواه الصوَّام»(٢).

*** درجات الصائمين في رمضان:**

والصائمون في رمضان على ثلاث درجات:

الأولى: أهون الصيام: وهو ترك الطعام والشراب. صيام تقدر عليه البهائم والسباع والطيور. وهذا الصنف صنف يستثقل رمضان ويستبطئ أيامه ويستطيلها، لا ترى عليه وقار الصيام ولا علاماته، بل ربما رأيته تاركًا للصلاة، ورأيتها متبرجة سافرة، على معصيتهم لم يتركوها بعد، وكل ما تغير إنما هو ترك الطعام والشراب لا سواه.

---

(١) «الوابل الصيب» (صـ ٣٨) بتحقيقنا ط دار الفجر للتراث.

(٢) «لطائف المعارف» (صـ ٢٣١) لابن رجب الحنبلي.

وأولئك صيامهم يسقط عنهم الفريضة لكنه صيام ناقص كما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر»(١).

وفي الحديث عنه أيضًا أنه ﷺ قال: «مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(٢).

وأنشدوا:

إذا لم يكن في السمع مني تصاونٌ ✿ وفي بصري غضٌ وفي منطقي صمتٌ

فحظي إذًا من صومي الجوع والظما ✿ فإن قلت إني صمت يومي فما صُمْتُ

وذلك أن الصيام ليس صيامًا عن الحلال المباح فقط بل وعما حرمه الله تعالى أيضًا، وقد جاء في الحديث: «ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث»(٣).

فإذا صمت فليصُم سمعك وبصرك ولسانك من الكذب والمحارم، ودع أذى الجار وليكن عليك وقارٌ وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

الثانية: الصائمون عن الطعام والشهوات احتسابًا لله تعالى:

وهؤلاء هم من قال فيهم النبي ﷺ- وقد جُهل الصحابي وجهالته لا تضر- : «إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله إلا آتاك الله خيرًا منه»(٤).

وهؤلاء هم من يُنادَون يوم القيامة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ٢٤).

وقال مجاهد: «نزلت هذه الآية في الصائمين».

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إن في الجنة بابًا

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣٤٨٨) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: البخاري (١٩٠٣) في الصوم.

(٣) قال ابن رجب الحنبلي: قال الحافظ أبو موسى المديني: هو على شرط مسلم.

(٤) صحيح: أحمد (٥/ ٧٩) في «المسند».

يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحدٌ غيرهم فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد»[١].

وقالوا: سُمي الريان لأنه من الرّي وهو ضد العطش الذي يتحمله الصائم، وذكر الري لأن العطش أشق على الصائم من الجوع ولو حصل له الري لكفاه.

فهؤلاء هم من صاموا عن كل المباحات وعن كل المحرمات فلا غيبة ولا نميمة ولا أكل مال يتيم ولا رشوة ولا سخرية ولا استهزاء ولا رفث ولا فسوق ولا نظرة حرام ولا غش ولا حلف بالله كذبًا ولا فُحش في القول أو الفعل وذلك صيام يحمده الله تعالى لعبده.

الثالثة: الصائمون عن الدنيا المفطرون على لقاء الله تعالى:

فهم من صاموا في الدنيا عما سوى الله تعالى فيحفظ أحدهم الرأس وما حوى والبطن وما وعى ويذكر الموت والبلى ويريد الآخرة؛ فيترك زينة الحياة الدنيا فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه، صاموا عن الشهوة في الدنيا وأفطروا على لقاء ربهم في الآخرة: ﴿**مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ**﴾ (العنكبوت: ٥).

وقد صمت عن لذات دهري كلها ✿ ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

وتلك درجة أصحابها في عليين!!

*** من هدي النبي ﷺ في رمضان:**

ما تكاد تهل علينا بشائر شهر رمضان أو تهب علينا نسائمه حتى تنتعش نفوسنا متعرضة لنفحات الخير الربانية سابحة في بحار ذكريات عصر الرسالة المشرق حيث كان رسول الله ﷺ والذين معه يحيون أيامه ولياليه، ويتخذون منه مدرسة يتلقون فيها الدروس والتجارب.

ومَنْ أولى مِنْ رسول الله ﷺ لنقف بين يديه خاشعين مستلهمين الزاد في رحلة الحياة من هديه الكريم؟!

(١) لقد كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رجب وشعبان فهبت نفحات هذه

---

(١) صحيح: البخاري (١٨٩٦) في الصوم، مسلم (١١٥٢).

الشهور الثلاثة استبشر خيرًا وتمنَّى أن يمتد به الأجل ليبلغ شهر رمضان فإذا ما أهل شهر رمضان استقبله متفائلاً فرحًا داعيًا المولى عز وجل فيقول كما في حديث ابن عمر: «الله أكبر اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى ربنا وربك الله»(١).

(٢) القرآن والجود في حياة النبي ﷺ في رمضان: ففي رمضان كانت نعمة الله الكبرى على الإنسانية وهدايته العظمى للبشرية نزل القرآن في ليلة مباركة من لياليه، وكان العطاء الإلهي واسعًا؛ لإسعاد البشرية الحائرة المتخبطة في دياجير الظلام، فقد جاء الروح الأمين بأول الغيث من آيات الكتاب المبين والذكر الحكيم، كتاب الهداية العظمى، ودستور العدالة الخالدة، أنزل الله القرآن فيه على سيدنا محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور العلم والوحدانية، وليزيح عن كواهل الناس ما كانوا يقاسونه من ظلم وعنت وبغي وانحلال، نزل فيه الكتاب الجامع لخير الإنسانية وسعادتها في عاجلها وآجلها، في دينها ودنياها، في كل أحوالها، وكما فيه صلاح أمرها وبلوغ رشدها ونجاح غايتها. إنه هو الرابطة عند التمزق، والجامع عند التفرق، والحكم عند الاختلاف والعاصم من الأهواء.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣).

ولقد كان النبي ﷺ يكثر في هذا الشهر من تلاوة القرآن وترتيله، وكان يقرؤه مع جبريل عليه السلام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من

---

(١) حسن: حسنه الألباني (١٨١٦) في «السلسلة الصحيحة».

رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

فابن عباس يصف النبي ﷺ بأنه كان أجود الناس، ولكنه في هذا الشهر يكون أجود منه في غيره ويشبهه في هذه الحالة من الجود والسخاء بالريح المرسلة، والريح إذا أرسلت فلم يحبسها شيء كانت أشد ما تكون هبوبًا، والسر في ذلك يرجع إلى مدارسته القرآن الكريم مع سيدنا جبريل عليه السلام كل ليلة فكانت هذه المدارسة تملأ جوانح الرسول الكريم غبطة وفرحًا وسرورًا وسعادة، فيفيض برًّا وجودًا شكرًا لله تعالى على التمتع بنعمة القرآن الكريم ومدارسة سيدنا جبريل به كل ليلة.

ولفظ المدارسة في وصف ابن عباس وإخباره يدل على أن أحدهما كان يقرأ ليسمعه الآخر ثم يقرأ المستمع للقارئ وهو ما يسمى بالعرض والسماع، وقد كان هذا دأبهما كل ليلة من ليالي رمضان في كل عام إلى أن كان العام الذي توفي فيه النبي ﷺ فعرضه جبريل عليه مرتين.

وقد دل الحديث على أمرين:

(أ) أهمية تلاوة القرآن في رمضان.

(ب) الجود في شهر رمضان.

فأما القرآن: فللسلف معه في رمضان شأن عجيب:

* فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ قرأ في ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين، ومَنْ قرأ مائة آية كُتب من القانتين، ومَنْ قرأ ثلاثمائة آية كُتب له قنطار»[٢].

* وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان فإذا طلعت الشمس نامت.

* وكان قتادة يختم القرآن في رمضان كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة.

---

(١) صحيح: البخاري (٦) في بدء الوحي، مسلم (٢٣٠٨) في الفضائل.

(٢) قال الهيثمي (٢/ ٢٦٨) في «المجمع»: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

* وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرأها في غير الصلاة.

* وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: «إنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام».

* وكان مالك إذا دخل رمضان نفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

* وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن.

وهذا الاجتهاد إنما خُصّ به رمضان اغتنامًا للزمان والمكان.

أما الجزاء فقد ورد في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان**»(١).

وأما الجود وهو الكرم فقد زاد أحمد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه.

والجود هو: سعة العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف بالجود.

وفي رمضان يُنادى: «يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

والجود ليس بذل المال فقط، بل بذل العلم، والنفس لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم.

ومن الجود في رمضان إعانة الصائمين والذاكرين على طاعتهم، ولمعينهم مثل أجرهم كما سبق من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مَنْ فطَّر صائمًا فله مثل أجره من غير أن يُنْقص من أجر الصائم شيء**».

والجمع في رمضان بين هذه العبادات (الصلاة- الصدقة- الجود- الصيام- تلاوة القرآن) ترفع من شأن صاحبها وتوصله إلى الجنة وتكفر خطاياه وقد سبقت أحاديث:

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣٨٨٢) في «صحيح الجامع».

«الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ».

«والصيام جنة كجنة أحدكم من القتال».

«والصيام والقرآن يشفعان...».

وهذا كله يباعد عن النار ويدخل الجنة ويسد الخلل الحادث في الصوم؛ لأن الصوم إنما يقوم به البشر، وكل بني آدم خطَّاء، فالصدقة وغيرها تجبر هذا النقص أو الخلل في الصيام وهذا كله في النهاية سبب لرفعة الدرجة في الجنة.

فكما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ أصبح منكم اليوم صائمًا؟»**. قال أبو بكر: أنا. فقال: **«مَنْ تبع منكم اليوم جنازة؟»**. قال أبو بكر: أنا. فقال: **«فمَنْ أطعم منكم اليوم مسكينًا؟»**. قال أبو بكر: أنا. فقال: **«مَنْ منكم تصدق بصدقة؟»**. قال أبو بكر: أنا. فقال: **«فمَنْ عاد منكم مريضًا؟»**. قال أبو بكر: أنا. فقال: **«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»**(١).

وقال بعض السلف: «الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق، والصيام يوصله إلى باب الملك، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك».

أما الجزاء فقد جاء من حديث علي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إن في الجنة غرفًا يُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»**. قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: **«لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى بالليل والناس نيام»**(٢).

(٣) صلاة التراويح (القيام):

أما صلاة التراويح فإن النبي ﷺ كان يصلي القيام كل ليلة في رمضان وفي غير رمضان؛ لأن قيام الليل كان فرضًا عليه، نفلاً على مَنْ شاء مِن أمته، وكان يصلي قيام الليل في رمضان وفي غيره إحدى عشرة ركعة، وكان قد رغب في أن يصلي القيام بأصحابه في ليالي رمضان فلما رأى كثرة مَنْ اجتمع للصلاة معه خشي أن يفرضها الله عليهم فيُقصرِّ مَنْ يُقصرِّ منهم فيقع تحت طائلة اللوم والتثريب.

---

(١) صحيح: مسلم (١٠٢٨) في الزكاة.

(٢) حسن: حسنه الألباني (٢١٢٣) في «صحيح الجامع».

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها متحدثة عن رسول الله ﷺ: «خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد وصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة فخرج رسول الله ﷺ فصلى بصلاته فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: **«أمّا بعد فإنه لم يخف عليّ مكانكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»**. فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك[١].

وقد ظل الوضع على ما هو عليه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وفي صدر خلافة عمر حتى قال عمر رضي الله عنه: «إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل». ثم عزم فجمعهم على أُبي بن كعب فلما رآهم عمر قال: «نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون- يريد آخر الليل- وكان الناس يقومون أوله»[٢].

وصلاة التراويح في جماعة سنة مؤكدة عن رسول الله ﷺ بعد أن تأكد عدم فرضيتها، وهي سنة مؤكدة ينصرف عنها المسلمون بحجج واهية:

فمنهم من يتحجج بطولها.

وآخر بعدم راحته بالصلاة وراء إمام بعينه.

ومنهم من يصلي بعضها وينصرف بحجة العمل.

ورابع إذا بطلت حججه قال: إنها سنة.

كأنهم استغنوا عن الأجر والثواب، وكأن رمضان صيام النهار فقط!!

ونذكرهم بالأجر حتى نكون قد أعذرنا إلى الله تعالى:

* حديث سبق وهو: **«مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»**.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٠١٢) في صلاة التراويح، مسلم (٧٦١/ ١٧٧، ١٧٨) في صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: البخاري (٢٠١٠) في صلاة التراويح.

* حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كُتب له بقية ليلته**»(١).

* حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**مَنْ قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين**»(٢).

* وعن أنس أنه ﷺ قال: «**مَنْ قرأ بمائة آية في ليلة كُتب له قنوت ليلة**»(٣).

وكانت صلاته ﷺ في رمضان إحدى عشرة ركعة يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثًا(٤).

وكان يطيل في رمضان أكثر من غيره كما ثبت ذلك بأكثر من طريق.

وكان عمر رضي الله عنه قد جمع الناس على الصلاة فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ بالناس ثلاثين- يعني في الركعة الواحدة-، وأوسطهم بخمس وعشرين، وأبطأهم بعشرين.

ومعلوم أن لقيام الليل فضل لا يعادله فضل فإياك وتركه كما يفعل جُهَّال المسلمين.

إن شهر رمضان كان بالنسبة لرسول الله ﷺ موسم عمل وجهاد واجتهاد وليس شهر كسل وتراخ وعكوف على الملذات وبعد عن الطاعات.

فليت شعري متى نعود إلى هديه ﷺ فنحييه لتحيا به نفوسنا بعد موات، ونحول سيرته العطرة إلى واقع ملموس فيتغير بها واقعنا إلى واقع مشرق يليق بانتسابنا إلى الإسلام ونبي الإسلام.

(٤) قيام ليلة القدر:

وهي الليلة المباركة التي قال الله تعالى عنها: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ (الدخان: ٣).

---

(١) صحيح: صححه الألباني (١٦١٥) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: صححه الألباني (٦٤٣٩) في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦٤٤) في «الصحيحة».

(٤) صحيح: البخاري (٢٠١٣) في صلاة التراويح، مسلم (٧٣٨/ ١٢٥) في صلاة المسافرين وقصرها.

وهي الليلة التي أنزل الله فيها القرآن وفيها يتنزل ملائكة الرحمن والروح بإذن ربهم وهي سلام حتى مطلع الفجر كما قال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾** (سورة القدر).

* فهي ليلة مباركة سعيدة حق على الناس أن يحتفوا بها؛ لأنها كانت حدًّا فاصلاً بين عهدين: عهد الكفر والضلال، وعهد الإيمان والتقوى حين بدأ نزول القرآن على مَنْ اصطفاه الله تعالى خاتمًا للرسل والأنبياء، فكان إشارة إلى تمام النعمة وكمال الدين وبلوغ البشرية رشدها فلم تعد بعده ﷺ في حاجة للنبوة بل يكفي القرآن الذي نزل في هذه الليلة المباركة والتي جعل الله تعالى العمل فيها خيراً من ألف شهر.

* والاحتفاء بهذه الليلة يكون بتلاوة القرآن ومدارسته والذكر والدعاء الصالح.

* فأما القيام فقد أخبر ﷺ فقال: «**مَنْ قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

والدعاء المأثور فيها: «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»(٢).

* **تحديد ليلة القدر:**

وقد أُخبر النبي ﷺ بها ثم أُنسيها فقد جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج ليخبرهم بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين- وقعت بينهما خصومة- فقال: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرُفعت وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان فخرج في صبيحة عشرين فخطبنا وقال: «**إني أُريت ليلة القدر ثم**

(١) صحيح: البخاري (٢٠١٤) في فضل ليلة القدر، مسلم (٧٦٠/ ١٧٥) في صلاة المسافرين وقصرها عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: صححه الألباني (٣٥١٣) في «سنن الترمذي» كتاب الدعوات عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح: البخاري (٢٠٢٣) في فضل ليلة القدر.

أُنسيتها- أو نسيتها- فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر، وإني رأيت المسجد في ماءٍ وطينٍ فمن كان اعتكف معي فليرجع». فرجعنا وما نرى في السماء قَزْعة- سحابة رقيقة- فمطرت حتى سال سقف المسجد وكان من جريد النخل وأقيمت الصلاة فرأيت النبي ﷺ يسجد في الماء والطين حتى رأيت أثر الطين في جبهته(١).

ومن حديث عائشة قال ﷺ: «تحروا ليلة القدر في الوِتر من العشر الأواخر من رمضان»(٢).

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «هي في العشر الأواخر في تسع يمضين أو في سبعٍ يبقين». يعني: ليلة القدر.

وفي رواية: «التمسوا في أربع وعشرين»(٣).

فالقول في تحديد ليلة القدر كالآتي:

(١) أنها في العشر الأواخر من رمضان عمومًا.

(٢) أنها في الوتر أي الليالي الفردية من العشر الأواخر. وهذا هو الأصح في هذا المضمار؛ لأنه مروي عن أبي سعيد، وعائشة، وابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) أنها في السبع الأواخر من رمضان. وقد قال ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان منكم متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»(٤).

وسبق حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) وكان بلال رضي الله عنه يقول: «إنها في أول السبع من العشر الأواخر»(٥).

(٥) وكان أبي بن كعب رضي الله عنه يحلف أنها في ليلة السابع والعشرين ويقول بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها(٦). وهذا قول الجمهور وقول معاوية أيضًا.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٠١٦) في فضل ليلة القدر، مسلم (١١٦٧/ ٢١٣) في الصيام.
(٢) صحيح: البخاري (٢٠١٧)، مسلم (١١٦٩/ ٢١٩).
(٣) صحيح: البخاري (٢٠٢٢) في فضل ليلة القدر.
(٤) صحيح: البخاري (٢٠١٥)، مسلم (١١٦٥).
(٥) صحيح: البخاري (٤٤٧٠) في المغازي.
(٦) صحيح: مسلم (٧٦٢) في صلاة المسافرين.

(٦) واختار الشافعي أنها ليلة الحادي والعشرين. أي أول ليلة في العشر الأواخر.

(٧) وقيل: أول ليلة من رمضان. وقيل: آخر ليلة منه.

(٨) وقيل: هي مختصة ممكنة في رمضان كله. وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما كما رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح. ونحن نميل إلى هذا الرأي ولكن نقيده بأنها في العشر الأواخر.

(٩) وقال بعضهم: هي في العشر الأواسط.

وقد نقل ابن حجر في «فتح الباري» ستة وأربعين رأيًا في موعدها فإن شئت فارجع إليه عقب الأحاديث السابقة.

(٥) الاجتهاد في العشر الأواخر وشد المئزر والاعتكاف فيهن:

وكلما مضت أيام شهر رمضان يومًا إثر يوم تضاعف الاجتهاد في العبادة من جانب رسول الله ﷺ ولذلك كان يجتهد في الليالي العشر الأخيرة من رمضان بما لا يجتهد في غيرها، فقد أخرج الشيخان بسندهما عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله».

وهذه العشر المشار إليها هي العشر الأواخر كما في الصحيح من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما وظل يعتكفها كل عام حتى توفاه الله عز وجل وكان يدخل معتكفه بعد صلاة الفجر فلا يخرج منه إلا لحاجة ماسة لنفسه أو لحوائج المسلمين.

والحكمة في اختصاص هذه الليالي بالذات بهذا الجهد المتضاعف من الطاعات يرجع إلى تلمس مصادفة حلول ليلة القدر عليه وهو في هذه الحال، وهي ليلة مباركة مشهود لها بأن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولا جرم ففيها بدأ نزول القرآن الكريم الذي من أجل الشكر على نعمة إنزاله كان صوم شهر رمضان بالذات.

تعريف الاعتكاف:

الاعتكاف في اللغة: الاحتباس. وعكفوا حول الشيء: استداروا. وعكف على

الشيء يعكف عكفًا وعكوفًا: أقبل عليه مواظبًا لا يصرف عنه وجهه. وقيل: أقام.

ومنه قوله تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ (طه: ٩٧).

وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (البقرة: ١٨٧). عاكفون: مقيمون في المساجد(١).

وشرعًا: إقامة مخصوصة(٢)، أي الإقامة في المسجد بنية التقرب إلى الله عز وجل.

وقال النووي: «هو اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنيته»(٣).

حكمه:

الأصل فيه أنه سنة مؤكدة، ولا يجب إلا بالنذر، وهو في العشر الأواخر من رمضان أوكد.

الدليل:

من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (البقرة: ١٨٧).

ومن السنة: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت عن النبي ﷺ: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ولم يزل يعتكف حتى مات». رواه البخاري ومسلم.

ويجب بالنذر لحديث السيدة عائشة أيضًا: «مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه». رواه البخاري.

شروطه وأركانه:

يشترط في المعتكف أن يكون مسلمًا مميزًا طاهرًا من الجنابة والحيض والنفاس.

وأما أركانه فهي:

(١) النية: لأنه عبادة فيفتقر إليها مثل كل عبادة.

---

(١) «لسان العرب» (ص ٣٠٥٨).

(٢) «كفاية الأخيار» (جـ ١) (صـ ٢١٥).

(٣) «المجموع» (جـ ٦) (صـ ٤٠٧).

(٢) والمُعْتَكَفُ فيه: وهو المسجد.

(٣) واللبث في المسجد فترة. وينبغي أن تكون هذه الفترة يومًا على الأقل خروجًا من الخلاف؛ فإن المالكية والأحناف لا يجوزون أقل من يوم، ولكن الشافعي وأحمد يجوزان المكث أية فترة يمكن أن تُسمى عُرفًا مُكثًا، وهذه المدة عندهما أزيد من طمأنينة الركوع والسجود بقليل.

(٤) والمُعتكف. الذي يُشترط فيه أن يكون مسلمًا مميزًا نقيًّا من الجنابة والحيض والنفاس، كما ذكرنا قريبًا.

ما يُستحب للمعتكف:

يستحب للمعتكف قضاء وقت اعتكافه في صلوات النوافل والذكر والدعاء والصلاة على النبي ﷺ ومدارسة العلم وقراءة الكتب النافعة.

ما يُكره للمعتكِف:

يُكره للمعتكف انشغاله بما لا يعنيه، والإمساك عن الكلام ظنًّا منه أن عدم الكلام عبادة لما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجلٍ قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي ﷺ: «**مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**».

ما يباح للمعتكف:

١- الخروج لقضاء الحاجات الضرورية كالأكل والشرب والتبول والتغوط وترجيل شعره وتقليم أظافره وتنظيف بدنه.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يكون في المسجد فيناولني رأسه من خلل الحجرة فأغسل رأسه». قال مسدد: «فأرجله وأنا حائض». رواه البخاري ومسلم.

ما يُبطل الاعتكاف:

١- الخروج من المسجد بدون حاجة ماسة.

٢- ذهاب العقل لأي سبب.

٣- الحيض والنفاس. لأن النقاء منهما من شروط صحة الاعتكاف.

٤- الجماع: لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ[١] وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (البقرة: ١٨٧).

(٦) تأخير السحور وتعجيل الإفطار:

والسحور: الأكلة التي تؤكل ساعة السحر، بوركت؛ لأنه وقت يتنزل فيه الله تعالى إلى السماء الدنيا فهو وقت استغفار وقبول، وقد رغَّب النبي ﷺ في السحور في أكثر من حديث:

* ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«تسحروا فإن في السحور بركة»**[٢].

* وعن عمرو بن العاص مرفوعًا: **«فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور»**[٣].

* وعن ابن عمر أنه ﷺ قال: **«إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين»**[٤].

أما تعجيل الفطر: فقد جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر»**[٥].

وكان من سنته ﷺ أن يفطر قبل الصلاة على رطبات فإن لم يجد فعلى تمر فإن لم يكن حسا حسوات من الماء[٦].

والدعاء عند الفطر: **«ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»**[٧].

---

(١) كناية عن الجماع.

(٢) صحيح: البخاري (١٩٢٣)، مسلم (١٠٩٥).

(٣) صحيح: مسلم (١٠٩٦).

(٤) حسن: حسنه الألباني (١٨٤٤) في «صحيح الجامع».

(٥) صحيح: البخاري (١٩٥٧)، مسلم (١٠٩٨).

(٦) صحيح: البخاري (١٩٥٥)، مسلم (١١٠١).

(٧) حسن: حسنه الألباني (٩٢٠) في «الإرواء» عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ويُستحب الدعاء فإن للصائم دعوة لا ترد عند فطره.

(٧) إرشاد الأمة إلى ترك الخصومة والتلاحي في رمضان:

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل فإن شاتمه أحدٌ أو قاتله فليقل: إني صائم»**[١].

ومن هنا استنبط العلماء أن المعاصي يزيد قبحها في الصيام، وأنها تخدش في سلامة الصيام وربما اقتضت عدم الثواب عليه.

*** دروس تُستفاد من رمضان والصيام:**

(١) إن الصيام عبادة مستمرة فالصائم من أول رمضان إلى نهايته يصوم ويقوم ويستشعر عطية ربه ويجنح إلى فضله ويستمطر رحمته فهو في عبادة موصولة فيجب تعلم الدوام والاستمرارية على العبادة في هذا الشهر الكريم؛ ليكون دأبًا للمسلم على مدار العام.

(٢) وقد طبع رمضان الناس على رقابة النفس، ورقابة الله تعالى فما استطاع أحدٌ من الصائمين أن يأكل أو يشرب بعيدًا عن أعين الناس؛ لأن خشية الله كانت تقف له بالمرصاد. فما أحوجنا إلى أن نتيقن من رقابة الله علينا وعلمه بكل صغيرة وكبيرة منا سرًّا كانت أم علانية، وصدق الله سبحانه إذ يقول: **﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** (المجادلة: ٧).

(٣) وإذا كان رمضان يصنع من المسلم إنسانًا نبيلاً عف اللسان ليس عيابًا، ولا شتامًا، ولا مغتابًا، ولا فاحشًا، فما أحرى المسلمين أن يعيشوا بعد رمضان بأخلاق رمضان ورائدهم قول الله تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾** (الفرقان: ٦٣).

(٤) وقد كان رمضان شهرًا حافلاً بكثير من ألوان المطالب الروحية التي تعايشت مع المطالب المادية في اعتدال وتوسط، فهل بعد رمضان تختل هذه المسيرة؟

---

(١) صحيح: البخاري (١٩٠٤)، مسلم (١١٥١)، وانظر «فتح الباري» (٤/ ١٤٠، ١٤١).

إن معاني رمضان يجب أن تصاحب المسلم وتلازمه على مدار العام كله حتى تتحقق الاستفادة من رمضان.

لقد عاش المسلمون في شهر رمضان مع كتاب ربهم يحفظونه ويتدارسونه بينهم فهل يتخلى المسلمون بعد رمضان عن كتاب الله وهو أساس دينهم، ومصدر تشريعهم، ونبع هدايتهم ونورهم؟

وإذا كان رمضان قد سوى بين الجميع في التقشف والحرمان فهل بعد رمضان تتلاشى معاني الحب والرحمة والشفقة والإيثار؟!

ما أحرى الأمة بعد رمضان أن تعيش بمعاني رمضان، بعواطفها الإنسانية الرقيقة التي تجعل المجتمع الإسلامي وحدة متماسكة كالبنيان المرصوص؛ لا حقد ولا حسد ولا ضغينة، بل صفاء وود ووئام، لا بخل ولا شُح ولا حرمان، بل تعاطف وتراحم وإيثار، الغني يعطي الفقير، والقوي يأخذ بيد الضعيف، فالمؤمنون يد واحدة، وجسد واحد والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

إن رمضان مع الصيام، والصيام مع رمضان مدرسة للطاعة فاغتنمهما فإنهما قد لا يعودان أبدًا.

✿ ✿ ✿

[٤] الحج والعمرة

وصف حجة رسول الله ﷺ:

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «دخلنا على جابر بن عبد الله فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زري الأعلى ثم نزع زري الأسفل ثم وضع كفه بين ثديي(١) - وأنا يومئذٍ غلام شاب- فقال: مرحبًا بك يا ابن أخي سل عما شئت فسألته وهو أعمى وحضر وقت الصلاة فقام في نساجة ملتحفًا بها، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب فصلى بنا، فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ فقال بيده فعقد تسعًا فقال: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: «اغتسلي واسنفري(٢) بثوب وأحرمي». فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به فأهلّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وأهلَّ الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ شيئًا منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

---

(١) هذه مظاهر من الترحيب من جانب جابر برجل من أهل البيت.

(٢) تشد في وسطها شيئًا، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم، وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها.

قال جـابر رضي الله عنه: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمـرة حتى إذا أتينا البيت معـه استلم الركن فرمل[١] ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلـى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ (البقرة: ١٢٥). فجعل المقام بينه وبين البـيت فكان أبي[٢] يقـول- ولا أعلمـه ذكـره إلا عن النبي ﷺ- :كـان يقـرأ في الركعتين: «قل هو الله أحـد، وقل يا أيها الكافرون» ثم رجع إلى الركن فـاستلمه، ثم خرج من البـاب إلى الصفا فلما أتى من الصـفا قرأ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ (البقرة: ١٥٨).

«**أبدأ بما بدأ الله به**»، فبـدأ بالصفا فرقى عـليه، حتى رأى البيت فـاستقـبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصـر عبـده، وهزم الأحزاب وحده**». ثم دعا بين ذلك، قال مـثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصـبت قدماه في بطن الوادي[٣] سعى حتى صعدنا، ومشى حـتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: «**لو أني استقبلت من أمري مـا استـدبرت لم أسق الهَـدْي وجـعلتـهـا عـمرة فـمن كـان منكم ليس معـه هَدي فليـحل وليجعلها عمرة**». فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسـول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابـعه واحدة في الأخرى، وقال: «**دخلت العمرة في الحج** -مرتين - **لا بل لأبد أبد**». وقدم علي من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حلَّ ولبست ثيابًا صبيغًا واكتحلت فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا. فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشًا على فاطمة للذي صنعت مـستفتيًا لـرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه فـأخبرته أني أنكرت ذلك عليهـا، فقال: «**صـدقت صـدقت. ماذا قلت حين فـرضت الحج؟**». قال: قلت: اللهم إني أُهلُّ بما أَهلَّ به رسـولك. قال: فـإن معي الهـدي فلا تحل. قـال: فكان

---

(١) الرمل: نوع من المشي فيه سرعة.

(٢) هذا كلام جعفر بن محمد بن الحسين عن أبيه محمد.

(٣) قال النووي: «وفـيه إسقـاط لفظة لا بد منها، وهي: حـتى إذا انصبت قـدماه رمل في بطن الوادي، ولا بد منها، وقد ثبتت هذه اللفظة في غير رواية مسلم».

جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ مائة. قال: فحلَّ الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومَنْ كان معه هدي. فلما كان يوم التروية توجهوا إلى مِنى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تُضرب له بنمرة فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِّلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع من ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن مثل الذي عليكم بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكلها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**» - ثلاث مرات -، ثم أذن، ثم أقام، فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل(١) المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق للقصواء الزمام(٢)، حتى أن رأسها ليصيب مؤرك رحله، ويقول بيده اليمنى، أيها الناس السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها

---

(١) المراد: مجتمع المشاة، وبالجيم: طريقهم.

(٢) معنى شنق: ضم وضيق، وMورك الرحل: الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدامه، وبواسطة الرحل إذا مل من الركوب.

قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلله، ووحده. فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا[١] فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيمًا، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[٢] يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسر[٣]، فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بيده، ثم أعطى عليًّا، فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: **«انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»**، فناولوه دلوًا، فشرب منه[٤].

قال النووي عن هذا الحديث: «وهو من أفراد مسلم، لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم»[٥].

✿ ✿ ✿

---

(١) أي الفجر، والمعنى: انتشار الضوء.

(٢) الظعن: جمع (ظعينة) وهي المرأة التي تركب الجمل.

(٣) المكان الذي حسر فيه الفيل عن دخول مكة؛ أي: عجز.

(٤) «صحيح مسلم» بشرح النووي (جـ ٨) (صـ ١٧٠- ١٩٤).

(٥) شرح النووي لصحيح مسلم (جـ ٨) (صـ ١٧٠).

* كيف تحج وتعتمر؟

أنواع الأنساك

[أنواع الإحرام]

الأنساك ثلاثة: تمتع- إفراد- قران.

فالتمتع: أن يُحرم بالعمرة وحدها في أشهر الحج فإذا وصل مكة طاف وسعى للعمرة وحلق أو قصر، فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم بالحج وحده وأتى بجميع أفعاله.

والإفراد: أن يُحرم بالحج وحده فإذا وصل مكة طاف للقدوم وسعى للحج ولا يحلق ولا يُقصر، ولا يحل من إحرامه، بل يبقى مُحرمًا حتى يحل بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد، وإن أخَّر سعي الحج إلى ما بعد طواف الحج فلا بأس.

والقران: أن يُحرم بالعمرة والحج جميعًا أو يُحرم بالعمرة أولاً ثم يُدخل الحج عليها قبل الشروع في طوافها، وعمل القارن كعمل المفرد سواء إلا أن القارن عليه هدي والمفرد لا هدي عليه.

وأفضل هذه الأنواع الثلاثة التمتع، وهو الذي أمر به النبي ﷺ أصحابه وحثهم عليه حتى لو أحرم الإنسان قارنًا أو مفردًا فإنه يتأكد عليه أن يقلب إحرامه إلى عُمرة ليصير متمتعًا ولو بعد أن طاف وسعى؛ لأن النبي ﷺ لما طاف وسعى عام حجة الوداع ومعه أصحابه أمر كل من ليس معه هدي أن يقلب إحرامه عُمرة ويقصر ويحل. وقال ﷺ: «**لولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم به**».

* صفة العمرة:

إذا أراد أن يُحرم بالعمرة فالمشروع أن يتجرد من ثيابه ويغتسل كما يغتسل للجنابة ويتطيب بأطيب ما يجده من دهن عود أو غيره في رأسه ولحيته ولا يضره بقاء ذلك بعد الإحرام.

والاغتسال عند الإحرام سنة في حق الرجال والنساء حتى الحائض والنفساء.

ثم بعد الاغتسال والتطيب يلبس ثياب الإحرام ثم يُصلي غير الحائض والنفساء الفريضة إن كان في وقت فريضة وإلاً صلى ركعتين ينوي بها سنة الوضوء.

فإن فرغ من الصلاة أحرم وقال: «**لبيك عمرة- لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**». يرفع الرجل صوته بذلك والمرأة تقول بقدر ما يُسمع مَنْ بجنبها.

وينبغي للمحرم أن يكثر من التلبية خصوصًا عند تغير الأحوال والأزمان مثل أن يعلو مرتفعًا أو ينزل منخفضًا أو يُقبل الليل أو النهار، وأن يسأل الله بعدها رضوانه والجنة ويستعيذ برحمته من النار.

والتلبية مشروعة في العمرة: من الإحرام إلى أن يبدأ بالطواف، وفي الحج: من الإحرام إلى أن يبتدئ برمي جمرة العقبة يوم العيد.

فإذا دخل المسجد الحرام قدَّم رجله اليمنى، وقال: «**بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم**».

ثم يتقدم إلى الحجر الأسود ليبتدئ الطواف فيستلم الحجر بيده اليمنى ويقبله فإن لم يتيسر استلامه بيده فإنه يستقبل الحجر ويشير إليه بيده إشارة ولا يُقبله.

والأفضل أن لا يزاحم فيؤذي الناس ويتأذى بهم.

ويقول عند استلام الحجر: «**بسم الله والله أكبر اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ**».

ثم يأخذ ذات اليمين ويجعل البيت عن يساره فإذا بلغ الركن اليماني استلمه من غير تقبيل فإن لم يتيسر فلا يزاحم عليه ويقول بينه وبين الحجر الأسود: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة**».

وكلما مر بالحجر الأسود كبَّر، ويقول في بقية طوافه ما أحب من ذكر ودعاء وقراءة قرآن، فإنما جُعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله.

وفي هذا الطواف أعني الطواف أول ما يقدم ينبغي للرجل أن يفعل شيئين:

أحدهما: الاضطباع من ابتداء الطواف إلى انتهائه، وصفة الاضطباع: أن يجعل وسط ردائه داخل إبطه الأيمن، وطرفيه على كتفه الأيسر، فإذا فرغ من الطواف أعاد رداءه إلى حالته قبل الطواف؛ لأن الاضطباع محله الطواف فقط.

الثاني: الرمل في الأشواط الثلاثة الأولى فقط. والرمل: إسراع المشي مع مقاربة الخطوات، وأما الأشواط الأربعة الباقية فليس فيها رمل وإنما يمشي كعادته.

فإذا أتم الطواف سبعة أشواط تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ (البقرة: ١٢٥). ثم صلى خلفه ركعتين خفيفتين يقرأ في الأولى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ (سورة الكافرون). وفي الثانية: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ (سورة الإخلاص). بعد الفاتحة.

فإذا فرغ من صلاة الركعتين رجع إلى الحجر الأسود فاستلمه إن تيسر له. ثم يخرج إلى المسعى فإذا دنا من الصفا قرأ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ (البقرة: ١٥٨). ثم يرقى على الصفا حتى يرى الكعبة فيستقبلها ويرفع يديه فيحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو. وكان من دعاء النبي ﷺ هنا: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**». ويكرر ذلك ثلاث مرات ويدعو بين ذلك.

ثم ينزل من الصفا إلى المروة ماشيًا فإذا بلغ العلم الأخضر ركض ركضًا شديدًا بقدر ما يستطيع ولا يؤذ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يسعى حتى تُرى ركبتاه من شدة السعي تدور به إزاره، وفي لفظ وإن مأزره ليدور من شدة السعي، فإذا بلغ العلم الأخضر الثاني مشي كعادته حتى يصل إلى المروة فيرقى عليها ويستقبل القبلة ويرفع يديه ويقول ما قاله على الصفا.

ثم ينزل من المروة إلى الصفا فيمشي في موضع مشيه ويسعى في موضع سعيه.

فإذا وصل إلى الصفا فعل كما فعل أول مرة، وهكذا المروة حتى يكمل سبعة أشواط ذهابه من الصفا إلى المروة شوط ورجوعه من المروة إلى الصفا شوط آخر.

ويقول في سعيه ما أحب من ذكر ودعاء وقراءة قرآن.

فإذا أتم سعيه سبعة أشـواط حلق رأسه إن كان رجلاً، وإن كانت امرأة تقصِّر من كل قرن أنملة.

ويجب أن يكون الحلق شـاملاً لجمـيع الرأس، وكذلك التـقصـير يعم به جـميع جهات الرأس.

والحلق أفضل من التـقصير إلاَّ أن يكون وقت الحـج قريبًا بحيث لا يتـسع لنبات شعر الرأس فإن الأفضل التقصير ليبقى الرأس للحلق في الحج.

وبهذه الأعمال تمت العمرة.

ثم بعد ذلك يحل منها إحلالاً كاملاً ويفعل كما فعله المحلون من اللباس والطيب وإتيان النساء وغير ذلك.

*** صفة الحج:**

إذا كان يوم التـروية وهو يوم الثامن من ذي الحجة أحـرم بالحج ضُحىً من مكانه الذي أراد الحج منه، ويفـعل عند إحرامه بالحج كـما فعل عنـد إحرامه بالعـمرة من الغسل والطيب والصلاة ثم ينوي الإحرام بالحج ويلبي.

وصفة التلبية بالحج: «**لبيك حجًّا، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**».

وإن كان خائفًـا من عائق يمنعه من إتمام حجه اشتـرط فقال: «**وإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني**». وإن لم يكن خائفًا من عائق لم يشترط.

ثم يخرج إلى مِنى فيصلي بها الظهر والعصـر والمغرب والعشاء والفجر قصرًا من غير جمع.

فإذا طلعت الشمـس يوم عرفة سار من مِنى إلى عرفـة فنزل بنَمِرة إلى الزوال إن تيسر له، وإلاَّ فلا حرج؛ لأن النزول بنَمِرة سنة.

فإذا زالت الشمس صلى الظهر والعصر على ركعتين يجمع بهما جمع تقديم كما فعل النبي ﷺ؛ ليطول وقت الوقوف والدعاء.

ثم يتفـرغ بعد ذلك للذكر والدعـاء والتضرع إلى الله عـز وجل ويدعو بما أحب

رافعًا يديه مستقبل القبلة ولو كان الجبل خلفه؛ لأن السنة استقبال القبلة لا الجبل.

وكان أكثر دعاء النبي ﷺ في ذلك الموقف العظيم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**».

فإن حصل له ملل وأراد أن يستجم بالتحدث مع أصحابه بالأحاديث النافعة وقراءة ما تيسر من الكتب المفيدة، خصوصًا فيما يتعلق بكرم الله وجزيل هباته ليقوي جانب الرجاء في ذلك اليوم كان ذلك حسنًا.

ثم يعود إلى التضرع إلى الله ودعائه ويحرص على اغتنام آخر النهار بالدعاء فإن خير الدعاء دعاء يوم عرفة.

فإذا غربت الشمس سار إلى مزدلفة، فإذا وصلها صلى المغرب والعشاء جمعًا إلاَّ أن يصل مزدلفة قبل العشاء الآخرة فيصليها في وقتها.

لكن إن كان محتاجًا إلى الجمع إما لتعب أو قلة ماء أو غيرهما فلا بأس بالجمع وإن لم يدخل وقت العِشاء.

وإن كان يخشى أن لا يصل مزدلفة إلاَّ بعد نصف الليل فإنه يصلي ولو قبل الوصول إلى مزدلفة، ولا يجوز أن يؤخر الصلاة إلى ما بعد نصف الليل.

ويبيت بمزدلفة فإذا تبين الفجر صلى الفجر مبكرًا بأذان وإقامة، ثم قصد المشعر الحرام «مكان المسجد» إن تيسَّر، فوحَّد الله وكبر ودعا بما أحب حتى يسفر جدًّا.

وإن لم يتيسر له الذهاب إلى المشعر الحرام دعا في مكانه ويكون حال الذكر والدعاء مستقبلاً القبلة رافعًا يديه.

فإذا أسفر جدًّا دفع قبل أن تطلع الشمس إلى مِنى ويسرع في وادي محسر.

فإذا وصل إلى مِنى رمى جمرة العقبة وهي الأخيرة مما يلي مكة بسبع حصيات متعاقبات واحدة بعد الأخرى، كل واحدة بقدر الحمصة تقريبًا يكبر مع كل حصاة.

فإذا فرغ ذبح هديه ثم حلق رأسه إن كان ذكرًا، وأما المرأة فحقها التقصير دون الحلق ثم ينزل لمكة فيطوف ويسعى للحج.

والسنة أن يتطيب إذا أراد النزول إلى مكة للطواف بعد الرمي والحلق.

ثم بعد الطواف والسعي يرجع إلى مِنى فيبيت بها ليلتي الحادي عشر والثاني عشر ويرمي الجمرات الثلاث إذا زالت الشمس في اليومين.

والأفضل أن يذهب للرمي ماشيًا وإن ركب فلا بأس، فيرمي الجمرة الأولى وهي أبعد الجـمرات عن مكة، وهي التي تلي مسـجد الخيف بسـبع حصيـات متعاقـبات واحدة بعد الأخرى، ويكبر بعد كل حصاة.

ثم يتقدم قليلاً ويدعو دعاءً طويلاً بما أحب، فإن شق عليه طول الوقوف والدعاء دعا بما يسهل عليه ولو قليلاً ليُحصِّل السنة.

ثم يرمي الجمرة الوسطى بسبع حصيات متعاقبات يكبر مع كل حصاة.

ثم يأخذ ذات الشمس فيقف مستقبل القبلة رافعًا يديه ويدعو دعاءً طويلاً إن تيسر له وإلاَّ وقف بقدر ما تيسر.

ثم يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات مـتعاقبات يكبر مع كل حصاة ثم ينصرف، ولا يدعو بعدها.

فإذا أتم رمي الجمار في اليوم الثاني عشر، فإن شاء تعجل ونزل من مِنى وإن شاء تأخر فبات بها ليلة الثالث عشر، ورمى الجمار الثلاث بعد الزوال كما سبق.

والتأخـر أفضل ولا يجب إلاَّ أن تغرب الشـمس في اليوم الثاني عـشر وهو بمِنى فإنه يلزمه التأخر حتى يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال.

فإذا أراد الخـروج إلى بلده لم يخرج حتى يطوف لـلوداع؛ لقول النبي ﷺ: **«لا ينفر أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»**. إلاَّ أنه خُفف عن الحائض والنفساء فالحائض والنفساء ليس عليهما.

*** فائدة:**

يجب على المحرم بحج أو عمرة ما يلي:

١- أن يكون ملتزمًا بـما أوجب الله عليه من شرائع دينه كالصـلاة في أوقاتها مع الجماعة.

٢- أن يتجنب مـا نهى الله عنه من الرفث والفسوق والعـصيان ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).

٣- أن يتجنب أذية المسلمين بالقول أو الفعل عند المشاعر أو غيرها.

٤- أن يتجنب جميع محظورات الإحرام:

(أ) فلا يأخذ شيئًا من شعره أو ظفره فأما نقش الشوكة ونحوه فلا بأس به وإن خرج دم.

(ب) ولا يتطيب بعد إحرامه في بدنه أو ثوبه أو مأكوله أو مشروبه ولا يتنظف بصابون مُطيَّب فأما ما بقي من أثر الطيب الذي تطيب به عند إحرامه فلا يضر.

(جـ) ولا يقتل الصيد وهو الحيوان البري الحلال المتوحش أصلاً.

(د) ولا يجامع.

(هـ) ولا يباشر لشهوة بلمس أو تقبيل أو غيرهما.

(و) ولا يعقد النكاح لنفسه ولا لغيره، ولا يخطب امرأة لنفسه ولا لغيره.

(ز) ولا يلبس القفازين وهما شراب اليدين فأما لف اليدين بخرقة فلا بأس به.

وهذه المحظورات السبعة محظورات على الذكر والأنثى.

ويُختص الرجل بما يلي:

١- لا يغطي رأسه بملاصق فأما تظليله بالشمسية وسقف السيارة والخيمة وحمل العفش عليه فلا بأس به.

٢- لا يلبس القميص ولا العمائم ولا البرانس ولا السراويل ولا الخفاف إلاَّ إذا لم يجد إزاراً فيلبس السراويل أو لم يجد نعلين فليلبس الخفاف.

٣- لا يلبس ما كان بمعنى ما سبق، فلا يلبس العباءة ولا القباء ولا الطاقية ولا الفنيلة ونحوها.

ويجوز أن يلبس النعلين والخاتم ونظارة العين وسماعة الأذن وأن يلبس الساعة في يده أو يتقلدها في عنقه، ويلبس الهميان والمنطقة وهما ما تجعل فيه النفقة.

ويجوز أن يتنظف بغير ما فيه طيب وأن يغسل ويحك رأسه وبدنه، وإن سقط بذلك شعر بدون قصد فلا شيء عليه.

والمرأة لا تلبس النقاب وهو ما تستر به وجهها منقوبًا لعينيها فيه، ولا تلبس البرقع أيضًا، والسنة أن تكشف وجهها إلاَّ أن يراها رجال غير محارم لها، فيجب عليها ستره في حال الإحرام وغيرها.

*** أخطاء تقع في الحج والعمرة:**

*** أخطاء في الإحرام:**

١- **تجاوز الميقات وعدم الإحرام منه:** وهذا خطأ يقع فيه كثير من الحجاج، فعلى مَنْ تجاوز الميقات ولم يُحرم أن يعود إلى الميقات مرة أخرى؛ ليحرم منه أو يذبح فدية بمكة المكرمة وتفريقها على فقراء الحرم ولا يأكل منها أو يُهدي شيئًا. وبعض النساء يتركن الإحرام بحجة الحيض وهذا خطأ فإن عليها الإحرام وفعل ما يفعله الحاج إلا الطواف فإنها تؤجله حتى تطهر.

٢- **اعتقاد أن ركعتي الإحرام واجبة:** وهذا غير صحيح فليس هناك دليل على وجوبها وإنما هي مستحبة.

٣- **لبس النساء بعض الثياب التي فيها تشبه بالرجال:** وهو أمر منهي عنه فالمرأة ليس لها لباس خاص في الإحرام كما هو الحال عند الرجال، ثم؛ لأن التشبه منهي عنه مطلقًا لما روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال».

٤- **تعمد البعض الإحرام للحج من المسجد الحرام في اليوم الثامن من ذي الحجة:** وهذا غير صحيح فعلى الحاج أن يحرم من المكان الذي هو فيه بمكة اقتداءً بالنبي ﷺ وأصحابه الذين أحرم بعضهم من الأبطح.

٥- **وبعض النساء يعتقدن أن لملابس الإحرام لونًا مخصصًا: كالأبيض أو الأخضر:** وهو خطأ فالمرأة يجوز لها أن تُحرم بثيابها المعتادة وتتجنب ما فيه زينة.

٦- **وبعضهن ينتقبن ويلبسن القفازين:** وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ: **«لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين»**. وإنما تغطي الوجه عندما تكون بحضرة الرجال الأجانب أو تخاف الفتنة. ولا يجوز لها رفع الصوت بالتلبية كما يفعل كثير من النساء.

٧- **الاضطباع عند الإحرام:** ويُقصَد به أن يكشف المحرم أثناء الإحرام عن كتفه اليمنى ويبقى كذلك إلى أن يحل من إحرامه وهذا خطأ شائع عند كثير من الحجاج والصحيح أن كشف المحرم عن الكتف اليمنى (الاضطباع) مشروع في حالة طواف القدوم فقط فإذا فرغ منه أعاد رداءه إلى حالته قبل الطواف بأن يغطي كتفيه بالإحرام ويُكمل نسكه.

٨- **الرمل في أشواط الطواف كلها:** وهذا خطأ فالرمل- يُقصد به إسراع المشي مع مقاربة الخطوات في الطواف- لا يكون إلاَّ في الأشواط الثلاثة الأولى منه، أما الأشواط الأربعة الباقية فليس فيها رمل، وإنما يسير الطائف فيها سيرًا عاديًّا.

٩- **إهمال التلبية بعد الإحرام:** والصحيح أن على المحرم أن يكثر من التلبية ويحافظ عليها حتى يرمي الحاج جمرة العقبة يوم النحر.

١٠- **اعتقاد البعض أنه لا يجوز له تغيير ملابس الإحرام أو تنظيفها:** وهذا خطأ حيث إن للحاج والمعتمر أن يغيرا لباس الإحرام وغسله متى دعت الحاجة إلى ذلك.

* **أخطاء في الطواف:**

١- **البدء بالطواف قبل محاذاة الحجر الأسود أو بدءًا من على مستوى باب الكعبة:** وهذا خطأ وغلو؛ لأن السنة بدء الطواف باستلام الحجر الأسود إن تمكن المسلم من ذلك أو الاكتفاء بالإشارة إليه.

٢- **عدم الطواف بالبيت كاملاً:** كأن يُطاف بالكعبة وحدها ولا يُطاف بحِجْر إسماعيل معه وهذا خطأ كبير فالحِجْر جزءٌ من الكعبة ولا يصح الطواف بدونه، ومن وقع في ذلك فعليه الإعادة.

٣- **تقبيل الركن اليماني من الكعبة:** والسنة مسحه باليد اليمنى إن تيسر ذلك فإن لم يتيسر فعلى الطائف أن يمضي دون الإشارة إليه.

٤- **المزاحمة والمشاتمة ورفع الصوت وربما إيذاء الغير من أجل تقبيل الحجر الأسود:** وهذا أمر مخالف للسنة النبوية وتعاليم الدين فقد صح عنه ﷺ قوله: «**المسلم مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده**». رواه الشيخان.

٥- **التمسح بالحجر الأسود أو التبرك به أو التمسح بحيطان وأركان الكعبة وكسوتها:**

ولم يرد عن النبي ﷺ إلاَّ تقبيله الحجر الأسود ومسح الركن اليماني بيمناه.

٦- تخصيص كل شوط بدعاء مخصوص وترديد بعض الأدعية الجماعية بصوت مزعج يذهب الخشوع ويشوش على الطائفين: وإنما يدعو بـدعاء علمنا الله إياه والتـزمه ﷺ حين كان يقول بين الركن اليماني والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

٧- الإصرار على أداء ركعتين في مقام إبراهيم: ويمكن أداؤهما في أي مكان إذا اشتد الزحام.

*** أخطاء في السعي:**

(١) تلاوة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨). فيقرؤنها في كل شوط من أشواط السعي وإنما هي في الشوط الأول فقط.

(٢) اعتـقـاد لزوم السعي بالوضـوء: ويجوز أن يكـون على غير وضـوء ويستـمر بعضهم في السعي ساعة الصلاة ولا بد من التوقف للصلاة.

(٣) اعتـقـاد بعـضـهم الجـري الشـديد ساعـة السعي حتى نهايتـه: وهو باطل؛ لأن السعي إنما هو للرجال فقط ثم بين العلمين الأخضرين هناك.

(٤) ولا يجوز رفع الصوت بالدعاء والدعاء الجماعي: لكن خشية وذل وانكسار دون تخصيص لدعاء بعينه.

(٥) القيـام بأربعة عـشر شوطًا لا سبعـة: حيث يعتـبر الشوط ذهابًا وإيابًا وإنما هو شوط واحد من الصفا إلى المروة ثم من المروة إلى الصفا شوط آخر.

(٦) وبعضـهم يضطبع في السعي ويصعد أعلى الصفا والمروة: وهو خطأ فادح.

(٧) وبعضـهم يصلي ركعتين بعد السعي كما يفعل بعد الطواف: وهو خطأ فادح.

*** أخطاء في عرفة:**

(١) البعض لا يتأكد من أنه داخل حدود عـرفة: فينزل خارجها ويبقى مكانه فيفوت عليه الوقوف بعرفة ويضيع ركن الحج الأكبر؛ لأن الحج عرفة.

(٢) وآخرون ينصرفون قبل غروب الشمس: ومن فعل ذلك فعليه دم.

(٣) وبعضهم يزاحم للوصول والصعود إلى جبل الرحمة: وهذا جهل؛ لأن عرفة كلها موقف إلاَّ بطن عُرنة.

(٤) وآخرون يقومون بتجميع أكوام الحصى والتراب في أماكن معينة: ولا دليل على هذا.

*** أخطاء في مزدلفة:**

(١) بعضهم يجمع الحصى قبل أداء صلاتي المغرب والعشاء: والسنة لقط الحصى بعد الانصراف من مزدلفة إلى مِنى.

(٢) وآخرون يخرجون قبل مرور منتصف الليل بمِنى ولا يبيتون بها: ومن فعل ذلك فقد ترك واجبًا من الحج.

*** أخطاء في رمي الجمار:**

(١) التزاحم والتقاتل وعدم الرفق بالمسلمين.

(٢) رمي الجمار دفعة واحدة: والصحيح رمي كل حصاة وحدها مع التكبير عند كل رمية.

(٣) سب الشيطان ورميه بحجارة كبيرة ولعنه وقذف (الأحذية والنعال) وسب الدين له ظنًّا منهم أنهم يرمون الشيطان: وإنما شُرع رمي الجمار لذكر الله تعالى.

(٤) وبعض الحجاج القادرين خوفًا من الزحام يوكل غيره: وهذا خطأ لأن التوكيل لا يجوز في الفريضة إلاَّ لمرض أو عدم استطاعة ولا يجوز سفر الحاج القادر وعودته إلى بلاده قبل الرمي كما يفعله بعضهم.

(٥) ولا يجوز الإخلال بالترتيب: وإنما يرمي الحاج الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى ولا بد من التأكد من وقوع الحصى في المرمى المعد لها.

*** أخطاء في مِنى:**

(١) النزول قبل رمي الجمرات وطواف الوداع ثم العودة إلى مِنى لرمي الجمرات ثم السفر إلى بلده: وهو خطأ فآخر عهد الحاج إنما يكون بالبيت لا بالجمار.

(٢) والتعجل في الرمي: يظنه بعضهم يـوم العيد وما بعده والصـحيح أنه اليومين بعد العيد وهما: الحـادي عشر والثاني عشر فمن تعجل فيهمـا بعد رمي الجمار بعد الزوال من اليوم الثاني عشر فلا إثم عليه.

*** أخطاء عند الخروج من المسجد الحرام:**

وهذه من البدع العجيبة أنهم يخرجون يمشون القهقرى أي بظهورهم!!

وهي بدعة لطالما نبه العلماء على فسادها واستحداثها.

*** أخطاء عند زيارة المسجد النبوي:**

(١) التمسح بالجدران وقضبـان الحديد عند زيارة قبر النبي ﷺ وربط الخيوط في الشبابيك تبركًا!!. والبركة في متابعة النبي ﷺ لا هذه البدع.

(٢) الذهاب إلى المغارات في جـبل أحد وحراء وثور بالمـدينة ومكة وربط الخرق بها وتحمل المشاق من أجل عمل ليس من الحج في شيء!!.

(٣) زيارة مبرك الـناقة وبئر الخاتم أو بئـر عثمان وأخذ التـراب من هذه الأماكن للبركة!!.

(٤) اعتقاد أن الزيارة للمسجد النبوي من مناسك الحج، وهي ليست من مناسك الحج في شيء والزيارة ليست لقـبر النبي ﷺ وإنما هو شد للرحـال لنيل جزاء ألف صلاة عن كل صلاة تصليها أي مضاعفة الأجر(١).

*** من فضائل الحج والعمرة:**

(أ) أنهما سبب لمغفرة الذنوب ودخول الجنة:

* روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»**(٢).

---

(١) اعتـمدنا هنا على «مناسـك الحج والعمرة والمشـروع في الزيارة» لابن عثـيمين رحـمه الله ط الرياض، و«حـجـة النبي ﷺ» للألبـاني ط المكتب الإسـلامي- بيـروت، و«مناسك الحج» للألباني.

(٢) صحيح: البخاري (١٥٢١)، مسلم (١٣٥٠) في الحج.

* ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(١).

* ولما بايع عمرو بن العاص النبي ﷺ اشترط أن يُغفر له فقال ﷺ: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله؟**»(٢).

(ب) أنهما سبب للعتق من النار:

* وعن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟**»(٣).

(جـ) أنهما سبب لعودة صفحة العبد بيضاء بلا ذنوب:

* كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مَنْ أتى- وفي رواية: مَنْ حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»(٤).

والرفث: الجماع. والفسوق: المعصية، وكيوم ولدته أمه: أي بغير ذنب.

(د) أنهما من أفضل الأعمال:

كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سُئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «**إيمان بالله ورسوله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهادٌ في سبيل الله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»(٥).

(هـ) وهو جهاد النساء:

كما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «**لا، ولكن أفضل الجهاد حج مبرور**»(٦).

(و) وأنهما- أي الحج والعمرة- منافع للناس:

---

(١) صحيح: البخاري (١٧٧٣)، مسلم (١٣٤٩) في الحج.
(٢) صحيح: مسلم (١٢١) في الإيمان.
(٣) صحيح: مسلم (١٣٤٨) في الحج.
(٤) صحيح: مسلم (١٣٥٠/٤٣٨) في الحج.
(٥) صحيح: البخاري (٢٦) في الإيمان، مسلم (٨٣) في الإيمان.
(٦) صحيح: البخاري (١٥٢٠).

كما قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨)، وهذه أول فائدة ذكرها الله تعالى للحج والعمرة وهي منافع لم تقيد بنوع دون آخر بل هي منافع مطلقة لم تقيد بنوع دون آخر فهي كل ما ينفع الفرد والجماعة ويصلح شأنهما.

* فطهارة النفس والتقرب إلى الله منفعة.
* والتشاور في رسم خطط العلم وجمع الكلمة على الدعوة منفعة.
* والعمل على إظهار الإسلام بسماحته وأحكامه الرشيدة منفعة.
* وإعداد العدة لنسج خيوط الشخصية الإسلامية ثوبًا واحدًا منفعة.
* وامتلاء القلوب بالذكر والخشية منفعة.
* وإزالة الأدران والأوساخ الحسية والمعنوية منفعة.
* والتعارف بين المسلمين وبعضهم البعض منفعة.
* والتجارة والكسب منافع للناس.
* وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩).

يقول فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق رحمه الله: «فليس الأمر فيها بإزالة التفث قاصرًا على إزالة أدران البدن من شعث السفر، وإنما هو تنبيه بالأدنى وهو درن البدن على الأعلى وهو درن العقل ودرن الجماعة، فدرن القلب وقوعه تحت ضغط الشهوة والهوى، ودرن العقل وقوعه تحت ضغط الشكوك والأوهام، ودرن الجماعة وقوعها تحت سيطرة الغاصبين، وإذًا بإزالة التفث تخلية مما لا ينبغي للفرد والجماعة، وتحصيل المنافع تحلية بما ينبغي للفرد والجماعة، والحج قد شرعه الله سبيلاً لتلك التخلية وهذه التحلية».

*** من أسرار الحج:**

إن لكل عمل من أعمال الحج ونسك من نسكه سرًّا ينطوي عليه ومعنى يرمز إليه ينبغي على المسلم وهو يؤدي هذه المناسك أن يلتفت إليه ويكون على وعي به ومعايشة له حتى يتذوق حلاوة الحج ويعود إلى وطنه بعد أن وفقه الله تبارك وتعالى لأدائه كيوم ولدته أمه.

(١) فالإحرام في الحقيقة- وهو النسك الأول- ما هو إلا تجرد من شهوات النفس والهوى وحبسها عن كل ما سوى الله تعالى، وعلى التفكير في جماله وجلاله، وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال الدائم لطلب المحبوب المنعم الذي نرى نعمه ولا ندرك ذاته.

(٢) وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب الذي تتيم القلب بحبه وتنجذب النفوس كل النفوس إليه، ولا يزيدها القرب منه إلا تشوقًا إليه وشغفًا به.

(٣) وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين عَلَمي الرحمة التماسًا للمغفرة والرضوان.

(٤) وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء وألسنة مشغولة بالدعاء وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

(٥) وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ونزعات النفوس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

(٦) وما الذبح وهو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار. هذا هو معنى الحج في حقيقته ومعناه، والعبادات كلها- وإن اختلفت صورها- تلتقي عند غاية واحدة وهي تحقيق معنى العبودية لله بالإخلاص في طاعته والتوجه إليه وحده والاستعانة به وحده، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة، ولكن الحج أقواها وأعمها في تحقيق معنى العبودية والإخلاص لله؛ لهذا جعل عنوان الشروع فيه والشعار الذي يصحبه في جميع مراحله، ويوجه القلب إلى الله ويصرفه عما سواه، هذا النشيد الرباني الذي ينزع النفس من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء يسجل به المؤمنون على أنفسهم أسمى معاني الإخبات والخضوع والاستجابة لنداء الله[1].

---

(١) «الإسلام عقيدة وشريعة» (صـ ١٢٨- ١٣٦).

[الجنائز]

[١] ساعة الاحتضار ! !

[٢] الغسل .

[٣] تكفين الميت .

[٤] اتباع الجنازة وتشييع الميت والصلاة عليه .

[٥] دفن الميت وما ينفعه بعد موته .

الجنائز

[١] ساعة الاحتضار!!

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُم: لا إله إلاَّ اللهُ**»[١].

✿ ✿ ✿

* **مَنْ يعمل لمثل مصرعي هذا؟**

لما حضرت الوفاة أبا الدرداء رضي الله عنه جعل يقول:

مَنْ يعمل لمثل مصرعي هذا؟

مَنْ يعمل لمثل يومي هذا؟

مَنْ يعمل لمثل ساعتي هذه؟

مَنْ يعمل لمثل مضجعي هذا؟[٢].

لقد وعى أبو الدرداء رضي الله عنه أن هذه هي أصعب لحظات العمر على الإطلاق؛ لأنها اللحظات الأخيرة التي سيترتب عليها مصيره الأخروي الأبدي الذي لا يعرف انقطاعًا بعد ذلك، وقد ظل رحمه الله رابط الجأش حكيمًا حتى نهاية عمره خشية الوقوع في غوائل سوء الخاتمة، رغم أن الحكيم من الرجال يتحير عند هذا المصرع حين يعاين ما يعاين من رؤية ملك الموت وأعوانه، ومكابدة سكرات الموت وآلامه، وتحديد المصير ما بين بشرى بالجنة أو إنذارٌ بالنار وبئس المهاد!!

إن ساعة الاحتضار تمثل لحظة ما أصعبها في حياة البشر إنها تمثل لحظة

---

(١) صحيح: مسلم (٩١٦/ ١) في الجنائز، ورواه عن أبي هريرة برقم (٩١٧/ ٢) في الجنائز.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٤٢).

﴿مُلاقِيكُمْ﴾ التي قال الله تعالى عنها: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ (الجمعة: ٨)، إنها لحظة لا مفر منها ولا مهرب فعن اليمين والشمال ملاقيكم، ومن الأمام والخلف ملاقيكم، ومن فوقكم وأسفل منكم ملاقيكم.

إنها اللحظة التي سيذوق فيها كل حي طعم الموت والهلاك، لحظة تعظ بصمتها لا يمنع منها الجنود، ولا يُتحصن منها في الحصون تدرك الإنسان أينما كان؟ وكيف كان؟ شاء أم أبى، سيلقاها ويذوقها فقد قال الله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

إنها اللحظة التي تبدأ من بعدها الحياة البرزخية فإما إلى نعيم وإما إلى جحيم، ولو كشفت تفاصيل هذه اللحظة لنا لخرجنا نعدوا في الصحراء ولمتنا بين شعاب الجبال خشية تلك الشدائد والأهوال التي تُرى من كل ناحية في تلكم اللحظة.

رؤي أحد الصالحين بعد موته فقيل له: كيف وجدت الموت؟ قال: أوَّاه، وجدته والله شديداً، والذي لا إله غيره هو أشد من الطبخ في القدور والقطع بالمناشير أقبل ملك الموت نحوي فاستلَّ الروح من كل عضو مني فلو أني طُبِخْتُ في القدور سبعين مرة لكان أهون عليّ.

وقال كعب الأحبار: «الموت كغصن كثير الشوك أُدخل في جوف رجل حتى إذا أخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى!!»(١).

لا جرم إذًا أن يقول ﷺ عند وفاته: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»(٢).

ولا جرم أن يصيح أبو الدرداء: مَنْ يعمل لمثل مصرعي هذا؟!! فإنها لحظة ملاقيكم.

إن استعداد الإنسان لهذه اللحظة لا بد أن يكون استعدادًا لائقًا ليظفر بالنعيم

---

(١) «بستان الواعظين» (صـ ١٧٤).

(٢) صحيح: البخاري (٦٥١٠) في الرقاق.

الأبدي؛ لأنه لا مستقبل عند الله تعالى لمن لم يستفد من عمره طاعة وتقوى تدعم علاقته بربه وتكون ذخرًا له عند اللقاء، فإن قومًا عاشوا للتراب والتصقوا به فكان ذلك سببًا لبوارهم إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٧)، ولكن من الخير للمسلم أن يعلم علم اليقين أن عمره المحدود في هذه الدنيا إن لم يكن وسيلة للتكمل والترقي فلن يشرق غده ولن يخرج منه بطائل، فالجنة موعود الله تعالى للمتقين لا تتسع لخسيس ولا لمهين، وإذا لم يكن الإنسان على حظ من الكمال والفضيلة فلن يجد بها منزلة.

لقد خُلق الإنسان من طينة فيها الكدر والهوان ورُكبت فيه الروح وأمامه فسحة من الأجل ليعمل للحظة ﴿مُلاقِيكُمْ﴾، فينبغي أن يستغل هذه الفسحة؛ ليرشح نفسه للملأ الأعلى فيقهر أهواءه ويمسح أكداره ويسمو بطبيعته ويصقل نفسه ويهذبها فإذا جاءت رسل الله لتتوفاه صدق فيه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢).

هذا ما يخص الإنسان المحتضر وحده لكن إذا جاءت لحظة ﴿مُلاقِيكُمْ﴾ فإن على مَنْ حوله أمور وواجبات يجب أن يفعلوها كحق أخير لهذا المسلم الذي يودع الحياة؛ ليستقبل ملائك الرحمن لتقبض روحه، وهو موضوع هذه الوصية.

أولاً: حثه على الوصية النافعة والعادلة[١]:

الوصية: عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت. وقد يصحبه التبرع.

وسُميت وصية؛ لأن الميت يصل بها ما كان في حياته بعد مماته. وتطلق شرعًا أيضًا على ما يقع به الزجر عن المنهيات والحث على المأمورات[٢].

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»**[٣].

---

(١) والوصية تطلق على فعل الموصي، وعلى ما يوصي به من مال أو غيره من عهد ونحوه. (الفتح (٥/ ٤١٩).

(٢) نفسه.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٥/ ٤١٩) (٢٧٣٨)، مسلم في الوصية (٣/ ١٢٤٩) (١)=

وهذا إن كان يلزم كل مكلف إلا أنه في حق الشيخ أوجب وألزم.

وقال الطيبي: «وفي تخصيص الليلتين والثلاث بالذكر تسامح في إرادة المبالغة. أي لا ينبغي أن يبيت زمانًا ما وقد سامحناه في الليلتين والثلاث فلا ينبغي له أن يتجاوز ذلك»[(١)].

ولقد حثت السنة على وصية الأهل والأقارب وغيرهم بالتزام كتاب الله عز وجل والتمسك به والعمل بمقتضاه.

٢- عن طلحة بن مُصَرِّف قال: «سألت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله»[(٢)].

ولعله أشار لقوله ﷺ:

٣- **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا: كتاب الله»**[(٣)].

ولعله اقتصر على الوصية بكتاب الله عز وجل؛ لكونه أعظم وأهم؛ ولأن فيه تبيان كل شيء إما بطريق النص وإما بطريق الاستنباط، فإذا اتبع الناس ما في الكتاب، وعملوا بكل ما أمرهم النبي ﷺ به لقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ (الحشر: ٧)[(٤)].

ولقد حفظ الصحابة الوصية وحثوا الناس عليها وكانوا يذكرون الناس بها.

= (١٦٢٧)، وأبو داود في الوصايا- باب ما جاء في ما يؤمر به من الوصية (٣/ ٢٨٢) (٢٨٦٢)، والترمذي (٦/ ٣٠٥) (٢٢٠١)، والنسائي (٦/ ٢٣٩)، وابن ماجه في الوصايا- باب الحث على الوصية (٢/ ٩٠١) (٢٦٩٩)، والدارمي (٢/ ٤٠٢)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٧٦١).

(١) الفتح (٥/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٤٢٠) (٢٧٤٠)، مسلم (٣/ ١٢٥٦) (١٦٣٤).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٩) بلفظ: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله، وسنة نبيه»**، ومسلم بلفظ: **«وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»**، فحث على كتاب الله، ورغب فيه.

(٤) الفتح (٥/ ٤٢٦).

فعن الزهري قال: «أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا- يريد بذلك أن يكون آخرهم- فإن يك محمدًا ﷺ قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به بما هدى الله محمدًا ﷺ. . .»(١).

ولقد خص النبي ﷺ بعض الأشياء بالوصية من باب الخصوص بعد العموم لأهميتها. ومن ذلك:

٤- عن علي رضي الله عنه قال: « كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «**الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**»(٢).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ (النساء: ٥٨).

فأداء الأمانة أحق من تطوع الوصية وقال النبي ﷺ:

٥- «**لا صدقة إلا عن ظهر غنى**»(٣).

ولا يحل مال المسلمين لقول النبي ﷺ:

٦- «**آية المنافق ثلاث -منها- إذا ائتمن خان**»(٤).

وحثت السنة على الإنفاق والتصدق والوصية بذلك خاصة للأقربين.

٧- عن عمرو بن الحارث قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا ولا عبدًا ولا أمة ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضًا جعلها صدقة»(٥).

٨- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام- باب الاستخلاف (١٣/ ٢١٨) (٧٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وقال شاكر (٥٨٥): إسناده صحيح، وابن ماجه (٢/ ٩٠٠) (٢٦٩٧) وقال في «الزوائد»: إسناده حسن، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ٢٣٥)، وأبو داود (٥/ ٣٥٩) (٥١٥٦)، وصححه ابن حبان (١٢٢٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٩/ ٣٥٠) (٢٤١٥).

(٣) البخاري (١٤٢٧) في الزكاة، مسلم (١٠٣٤/ ٩٥) في الزكاة.

(٤) البخاري (٣٣) في الإيمان، مسلم (١٠٦/ ٩٥) في الإيمان.

(٥) صحيح: البخاري (٢٧٣٩) في الوصايا.

مالاً من نخل وكان أحب ماله إليه بيرحاء مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢). قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها حيث أراك الله، فقال: «**بخٍ بخٍ ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**». قال أبو طلحة: أفعل ذلك يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

ولقد حثت السنة على التزام العدل في الوصية وحذرت من الحيف فيها.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار**». وقرأ أبو هريرة من هھنا: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ حتى بلغ: ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

وبينت السنة أنه لا وصية لوارث بالنسبة للأمور المادية، أما الوصية في الدين والحث على تقوى الله وإصلاح ذات البين وفعل المعروف وغير ذلك فهي قائمة للجميع لا سيما الأقارب.

١٠- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»(٣).

ويُستحب إيثار المجاهدين في سبيل الله عز وجل بوصية المال لعموم نفع الجهاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٤٦٥) (٢٧٦٩)، مسلم في الزكاة- باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (٢/ ٦٩٣) (٤٢) (٩٩٨)، «الموطأ» (٢/ ٩٩٥، ٩٩٦) في الصدقة، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ١٩٠) (١٦٨٣) والآية من سورة آل عمران (٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا- باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية (٣/ ٢٨٩) (٢٨٦٧)، والترمذي في الوصايا- باب الضرار في الوصية (٦/ ٣٠٤) (٢٢٠٠) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في الوصايا- باب الحيف في الوصية (٢/ ٩٠٢) (٢٧٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩١) (٢٨٧٠)، والترمذي (٦/ ٣٠٩) (٢٢٠٣) وقال: هذا حديث حسن، والنسائي (٢/ ٢٤٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٥) (٢٧١٣)، والدارمي (٢/ ٤١٩).

١١- عن أبي حبيبة الطائي رضي الله عنه قال: «أوصى إليَّ أخي بطائفة من ماله فلقيت أبا الدرداء فقلت له: أينْ ترى لي وضعه في الفقراء أو المساكين أو المجاهدين في سبيل الله؟ قال: أما أنا فلو كنت لم أعدل بالمجاهدين سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مثل الذي يعتق عند الموت كمثل الذي يُهدي إذا شبع**»[١].

والأظهر أن المراد أنه مرتبة ناقصة، لأن التصدق والإعتاق حال الصحة أفضل، كما أن السخاوة عند المجاعة أكمل[٢].

قلت: هذا إن كان ممتنعًا عن التصدق والإعتاق حال صحته ثم فعل ذلك عند موته، أما لو كان يتصدق ويعتق في صحته ثم ختم حياته بفعل ذلك فهذا خير وأفضل.

قال الحسن: «أحق ما تصدق به الرجل آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة»[٣].

وكان السلف الصالح يوصي بتقوى الله وبإصلاح ذات البين وموالاة أهل الإيمان وذوي الفضل، وبالتزام أخلاق الإسلام والثبات على ذلك حتى الممات.

عن محمد بن سيرين: «هذا ذكر ما أوصى به محمد بن أبي عمرة بنيه وأهل بيته: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (الأنفال: ١).

وأوصاهم بما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿**يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٢).

وأوصاهم أن لا يرغبوا أن يكونوا موالي الأنصار وإخوانهم في الدين، وإن العفة والصدق خير وأتقى من الزنا والكذب. ثم ذكر حاجته[٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «هكذا كانوا يوصون: هذا ما أوصى به فلان ابن فلان: أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده

---

(١) أخرجه الترمذي (٦/ ٣١٦) (٢٢٠٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) المباركفوري في «التحفة» (٦/ ٣١٦) نقلاً عن القاري.

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٤٤١) في الفتح.

(٤) سنن الدارمي (٢/ ٤٠٤).

ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيـها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور، وأوصى مَنْ ترك بعده من أهلـه أن يتقوا الله ويصلحـوا ذات بينهم، وأن يطيعـوا الله ورسوله إن كانوا مـؤمنين، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعـقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢)، وأوصى إن حدث به حدث من وجعه هذا أن حاجته كذا وكذا»(١).

وعن مكحول حين أوصى قال: «نشهد هذا فاشهد به: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن مـحمـدًا عبده ورسـوله، ويؤمن بالله ويكفر بالطاغـوت على ذلك يحيى إن شاء الله ويموت ويبعث»(٢).

وأوصى الربيع بن خُثَيْم وصيـة: «بسم الله الرحمن الرحـيم: هذا ما أوصى به الربيع بن خُثَيْم، وأشهد الله عليه وكفى بالله شهيـدًا وجازيًا لعباده الصالحين ومثيبًا، فإني رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، وإني آمر نفسي ومن أطاعني أن نعبد الله في العابدين ونحمده في الحامدين وأن ننصح لجماعة المسلمين»(٣).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

إن هذا المشهد بين يعـقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضـار لمشهد عظيم الدلالة قوي الإيحاء عميق التـأثير، ميت يحتضر فما هي القضـية التي تشغل باله في ساعة الاحتضـار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سـكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليـه ويستوثق منه؟ ما هي التركـة التي يريد أن يخلفها لأبنائه؟ ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدة. .هي التركة وهي الذخر وهي القضية الكبرى وهي الشغل الشاغل وهي الأمر الجلل الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته:

---

(١) سنن الدارمي (٢/ ٤٠٤).

(٢) سنن الدارمي (٢/ ٤٠٤).

(٣) سنن الدارمي (٢/ ٤٠٥).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟﴾ (البقرة: ١٣٣).

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣)، إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه إنهم يتسلمون التراث ويصونونه، إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه، وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصون نصًّا صريحًا على أنهم ﴿مُسْلِمُونَ﴾[١].

ثانيًا: تذكيره بالله وتلقينه الشهادتين:

ولقد ندبت السنة المطهرة إلى الحضور عند المحتضر لتلقينه وتذكيره وتأنيسه:

١- فعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر. وإذا قال العبد: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي. وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي. وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد. وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي، مَنْ رزقهن عند موته لم تمسه النار**»[٢].

فيستحب تذكير العبد بالله عز وجل وتلقينه شهادة التوحيد لأنه مَنْ مات موحدًا بعث كذلك ومَنْ بعث كذلك دخل الجنة.

٢- فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مات على شيء بعثه الله عليه**»[٣].

---

(١) الظلال (١/ ١١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات- باب ما يقول العبد إذا مرض (٩/ ٣٨٩) (٣٤٩٠)، وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في الأدب- باب فضل لا إله إلا الله (٢/ ١٢٤٦، ١٢٤٧)، وابن حبان (٢٣٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٦) (٨٤) (٢٨٧٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٤٠١) (٤٢٠٦) واللفظ له، وأورده التبريزي في «المشكاة» رقم (٥٣٤٥).

٣- وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»**[١].

٤- وفي رواية: **«مَنْ مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله دخل الجنة»**[٢].

٥- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«أتاني جبريل فبشرني أنه مَنْ مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة..»**[٣].

ووجه هذه الأحاديث عند بعض أهل العلم: أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة وإن عذبوا في النار بذنوبهم فإنهم لا يخلدون في النار[٤].

٦- وقد روي عن ابن مسعود وأبي ذر وعمران بن حصين وجابر بن عبد الله وابن عباس وأبي سعيد الخدري وأنس عن النبي ﷺ قال: **«سيخرج قوم من النار من أهل التوحيد ويدخلون الجنة»**[٥].

وهكذا روي عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغير واحد من التابعين في تفسير هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

قالوا: إذا أخرج أهل التوحيد من النار وأدخلوا الجنة يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين[٦].

٧- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٥٥) (٤٣) (٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧٤)، وأورده التبريزي في «المشكاة» رقم (٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (١٣/ ٤٦٩) (٧٤٨٧)، ومسلم في الإيمان (١/ ٩٤) (١٥٣) (٩٤)، والترمذي (٧/ ٣٩٢) (٢٧٧٥) بنحوه، وكذا ابن ماجه (٢/ ١٤٤٣) (٤٣١٢)، وأحمد (٢/ ٤٢٦) (٤/ ٣٤٥) (٥/ ١٥٢، ١٥٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٩٦) (٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٦).

(٤) الترمذي (٧/ ٣٩٣) «تحفة الأحوذي».

(٥، ٦) نفس المصدر.

ﷺ يقول: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ يقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء»(١).

وبينت السُّنة أن مَنْ كان آخر عهده بالدنيا طاعة الله عز وجل دخل الجنة.

٨- عن حذيفة رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ في مرضه فرأيته يهم بالقعود وعليٌّ عليه السلام عنده يميد- يعني من النعاس- فقلت: يا رسول الله ما أرى عليًّا إلا قد ساهرك في ليلته هذه أفلا أدنو منك؟ قال: «علي أولى بذلك منك». فدنا منه علي عليه السلام فسانده فسمعته يقول: «مَنْ خُتم له بإطعام مسكين محتسبًا على الله عز وجل دخل الجنة، ومَنْ خُتم له بصوم يوم محتسبًا على الله عز وجل دخل الجنة، ومَنْ خُتم له بقول: لا إله إلا الله محتسبًا على الله عز وجل دخل الجنة»(٢).

وفي رواية: «فقلت: يا رسول الله أُسرٌ هذا أم أعلنه؟ قال: «بل أعلنه». قال: فإنه لآخر شيء سمعته من رسول الله ﷺ»(٣).

٩- وعن أسماء أنها كانت تحدث عن النبي ﷺ قالت: «إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنًا أحف به عمله الصلاة والصيام. قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده فيناديه: اجلس. قال: فيجلس فيقول له: ما تقول في هذا الرجل- يعني النبي ﷺ- قال: مَنْ؟ قال: محمد. قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ. قال: يقول: على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث. قال: وإن كان فاجراً أو كافراً قال: جاءه ملك ليس

---

(١) أخرجه الترمذي (٧/ ٣٩٥) (٢٧٧٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والبطاقة: القطعة.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢١٨، ٢١٩)، المخلص في «الفوائد المنتقاة» (٢/ ٢٣)، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٦٤٥).

(٣) أخرجه ابن بشران في «الأمالي» (١/ ١٣٤)، ابن عساكر (١٥/ ٨١)، الخطيب في «الموضح» (١/ ٤٦)، أحمد (٥/ ٣٩١).

بينه وبينه شيء يرده. قال: فأجلسه، قال: اجلس ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد. فيقول: ما أدري والله سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. قال له الملك: على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث، وتسلط عليه دابة في قبره معها سوط تمر به جمرة مثل البعير تضربه ما شاء الله صَمَّاء لا تسمع صوته فترحمه»(١).

١٠- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»**(٢).

معناه: مَنْ حضره الموت.

والمراد: ذَكِّرُوه: لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، والأمر بهذا التلقين أمر ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين وكرهوا الإكثار عليه والموالاة؛ لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه فيكره ذلك بقلبه ويتكلم بما لا يليق.

قالوا: وإذا قاله مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعده بكلام آخر فيعاد التعريض به ليكون آخر كلامه كما في الحديث الذي رواه:

١١- معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**(٣).

ويتضمن الحديث: الحضور عند المحتضر لتذكيره وتأنيسه(٤).

وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه(٥).

١٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يموتن أحد منكم إلا**

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٣)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥١) وقال: «رواه أحمد، وروى الطبراني منه طرفًا في «الكبير»، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز- باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (٢/ ٦٣١) (١) (٩١٦)، أبو داود في الجنائز (٣/ ٤٨٧) (٣١١٧)، الترمذي (٤/ ٥٢) (٩٨٣)، ابن ماجه (١/ ٤٦٤) (١٤٤٤) (١٤٤٥)، النسائي (٤/ ٥)، أحمد (٣/ ٣)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٩٦) (١٤٦٥)، أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٨٦) (٣١١٦)، الحاكم (١/ ٣٥١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) قاله النووي في «شرح مسلم» (٦/ ٢١٩).

(٥) الإحياء» (٤/ ٤٦٦).

وهو يحسن الظن بالله تعالى»(١).

وروي عن ابن المبارك أنه لما حضره الوفاة جعل رجل يلقنه: لا إله إلا الله وأكثر عليه فقال له عبد الله: «إذا قلت مرة فأنا على ذلك ما لم أتكلم بكلام»(٢).

ويستحب أن يكون الملقن غير متهم؛ لئلا يحرج الميت، يتهمه أي يوقعه في الحرج، وذلك أنه قد يمتنع من ذلك لاتهام ملقنه فيفوت عليه هذا الخير(٣).

ثالثًا: تغميض عينيه وتسجيته:

ولقد أجمع المسلمون على استحباب إغماض الميت، والحكمة فيه أن لا يقبح بمنظره لو ترك إغماضه(٤).

١- فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «**إن الروح إذا قبض تبعه البصر**». فضج ناس من أهله، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**». ثم قال: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وأفسح له في قبره ونور له فيه**»(٥).

٢- وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حضرتم الميت فغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح، وقولوا خيراً فإن الملائكة تؤمن على دعاء أهل البيت**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٤/ ٢٢٠٥) (٨١) (٢٨٧٧)، أبو داود (٣/ ٤٨٤) (٣١١٣)، ابن ماجه (٢/ ١٣٩٥) (٤١٦٧)، أبو نعيم في «الحلية« (٥/ ٨٧).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (٥/ ٢٩٦).

(٣) «الأذكار» للإمام النووي (صـ ١٦٩).

(٤) قاله النووي في «شرح مسلم» (٦/ ٢٢٣) بتصرف.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز- باب في إغماض الميت، والدعاء له إذا حُضر (٢/ ٦٣٤) (٧) (٩٢٠)، أبو داود (٣/ ٤٨٧) (٣١١٨)، ابن ماجه (١/ ٤٦٧) (١٤٥٤)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٠٠) (١٤٦٨) وقال: هذا حديث صحيح.

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، ابن ماجه (١/ ٤٦٨) (١٤٥٥) وقال في «الزوائد»: إسناده حسن، الحاكم (١/ ٥٣٢) وصححه ووافقه الذهبي.

وقال أبو داود: «وتغميض الميت بعد خروج الروح سمعت محمد بن النعمان المقري قال: سمعت أبا ميسرة رجلاً عابدًا يقول: غمّضت جعفرًا المعلم وكان رجلاً عابدًا في حالة الموت فرأيته في منامي ليلة مات يقول: أعظم ما كان علي تغميضك لي قبل أن أموت[١]».

وذلك لأنه إذا لم تُغمض عيناه بقيتا مفتوحتين فيقبح منظره ويشد لحياه بعصابة عريضة يجمع لحييه ثم يشدها على رأسه لئلا ينفتح فوه فيقبح منظره ويدخل فيه ماء الغسل ويقول الذي يغمصه: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ[٢].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سُجِّي ببُردة حِبَرة[٣].

وفي الحديث استحباب تسجية الميت، وهو مجمع عليه، وحكمته صيانته من الانكشاف وستر عورته المتغيرة عن الأعين.

قال أصحابنا: ويلف طرف الثوب المسجى به تحت رأسه وطرفه الآخر تحت رجليه لئلا ينكشف عنه، قالوا: تكون التسجية بعد نزع ثيابه التي توفي فيها لئلا يتغير بدنه بسببها[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم النبي ﷺ وهو مُسجًّى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها»[٥].

---

(١) «سنن أبي داود» (٣/ ٤٨٨- معالم)، وذكره القرطبي في «التذكرة» (١/ ٤٨).

(٢) قاله ابن قدامة في «الكافي» (١/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٢٨٧) (٥٨١٤)، مسلم في الجنائز- باب تسجية الميت (٢/ ٦٥١) (٤٨) (٩٤٢)، أبو داود (٣/ ٤٨٩) (٣١٢٠).

(٤) قاله النووي في «شرح مسلم» (٧/ ١٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٦) (١٢٤١)، النسائي في الجنائز- باب تقبيل الميت (٤/ ١١)، أحمد (١/ ٣٣٤، ٣٦٧)، (٦/ ١١٧).

رابعًا: الاسترجاع والصبر والرضا:

١- عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** (البقرة: ١٥٦) **اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها**». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ، قالت: أرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت: إن لي بنتًا وأنا غيور فقال: «**أما ابنتها فندعوا الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة**»[(١)].

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مَرَّ رسول الله ﷺ على امرأة عند قبر وهي تبكي فقال لها رسول الله ﷺ: «**اتقي الله واصبري**». فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي. ولم تعرفه. قال: فقيل لها: إنه النبي ﷺ. قال: فأخذها مثل الموت. قال: فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت: يا رسول الله لم أعرفك. فقال ﷺ: «**الصبر عند الصدمة الأولى**»[(٢)].

أي هو المطلوب المبشر عليه بالصلاة والرحمة[(٣)].

وقوله: «**عند الصدمة الأولى**»: أي عند فورة المصيبة وحموتها. والصدم: ضرب الشيء الصلب بمثله. يريد أن الصبر المحمود والمأجور عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة؛ لأنه إذا طالت الأيام وقع السلو طبعًا فلم يؤجر[(٤)].

إن المرء لا يؤجر على المصيبة؛ لأنها ليست من صنعه وإنما يؤجر على حسن تثبته

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز- باب ما يقال عند المصيبة (٢/ ٦٣١) (٣) (٩١٨)، أبو داود (٣/ ٤٨٨) (٣١١٩)، ابن ماجه (١/ ٥١٠) (١٥٩٨)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٩٤) (١٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٧٧) (١٢٨٣)، مسلم في الجنائز- باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٢/ ٦٣٧) (١٥) (٦٢٦)، أبو داود (٣/ ٤٩١) (٣١٢٤)، النسائي دون القصة (٤/ ٢٢)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٤٧) (١٥٣٩).

(٣) قاله الحافظ في الفتح (٣/ ٢٠٥).

(٤) قاله البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٤٨).

وجميل صبره(١).

وقال عمر رضي الله عنه: «نعم العدْلان ونعم العلاوة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧). والعدلان: الصلاة والرحمة. والعلاوة: الاهتداء(٢).

وليستعان بالصبر والصلاة عند المصائب كما أمر الله عز وجل في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

٣- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى»(٣).

والصبر: منع النفس محابها وكفها عن هواها. ولذلك قيل لمن لم يجزع: صابر. لكفه نفسه. وقيل لرمضان: شهر الصبر؛ لكف الصائم نفسه عن المطعم والمشرب(٤).

وليرض العبد بكل ما جاء عن الله ومن الله فإن ذلك علامة هداية القلب إلى الله.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

قال علقمة عن عبد الله بن مسعود: هو الذي أصابته مصيبة فرضي وعرف أنها من الله(٥).

خامساً: الثناء عليه والكف عن مساويه:

ولقد حثت السنة المطهرة على ذكر محاسن الميت والكف عن عيوبه ومساويه.

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم»**(٦).

---

(١) الفتح (٣/ ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٥) في الفتح، ووصله الحاكم (٢/ ٢٧٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأورده البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٤٦)، والآيتان من سورة البقرة (١٥٦، ١٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨) (١٣١٩).

(٤) قاله الطبري في «جامع البيان» (١/ ٢٠٥)، ونقله عنه الحافظ في الفتح» (٣/ ٢٠٦) وهو حسن.

(٥) «شرح السنة» (٥/ ٤٤٦).

(٦) أخرجه أبو داود (٥/ ٢٠٦) (٤٩٠٠) في الأدب، الحاكم (١/ ٣٨٥) وصححه ووافقه الذهبي.

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: مُرَّ بجنازة على النبي ﷺ فقال: «**اثنوا عليه**» فقالوا: كان ما علمنا يحب الله ورسوله وأثنوا عليه خيرًا. فقال: «**وجبت**». قال: ثم مُرَّ عليه بجنازة فقال: «**أثنوا عليه**». فقالوا: بئس المرء كان في دين الله عز وجل. فقال: «**وجبت أنتم شهداء الله في الأرض**»(١).

٣- وعن أبي الأسود قال: «أتيت المدينة وقد وقع بها مرض وهم يموتون موتًا ذريعًا فجلست إلى عمر فمرت جنازة فأُثني خيرًا، فقال عمر: وجبت. ثم مُرَّ بأخرى فأُثني خيرًا فقال: وجبت. ثم مُرَّ بالثالثة فأُثني شرًّا، فقال: وجبت. فقلت: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة**». قلنا: وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**». قلنا: واثنان؟ قال: «**واثنان**». ثم لم نسأله عن الواحد»(٢).

والصحيح أنه على عمومه، وأن مَنْ مات منهم فألهم الله تعالى الناس الثناء عليه بخير كان دليلاً على أنه من أهل الجنة، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا، فإن الأعمال داخلة تحت المشيئة وهذا إلهام يستدل به على تعيينها وبهذا تظهر فائدة الثناء(٣).

وهذا في جانب الخير واضح ويؤيده ما جاء:

٤- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً إلا قال الله تعالى: قد قبلت قولكم وغفرت له ما لا تعلمون**»(٤).

وأما جانب الشر فظاهر الأحاديث أنه كذلك لكن إنما يقع ذلك في حق من غلب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٧٠) (١٣٦٧)، مسلم في الجنائز- باب فيمن يثنى عليه خيرًا أو شرًّا من الموتى (٢/ ٦٥٥) (٦٠) (٩٤٩)، أبو داود (٣/ ٥٥٦) (٣٢٣٣)، الترمذي (٤/ ١٦٥) (١٠٦٤)، النسائي (٤/ ٤٩)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٨٦) (١٥٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٧١) (١٣٦٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٨٣) (١٥٠٦).

(٣) قاله النووي (٧/ ١٩، ٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٢)، الحاكم (١/ ٣٧٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٧) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح.

شره على خيره. وقد وقع في رواية:

٥- «إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر»(١).

والمعتبر في ذلك شهادة أهل الفضل والصدق لا الفسقة- لأنهم قد يثنون على مَنْ يكون مثلهم- ولا مَنْ بينه وبين الميت عداوة؛ لأن شهادة العدو لا تُقبل(٢).

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»**(٣).

٧- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه»**(٤).

وهناك أمور يجب فعلها ولا حرج فيها ساعة موت الإنسان:

(١) يوضع الميت على جنبه الأيمن أو على ظهره وقدماه إلى القبلة.

(٢) يُشد لحييه- وهما الفك الأعلى والأسفل- عن طريق خرقة تُلف من رأسه حتى ذقنه، وهذا حتى لا تدخل الميكروبات للفم، وحتى لا يظل الفم مفتوحًا لا يُغلق.

(٣) يقوم أحد الحاضرين بعملية تليين لمفاصل الميت لأن هذا سيفيد ساعة الغسل في تحريك أعضاء الميت.

(٤) تُخلع ملابس الميت ويُغطى تمامًا، ويوضع شيء ثقيل على بطنه لئلا تنتفخ.

(٥) ويجوز تقبيل الميت كما فعل أبو بكر رضي الله عنه ساعة حضوره بعد وفاة النبي ﷺ.

(٦) عدم وضع رغيف الخبز والملح وتلك عقيدة الفراعنة الوثنيين.

(٧) ويُعجَّل بتجهيزه للدفن؛ لأن كرامة الميت دفنه كما سيأتي.

وإلى وصية أخرى توضح واجبًا آخر.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٧) وصححه ووافقه الذهبي، وأورده الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٧٣).

(٢) نقله الحافظ في الفتح» (٣/ ٢٧٣) عن الداودي.

(٣) صحيح: البخاري (١٣٩٣) في الجنائز.

(٤) صحيح: أبو داود (٤٨٩٩) في الأدب.

[٢] غسل الميت

عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته فقال: «**اغسلنها ثلاثًا، أو خمسًا، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماءٍ وسِدر، واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتن فآذنني**». فلما فرغنا آذنَّاه، فأعطانا حِقْوه فقال: «**أشعرْنها إياه**». تعني: إزاره»[١].

✿ ✿ ✿

هذه وصية أخرى منه ﷺ توضح أن من حق الميت على المسلمين أن يغسلوه ليلقى ربه تبارك وتعالى طاهرًا، فإن العبد إذا قدم على من يحب تجمل له، فكيف بمن قدم على الله تعالى؟!

حكم تغسيل الميت:

فرض كفاية على قول الجمهور[٢].

وقال بعضهم: هو واجب على المسلمين.

وهناك مَنْ لا يُغسَّل وهم:

(١) الكافر فلا يُغسَّل.

(٢) شهيد المعركة: فقد قال النبي ﷺ عن شهداء أحد: «**لا تُغسِّلوهم، فإن كل جرح- أو كل دم- يفوح مسكًا يوم القيامة**»[٣].

---

(١) صحيح: البخاري (١٢٥٣) في الجنائز، مسلم (٣٦/ ٩٣٩) في الجنائز.

(٢) «المجموع» (٥/ ١٢٨) للنووي.

(٣) صحيح: أحمد (٣/ ٣٩٩) في المسند.

أما المبطون، والمطعون، والغرقى، والحرقى، والهدمى فإنهم في حكم الشهداء لكنهم يُغسَّلون[١].

(٣) ولا يُغسَّل السِّقط إذا لم يبلغ أربعة أشهر.

*** مَنْ يُغسِّل الميت؟**

يُغسِّله أقرب أهله إليه كما فعل علي رضي الله عنه والعباس بالنبي ﷺ.

ويستحب في قريبه أن يكون خبيرًا بأمور الغسل عالمًا بها.

وهنا لا يجوز التذرع بالخوف، والتقزز، ورهافة الحس، وشدة الحزن من بعض الأقارب.

* فإن لم يكن فأهل الصلاح والتقوى ممن إذا رأوا خيرًا نشروه، وإذا رأوا شرًّا ستروه، لأن الميت قد يُرى منه خير وبشرى للجنة كما رأى علي رضي الله عنه من النبي ﷺ، وقد يُرى منه زرقة وسواد، وعبوس وبسر، ولذا فليُغسِّل المأمونون لا الجهال الذين احترفوا مهنة الغسل بعد أن لم يجدوا مهنة يمتهنونها؛ لأن هؤلاء أجهل الناس بالغسل وأحكامه لا يؤتمن أحدهم على نفسه فكيف يؤتمن على غيره؟!

*** مَنْ يُغسِّل مَنْ؟ ومَنْ لا يُغسِّل مَنْ؟**

(١) يجوز للرجل تغسيل زوجته:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه. فقال: **«بل أنا يا عائشة وا رأساه»**.

ثم قال: **«ما ضرَّك لو مِتِّ قبلي فقمت عليك فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك»**[٢].

وعن أم محمد عن جدتها أسماء بنت عميس رضي الله عنها أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أوصت أن تُغسِّلها إذا ماتت هي وعلي، فغَسَّلَتها هي وعلي[٣].

---

(١) «المجموع» (٥/ ١٤٤).

(٢) رجاله ثقات وهو صحيح: أحمد (٢/ ٢٢٨)، ابن ماجه (١٤٦٥).

(٣) صحيح: البيهقي (٣/ ٣٩٦).

(٢) ويجوز للزوجة تغسيل زوجها :

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنُجَرِّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[١].

وقيل: إن أبا بكر رضي الله عنه غسله نساؤه لما مات.

(٣) ولا يُغسِّل الرجل ابنته :

ففي حديث الباب أنه ﷺ لم يُغسِّل ابنته ولكن ترك أم عطية رضي الله عنها ونساء الأنصار يفعلن ذلك.

(٤) ويجوز للنساء تغسيل الصبي: كما قال بذلك ابن سيرين[٢].

* وإذا مات الرجل في وسط نساء فإما غسَّلنه وإما يممنه.

* ولو كان المُغسِّل جنبًا فليُغسِّل فلا حرج في ذلك كما قال النووي (٥/ ١٨٧) في المجموع.

*** جزاء مَنْ غَسَّل ميتًا وما يستحب له :**

جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ غَسَّل ميتًا فستره، ستره الله من الذنوب، ومَنْ كفَّنه كساه الله من السندس**»[٣].

أما ما يُستحب له:

* فقبل الغُسل: أن ينوي بعمله وجه الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا**

---

(١) حسن: ابن ماجه (١٤٦٤) في الجنائز.

(٢) صحيح: ابن أبي شيبة (٣/ ٢٥١) في «المصنف».

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦٤٠٣) في «صحيح الجامع».

﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥). وحديث: **«إنما الأعمال بالنيات»**.

* وأثناء الغُسل: أن يكتم على مَنْ يغسله فلا يتحدث بما رأى فيكون أمينًا، وأن يخلص في عمله. وسوف يأتي ما يجب عليه فعله بالميت.

* وبعد الغُسل: يستحب له الغُسل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«مَنْ غَسَّل الميت فليغتسل»**(١).

وقد حمل الألباني رحمه الله الحديث على الاستحباب؛ لحديث: **«ليس عليكم في غُسل ميتكم غُسل إذا غسلتموه، فإن ميتكم ليس بنجس، فحسبكم أن تغسلوا أيديكم»**(٢). ولحديث ابن عمر: «كنا نُغسِّل الميت فمنا مَنْ يغتسل ومنّا من لا يغتسل».

* **صفة غسل الميت:**

وعمدة الأمر في الغُسل هو حديث أم عطية الذي ذكرناه في أول الباب، وقد استُخلصت منه ومن عدة نصوص أخرى كيف يُغسَّل الميت، إضافة إلى ما أقره الشرع من بعض العادات التي لا حرج في فعلها. فنفعل الآتي:

(١) إغلاق الحجرة أو المكان الذي سيتم فيه الغسل، لأن الغسل لا بد أن يتم في مكان مستور بعيد عن أعين الناس لما قد يظهر من عورة الميت، أو ما يظهر على وجهه من علامات الرضا أو الغضب.

(٢) ويراعى في هذه الحجرة أن يكون لها منفذ هوائي مستور؛ (مثل الشباك الشيش في مصر مثلاً) ومنفذ آخر لتسريب المياه وطردها سريعًا.

(٣) وسيحتاج المغسل إلى من يعاونه، وهذ المعاون يشترط فيه ما اشترطناه في المغسل من الأمانة والكتم وابتغاء مرضاة الله تعالى.

(٤) ثم تطلق أعواد البخور في الحجرة، وإذا تعذر البخور فليكن هناك المسك من الزيوت وغيرها لأن في هذا فائدتين:

* الأولى: تطييب المكان لحضور الملائكة وطرد الشيطان.

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٤٠٢) في «صحيح الجامع»، وانظر «أحكام الجنائز» (صـ ٥٣).
(٢) حسن: كذلك قال الألباني (صـ ٥٣) في «أحكام الجنائز».

* الثانية: التغطية على أي رائحة خبيثة يمكن خروجها من الميت. وللأموات أحوال.

وقد أصاب سلمان رضي الله عنه صرة مسك واستودعها امرأته (بقيرة) فلما كان على فراش الوفاة أمرها أن تلقيه في الماء وتنضحه- ترشه- حول فراشه ثم قال: «إنه يأتينا الآن قوم ليسوا بإنس ولا جن»(١).

(٥) ثم نأتي بلوح خشبي، وهو الذي سيوضع عليه الميت، ويراعى فيه أن يكون فيه بعض الميل وفيه الفتحات التي ستنزل المياه سريعًا، والميل يساعد في الغسل وفي انصباب الماء.

(٦) ونبدأ في إنزال الميت من سريره ورفعه على لوحه الذي سيغسل عليه، وهذا كله بمنتهى الرفق؛ لأن الميت يشعر ويحس بكل شيء إلا أنه لا ينطق. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**كسر عظم الميت ككسر عظم الحي**»(٢).

فالحرمة واحدة، وما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه.

(٧) ثم يجرد الميت من ملابسه تمامًا مع وضع خرقة على عورته (من السرة إلى الركبة). وقد نهت السنة عن النظر إلى عورة الميت. ففي الحديث عند مسلم: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة**»(٣).

ويراعى في الخرقة الموضوعة على الميت أن تكون سميكة لا تلتصق بجسده بفعل الماء فتكشف عن عورته.

وعن محمد بن سيرين قال: «غسَّلت أنس بن مالك فلما بلغت عورته قلت لبنيه: أنتم أحق بغسل عورته دونكم فاغسلوها. فجعل الذي يغسلها على يده خرقة وعليها ثوب ثم غسل العورة من تحت الثوب»(٤).

(٨) وإذا كان الميت امرأة فينقض شعرها لأنه سيغسل ثم يلف بعد ذلك، ويلقى

---

(١) الطبراني (١/ ١٩٦، ٢٠٧) في «الكبير».

(٢) صحيح: أبو داود، وصححه الألباني (٢٣٣) في «أحكام الجنائز».

(٣) جزء من حديث صحيح رواه مسلم (٣٣٨/ ٧٤) في الإيمان.

(٤) حسن: قال الهيثمي (٣/ ٢٤) في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني، وإسناده حسن.

شعرها وراءها كما جاء في حديث أم عطية.

(٩) وربما كان الميت- في بعض الحالات- قد مرَّ عليه بعض الوقت وهنا ستواجه المغسل مشكلة تصلُّب بعض الأعضاء وتخشبها. ويتغلب على هٰذه المشكلة بالآتي:

يعطي الميت (حمامًا ساخنًا) كما يفعل الإنسان مع نفسه إذا كان في سفر بعيد وأصابه بعض الوسخ والتعب. وهذا الحمام سيلين الجسد ولكن مع اعتبار أن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحي، فسخونة الماء يتحملها المغسل نفسه فلا تقولن: هو ميت. فتؤذيه بسخونة الماء، وما قيل في سخونة الماء يقال في برودته، ولن يحتسب هذا الحمام من الغسل إذ هو عملية فك للعضلات فقط.

(١٠) ثم نبدأ في جلب الماء المعد خصيصًا للغسل، ويلف المغسل خرقة على يده اليسرى، ويبدأ في عصر بطن الميت مع وضع يده اليسرى أسفل دبر الميت.

وعصر البطن هنا إنما هو ضغط رقيق للغاية مع حني الميت حنيًا رفيقًا دون إجلاسه، فإن في إجلاسه أذىً شديدًا له كما يفعل بعض الجاهلين.

كل هذا والماء يصب فالوسخ ينزل سريعًا دون رؤياه والبخور مشتعل فلا تؤذي الرائحة.

ولكن ماذا إن كان الميت امرأة وفي بطنها حملٌ؟

لا يجوز عصر بطنها إن كان الحمل قد عرف بمعرفة الطبيب المسلم أنه لا يُرجى بقاؤه، ولكن إن رجي بقاؤه كأن يكون بلغ ستة أشهر فصاعدًا وبمعرفة الطبيب المسلم تُشق بطنها ويُخرج(١).

(١١) فالسنة في غسل الميت هو أن يبدأ بمواضع الوضوء منه، وأن يُغسَّل بالسدر أو ما في معناه إذا كان على بدنه شيء من الدرن أو الوسخ، ويسرح لحيته وشعره، ويُغسل وترًا، ويُجعل في الآخرة كافورًا ليكون أنقى لبدنه(٢).

وعن محمد بن سيرين: أنه كان يأخذ الغسل عن أم عطية، يغسل بالسدر مرتين

---

(١) «المغني» لابن قدامة (٢/ ٤٦٣).

(٢) البغوي (٥/ ٣٦) في «شرح السنة».

والثالثة بالماء والكافور[١].

(١٢) فمعنى هذا أننا سنقوم بعملية الوضوء أولاً للميت كما نوضئ الحي بالضبط، وذلك بعد نية المغسل وتسميته فكأنه هو المتوضئ والموضئ تقع النية عليه هو، وفي حديث أم عطية أنه ﷺ قال لها: «**ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها**».

وسيقوم المغسل بكل شيء في الوضوء إلا أمرين: المضمضة، والاستنشاق. لأنه إذا دخل الماء إلى الفم والأنف فسيتسرب إلى الجوف فيتسبب في عملية انتفاخ الجوف أو يتسرب بعد ذلك من دبر الميت فيفسد الكفن. وإنما يكتفى ببل خرقة وغسل أسنان الميت وأنفه بها وبرفق.

وهذه الغسلة هي بالماء القراح فقط دون أي إضافات؛ لأنها كغسل الجنب للطهارة ورفع الحدث، ويسن ما يسن في الوضوء من غسل الجبهة والكعبين ليظهر أثر الغرة والتحجيل.

(١٣) ثم يغسل شعر الميت ثلاثًا بثلاث حثوات من الماء بكفيِّ المغسل مثلما يفعل في غسل الجنابة تمامًا، ويمشط الشعر باليد ويعاد إلى الخلف هذا بالنسبة للرجل.

أما بالنسبة للمرأة فإن شعرها سيضفر (وسط، ويمين، ويسار) في ثلاث ضفائر وبدون تمشيط ثم يلقى شعرها وراء ظهرها كما فعلت أم عطية بأمره ﷺ لما قالت: «**فضفرناها ثلاثًا وألقيناه خلفها**».

(١٤) ثم يغسل الجانب الأيمن من الميت لقوله ﷺ: «**وابدأن بميامنها**». ثم الجانب الأيسر مع الظهر والدُّبر.

ويستحسن أن يوضع الميت على جنبه وبرفق حتى يتسنى غسل كل جنب من صفحة العنق وحتى إخمص القدم مع إدخال الماء في ثنايا اللحم وتحت الإبط وبين الفخذين ومواضع اللحم عمومًا.

(١٥) يكرر الغسل أكثر من مرة للتحقق من كفاية الماء وإيصاله لجميع الجسد. وذلك لقوله ﷺ: «**واغسلنها وترًا**». وما يؤخذ من ذقن الميت وشعره وأظافره يدفن معه، وإن

(١) قال السندي: ذكره صاحب «الزوائد» وقال: إسناده حسن، ورجاله ثقات، وهو عند ابن ماجه (١٤٦٤) في الجنائز.

كان بعضهم قد كره ذلك، وبعضهم أباح، ولا نرى ترجيحًا لأحدهما على الآخر.

(١٦) وكل الأموات الذين يغسلون سيغسلون غسلة ثانية بالماء والصابون، وثالثة بالماء والسدر أو الماء والكافور. وهاتان الغسلتان للنظافة وللتطييب.

(١٧) فإن لم تجد كافورًا ولا سدرًا فعليك بالمسك من (الزيوت) لا تذهب فتشتري (كولونيات أو برفانات) أو أي روائح كحولية وإياك ثم إياك.

والمحرم هو الوحيد الذي لا يطيب إذا مات لأنه يبعث محرمًا ملبيًا لقوله ﷺ في حديث البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«ولا تحنطوه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا»**. والحنوط: أخلاط الطيب التي توضع للميت.

(١٨) إذا حدث أن الميت خرج منه شيء بعد الغسل فلا يجب إعادة غسله، وإنما يكتفى بوضوئه فقط.

(١٩) ثم ترد الرجلان واليدان بالجنبين كما هو رأي الشافعية، وتصف القدمان (كوضع انتباه في العسكرية) ويلصق أحد الكعبين بالآخر ثم يُجفف الميت جيدًا.

(٢٠) هل يُخرج الميت من قبره ليُغسَّل إذا عُرِف أنه لم يُغسَّل قبل دفنه؟

رأى الجمهور أنه يُخرج ليُغسَّل؛ لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه ﷺ أتى قبر عبد الله بن أبي بن سلول بعدما أُدخل حفرته فأَمر به فأُخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه(١).

(٢١) وعند انعدام الماء تجري على الميت أحكام الحي فييمم. وكذلك مَنْ خيف عليه تقطع أوصاله من الماء كالغرقى والحرقى والهدمى ومن في حكمهم. والله أعلم.

(٢٢) ولكن هل يوضع شيء من آثار الصالحين أثناء الغسل؟

وعن أبي وائل قال: «كان عند عليٍّ مسك فأوصى أن يُحنَّط به وقال: هو فضل حنوط رسول الله ﷺ». وعن حميد قال: «لما تُوفي أنس جُعل في حنوطه مسك فيه من عرق رسول الله ﷺ»(٢). ولكن هل مثل رسول الله ﷺ الآن؟!

---

(١) البخاري (١٣٥٠) في الجنائز، مسلم (٢٧٧٣) في الفضائل.

(٢) «شرح السنة» (٥/ ٣١٨) للبغوي.

[٣] تكفين الميت

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كَفن أحدكم أخاه فَلْيُحْسِّن كَفنه**»(١).

❁ ❁ ❁

والكفن فرض كفاية بإجماع المسلمين. ومعناه: التغطية والستر.

والحكمة منه: أن الإنسان وهو حي قد ستر؛ فالأولى ستره وهو ميت.

وفي هذه الوصية أوصى النبي ﷺ بتحسين الكفن.

قال النووي رحمه الله: «وليس المراد بإحسانه السرف فيه والمغالاة ونفاسته، وإنما المراد نظافته ونقاؤه وكثافته وستره وتوسطه وكونه من جنس لباسه في الحياة غالبًا لا أفخر منه ولا أحقر»(٢).

ولن تنفع الميت جودة الكفن، وإنما يسلب سريعًا.

*** تكاليف الكفن على مَنْ تقع؟**

تعارف المسلمون على أن الكفن يشتريه صاحبه من ماله وهو حيٌّ، أو يشتريه أولياؤه بعد وفاته من ماله هو، حتى أن العلماء قالوا: بأن تجهيز الميت من تركته مقدمٌ على سداد دينه.

فإن لم يكن هناك من ماله ما يكفي لشراء كفنه، اشترى له الكفن مَنْ يلزمه نفقته من أهله.

أما المرأة فإنها إن ماتت كُفِّنت من مال زوجها على الأصح؛ لأن من حقوق المرأة على الزوج (**وكسوتهن بالمعروف**) كما في حديث حجة الوداع؛ فتكفن من مال

---

(١) صحيح: مسلم (٩٤٣/ ٤٩) في الجنائز.

(٢) النووي (٧/ ١١).

الزوج إلا إن كانت موسرة في بعض الأحوال فجُلب لها الكفن من مالها وتركتها[١].

والدليل على ذلك: أن مصعب بن عمير رضي الله عنه لما أدرك الشهادة في أُحد كما في رواية عبد الرحمن بن عوف[٢] رضي الله عنه لم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُردة- ثوب صغير أو ملاءة- إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه.

وفي رواية: «... فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه وأن نجعل على رجليه الإذخر»[٣]. نبات طيب الرائحة.

فدل هذا الحديث على أن الكفن إنما يُشترى من مال الميت نفسه.

* وقال ابن جريج عن عطاء: الكفن والحنوط من رأس المال.

* وقال إبراهيم النخعي: يبدأ- أي الوارث- بالكفن ثم بالدين ثم بالوصية[٤].

*** وشراء الكفن في الحياة أفضل:**

فقد روى سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببُردة منسوجة فيها حاشيتها- جديدة لم تقطع ولم تلبس- قالت: نسجتها بيدي؛ فجئت لأكسوكها؛ فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها؛ فخرج إلينا وإنها إزاره- ما يلبس في أسفل الجسد- فحسَّنها فلان فقال: اكسنيها ما أحسنها. قال القوم: ما أحسنت؛ لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها ثم سألته وعلمت أنه لا يرد! قال: إني والله ما سألته لألبسها؛ إنما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه[٥].

* أما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقد كان له جُبة من صوف أوصى أن يدفن فيها كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر[٦].

---

(١) «المجموع» (٥/ ١٨٨) للنووي مختصراً.

(٢) صحيح: البخاري (١٢٧٥) في الجنائز.

(٣) صحيح: البخاري (١٢٧٦) في الجنائز، مسلم (٩٤٠/ ٢٤) في الجنائز.

(٤) «فتح الباري» (٣/ ١٤١) لابن حجر.

(٥) صحيح: البخاري (١٢٧٧) في الجنائز.

(٦) «صفة الصفوة» (١/ ١٣٥)، الاستيعاب (٢/ ٦١٠).

* صفة الكفن (شكله وهيئته):

(أ) كفن الرجال:

(١) أن يكون أقصاه ثلاثة أثواب: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولية من كُرْسُف ليس فيها قميص ولا عمامة[(١)].

وسحولية: نسبة إلى قرية باليمن تسمى (سحول).

وكرسف: أي القطن الأبيض النقي.

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه نظر إلى ثوب عليه كان يُمرَّض فيه به ردغ من زعفران فقال: اغسلوا ثوبي هذا، وزيدوا عليه ثوبين فكفنوني فيهما. قلت: إن هذا خَلِق. قال: إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة[(٢)].

ولا يعارضه حديث جابر في الأمر بتحسين الكفن؛ فإنه يجمع بينهما بحمل التحسين على الصفة وحمل المغالاة على الثمن، ويحتمل أن يكون اختار ذلك الثوب بعينه؛ لكونه صار إليه من النبي ﷺ أو لكونه كان جاهد فيه أو تعبد فيه.

ويؤيده ما قاله أبو بكر رضي الله عنه: «كفنوني في ثوبيّ اللذين كنت أصلي فيهما»[(٣)].

* وقال ابن حجر: «ونقل ابن عبد البر الإجماع على أنه لا يجزئ ثوب واحد يصف ما تحت البدن»[(٤)].

(٢) أن يكون الكفن أبيض: كما في حديث كفن النبي ﷺ، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها من خير**

---

(١) صحيح: البخاري (١٢٦٤) في الجنائز، مسلم (٤٥/ ٩٤١) في الجنائز.

(٢) صحيح: البخاري (١٣٨٧) في الجنائز، والمهل: الصديد. والردع: أي اللطخ كما في اللسان (١٦٢٣).

(٣) رواه ابن حجر (٣/ ٢٩٨) في «الفتح»، وعزاه لابن سعد.

(٤) ابن حجر (٣/ ١٤١).

ثيابكم، وكفِنُوا فيها موتاكم»[١].

(٣) وأن تكون الثياب من الكُرسف: يعني من القطن.

(٤) ولا يكون فيها عمامة.

(٥) ولا قميص. وقال بعضهم: يجزئ إن لم يجد غيره، واستدلوا بحديث تكفين النبي ﷺ عبد الله بن أُبي بن سلول بقميصه كما روى البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) ويكون في الأكفان (حِبَرَة) على وزن: عِنَبَة. والحبرة: ثوب مخطط أو ملون.

وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا توفي أحدكم فوجد شيئًا فليكفن في ثوب حبرة»**[٢].

(٧) ويُجمّر الكفن: أي يُطيب. لحديثٍ حسنٍ عن جابرٍ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثًا»**. وإنما يكون بأعواد البخور لا بالنار؛ لأنه قادمٌ على ربه عز وجل.

وقالت أسماء بنت أبي بكر لأهلها: **«أجمروا ثيابي إذا مت»**[٣].

وقال بهذا أبو هريرة رضي الله عنه عند موته[٤].

والمحرم والشهيد إنما يكفنان في ثيابهما:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً كان مع النبي ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم فمات فقال رسول الله ﷺ: **«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تُخَمِروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا»**[٥].

وفيه أنه استبقى له شعار الإحرام من كشف الرأس، واجتناب الطيب، ولم يزده

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٩٩٩) في «سنن الترمذي».

(٢) صحيح: صححه الألباني (٦٣) في «أحكام الجنائز».

(٣)، (٤) مالك (١/ ٢٢٦) في «الموطأ».

(٥) صحيح: البخاري (١٢٥٦) في الحج، مسلم (٩٣/ ١٢٠٦) في الحج.

ثوبًا ثالثًا تكرمة له، كما استبقى للشهداء شعار الجهاد فلم يُغسلوا ودفنوا بدمائهم[١].

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟**». فإذا أشير له إلى أحدٍ قدمه في اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**». وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ولم يُغسَّلوا[٢]. وسبق حديث مصعب بن عمير رضي الله عنه ودفنه في ثوبه.

(ب) كفن المرأة:

قال البغوي: «وأما المرأة فقالوا: تكفن في خمسة أثواب؛ إزار وخمار وثلاث لفائف، وبعضهم يجعل إحدى اللفائف قميصًا»[٣].

وهذه الأثواب الخمسة هي: اللفافة- الإزار- الدرع- الخمار- وقماشة خامسة.

ويجزئ تكفين المرأة في ثلاث كالرجل، وإن كان المبالغة في سترها حية أو ميتة هو ما اجتمعت عليه كلمة المسلمين.

وإن كانت المرأة محرمة فإنه يجرى عليها أحكام المحرمة فلا تنتقب ولا تلبس القفازين.

وقد تنطع بعضهم وسأل: هل تكفن المرأة في الحرير لأنه جائز لها وهي حية؟

وهو جائز ولكن مع الكراهة لما فيه من الإسراف وتضييع الأموال[٤]، والأهم في الكفن الستر والكثافة وحسنه بما سبق أن فسرناه.

(جـ) كفن الصبي الصغير:

يعني الذي لم يبلغ الحلم، يجزئ فيه واحد. وقيل: كالكبير- أي كالبالغ- وهو رأي أحمد رحمه الله.

---

(١) البغوي (٥/ ٣١٢) في «شرح السنة».

(٢) صحيح: البخاري (٤٠٧٩) في المغازي.

(٣) البغوي (٥/ ٣١٣) في «شرح السنة».

(٤) «المجموع» (٥/ ١٩٧) للنووي.

(د) كفن السِّقط:

وهو الجنين الذي نزل قبل إتمام شهور الحمل مستبين الخلق؛ فيلف في خرقة ويدفن إن كان الذي تنزل بعض أعضائه، فإن وجد فيه الرأس كُفن في ثوب واحد[١].

*** كيفية التكفين:**

(١) تكفين الرجل:

قال الشيخ الألباني[٢] رحمه الله:

* تُبخَّر الأكفان بالطيب مرة أو ثلاثًا أو خمسًا (وترًا).

قلت (أبو أنس): ولا يجوز وضع الروائح الكحولية كالكولونيات وغيرها.

* ثم تؤخذ أكبر اللفائف وأحسنها وأوسعها فتبسط أولاً ليكون الظاهر للناس حسنها؛ فإن هذه عادة الحي يجعل الظاهر أفخر ثيابه، ويجعل عليها طيبًا.

* وتبسط فوقها الثانية التي تلي الأولى في الحسن والسعة عليها ويجعل عليها طيبًا كذلك.

* ثم تبسط الثالثة ويجعل فوقها طيبًا.

* ويجعل طيبٌ في رأس الميت ولحيته كما يفعل بالحي إذا تطيب.

* يلف الكفن عليه بأن يثنى من الثوب الذي يلي الميت طرفه الذي يلي شقه الأيسر على شقه الأيمن، والذي يلي الأيمن على الأيسر ثم يلف الثاني والثالث كذلك.

* يجمع الفاضل (الباقي) من الأكفان عند رأسه جمع العمامة.

* يُرد ما بقي على وجهه وصدره إلى حيث بلغ.

* ما فضل عند رجليه يُجعل على القدمين والساقين.

* تُشد الأكفان عليه بشِداد خفيف خيفة انتشارها- حلها وفكها- عند الحمل،

---

(١) «المجموع» (٥/ ١٩٨) للنووي.

(٢) انظر «أحكام الجنائز» (صـ ٦٥).

فإذا وضع في القبر حُلَّ الشداد.

وهذا لا خلاف عليه في الجملة بين الفقهاء.

(٢) تكفين المرأة:

تُبسط اللفافة والإزار، ثم توضع على الإزار، وتلبس الدرع وشعرها خلفها لا على صدرها كما هو حديث أم عطية، ثم يُعطف الإزار واللفافة كما في الرجُل، ثم الخرقة فوق ذلك، ثم تربط فوق الأكفان فوق الثديين والبطن.

قلت: وبعضهم يضع القطن في الأذن والأنف، ولم نر بأسًا في ذلك.

وهكذا أُعدَّ الميت للدفن.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ✿ يومًا على آلة حدباء محمول

✿ ✿ ✿

[٤] اتباع الجنازة وتشييع الميت والصلاة عليه

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معه حتى يُصلَّى عليها ويُفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أُحد، ومَنْ صلى عليها ثم رجع قبل أن تُدفن فإنه يرجع بقيراط»**(١).

❁ ❁ ❁

* **فضل اتباع الجنائز:**

(١) أنها حق من حقوق المسلم على المسلم:

وهذه الوصية واحدة من الواجبات والحقوق التي افترضها النبي ﷺ للمسلم على المسلم كما جاء في شرح وصية (حقوق الأخوة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»**(٢).

(٢) أنها تذكر الآخرة:

وجاء الأمر بها في حديث آخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«عودوا المريض واتبعوا الجنائز فإنها تذكركم الآخرة»**(٣).

فهي حق للمسلم على المسلم، وتذكير بالآخرة حيث يذكر الإنسان أنه وإن كان اليوم يحمل ميتًا فإنه غدًا على الأعناق ولا مراء محمول، فيستعد لمثل هذه اللحظة التي سيُحمل فيها هو الآخر لقبره ليُدفن فيه كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «كأنك

---

(١) صحيح: البخاري (٤٧) في الإيمان، مسلم (٥٢/ ٩٤٥) في الجنائز.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦٦، ٦٧) في أحكام الجنائز، و(٤١٠٩) في «صحيح الجامع».

بالموت وقد خطف ثم عاد إلى الباقي وعطف؛ فتنبه لنفسك يا ابن النُطف؛ فقد حاذى الرامي الهدف»(١).

فيا غافلاً عن الموت وقد لدغه، أخذ قرينه فقتله ودمغه، كم رأيت مغرورًا قبلك؟! وكم شاهدت منقولاً مثلك؟!

وها هو عمر بن عبد العزيز في خطبة هي من درره راح يقول:

«... في كل يوم وليلة تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدعٍ من الأرض في بطن صدع، ثم تدعونه غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب، وخلع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب مرتهنًا بعمله، فقيرًا إلى ما قدم، غنيًّا عما ترك؛ فاتقوا الله قبل نزول الموت»(٢).

ورحم الله مَنْ قال: «قد أراك مصرع غيرك مصرعك».

(٣) أنها سبب من أسباب دخول الجنة:

وقد سبق حديث: «...فمن تبع منكم اليوم جنازة؟. فقال أبو بكر: أنا. فقال ﷺ: «ما اجتمعن في رجل إلا أدخلنه الجنة».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**خمسٌ مَنْ عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: مَنْ عاد مريضًا، وشهد جنازة، وصام يومًا، وراح إلى الجمعة، وأعتق رقبة**»(٣).

(٤) أن لصاحبها قيراطًا في الجنة أو قيراطين:

وهذا طبقًا لحديث الباب، ولهذا الحديث قصة؛ فقد ذكر أبو هريرة رضي الله عنه هذا الحديث فقال الناس: أكثر أبو هريرة علينا. يعني من الحديث. وكان في حضرة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة»(٤).

وفي رواية: قال ابن عمر لأبي هريرة: «كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه». والقيراط: مثل جبل أُحد.

---

(١) «المدهش» (صـ ١٧٤).

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٣٥٥) لابن الجوزي.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦٨٦) في «صحيح الترغيب».

(٤) صحيح: البخاري (١٣٢٣، ١٣٢٤) وزاد البخاري: فرطت: ضيعت من أمر الله.

وهذا الحديث يعني أن اتباع الجنائز على مرتبتين:

الأولى: اتباع الجنازة حتى دفنها. وهذا له قيراطان من الأجر.

الثانية: اتباع الجنازة حتى الصلاة عليها. وله قيراط من الأجر.

والمرتبة الأولى أفضل من الثانية لأن الأجر قد زاد فيها.

وقد فعل النبي ﷺ الأمرين كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: «كنا مقدم النبي ﷺ المدينة إذا حُضر منا الميت آذنَّا النبي ﷺ - أعلمناه- فحضره واستغفر له حتى إذا قُبض انصرف النبي ﷺ ومَنْ معه حتى يدفن، وربما طال حبس ذلك على النبي ﷺ ومَنْ معه، فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم بعضهم لبعض: لو كنا لا نؤذن النبي ﷺ حتى يقبض، فإذا قبض آذنَّاه، فلم يكن عليه في ذلك مشقة ولا حبس، ففعلنا ذلك، وكنا نؤذن بالميت بعد أن يموت، فيأتيه فيصلي عليه، فربما انصرف، وربما مكث حتى يدفن الميت. فكنا على ذلك حينًا، ثم قلنا: لو لم يشخص النبي ﷺ، وحملنا جنازتنا إليه حتى يصلي عليه عند بيته لكان ذلك أرفق به، فكان ذلك الأمر إلى اليوم»(١).

ولكن يبقى الأمر باتباع الجنائز. كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه: **«أمرنا رسول الله باتباع الجنائز»**(٢).

الإسراع بالجنازة وحملها:

وعن حصين بن وحْوحَ رضي الله عنه، أن طلحة بن البراء بن عازب رضي الله عنهما مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: **«إني لا أُرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت؛ فآذنوني به، وعجلوا به؛ فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تُحبس بين ظهراني أهله»**(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أسرعوا بالجنازة؛ فإن تك صالحة فخيرٌ تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشرٌ تضعونه عن رقابكم»**(٤).

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٧) في «أحكام الجنائز».

(٢) صحيح: البخاري (١٢٣٩) في الجنائز، مسلم (٢٠٦٦) في السلام.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٥١١) (٣١٥٩) في الجنائز باب «تعجيل بالجنازة وكراهية حبسها».

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٨) (١٣١٥)، ومسلم في الجنائز باب الإسراع بالجنازة (٢/ ٦٥٢) =

والحاصل أنه يستحب الإسراع لكن بحيث لا ينتهي إلى شدة يُخاف معها حدوث مفسدة للميت، أو مشقة على الحامل أو المشيع؛ لئلا ينافي المقصود من النظافة وإدخال المشقة على المسلم(١).

ومقصود الحديث أن لا يتباطأ بالميت عن الدفن، ولأن التباطؤ ربما أدى إلى التباهي والاختيال(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة، قالت: قدموني. وإن كانت غير صالحة، قالت لأهلها: يا ويلها أين تذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق**»(٣).

وعن الحارث بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمتي في مُسكة من دينها ما لم يكلوا الجنائز إلى أهلها**»(٤).

ومما يُستفاد من الأحاديث السابقة:

* أن الجنازة يحملها الرجال على الأعناق.

* وأن النساء لا يحملن الجنازة ولا يشتركن في ذلك ولكن لماذا لا تحمل النساء الجنازة؟

- أولاً: لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك كما في حديث أم عطية الأنصارية التي قالت: «نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا»(٥).

- وثانيًا: لأن النساء لو حملن الجنازة لأفضى ذلك إلى اختلاطهن بالرجال

= (٥١) (٩٤٤)، وأبو داود (٣/ ٥٢٣) (٣١٨١)، والترمذي (٤/ ٩٤) (١٠٢٠)، والنسائي (٤/ ٤٢)، وابن ماجه (١/ ٤٧٤) (١٤٧٧)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٢٤) (١٤٨١).

(١) قاله الحافظ في الفتح (٣/ ٢١٩).

(٢) ذكره الحافظ في الفتح (٣/ ٢١٩) نقلاً عن القرطبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٢٠) (١٣١٦)، والنسائي (٤/ ٤١).

(٤) أخرجه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٣/ ٣٥)، وقال الهيثمي: «رجاله ثقات»، ورواه أحمد (٤/ ٣٤٩)، ومسكة أي بقية، لسان العرب (ص ٤٢٠٤).

(٥) صحيح: البخاري (١٢٧٨) في الجنائز، مسلم (٩٣٨) في الجنائز.

فحدثت الفتنة.

- وثالثًا: فإن الله تعالى قد عذر النساء في ذلك لضعفهن[١].

- ورابعًا: ونزيد أنه ربما حدث من النساء ما حرمه الشرع من النواح، والصراخ، والعويل.

* الإسراع بالجنازة وعدم الإبطاء بها. والإسراع معناه: الرَّمَل. وهو السير فوق المعتاد ودون الهرولة.

* وحمل الجنازة حمل على الأكتاف بواسطة الرجال لا العربات:

وإلا ففي حملها في السيارات وعلى الدواب مضارٌ منها:

(١) أنها عادة الكفار، ويجب مخالفتهم.

(٢) وأن الجنازة يتعبد باتباعها وحملها؛ فلا يجوز المخالفة في العبادة وإلا صارت بدعة.

(٣) وسيتسبب هذا في قلة عدد المشيعين، والميت في حاجة إلى عدد وافر من المسلمين؛ ليشهدوا له عند الله تعالى.

فالأمر إذن مقيد بالضرورة، فإذا حملت الجنازة لمسافات بعيدة أو شق حملها على الأكتاف.

*** المشيعون في الجنازة:**

ونقصد هنا: أين يمشي الذين يتبعون الجنازة؟

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنتم مشيعون، وامش بين يديها، وخلفها، وعن يمينها، وعن شمالها». وقال غيره: قريبًا منها[٢].

وقال أنس أيضًا: «إن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يمشون أمام الجنازة وخلفها»[٣].

---

(١) «الفتح» (٣/ ١٨٢).

(٢) علقه البخاري: باب (٥١) في الجنائز، ووصله الحافظ (٣/ ١٨٣) في «فتح الباري».

(٣) صححه الألباني (صـ ٧٥) في «أحكام الجنائز».

وهذا يقتضي أن متبع الجنازة يسير إما: خلف الجنازة، أو أمامها، والسير خلفها أفضل؛ لقوله ﷺ: **«واتباع الجنائز»**.

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «المشي خلف الجنازة أفضل من المشي أمامها، كفضل صلاة الرجل على صلاته فذًّا - فردًا-»(١).

ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي أبدًا.

إلا أن الراكب في الجنازة يسير خلفها، والماشي حيث يشاء؛ كما جاء في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«الراكب خلف الجنازة، والماشي حيث شاء منها، والطفل يصلى عليه»**(٢).

فإذًا يتضح الآتي:

* يجوز الركوب في الجنازة كمشيع، والأفضل عدم الركوب، يقيد ذلك حديث ثوبان رضي الله عنه أنه ﷺ أُتي بدابة وهو مع الجنازة فأبى أن يركبها، فلما انصرف أُتي بدابة فركب، فقيل له، فقال: **«إن الملائكة كانت تمشي فلم أكن لأركب وهم يمشون فلما ذهبوا ركبت»**(٣).

* والمشي في الجنازة خلفها أفضل.

* ويجوز المشي أمامها وبين يديها.

* **آداب اتباع الجنائز:**

(١) **عدم اتباعها بنار:** كما جاء في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لولده: «فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار»(٤).

وهذا يعني أنه لا يذهب مع الجنازة أو يتبعها:

---

(١) صحيح: أحمد (١/ ٩٧) برقم (٧٥٤) في «المسند» بتحقيق شاكر، وقد رواه الهيثمي (٣/ ٣٠، ٣١) في «مجمع الزوائد» وقال: «رواه أحمد، والبزار باختصار، ورجال أحمد ثقات».

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٠٣١) في «سنن الترمذي»- كتاب الجنائز- ط الرياض.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٩٧) في «أحكام الجنائز».

(٤) صحيح: مسلم (١٢١) في الإيمان.

* المشاعل.

* الشموع.

* ولا تضاء فوانيس السيارات كما يفعل بعضهم.

فإن قيل: الجنازة ستخرج ليلاً. فهناك: (الكلوبات- والمصابيح- والقناديل).

(٢) الصمت عند اتباع الجنائز:

والجهل كثير؛ مثل: (وحدوه)، (اذكر الله)، حتى أن أحدهم يرى الجنازة صامتة فيظن ذلك عيبًا؛ فيصيح بهذه الألفاظ التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وأجهل منه من يقرءون سورة يس، وسورة الإخلاص. فقد كان أصحاب النبي ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الجنائز.

وقال النووي في الأذكار: «واعلم أن الصواب المختار، وما كان عليه السلف رضي الله عنهم السكوت في حال السير؛ فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك، والحكمة فيه ظاهرة؛ وهي أنه أسكن لخاطره، وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال، فهذا هو الحق، ولا تغتر بكثرة من يخالفه، فقد قال أبو علي الفضيل بن عياض ما معناه: الزم طرق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين»(١).

ولأن عادة النصارى قراءة أناجيلهم وأذكارهم مع التمطيط فيه، وأسوأ منه الفرق الموسيقية التي تشيع بعض الجنازات الرسمية!!(٢).

(٣) عدم النياحة عليها: وسوف يأتي الحديث مفصلاً عنها.

(٤) عدم جلوس المشيعين للجنازة قبل أن توضع، وقيام من تمر عليه الجنازة: فقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع**»(٣).

وإن كان النووي قد نقل عن مالك وأبي حنيفة والشافعي أن القيام للجنازة

---

(١) «الأذكار» (صـ ١٨٠) للنووي.

(٢) «أحكام الجنائز» (صـ ٧١، ٩٢).

(٣) صحيح: البخاري (١٣٠٧) في الجنائز، مسلم (٩٥٨) في الجنائز.

منسوخ بحديث علي رضي الله عنه أنه قال: «رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا، وقعد فقعدنا- يعني في الجنازة»[١].

وقال أحمد: «هو مخير». يعني بين القيام والقعود.

* **الصلاة على الميت (صلاة الجنازة):**

(١) **وهي صلاة لا ركوع فيها ولا سجود:** وإنما هي أربع تكبيرات سيأتي تفصيلها.

(٢) **وهي فرض كفاية:** إذا صلاها بعض المسلمين سقطت عن الآخرين؛ إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّيْن فيسأل: «**هل ترك لدينه فضلاً؟**». فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى، وإلا قال للمسلمين: «**صلوا على صاحبكم**»[٢].

فإذًا لم يصل على الميت، لكنه جعل المسلمين يصلون عليه، ولو كانت فرض عين لصلى عليه السلام على كل ميت.

(٣) **فضائل صلاة الجنازة:** فهي خيرٌ للمصلي، والمُصلَّى عليه.

* وقد جاء في الحديث- حديث الباب- أن للمصلي على الجنازة مع اتباعها قيراطان من الأجر، فإن تبعها حتى تدفن فله قيراطان.

* وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه**». وفي الباب عن أنس بن مالك رضي الله عنه[٣].

* وفي رواية ابن عباس مرفوعًا: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**»[٤].

(٤) **وصلاة الجنازة على كل مسلم:** فمن عليه دَيْن قال النبي ﷺ: «**أنا أولى**

---

(١) صحيح: البخاري (١٣١٢) في الجنائز، مسلم (٩٦٢/ ٨٢) في الجنائز، والنووي (٤/ ٥١) على «شرح مسلم».

(٢) صحيح: البخاري (١٢٥١).

(٣) صحيح: مسلم (٩٤٧/ ٥٨) في الجنائز.

(٤) صحيح: مسلم (٩٤٨/ ٥٩) في الجنائز.

بالمؤمنين من أنفسهم؛ فمن توفي وعليه دَيْن فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته»[١].

فنسخ ما كان يفعله من عدم الصلاة على المدين.

أما قاتل نفسه: امتنع النبي ﷺ عن الصلاة عليه، ولكنه لم يمنع المسلمين عن ذلك.

وأهل البدع والكبائر: وعن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه قال: «ما كنت أدع الصلاة على أحد من أهل هذه القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأني لم أسمع الله يحجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١١٣)»[٢].

وإن كان النووي رحمه الله قد قال: «مذهب العلماء كافة الصلاة على كل مسلم، ومحدود، ومرجوم، وقاتل نفسه، وولد الزنا... ويتجنب أهل الفضل والصلاح الصلاة على قاتل نفسه».

والغائب: صلى عليه النبي ﷺ كما صلى على النجاشي وكبر عليه أربعًا[٣].

وضعفاء المسلمين: يصلى عليهم؛ كما صلى على الأسود- رجلاً أو امرأة- كان يكون في المسجد يقم المسجد، فمات ولم يعلم النبي ﷺ بموته، فذكره ذات يوم فقال: «**ما فعل ذاك الإنسان؟**». قالوا: مات يا رسول الله. قال: «**أفلا آذنتموني؟**». فقالوا: إنه كان كذا وكذا. قال: فحقروا شأنه. قال: «**دلوني على قبره**». فأتى قبره فصلى عليه[٤].

والأطفال: يصلى عليهم، كما في حديث: «**والطفل يصلى عليه**». وقد سبق.

وقال بعضهم: لا يصلى على السِّقط إن لم يستهل صارخًا.

(٥) **ولا يصلى على الكافر، وشهيد المعركة**: كما في رواية البخاري عن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ دفن شهداء أحد، ولم يغسلوا، ولم يُصل عليهم[٥].

---

(١) صحيح: البخاري (٢٢٩٨)، مسلم (١٦١٩).

(٢) «جامع البيان» للطبري (١١/ ٣٣).

(٣) صحيح: البخاري (٣٨٧٩)، مسلم (٩٥٢/ ٦٤) في الجنائز.

(٤) صحيح: البخاري (١٣٣٧)، مسلم (٩٥٦) في الجنائز.

(٥) صحيح: البخاري (١٣٤٣) في الجنائز.

وإن كان بعضهم قد قال بالصلاة على شهداء المعارك كما روي ذلك عن أبي حنيفة رحمه الله.

(٦) كيفية صلاة الجنازة:

(أ) النية أولاً لمن حضر للصلاة، وتكفي نية الصلاة على من حضر من أموات المسلمين دون تعيين، والنية ركن من أركان هذه الصلاة.

(ب) توضع الجنازة أمام الإمام؛ يعني بينه وبين القبلة، فإذا كان رجلاً وقف بحذاء رأسه، وإن كانت امرأة وقف بحذاء وسطها.

فإن كثرت الجنازات فتوضع النساء خلف القبلة، والرجال أمام الإمام، ويجوز الصلاة على كل جنازة على حدة، والمصلون وراء الإمام صفوفًا أقلها ثلاثة صفوف.

(جـ) ويبدأ الإمام في التكبير بعدد أقله أربعًا وأكثره ستًّا.

فقد روى البخاري عن جابر رضي الله عنه كما سبق أنه ﷺ كبر على النجاشي أربعًا.

وروى مسلم أن زيد بن أرقم رضي الله عنه كبر خمسًا، وأخبر أن النبي ﷺ فعل ذلك[١].

وكان علي رضي الله عنه قد كبر ستًّا على سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(د) ثم تقرأ الفاتحة في التكبيرة الأولى، وهي التكبيرة التي سيرفع فيها يداه فقط[٢]، ومعلوم أنه لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «صليت خلف ابن عباس على جنازة، فقرأ فاتحة الكتاب، فقال: ليعلموا أنها سنة»[٣].

(هـ) ثم يصلي على النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...) كما هي في آخر التشهد في التكبيرة الثانية.

---

(١) صحيح: مسلم (٩٥٧) في الجنائز.

(٢) صحيح: ابن أبي شيبة في «المصنف».

(٣) الألباني (١٤٨) في أحكام الجنائز.

قلت: ويفعل جهال المسلمين أمرًا ما أنزل الله به من سلطان؛ فيرفعون أصواتهم بالتكبير كما في صلاة العيد، وهو أمر باطل شرعًا.

(و) وفي التكبيرة الثالثة يدعو للميت. وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه وهو يقول: «**اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر - أو من عذاب النار-**». قال: حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت[١].

(ز) ثم يدعو لنفسه ولجماعة المسلمين في سره دون الجهر بهذا.

(حـ) ثم يسلم يمينًا ويسارًا، والمسبوق لا يقضي ما فاته في بعض الأقوال.

ثم يعد الميت للدفن بعد ذلك.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح: مسلم (٩٦٣/ ٨٥) في الجنائز.

[٥] دفن الميت وما ينفعه بعد موته

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**اَلَّلحْدُ لنا، والشَّقُ لِغَيْرِنا**»(١).

❁ ❁ ❁

وقد جاءت اللحظة التي سيوارى فيها الثرى ميتًا لطالما كان حيًّا يسير على الأرض، إلا أنه الآن قد عاد إلى مضجعه الأخير، ومثواه الذي سيبعث منه يوم القيامة، وهذه مرحلة (الدفن).

* **حكم الدفن:**

واجب على المسلمين وإن كان الميت كافرًا.

وحمله الفقهاء على أنه فرض كفاية بالإجماع.

* فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فالكرامة الممنوحة هنا للمسلم والكافر على حد السواء.

* وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (عبس: ٢١).

فكانت الكرامة بدفن الميت من بني البشر.

* وقد روى البخاري ومسلم عن أبي طلحة رضي الله عنه أنه ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوىً من أطواء بدر. أي بئر من آباره(٢).

وقد دفن صحابة النبي ﷺ في مكان آخر رغم وجود المعركة في بدر، وهذا يعني أن المسلم لا يدفن مع الكافر حتى لا يؤذيه بعذابه.

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٥٤٨٩) في «صحيح الجامع»، و(صـ ١٤٤) في «أحكام الجنائز».
(٢) صحيح: البخاري (٣٩٧٦)، مسلم (٢٨٧٥) في الجهاد والسير.

* **الحكمة من الدفن:**

(١) أنه تعليم إلهي؛ فإن الله عز وجل هو من ألهم بني البشر كيف يدفنون موتاهم؛ فقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة: ٣١).

(٢) إقرار لكرامة بني آدم، وعدم هتك سترهم أمواتًا، وقد سترهم الله أحياءً.

(٣) عدم تأذي الناس برائحة الجثة التي تصير جيفة بعد ثلاثة أيام فتؤذي الناس برائحتها، وتصبح نهبة للجوارح والكواسر، وتقلق بني البشر من أن يلقوا هذا المصير.

* **حالة نادرة الحدوث:**

لو ماتت امرأة غير مسلمة، وزوجها مسلم، وفي بطنها جنين، فكيف تدفن؟

قال العلماء: الجنين مسلم، ولذا لا تدفن بمقابر المسلمين، ولا تدفن بمقابر المشركين، ولكن تدفن في مكان وسط، لأنها لو دفنت في مقابر المسلمين لآذتهم بعذابها، ولو دفنت في مقابر المشركين لآذت صغيرها بعذابها، ولكن يكون دفنها كالآتي:

يكون ظهرها للقبلة، لأن الطفل وجهه في ظهرها، فيكون وجهه للقبلة وعلى جنبه الأيمن[١].

* ويستثنى من الدفن في المقبرة شهداء المعركة لأنهم يدفنون في ساحة استشهادهم، كما أمر النبي ﷺ في كل معاركه بدفن الشهداء في أماكنهم، فلم يرد أنه صحب شهيدًا معه إلى المدينة، ولذا فهناك (شهداء أحد) رغم قربهم من المدينة إلا أنهم دفنوا في المكان الذي قتلوا فيه.

وفي أحداث غزوة أُحد أن عمة جابر بن عبد الله رضي الله عنهم جاءت بأبيه وخاله لتدفنهما في المقابر وقد استشهدا إلا أن منادي النبي ﷺ نادى: «ألا إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت»[٢]. ففعلوا.

---

(١) «المغني» لابن قدامة (٢/ ٥٦٣).

(٢) صحيح: أبو داود (٣١٤٩) وصححه الألباني هناك.

*** أوقات لا يدفن فيها الميت إلا لضرورة:**

(١)، (٢)، (٣) وقت طلوع الشمس، واستوائها، وغروبها[١].

وقد جاء ذلك في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن أو نقبر موتانا؛ حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيَّف- تميل- الشمس للغروب حتى تغرب».

وهي أوقات يدني فيها الشيطان رأسه من الشمس؛ ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة، وحينئذٍ يكون له ولبنيه تسلط ظاهر، وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم، فكرهت الصلاة حينئذٍ صيانة لها، كما كرهت في الأماكن التي هي مأوى الشيطان[٢].

(٤) وينهى عن الدفن ليلاً إلا لضرورة كالحر، أو بعد المسافة، أو الخوف على الجثة عمومًا.

ففي حديث جابر أنه ﷺ زجر أن يقبر الرجل بالليل حتى يصلى عليه إلا أن يضطر إنسان لذلك[٣].

وذلك؛ لأن الدفن نهارًا يحضره كثيرون من الناس ويصلون عليه، ولا يحضره في الليل إلا الأفراد[٤]، وإن كان ﷺ قد أدخل رجلاً قبره ليلاً، وأسرج في قبره، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما[٥].

*** الصفة الشرعية للقبر:**

أقل القبر حفرة عميقة تفيد الآتي:

* ستر الميت.

---

(١) صحيح: مسلم (٨٣١) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) النووي (٣/ ٣٣٩) على «شرح مسلم».

(٣) صحيح: مسلم (٩٤٣) في الجنائز.

(٤) النووي (٤/ ٣٢) على «شرح مسلم».

(٥) قال الألباني (١٤٢) في «أحكام الجنائز»: موضع الشاهد منه حسن.

* عدم انبعاث رائحة جيفته منها.

* عدم قدرة السباع والحيوانات على نبشها.

وأكمل القبر: اللحد الذي ذكره النبي ﷺ في حديث الباب، وهو عبارة عن حفرة جانبية في القبر تكون ناحية القبلة، ويصبح القبر فيها كالبيت الذي ينصب عليه اللبن، وهو الذي دفن فيه النبي ﷺ.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مرضه الذي هلك فيه: «**الحدوا لي لحدًا، وانصبوا عليّ اللبن نصبًا، كما صُنع برسول الله** ﷺ»(١).

وتُستحب في القبر أمور، وتكره أخرى.

*** فالمستحب في القبر:**

(١) توسعته، وإعماقه، وتحسينه:

وعن هشام بن عامر قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقالوا: أصابنا قرح وجهد؛ فكيف تأمرنا؟ قال: «**احفروا وأوسعوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر**». قيل: فأيهم يُقدم؟ قال: «**أكثرهم قرآنًا**»(٢).

(٢) وتكون التوسعة من عند الرأس، ومن عند الرجلين:

كما في حديث رجل من الأنصار- وجهالة الصحابي لا تضر- أنه ﷺ قال: «**أوسع من قِبل الرأس، وأوسع من قبل الرجلين، فلرب عذق له في الجنة**»(٣).

(٣) جعل القبر مسنمًا:

أي مرفوعًا كسنام الجمل بمقدار شبر، كما قال سفيان التمار: «رأيت قبر النبي ﷺ مسنمًا»(٤).

وفي حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: «إن النبي ﷺ أُلحد له لحد، ونصب

---

(١) صحيح: مسلم (٩٠/٩٦٦) في الجنائز.

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٧٦٦) في الجهاد من «سنن الترمذي». والقرح: الجهد والمشقة.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٣٣٣٢) في «سنن أبي داود»، و(٢/٣٨٣) في «الصحيحة»، وقال: هذا سند صحيح.

(٤) صحيح: البخاري (١٣٩٠) في الجنائز.

عليه اللبِن نصبًا، ورفع قبره من الأرض نحو شبر»[١].

(٤) ويعلم القبر بحجر أو نحوه:

وذلك لفعله ﷺ لما مات عثمان بن مظعون ودفنه، فجاء بحجر حمله ثم وضعه عند رأسه وقال: «**أتعلَّم بها قبر أخي، وأدفن إليه مَنْ مات مِنْ أهلي**»[٢].

*** والمكروه في القبر:**

تعليته، وبناؤه، وتجصيصه، والقعود عليه.

* وهو ما يفعله المسلمون الآن، فيتباهون بالبناء على القبور، وتعليتها، وتجصيصها؛ أي: طلائها بالجص وهو الجير[٣]، والقعود عليها، بل وسكناها أيضًا.

وهذه أحاديث تنهى عن هذه الأمور:

* وعن ثمامة بن شفي قال: «كنا مع فضالة بن عبيد رضي الله عنه بأرض الروم برودِس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها»[٤].

* وعن أبي الهياج الأسدي رضي الله عنه قال: «قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[٥].

* وعن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه»[٦].

---

(١) حسن: البيهقي (٣/ ٤١٠).

(٢) حسن: البيهقي (٣/ ٤١٢).

(٣) «لسان العرب» (صـ ٦٣٠).

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز- باب الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦) (٩٢) (٩١٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٦) (٩٣) (٩٦٩)، أبو داود (٣/ ٥٤٨) (٣٢١٨).

(٦) أخرجه مسلم في الجنائز- باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه (٢/ ٦٦٧) (٩٤) (٩٧٠). والتجصيص: يقال: جصص الحائط وغيره: طلاه بالجص، والجص: الذي يطلى به. (لسان العرب (صـ ٦٣٠).

*** وهذه هي صفة قبر النبي ﷺ وصاحبيه:**

وعن القاسم رضي الله عنه قال: «دخلت على عائشة فقلت: يا أمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا مشرفة، ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء»(١).

واللاطئة: هي اللاصقة بالأرض.

والمشرفة: هي العالية.

والمقصود أنها كانت مسنمة بعلو شبر واحد فوق الأرض، فتأمل وتدبر.

*** مَنْ يقوم بعملية الدفن؟**

الرجال هم من يقومون بدفن الميت عمومًا، ولا تلي النساء الدفن أبدًا، لأنه قد حرم عليهن اتباع الجنازات أصلاً، ويقال هنا ما قيل في عدم جواز حملهن للجنازة، فارجع إلى هناك.

*** ولكن مَنْ يدفن الرجل؟**

أولياؤه أولاً؛ كابنه، وأبيه، وأخيه، ثم ذوو الأرحام؛ لقوله تعالى: **﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** (الأنفال: ٧٥). ولأن عليًّا رضي الله عنه والعباس هم مَنْ تولوا دفن النبي ﷺ.

فإن لم يكن فجاره، أو أولو العلم، وأهل التقوى.

*** وبالنسبة لدفن المرأة مَنْ يتولاه؟**

(١) محارمها كما قيل في الرجال.

(٢) زوجها. فالزوج يُغسل كما سبق أنه ﷺ أخبر عائشة فقال: **«وددت أن ذلك كان وأنا حي، فهيأتك، ودفنتك..»**.

(٣) ويشترط عمومًا فيمن سيدفن ألا يكون قد قارف- يعني جامع أهله- ولو كان الرجل أجنبيًّا عن الميت، فقد روى أنس رضي الله عنه فقال: «شهدنا بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالسٌ على القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال:

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٢٠) في الجنائز.

«هل فيكم من أحدٍ لم يقارف الليلة؟». فقال أبو طلحة: أنا. فقال ﷺ: **«فانزل في قبرها»**. فنزل في قبرها فقبرها»[(١)].

*** إدخال الميت إلى قبره (كيفية الدفن):**

(١) يدخل الميت من جهة رجلي القبر:

وعن أبي إسحاق قال: «أوصى الحارث أن يصلي عليه عبد الله بن يزيد، فصلى عليه ثم أدخله القبر من قبل رجلي القبر، وقال: هذا من السنة»[(٢)].

(٢) ويجعل الميت على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة: وهو فعل المسلمين إلى وقتنا.

(٣) ويقول: بسم الله وعلى سنة رسول الله ﷺ، كما هو الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما[(٣)].

(٤) وإذا كان الميت امرأة فيستر القبر: صيانة لها عن إظهار شيء من عورتها.

(٥) ثم يحثو على القبر ثلاث حثوات من التراب بيديه: كما فعل النبي ﷺ[(٤)].

(٦) ويرفع القبر ويعلم بالشروط التي ذكرناها.

(٧) ثم ينضح عليه الماء إن شاء.

(٨) وتستحب عدة أمور:

(أ) وضع حجرة تحت رأس الميت، وتكون لبنة لا آجر (والآجر هو الطوب الموضوع في النار) وتوضع أخرى على خده لئلا يقع على قفاه، وكرهَ العلماء الآجر لأنه دخل النار فيتشاءم به، كما يستحب شن التراب بكثرة على الميت.

(ب) ويستحب وضع شيء من آثار الصالحين كما فعل الصحابة بآثار النبي ﷺ، ولكن مَنْ مثل رسول الله ﷺ؟!

(جـ) يفك الشداد الذي ربط به كفن الميت قبل أن يوضع في المدفن.

---

(١) صحيح: البخاري (١٣٤٢) في الجنائز.
(٢) صحيح: أبو داود (٣١٩٥) في الجنائز، وصححه الألباني هناك.
(٣) صحيح: أبو داود (٣٢١٣) في الجنائز.
(٤) صحيح: صححه الألباني (٧٥١) في «الإرواء» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(د) لا يستر قبر الرجل أثناء الدفن.

(هـ) ولا يقرأ عليه أحدهم القرآن، والسبع سور، وذبح البقر والعجول من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان!!

(٩) ما بعد الدفن:

(أ) الاستغفار للميت، وسؤال التثبيت له:

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت فإنه الآن يُسأل**»[١].

وفي هذا الحديث دلالة على مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه، وسؤال التثبيت له؛ أي: أن يثبته الله في الجواب[٢]، ولكن لا يعظون كما يحدث اليوم على القبور فهي بدعة.

وهذا الدعاء والاستغفار حدده المسلمون من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي رواه عن أبيه عمرو في وصيته، فقال له: «...فإذا دفنتموني فشنوا عليّ التراب شنًّا- يعني صبوه- ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[٣]. والجزور: الإبل.

ولا يجوز أن يقف أحدهم ليقول: «يا فلان ابن فلان سيأتيك ملكان يقولان لك..». ثم يكمل.

أو أن يقف أحدهم ليذكر ويعظ عن الموت وكرباته، وسكراته، وشدائده، وأهواله، وللأسف إن بعضهم ممن يدعي انتسابًا للعلم يفعل ذلك بجهل، أو بتجاهل منه لأمر الله عز وجل.

(ب) العزاء:

وإنما شرع العزاء لتسلية أهل الميت والتخفيف عنهم، وتوصيتهم بالصبر على أقدار الله، والرضا بها صيانة وحماية للمسلم من الوقوع في كلمات الشرك،

---

(١) صحيح: أبو داود (٣٢٢١) وصححه الألباني هناك.

(٢) «معالم السنة» (٣/ ٥٥٠) للخطابي.

(٣) صحيح: مسلم (١٢١/ ١٩٢) في الإيمان.

والجحود بنعمة الله تعالى.

* ولفظ التعزية كما جاء في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «... **إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب**»(١).

* ومدتها ثلاثة أيام من ساعة الدفن.

أما المآتم والسرادقات والجلوس للتعزية:

فقد قال النووي رحمه الله: «وأما الجلوس للتعزية فنصَّ الشافعي والمصنف(٢) وسائر الأصحاب على كراهيته، ونقله الشيخ أبو حامد في التعليق وآخرون عن نص الشافعي؛ قالوا: يعنى بالجلوس لها: أن يجلس أهل الميت في بيتٍ فيقصدهم مَنْ أراد التعزية، قالوا: بل ينبغي أن ينصرفوا في حوائجهم، فمن صادفهم عزاهم». اهـ.

وإنما الحكمة في ذلك لئلا يجدد الأحزان، ويكلف أهل الميت ما لا يطيقون.

ويسري الكلام نفسه على بدع: الثالث، والخميس الصغير والكبير، والأربعين، والسنوية.

ووالله ما وجدنا فاعلها إلا جاهل من الجهال، أو أحمق من الحمقى، ولو كان خيراً لاحتفل المسلمون من صحابة النبي ﷺ بأربعينه وسنويته!!

* أما صناعة الطعام فهي لأهل الميت فقط لا للمعزين والمشيعين كما يفعل في بعض القرى؛ فترى أحدهم يجلس عند (صينية الطعام) مفاخراً بها، فصار الطعام طعام شهرة ورياء لا يتقبل الله من صاحبه إضافة إلى أنه بدعة. فخالف السنة، وترك الإخلاص وهما ركنا قبول العمل.

ودليل صناعة الطعام لأهل الميت فقط حديث عائشة رضي الله عنها أنها كانت إذا مات الميت من أهلها أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت ثم صنع ثريد، فصبت التلبينة عليها ثم قالت: كلن منها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**التلبينة مُجمَّة**

---

(١) البخاري (١٢٨٤) في الجنائز، مسلم (٩٢٣/ ١١) في الجنائز.

(٢) «المجموع» (٥/ ٢٦١)، والمصنف هو: أبو إسحاق الشيرازي، صاحب «المهذب في الفقه الشافعي».

للفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن»(١).

والتلبينة: طعام يتخذ من دقيق أو نخالة، ويجعل فيها عسل، وخيرها ما كان رقيقًا نضيجًا. ومُجمَّة: أي مريحة(٢).

*** فضيلة مَنْ عزى أخاه في مصابه:**

* فعن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من مسلم يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله سبحانه من حُلَل الكرامة يوم القيامة»**(٣).

* وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«مَنْ عزى أخاه في مصيبته كساه الله حُلَّة خضراء يُحبَّر بها يوم القيامة»**. قيل: يا رسول الله، ما يُحبَّر؟ قال: **«يُغبط»**(٤).

*** من لطائف التعزية.**

ماتت بنت الخليفة المهدي، واسمها: ياقوتة، فجزع عليها المهدي جزعًا لم يسمع بمثله، واجتهد الناس في تعزيته بالفصاحة والبلاغة التي أوتوها، إلا أن ابن أبي شبة عزاه بعزاء ما أروعه، فقال: «أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئت أجرًا، وأعقبك خيرًا، ولا أجهد بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة، ثواب الله لك خيرٌ منها، ورحمة الله خيرٌ لها منك، أسأل الله تعالى ألا يحزنك، ولا يفتنك». فكان مما سرَّى على أمير المؤمنين.

* وتوفيت أم لقاضٍ من قضاة بلخ، فجزع عليها جزعًا شديدًا، فقال له أحدهم يعزيه: «إن كانت وفاتها عظة لك فعظَّم الله أجرك، وإن لم يكن عظة لك فعظَّم الله أجرك على موت قلبك. ثم قال: أيها القاضي، أنت تحكم بين عباد الله منذ ثلاثين سنة، ولم يرد عليك أحدٌ حكمًا فكيف بحكم واحدٍ عليك من الواحد الأحد ولا ترضى به؟!». فسرِّي عنه وكشف ما به، وقال: تعزيتَ تعزيت!!

* وعزَّى موسى بن المهدي سلمان بن جعفر في ولد له مات، فقال: «أيسرُّك

---

(١) صحيح: البخاري (٥٤١٧) في الأطعمة، مسلم (٢٢١٦) في السلام.

(٢) «الفتح» (٩/ ٥٥٠) لابن حجر.

(٣) حسن: حسنه الألباني (٧٦٤) في «الإرواء».

(٤) حسن: انظر السابق، وأحكام الجنائز (صـ١٦٣).

وهو بلية وفتنة، ويحزنك وهو صلاة ورحمة وهدى؟!!».

* ولله در ابن سناء الملك إذ قال لأحدهم لما رأى جزعه:

«إنا لله، إلى متى هذا الجزع الصبياني، والهلع النسواني، إلى متى هذا الحزن الذي لا يفيد دفينك، بل يميت دينك، والذي يسلب هدوءك، ويشمت فيك عدوك، أما على هذا مضى الزمان، وعلى هذا درج الثقلان، وللخراب بني العمران، وللانتقال سكن السكان، وللموت ولد المولود، وللعدم خلق الوجود، أتحب أن تبقى ويبقى من تحب فذا خلود، إنا لله وإنا إليه راجعون أفضل قول الصابر، وفي سبيل الله وفي رحمة الله مَنْ حسب مِنْ أهل المقابر، أجزل الله أجرك، وأحيا على دفينك صبرك، ووسع لهذه النازلة صدرك، وأنزل على قلبك السكينة ربك، لا جمع الله بينك وبين فراق الأحباب والثواب، بل جمع عليك الثواب والاحتساب».

*** ما ينتفع به العبد بعد موته:**

(١) تجنب النياحة عليه:

عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: **«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»**(١).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نهيت عن البكاء، إنما نهيت عن النوح»**(٢).

وعن أبي بردة بن أبي موسى قال: «وجع أبو موسى وجعًا فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة، والحالقة، والشاقة»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٩٥) (١٣٩٤) في الجنائز، مسلم في الإيمان- باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية (١/ ٩٩) (١٦٥) (١٠٣)، الترمذي (٤/ ٧٩) (١٠٠٤)، النسائي (٤/ ١٩)، ابن ماجه (١/ ٥٠٥) (١٥٨٤)، أحمد (١/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٣٧) (١٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٩٧) (١٢٩٦)، مسلم (٢/ ١٠٠) (١٦٧) (١٠٤) في الإيمان، وأورده البغوي (٥/ ٤٣٨) في «شرح السنة».

والصالقة والسالقة: هي التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة: هي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

وقيل: الصلق: ضرب الوجه.

وأما دعوى الجاهلية: فهي النياحة، وندبة الميت، والدعاء بالويل وشبهه(١).

كقولهم: وا جبلاه(٢).

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: «أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح..»(٣).

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«الميت يعذب في قبره بما نيح عليه»**(٤).

وقال ابن المبارك: «أرجو إن كان ينهاهم في حياته أن لا يكون عليه من ذلك شيء»(٥).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«النياحة من أمر الجاهلية، وإن النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثيابًا من قطران، ودرعًا من لهب النار»**(٦). وفي رواية: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»**(٧). وفي رواية: **«وأقامها للناس يوم القيامة»**(٨).

---

(١) النووي في «شرح مسلم» (٢/ ١١٠)، البغوي (٥/ ٤٣٨) في «شرح السنة».

(٢) ذكره الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٠) (١٣٦)، النسائي (٤/ ١٦)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٨)، وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١٩١) (١٢٩٢)، مسلم في الجنائز- باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٢/ ٦٣٩) (١٧) (٩٢٧)، النسائي (٤/ ١٧)، ابن ماجه (١/ ٥٠٨) (١٥٩٣)، أحمد (١/ ٢٦).

(٥) الترمذي في «التحفة» (٤/ ٨٤).

(٦) أخرجه ابن ماجه (١٥٨١)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٧) أخرجه مسلم (٢/ ٦٤٤) (٢٩) (٩٣٤)، أحمد (٥/ ٣٤٢).

(٨) أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٦)، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما افتتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنة، اجتمعت إليه جنوده، فقالوا: ايئسوا أن تردوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة»**(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فلما مات عمر رضي الله عنه، ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه»**. وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤). قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ (النجم: ٤٣).

قال ابن أبي مليكة: «والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئًا»(٣).

وتأويل قول النبي ﷺ: **«إن الميت يعذب ببكاء أهله»**. مخصوص في بعض الأموات الذين وجب عليهم العذاب بذنوب اقترفوها، وجرى من قضاء الله سبحانه وتعالى فيهم أن يكون عذابهم وقت البكاء عليهم، ويكون كقولهم «مطرنا بنوء كذا» أي عند نوء كذا، كذلك قوله: **«إن الميت يعذب ببكاء أهله»**. أي عند بكائهم عليه، لاستحقاقه ذلك بذنبه، ويكون ذلك حالاً لا سببًا، لأنا لو جعلناه سببًا لكان مخالفًا للقرآن، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)(٤).

وعن أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجهًا، ولا ندعوا ويلاً، ولا نشق جيبًا، وأن لا ننشر شعرًا»(٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٣/ ١٦)، وقال الهيثمي: ورجاله موثقون.

(٢) أخرجه البزار كما في «المجمع» (٣/ ١٦)، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٨١) (٢٢٨٨).

(٤) الخطابي في «معالم السنن» (٣/ ٤٩٥)، والآية من سورة الإسراء (١٥).

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٩٦) (٣١٣١)، وقولها: أن لا نخمش وجهًا: أي لا نلطمه ولا نخدشه. وقولها: ولا ندعوا ويلاً: أي لا نقول: يا ويلاه. وقولها: أن لا نشق جيبًا: أي لا=

وقال رسول الله ﷺ: **«أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»**(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت عمرة تبكي: واجبلاه واكذا واكذا- تعدد عليه- فقال حين أفاق: ما قلت شيئًا إلا قيل لي: آنت كذلك؟»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول: واجبلاه، واسيداه، أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟»**(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق به إلى ابنه إبراهيم، فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال له عبد الرحمن: أتبكي؟! أو لم تكن نهيت عن البكاء؟! قال: **«لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين؛ صوت عند مصيبة، خمش وجوه، وشق جيوب، ورنة الشيطان»**(٤).

وفي رواية: فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن

= نمزق أثيابنا. وقد قال لبيد بن ربيعة:

فقوما فقولا بالذي تعلمانه ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعرًا

الخطابي في «معالم السنن» (٣/ ٤٩٦).

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١/ ١٠٠) (١٦٧) (١٠٤)، أبو داود (٣/ ٤٩٦) (٣١٣٠)، النسائي (٤/ ٢٠)، ابن ماجه (١/ ٥٠٥) (١٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٧/ ٥٨٩) (٤٢٦٧)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، الترمذي (٤/ ٨٤) (١٠٠٨)، وقال: حسن غريب، ابن ماجه (١/ ٥٠٨) (١٥٩٤) ولفظه: **«الميت يعذب ببكاء الحي؛ إذا قالوا: واعضداه، واكاسياه، واناصراه، واجبلاه، ونحو هذا، يتعتع، ويقال: أنت كذلك؟ أنت كذلك؟»**، وأورده التبريزي في «المشكاة» (١٧٤٦)، المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٧٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٨٧) (١٠١١)، وقال: حديث حسن صحيح، وهو في «صحيح الجامع الصغير» رقم (٥١٩٤).

عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

وفي رواية قال: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا- وأشار إلى لسانه- أو يرحم»(٢).

وفي رواية: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً أشد ما وجدنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»(٣).

وفيه جواز البكاء على المريض والحزن، وأن ذلك لا يخالف الرضا بالقدر، بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما المذموم: الندب، والنياحة، والويل، والثبور ونحو ذلك من القول الباطل، ولهذا قال ﷺ: «ولا نقول إلا ما يرضي ربنا»(٤).

وقال عمر رضي الله عنه: «دعهن يبكين على أبي سليمان، ما لم يكن نقع أو لقلقة»، والنقع: التراب على الرأس. واللقلقة: الصوت(٥).

وعن الحسن أن قيس بن عاصم السعدي لما حضره الموت جمع بنيه فقال: «يا بني خذوا عني فإنكم لن تأخذوا عن أحد هو أنصح لكم مني، لا تنوحوا عليَّ، فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٦) (١٣٠٣)، مسلم في الفضائل- باب: رحمته ﷺ وتواضعه (٤/ ١٨٠٧) (٦٢) (٢٣١٥)، أبو داود (٣/ ٤٩٣) (٣١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٩) (١٣٠٤)، مسلم (٢/ ٦٣٦) (١٢) (٩٢٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٥٠٧) (١٥٨٩)، وقد حسنه البوصيري، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٤٣).

(٤) قاله النووي في «شرح مسلم» (١٥/ ٧٥)، وفي رواية لأحمد (١/ ٢٣٨): «...وإياكن ونعيق الشيطان، ثم قال: إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل، ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان»، وقال شاكر رقم (٢١٢٧): إسناده صحيح، ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٩٠)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤٩٥)، وهو في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٠)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، وفيه علي بن يزيد وفيه كلام، وهو موثق».

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٩١) معلقًا ووصله الحافظ في الفتح.

رسول الله ﷺ لم ينح عليه، وقد سمعت النبي ﷺ ينهى عن النياحة، وكفنوني في ثيابي الذي كنت أصلي فيها»(١).

(٢) قضاء الدَّين عنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**نفس المؤمن معلقة بدَيْنه حتى يقضى عنه**»(٢).

أي محبوسة عن مقامها الكريم، وقيل: أي: أمرها موقوف لا حكم لها بنجاة ولا هلاك، حتى ينظر هل يقضى ما عليها من الدين أم لا(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدَّيْن**»(٤).

وعن سمرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**ها هنا أحد من بني فلان؟**». فلم يجبه أحد. ثم قال: «**ها هنا أحد من بني فلان؟**». فلم يجبه أحد. ثم قال: «**ها هنا أحد من بني فلان؟**». فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «**ما منعك أن تجيبني في المرتين الأولين؟. أما إني لم أنوِّه بكم إلا خيراً، إن صاحبكم مأسور بدَينه، فلقد رأيته أدي عنه حتى ما بقي أحد يطلبه بشيء**»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّين، فيسأل: «**هل ترك لدينه فضلاً؟**». فإن حُدث أنه ترك وفاءً صلى، وإلا قال للمسلمين: «**صلوا على صاحبكم**». فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «**أنا أولى بالمؤمنين**

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (صـ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١٩٣) (١٠٨٥)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٢/ ٨٠٦) (٢٤١٣) في الصدقات- باب: التشديد في الدَّين، والدارمي (٢/ ٢٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٠، ٤٧٥).

(٣) «تحفة الأحوذي» (٤/ ١٩٣) نقلاً عن العراقي.

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة- باب: من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين (٣/ ١٥٠٢) (١٢٠) (١٨٨٦)، الترمذي في فضائل الجهاد (٥/ ٣٧٠) (١٧٦٥)، النسائي (٦/ ٣٤)، ابن ماجه (٢/ ٩٢٨) (٢٧٧٨) بنحوه، الدارمي (٢/ ٢٠٧)، «الموطأ» (٢/ ٤٦١)، أحمد (٢/ ٢٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ٦٣٧) (٣٣٤١) في البيوع والإجارات، النسائي في البيوع (٧/ ٣١٥).

من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دَينًا فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»(١).

إنما كان يترك الصلاة عليه ليحرِّض الناس على قضاء الدَّين في حياتهم، والتوصل إلى البراءة منها، لئلا تفوتهم صلاة النبي ﷺ، فلما فتح الله عليه عاد يصلي عليهم، ويقضي دين من لم يخلف وفاء(٢).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«على اليد ما أخذت حتى تؤديه»**(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «تُوفي أبي وعليه دَين، فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاءً، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: **«إذا جددته فوضعته في المِربد فآذني»**. . . فآذنت رسول الله ﷺ، فجاء ومعه أبو بكر وعمر، فجلس عليه ودعا بالبركة، ثم قال: **«ادع غرماءك فأوفهم»**. فما تركت أحدًا له على أبي دَين إلا قضيته»(٤).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا، وإن من أكبر همي لدَيني، أفترى دَيننا يبقي من مالنا شيئًا؟ ثم قال: يا بني بع مالنا واقض دَيني. . . فجعل يوصيني بدينه ويقول: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي، قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت مَنْ مولاك؟ قال: الله. قال: ما وقعت في كربة من دَينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه فيقضيه، فقتل الزبير، فقضى عبد الله بفضل الله دَينه، فلما فرغ قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات- باب: قول النبي ﷺ: **«من ترك كلاًّ أو ضياعًا فإليّ»** (٩/ ٤٢٥) (٥٣٧١)، مسلم في الفرائض (٣/ ١٢٣٧) (١٤) (١٦١٩)، أبو داود (٣/ ٦٣٨) (٣٣٤٣)، الترمذي (٤/ ١٨٠) (١٠٧٦)، النسائي (٤/ ٦٦)، ابن ماجه في الصدقات (٢/ ٨٠٧) (٢٤١٥)، الدارمي في البيوع (٢/ ٢٦٣)، أحمد (٣/ ٢١٥).

(٢) قاله النووي في «شرح مسلم» (١١/ ٦٠).

(٣) «سنن الدارمي» (٢/ ٢٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٣٦٥) (٢٧٠٩) في الصلح، النسائي (٦/ ٢٤٦).

أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دَين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم»(١).

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصية، وأنتم تقرءونها قبل الدَّين، والعمل على هذا عند عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدَّين قبل الوصية(٢).

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

فأداء الأمانة أحق من تطوع الوصية، وقال النبي ﷺ: **«لا صدقة إلا عن ظهر غنى»**(٣).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «... **العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدَّين مقضي، والزعيم غارم**»(٤).

(٣) إنفاذ وصيته وعهده:

عن الشريد بن سويد الثقفي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أمي أوصت أن تُعتق عنها رقبة، وإن عندي جارية نوبية، أفيجزئ عني أن أعتقها عنها؟ قال: **«ائتني بها»**. فقال لها النبي ﷺ: **«مَنْ ربك؟»**. قالت: الله. قال: **«مَن أنا؟»**. قالت: أنت رسول الله ﷺ. قال: **«فأعتقها فإنها مؤمنة»**(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٦/ ٢٦٢) (٣١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا- باب: تأويل قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١١) (٥/ ٤٤٣)، الترمذي (٦/ ٣١٤) (٢٢٠٥) في الوصايا- باب: ما جاء يبدأ بالدَّين قبل الوصية، ابن ماجه في الوصايا (٢/ ٩٠٦) (٢٧١٥) باب: الدَّين قبل الوصية، أحمد (١/ ٧٩).

(٣) سبق تخريجه تحت رقم (٢٤٢) والآية من سورة النساء (٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٦/ ٣١١) (٢٢٠٣) في الوصايا، وقال: حديث حسن. والعارية مؤداة: أي تؤدى إلى صاحبها. والمنحة مردودة: هي ما يمنحه الرجل صاحبه؛ أي يعطيه من ذات در ليشرب لبنها، أو شجرة ليأكل ثمرها، أو أرضًا ليزرعها. وفيها إعلام بأنها تتضمن عليك المنفعة لا تمليك الرقبة. والدَّين مقضي: أي يجب قضاؤه. والزعيم غارم: أي الكفيل يلزم نفسه ما ضمنه. ومن ضمن دينًا لزمه أداؤه. (التحفة (٦/ ٣١١).

(٥) أخرجه النسائي (٦/ ٢٥٢) في الوصايا- باب: فضل الصدقة على الميت.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثًا**». فلم يقدم حتى توفي النبي ﷺ، فأمر أبو بكر مناديًا فنادى: مَنْ كان له عند النبي ﷺ عدة أو دَين فليأتنا. فأتيته فقلت: إن النبي ﷺ وعدني، فحثى لي ثلاثًا(١).

وقال هزيل بن شرحبيل: أبو بكر كان يتأمر على وصي رسول الله ﷺ، ودَّ أبو بكر رضي الله عنه أنه وجد من رسول الله ﷺ عهدًا فخزم أنفه بخزامه ذلك(٢).

(٤) الصدقة عنه:

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: «**نعم تصدق عنها**»(٣).

وفي هذا الحديث جواز الصدقة عن الميت، واستحبابها، وأن ثوابها يصله وينفعه، وينفع المتصدق أيضًا، وهذا كله أجمع عليه المسلمون، وأجمع المسلمون على أنه لا يجب على الوارث التصدق عن ميته صدقة التطوع، بل هي مستحبة.

وأما الحقوق المالية الثابتة على الميت؛ فإن كان له تركة وجب قضاؤها منها سواء أوصى بها الميت أم لا، ويكون ذلك من رأس المال سواء ديون الله تعالى كالزكاة، والحج، والنذر، والكفارة، وبدل الصوم ونحو ذلك، ودين الآدمي، فإن لم يكن للميت تركة لم يلزم الوارث قضاء دينه، لكن يستحب له ولغيره قضاؤه(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يُكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: «**نعم**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٦٢) (٢٥٩٨) في الهبة، مسلم في الفضائل- باب: ما سُئل رسول الله ﷺ قط فقال لا (٤/ ١٨٠٦) (٦٠) (٢٣١٤).

(٢) الدارمي في «السنن» (٢/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٥/ ٤٥٧) (٢٧٦٠)، مسلم في الوصية- باب: وصول ثواب الصدقات إلى الميت (٣/ ١٢٥٤) (١٢) (١٠٠٤)، النسائي (٦/ ٢٥٠)، «الموطأ» (٢/ ٧٦٠)، مسند الحميدي (١/ ١١٩) (٢٤٣). وافتلتت: أي أُخذت فتلة أي بغتة، وهو موت الفجأة. والمراد بالنفس هنا: الروح. قاله الحافظ في «الفتح» (٥/ ٤٥٧).

(٤) قاله النووي في «شرح مسلم» (١١/ ٨٤).

(٥) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٥٤) (١١) (١٦٣٠)، النسائي (٦/ ٢٥٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة رضي الله عنه أخا بني ساعدة توفيت أمه وهو غائب، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال: «نعم». قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[(٢)].

ومعنى الحديث: أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف، وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح، وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما[(٣)].

(٥) قضاء دَين الله عز وجل:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج؛ فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنها؟ قال: **«نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دَين أكنت قاضيته؟»**. قالت: نعم. قال: **«فاقضوا الذي له، فإن الله أحق بالوفاء»**[(٤)].

وعنه رضي الله عنهما أن امرأة نذرت أن تحج فماتت، فأتى أخوها النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٤٥٩) (٢٧٦٢)، «الموطأ» (٢/ ٧٦٠)، النسائي (٦/ ٢٥٠)، والمخراف: أي المكان المثمر؛ سمي بذلك لما يخرف منه أي يُجنى من الثمرة، تقول: شجرة مخراف ومثمار. والحائط: البستان. قاله الحافظ في الفتح (٥/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في الوصية- باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/ ١٢٥٥) (١٤) (١٦٣١).

(٣) قاله النووي في «شرح مسلم» (١١/ ٨٥) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (١٣/ ٣٠٩) (٧٣١٥)، مسلم في الصيام (٢/ ٨٠٥) (١٥٧) (١١٤٩)، الترمذي في الحج (٣/ ٦٧٨) (٩٣٤)، النسائي (٥/ ١١٦)، الدارمي (٢/ ٢٤)، أحمد (١/ ٢٣٩، ٢٧٩، ٣٤٥).

فسأله عن ذلك، فقال: «**أرأيت لو كان على أختك دَين أكنت قاضيه؟**». قال: نعم. قال: «**فاقضوا الله فهو أحق بالوفاء**»(١).

وعنه رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، إن أبي مات ولم يحج، أفأحج عنه؟ قال: «**أرأيت لو كان على أبيك دَين أكنت قاضيه؟**». قال: نعم. قال: «**فدَين الله أحق**»(٢).

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر، أفيجزئ عنها أن أعتق عنها؟ قال: «**أعتق عن أمك**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات وعليه صيام، صام عنه وليه**»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: «**أرأيت لو كان عليها دَين أكنت تقضينه؟**». قالت: نعم. قال: «**فدَين الله أحق بالقضاء**»(٥).

وعنه رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر، أفأصوم عنها؟ قال: «**أرأيت لو كان على أمك دَين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟**». قالت: نعم. قال: «**فصومي عن أمك**»(٦).

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل مات وعليه نذر، فقال: يصام عنه النذر.

---

(١) سنن النسائي (٥/ ١١٦).

(٢) سنن النسائي (٥/ ١١٨).

(٣) أخرجه النسائي (٦/ ٢٥٣)، البخاري بلفظ: «إن سعدًا استفتى النبي ﷺ في نذر كان على أمه، فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه أن يقضيه عنها، فكانت سنة بعد» (١١/ ٥٩٢) (٦٦٩٨).

(٤) أخرجه البخاري في الصيام (٤/ ٢٢٧) (١٩٥٢)، مسلم في الصيام- باب: قضاء الصيام عن الميت (٢/ ٨٠٣) (١٥٣) (١١٤٧).

(٥) أخرجه البخاري بلفظ: «جاء رجل» (٤/ ٢٢٧) (١٩٥٣)، مسلم في الصيام (٢/ ٨٠٤) (١٥٤) (١١٤٨).

(٦) أخرجه مسلم في الصيام (٢/ ٨٠٤) (١٥٦) (١١٤٨).

ومن طريق عون بن عبد الله أن امرأة نذرت أن تعتكف عشرة أيام، فماتت ولم تعتكف، فقال ابن عباس لولدها: اعتكف عن أمك[١].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت. قال: فقال: «**وجب أجرك، وردها عليك الميراث**». قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: «**صومي عنها**». قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: «**حجي عنها**»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة نذرت أن تصوم فماتت، فجاء أخوها إلى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «**لو كان عليها دَين كنت قاضيه؟**». قال: نعم. قال: «**فاقضوا الله، فالله أحق بالوفاء**». قال: فصام عنها[٣].

وفي رواية عن ابن بريدة عن أبيه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم أفأصوم عنها؟ قال: «**نعم**»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أختي ماتت وعليها صيام شهرين متتابعين، قال: «**أرأيت لو كان على أختك دَين أكنت تقضينه؟**». قالت: بلى. قال: «**فحق الله أحق**»[٥].

وقال الحسن: من مات وعليه صوم، إن صام عنه ثلاثون رجلاً يومًا واحدًا جاز[٦].

(٦) زيارة قبره والدعاء له:

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نهيتكم عن ثلاث، وأنا آمركم**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة كذا في «الفتح» (١١/ ٥٩٢)، وقال الحافظ: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (٢/ ٨٠٥) (١٥٧) (١١٤٩).

(٣) سنن الدارمي (٢/ ٢٤) باب: الرجل يموت وعليه صوم.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٥٥٩) (١٧٥٩) في الصيام.

(٥) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٠٤) (٧١٢) وقال: حسن صحيح، ابن ماجة (١/ ٥٥٩) (١٧٥٨) في الصيام.

(٦) أخرجه البخاري (٤/ ٢٢٦- فتح).

بهن، نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإن في زيارتها تذكرة...»(١).

وفي رواية: **«فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»**(٢).

وفي رواية: **«فإن لكم فيها عبرة»**(٣).

وفي رواية: **«وليزدكم زيارتها خيراً»**(٤).

وفي رواية: **«فإنه يرق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً»**(٥).

إن زيارة القبور واجبة ولو مرة واحدة في العمر، لورود الأمر به، واختلف في النساء؛ فقيل: دخلن في عموم الإذن. وهو قول الأكثر، ومحله ما إذا أمنت الفتنة(٦).

وهذا اللعن(٧) إنما هو للمكثرات من الزيارة، لما تقتضيه الصفة من المبالغة، ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك؛ من تضييع حق الزوج، والتبرج، وما ينشأ منهن من الصياح ونحو ذلك.

فقد يقال: إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن، لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء(٨).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٩٧) (٣٦٩٨) في الأشربة، النسائي (٤/ ٨٩)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٢) (١٥٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١) (١٠٨) (٩٧٦)، أبو داود (٣/ ٥٥٧) (٣٢٣٤)، الترمذي (٤/ ١٥٩) (١٠٦٠) وقال: حسن صحيح، النسائي (٤/ ٩٠)، ابن ماجه (١/ ٥٠١) (١٥٧٢)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٣) (١٥٥٤).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦)، ابن ماجه (١/ ٥٠٠) (١٥٦٩).

(٥) قاله الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٧٧).

(٦) أي الوارد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور، أخرجه الترمذي (٤/ ١٦٠)، وقال: حسن صحيح، وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء. المصدر السابق.

(٧) ذكره الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٧٨) نقلاً عن القرطبي.

(٨) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦) وسكت عنه، وقال الذهبي: صحيح.

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها.

وكان النبي ﷺ يزور القبور ويدعو لأهلها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»**(١).

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر يقولون: **«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»**(٢).

وكان ﷺ يقول: **«السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»**(٣).

(٧) الحفاظ على حرمة قبره:

عن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»**(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»**(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز- باب: ما يقال عند دخول القبور، والدعاء لأهلها (٢/ ٦٦٩) (١٠٢) (٩٧٤)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٧١) (١٥٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٢/ ٦٧١) (١٠٤) (٩٧٥)، ابن ماجه (١/ ٤٩٤) (١٥٤٧).

(٣) أخرجه مسلم من رواية عائشة رضي الله عنها (٢/ ٦٧١) (١٠٣) (٩٧٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٨) (٩٧) (٩٧٢)، أبو داود (٣/ ٥٥٤) (٣٢٢٩)، الترمذي (٤/ ١٥٣) (١٠٥٥) في الجنائز- باب: كراهة المشي على القبور.

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز- باب: النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٢/ ٦٦٧) (٩٦) (٩٧١)، أبو داود (٣/ ٥٥٤) (٣٢٢٨)، ابن ماجه (١/ ٤٩٩) (١٥٦٦).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**كسر عظم الميت ككسره حيًّا**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ نهى أن يُقعد على القبر، وأن يُقصص ويبنى عليه(٢).

وفي رواية: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ(٣).

ونهيه عن القعود على القبر يُتأول على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك في القعود عليه للحديث.

والوجه الآخر: كراهة أن يطأ القبر بشيء من بدنه.

وقد روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً قد اتكأ على قبر، فقال: «**لا تؤذ صاحب القبر**». والتقصيص: التجصيص. والقصة: شيء شبيه بالجص(٤).

ولقد ندبت السنة إلى إخراج الميت من القبر واللحد إن كانت مصلحة الميت وخيره يقتضي ذلك.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل حفرته، فأمر به فأخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، وكان على رسول الله ﷺ قميصان، فقال له ابنه عبد الله: يا رسول الله؛ ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك(٥).

قال سفيان: فيرون أن النبي ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٤٤) (٣٢٠٧)، ابن ماجه (١/ ٥١٦) (١٦١٦)، أحمد (٦/ ٤٨)، البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٧) (٩٤) (٩٧٠) في الجنائز- باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، أبو داود (٣/ ٥٥٢) (٣٢٢٥)، ابن ماجه (١/ ٤٩٨) (١٥٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ١٥٥) (١٠٥٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) قاله الخطابي في «معالم السنن» (٣/ ٥٥٢).

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (٣/ ٢٥٤) (١٣٥٠)، مسلم في المنافقين (٤/ ٢١٤٠) (٢) (٢٧٧٣)، النسائي (٤/ ٣٨)، أحمد (٣/ ٣٨١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لما حضر أحد دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليَّ دينًا، فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن مع آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: «دفن مع أبي رجل، فلم تطب نفسي حتى أخرجته، فجعلته في قبر على حدة»(٢).

وفي رواية: «فما أنكرت منه إلا شعيرات كن في لحيته مما يلي الأرض»(٣).

وفي قصة والد جابر من الفوائد: الإرشاد إلى بر الأولاد بالآباء خصوصًا بعد الوفاة، والاستعانة على ذلك بإخبارهم بمكانتهم من القلب، وفيه قوة إيمان عبد الله المذكور لاستثنائه النبي ﷺ ممن جعل ولده أعز عليه منهم، وفيه كرامته بوقوع الأمر على ما ظن، وكرامته بكون الأرض لم تبل جسده مع لبثه فيها، والظاهر أن ذلك لمكان الشهادة، وفيه فضيلة لجابر لعمله بوصية أبيه بعد موته في قضاء دينه(٤).

وبعد:

فقد أطلت هنا لا لشيء إلا لأوضح أمورًا كثيرة خفيت على كثير من المسلمين الذين يتساهلون في أمر ميتهم متذرعين بالحزن، أو الجهل بهذه الأمور، فتحدث المصائب والكوارث، ما بين ميت لقي الله غير مُغسَّل، وآخر كُسر عظمه، وثالث تُرك لإنسان غير أمين ليقوم بتجهيزه للدفن، وغير هذه الأمور التي يحاول الكثير منا التملص منها والهروب، وهي مسئولية في أعناقنا، وأمانة لا بد أن تؤدى، فالحذر من خيانة الأمانة.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (٣/ ٢٥٤) (١٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٥) (١٣٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٩٦) (٣٢٣٢)، النسائي بنحوه في الجنائز- باب: إخراج الميت من القبر بعد أن يدفن فيه (٤/ ٨٤).

(٤) قاله الحافظ في« الفتح» (٣/ ٢٥٨).

[الأخلاق]

تمهيد : حُسن الخلق .

[١] الحياء .

[٢] الاستقامة .

[٣] الرفق ، والرحمة ، واللين .

[٤] الصدق ، والنهي عن الكذب .

[٥] الحلم والصفح والعفو والنهي عن الغضب .

وصايا النبي ﷺ في الأخلاق

* تمهيد: (حُسن الخلق):

كانت رسالة الإسلام في جوهرها- ولا زالت- تحريرًا للنفس من الكفر، وتطهيرًا للقلب من كل شائبة تتعلق بأمور التوحيد، فأزالها جميعًا، فإذا به يعرض للعقيدة في فهمها الحقيقي، ومفهومها الصحيح، فجعل التوحيد أساسًا للتفكير، ومن مستلزمات التوحيد نقاء الأخلاق، واتباع الفضائل حتى صارت صناعة الرجال هي دأب الإسلام وديدنه، وتلكم صناعة دقيقة تهتم بصياغة القلوب المؤمنة التي تتكون منها الأمة التي قال الله تعالى عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

حتى أن الله تعالى حدد للنبي ﷺ وظيفته في القرآن في أكثر من موضع، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢).

فالأمية والجهل تبع لمساوئ الأخلاق، ووظيفة النبي ﷺ رفع الجهل والشرك ثم تزكية النفس من الرذائل والآفات، ويقتضي تمام العبودية لله محاسن الأخلاق، فقد قال الله تعالى في مواضع تفوق الحصر في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

فقرن الإيمان بالعمل الصالح، وما العمل الصالح إلا حسن الخلق!!

وقد جاء الإسلام ليضع تصورًا أخلاقيًّا كاملاً يهتم بوضع الضوابط العامة للسلوك الإنساني، وهذه الضوابط تنظم علاقة الفرد بربه، ثم علاقته بنفسه، ثم علاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون وما فيه، بل إن الإسلام في فروعه وأصوله قد وضع الضوابط العامة لهذه العلاقات، فبيَّن ما يجوز فيها وما لا يجوز منها، وأحاطها بسياج قوي حتى جعل الأخلاق جزءًا أساسيًّا من الاعتقاد، معبرًا عنها بألفاظ: الحلال والحرام، ليرتبط المسلم في خلقه بالثواب عن محاسن الأخلاق، والعقاب عن مساوئها.

إن القيم الأخلاقية في الإسلام ما هي إلا أوامر دينية تعبر عن قيمة معينة، ومن هنا ندرك عظمة الوصف القرآني للنبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبي ﷺ قالت: «كان خُلقه القرآن»[١].

وها هو جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ملك الحبشة يعرض لذلك التغيير الجوهري الذي أحدثه الإسلام في عقائد العرب، ومن ثَمَّ في سلوكهم فقال عارضًا للحالين قبل الإسلام وبعده: «أيها الملك؛ كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولاً منا، نعرف نسبه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[٢].

وقد جاء في أكثر من حديث قيمة الخلق الحسن في الإسلام، بأنه رافع لدرجة المؤمن في الآخرة، إضافة إلى درجته الرفيعة في الدنيا. ومن هذه الأحاديث:

* فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»**[٣].

* ومن حديث أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله ما أفضل ما أُعطي المرء المسلم؟ قال: **«الخُلُق الحسن»**[٤].

---

(١) صحيح: رواه مسلم بنحوه (٧٤٦) في صلاة المسافرين وقصرها من حديث عائشة الطويل، وهو بلفظه عند أحمد (٦/ ٩١) في «المسند».

(٢) ابن إسحاق في «السيرة» (٢/ ٢١٥). ط - دار الفجر للتراث. وقال الهيثمي (٦/ ٢٤- ٢٧) في «المجمع»: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع، فالحديث بهذا صحيح.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

(٤) صحيح: ابن ماجه (٣٤٣٦) في الطب، وصححه الألباني هناك.

* ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قد قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن خُلُقه درجات الصائم والقائم»(١).

* ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ما من شيء يوضع في ميزان العبد أثقل من حسن الخُلُق، وإن صاحب حسن الخُلُق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»(٢).

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟». قالوا: بلى. قال: «أحسنكم خُلُقًا»(٣).

* ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقه»(٤).

* وعن أبي سعيد أنه ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يَألفون ويُؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف»(٥).

وعلي النقيض فقد نبه النبي ﷺ الأمة إلى الارتباط الوثيق الذي لا انفصام له بين الأمر الديني والمعنى الأخلاقي، حيث جاءت الأحاديث السابقة لتضع الأوامر الأخلاقية في إطارها العقائدي الصحيح، بحيث نجد أن الخلل الذي يقع في الأمر الأخلاقي يؤدي إلى خلل عقائدي يعاقب عليه المسلم يوم القيامة.

ومن هذه النماذج هذه الأحاديث:

* فمن حديث أبي شريح رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «والله لا يؤمن (ثلاثًا) من لا يأمن جاره بوائقه»(٦).

---

(١) صحيح: أبو داود (٤٧٩٨) في الأدب، وصححه الألباني (١٩٣٢) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: أبو داود (٤٧٩٩) في الأدب، وصححه الألباني هناك.

(٣) حسن: أحمد (٢/ ١٨٥، ٢١٧)، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٤) حسن: أبو داود (٤٨٠٠) في الأدب، وحسنه الألباني.

(٥) حسن: حسنه الألباني (١٢٣١) في «صحيح الجامع».

(٦) صحيح: مسلم (٤٦) في الإيمان.

* وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

* وحديث السبع الموبقات الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٢).

فهذه الأحاديث الثلاثة تعرض لجملة أخلاق فاسدة سمَّاها الشرع: (كبائر)، ومعنى هذا أن الإيمان يرتبط بالخلق الحسن، فإذا انتفى الخلق الحسن، واختفى، وحل مكانه الخلق السيء انتفى معه كمال الإيمان، ونقص مقداره في القلب، وهو اعتقاد أهل السنة: «يزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية»، وما المعصية إلا عمل فاسد، وخلق سيء قبيح أقبل عليه صاحبه، فكان الجزاء نقص الإيمان، وبالتالي النزول عن رتبة أو درجة من درجات الجنة، وبذلك يرتبط الخلق بالأمر الشرعي ليصبح الخلق الحسن اعتقادًا راسخًا يستقر في قلب المؤمن بالله ورسوله، ثم يتحول الخلق الحسن بعد ذلك إلى واقع ملموس يعيشه الإنسان في حياته اليومية ليضبط علاقته بربه، ثم بنفسه، ثم بمن حوله، ثم بباقي الكون، وذلك لخوفه من العقاب، ورجائه في ثواب ربه تبارك وتعالى.

وإن كان الإسلام قد ربط بين الخلق والعقيدة، فإنه أيضًا ربط بين الخلق والفقه، ولذلك حرصت المدارس الفقهية، والمذاهب المختلفة إلى وضع القواعد والضوابط العامة التي تحكم حياة الناس في معاملاتهم وعلاقاتهم، وتصوغها في إطارها العقائدي ببيان ما يجوز، وما لا يجوز، وما يحل، وما يحرم بحيث تكون حركة الحياة اليومية مضبوطة بإيقاع الشرع، دائرة في إطار الحلال والحرام، وهذه الألفاظ الشرعية (الحلال والحرام) تشمل بالضرورة المعنى الأخلاقي العملي، فيمتزج الخُلُق بالدين (عقيدة وتشريعًا) فيكون كل أمر ديني بالضرورة خلقًا، ولذلك فإن الصلاة، والصوم وبقية العبادات، والأمور الفقهية ما هي إلا أحكام جاءت بها الشريعة الغراء

---

(١) صحيح: البخاري (٢٤٧٥) في المظالم والغصب، مسلم (٥٧) في الإيمان.

(٢) صحيح: البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا، مسلم (٨٩) في الإيمان.

لتهذب النفوس، وتُسعد الحياة، وتنظمها، من أجل ذلك حرَّم الفقهاء الحيل التي يتبعها بعض الناس للهروب من أداء بعض الفرائض؛ لأن العمل بها فساد وإفساد، وطبقوا قاعدة: (لا ضرر ولا ضرار).

ونستطيع هنا أن نقول باطمئنان أن الإسلام له شقان:

الأول: تزكية النفس بعبادة الله وحده، ونفي الشرك.

والثاني: الطاعة فيما أمر الله به سبحانه من العبادات، والمعاملات، لأن في الطاعة واتباع السنة اتباع لمعالي الأمور، وكريم الأخلاق، والزجر عن الدناءة، بل والبعث على الصواب في الرأي وحسن التقدير(١).

وإذا كان خلق رسول الله ﷺ كما ذكرت أم المؤمنين عائشة القرآن، فمعناه: أن القرآن إذا كان سورًا، وكلمات، وحروفًا، وأصواتًا فإن عمل النبي ﷺ وخلقه هو المعاني، والتفاسير، والتطبيق العملي لهذه الآيات والسور، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم دائمًا(٢).

ولعلنا نذكر أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب عصيانها لعقيدة التوحيد أولاً، ثم بإفسادها، وارتكابها مساوئ الخلق وقبيحها، وحيث تذكر آيات القرآن بصفة عامة أن الإيمان، والاطمئنان، والأمان لا يفترقون، وكذلك الإفساد، والخوف، والجوع قرناء لا يتفرقون أيضًا، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

وما هلاك قوم لوط، أو شعيب، أو غيرهما من الأنبياء إلا بسبب الفساد العقائدي والأخلاقي.

وعلى هذه الأسس السابقة شبَّ الإسلام عزيزًا لا يعرف الذل، كريمًا لا يقبل الضيم، حمله كِرامٌ بررة، رفعوا لواء عزه، وشيدوا صروح مجده، وطَوَّفوا به الآفاق، نافذ السلطان، رفيع المكان، أقاموا له صرحًا أخلاقيًّا، ومدنية، وحضارة تقوم على علم كامل، وإيمان تام، وعمل صالح، وخلق فاضل كريم، خطوا فيه

(١) ابن قتيبة: «عيون الأخبار» (١/ ١٠).

(٢) ابن تيمية: «أمراض القلوب وشفاؤها» صـ ٢٤.

للفضيلة طريقًا واضحًا مستقيمًا، ووضعوا لها نهجًا مستقيمًا في ضوء آيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ، شعارهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

جاعلين أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق؛ من الوفاء بالعهد، والصدق في القول، والشجاعة في الحق، والصبر على احتمال الأذى والمكاره، والعدل مع الأفراد بأداء حقوقهم، وحب السعادة لهم.

حتى جاء قوم فتنوا بعرض هذه الحياة الأدنى، واتبعوا الشهوات، وضلوا السبيل، حسبوا الأمر مغانم توزع، وأسلابًا تقسم، ودنيا مملوءة بالشهوات واللذات، فيها دعة وسكون، وترف ومجون، فازدروا بالأخلاق الفاضلة حبًّا في الاستمتاع بالشهوات، والانغماس فيما حرم الله تعالى، متعامين عن الآيات، فصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهي، فساءت حالتهم، فاطمأنوا إلى الذل، وصبروا عليه حين تحللوا من أخلاق دينهم، مستعذبين الانزلاق في الشهوات والشرور، والتهاون في الدين.

وصدق الله إذ قال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء: ١٦).

إن الأمة الصالحة التي تستحق الخلافة والخيرية لا بد أن تعود تارة أخرى إلى عقيدة السلف وأخلاقهم كي تصح الحياة من جديد، بعد أن تحول الفساد الأخلاقي إلى كابوس يثير القلاقل، ويقض المضاجع، ويبعث في نفوس المخلصين الرهبة والخوف من نزول العقاب الإلهي الذي لا يفرق- حين يكثر الخبث- بين الصالحين والطالحين، والمؤمنين والفاسقين.

ففي حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم؛ إذا كثر الخبث»[(١)].

والخبث: هو الفسوق والفجور.

وقال ابن العربي المالكي: «فالخيِّر يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغير عليه خبثه،

---

(١) صحيح: البخاري (٣٣٤٦) في أحاديث الأنبياء، مسلم (٢٨٨٠/١) في الفتن وأشراط الساعة.

وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدي ذلك ويصر الشرير على عمله السيء، ويفشو[1] ذلك ويكثر حتى يعم الفساد فيهلك حينئذٍ القليل والكثير، ثم يُحشر كلٌّ على نيته»[2].

ومعنى هذا أن أجراس الخطر تدق من قريب، حيث يتحدث واقعنا بلسان لا تنقصه الفصاحة عن فساد أخلاقي كبير، كأنما يرضعه الشباب من الفتيان والفتيات من لبان أمهاتهم، تُسأل عن ذلك محاضر أقسام الشرطة التي صارت عامرة بهذه الملفات والقضايا الأخلاقية: (الزنا- الاغتصاب- تعاطي المخدرات- القتل بسبب التنافس على المحبوبة أو أثناء حالات السكر- جرائم هتك الأعراض- قضايا الشيكات وإيصالات الأمانة- دعاوى إلحاق النسب وثبوته- شكاوى الزواج العرفي والتغرير بالقاصرات- تنظيمات الدعارة والشواذ) إلى غير هذه المصائب التي تنذر بحلول عقاب إلهي وشيك.

وهنا نقول: إننا الآن بين أمرين:

- إما أن نستضيء بنور الشرع ونهتدي بهداه فنصير في الدنيا إلى عزة نعلو بها في أجواز الفضاء، ونخترق بها أطباق الأرض، ثم في الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض وإلى مغفرة من الله ورضوان.

- وإما أن نعمى عن هدى الله تعالى، ونغمض أعيننا عمّا حلّ بالأمم السابقة، ونُغْلي مراجل الشهوات فيما بيننا، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا فنصير في الدنيا إلى ذل وضعة، ثم في الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين، ثم خزي من الله وخذلان: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾** (الإسراء: ١٨، ١٩).

*** تعريف حُسن الخلق:**

يُعرف ابن قيم الجوزية الخلق عمومًا فيقول: «الدين هو الخُلق، فمن زاد عليك

---

(١) يفشو: ينتشر.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر (١٣/ ١٠٩) في «فتح الباري».

في الخلق، زاد عليك في الدين»[(١)].

وهذا ربط رائع من ابن قيم الجوزية رحمه الله بين العقيدة والشريعة والخلق؛ لأن الأخلاق من غير دين عبث؛ لأن الدين هو الهادي إلى المُـثل العُليا، والعقيدة الدينية هي أقوى رادعٍ يزجـر وينهى عن اتباع الهوى والشـهوات، ودائمًا مـا يكون صوت الضمير المتدين قوي[(٢)].

إن الدين هو ذلك المصدر الفريد المعصـوم الذين يعتمد عليه في التميـيز بين الخير والشر، وهو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يتطلع إليه وينشده كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)، فصـار النبي ﷺ صاحب الشـريعة هو الأسوة وهو على خلق عـظيم، خلقه القرآن كلام ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا يربي الدين نفسًـا وروحًا يجـعلها حـية يقظة كلمـا أرادت الوقوع في الخطأ تذكـرت الله تعالى فاستغفرت وتابت ولم تصر على ما فعلت من الفواحش والآثام كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

وقد رُوي عن السلف تفسيرات وتعريفات لحسن الخلق منها[(٣)]:

(١) قال الحسن البصري: «حُسن الخلق: الكرم والبذلة والاحتمال».

(٢) وعن الشَّعْبِي قال: «حسن الخلق: البـذلة، والعطية، والبشر الحسن». وكان الشعبي كذلك.

(٣) وعن عـبد الله بن المبـارك قال: «هـو بسط الوجه، وبذل المعـروف، وكف الأذى».

(٤) وسُئل سلام بن أبي مطيع عن حسن الخلق، فأنشد شعرًا فقال:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٠٧) لابن قيم الجوزية- ط دار الكتاب العربي- بيروت.

(٢) د/ محمد عبد الله دراز «الدين» صـ ٦٩- مكتبة القاهرة.

(٣) ذكرها ابن رجب الحنبلي (صـ ٣٠٠، ٣٠١) حـديث (١٨) في جامع العلوم والحكم- ط دار الفجر للتراث بتحقيقنا.

تراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهللاً ❁ كـأنـك تعطيـه الذي أنت سـائلُه
ولو لم يكـن في كـفـه غـيـر روحـه ❁ لجـاد بهـا فـليـتـق الله سـائـلُهُ
هو البـحـر من أي النواحي أتيـتـه ❁ فلُجَّـتُه المعـروف والجُود سـاحله[1]

(٥) وقال الإمـام أحمـد بن حنبل: «حسن الخـلق ألا تغضب، ولا تحـقد، وأن تحتمل ما يكون من الناس».

(٦) وقال إسحاق بن راهويه: «هو بسط الوجه، وأن لا تغضب ونحو ذلك».

(٧) وقال مـحـمـد بن نصر وبعـض أهل العلم: «حسن الخلق كظم الغـيـظ لله، وإظهار الطلاقة، والبِشْر إلا للمبتدع والـفاجر، والعفو عن الزالين إلا تأديبًا، وإقامة الحد، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد إلا تغـيير منكر، وأخذًا بمظلمة لمظلوم من غير تعدٍّ».

(٨) وقيل: هو اجتناب المحارم وطلب الحلال، وأن تكون من الناس قريبًا، وفيما بينهم غريبًا[2].

قلت: ويجمع هذا كله قـوله ﷺ الذي رواه عقبة بن عـامر الجُهني: **«يا عقبة ألا أخبـرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تَصِلُ مَنْ قطعك، وتُعْطي مَنْ حَرمَك، وتَعَفُوَ عَمَّن ظلمك»**[3].

(٩) وكان الصوفية يعرفون حسن الخلق بأنه: «ذبح للنفس بسيوف المجاهدة»[4].

(١٠) ومن كلام أبي حامد الغـزالي في حسن الخلق: «فالنفس البشرية مـستعدة لتلقي الفضائل بعد تخليتها من الرذائل»[5].

قصد أن المجاهدة النفسية ترمي إلى ضبط النفس، فتُخلى وتُفرَّغ من الرذائل وهي قبائح الأخلاق ومساوئها، وهي (التخلية)، ثم (التحلية) بفضائل الأخلاق.

---

(١) اللُّجة: ظلمات البحر. والجود: الكرم.
(٢) «منهاج المسلم» (صـ ١٣٦) للشيخ الجزائري ط دار التراث العربي.
(٣) حسن بالشواهد: الحاكم (٤/ ١٦١، ١٦٢) في المستدرك وصححه.
(٤) «كشف المحجوب» (٢/ ٢٥) للهجويري.
(٥) «ميزان العمل» (صـ ٣٩) لأبي حامد الغزالي.

والفضيلة هنا تعني: الخير، والمعروف، والطاعات، وكل عمل طيب مخلص صادق نافع للغير يُبتغى به وجه الله تعالى.

وهكذا نرى أن الأخلاق القائمة على أساس الإيمان تنأى عن الانحراف في الفكر والسلوك، ذلك أن الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، والأركان هي الجوارح، وذلك يحقق الاستقامة.

فإن الإيمان بالله تعالى، واتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن، وبيّنته السُّنة هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق، والطريق الوحيد الذي يؤدي إلى تحقيق أمن الإنسان وسعادته، وفقدان الإيمان بالله وعدم اتباع منهجه في الحياة يؤدي إلى الهم والقلق والشقاء[(١)].

وفضائل الأخلاق التي أمرنا الله تعالى بها كثيرة لا تعد ولا تحصى، وما نهانا عنه الله تعالى من الأخلاق الفاسدة كثير أيضًا، نتناول منه ما ورد في صحيح أحاديث النبي ﷺ ووصاياه في الصفحات التالية.

(١) د/ محمد عثمان نجاتي: «القرآن وعلم النفس» (صـ ٢٤٩) ط دار الشروق.

[١] الحياء

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنَ كَلامِ النُّبُوةِ الأُولى: إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ**»(١).

✿ ✿ ✿

* **كلمات حول الحياء:**

جاء الإسلام داعيًا إلى الفضيلة ومرغبًا فيها، عاملاً على تحقيقها، فأيقظ المشاعر، وأنار البصائر، ورسم طريقًا قويمًا للسلوك الإنساني تحت راية الإيمان، وتعاليم القرآن والسنة، فكان عقيدة وعملاً، عقيدة تُقر بإله واحد لا شريك له، وعمل تعبر عنه الاستقامة، وهي التزام تعاليم الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه من المعاصي والمنكرات؛ لتتسع ساحة رحمة الله تعالى لكل من آمن وعمل صالحًا.

والإيمان يُهذب النفس والقلب، ويوجههما إلى الخير، ويردع النفس عن ارتكاب الرذائل، إذ إن الإيمان يضفي على الأخلاق قداسة ومهابة تتحكم في تصرفات الإنسان في السر والعلن، بل تجعل من النفس رقيبًا على الإنسان آناء الليل وأطراف النهار بعد أن كانت هي أعدى أعداء الإنسان وهي التي بين جنبيه حين تصبح هذه النفس مطمئنة إلى الله وبالله تعالى.

وشرف الإنسان في خلافته على الأرض، فإذا التزم الأخلاق الفاضلة فإنه لا محالة مستحق لهذا الشرف الذي خلق من أجله. وهذا الشرف مبعثه النفس الطاهرة التي أزيل نجسها ورجسها، ولذلك وصف الله تعالى المشركين بالنجس فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

---

(١) صحيح: البخاري (٦١٢٠) في الأدب.

ووصف الذين لا يؤمنون باستحقاق الرجس فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

فمن طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله، وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف: ٥٨).

وقد أراد الله تعالى أن يطهر نفوس المؤمنين وقلوبهم كما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وأفضل تطهير للنفس هو الاستجابة لله ورسوله، إذ الاستجابة لهما تطهير للقلب والنفس أن كما، الماء طهارة للبدن، وإحياء لها ولذلك قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤).

ولقد قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

قال ابن عباس: «الماء القرآن، إذ به طهارة النفس، والأودية هي القلوب التي احتملته بحسب ما وسعته»[1].

ومن أفضل ما أمرنا به من الأخلاق الطيبة: الحياء ذلك الخلق الذي يُثمر في صاحبه الكمال في كل شأنه، ويُضفي عليه المهابة ما يسمو به عن التورط فيما يعاب، ذلك الخلق الذي يحبب إلى صاحبه الطاعة والتقوى والاستقامة، ويقف به عند حدود الله لا يتعداها، ويبغض إليه الكفر والفسوق والعصيان، من أجل ذلك كان الحياء خيرًا كله، وكان رأس الفضائل، وقرين الإيمان، والذروة في مكارم الأخلاق، حتى قال الحكماء قديمًا: «مَنْ كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه».

* **تعريف الحياء:**

(١) قال الراغب الأصفهاني: «الحياء انقباض النفس عن القبيح، وهو من خصائص الإنسان؛ ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي، فلا يكون كالبهيمة، وهو مركب من جُبن وعفة؛ فلذلك لا يكون المستحيي فاسقًا، وقلما يكون الشجاع

---

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني (صـ ٣١).

مستحييًا، وقد يكون لمطلق الانقباض كما في بعض الصبيان»[١].

(٢) وقال غيره: «هو انقباض النفس خشية ارتكاب ما يكره»[٢].

والعفـة التي ذكرها الراغب هنا هي حـالة للنفس تبتـعد بها عـما لا يحل، ولا يجمل، ولا يليق. فيقال: عفَّ الرجل عن الحرام: أي ابتعد عنه.

وعفَّ اللسان عن الفحش. وعفت المرأة: أي صانت عرضها وشرفها.

(٣) وقال الحليمي: «حقيقة الحياء خوف الذم بنسبة الشر إليه».

وقال غيره: «تغيـير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعـاب به؛ فيبعث على اجتناب القبيح»[٣].

(٤) وقال الشيخ محمد الغزالي: «والحياء أمـارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيـمة إيمانه، ومـقدار أدبه، وعندما ترى الرجـل يتحرج من فـعل ما لا ينبغي، أو ترى حـمرة الخجل تصـبغ وجهه إذا بدر منه مـا لا يليق؛ فاعلم أنه حي الضمـير، نقي المعدن، زكي العنصر، وإذا رأيتـه صفيقًـا بليد الشعور، لا يبـالي ما يأخذ أو يترك؛ فهو امـرؤ لا خير فيه، وليس له من الحياء وازع يعـصمه عن اقتراف الآثام، وارتكاب الدنايا»[٤].

ونستطيع أن نعرف الحياء إذًا بأنه: «**ذلك الخلق الطيب الذي يمنع الإنسان من ارتكاب الخطأ، أو الوقـوع في المعصـية، أو التـقصـير في العـبادات، أو انتـهاك حـرمات المسلمين، وذلك لعلمه أن الله تعالى يراه، ثم لخوفه من تعيير الناس إياه بذلك الإثم، وهي صفة وخلق ينتج عن الإيمان بالله تعالى، والالتزام بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ**».

*** لماذا خلق الحياء خاصة؟**

(١) **لأن الحياء من الإيمان**: فقد روى ابن عمـر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: «**دعه، فإن الحياء من الإيمان**»[٥].

---

(١)، (٢)، (٣) ذكرهم ابن حجر (١/ ٧٤، ٧٥) في «فتح الباري».

(٤) انظر الشيخ محمد الغزالي: «خلق المسلم» صـ ١٦٢.

(٥) متفق عليه: البخاري (٢٤) في الإيمان، مسلم (٣٦/ ٥٩) في الإيمان.

فالحياء يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي كما يمنع الإيمان، ولذلك سُمِّي إيمانًا.

والحياء شعبة من شعب الإيمان، أي خصلة من خصاله، وصفة من صفاته كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون- أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[١].

ذلك لأن استعمال الحياء على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب، وعلم، ونية، فهو من الإيمان، ولأنه أيضًا يبعث على فعل الطاعة، ويكون حاجزًا عن فعل المعصية؛ إذ الحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر[٢].

(٢) ولأن الحياء هو خلق الإسلام: ففي الحديث عن ابن عباس، وعن أنس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«إن لكل دينٍ خُلُقًا، وإن خُلُق الإسلام الحياء»**[٣].

(٣) ولأن الحياء قرين للإيمان لا يفترقان: وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«الحياء والإيمان قرناء جميعًا، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر»**[٤].

(٤) ولأن الحياء يدخل صاحبه الجنة: كما في حديث أبي هريرة، وأبي بكرة، وعمران بن حصين رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: **«الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذاء من الجفاء، والجفاء في النار»**[٥].

والبَذاء هو: الفحش. ومنه: البذاءة. ويقال للفاحش: بذيء.

(٥) والحياء صفة من صفات الله تعالى: وفي الحديث عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين»**[٦].

---

(١) صحيح: مسلم (٣٥/٥٨) في الإيمان، وله رواية عند البخاري (٩) في الإيمان.

(٢) ابن حجر (٥٢/١) في «فتح الباري».

(٣) حسن: حسنه الألباني (٢١٤٩) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: صححه الألباني (٣٢٠٠) في «صحيح الجامع».

(٥) صحيح: صححه الألباني (٣١٩٩) في «صحيح الجامع».

(٦) صحيح: صححه الألباني (٣٥٥٦) في «سنن الترمذي»- الدعوات- باب (١٠٥).

والحيـاء في حق الله تعالى حيـاء كرم وإجلال، ولله سـبحانه وتـعالى منه الحظ الأكمل، وحياؤه سبحانه عبـارة عن إظهار كرمه، وإدرار نعمه على عباده، يكره أن يرد العبد إذا دعاه من دون خوف منه سبحانه، لأن الخوف غير جائز في حقه[١].

(٦) **والحياء كله خير**: كما ذكرنا ذلك في الحديث المتفق عليه.

(٧) **ولأن الحياء من الحياة**: فكلما كان الإنسان حيي كلما كان حي القلب، فيصير الحياء في النعمة شكر، وفي المحنة تسليم وصـبر، وفي القضاء إنصاف وعدل، ومع الوالدين والأرحام صلة وبر، وفي معاملة الضعـفاء والأرامل والأيتام عطف ورحمة ورفق، وفي الودائع أمـانة ورعايـة، وفي الرجال زينة، وفي النـساء عـفة وطهـارة وطاعة.

والمسلم الحيي إذا زلَّ فهو التائب النادم، وإذا وفق لخير فهو المتواضع الخاشع، إنه شجاع في مـواجهة خصمه، لأنه يحب لله، ويبـغض لله، لا يخشى في الحق لومة لائم، يدفعه الحياء إلى البذل والتضحية والجود والسخاء، مؤمنًا بأن التراجع في هذا المضمار خلق يجافي الإيمان، ولا يرضى به الشرفاء الأوفياء.

وسيصـير الحياء إذا تمسكنا به هو ذلك الـزاد الذي نواجه به أعاصير الـفساد التي تكاد تعصف بكل القـيم والمبادئ، والشعار الذي يرفعـه المسلم في دنيا تموج بالفتن، والحافز القوي على رفع الحق، والتسامي عـن السير في ركب الهوى، والسياج الذي يحفظ على المؤمن نور إيمانه، ويلبسه ثوب التقى والطهر والعفاف.

وإذا كان الحياء شعبة من شـعب الإيمان، فمعنى ذلك أنه يبعث في النفس معاني الخير، ويضـفي على القلب نوراً يمشي به بين الناس، فلا يسقط فـي عثرة، ولا يقع في زلة، ولا ينحـرف عن الطريق السـوي، إيمانًا منه بأن عين الله تراه، ولا تغـيب عنه، يذكر قول ربه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦).

* كيف نهيج الحياء داخل النفوس؟

(١) **بالتفكير في دوام إحسان الله تعالى إلينا مع تضييعنا للشكر، وإدامتنا التفريط والإساءة**: فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤).

---

(١) القرطبي (١/ ٣٥٥) في «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى» ط دار الصحابة.

وكم من نعمة عجز العبد عن شكرها، وكم من نعمة عجز العبد عن رؤيتها، فمن النعم نعمة لا تحصيها، ونعمة لا تشكرها، ونعمة لا تذكرها، ونعمة لا تراها، ونعمة تأتيك، ونعمة على غيرك تراها وتتمناها فتأتيك بإذن الله، ونعم الله لا تعد ولا تحصى، ومع ذلك فالإنسان تفوق ذنوبه الإحصاء والعد، وتفريطه يفوق الحصر والوصف.

فإذا تذكرنا التفريط والإساءة مع دوام النعم، استحيينا من الله تعالى لتفريطنا في أداء حقه سبحانه.

(٢) **أن تعلم أنك بعين الله في متقلبك ومثواك**: ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، وقال سبحانه معاتبًا العصاة، ومنددًا بالكفار: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق: ١٤).

وإذا ما خلوت الدهر يومًا فلا ❁ تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ❁ ولا أن ما تفعله عنه يغيب

والله تعالى أحق أن يُستحيا منه عز وجل، ولذلك كان كثير من السلف إذا دخل الخلاء تضام ولم ينتصب قائمًا، ولا يغتسل إلا وعليه غطاء استحياءً من ربه تعالى.

وورد عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان إذا دخل الخلاء يغطي رأسه ويقول: «إني لأستحي من ربي».

*** قصة:**

وقد حُكي أن رجلاً أراد تعليم ولده السرقة، فاصطحبه معه إلى منزل ليسرقه، ثم أمره بالوقوف على بابه، وإنذاره إذا رأى أو سمع مَنْ يأتي عليهما حتى لا يُقبض عليه ويُكشف أمره، وما أن دخل الأب اللص إلى البيت ليسرقه حتى ناداه الصغير: أبي. أبي. فانزعج الأب، وأسرع اعتقادًا منه أن من البشر من يراه، فلما وصل إلى ولده لم يجد أحدًا، فعنَّفه ولامه، فقال الصغير: إن كان من البشر من لا يرانا؛ فإن الله يرانا.

إذا ما قال لي ربي ❁ أما استحييت تعصيني

وتُخفي الذنب من خَلْقي ❁ وبالعصيان تاتيني

(٣) أن تذكر طول وقوفك بين يدي الله تعالى، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير، والنقير والقطمير: في يوم أنت مسئول لا محالة وحدك أمام الله تعالى، يتساقط لحم وجهك خجلاً من تفريطك وإساءتك وتقصيرك وكثرة معاصيك، فاستحي منه في الدنيا؛ يخفف عنك الحياء يوم القيامة. ولذلك قالوا: «مَنْ استحيا مِنْ الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب».

أي أن العبد إذا كان على خلق الحياء من الله تعالى في حال طاعته، ثم ألمَّ بالذنب استحيا الله تعالى من النظر إليه في تلكم الحال، وهو حياء كرم وجلال، فكيف لا يستحيي العبد من ربٍّ سبحانه حيي كريم ستير؟!

وهو ما يجرنا للحديث عن (**الحياء مع الله تعالى**) والباعث عليه، والدافع إليه علم المؤمن برقابة ربه تعالى، ويقينه أن ربه تعالى لا تخفى عليه خافية، فهو سبحانه: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ (غافر: ١٩). فلا يفقده ربه حيث أمره في المساجد حيث الصلوات، وفي الحرم حيث الطواف والحج والعمرة، ولا يراه ربه حيث نهاه في مواطن السوء والمنكر، وإذا ذكر الله خشعت جوارحه، ورق فؤاده، واستجابت أعضاؤه لطاعة ربه تعالى، وهذا هو حق الحياء.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قلنا: إنا لنستحيي من الله والحمد لله. قال: «**الاستحياء من الله تعالى أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»(١).

وقال بعض السلف: «استحي من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك».

وقال بعض العارفين: «إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكت فاذكر نظره إليك»(٢).

---

(١) حسن: الترمذي (٢٤٥٨) في صفة القيامة، وحسنه الألباني (٩٣٥) في «صحيح الجامع» بنحوه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (صـ ١٨٥) حديث (١٢) ط دار الفجر للتراث بتحقيقنا.

وقد ذم الله تعالى أقواماً طرحوا الحياء حين اختلوا، ولبسوه أمام الناس اجتراءً على الخالق سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٨). وفي ذلك إيثار للخلق على الخالق[١].

ومن الحياء مع الله تعالى (حياء الرقابة) وهو حياء يتولد من العلم بنظر الله إليك فتستقبح المعصية، كذلك الرجل ممن جعلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وهم سبعة: «...**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين..**». وذلك هو فعل يوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز عن نفسه، فعلم أن ربه يراه؛ فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (يوسف: ٢٣).

وكذلك قال ابن آدم لأخيه لما أراد قتله: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨). فتحول الإيمان بالله ثم الخوف منه سبحانه، والعلم بقربه واطلاعه إلى مجافاة المعصية حياءً منه سبحانه، وهكذا صار الحياء حائلاً بين العبد والمعصية، وانتصرت العفة والطهارة على مغريات الإثم، وسبحانه من إذا أذنب عبده استحيا منه، وعبده قد نسيه، فليعلم العبد أن مما يثبت الحياء ويقويه: الخوف من الله عند الهوى، وفزع القلب ساعتها، واستوحاشه من علم الله، ففي ذلك تثبيت الحياء والدوام عليه.

وهذه امرأة يذكر الشيخ أبو بكر الجزائري قصتها فيقول: «ورحم الله امرأة كانت قد فقدت طفلها، فوقفت على قوم تسألهم عن طفلها، فقال أحدهم: تسأل عن ولدها وهي منتقبة؟ فسمعته فقالت: لأن أُرْزَأَ في ولدي خير من أن أُرْزَأَ في حيائي أيها الرجل!!»[٢].

(٤) ومما يقوي الحياء ويهيجه أيضاً: (علمك بأن المعصية نذالة وخسة):

فقد قال بعض السلف: «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءةً فاستحالت ديانة- أي: أصبحت ديانة».

وقال آخر (وهو الجراح بن عبد الله الحكمي، فارس أهل الشام): «تركت الذنوب

---

(١) العز بن عبد السلام: «شجرة المعارف والأحوال» (صـ ١٧٧) ط دار الفكر- سوريا.

(٢) «منهاج المسلم» (صـ ١٣٧) للشيخ أبي بكر الجزائري ط دار التراث العربي.

أربعين سنة حياءً، ثم أدركني الورع»[١].

إنه ليس أهنأ للروح، ولا أحيا للقلب، ولا أفلح للنفس، ولا أكثر راحة للضمير من أن نرى عقيدتـنا صاحبة السلطان والنفوذ في نفوسنا، ونفـوس الناس أجمعين، ولقد جعلهم الحياء ينطقون بالحكمة والسداد والصواب.

* **من نماذج الحياء:**

وكنا قد ذكـرنا نموذج يوسف عليه السلام مع امـرأة العزيز، وحيـاءه من ربه عز وجل.

(١) وقد ذكر القـرآن قصة موسى عليه السلام مع ابنة صـالح مدين لما قالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥). ثم عادت فقـالت لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

فأما قوته؛ فلأنه عليه السلام رفع الحـجر عن البئر، وسقى لابنتي صالح مدين، وأما أمانته فـقد تجلت في أنه عليه السلام لما أرادت ذهابه إلى أبيهـا قال لها: كوني ورائي، ودليني على الطريق، فإذا اختلفت عليّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[٢].

(٢) وكانت أم المؤمنين عـائشة رضي الله عنها تدخل على قبـر النبي ﷺ، وقبر أبي بكر الصديق بفـضل ملابسهـا، وتقول: إنما هو زوجي، وأبي. فلما دفن عـمر بجوارهما كانت تدخل بملابسها كاملة رغم أنه ميت!!

(٣) وكان الحـسن البصري يقـول عن عثـمان بن عفـان رضي الله عنه: «إن كان ليكون في البـيت وحده وليس مـعه أحد، والبـاب عليه مـغلق، فما يـضع الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه»[٣].

وقد كـان جزاؤه رضي الله عنه عند ربه عظيـمًا، فلما مـات دفن في ثيابه، ولم

---

(١) ابن رجب: «جامع العلوم والحكم» حديث (٢٠).

(٢) ذكره الطبـري (٢٠/ ٣٩) في تفسيره، والقرطـبي (١٣/ ٢٨١)، وابن كثير في تفـسيره ط دار الفجر للتراث.

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٩٤) لابن الجوزي.

يتعر في غسل ولا غيره، فقد أبي ربه عليه إلا أن يعيش حييًا، ويموت على ما عاش عليه من الحياء حفظًا له.

وكان النبي ﷺ يقول عن عثمان رضي الله عنه: **«ألا أستحيي من رجل والله إن الملائكة لتستحيي منه»**[(١)]. وهذا يعني أن الحياء صفة من صفات الملائكة.

(٤) وكان الحسن بن علي رضي الله عنه سبط النبي ﷺ قد حج إلى بيت الله الحرام خمسًا وعشرين مرة ماشيًا، وإن النجائب- وهي النوق الكريمة- لتقاد بين يديه وهو يقول: «إني لأستحيي أن ألقى ربي ولم أحج إلى بيته ماشيًا»[(٢)].

(٥) وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها زوجًا للزبير بن العوام رضي الله عنه، وكان الزبير رضيَ الله عنه شديد الغيرة عليها، والله يغار، ورسوله، والمؤمنون، فكانت أسماء تقص هذه الرواية فتقول: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غرَبه وأعجن، ولم أكن أُحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النَّوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يومًا والنَّوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: إخ إخ، ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال...»[(٣)] الحديث.

فانظر إليها تذهب إلى أرض الزبير في بني النضير، وتمشي وشعارها (الحياء) تقول: «استحييت أن أسير مع الرجال»، ولعمري؛ هذه عبارة لطالما أردت من نساء المسلمين سماعها بعد أن تفشى فيهن داء (مزاحمة الرجال) لا السير معهم، وإذا كان السير مع الرجال يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لأسماء، فما تقول رضي الله عنها في مخالطة الرجال، ومزاحمة الرجال، ومرافقة الرجال؟!

---

(١) صحيح: مسلم (٢٦/ ٢٤٠١) في فضائل الصحابة عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «البداية والنهاية» (٨/ ٤٧) ط دار الفجر للتراث بتحقيقنا.

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٢٢٤) في النكاح، مسلم (٢١٨٢/ ٣٤) في السلام. وقولها: ناضح: بعير يسقى عليه الماء. وأخرز غربه: أملأ دلوه. وإخ إخ: تقال للبعير حتى ينيخه.

*** حياء النبي ﷺ :**

وقد قال أبو سعيد الخدري: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»(١).

فلقد كان النبي ﷺ أشد حياءً من البكر- أي العذراء وهي الشابة التي لم تتزوج- في خلوتها، لأنها في خلوتها يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها(٢)، وهذا بالطبع في خارج حدود الله، فإنه كان ﷺ يغضب إذا انتهكت محارم الله عز وجل كما فعل مع ماعز الذي زنى.

وقد روى ابن عباس فقال: «كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات، وما رأى أحد عورته قط»(٣).

ومثال حيائه من ربه تبارك وتعالى ما حدث في ليلة الإسراء والمعراج لما أمره موسى عليه السلام أن يعود إلى ربه فيسأله التخفيف بعد أن جعل له الصلاة خمسًا فقال: **«سألت ربي حتى استحييت»**(٤).

وقد كان ﷺ تُعرف كراهية الشيء في حُمرة وجهه ﷺ حتى يعلم الفاعل خطأً أنه قد أخطأ، حتى لا يوقعه النبي ﷺ في حرج.

وكان إذا أراد النصيحة عليه السلام قال: **«ما بال أقوام»**. دون ذكر أسماء، أو تعيين أشخاص، ولنا فيه الأسوة الحسنة.

*** معنى قوله عليه السلام: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»:**

هذا قول مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأن الناس تداولوه بينهم، وتوارثوه عنهم قرنًا بعد قرن حتى أدركه الناس لما اشتهر بينهم، ووصل إلى هذه الأمة.

ومعنى قوله: **«إذا لم تستح فاصنع ما شئت»**. على معنيين:

أحدهما: أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء، ولكنه على معنى الذم والنهي عنه.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦١٠٢) في الأدب، مسلم (٢٣٢٠) في الفضائل.

(٢) ابن حجر (٦/ ٥٧٧) في «فتح الباري».

(٣) حسن: حسنه الحافظ ابن حجر (٦/ ٥٧٧) في «الفتح».

(٤) صحيح: البخاري (٣٨٨٧) في مناقب الأنصار.

وأهل هذه المقالة لهم طريقان:

أحدهما: أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد. والمعنى: إذا لم يكن حياء فاعمل ما شئت، فالله يجازيك عليه، كقوله تعالى: **﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (فصلت: ٤٠)، وقوله: **﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾** (الزمر: ١٥).

والطريق الثاني: أنه أمر ومعناه الخبر.

والمعنى الثاني: أن من لم يستح صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر، وما يمتنع من مثله مَنْ له حياء على حد قوله ﷺ: **«مَنْ كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**[١]. صحيح متواتر.

*** نوعا الحياء:**

(١) حياء فطري خلق العبد به.

(٢) حياء مكتسب من معرفة الله، ومعرفة عظمته، وقربه من عباده، واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور. فهذا من أعلى درجات الإيمان بل هو أعلاها وهو الإحسان.

*** حياء ممدوح، وحياء مذموم:**

ومن كلام الحسن البصري: «الحياء حياءان: طرف من الإيمان، وطرف من العجز».

والحياء الممدوح: هو حياء المؤمنين، وهو حياء السكينة والوقار الذي يحث على فعل الجميل، وترك القبيح، وهو الحياء الذي قال فيه ﷺ: **«دعه فإن الحياء من الإيمان»**. وقد ذكرنا أمثلته.

والحياء الممدوح المحبوب لا يمنع من السؤال عن الشرع وأموره، وإلا صار حياءً مذموماً، ومنه حديث أم سلمة رضي الله عنها حين قالت: «جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: **«نعم إذا رأت الماء»**[٢].

---

(١) ابن رجب- جامع- حديث (٢٠) (صـ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) صحيح: البخاري (٦١٢١) في الأدب.

ولذلك مدحت عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار، كما في رواية البخاري عنها وقالت: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». أي السؤال عن كل أمور الدين: عن الحيض، والجماع، وغيرهما، وإذا لم يسألنه عليه السلام فمن يسألن وهو بين أظهرهم جميعًا؟!

ولذلك كان عمر يوصي رجلاً فيقول له: «عليك بعمل العلانية، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستح منه».

وهو نفسه عمر الذي يعلم ابن عمر رضي الله عنهما كما عند البخاري أن الحياء لا يمنع من التفقه في الدين، فقد قال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء لا يسقط ورقها، ولا يتحات**». فقال القوم: هي شجرة كذا. قال ابن عمر: فأردت أن أقول: هي النخلة- وأنا شاب- فاستحييت، فقال ﷺ: «**هي النخلة**». فقال له عمر: لو كنت قلتها لكان أحب إليَّ من كذا وكذا[١].

إذًا فالحياء إنما يكون من كل خلق دنيء في دين أو دنيا.

وقال أبو مسلم الخولاني: «ما عملت عملاً أُبالي أن يطّلع عليه الناس إلا إتياني أهلي، والبول، والغائط».

وأما الحياء المذموم: فهو حياء العجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله تعالى، أو حقوق عباده، فليس هو من الحياء، وإنما هو ضعف وخور وعجز ومهانة. والله أعلم[٢].

ومنه الحياء المتكلف: كذلك الرجل الذي وجد تمرة في الحرم، فنادى: لمن هذه التمرة؟ فقال عمر له: اجلس يا صاحب الورع المتكلف.

فاعلم أنه فارق بين الحياء والخجل، فكثيراً ما يذم الخجل الذي يطلق عليه من باب المجاز حياءً.

*** الفارق بين الحياء والرياء:**

أقول: إن الحياء يجعل الإنسان يخشى ربه تعالى، والرياء يجعل الإنسان يتكلف

---

(١) صحيح: البخاري (٦١٢٢) في الأدب.

(٢) ابن رجب- جامع- حديث (٢٠) (صـ ٣٣١).

للناس دون أن يفكر في إصلاح النية والإخلاص، فيتجه قصده إلى رؤية الناس له، وتعظيمهم إياه.

ولهذا دليل: فقد شرب رجل عند رسول الله ﷺ سُويقًا- أي تمرًا وماء- فاستتر بثوبه من الناس، فقال رجل: ما هذا؟ فقال النبي ﷺ: **«هذا الحياء يعطيه الله أقوامًا ويمنعه آخرين»**.

ولذلك فإن أبا عبيدة يقول في «غريب الحديث»(١) عن جرير: إن الرجل إذا أراد أن يعمل الخير فيدعه حياءً من الناس كأن يخاف من الرياء، يقول: فلا يمنعك الحياء من المضي لما أردت. اهـ.

كأنه يفرق بين الحياء والرياء على أساس من تتجه إليه النية، فإذا اتجهت إلى الله تعالى فليس من الرياء، وإنما هو حياء، فامض في عبادتك، وأطل صلاتك لتغيظ الشيطان، أو أكثر من العمل الصالح وقتها.

وإذا اتجهت النية إلى الناس فهو رياء، يحاسبك الله عليه بأن تكون من أهل النار، يحبط عملك، فقد عملت ليقال عنك: كذا كذا. وقد قيل.

*** خطورة ترك الحياء:**

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن الله إذا أراد بعبدٍ هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا ممقتًا، فإذا كان مقيتًا ممقتًا نزع منه الأمانة فلم تلقه إلا خائنًا مخونًا، فإذا كان خائنًا مخونًا نزع منه الرحمة فلم تلقه إلا فظًّا غليظًا، فإذا كان فظًّا غليظًا نزع ربقة الإيمان من عنقه، فإذا نزع ربقة الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطانًا لعينًا مُلعنًا»(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الحياء والإيمان في قرن، فإذا نزع الحياء تبعه الآخر»(٣). قصد الإيمان؛ وذلك لأن ترك الحياء يعني اتباع الشهوات، والشهوات جامحة لا تقف عند حد معين، ولذلك فإن الإسلام يكبت الشهوات دون مقاومتها موجهًا المسلمين إلى ما يقمعها ويكبتها.

---

(١) «غريب الحديث» (٣/ ٣١) لأبي عبيد.

(٢)، (٣) ابن رجب- جامع- حديث (٢٠) (صـ ٣٢٩).

والحياء من أقوى الأدوية في مواجهة الشهوات، وكبح جماحها، والوقوف أمام عواصفها وزلازلها.

ومع اختفاء الحياء وتركه تظهر الخيانة، فتترك الفرائض، ويُعصى الله تعالى، وتنتهك الحرمات، وتظهر الخيانة، وبئست البطانة، ولقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٧).

وعند ظهور الخيانة انتظر كل شكل من أشكالها، وكل ضرب من ضروبها، وعلى سبيل المثال لا الحصر هذه خيانات:

(١) ترك فرائض الله تعالى، وهي خيانة لله ورسوله.

(٢) ترك المرأة للحجاب، وتبرجها بلا حياء من الله، أو من الناس، مظهرة لزينتها دونما حياء أو حرج، وليعلم أولئك أن ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي، لأن آدم نهي عن الأكل من الشجرة فأكل منها فتاب الله عليه، وإبليس أُمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه[١].

(٣) صديق يزني بأخت صديقه بعد تكرار دخولها عليهما.

(٤) جار يخون جاره بأن يزني بزوجته.

(٥) فتاة تلبس سروالاً ضيقًا يثير غريزة الشباب حتى اغتصبوها علانية.

(٦) معاكسات الهاتف (التليفون) الليلية.

(٧) صديق يقتل صديقه لأجل التنافس على فتاة الشارع.

(٨) رسائل المحمول الفاضحة رسمًا وقولاً بلا حياء.

(٩) أيادٍ تمتد طلبًا للصدقات بإذلال النفس، وإراقة ماء الوجه مع أنهم أقوياء، وأصحاب بنية قوية، ولهم القدرة على الكسب متعللين بالعجز والحاجة، يأكلون أموال الناس بالباطل مع سلامة أعضائهم، ومتانة أجسادهم، وقدرتهم على الكسب.

(١٠) تدقيق النظر في النساء دونما غض للبصر، وأب يشاهد مع بناته مشاهد

---

(١) ابن قيم الجوزية- الفوائد (صـ ١٥٣) ط دار الفجر للتراث.

غرامية جنسية فاضحة تثير الشهوات.

وبالله عليكم، أين العفة في مجتمع ديانته الإسلام خلقه الحياء؟!!

لقد استطاع الإسلام أن يقدم حلاً واضحًا وصريحًا للمشكلة الجنسية التي تمثل عصب الفساد، حتى أن الفقهاء كانوا يسمون الزنا بـ (الفاحشة) لعظم ما فيه من اجتراح للحرمات.

فقد قال الله تعالى للرجال من المؤمنين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ (النور: ٣٠).

وقال للمؤمنات: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

وقال للجميع: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (المؤمنون: ٥).

فمنذ البداية غض بصرك، واحفظ فرجك.

كل الحوادث مبدأها من النظر ✿ ومعظم النار من مستصغر الشرر

وإذا كنا قد سلمنا أننا لن نقضي على الشهوة الجنسية، فهل نشعلها نارًا تستعر بالعري والفساد؟

احفظوا عنا: «الجنس في مأمن، ما دام في مكمن»، فإن خرج كانت الكارثة الكبرى.

وأهمس في الآذان: لا بد من تغيير المنكر يدًا، أو لسانًا، أو قلبًا حتى تعود الفضيلة تارة أخرى حاكمة بأمر الله تعالى، وإلا هلك الصالحون والطالحون، فإن العصاة إذا تهتكوا ولم يغير عليهم عاقب الله تعالى الخاصة والعامة.

*** جزاء المتمسكين بالحياء:**

(١) **حب الله ورسوله ﷺ**: ففي الحديث عن الأشجِّ المنقري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«إن فيك لخصلتين يحبهما الله»**. قلت: ما هما؟ قال: **«الحلم والحياء»**. قلت: أقديمًا كان أو حديثًا؟ قال: **«بل قديمًا»**. قلت: الحمد لله الذي جعلني على خليقتين يحبهما الله[(١)].

---

(١) صحيح: أحمد (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦) في «المسند».

(٢) أن الحيـاء زينـة للأفعـال: ففي الحـديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»**(١).

وشانه: عابه (من الشَّيْن). وزانه: أي صار زينة له.

(٣) وما زاد الحياء صاحبه إلا خيراً: وما أعطاه إلا راحة وسلامـة، فقلَّ معادوه، وكثر مصـافوه، وسهلت عليه الأمور الصعـاب، ولانت له القلوب الغضاب، والله تعالى يحب الحيي الحليم.

(٤) ومَنْ كثر من الله حياؤه: انقبضت نفسه عن مجاهرته بالعصيان، إذ علمه معه في كل مكان، فمن عصاه فقد جاهره، ثم مهما أفشى معصيته في الخلق فعلاً وقولاً فقد أعظم المجاهرة، إذ من لا يستحيي من الناس لا يسـتحيي من الله، ومن استحيا من ربه وجده ربه حيث أمره، وافتقده حيث نهاه، وانزجر عن القبائح(٢).

✿ ✿ ✿

---

(١) صحيح: صححه الألباني (١٩٧٤) في «سنن الترمذي»- كتاب البر والصلة- باب (٤٧).

(٢) القرطبي- الأسنى (١/ ٥٣٧- ٥٣٩) بتصرف شديد.

[٢] الاستقامة... قولا وفعلا وأثرها في حياة الأمة

عن أبي عمرو- وقيل: أبي عَمْرة- سفيان بن عبد الله الثقفي[١] قال: قلت: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك. وفي رواية: غيرك-. قال: «قُلْ: آمنتُ باللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»[٢].

وروى الترمذي هذا الحديث، وزاد فيه أن سفيان قال: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»[٣].

❁ ❁ ❁

* **كلمات حول الاستقامة:**

إن القرآن هو وحي الله إلى خلقه، ومأدبته إلى عباده، ومنهجه الحق الذي جمع فيه أطراف الخير للخلق، وأودع فيه مادة الإصلاح للبشر: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

ما آمنت به أمة إلا هداها للتي هي أقوم، وما التزمت به إلا لزمت الجادة، واستقامت على الطريق، منضبطة الحركة، متزنة الخطو، سوية السلوك، فوصلت إلى غايتها من أقرب طريق، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩). ويقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٧، ٢٨).

---

(١) أسلم رضي الله عنه مع وفد الطائف بعد غزوة حُنين، وحسن إسلامه، روى عنه أولاده: عاصم، وعبد الله، وعلقمة، وعمرو، وأبو الحكم، وتبلغ مروياته خمسة أحاديث، ولم يرو له مسلم سوى هذا الحديث.

(٢) صحيح: مسلم (٣٨/٦٢) في الإيمان- باب (١٣) جامع أوصاف الإسلام.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٢٤١٠) في «سنن الترمذي» (٢٤١٠) في الزهد- باب (٦٠).

فلقد حث الإسلام على الاستقامة، وأمر بها، ورغَّب في مزاولتها، إذ الاستقامة هي القدر المشترك الذي يلتقي فيه جلال الدين وجمال الفطرة.

إن دين الله بكل دعوته للبشر، وتوجيهه للأمة، ودعمه لمسيرتها ومصيرها العاصم من الأهواء التي لا تستند إلى حق، ولا تستمد من علم، الواقي من سعار الشهوات التي يلهث خلفها الخلق بغير ضابط ولا دليل، وإن الله الذي خلق الخلق هو نفسه سبحانه الذي أنزل الحق ليحكمهم به، ويعرفهم عليه، وهو أعلم بهم وهو اللطيف الخبير، يطب لهم من أمراضهم، ويقوم لهم من عوجهم.

فإن النفوس إذا انحرفت عن الفطرة، وحادت عن الجادة لا يردها إلى صفائها وسوائها إلا هذا الدين الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم: ٤٣).

إن الاستقامة في الإسلام منهج متكامل جمع بين العقيدة والشريعة، والدين والدنيا، إنها تعني القيادة الظافرة، والمسيرة الحازمة المستقيمة على نهج واضح، ويقين ثابت، تدعو إلى الله على بصيرة، وتستوي على أمره دون انحراف، وتنأى عن الأهواء المتصارعة هنا وهناك.

إن الاستقامة تعني الثبات على الحق، والإصرار عليه، ومقاومة الباطل، ومغالبة الغي، وتحكيم العدل من غير جور، ومراعاة الإنصاف من غير عسف، ومراقبة الله دون سواه، والإحساس الكامل بالمسئولية والجزاء، ثم الموضوعية التامة، والحيدة المطلقة التي تختفي معها في نور الحق وظهوره كل مهاترة ولجاجة.

إن الاستقامة هي تلك الصورة التي تجمع في عدل وانضباط بين حركة القلب والوجدان وحركة النزوع والسلوك، وحركة الكلمة، وتأثير البيان، والشعور التام بالنفس والغير، وعمل الدنيا والتقديم للآخرة بقول الله جل جلاله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).

*** من معاني الاستقامة:**

ولقد ورد الأمر بالاستقامة في القرآن الكريم في أكثر من موضع:

فلقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (هود: ١١٢).

وقال سبحانه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (الشورى: ١٥).

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت: ٦).

ثم ورد جزاء المستقيمين في أكثر من موضع، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⦗١٣⦘ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣، ١٤).

وقد فسر الصحابة والسلف الاستقامة هنا على معانٍ. منها:

* قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قال: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: لم يشركوا بالله شيئًا.

* وقال أيضًا: لم يلتفتوا إلى إله غير الله.

* وقال أيضًا: ثم استقاموا على أن الله ربهم.

* وقرأ عمر على المنبر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت: ٣٠). فقال: لم يروغوا روغان الثعلب.

* وقال عثمان: «ثم أخلصوا العمل لله».

* وقال علي: «ثم أدوا الفرائض».

* وقال ابن عباس في نفس الآية: «استقاموا على أداء فرائضه».

* وقال قتادة: «استقاموا على أمر الطاعة لله».

* وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله؛ فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

* وقال مجاهد وعكرمة: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا».

* وقال سفيان الثوري: «عملوا على وفاق ما قالوا».

* وقال الربيع بن خُثيم: «أعرضوا عما سوى الله».

* وقال الفضيل بن عياض: «زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية»(١).

* وقال القرطبي: «الاستقامة هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امتثال أمر الله. واستقم: أي اطلب الإقامة على الدين من الله، واسأله ذلك»(٢).

* وقال النووي: «﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: وحدوا الله، وآمنوا به، ثم استقاموا، فلم يحيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعة الله سبحانه وتعالى إلى أن تُوفوا على ذلك»(٣).

* وقال ابن رجب الحنبلي في شرح معنى الاستقامة: «إن المراد هو الاستقامة على التوحيد، أي: التوحيد الكامل الذي يحرم صاحبه على النار، وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو المعبود الذي يطاع فلا يعصى خشيةً، وإجلالاً، ومهابةً، ومحبةً، ورجاءً، وتوكلاً، ودعاءً، والمعاصي كلها قادحة في هذا التوحيد لأنها إجابة لداعي الهوى وهو الشيطان. قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)».

قال الحسن وغيره: «هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وهذا ينافي الاستقامة على التوحيد»(٤).

* وقال القشيري: «الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حالته ضاع سعيه، وخاب جهده».

* وقيل: «الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق».

---

(١) انظر هذه الأقوال: القرطبي (١٥/ ٣٤٣) في التفسير ابن كثير، ابن رجب الحنبلي- جامع (صـ ٣٣٤، ٣٣٥) حديث (٢١).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ١١١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ٢٥٥) ط دار الفجر للتراث.

(٤) ابن رجب- جامع (صـ ٣٣٥) حديث (٢١).

* وقال الواسطي: «الاستقامة: الخصلة التي بها كملت المحاسن، وبفقدها قبحت المحاسن»[(١)].

ونستطيع إذًا أن نجمع هذه التعريفات لنقول: إن الاستقامة هي: **«الإيمان الكامل بالله وحده، والإذعان التام لمشيئته، والخضوع الأكيد لجلاله، والاحتكام الحقيقي في كل كبيرة وصغيرة إلى دينه، والتطبيق المطلق لشريعته، وصوغ الحياة العامة والخاصة وفق ما يأمر به وينهى عنه، وسرعة التخلص من كل ما لا يتسق مع دين الله من عقيدة، وفكر، وخلق، وسلوك في كل الحالات، وسائر الأوقات، بلا انحراف ولا حيدة في أي ظرف من الظروف، فإن الاستقامة منهج يوحي باليقين، ويفيض بالتجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب، وكل طاقة في النفس، بل يجمع ما في الحياة من نشاط، وعمل، وعبادة»**.

*** صعوبة أمر الاستقامة، وشدته، وخطورة ترك الاستقامة:**

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢): ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية أشد، ولا أشق عليه من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا: قد أسرع إليك الشيب[(٢)]. فقال: **«شيبتني هود وأخواتها»**[(٣)].

وقد جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أوصني. فقال: نعم. عليك بتقوى الله، والاستقامة، اتبع ولا تبتدع[(٤)].

وهكذا يتبين لنا أن أمر الاستقامة صعب شديد على المؤمنين في بداية مكابدتها، لأن الإنسان تتنازعه نفسه، وشيطانه، وهواه، وكلهم أعداء له يرونه ولا يراهم، يتسللون إليه تسلل النمل على الصخرة الملساء، إن لم تره لم تسمعه، وقد تعاون الشيطان والنفس على تمكين الهوى في قلب الإنسان، فإذا تمكن منه ضاع في تيه الضلالة، وغرق في بحر الشهوات.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (صـ ٢٠١، ٢٠٢) ط مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت.

(٢) النووي (١/ ٢٥٥) على شرح مسلم، القرطبي (٩/ ١١١).

(٣) صحيح بشواهده: الترمذي (٤١) في «الشمائل» عن أبي جحيفة، وله شواهد تصححه كما عند الترمذي (٣٢٩٧) في التفسير، وهو في «الصحيحة» (٩٥٥) للألباني.

(٤) رواه الدارمي (١/ ٥٣) في المقدمة- باب: من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع.

ولذلك فإن القرآن قد ألزم المؤمنين اتباع الشريعة؛ ليحصلوا على الاستقامة، ويظفروا بها، ناهيًا إياهم عن اتباع الأهواء والزيغ. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨).

فإما اتباع لما أنزل الله، وإما غرق في بحر الأهواء، ولذا ذم الله تعالى من اتخذ إلهه هواه، فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٦).

ومعنى ذلك أن المسلم سيسير في طريقه، لا يعبأ بصخور، ولا بأشواك تلاقيه، غير متبع للهوى، أو ميَّال إلى الزيغ.

والزيغ: هو رد الشيء، ولو كان واحدًا من كلام الله أو رسوله ﷺ.

ولذلك قال الإمام أحمد: «نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا. ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ (النور: ٦٣)، وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزَّيغ؛ فيزيغ قلبه فيهلكه»(١).

ولقد عبر الإمام الشاطبي رحمه الله عن مشقة الاستقامة نظرًا لاتباع النفس الهوى، وغلبته عليها معظم الأحوال؛ فيقول رحمه الله: «إن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها، وصعب خروجها عنه؛ ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفى شاهدًا على ذلك حال المحبين(٢) وحال مَنْ بُعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين، وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه، حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال، ولم يرضوا بمخالفة الهوى، حتى قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣). وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ (محمد: ١٤). وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ (النجم: ٢٣). وإنما قصد الشارع بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه، حتى يكون عبدًا لله»(٣).

---

(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية صـ ٥٦.

(٢) يقصد: العشاق المتبعين للهوى.

(٣) «الموافقات» (٢/ ٤٥٤، ٤٥٥) للشاطبي ط دار المعرفة- بيروت.

ثم قال في موضع آخر: «فقد جعل الله تعالى اتباع الهوى مضادًا للحق، وعدَّه قسيمًا له، كما في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦). ثم قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣، ٤). فقد حصر سبحانه الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى؛ فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضادٌّ للحق، وتأمل؛ فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه، وقد رُوي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال: «ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه»، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى، والدخول تحت التعبد للمولى»[(١)].

وها هو المحدث الثقة ميمون بن مهران يصرخ محذرًا مَنْ يريد الاستقامة: «إياكم وكل هوى يسمى بغير الإسلام».

فإياك واتباع هواك، أو هوى غيرك الذي قد يلبس عليك، فبعض الناس كلامه له رونق، وربما تلفق وتنمق، وآخر الأمر لا يستمر، ولا يتحقق.

وهذا هو ابن قيم الجوزية ينادي: «نور الحق أضوأ من نور الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه، والطريق إلى الله تعالى خالٍ من أهل الشك، ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهو على الطريق كالأعلام[(٢)]: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)».

وهذا هو الإمام مالك يقول: «مثل السُّنَّة كسفينة نوح؛ مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تركها غرق».

يقول ابن الوزير اليماني في إيثار الحق: «إن الدين قد جاء به الرسول ﷺ، وفرغ منه، ولم يبق بعد تصديقه بدلالة المعجزات الباهرات إلا اتباع الدين المعلوم الذي جاء به». اهـ.

---

(١) السابق (٢/ ٤٧٠، ٤٧١) بتصرف يسير.

(٢) ابن قيم الجوزية- الفوائد صـ ٧٥.

فكن من الذين استقاموا على طريق الحق عز وجل، فقد قال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦). ولا تكن من أولئك الذين رقعوا دنياهم بدينهم، ففسد الدين، وفسدت الدنيا.

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ✿ فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ولقد أمر الله نبيه بالتمسك بالوحي، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف: ٤٣).

فلشدة الأمر، وكثرة تفلته قال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ أي أمسك، وأمسك عليه وحاول، واطلب من الله أن يجعلك من الذين يَمسّكون بالكتاب، وبما أوحي إلى النبي ﷺ.

كان الحسن البصري إذا تليت عليه آيات الاستقامة قال: «اللهم فارزقنا الاستقامة».

إن الأمة التي لا تستقيم على دين، ولا تستوي على طريقة، ثم تنال من الوفرة والغنى؛ فإنها تُعذب بآفات في إنسانيتها، وتبتلى في أمنها، وتصاب في ذاتها بالاضطراب النفسي، والقلق الاجتماعي، إلى غير ذلك مما يسلب عن ذلك الغنى والوفرة معنى الرخاء، ويحيل الحياة إلى لعنة مشئومة على إنسانية الإنسان، وفطرته، وخلقه، وكرامته، وطمأنينته، وأمنه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وإذا كان الاستمساك بالحق، والاستقامة عليه إيمانًا أُمرنا به، وشرفًا دعينا لإحرازه، فإن الخروج عليه، والمروق منه تفريط وطغيان، وانحراف وجور نُهينا جميعًا في كل مستويات العمل أن نتردَّى في حمأته، أو نركن إلى أهله، وإلا فلن نجد لنا من دون الله وليًّا ولا نصيرًا في الدنيا أو في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٢، ١١٣). والطغيان: مجاوزة الحد[١].

فانظر أين كان سلفك من الاستقامة، والزم غرزهم، فإنهم سبقوا بالحق، والخير

---

(١) القرطبي (٩/ ١١١) في التفسير.

كل الخير في اتباع من سلف.

وقد أمر ﷺ عليًّا فقال له: «**أذكرك بالسداد تسديدك السهم، وبالهدى هدايتك الطريق**»[(١)]. وقال عليه السلام: «**سددوا وقاربوا**»[(٢)].

والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصممًا على قصد السداد، وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمد[(٣)].

*** السبيل إلى الاستقامة:**

وللوصول إلى الاستقامة طرق نرشد إلى بعضها، وإنما هو جهد المقل، فانظره وتدبره، وقد قال العماد الأصفهاني: «ما كتب أحد في يومه كتابًا إلا قال في غده: لو زيد كذا لكان أحسن، ولو حُذف لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، ولو أضيف كذا لكان أصوب، ولو نقص لكان يستصوب. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر».

وإليك بنات الأفكار تزف، فما أعجبك فإمساك، وإلا فتسريح بإحسان.

(١) الاستقامة على عقيدة التوحيد بلا خروج عنها ولا انحراف:

وأول الاستقامة هنا للقلب، فإنه ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، ومتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه استقامت الجوارح كلها على طاعته[(٤)].

ألا فاعلم أن التوحيد هو نقطة البداية دائمًا في حياة المسلم، وهو نقطة النهاية أيضًا، مَنْ ضل عنه خسر الدنيا والآخرة، ومَنْ بدأ بغيره فهو كحمار أهله: قلب ولا فقه، عين ولا بصر، أذن ولا سمع كأنه بهيمة في مسلاخ بشر، حياته ضنك، سعيه مردود، ذنبه غير مغفور، وتجارته حتمًا تبور.

---

(١) صحيح: مسلم (٢٧٢٥) في الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٦٧٣) في المرضى، مسلم (٢٨١٦) في صفة القيامة.

(٣) ابن رجب- جامع- (صـ ٣٣٦) حديث (٢١).

(٤) السابق نفسه.

وهذه آيات القرآن تنطق بذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

وعلى هذا فمن ظفر بالتوحيد ربح الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (الكهف: ١٠٧، ١٠٨).

إن عقيدة التوحيد هي بلسم الجراح الشافي الذي يذهب كل أنَّة وتوجع من ركام الدنيا، والهوى، والنفس، والشيطان، جعلها الله نجاة من النار، وفوزًا بالجنة، وإذا صح التوحيد صحت العبادة معه، إذ العبادة توجه إلى المعبود بالخضوع والتعظيم بالقلب والجوارح، وهذا صلب العقيدة، ولو لم يكن الإيمان شرطًا لصحة العبادات والقربات لكان التكليف في الجمادات والكفار جائزًا، لكن هذا لا يكون.

(٢) الاتباع لا الابتداع:

فلقد سُمِّي الإسلام إسلامًا لأنه في الأصل استسلام لله تعالى، وخضوع، وطاعة، ورضًا بشرعه وحكمه عز وجل إذ قال سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

فالمسلم إذا ثبت عنده الخبر أو الأمر عن الله تعالى في القرآن، أو عن نبيه ﷺ في صحيح السنة والأحاديث لم يتردد في التصديق به، والقبول، والعمل بما فيه راضيًا، وإلا اتهم في عقله ودينه، كما قال الشافعي رحمه الله: «متى عرفت لرسول الله ﷺ حديثًا ولم آخذ به فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب»[(١)].

وكان رحمه الله يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي».

---

(١) آداب الشافعي (صـ ٦٧)، «توالي التأسيس» (صـ ٦٣).

وقال: «إذا صح لكم الحديث فخذوا به ودعوا قولي»(١).

وإذا كان المسلم يرى أن زيادة ركعة في الصلاة، أو شوطًا في الطواف، أو آية في القرآن بدعة من البدع، فينبغي عليه أن يتقيد ويتمسك بالشرع الحنيف في كل عباداته الأخرى، فلا تقرب إلى الله بصلاة، ولا عيد، ولا فكرة، ولا غيرها طالما لم يأذن الله تعالى بها، أو يأمر النبي عليه السلام بفعلها.

ولقد عاب الله قومًا شرَّعوا واستحسنوا ما شرَّعوا، وورثوه لمن حولهم، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١).

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: **«مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**.

وفي رواية لمسلم: **«مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**(٢).

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، كما أن حديث: **«إنما الأعمال بالنيات»**. ميزان للأعمال في باطنها، فهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى ليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله ﷺ فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ فليس من الدين في شيء، وينبغي أن تكون أعمال العاملين كلها تحت أحكام الشريعة بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود(٣).

وقد قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث: «يصلح لأن يكون نصف أدلة الشرع»(٤). وقال الإمام النووي: «وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات»(٥).

---

(١) السابقان (صـ٣٢٥)، (صـ ٣٦٣).

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٦٩٧) في الصلح، مسلم (١٧١٨) في الأقضية.

(٣) ابن رجب- جامع (صـ ١٠٣، ١٠٤) حديث (٥) بتصرف يسير.

(٤) «الفتح» (٥/ ٣٠٣) لابن حجر.

(٥) «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٢٣٦) ط دار الفجر للتراث.

وأقول: إن هذا الحديث عمدة في كل الأعمال من العبادات، والعقائد، والعقود، والبيوع، والفسوخ، والنكاح، والطلاق، وكل أوجه الحياة وأشكالها المختلفة.

ولقد عاب الله قومًا لم يرضوا بحكم الإسلام، وابتغوا غيره، فقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وفي حديث الحارث الأشعري أنه ﷺ قال: «...ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه مِنْ جُثا جهنم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»[١].

إن العبودية هي: العمل على مراد الله عز وجل، وإن كانت راحتك في غير ذلك، ولو كان العمل جائزًا كما يريد الإنسان ويهوى لما احتجنا إلى وحي ولا نبوة، ولكن النبوة تظل حاجة ملحة، ولو كان في الأرض ملائكة، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٥).

فمع أنهم ملائكة أطهار أبرار لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، إلا أنهم في حاجة إلى نبوة ووحي، وشريعة من الله تعالى لتبيان الحق، واتباع شريعة الله سبحانه.

وهنا أصرخ صائحًا، وأصيح صارخًا؛ فأقول: «يا أهل القرآن، لستم على شيء حتى تقيموا القرآن».

ولو كان الانتساب للإسلام مع ارتكاب البدع يصح لقبله الله تعالى، لكنه سبحانه لا يقبل عمل صاحب بدعة حتى يتركها.

وكم من مدعٍ ينعق بما لا يسمع في دين الله إلا دعاءً ونداءً، وأفق الواقع تتهاوى فيه كثير من الأسماء والألقاب، ولو كانت الدعوى تصح بلا برهان أو حقيقة لصح لإبليس أن نقول عنه: رضي الله عنك يوم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦).

فلا بد للقول من فعل، وللدعوى من حقيقة.

إن شرع الله تعالى ليس فيه من فطور[٢]، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٨٦٧، ٢٨٦٨) في الأمثال، وصححه الألباني (١٧٢٤) في «صحيح الجامع».
(٢) فطور: خلل وتصدع.

ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[(1)]﴾ (الملك: ٣، ٤).

فعليك بالتمسك به، فإن الإسلام الحقيقي هو إسلام النفس لله، والعمل بحكم الله، على شريعة الله، وبوحي الله، والإخلاص لله: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ (آل عمران: ٢٠).

هذا هو السبيل فأين يذهب من أبى ✿ أو ليس نور الله قد كشف الدُّجى

لقد دخل المبتدعة على مطرف بن عبد الله بن الشخير- من سادات التابعين- فدعوه إلى باطلهم، يغرونه تارة، ويخوفونه أخرى، فقال لهم: «يا هؤلاء، لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما، وأمسكت الأخرى، فإن تبين أن الذي تقولون هو الهدى، اتبعتكم بنفسي الأخرى، وإن كان ما تقولون الباطل، هلكت نفس وبقيت واحدة.

لكنها نفس واحدة، لا والله لا أغرر بها!!

وهذا أحمد في محنة خلق القرآن يضرب سياطًا لو ضربها فيل لهدته، وهو صابر لا يفكر إلا في قول ربه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ (الزخرف: ٤٣).

فخرج من محنته ثابتًا صابرًا كالجبل الراسي، والطود الأشم، فقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال: «ومن أكون؟ جزى الله الإسلام عني خيرًا».

وكثيرًا ما نذكر حديث النبي ﷺ الذي رواه عوف بن مالك رضي الله عنه، عنه ﷺ وفيه: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة؛ فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده؛ لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»**[(2)].

(٣) الإخلاص فيما أنت عليه من العبادة:

فإن منهج الله تعالى، ودينه، وشريعته في حاجة إلى من يحمله إخلاصًا لوجه

---

(١) حسير: خائب مكسور محسور.

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٠٨٢) في «صحيح الجامع».

الله، وابتغاء مرضاته، ليس لنفسه فيه من نصيب ولا حاجة، وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٢، ٣)، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

وهذا هو الحسن البصري لما سأل أحد معاصريه عن سر تفوقه بين علماء عصره وزهاده؛ فقال في عبارة موجزة: «احتجنا إلى دينه، واستغنى عن دنيانا».

فلا يجتمع حب الثناء من الناس والإخلاص في قلب عبد مؤمن حتى يعود اللبن في الضرع، والله تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه، فلقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه؛ فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره؛ فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام؛ ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة ربه على محبة ولده؛ حصل المقصود؛ فرفع الذبح، وفدي الولد بذبح عظيم[1].

إن الإخلاص روح تمنح العبادة الحياة بعد أن كانت جسدًا لا حراك فيه، ومَنْ صحت بدايته في العمل صحت نهايته؛ لأن العمل من أجل الناس شرك، وترك العمل من أجل الناس رياء، ومَنْ تخلص منهما فهو مع الله تعالى.

والمسلم في عمله وسعيه كالفرس يرى في الظلمة كما يرى في النور، فإذا خلا المسلم بربه كان حاله كما هو بين الناس، لا يستخفي من الناس مجاهرًا ربه بالمعصية.

هذه دودة القز راحت تنسج الحرير؛ فجاءت العنكبوت فنسجت نسجها، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، ثم انتهيا من نسجهما، فقالت العنكبوت لدودة القز: لي نسج، ولك نسج، ولا فارق بين النسجين، فقالت دودة القز: نسجي أردية الملوك، ونسجك شبكة الذباب، وعند مس النسيجين يتبين الفرق، فانظر أيهما أنت؛ أدودة القز؟ أم العنكبوت؟

---

(١) «الداء والدواء» (صـ ٢٧٦) لابن قيم الجوزية ط مكتبة قرطبة.

وجماع ذلك قول الله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

وفي حديث البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[١].

وهذا هو سفيان بن عيينة ذلك العالم الفذ يقول: «لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيب ويمسك النخالة، تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم، إن مَنْ يخوض النهر لا بد أن يصيب ثوبه البلل، وإن اجتهد ألا يصيبه، فويحكم، ثم ويحكم، ثم ويحكم».

فلا تبع الياقوت بالحصى، وهذا جزاء مَنْ عمل في الدنيا للناس، ولم يعمل لله.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء. فقد قيل. ثم أمر فسحب على وجهه ثم أُلقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به؛ فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل. ثم أُمر به فسحب على وجهه ثم أُلقي في النار»**[٢].

وعنه أيضًا أنه عليه السلام قال: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ مَنْ عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشِرْكه»**[٣].

---

(١) متفق عليه: البخاري (١) في بدء الوحي، مسلم (١٩٠٧) في الإمارة.

(٢) صحيح: مسلم (١٩٠٥) في الإمارة.

(٣) صحيح: مسلم (٢٩٨٥) في الزهد والرقائق.

(٤) سؤال الله التثبيت، والخوف منه سبحانه:

فهذا هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما من الرسل والأنبياء أمرهما الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ (البقرة: ١٢٥).

ومع أن الأمر من الله تعالى إلا أنهما كانا على خشية من الله تعالى ألا يتقبل منهما فقالا: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (البقرة: ١٢٧).

وذلك لعلمهما أن باب العمل قد يفتح، وباب القبول مغلق!!

وكذلك كان حاله ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»(١).

وكان عليه السلام كما في الحديث عن أنس يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: «**نعم. إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء**»(٢).

وكان يقول كما في حديث مسلم عن أبي هريرة: «**ما من أحد يُدخله عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

فقد نفى عليه السلام أن يدخل الجنة أحد بعمله ولو كان خير الخلق؛ لأن العمل يعجز عن قدر الله تعالى حق قدره، وإنما تنال الجنة برحمة الله تعالى.

ونماذج خوف الصحابة رضي الله عنهم من الموت كثيرة، منها دخول ابن عباس رضي الله عنهما على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وقت احتضارها، فقال لها: أبشري. فقالت: بماذا؟ فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، وكنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء؛ فأصبح رسول الله ﷺ،

---

(١) صحيح: مسلم (٢٦٥٤) في القدر.

(٢) صحيح: الترمذي (٢١٤٠) في القدر، وصححه الألباني هناك.

وأصبح الناس وليس معهم ماء؛ فأنزل الله آية التيمم؛ فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل، وآناء النهار.

فقالت: دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا منسيًا[(١)].

وأما سوء الخاتمة:

فقد روى الحافظ ابن كثير في حوادث عام (٢٧٨هـ) قال: «وفيها توفي ابن عبد الرحيم قبحه الله، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات، والمسلمون محاصرون بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها، فراسلها: كيف السبيل إليك؟ فقالت: أن تتنصر، وتصعد إليّ. فأجابها إلى ذلك قبحه الله، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة.

فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟ ما فعلت صلاتك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ فقال: اعلموا أني أُنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٢، ٣). وقد صار لي فيهم مال وولد[(٢)].

ولكأنه المعني بهاتين الآيتين، فانظر حاله، ولا تأمن مكر الله كما أمن الصيد حمام الحرم.

(٥) التوبة إذا أذنبت، وعدم الإصرار على الذنوب:

فلقد قال تعالى في وصف عباده المؤمنين المستقيمين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ

---

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ١١١) لابن كثير ط دار الفجر للتراث وأصله عند البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة النور .

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٧١) ط دار الفجر للتراث.

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦).

ولقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١).

فالتوبة دواء من الداء، والداء هو تعاطي المعاصي وإدمانها، بل هي كريش الجناح للطائر لا يطير بغيره، من أجل هذا فإن إرادة الله للمؤمنين خيرٌ؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧).

فكن مع إرادة الله تعالى، وصيِّر نفسك تحت مطرقة قدره، فإن قدره للمؤمن خيرٌ كله لا شر فيه، والذنوب جرثومة تسري فتفري، ولا علاج لها إلا بالاستعانة بالله تعالى.

فالشيطان يسول الذنب، والنفس تطيعه، والهوى معه، وكلهم أعداء غير مرئيين، إذًا فاستعن بالله تعالى.

من أجل ذلك فإن الحق سبحانه بعد ذكر آيات الاستقامة في سورة فصلت قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦).

وهذا هو أحد السلف يقول لتلميذه:

ماذا تفعل لو أن الشيطان سوَّل لك المعصية؟

قال التلميذ: أجاهده.

قال: فإن عاد؟

قال: أجاهده.

قال: فإن عاد؟

قال: أجاهده.

قال: الأمر بك يطول. أرأيت إن مررت بغنم فيها كلب ينبحك، يمنعك من المرور، ما كنت تفعل؟

قال: أجاهده.

قال: فإن عاد؟

قال: أجاهده.

قال: فإن عاد؟

قال: أجاهده.

قال: الأمر بك يطول؛ استعن بصاحب الغنم يكفيك كلبه.

فاستعن بالله يكفيك شيطانك، ونفسك، وهواك.

ونماذج التوبة من الذنوب، وعدم الإصرار عليها أكثر من أن تعد وتحصى[1].

وهناك أمور أخرى تساعد على التوبة، نذكرها عناصراً فقد فصلناها في مواضع أخرى:

(٦) تعلم العلم، والحرص على تلقي العلوم الشرعية من علماء الخير وأهل الحق.

(٧) معرفة الحق أولاً، فاعرف الحق تعرف رجاله، ولا تعرف الرجال أولاً، فربما زاغوا عن الحق؛ فذهبت معهم دون أن تدري، وكم من مغبون مخدوع ذهب عمله سُدى لأنه لم يعرف الحق.

(٨) التخلق بالخلق الطيب الحسن.

(٩) متابعة تلاوة القرآن الكريم، وحفظه؛ فإنه من كل داء شفاء.

(١٠) مداومة محاسبة النفس على ما قدمت وأخرت، وما كسبت، وما خسرت، وما فعلت، وما لم تفعل.

(١١) الرفقة الطيبة الصالحة المعينة على الحق والخير.

(١٢) الابتعاد عن مواطن السوء التي تتنزل عليها لعنات الله، والملائكة، والناس أجمعين.

(١٣) بر الوالدين.

---

(١) انظر التوبة من هذا الكتاب.

(١٤) صنع المعروف؛ فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

(١٥) طلب النصيحة من الإخوان، والعلماء، والصالحين.

(١٦) المحافظة على قيام الليل ولو ركعتان منه فقط.

(١٧) الدعاء لنفسك بالخير دائمًا، ولإخوانك، وأهلك؛ فإن من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، والعكس صحيح.

(١٨) قراءة سير النبيين والصالحين.

(١٩) اعرض أعمالك على كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ.

(٢٠) تلمس عيوب نفسك، وستجدها عند أعدائك لا أصدقائك.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ❁ كما أن عين السخط تبدي المساويا

❁ ❁ ❁

[٣] الرفق، الرحمة، اللين

عن أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لا يكون في شَيءٍ إِلاَّ زَانهُ، ولا يُنْزعُ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»(١).

وفي رواية لمسلم أيضًا أن عائشة رضي الله عنها ركبت بعيرًا، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال لها رسول الله ﷺ: «**عليك بالرفق، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»(٢).

✿ ✿ ✿

*** حول الرفق، والرحمة، واللين:**

لم تكن فضيلة الرفق أو الرحمة إلا عنوانًا لصاحب هذه الرسالة ﷺ، وواحدة من عناصر هذا الدين الحنيف، دعا إليها، وأمر أتباعه بالتحلي بها، ذلك أن الرفق والرحمة رقة في الطبع تثمران لين الجانب، والرأفة، والشفقة، وهما خلقان رفيعان يحركان عاطفة الإنسان بالخير والبر.

من أجل هذا فإن مهمة الداعين إلى الله بما لها من خطر تستلزم طاقة فياضة من الرحمة، والرفق، وسعة الصدر، ولين الجانب؛ فقد مدح الله تعالى سيد الدعاة، وخاتم المرسلين ﷺ فقال فيه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فقد كان عليه السلام قلبًا فياضًا ينبض بالرحمة، ونهرًا جاريًا يفيض بالرفق واللين.

لقد كانت ولا زالت العلاقة بين الله تعالى وبين عباده المؤمنين هي علاقة الرحيم

---

(١) صحيح: مسلم (٧٨/ ٢٥٩٤) في البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: مسلم (٧٩/ ٢٥٩٤) في البر والصلة والآداب.

سبحانه الرفيق بعباده، من أجل ذلك فقد قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر: ٧).

فهو سبحانه وتعالى ذو الرحمة الشاملة، والرفق التام، عمت رحمته الكائنات جميعًا، فما من موجود إلا وبرحمة الله يحيا، وفي ظلال رفقه سبحانه يعيش.

وقد جاء في الحديث عن أم المؤمنين عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «**يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»[(١)].

فالرفيق سبحانه هو (على ما يليق بجلاله سبحانه): الكثير الرفق، وهو اللين السهل.

وقد يكون الرفيق من الإرفاق؛ بمعنى العطاء، إذ هو سبحانه الميسر والمسهل لأسباب الخير كلها، والمعطي لها، وأعظمها تيسير القرآن للحفظ، ولولاه ما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ٣٢).

والرفيق سبحانه: هو الحليم الذي لا يعجل بعقوبة العصاة ليتوب من سبقت له الشقاوة.

وهو سبحانه الذي يحب الرفق: أي يحب ترك العجلة في الأعمال والأمور، وما ذلك إلا لأن الأشياء في قبضته وملكه، فليس يعجل فيها، فلا يخاف الفوت.

والله تعالى هو (الرحمن الرحيم) فهو ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي عمت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمستقيمين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيبهم منها[(٢)].

فقد قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٢٧) في استتابة المرتدين بنحوه، مسلم (٧٧/ ٢٥٩٣) في البر والصلة والآداب.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٤) للعلامة السعدي.

وقال الإمام الخطابي: «الرحمن هو سبحانه ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم، وأسباب معايشهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر، والصالح والطالح»[1].

والله تعالى القائل: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٥٠).

فبرحمته سبحانه أرسل إلينا رسوله، وأنزل علينا كتابه، وعصمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبَصَّرنا من العمى، وأرشدنا من الغي، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا إلى مصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض، وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات.

وبرحمته أنشأ السحاب الثِّقال، وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى.

ومن رحمته أنه يعيذ من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه.

ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة بين الخليقة ليتراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش والبهائم، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه، فإذا جاء وعده قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض، فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها، فيضيف سبحانه تلك الرحمة التي دفعها وقبضها من الأرض إلى ما عنده من الرحمة، فيكمل بها مائة رحمة، فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله، وأتباعهم.

ولو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه، والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضى قوله: **«سبقت رحمتي غضبي»**[2].

فالمسبوق لابد لاحقٌ وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين[3].

---

(١) «الأسماء والصفات» (صـ ٥٠- ٥٢) للبيهقي.

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٠٠٠) في الأدب، مسلم (٢٧٥٢) في التوبة.

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» لابن قيم الجوزية (٣٤٩- ٣٥١) بتصرف.

وقال غير واحد من السلف: «من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به»[١].

ولقد سـمى الله تعالى أنبيـاءه في القرآن رحمـة؛ فقال سـبحانه عن زكـريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٢).

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٢١).

ولما أراد الله تعـالى أن يختم رسـالاته للناس، وأن يكمل الدين، ويتم النعـمة، بعث إمام الرحـمة، خاتم المرسلين، رحـمة لمن اهتدى؛ بل رحـمة للعالمين، فـقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

فقـد جاء ﷺ يحمل مـشاعل الهـدى، وتعاليم السمـاء، ومعـه القرآن معـجزة الإسلام الخالدة، شفاء لما في الصـدور، ورحمة للمؤمنين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

فتلك هي الرحمة التي رحم الله بها الناس من الضياع والضلال.

*** تعريف الرفق، وشرح الحديث:**

قال الجوهري: الرفق ضد العنف.

ويقال: أرفقته: أي نفعته.

وأصل الرفق: الاحتيال لإصلاح الأمور وإتمامها.

وقد يكون الرفق بمعنى: الإعطاء، أو التمهل والتأني في الأمور.

فيقال: أرفقت الدابة: إذا شددت عضدها لتبطئ في مشيها[٢].

وقال ابن حجـر: «الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخـذ بالسهل، وهو ضد العنف»[٣].

وقوله عليه السلام في حديث الباب: «إلا زانه»: أي كان زينة له يحصل صاحبه على الثواب، ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٤٤) لابن قيم الجوزية.

(٢) «الأسنى» للقرطبي (١/ ٥٥٦)، النووي (٨/ ٣٦٢) على شرح مسلم.

(٣) «الفتح» (١٠/ ٤٤٩) لابن حجر.

وقوله: «**إلا شانه**»: أي عابه وصار شينًا أي عيبًا يذم به صاحبه.

وقد يكون معنى الحديث أيضًا: عليكِ بالرفق ولين الجانب، فترفقي، وخذي بالأسهل، وإياكِ والعنف.

وذلك لأن من حرم الرفق فقد حرم الخير كله، ففي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يُحرم الرفق يُحرم الخير**»(١).

أما من تخلق بخلق الرفق فقد أثابه الله تعالى به خيرًا، بل وجعله سببًا لكل خير كما في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**يا عائشة؛ إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه**»(٢).

إذًا فالله تعالى يثيب على الرفق ما لا يثيب على غيره، ويعطي صاحبه ما لا يعطي صاحب العنف؛ أي: التشديد والتعسير على الناس.

*** نماذج من الرحمة، والرفق، واللين:**

(١) الرفق بالنفس عند الالتزام بالأمور الشرعية:

فالملاحظ للإسلام يجد أنه دين التوسط والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، وإنما هذه هي الأمة الوسط كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

فأصلح المقامات في دين الله التوسط بلا إفراط ولا تفريط؛ ذلك أن التنطع قد هلك أصحابه، «**هلك المتنطعون**».

والتنطع: هو الإفراط والغلو وتجاوز ما تطيقه النفس.

ومقابله: الإضاعة والتفريط والتقصير.

وكلاهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصراط المستقيم، لأن دين الله تعالى وسط بين الغالي فيه، والجافي عنه (أي: البعيد عنه).

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خير الناس النمط الأوسط الذين يرجع

---

(١) صحيح: مسلم (٧٥٩٢/ ٧٤- ٧٦) في البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: مسلم (٧٥٩٣/ ٧٧) في البر والصلة والآداب، وعند البخاري عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

إليهم الغالي، ويلحق بهم التالي».

وعن ابن عائشة أنه قال: «ما أمر الله عباده بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: فإما إلى غلو، وإما إلى تقصير».

والله تعالى مدح أهل التوسط فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦).

وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

إن الأمة الإسلامية هي أوسط الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين، والوسط دائمًا محمي الأطراف، أما الأطراف فالخلل إليها أسرع(١).

إن محاولة التشدد على النفس تزري بالعبد حتى تجعله يترك كل ما كان عليه من العبادة؛ فيغلبه شيطانه وهواه، ولذا فإن النبي ﷺ يقول: **«إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»**(٢).

ومعنى هذا أن يرفق الإنسان بنفسه في التكاليف الشرعية متوسطًا فيها، لئلا يحمل نفسه منها ما لا يطيق، فإن دوام السير يتعب الإبل، والصحراء واسعة، فالراحة للجد جدٌّ، وغوص السابح في طلب الدُّر صعودٌ.

والإسلام دين اليسر كما قال ﷺ: **«إن هذا الدين يسرٌ، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة»**(٣).

فلن يتعمق أحدٌ في الأعمال الدينية، ويترك الرفق إلا عجز وانقطع وغُلب، وكل متنطع في الدين ينقطع، فلن يستقيم لعبد أن يصلي طيلة ليله دون نوم، ويصوم دهره بلا إفطار، ولن يستقيم لعبد أن يظل يغالب نفسه طيلة الليل بلا نوم حتى يستيقظ للصبح، فإذا كانت آخر ساعة من الليل غفل ونام.

---

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (صـ ٣٤٩، ٣٥٠) لابن قيم الجوزية ط دار الحديث.

(٢) صحيح: أحمد (٣/ ١٩٩) في «المسند».

(٣) صحيح: البخاري (٣١) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولن يستقيم لعبد أن يخصي نفسه، ويقطع شهوته، أو يخرج ماله كله تبذيرًا وإسرافًا ادِّعاءً منه أنه زكاة ماله وصدقته.

لقد حمل الحديث السابق البشرى لكل من أراد الكمال في دينه فعجز عنه، وإنما له الأجر إذا استعان بالله، وأخذ بالأسباب، وتهيأ للعبادة.

ومن أراد الرفق والتلطف بنفسه فلينظر في سيرة الرسول ﷺ، فإنه كان يتلطف بنفسه، ويمازح، ويخالط النساء، ويُقَبِّل، ويمص اللسان، ويختار المستحسنات، ويستعذب له الماء، ويختار الماء البارد، والأوفق من المطاعم؛ كلحم الظهر، والذراع، والحلوى، وهذا كله رفق بالناقة في طريق السير، فأما من جرَّد عليها السوط؛ فإنه يوشك ألا يقطع الطريق(١).

إننا بما تحدثنا لا نأمر بالإمساك عن الصدقة، ولا بأكل الشهوات، ولا بإكثار التلذذ من الشراب والطعام، وإنما ننهى عن التوسع في العبادات، وكذا التوسع في المطاعم والمشارب؛ فإن التوسع في الطعام سبب للنوم، والشبع يعمي القلب، وكثرة تحميل البدن ما لا يطيق يهزله ويضعفه، والتبذير في الصدقات يفقر العبد، ويفني المال، لكن الاعتدال بلا إسراف، ولا غلو، ولا تقصير.

لقد قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨).

وما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان يخشى على أمته أن تفرض عليهم ما اختصه الله به من سنن؛ كقيام الليل الذي كان يقومه حتى تتورم قدماه، أو كصلاة التراويح حين امتنع عنها خشية أن تفرض على أمته فلا تستطيعها، ويؤثَّم تاركها، أو كالحج؛ لو قال: كل عام؛ لوجب على كل مسلم، لكنه عليه السلام كان رفيقًا بأمَّته، نهاهم عن الوصال- وهو مداومة الصيام- بلا إفطار، وأمرهم بالتزام شريعة الله التي أنزلها، وقال لمن ألزم نفسه أداء الفرائض فقط: **«أفلح إن صدق»**.

---

(١) «صيد الخاطر» (صـ ٣٠٢) لابن الجوزي ط دار الفجر للتراث.

فما نهى إلا عن شدة وعنف ومفسدة، وما أمر إلا بمصلحة ويسر ورفق.

ولكن... ما معنى: إن الدين يسر؟

يقول ابن حجر: «إنما سمي الإسلام أو الدين يسرًا بالنسبة إلى الأديان قبله، فإن الله عز وجل رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم»(١).

فهذا هو اليسر، وهذا هو الرفق، الأخذ بالرخصة الشرعية لا التهاون في أحكام الله عز وجل.

قد كان من شرع الأمم قبلنا القصاص دون الدية، فرأى الله ضعفنا فأحلّ لنا الدية.

ومن شرعهم ألا يأكلوا من غنائم الحرب، فرأى الله ضعفنا فأحلها لنا.

ومن شرعهم كان المذنب يرى ذنبه وكفارته على باب بيته فيفتضح، فيسر الله لنا ذلك وجعله سرًّا، وقِسْ على هذه الأمور الكثير والكثير.

أما التهاون بترك الصلاة، والتبرج، والتدخين، والاختلاط، وتولي غير سبيل المؤمنين تحت شعار: (الدين يسر) فهو الخطأ بعينه وكلهم أعور بأي عينيه شاء، ولو صدقوا لقالوا: [الدنيا تهاون ولهو!!].

(٢) الرفق بعوام الناس:

وإنما قصدنا هذه النقطة بالذات لأن كثيرًا من الدعاة أو الخطباء تراه على منبره لا يعرف سوى تبكيت الناس، وتيئيسهم من رحمة الله تعالى، حتى تراه قائلاً: مالي لا أرى العيون تدمع؟!! مالي لا أرى القلوب تخشع؟!!

ولا حديث له إلا عن جانب الترهيب دون الترغيب كأن الله تعالى لم يدخر في الآخرة لعباده إلا النار، ولم يُعرِّف عباده إلا الخوف دون الرجاء، حتى أني سمعت أحدهم يوم عرس يتحدث عن عذاب القبر ونعيمه حتى صاح أحد الحاضرين: هل مات العروس؟!

لقد سمع محمد بن واسع أحد الوعاظ يهتف: مالي لا أرى العيون تدمع؟! مالي

---

(١) ابن حجر (١/ ٩٤) في «فتح الباري».

لا أرى القلوب تخشع؟!

فقال له: والله لا أرى الناس قد أوتوا إلا من مثلك.

قصد أن الوعظ والدعوة كلٌّ منهما فنٌّ لا بد من إجادته وإلاّ ملّ الناس من الواعظ أو الداعي.

وقد كان ابن أبي الدنيا الإمام المحدث أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي المتوفى (٢٨١هـ) أعرف الناس من الوعاظ بأساليب الكلام وما يلائم طباع الناس، إن شاء أضحك جليسه، وإن شاء أبكاه.

فالرفق بالمدعو من قبل الداعية فقه منه، وآلية يجب أن يتتبعها في دعوته، فعبوس الوجه، وتقطيب الحاجبين، وغليظ الكلام ليست من أدوات الداعية الناجح، وإنما الرفق كنزٌ يجب اقتناؤه دائمًا وقد حكى لنا أحد المشايخ ذات مرة فقال: كان لي صديق يدمن الذهاب إلى السينما وأردت يومًا أن أدعوه لدرسٍ في المسجد فرفض إلا أن أذهب معه إلى السينما، فوافقت على أن يأتي معي إلى المسجد أولاً ويستمع إلى الدرس أولاً فوافق، ولما انتهى الدرس عرفت في وجهه الخير، فقلت: أفلا نذهب إلى السينما؟

قال: بل نجلس في المسجد إن شاء الله.

ولا ينسى في هذا المضمار قصة مصعب بن عمير رضي الله عنه سفير النبي ﷺ إلى المدينة يعلم أهلها الإسلام وفيها إسلام اثنين من كبار رجال المدينة: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما بل لم يبق بيت في المدينة إلا دخله الإسلام بفضل الله أولاً ثم برفق هذا الداعية رضي الله عنه وأرضاه[١].

(٣) الرفق بالعصاة:

خاصة أولئك الذين يُرجى فيهم الخير، فإن العاصي مريض كأي مريض لا بد من دواءٍ له وإلا استفحل المرض وزاد واستشرى ثم سرى في الجسد كله، فينبغي علينا الترفق في التعامل مع مثل هؤلاء، فإن رأيت نفسك تشمخ بأنفك حين ترى العصاة

---

(١) انظر في ذلك كتاب الشيخ/ سعد يوسف أبو عزيز: «صحيح وصايا الرسول ﷺ» (٢/ ١٦٤-١٦٦) ط التوفيقية.

فاهتف في نفسك: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٩٤)، وتذكر أن الله تعالى سترك إذ فعلت ما فعل وأكثر، فأمهلك حتى تبت.

وما أروع رفقه ﷺ بالعصاة في هذه القصة الشهيرة قصة الغامدية[(١)] التي زنت ثم جاءت تائبة إلى رسـول الله ﷺ فقد جاءت هذه الغامدية ـ وغامـد قبيلة من الأزد ـ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله طهرني ـ وهي حبلى من الزنا ـ ذلك لأنها أذنبت والحدود كفارات تطهرها من الذنب، والذنب رجس ونجس.

فقال ﷺ لها: «**ويحك؛ ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**».

فقالت: أراك تريد أن تردّدني كما ردّدت ماعز بن مالك.

قال: «**وما ذاك؟**» قالت: إنها حبلى من الزنى.

فقال: «**آنت؟**» قالت: نعم.

لقـد كانت رضي الله عنهـا قادرة على إخـفاء الذنب والتـوبة سرًّا، لكنها أبت لإشفاقها من لقاء الله تعالى وفي صحيفتها كبيرة من الكبائر، فردها النبي ﷺ مترفقًا بها فقال: «**اذهبي حتى تضعي ما في بطنك**»، وكان ﷺ قادرًا على أن يرجمها، لكن رفقه بالصغير في بطنها منعه من ذلك.

بل إنه في رواية: وصّى بها وليـها خيـرًا، وقال له: «**أحسِن إليـهـا، فإذا وضعت فأتني**»[(٢)]، وذلك لعلمه ﷺ بالحالة النفسية السيئة التي يكون عليها ولي الزانية، من إحساس بالعـار والشنار والفضيحة، فـربما أساء إليها بكلمة فـهربت إلى الكفار، أو ربما انتحرت إذا ضاقت عليها نفسها، وربما أجهضت نفسها فوقعت في كبيرة القتل، فهذا رفق بهذه التي ارتكبت كبيرة.

وفي رواية بريدة: أن رجلاً من الأنصار كفلها حتى وضعت، وهذه شيمة المجتمع المسلم كله، ستر على صاحب الذنب دون إشاعة للفاحشة، وفقه منه رضي الله عنه

---

(١) صحيح: مسلم (١٦٩٥/٢٢، ٢٣) عن بريدة رضي الله عنه في الحدود، و(١٦٩٦/٢٤) عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، وقد ذكرنا هنا مصدر الرواية لأننا تدخلنا في سياق القصة ببعض المعاني.

(٢) هذه رواية مسلم (٢٤/١٦٩٦) في الحدود.

إذ فهم ما فهمه النبي ﷺ من ضيق أهلها بها ذرعًا.

وظلت هذه المؤمنة التائبة حتى وضعت حملها، فردها النبي ﷺ حتى تفطم رضيعها، فجاءت ومعها ولدها في يده كسرة خبز، جاءت تسعى كما جاء مؤمن آل ياسين من أقصى المدينة يسعى، لم يشغلها حب ولدها وهو في حاجة إليها، بل أذهلها أمر آخرتها عن أمر وليدها، كان شعارها: طهرني ولو في الطهارة موتي فحفرت لها الحفرة ورجمت دون أن تقاوم كأنها تنتصف من نفسها حين أطاعت نداء الشيطان لسان حالها:

تركت نفسك لماعز يأخذ منك ما يشاء، فلتتركي نفسك للحجارة تقتلك لتلقي الله طاهرة.

لقد ماتت رحمها الله، فأصابت بعض الدماء منها ثوب خالد بن الوليد رضي الله عنه فسبها فسمعه النبي ﷺ، فقال: «**مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده! لقد تابت توبةً، لو تابها صاحب مكس لغفر له**»، وفي رواية: «**لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبةً أفضل مِنْ أن جادت بنفسها لله؟!**» فيا للرفق، ويا للرحمة!!

فلله درها، ما أكرمها أذنبت فتابت، ثم بقي لها دعاء النبي ﷺ وثناؤه عليها.

ثم بقي لها فوق ذلك شرفٌ ما ناله منا أحد: شرف الصحبة.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل عن رجل من أهل الشام فقيل له: إنه يشرب الخمر.

فكتب إليه عمر قائلاً: ... أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (غافر: ٣)، ثم دعا عمر وأمَّن مَنْ عنده ودعوا له أن يقبله الله عز وجلَّ وأن يتوب عليه، فلما وصلت الرسالة إلى الرجل جعل يقرأها ويقول: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ**﴾ قد وعدني الله عز وجلّ أن يغفر لي، ﴿**وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾ قد حذرني الله من عقابه ﴿**ذِي الطَّوْلِ**﴾[1] ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى، وتاب، وكتب

(١) الطَّول: الخير الكثير.

إلى عمر بتوبته، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زلّ زلّةً فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه[١].

فانظر يرحمك الله إلى فعل عمر رضي الله عنه، فقد كان واليًا قادرًا على إقامة الحدود إلا أنه اتخذ مسلك الرفق، فمنّ الله عليه بالتوبة، وأنقذ نفسًا من النار.

وروى أبو قلابة أن أبا الدرداء رضي الله عنه مرّ على رجلٍ قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قُلَيْبٍ[٢] ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلى.

قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله عزّ وجلّ الذي عافاكم.

قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي[٣].

فأخذ الرجل ينتحب ويُعلن توبته.

وهكذا فافعلوا بالعصاة أيها الدعاة، رفقًا بهم حتى يتوب الله تعالى عليهم.

(٤) الرفق بالجُهَّال:

وفي رواية لأنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيًّا رآه النبي ﷺ يبول في المسجد فقال: «**دعوه**» حتى إذا فرغ دعا بماءٍ فصبه عليه[٤].

وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه أن الناس قاموا إليه - أي لينهوه - فقال لهم النبي ﷺ «**دعوه، وأهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء، أو ذَنوبًا من ماءٍ، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»[٥].

وفي رواية لمسلم أنه ﷺ قال للرجل: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن**»[٦].

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب (صـ ١٠٤) لابن الجوزي ط دار الفجر للتراث.

(٢) قليب: بئر.

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٢٠٦) لابن الجوزي، وذكره الطبراني في «الكبير».

(٤) متفق عليه: البخاري (٢١٩) في الوضوء، مسلم (٢٨٤/ ٩٨) في الطهارة.

(٥) البخاري (٢٢٠) في الوضوء. وهيرقوا: صبوا. وسجلاً: دلوًا ملآن. وذنوبًا: دلوًا صغيرًا.

(٦) صحيح: مسلم (٢٨٥/ ١٠٠) في الطهارة- باب (٣٠).

وهكذا يكون الرفق في تغيير المنكر على الجاهل خاصة إذا كان من الجُفاة أو الذين ما علموا عن دين الله شيئًا، فبشروا ولا تنفروا معاشر الدعاة وتذكروا قول الله تعالى فيمن امتلأت قلوبهم إيمانًا حتى رقّت عواطفهم في معاملة الناس: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

إنه هو ﷺ الذي يعطي صفوان بن أمية وكان كثير الإيذاء وأبوه للنبي ﷺ حتى صاح صفوان: أي قوم: أسلموا. فوالله إن محمدًا ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر[١].

ثم يقول: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني (وكان أعطاه غنمًا بين جبلين) وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنَّه لأحبُّ الناس إلي[٢].

لقد تألّف قلوب الجُهال حتى أسلموا حتى قال أنس رضي الله عنه: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحبُّ إليه من الدنيا وما عليها[٣].

فما ضرّ الدعاة لو فعلوا مثلما فعل رسول الله ﷺ.

(٥) الرفق بالصغار من العيال والصبيان:

والصغار في حاجة إلى من يترفق بهم خاصة إذا أراد الآباء أو الكبار تعليمهم شيئًا، فيروي أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلقًا، فأرسلني يومًا لحَاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمُرَّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي. فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «**يا أُنيسُ، اذهبت حيثُ أمرتُك؟**» قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله[٤]. فما ضربه، ولا سبه، وإنما ترفق بحال هذا الصبي وهو يلعب مع الصغار ويدلله ويصغر اسمه.

---

(١) صحيح: مسلم (٥٨/٢٣١٢) في الفضائل.

(٢) صحيح: مسلم (٥٩/ ٢٣١٣) في الفضائل.

(٣) انظر الحديث قبل السابق.

(٤) صحيح: مسلم (٢٣١٠/ ٥٤) في الفضائل.

وها هو ﷺ لما توفي ولده الصغير إبراهيم - كما في رواية أنس رضي الله عنه - يبكي ثم يقول: **«تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزنون»**(١).

ثم هو الذي يقبل الحسن فيبصره الأقرع بن حابس - كما في رواية أبي هريرة رضي الله عنه فيقول: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحدًا منهم، فقال ﷺ: **«من لا يَرحم لا يُرْحَمُ»**(٢). والنماذج من هذا كثير.

(٦) الرفق بالوالدين:

وقد ذكرناه في موضعه في بر الوالدين.

(٧) الرفق بالحيوان:

ولقد بلغ من شمول دعوة الإسلام إلى الرفق والرحمة أن جاوزت الإنسان إلى أجناس الحيوان، فلا ينبغي أن يُؤذى حيوان أو يُضْرَب، أو يُجوَّع، أو يُظمأ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في طريق اشتد به العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني، فنزل البئر فملأ خُفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»** قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: **«في كل كبد رطبة أجر»**(٣).

أي: في كل حيوان يروى أجر من الله تعالى.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«عُذبت امرأة في هِرةٍ سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**(٤).

وخشاش الأرض: نبات الأرض أو هوامها.

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٣٠٣) في الجنائز، مسلم (٢٣١٥/ ٦٢) في الفضائل.

(٢) صحيح: مسلم (٦٥/ ٢٣١٨) في الفضائل.

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٤٦٦) في المظالم والغصب، مسلم (٢٢٤٤/ ١٥٣) في السلام.

(٤) متفق عليه: البخاري (٣٤٨٢) في أحاديث الأنبياء، مسلم (٢٢٤٢/ ١٥١) في السلام.

وعلى العكس فقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «**إن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حارٍ يطيف ببئرٍ، قد أدلَع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغفر لها**»(١).

ونزعت: أي جلبت الماء من البئر واستقت له.

وفي حديث أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»(٢).

وقد نهى ﷺ عن أن تُصبر البهائم ـ كما هو في الحديث المتفق عليه ـ أي: تحبس ثم تضرب بالنبل حتى تموت، ونهى ـ كما في حديث مسلم: أن يتخذ شيء فيه الروح غرضًا ـ أي يرمى إليه بالسهام.

وفي حديث ابن عمر أنه مر على قوم نصبوا دجاجة يرمونها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا(٣).

وقد نهى أيضًا أن يذبح الولد ـ ولد الناقة عند أمه ـ حتى لا يصيبها الخبل، والعكس صحيح.

حتى أنه ﷺ قال لأبي معاوية بن قرة: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**»(٤).

وأوصى ﷺ صاحب الجمل الذي كلَّف جمله بما لا يطيق برحمته، وكذا أوصى من كان يستخدم بقرته في حمل الأمتعة باستخدامها في الحرث وإكرامها ـ وكلها أحاديث صحاح.

(٨) الرفق بالنساء:

وفي القرآن: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** (النساء: ١٩) وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** (الروم: ٢١)، حتى قال ﷺ كما هي رواية أنس ـ في

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤٦٧) في أحاديث الأنبياء، مسلم (٢٢٤٥/ ١٥٤) في السلام.

(٢) صحيح: مسلم (١٩٥٥) في الصيد.

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٥١٥) في الذبائح والصيد، مسلم (١٩٥٨) في الصيد.

(٤) صحيح: البخاري (٣٧٣) في الأدب المفرد.

بعض أسفاره لغلام له يسوق الإبل يقال له: أنْجَشَة: **«يا أنجشة، رويدك، سوقًا بالقوارير»**[١].

أي: ترفق بالنساء، سمّاهن قوارير لضعف عزائمهن تشبيهًا بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها[٢].

(٩) الترفق بالأعداء:

وهذه من روائع الإسلام الذي قال الله تعالى في كتابه: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾** (الإنسان: ٨) والأسير هنا: قد يكون من غير المسلمين إلا أن في إطعامه خلق يحمده الله تعالى.

وهذه مبادئ الإسلام في الحروب يسوقها بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **«اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوا فاقبل منهم وكُفّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفّ عنهم، ثم ادعهم...»**[٣] الحديث.

وهذه هي حضارة الإسلام التي تفرق بين المحارب والمسالم وبين المرأة والرجل، والمسلح والأعزل، والوليد والطفل وحامل السلاح، لا حضارة الغرب التي تلقي قنبلة عمياء لا تفرق بين المحارب والأعزل، وهذه هي حضارة الإسلام التي تعرف للإنسان حقوقه ولا تعرف حرب الإبادة التي يقتل فيها شعب كامل في لحظات قليلة بقنبلة تزن آلاف الأطنان يضيع معها أبرياء كثيرون لمجرد البحث عن شخصية واحدة أو عصابة مكونة من عدة أفراد، فتقهر المرأة وترمل، وتظل نار فقدان صغارها تحرقها ما بقيت على وجه الأرض، أو يؤتم الصغار.

لم يخجلوا من قتل شيخ لو مشى في الريح طاح، أو صبية كالزهر لم ينبت لهم

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦١٤٩) في الأدب، مسلم (٢٣٢٣/ ٧٠) في الفضائل.

(٢) النووي (٨/ ٨٠) في «شرح مسلم» ط دار الفجر للتراث.

(٣) صحيح: مسلم (١٧٣١/ ٣) في الجهاد السير.

ريش الجناح، قتلوا الصبي وأمه وفتاتها ذات الوشاح.

فالإسلام دين أنزله الله تعالى وهو: (الرحمن ـ الرحيم ـ الرفيق ـ الرءوف).

فوجب على أهله الاقتداء بمثل هذه الصفات والعمل بمقتضاها في وقت يدعو فيه الغرب إلى تغيير الخطاب الديني وتجديده، فهلاّ كان منهم التغيير لا منا.

[٤] الصدق والنهي عن الكذب

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِّر، وإِنَّ البِّرَ يَهدي إلى الجنَّةِ، وإِنَّ الرَّجلَ لَيَصْدُقُ حتى يكون صدِّيقًا، وإِنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهدي إلى النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يُكتبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

وفي رواية أخرى لمسلم عن عبد الله بن مسعود أيضًا عنه ﷺ قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»(٢).

❁ ❁ ❁

* **معنى الصدق، والكذب، والبر، والفجور:**

(١) **معنى الصدق:** الصدق هو مطابقة القول الضمير المخبر عنه، فإذا انخرم شرط لم يكن صدقًا بل كان كذبًا(٣).

بمعنى أن يكون الكلام مطابقًا لما في نفس الإنسان فلا يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

(٢) **معنى الكذب:** هو نقيض الصدق، ومعناه: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه(٤).

(١) متفق عليه: البخاري (٦٠٩٤) في الأدب، مسلم (٢٦٠٧) في البر والصلة.
(٢) صحيح: مسلم (٢٦٠٧/ ١٠٥) في البر والصلة.
(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٧).
(٤) «لسان العرب» (٣٨٤٠)، «دليل الفالحين» (٤/ ٣٨٠).

وقال الراغب الأصفهاني: أصل الصدق والكذب في القول ماضيًا كان أو مستقبلاً، وعدًا كان أو غيره، ولا يكون الصدق والكذب إلا في الخبر.

(٣) **تعريف البر**: هو اسم جامع لكل أفعال الخير، وقيل: هو الجنة، ويجوز: أن يكون بالمعنيين[(١)].

(٤) **تعريف الفجور**: هو الميل عن الاستقامة، وقيل: الانبعاث في المعاصي[(٢)].

خطورة الكلمة في الإسلام:

حرص الإسلام في تربيته لأتباعه على طهارة الظاهر والباطن منهم، فطهّر القلب من أدران الشرك وحلاّه بالتوحيد، ثم حرص على أن تكون حياة المسلم نظيفة في كل مظاهرها وأشكالها، وجعل أكثر هذه الأوجه نظافةً هو اللسان، إذ أولاه الإسلام اهتمامًا بالغًا وذلك لخطورة الكلمة في الإسلام خاصة، ثم لخطورة الكلمة في حياة البشر عمومًا، فوجب على المسلم طهارة القلب، ونظافة اللسان.

ولن نكون مبالغين في تبيان خطورة الكلمة بوجه عام إذا قلنا: إن الكلمة هي (حجر الزاوية) في الكون كله، فالله عز وجل أمره (كن فيكون) وعطاؤه كلام، ومنعه كلام، ووحيه لرسله كلام، وعيسى كلمته، والأنبياء يبلغون كلامه، والإعجاز القرآني يكمن في أنه كلام الله تعالى.

ثم إن الله تعالى قد امتن على الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٣، ٤)، والكلمة عمومًا هي المعبرة عن هذا البيان الذي امتن الله تعالى به على عباده، ولسنا هنا بصدد تعريف (الكلام، والكلم، والكلمة) قدر ما نحن بحاجة إلى توضيح ما يترتب على الكلمة من نتائج خطيرة قد تودي بخيط عنق المتكلم حتى قال قائل القوم:

احفظ لسانك أيها الإنسان ✿ لا يلدغنّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ✿ كانت تهاب لقاءه الشجعان

ويقول الآخر:

(١ ، ٢) النووي (٨/ ٣٧٦) على شرح مسلم. ط دار الفجر للترث.

يموت الفتى من عثرة بلسانه ❁ وليس يموت المرءُ من عثرة الرِّجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه ❁ وعثرته بالرِّجل تبرأ على مهل

وما هذا وذاك إلا مصداقًا لحديثه ﷺ: «**وهل يُكب الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم**»(١).

وهذا نفسه ما دعا النبي ﷺ إلى تصوير هذا المشهد الحقيقي الذي يحدث يوميًّا بين أعضاء الإنسان من جسده كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه أنه عليه السلام قال: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء تكفر اللسان وتقول: اتق الله فينا، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(٢).

إن الكلمة إذًا تكمن خلف القلب، والخلق، والإرادة، تراها هناك قد توارت بين الحنايا، مستكنة في النفس، جزءٌ من الإنسان وتكوينه وشخصيته، تدل على مقدار إيمانه أو شركه، وهو ما يعني أن الكلمة تساوي الرجل لأنها تفصح عمّا في نفسه، وعمّا غاب في قلبه، فاللسان مغرفة القلب، يغترف ما في بحره من معانٍ أو اعتقادات لذلك فإن للكلمة شطرين: شطر اللسان، وشطر القلب، فإذا صلح القلب صلحت الكلمة، وإذا فسد القلب فسدت معه الكلمة، وما اللسان إلا هذه الآلة المعبرة عن الفساد أو الصلاح.

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ❁ جُعِل اللسان على الفؤاد دليلاً

ولعل كلمة واحدة كفيلة بإدخال العبد النار أو الجنة كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»(٣).

والذي لا يلقي بالاً للكلمة: أي لا يعرف معناها، ولا يتأملها، ولا يتثبتها، ولا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني (٥١٣٦) في «صحيح الجامع» عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.
(٢) حسن: رواه الترمذي، وابن خزيمة، والبيهقي، وحسنه الألباني (٤٨٣٨) في «المشكاة».
(٣) صحيح: البخاري (٦٤٧٨) في الرقاق.

يعرف مصلحة هي أم مفسدة. ثم إن من علامات الإيمان قول الخير كما هو الحديث عن أبي هريرة عنه ﷺ أيضًا: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

بل إن حفظ اللسان عن السوء أحد شطري عملٍ يدخل به صاحبه الجنة ففي الحديث الذي رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٢)، والضمان هنا: بمعنى الوفاء بترك المعصية.. فمن أدى الحق الذي على لسانه من النطق أو الصمت عما لا يعنيه فله الجنة(٣).

فينبغي هنا حفظ الكلمة عن مواطن السوء، وإخراج الكلمة في الحق وبالحق، في المباح دون الحرام أو المكروه فإن حصائد الألسنة ـ كما سبق ـ تدخل الناس الجنة أو النار، ذلك أن كلام الإنسان حصاد لما في قلبه، فإما أن يكون الحصاد طيبًا لنبت طيب جيد، وإما أن يكون الحصاد لنبت رديء خبيث.

الصدق: كلمات وحقائق:

ومن طيب الكلام (الصدق) وهو كما سبق مطابقة الكلام لما في داخل الإنسان، والمسلم لا يرى الصدق خُلقًا فاضلاً يجب التخلق به، بل يراه متممًا لإيمانه، مكملاً لإسلامه؛ لأن الله تعالى قد أمر به عباده المتقين وأثنى على فاعليه، جاعلهم في مصاف الأنبياء والصالحين والشهداء كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٨).

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٠١٨) في الأدب، مسلم (٤٧) في الإيمان.

(٢) صحيح: البخاري (٤٦٧٤) في الرقاق. وما بين لحييه: أي ما بين جانبي الفم؛ وهو اللسان.

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٠٩) لابن حجر.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ (محمد: ٢١).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤).

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٣).

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

فالصدق هو عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، والصدِّيق: كثير الصدق مع الأنبياء والصديقين والشهداء[1]، والصدق سيف ما وضع على شيء إلا قطعه، ولقد قالوا: ثلاثة لا تخطئ الصادق:

الحلاوة: حلاوة المنطق؛ لأنه يأتي بالكلام برفق وسهولة دون تكلف.

والهيبة: لأنه لا يفعل الخطأ ولا المنكر يهابه الناس.

والملاحة: فإن الكل يراه حسن الوجه حسن المنطق، يضيء الله وجهه بالطاعة.

والصادق في معية الله تعالى، فمن أراد أن يكون في معية الله فعليه بالصدق فإن الله تعالى قد قال: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) ولذا قالوا: إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك ودع الكذب. وهو معنى قولهم: الصِّدق منجاة ولو كان فيه الهلكة.

ولذلك قال الجنيد - تاج العارفين -: «حقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلا الكذب».

يقول ابن قيم الجوزية عن الصدق: «هو منزل القدم الأعظم، الذي تنشأ منه جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق عن أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً، إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو

(١) «الرسالة القشيرية» (صـ ٢٠٧) ط بيروت.

روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، وهي مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار متصل ومعين»(١).

وقد وصف الله تعالى أهل البر: أي أهل الخير عامة بالصادقين فقال سبحانه في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو: مقام الإسلام والإيمان».

وقسّم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (الأحزاب: ٢٤).

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه فقال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩).

الصدق: مدخلٌ، ومخرجٌ، ولسانٌ، وقدم، ومقعد:

ويقول ابن القيم أيضًا:

* وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠).

* وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٨٤).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٨) لابن قيم الجوزية.

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢).

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤، ٥٥).

فهذه خمسة أشياء: (مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق).

* فمدخل الصدق، ومخرج الصدق:

أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها.

فقد كان مدخله ﷺ إلى المدينة مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

* وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٠).

فلما كان الصدق باللسان وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاءً وفاقًا وعبر عنه.

* وأما قدم الصدق: فإنها الأعمال الصالحة قدموها في الدنيا، ويقدمون على الجنة في الآخرة.

* وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى(١).

فالصدق مفتاح الجنة، ومفتاح الصديقية، والمقرب إلى الله تعالى.

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» بتصرف شديد.

* أنواع الصدق، ومظاهره، وأمثلته:

(١) الصدق في التوحيد:

أقصد به الصدق في الإيمان، فإن الإيمان (قول، اعتقاد، عمل) فإذا وقع الخلل في واحدة منهن كان خللاً في باقي العناصر، ولقد فضح الله تعالى المنافقين إذ قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١)، فقد قالوا ما أنكرته قلوبهم، فشهدوا بالتصديق والتوحيد، وواقع حالهم وعملهم، وما رسخ في قلوبهم من اعتقاد لا يشهد بذلك، فليس في قلوبهم إلا التكذيب والشك لا يعنون شيئًا مما قالوه ما انطبق نفاق قلوبهم على مرادهم من كلامهم.

ولذلك قالوا: الصدق: صحة التوحيد مع القصد.

والصدق: موافقة السر النطق.

والصدق: الوفاء لله عز وجلّ بالعمل.

وهذا هو أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه الذي كان من أكابر التابعين وأجلائهم (ت ٦٠ هـ) وكان من بلاد اليمن، وبعد وفاة النبي ﷺ ارتدت العرب ومنها قبيلته (خُولان) وكان فيهم الأسود العنسي ذلك المتنبئ كذبًا وزورًا، فدعاه الأسود ليشهد أنه رسول الله فقال له: يا أبا مسلم أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم: لا أسمع؛ أشهد أن محمداً رسول الله، فكرر الأسود العنسي عليه السؤال، وكرر أبو مسلم الإجابة، فأشعل الأسود نارًا وأضرمها حتى صارت من عظم لهبها يقع الطير في وسطها، ثم جيء بأبي مسلم رضي الله عنه، وألقوا به في النار كما فُعل بنبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام، ولكن النار لم تضر أبا مسلم رضي الله عنه، فطرده الأسود من بلاد اليمن خشية أن يفتن به الناس فيعودوا إلى الإسلام، فلما هاجر أبو مسلم إلى المدينة وجد النبي ﷺ قد مات، فقدم على أبي بكر الصديق فأجلسه بينه وبين عمر حتى قال له عمر: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى في أمة محمد من فُعِل به كما فُعِل بإبراهيم الخليل(١).

---

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ١٦٨) ط دار الفجر للتراث.

وكذلك كان حال أنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد خرج يطلب الجنة فاشتم ريحها حتى قال: (واهًا لريح الجنة إني لأجدها وراء أحد) وكذلك حال كل صادق في إيمانه مع الله تعالى في توحيده لربه عز وجلّ.

ولقد كان على عهد الطاغية أحمد بن طولون رجل اسمه (أبو الحسن الزاهد) أنكر على ابن طولون قتله للعلماء وأراد ابن طولون قتله، فجمع الناس لميقات يوم معلوم ثم أطلق أسدًا كان قد جوّعه أيامًا يريد أن يفترس أبا الحسن إلا أن الأسد عاد ولم يفعل، فلما أطلق رحمه الله سألوه بماذا كنت تدعو الله؟ قال: والله ما انشغلت بشيء مم تفكرون، والله لقد كنت أفكر هل لعاب الأسد نجس أم لا؟

وهذا هو الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لما جُلِد في محنة خلق القرآن حُلّت تكة سراويله حتى نزلت إلى عانته، فرمى أحمد طرفه إلى السماء فما كان بأسرع أن بقي السراويل لم تنزل، فسأله أحدهم ماذا كنت تقول لما رفعت بصرك؟ قال: قلت: (اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي سترًا)(١).

(٢) الصدق في التوبة:

وهذا باب عظيم في الصدق، فأول صدق العبد بعد صدق إيمانه، صدقه في الإنابة، العودة إلى الله كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم: ٨) وأول التوبة، ندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ونهيه، والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكرهه الله تعالى، ودوام الاستغفار، وردّ المظالم للعباد، والاعتراف لله تعالى ولزوم الخوف والحزن والإشفاق من ألا تقبل التوبة، ورجاء رحمة الله تعالى، لكن اعلم أن أكثر ما يساعدك على التوبة أن تذكر شبح المعصية وما أدت إليه، وما ستؤدي إليه إن عدت إليها، وأن تعلم أن من لطف الله تعالى أن ألهمك التوبة، فكن على حذر من شيطانك لئلا ينسيك توبتك وينقلك إلى معصية أخرى.

ولقد ذكرنا قصة المؤمنة التائبة مع (ماعز) وهي الغامدية رضي الله عنها وكيف

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٤١٣) لابن الجوزي.

أثنى النبي ﷺ على توبتهما جميعًا، ثم ها هو كعب بن مالك رضي الله عنه واحد من الثلاثة الذين خلفوا في يوم تبوك رأى المنافقين يكذبون على رسول الله ﷺ في الأعذار التي قدموها إليه، فأجمع صدقه ﷺ فما كان منه إلا أن قال: (حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا ـ يعني من رسول الله ـ فأجمعت صدقه).

وانظر إليه وهو يقر بذنبه لرسول الله يقول له: (يا رسول الله إني والله لو جلست عند غِيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ علي فيه (أي تغضب عليَّ فيه) إني لأرجو فيه عقبى الله، ثم اعترف رحمه الله، فقال ﷺ: **«أما هذا فقد صدق»**.

ولقد لامه قومه من بني سلمة على صدقه هذا وتمنوا لو لم يصدق ولو كذب إلا أنه رضي الله عنه أبى إلا الصدق في كل ما قال حتى تاب الله عز وجل عليه، فسر به رسول الله ﷺ وهو يقول أي كعب-: (يا رسول الله! إنّ الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي)(١).

فبالصدق نجاه الله من الهلكة وأنزل فيه قرآنًا، وجعل نموذجًا تتحدث به الركبان إلى قيام الساعة.

ومن صدق التوبة: خروج الذنب من القلب، والحذر من الشيطان، وكثرة الاستغفار، ورقة القلب، وكثرة البكاء على الذنب.

(٣) الصدق في الأقوال:

ومعناه: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والمتحري صدقًا في كل أقواله، والقائل صدقًا هو الصديق المكتوب عند الله تعالى على حاله تلك، وعكس الكذاب الذي يكتب عند الله كذَّابًا لمجرد تحريه الكذب،

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٤١٨) في التفسير، مسلم (٥٣/ ٢٧٦٩) في التوبة.

فالصدق منجاة في الدنيا، وعلو وسمو في الآخرة، ولو كان فيه الهلكة في الدنيا، وإنما ينجي الله تعالى الصادقين بصدقهم.

ولقد قال الحكماء: «الصدق: القول بالحق في مواطن الهلكة».

وقد خطب الحجاج بن يوسف يومًا فأطال الخطبة فقال أحد الحاضرين: الصلاة! فإن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك.

فأمر الحجاج بحبسه فأتاه قومه - أي قوم المحبوس - يزعمون أن الرجل مجنون.

فقال الحجاج: إن أقر بالجنون خلصته من سجنه.

فقال الرجل: لا يسوغ لي أن أجحد نعمة الله التي أنعم بها عليّ، وأثبت لنفسي صفة الجنون التي نزهني الله عنها، فلما رأى الحجاج صدقة خلّى سبيله.

وهذا هو الإمام الزُّهري - أمير المؤمنين في الحديث - وهو محمد بن شهاب الزهري المتوفى (١٢٤هـ) كان قد جلس في مجلس هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وفي مجلس هشام كان العلماء جميعًا يومها، فقال هشام: من الذي تولى كبر الإفك[١]؟ وكان هشام يقول: إنه علي بن أبي طالب - كذبًا عليه وزورًا وبهتانًا.

فراح يسأل العلماء يدور عليهم بالسؤال بحسب قربهم منه، فإذا سأل عالمًا قال: هو عبد الله بن أبي بن سلول.

فيقول هشام: لا؛ بل علي بن أبي طالب.

فيقول العالم: الأمير أعلم بما يقول.

حتى جاء الدور على الزهري، قال الزهري: هو عبد الله بن أبي بن سلول.

فقال هشام: كذبت؛ هو علي بن أبي طالب.

فقال الزهري: أنا أكذب، لا أبا لك، والله الذي لا إله إلا هو لو أن مناديًا نادى من السماء فقال: إن الكذب حلال ما كذبت، والله الذي لا إله إلا هو لقد حدثني سعيد عن عروة عن عبيدة عن عائشة أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول.

---

(١) حادثة الإفك المتهمة فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد برّأها الله تعالى في سورة النور.

عندئذٍ قال هشام: هيجناك يا إمام.. سامحنا سامحنا!!

فلقد أنجاه الله تعالى بصدقه كما نجّى أحمد بن حنبل رضي الله عنه في محنة خلق القرآن بصدقه وثباته فخرج من المحنة خروج البدر من الظلماء، والشمس من السحاب، أدخل الكير فخرج ذهبًا أحمر، ورحم الله البخاري حين خرج يطلب الحديث من رجل فرآه يستر لفرسه بردائه كأن فيه شعيرًا، فلما جاء الفرس ما وجد شعيرًا، فقال البخاري: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم.

(٤) الصدق في الأعمال:

ومعناه: استواء الأفعال على الأمر، والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

وهذا مقصود به استواء السريرة والعلانية، فقد قال الصالحون من هذه الأمة: احذر أن تلعنك قلوب الصالحين من حيث لا تدري. قيل: كيف؟

قال: تبيت تعصي الله، فيمقتك الله، فتلعنك قلوب المؤمنين.

وهنا نقول: إن الصدق هو الوفاء لله عز وجلّ بالعمل أي: الإخلاص له سبحانه؛ لأنه أغنى الأغنياء عن الشركاء، ومن عمّر باطنه بالصدق والإخلاص تجري حركاته وسكناته على حسب ما في قلبه فيظهر الصدق في أحواله وأفعاله ولذلك قالوا: (من أسر سريرة ألبسه الله رداءها).

ولقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١)، وأكثر شيء يهيج الصدق في العمل هو مراقبة الله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠) فإذا علمت أن الله تعالى يراك ولا يخفى عليه شيء من حركاتك وظاهرك وباطنك تربى الصدق في قلبك حين تذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: ٦١). إن من ألزم نفسه هذه الكلمات تراه يرجع عمّا يكره بعون الله، فطهر قلبه واستنار، وسكنه الخوف والرجاء، ودام حذره من الله، فلم تأخذه في الله لومة لائم، وقلّ وصغر من دون الله في عينه ممن ضيَّع أمر الله[١].

وارجع إلى الإخلاص في موضعه، وفي باب الاستقامة، فهناك المزيد.

---

(١) كتاب «الصدق» (صـ ٧١، ٧٢) لأبي سعيد الخراز.

(٥) صدق الحال:

قصد به ابن قيم الجوزية: استواء عمل القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به، تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية، سُمي (الصديق) على الإطلاق، و(الصديق) أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

ومن صدق الحال ألا يلبس المسلم لباس زور، ولا يرائي، ولا يتكلف كما قال ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»**. رواه مسلم، ومعنى هذا أن المتزين والمتجمل بما لا يملك ليرى أنه غني يكون كمن يلبس ثوبين باليين ليتظاهر بالزهد وهو ليس بزاهد ولا متقشف.

ولو كان حال المؤمن صدقًا دائمًا لبلغ ما تمناه بصدقه، فمتمني الشهادة بصدق يبلغها الله إياه ولو مات على فراشه، كما في صحيح مسلم.

والبائعان إن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا محقت بركة بيعهما. كما في صحيح البخاري.

وهذا أيضًا يسمى: صدق الإرادة والنية.

(٦) الصدق في الوعد:

وهو الوفاء بالعهود فقد مدح الله تعالى نبيه إسماعيل عليه السلام فقال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**﴾ (مريم: ٥٤).

وفي حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**... وإن حُسْن العهد من الإيمان**»[١].

يقول الراغب الأصفهاني: (والعهد والوفاء به من الإيمان، وقد صيّره الله تعالى قوامًا للناس، فإن الناس مضطرون إلى التعاون، ولا يتم التعاون إلا برعاية العهد والوفاء به، ولولا ذلك لتنافرت القلوب، واضطربت الحياة، ولذلك اهتم القرآن

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وابن عبد البر، وصححه الألباني (٢١٦) في «الصحيحة».

الكريم وعني عناية خاصة بالوفـاء. فتحدث في كثيـر من آياته التي تنبئ عن مكانته وشأنه وشرفه، وشرف الأولياء وفضلهم فمرة يذكر الوفاء على أنه من البر الذي هو جماع الخير ومقتضى الإيمان، كما في آية البر من سورة البقرة: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة: ١٧٧).

ويذكـر مرة أخـرى على أنه من صفـات المؤمنين المفلحين فـيقـول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨).

ويصفهم بالعقل والحكمة والفطنة فيقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد: ١٩، ٢٠).

ثم ندد سبـحانه بالخائنين للعهـود وتوعدهم شرًا، ووصفهم بالحـمق فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢).

ووصفهم بالنفاق والكذب فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٥ - ٧٧).

وجعلهم من شر خلقه فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥، ٥٦).

وأخيراً: الصدق طمأنينة، والكذب ريبة فاطمأن بالصدق، والزم ما أمر الله تعالى به.

وأما الكذب:

(١) فهو الهـادي إلى الفجور، وقد قـال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠)، ولقد جـعل النبي ﷺ الكذب علامـة من علامـات النفاق، وأمارات المنافـقين كما في حديث البـخاري الذي رواه بسنده عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**.

(٢) بل الكذب هو أفرى الفرى وأكـبر الكبائر، ففي حـديث البخاري عن ابن عمر أنه ﷺ قال: **«من أفرى الفرى أن يُري عينه ما لم تر»**، أي: نسبة الرؤيا إلى عينيه مع أنهما لم تريا شيئًا وأنه أخبر عنهما بالرؤية وهو كاذب.

* من أشكال الكذب وأنواعه:

(١) الكذب على الله تعالى:

فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣)، والقول على الله بلا علم هو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحالٍ، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حالٍ دون حال (من كلام لابن قيم الجوزية في مدارج السالكين).

وليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه - أي القول على الله بلا علمٍ، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أصلها القول على الله بلا علمٍ.

وقال أيضًا في «إعلام الموقعين» في نفس الآية السابقة: «رتب الله المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول على الله بلا علمٍ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه». اهـ.

لقد الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (الصف: ٧).

وقال سبحانه: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (آل عمران: ٩٤).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الأنعام: ٢١).

لقد دفع الكذب على الله قومًا- اليهود والنصارى- إلى التحريف والتغيير، واتهام الأنبياء بالفاحشة، فهذا أعظم الكذب، وأفرى الفرى، وهذا نقوله لأصحاب البدع: كل بدعة في الدين أساسها الكذب على الله.

(٢) الكذب على رسول الله ﷺ:

وأشد ما يقال في هذا الحديث المتواتر: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

فليحذر مرتزقة العلم من الأحاديث الموضوعة التي يروجونها بلا علمٍ، فيخرجون لنا جيلاً مشوه المعالم عقيدة وشريعة.

(٣) شهادة الزور:

وما أكثر الواقفين من شهود الزور على أبواب المحاكم، اليمين بعشرة جنيهات، كلٌ له سعره حسب الشهادة المطلوبة، ونوع القضية.

وقد قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: ٣٠).

وفي الحديث المتفق عليه: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»**، أي: إشفاقًا عليه ﷺ.

وقد عدلت شهادة الزور الإشراك بالله.

وفي الحديث: **«يطبع المؤمن على كل شيء ليس الخيانة والكذب»**(١).

وشاهد الزور قد فعل أمورًا فظيعة وهي:

(أ) الكذب والافتراء ولقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: ٢٨).

(ب) ظلم من شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه.

(جـ) ظلم الذي شهد له: بأن ساق إليه المال الحرام، فأخذه بشهادته ووجبت له النار، وفي الحديث المتفق عليه عن أم سلمة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: **«من قضيت له من مال أخيه بغير حقٍّ فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»**.

(د) أنه أباح ما حرّم الله وعصمه من المال والدم والعرض: وفي حديث أبي هريرة - الذي رواه عند مسلم - عنه ﷺ قال: **«كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه»**.

(٤) اليمين الغموس:

كارثة أخرى من الكوارث التي يعيش فيها كثير من المسلمين، واليمين الغموس هي:

---

(١) حسن: أحمد (٥/ ٢٥٢) في «المسند».

(التي يتعمد فيها الكذب، لأنها تغمس الحالف في الإثم، وتغمسه في النار).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا يحلف عبدٌ عند هذا المنبر (منبره ﷺ) على يمين آثمة، ولو على سواك رطب إلا وجبت له النار»**[١].

وفي حديث عائشة المتفق عليه عنه ﷺ قال: **«من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**، قيل: وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: **«وإن كان قضيبًا من أراك»**. أي: سواك.

وفي حديث مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**، وما أكثر التجار الذين يكذبون ويحلفون بالله كذبًا حتى إن أحدهم إذا خرج لعمله قال: (والله لا أحلف اليوم يمينًا صادقة)، ثم تراه طيلة النهار كاذبًا يتلاعب باسم الله تعالى ويضعه في غير موضعه.

وفي حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»**؛ فأين هم من هذه الأحاديث؟!

(٥) خلف الوعد، والخيانة:

وقد سبق أن خلف الوعد والعهد من علامات المنافقين: **«وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»**، وهذه هي الخيانة وهي ضد الأمانة، وتعريفها: مخالفة الحق بنقض العهد في السر[٢].

وهي شاملة لجميع التكاليف[٣] لقول الله تعالى: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾** (الأحزاب: ٧٢).

والأمانة هي: كل حق لزمك أداؤه وحفظه[٤].

وقد قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (الأنفال: ٢٧)، وقد نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن المنذر حين بعثه الرسول

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني (٢٦٩٧) في «الإرواء».

(٢) الراغب الأصفهاني: «المفردات» (صـ ٦٣).

(٣) «عون المعبود» (٤/٤٠٦).

(٤) «فيض القدير» (١/ ٢٣) للمناوي.

ﷺ إلى بني قريظة؛ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيًّا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. وقد ذكرناه في الجامع لأسباب النزول.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨).

ومن صور خيانة الله ورسوله ترك الفرائض كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وأيضًا من صورها الغدر بالعهود ولذلك قال ﷺ كما في حديث ابن عمر عند البخاري: «**لكل غادرٍ لواء ينصب يوم القيامة بغدرته**»، أي: راية سوداء كما كانت تفعل العرب في لوم الغادر حتى يذمه أهل الموقف جميعًا.

ومن صور الخيانة: الغش وهو: كتمان النصح، أو إظهار الإنسان خلاف ما يضمر، وقد قال ﷺ كما في صحيح مسلم: «**من غشّ فليس مني**».

ومن صور الخيانة: الخديعة: وهو إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، وفي صحيح البخاري: «**الخديعة في النار**»، رواه معلقًا. (الفتح ٤/ ٣٥٥).

ومن صور الخيانة: الرشوة: وهم ملعنون: الراشي الذي يدفع، والرائش الذي يعين على الرشوة، والمرتشي الذي يقبضها، وهي - أي الرشوة - تدفع توصلاً لإبطال حقٍّ أو إحقاق باطل[١]، وأما ما يعطى توصلاً إلى أخذ حق، أو دفع ظلمٍ، فغير داخل في الرشوة[٢].

متى يجوز الكذب؟

(١) حديث الرجل امرأته ليرضيها: والمراد منه إظهار الود والوعد بما لا يلزم،

---

(١) «النهاية» (٢/ ٢٢٦) لابن الأثير.

(٢) «تحفة الأحوذي» (٤/ ٥٦٥).

أما الخداع، وأخذ ما ليس للزوج حق فيه فهو حرام بإجماع المسلمين - كما نقل ذلك النووي عن الطبري[١].

(٢) الكذب في الحرب: لأنها خدعة، ويقع الخداع في الحرب بالتعريض وبالكمين؛ لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن جابر: **«الحرب خدعة»**.

(٣) الكذب للصلح بين الناس: وفي الحديث عن أم كلثوم بنت عقبة أنه ﷺ قال: **«ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»**. رواه البخاري.

ولا خلاف في جواز الكذب في هذه المواطن.

✿ ✿ ✿

---

(١) «تهذيب الآثار» للطبري (صـ ١٢١).

[٥] الحلم والصفح والعفو والنهي عن الغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «**لا تَغْضَبْ**»، فردد مِرارًا، قال: «**لا تَغْضَبْ**»[١].

❁ ❁ ❁

*** الغضب: تعريف، وتطوافة حول معانيه:**

الغضب: ضد الرضا[٢].

وقال الراغب: الغضب هو: ثوران دم القلب إرادة الانتقام[٣].

وإذا وُصف الله تعالى به فالمراد به سخطه عز وجل على من عصاه وإعراضه عنه، ومعاقبته له.

نوعا الغضب:

(١) غضب محمود:

وهو الغضب الديني، غضب لانتهاك محارم الله تعالى كما كان ﷺ يغضب. فقد روى البخاري في كتاب الأدب عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل وفي البيت قرام[٤] فيه صور فتلون وجهه ﷺ ثم تناول الستر فهتكه، وقالت: قال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**»، فتلون وجهه ﷺ، ثم هتكه الستر دلّ على أن هذا الغضب لله تعالى ﷺ وإنما أظهر غضبه هنا؛ ليكون أوكد في الزجر عن المنهي عنه، ولا حرج في هذا الغضب.

---

(١) صحيح: البخاري (٦١١٦) في الأدب.

(٢) «لسان العرب» (٣٢٦٢).

(٣) الراغب (صـ ٣٦١) في «المفردات».

(٤) قرام: ستر رقيق، وقيل من الصوف. «النهاية» (٤/٤٩) لابن الأثير.

(٢) الغضب المذموم:

وهو الغضب للدنيا، والنفس، أو ما كان لغير الله عزّ وجلّ، وهو مقصودنا في هذا الجزء.

وهذا الغضب هو الذي قال عنه أحد أصحاب النبي ﷺ بعد سماع وصية: «لا تغضب»، ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال: «فإذا الغضب يجمع الشر كله»[١].

وقال جعفر الصادق: الغضب مفتاح كل شرٍّ.

إنه إذًا الغضب الدنيوي الفاسد الذي عرّفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم فقال: (هو غليان الدم - دم القلب - طلبًا لدفع المؤذي عنه خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل له منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل والضرب وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف والسبِّ والفحش وربما ارتقى إلى درجة الكفر كما جرى لجبلة بن الأيهم وسنذكر قصته، وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعًا، وكطلاق الزوجة الذي يعقبه الندم)[٢].

ولقد فهم ابن الجوزي رحمه الله طبيعة الغاضب تلك وأنه في غير ملك نفسه فقال: (متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حال السكران، لا يدري ما يجري، بل اصبر لفورته ولا تعول عليها، فإن الشيطان قد غلبه والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

ومتى أخذت في نفسك عليه أو أجبته بمقتضى فعله، كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك)[٣]، لقد حدد إذًا رحمه الله أن الغضب يحدث فيه الآتي:

(١) هيجان الدم في القلب.

(٢) ذهاب العقل فيصير الغضبان كالسكران، واستتاره بستار الغضب.

---

(١) صحيح: أحمد (٣/ ٤٨٤) في «المسند»، وصححه الألباني.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (صـ ٢٤١) حديث (١٦) ط دار الفجر للتراث.

(٣) «صيد الخاطر» (صـ ٣٤٨، ٣٤٩) لابن الجوزي ط دار الفجر للتراث.

(٣) فورة وثورة من الإنسان.

(٤) غلبة الشيطان عليه.

ولم يكن ابن الجوزي بدعًا في وصف حماقة الغاضبين لأمور دنياهم، فقد ذكر الله تعالى الغضب في القرآن متلازمًا مع نزق الجاهليين فقال تبارك وتعالى: **﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** (الفتح: ٢٦).

ففي هذه الآية مدحٌ للرسول والمؤمنين بالسكينة، وفيها إشارة إلى ذم الغضب، ذلك أن الغضب من الشيطان ولذلك قال ﷺ لمن استب عنده: **«إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون[(١)].

إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم توقد، والوقود نار، والنار منها خلق الشيطان الذي لا يألو جهدًا في إضلال ابن آدم، وجرّه نحو المعصية.

ولذلك فإن النبي ﷺ يقول لأصحابه: **«ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[(٢)].

وفي رواية مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال لأصحابه: **«ما تعدون الصُّرعة فيكم؟»**، قالوا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: **«ليس ذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**.

وفي رواية للهيثمي بسند حسن بشواهده عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ بقومٍ يرفعون حجرًا فقال: **«ما يصنع هؤلاء؟»** قالوا: يرفعون حجرًا (يريدون الشدة) فقال: **«أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟»**، أو كلمة نحوها **«الذي يملك نفسه عند الغضب»**.

*** قالوا عن الغضب:**

(١) قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: الغضب يجمع الشر كله.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦١١٥) في الأدب، مسلم (٢٦١٠) في البر والصلة.

(٢) متفق عليه: البخاري (٦١١٤) في الأدب، مسلم (٢٦٠٩) في البر والصلة عن أبي هريرة.

(٢) قال جعفر الصادق: الغضب مفتاح كل شر.

(٣) قال عبد الله بن المبارك: حسن الخلق هو: ترك الغضب.

(٤) قال عمر بن عبد العزيز: قد أفلح من عصم عن الهوى والغضب والطمع.

(٥) قال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث:

(أ) إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا.

(ب) وإذا غضب قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم.

(جـ) ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه.

عاقبة الغضب الوخيمة:

وهذه بعض القصص ممن غضبوا للدنيا فأوقعهم الغضب في المهالك:

(١) فهذا جبلة بن الأيهم كان ملكًا من ملوك غسان الموالين لدولة الروم، وعلى قدر ملكه كان عقله تائهًا، فارغًا، زائغًا، منحرفًا، يطير فؤاده للنبأ الخفيف فلا يسكن، في كل وادٍ يهيم، همّه نفسه ولذته وشهوته كأنه شجرة لا جذور لها لا تثبت أمام الريح، أو تقاوم الآفات، جاء جبلة بن الأيهم مُسلمًا إلى مكة في عهد عمر رضي الله عنه وأرضاه، ودخل الحرم كأنه قارون يرفل في حريره الزائف، وزينته الفانية، وفرح المسلمون بإسلامه، وبينما هو بالكعبة يطوف حولها، إذ وطأ إزاره أعرابي من فزارة، فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه، فشكاه الرجل إلى عمر رضي الله عنه وهو الذي لا تضيع عنده ودائع العدل، فاستدعى عمر جبلة ليسمع منه كما سمع من الأعرابي، فأقر جبلة بلطمه الأعرابي بل وقال: ولولا حرمتك يا عمر لضربت ما بين عينيه بالسيف.

فخيّره عمر بين استرضاء الأعرابي، وبين القصاص، فقال: كيف؟ وهو سوقة وأنا ملك؟!! ثم طلب من عمر مهلة، فأمهله عمر، ففر ليلتها وارتد، ولو علم الله فيه خيرًا لأسمعه، لكنه سقط في بئر النفاق، وهوى في هوة الغضب السحيقة، وصدق القائل:

كيف يقوى على العواصف شجرٌ ✿ جذره في التراب موءود

(٢) وروى مجاهد أن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال له: إني طلقت امرأتي ثلاثًا وأنا غضبان. فقال: ابن عباس لا يستطيع أن يُحلّ لك ما حرم الله عليك، عصيت ربك، وحُرِّمت عليك امرأتك[١].

(٣) وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة»[٢].

فكان جزاء غضبها أن ردّ النبي ﷺ الناقة زجرًا لهذه المرأة الغضوب.

(٤) وذكر أبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أخبر عن رجلين ممن كان قبلنا كان أحدهما عابدًا وكان الآخر مسرفًا على نفسه، وكان العابد يعظه فلا ينتهي، فرآه يومًا على ذنبٍ استعظمه فقال: [والله لا يغفر الله لك، فغفر للمذنب وأحبط عمل العابد].

قال أبو هريرة: لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، فكان أبو هريرة يحذر الناس أن يقولوا مثل هذه الكلمة في غضب[٣].

(٥) ولا يخفى قصة الظِّهار التي حدثت بين خولة بنت ثعلبة وأوس بن الصامت، وكان شيخًا قد كبر وضجر، فراجعته فظاهر منها، حتى أنزل الله تعالى آيات الظهار وفيه الكفارة جزاءًا وفاقًا على غضبه وتسرعه في الظهار من زوجته.

مساوئ الغضب على الفرد والمجتمع:

(١) هو جماع الشر كله:

فقد رواه أحمد بسنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل يا رسول الله أوصني، قال: «لا تغضب»، قال: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله[٤]. فقول الصحابي: الغضب يجمع الشر كله

---

(١) صحيح: الدارقطني (٤/ ١٣، ١٤) في سننه، أبو داود (٢١٩٧) في الطلاق.

(٢) صحيح: مسلم (٨٠/ ٢٥٩٥) في البر والصلة.

(٣) صحيح: أبو داود (٤٩٠١) في الأدب، وصححه الألباني هناك.

(٤) سبق تخريجه.

هذا مستنبط مما أوصى إليه الرسول ﷺ بقوله: «**لا تغضب**»، فالصحابة أفهم لما قاله الرسول ﷺ من غيرهم.

فقد اتضح قبح الغضب عند المرء في الظاهر والباطن. فأما في الظاهر فالغضبان قبيح صورته لأنه يترتب عليه الأقوال والأفعال القبيحة، قد ينطلق لسانه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب.

وقد تنطلق منه الأفعال القبيحة كالضرب، والقتل، وربما إن فات ذلك بهرب المغضوب عليه، رجع إلى نفسه فيمزق ثوبه ويلطم خده وربما سقط صريعًا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك ذنب.

فأما في الباطن فقبحه ليس بأقل من قبحه في الظاهر؛ لأنه يولد الحقد والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه التي تؤدي إلى هدم كيان الأمة ووحدتها.

(٢) أنه من الشيطان:

فقد روى أبو داود بسنده، عن أبي وائل القاص قال: (دخلنا على عروة بن محمد بن السعدي فكلمه رجل فأغضبه فقام فتوضأ ثم رجع وقد توضأ فقال: حدثني أبي عن جدي عطية قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»(١).

(٣) أنه طردٌ للملائكة:

فقد وقع رجل في أبي بكر رضي الله عنه فآذاه وهو صامت رضي الله عنه، فلما آذاه الثانية صمت، وفي الثالثة انتصر أبو بكر لنفسه رضي الله عنه، فقام النبي ﷺ، فقال الصديق: أوَجَدت عليَّ يا رسول الله؟ (يعني غضبت عليّ؟) قال ﷺ: «**نزل ملك من السماء يُكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرت ذهب المَلَك وقعد الشيطان، فلم أكن لأجلس إذًا مع الشيطان**»(٢).

---

(١) رمز له السيوطي بالحسن في «الجامع» (١/ ٨٣)، وقد رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

(٢) حسن: حسنه الألباني (٦٧٥٨) في «صحيح الجامع»، وعزاه لأبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

*** معالجة السنة النبوية للغضب:**

(١) بيان فضيلة عدم الغضب وبالتخويف منه:

ففي حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَن كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء**»(١)، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**ما تجرع عبدٌ جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى**»(٢).

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ﷺ قال لرجل: «**لا تغضب ولك الجنة**»(٣).

فالحور العين، والجنة، ورضا الله تعالى في انتظار من لا يغضب أو يكتم غضبه في وقت له القدرة على إنفاذه علاج فعّال ضد الغضب.

(٢) بالأمر بالدعاء إلى الله والاستعاذة به من الشيطان:

فأما أمره ﷺ بالدعاء إلى الله فقد روى مسلم بسنده عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها**»(٤). فهذا التعليم من الرسول ﷺ صالح لمعالجة الغضب عندما أصيب شخص بمصيبة.

وأما أمره بالاستعاذة بالله من الشيطان فقد روى البخاري بسنده عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون(٥).

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «سنن الترمذي» (٢٠٢١) في البر والصلة.

(٢) حسن: أحمد (٢/ ١٢٨) في «المسند» بسند حسن.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٧٣٧٤) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: رواه مسلم في الجنائز (٢/ ٦٣٣).

(٥) سبق تخريجه.

ففي هذا الحديث بيَّن الرسول ﷺ طريقة معالجة الغضب وهي أن يقول: **«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**، إلا أن الرجل الغضبان المبين في هذا الحديث أبى أن يلفظها وقال: إني لست بمجنون، وهذا من كلام من لم يفقه في دين الله ويوهم أن الاستعاذة مختصة بالجنون، ولم يعلم أن الغضب من نزغات الشيطان، ويحتمل أن ذلك الرجل الغضبان من المنافقين أو من جفاة الأعراب.

(٣) بيان الأفعال التي بها تجنب الغضب:

ومن هذه الأفعال:

(١) إذا كان قائمًا فليجلس فإن لم يذهب الغضب فليضطجع.

فقد روى أبو داود بسنده عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: **«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»**(١).

قال البغوي: إنما أمره بالقعود أو الاضطجاع؛ لـئلا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه. فإن المضطجع أبعد في الحركة والبطش من القاعد، والقاعد من القائم(٢).

(٢) الوضوء: حتى يطفئ نار الغضب.

(٣) السكوت: وهو ملك النفس حتى لا يجيب فيزيد ذلك من غضبه.

*** ما يعين على معالجة الغضب أيضًا:**

(٤) قال الطوفي: «أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره، فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه عز وجل وعلا وهو خلاف العبودية»(٣).

(٥) وقال ابن الجوزي لمن حضر غاضبًا: «انظر إليه بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج في لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى،

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٤٧٨٢) في «سنن أبي داود» كتاب الأدب.

(٢) «شرح السنة» (١٣/ ١٦٢) للبغوي.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢١) لابن حجر.

وعرف لك فضل الصبر، وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به».

وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج، فتتركه يشتفي بما يقوله، ولا تعول على ذلك، فسيعود نادمًا معتذرًا.

وأما الحلم والعفو عن الجاهلين:

والناس في حياتهم على أصناف ثلاثة: صنف يقل فيه فعل الخير وهو الغضوب الذي ذكرناه آنفًا. وهو صنف كثيرًا ما يصدر عنه الشر، إما أن يبدأ بالإيذاء أو يجازي السيئة بالسيئة.

والصنف الثاني: يفعلون الخير لكنهم ينتظرون الجزاء العاجل، وإن كان لهم حقٌّ أصروا على أخذه كاملاً بلا تهاون في اقتضائه، شعارهم في الحياة: الشر بالشر والبادئ أظلم.

والصنف الثالث: هم من يتجاوزون العدل إلى الفضل لا يظلمون أحدًا، بل يعفون عمّن ظلمهم، إن نالهم الأذى من غيرهم لم يقابلوه بأذى مثله تكرمًا منهم مع قدرتهم على الانتقام وهم الصنف الذي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٧).

وهم أيضًا الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، إن الله تعالى جعل في الإسلام شريعة وقاعدة ذكرها في القرآن ألا وهي: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠)، لكنه عاد فجعل العفو دليلاً على صلاح النفس من الغيظ وإصلاح الجماعة من الأحقاد حين قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠)، فالصبر والسماحة استعلاءٌ على غضب النفس، وهو أمر قدّره القرآن في أصحابه فمدحهم به فقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣).

إن الحلم صفة الأنبياء والرسل، والصالحين من أولي العزمات القوية الذين يرون في تحمل الإيذاء واحدة من مواطن رضا الله تبارك وتعالى، ولذلك فقد وصف الله تعالى المرسلين بالحلم في مواطن الغضب في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥)، وقال في ولده إسماعيل: **﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾** (الصافات: ١٠١).

وقال في يوسف وعفوه عن إخوته: **﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** (يوسف: ٩٢).

*** نماذج من حلم النبي ﷺ:**

(١) عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لَمَّا كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عُيينة بن حصنٍ مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجلٌ: والله إنَّ هذه قسمةٌ ما عُدِلَ فيها، وما أُريد فيها وجه الله، فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال: فتغيَّر وجهه حتى كان كالصِّرف، ثم قال: «**فمن يعدلْ إذا لم يعدل الله ورسوله؟**» ثم قال: «**يرحمُ الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر**». فقلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا، متفق عليه، وقوله: «كالصِّرف» هُو بكسرِ الصاد المهملة، وهو صبغٌ أحمر.

(٢) ويبقى موقفه في فتح مكة حيث قال لمن آذاه وسبه، ولعنه وقتل أصحابه وشهر السيف في وجهه: «**لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

(٣) وهو الذي يعفو عن قاتل حمزة؛ ليكون فعله موافقًا لما نزل عليه من محكم التنزيل: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾** (النحل: ١٢٦).

(٤) لقد كانت الحالة العامة له ﷺ أنه لم يكن ينتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله لها[١].

(٥) وهو ﷺ القائل لما كسرت رباعيته في أُحد: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[٢].

(٦) وهو الذي عفا عن اليهودية التي أرادت قتله ووضعت السم له في الشاة

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧) عن عائشة.

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٩٠٣)، مسلم (١٧٩٢) عن سهل بن سعد.

يوم خيبر، ولم يؤاخذ اليهودي الساحر لبيد بن الأعصم بسحره له رغم أن الله تعالى قد أوحى إليه بفعلته هذه، فلا هو عاقبه، ولا هو عاتبه، ولا هو الذي قتل عبد الله ابن أبي بن سلول الذي شهر بزوجته عائشة وتولى كبر الإفك، وهو الذي عفا عن الأعرابي (دعثور) أو (غورث) لما سقط السيف من يده، حتى عاد الرجل يقول لقومه: (جئتكم من عند خير الناس).

وهذه الحوادث وردت في أحاديث متفق عليها.

(٧) يروي أنس رضي الله عنه فيقول: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد[١] غليظ الحاشية فجبذه الأعرابي - أي جذبه - جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيري من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك. فسكت ﷺ ثم قال: «**المالُ مال الله، وأنا عبده**» ثم قال: «**ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي**»، أي: يقتص منك، فقال الأعرابي: لا. قال: «لِمَ؟» قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك ﷺ ثم أمر أن يحمل على بعير شعير، وعلى الآخر تمر[٢].

وتجمل أم المؤمنين عائشة حلمه ﷺ فتقول: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلِمَها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة»[٣].

وإنما كان ذلك لأنه ائتمر بأمر الله تعالى إذ قال له: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ (الأحقاف: ٣٥).

* **بين الحلم، والاحتمال، والعفو:**

فالحلم: حالة توقُّر وثبات عند الأسباب المحركات.

والاحتمال: كالصبر وهو حبس النفس عند الآلام والمؤذيات.

والعفو: ترك المؤاخذة[٤]، وهذا كله أُمرنا به في القرآن إذ قال الله تعالى: ﴿خُذِ

---

(١) برد: ثوب.

(٢) متفق عليه: البخاري (٣١٤٩)، مسلم (١٠٥٧) في الزكاة.

(٣) صحيح: مسلم (٢٣٢٨) في الفضائل.

(٤) «الشفا» (١/ ١١٨) للقاضي عياض.

الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ولما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبريل عن تأويلها فقال: حتى أسأل العالم، ثم أتاه يقول: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك[١].

وقد قالوا في هذه الآية أقوالاً:

فقال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٢].

وقال أيضًا عن هذه الآية: ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس[٣].

وقال جعفر الصادق: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

قال ابن حجر معقبًا على ذلك: ووجهوه بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوة الإنسانية:

عقلية: وهي الحكمة ومنها الأمر بالمعروف.

وشهوية: وهي العفة ومنها أخذ العفو.

وغضبية: وهي الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين[٤].

وقال ابن كثير: «إن هذا تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم»، قاله في التفسير.

وقال قتادة عن هذه الآية: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين:

خذ العفو وأمر بعرف كما ❁ أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولِن في الكلام لكل الأنام ❁ فمستَحْسَنٌ من ذوي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه

---

(١) مرسل: ابن أبي الدنيا (٢٥) في «مكارم الأخلاق»، ووصله الطبري من حديث جابر كما في «الفتح» (٨/ ٣٠٦).

(٢ ، ٣) البخاري (٤٦٤٣، ٤٦٤٤) في التفسير.

(٤) «الفتح» (٨/ ٣٠٦).

ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمُره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٦ - ٩٨).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥).

فهذه آيات يرشد تعالى بها إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عمّا هو فيه من التمرد بإذنه تعالى[١].

وصدق الشاعر إذ قال:

من يفعل الخير لا يعدم جَوازِيه ✿ لا يذهب العرف بين الله والناس

إن العرف: هو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس[٢].

عمر رضي الله عنه الوقّاف مع آيات القرآن:

ويروي ابن عباس[٣] فيقول: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القُرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شُبانًا، فقال عيينة لابن أخيه:

يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه.

قال: سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال:

- يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هَمَّ أن يقع فيه. فقال الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين.

فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقّافًا عند كتاب الله عز وجل. أي

---

(١) ابن كثير (٢/ ٤١١- ٤١٣) في التفسير- ط دار الفجر للتراث.

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٠).

(٣) صحيح: البخاري (٤٦٤٢) في التفسير.

أن عمر كان لا يتجاوز حكم ما جاء القرآن إلى غيره فالتزم العفو عن هذا الجاهل فأعرض عنه صيانة لنفسه عليه، ورفعًا لقدره عن مجاوبته.

وقال الشاعر:

مكارم الأخلاق في ثلاثة ✿ من كَمُلت فيه فذلك الفتى

إعطاء من تحرمه وَوَصْلُ مَنْ ✿ تقطعه والعفو عمن اعتدى

وقال سهل بن عبد الله: كلّم الله موسى بطور سيناء، قيل له: بأي شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء: الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكرًا، وصمتي فكرًا، ونظري عبرًا[(١)].

قالوا عن الحلم والعفو:

(١) قيل للأحنف بن قيس: كيف تعلمت العفو؟ قال: ما آذاني أحدٌ إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه.

(٢) وقال الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه: حسن الخلق: ترك الغضب.

(٣) وقيل لعبد الله بن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة. فقال: ترك الغضب.

(٤) وقال الحسن: أربعٌ من كُنّ فيه عصمه الله من الشيطان وحرمه على النار: من ملك نفسه عند: الرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب.

(٥) وقال عطاء بن أبي رباح: ما أبكى العلماء بكاء آخر العمر من غضبة يغضبها أحدهم فيهدم عمر خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة، ورُبَّ غضبة قد أقحمت صاحبها مقحمًا ما استناله.

(٦) إن الحليم إذا قدر عفا.

(٧) وكان أصحاب النبي ﷺ يقولون: ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانًا إذا لم يصبر على الأذى.

---

(١) القرطبي (٧/ ٣٢٧- ٣٣٢) في التفسير- ط دار الحديث.

[الحقوق]

[١] بر الوالدين والنهي عن عقوقهما .

[٢] حقوق الأبناء على الآباء .

[٣] حقوق الزوج على زوجته .

[٤] حقوق المرأة في الإسلام .

[٥] الوصية باليتيم .

[٦] حقوق الأخوة .

[٧] حقوق الجار وإكرام الضيف .

[١] بر الوالدين والنهي عن عقوقهما

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق بِحُسْن صَحابتي؟ قال: «**أُمُّك**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أُمُّك**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أُمُّك**». قال: ثم مَنْ؟ قال: «**ثُم أَبُوك**»[١].

✿ ✿ ✿

بر الوالدين

(١) تعريف بر الوالدين:

بر الوالدين ضد العقوق، قال ابن منظور رحمه الله: «والبر ضد العقوق، والمبَرَّةُ مثله، وبَررت والدي - بالكسر- أبَرُّه برًّا، وقد برَّ والده يَبَرُّه ويَبِره بِرًّا، فَيَبَرُّ على بَرِرْتُ، ويَبِر على بَرَرْتُ».

وقال: «ورجل برٌّ من قوم أبرار، وبارٌّ من قوم بررة».

وروي عن ابن عمر أنه قال: «إنما سماهم الله أبرارًا لأنهم بروا الآباء والأبناء».

وقال: «كما أن لك على ولدك حقًّا كذلك لولدك عليك حق»[٢].

(٢) آداب تُراعى مع الوالدين:

هناك آداب ينبغي لنا مراعاتها، ويجدر بنا سلوكها مع الوالدين، لعلنا نرد لهما بعض الدَّين، ونقوم ببعض ما أوجب الله علينا نحوهما، كي نرضي ربنا، وتنشرح صدورنا، وتطيب حياتنا، وتُيسر أمورنا، ويبارك الله في أعمارنا، وينسأ لنا في آثارنا[٣].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٩٧١) في الأدب، مسلم (٢٥٤٨) في البر والصلة.

(٢) «لسان العرب» (٤/ ٥٣) لابن منظور.

(٣) «بر الوالدين» لعاشور (١٦- ٢٠)، «صلة الأرحام» للحازمي صـ ٢٦.

* **ومن هذه الآداب:**

١- **طاعتهما واجتناب معصيتهما**: فيجب على المسلم طاعة والديه واجتناب معصيتهما، وأن يقدم طاعتهما على طاعة كل أحد من البشر ما لم يأمرا بمعصية الله ورسوله ﷺ إلا الزوجة؛ فإنها تقدم طاعة زوجها على طاعة والديها.

٢- **الإحسان إليهما**: بالقول، والفعل، وفي وجوه الإحسان كافة.

٣- **خفض الجناح**: وذلك بالتذلل لهما، والتواضع.

٤- **البعد عن زجرهما**: وذلك بلين الخطاب، والتلطف بالكلام، والحذر كل الحذر من نهرهما، ورفع الصوت عليهما.

٥- **الإصغاء إليهما**: وذلك بالإقبال عليهما بالوجه إذا تحدثا، وترك مقاطعتهما أو منازعتهما الحديث، والحذر كل الحذر من تكذيبهما، أو رد حديثهما.

٦- **الفرح بأوامرهما، وترك التضجر والتأفف منهما**: كما قال- عز وجل- : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء: ٢٣).

٧- **التطلُّق لهما**: وذلك بمقابلتهما بالبشر والترحاب، بعيدًا عن العبوس وتقطيب الجبين.

٨- **التودد لهما والتحبب إليهما**: ومن ذلك مبادأتهما بالسلام، وتقبيل أيديهما ورءوسهما، والتوسيع لهما في المجلس، وألا يمد يده إلى الطعام قبلهما، وأن يمشي خلفهما في النهار وأمامهما في الليل خصوصًا إذا كان الطريق مظلمًا أو وعرًا، أما إذا كان الطريق واضحًا سالكًا فلا بأس أن يمشي خلفهما.

٩- **الجلوس أمامهما بأدب واحترام**: وذلك بتعديل الجلسة، والبعد عما يشعرهما بإهانتهما من قريب أو بعيد، كمد الرِّجل أو القهقهة بحضرتهما، أو الاضطجاع، أو التعري، أو مزاولة المنكرات أمامهما، أو غير ذلك مما ينافي كمال الأدب معهما.

١٠- **تجنب المنة في الخدمة أو العطية**: فالمنة تهدم الصنيعة، وهي من مساوئ الأخلاق، ويزداد قبحها إذا كانت في حق الوالدين. فعلى الولد أن يقدم لوالديه ما يستطيع، وأن يعترف بالتقصير، ويعتذر عن عدم استطاعته أن يوفي والديه حقهما.

١١- تقديم حق الأم: فمما ينبغي مراعاته- أيضًا- تقديم بر الأم، والعطف عليها، والإحسان لها على بر الأب، والعطف عليه، والإحسان إليه، وذلك لما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله مَن أولى الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(١).

قال ابن بطال رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: «مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، قال: وذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاع، فهذا تنفرد به الأم وتشقى به، ثم تشارك الأب في التربية»(٢).

قد يقال: الأم تقدم وتفضل بالبر والإحسان والعطف، والأب يقدم في الطاعة؛ لأن الأب رب المنزل وقائد السفينة.

١٢- مساعدتهما في الأعمال: فلا يليق بالولد أن يرى والديه يعملان وهو ينظر إليهما دون مساعدة لهما.

١٣-البعد عن إزعاجهما: سواء إذا كانا نائمين، أو إزعاجهما بالجلبة ورفع الصوت، أو بالأخبار المحزنة أو غير ذلك من ألوان الإزعاج.

١٤- تجنب الشجار وإثارة الجدل أمامهما: وذلك بالحرص على حل المشكلات مع الأخوة وأهل البيت عمومًا بعيدًا عن أعينهما.

١٥-تلبية ندائهما بسرعة: سواء كان الإنسان مشغولاً أم غير مشغول، فبعض الناس إذا ناداه أحد والديه وكان مشغولاً تظاهر بأنه لم يسمع الصوت، وإن كان فارغًا أجابهما.

أصمُّ عن الأمر الذي لا أريده ✿ وأسْمع خلق الله حين أريد

فاللائق بالولد أن يجيب والديه حال سماعه النداء.

١٦- تعويد الأولاد على البر: وذلك بأن يكون المرء قدوة لهم، وأن يسعى قدر المستطاع لتوطيد العلاقة بين أولاده وبين والديه.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٩٧١) في الأدب، مسلم (٢٥٤٨) في البر والصلة والآداب.
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤١٦) لابن حجر.

١٧- إصلاح ذات البين إذا فسدت بين الوالدين: فمما يجدر بالأولاد أن يقوموا به أن يصلحوا ذات البين إذا فسدت بين الوالدين، وأن يحرصوا على تقريب وجهات النظر بينهما إذا اختلفا.

١٨- الاستئذان حال الدخول عليهما: فربما كانا أو أحدهما على حالة لا يرضى أن يراه أحد وهو عليها.

١٩- تذكيرهما بالله دائمًا: وذلك بتعليمهما ما يجهلانه من أمور الدين، وأمرهما بالمعروف، ونهيهما عن المنكر إذا كان عليهما بعض مظاهر الفسق والمعصية مع مراعاة أن يكون ذلك بمنتهى اللطف والإشفاق والشفافية، والصبر عليهما إذا لم يقبلا.

٢٠-الاستئذان منهما والاستنارة برأيهما: سواء في الذهاب مع الأصحاب للبرية، أو في السفر خارج البلد للدراسة ونحوها، أو الذهاب للجهاد، أو الخروج من المنزل والسكنى خارجه، فإن أذنا وإلا أقصر وترك ما تريد خصوصًا إذا كان رأيهما له وجه، أو كان صادراً عن علم وإدراك.

٢١-المحافظة على سمعتهما: وذلك بمخالطة الأخيار، والبعد عن الأشرار، وبمجانبة أماكن الشبه ومواطن الريب.

٢٢- البعد عن لومهما وتقريعهما: وذلك إذا صدر منهما عمل لا يرضي الولد، كتقصيرهما في التربية، وكتذكيرهما بأمور لا يحبان سماعها مما قد بدر منهما فيما مضى.

٢٣- العمل على ما يسرهما وإن لم يأمرا به: من رعاية للإخوة أو صلة للأرحام أو إصلاحات في المنزل أو المزرعة، أو مبادرة بالهدية، أو نحو ذلك مما يُسرُّهما ويدخل الفرح على قلبيهما.

٢٤- فهم طبيعتهما ومعاملتهما بمقتضى ذلك: فإذا كانا أو أحدهما غضوبًا أو فظًّا غليظًا أو كان متصفًا بأي صفة لا ترتضى، كان جديراً بالولد أن يتفهم تلك الطبيعة في والديه، وأن يعاملهما كما ينبغي.

٢٥-كثرة الدعاء والاستغفار لهما في حياتهما: قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الإسراء: ٢٤). وقال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح: ٢٨).

٢٦-برهما بعد موتهما: فمما يدل على عظم حق الوالدين وسعة رحمة رب العالمين أن كان بر الوالدين لا ينقطع حتى بعد الممات، فقد يقصر أحد من الناس في حق والديه وهما أحياء، فإذا ماتا عضَّ يده، وقرع سنَّه ندمًا على تفريطه وتضييعه لحق الوالدين، وتمنى أن يرجعا للدنيا ليعمل معهما صالحًا غير الذي عمل. ومن هنا يستطيع المسلم أن يستدرك ما قد فات، فيبِرَ والديه وهما أموات، وذلك بأمور منها:

أ- أن يكون الولد صالحًا في نفسه.

ب- كثرة الدعاء والاستغفار لهما.

جـ- صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما.

د- إنفاذ عهدهما.

هـ- التصدق عنهما.

*** ما يُعين على بر الوالدين:**

بر الوالدين نعمة من الله عز وجل يمن بها على من يشاء من عباده، وهناك أمور تعين الإنسان على بر والديه إذا أخذ بها وسعى إليها، فمن ذلك ما يلي:

١- الاستعانة بالله عز وجل: وذلك بإحسان الصلة به عبادةً ودعاءً والتزامًا بما شرع عسى أن يوفقك ويعينك على برهما.

٢- استحضار فضائل البر وعواقب العقوق: فإن معرفة ثمرات البر، واستحضار حسن عواقبه من أكبر الدواعي إلى فعله وتمثله والسعي إليه. كذلك النظر في عواقب العقوق، وما يجلبه من همٍّ وغمٍّ وحسرة وندامة، كل ذلك مما يعين على البر، ويُقصِر عن العقوق.

٣- استحضار فضل الوالدين على الإنسان: فهما سبب وجوده في هذه الدنيا، وهما اللذان تعبا من أجله، وأولياه خالص الحنان والمودة، ورربياه حتى كبر، فمهما فعل الولد معهما فلن يستطيع أن يوفيهما حقهما، فاستحضار هذا الأمر مدعاة للبر.

٤- توطين النفس على البر: فينبغي للمرء أن يوطن نفسه على بر والديه، وأن يتكلف ذلك، ويجاهد نفسه عليه حتى يصبح سجية له وطبعًا.

٥- تقوى الله في حال الطلاق: فعلى الوالدين إن لم يقدر بينهما وفاق، وحصل بينهما الطلاق أن يوصي كل واحد منهما الأولاد ببر الآخر، وألا يقوم كل واحد منهما بتأليب الأولاد على الآخر؛ لأن الأولاد إذا ألفوا العقوق صار الوالدان ضحيةً لذلك، فَشَقُوا وأشْقَوا الأولاد.

٦- صلاح الآباء: فصلاحهم سبب لصلاح أبنائهم وبرهم بهم.

٧- التواصي بالبر: وذلك بتشجيع البررة، وتذكيرهم بفضائل البر، ونصح العاقين وتذكيرهم بعواقب العقوق.

٨- إعانة الأولاد على البر: وذلك بأن ينبعث الآباء إلى إعانة أولادهم على البر، وذلك بتشجيعهم، وشكرهم، والدعاء لهم.

أعرف بعض الآباء لا يطيق أولاده وأحفاده أن يفارقوه طرفة عين، حتى بعد أن تعدى المائة فهم يبرونه أعظم البر، ويتنافسون في خدمته بل ويتلذذون بذلك.

ومن أعظم الأسباب الحاملة لهم على بر والدهم بعد توفيق الله أن ذلك الوالد كان نعم المعين لهم على بره، حيث كان محبًّا لأولاده، كثير الدعاء لهم، حريصًا على شكرهم، والثناء عليهم، وإدخال السرور على نفوسهم، ومناداتهم بأحب الأسماء إليهم.

٩- أن يضع الولد نفسه موضع الوالدين: فهل يسرك أيها الولد غدًا إذا أصابك الكبر، ووهن العظم منك، واشتعل الرأس شيبًا، وعجزت عن الحراك، أن تلقى من أولادك المعاملة السيئة، والإهمال القاسي، والتنكر المحض؟!

١٠- قراءة سير البارين والعاقين: فسير البارين مما يشحذ الهمة، ويذكي العزيمة، ويبعث على البر. وقراءة سير العاقين، وما نالهم من سوء المصير، تُنفِّر عن العقوق، وتُبغِّض فيه، وتدعو إلى البر وترغِّب فيه.

١١- استشعار فرح الوالدين بالبر، وحزنهما من العقوق: فلو استشعر الإنسان ذلك الأمر لانبعث إلى البر، ولانزجر عن العقوق. وصدق من قال:

لو كـــان يدري الابن أيَّـة غُـصَّـةٍ ✿ قــد جــرَّعتْ أبويه بعــد فــراقــه
أمٌّ تهــيم بوجْـــده حــيـــرانة ✿ وأبٌ يسِـحُّ الدمـع من آمــــاقــــه
يتـجـرعـان لبينه غـصص الردى ✿ ويبــوح مـا كـتـمـاه من أشـواقـه
لرثـا لأمٍّ سُلَّ من أحـــشـــائهـــا ✿ وبكـى لشــيـخٍ هام في آفـــاقــــه
ولبـــدَّل الخـلقَ الأبـيَّ بعـطفـــه ✿ وجـزاهمـا بالـعـذب من أخـلاقـه(١)

* من قصص بر الوالدين:

مر بنا بر الوالدين، والآداب التي يجدر بنا مراعاتها معهما، والأسباب التي تعين على البر، فما أحرانا بمراعاة هذه الآداب، وما أجدرنا أن نأخذ بتلك الأسباب عسى أن نكون من الأبرار الأخيار، الذين إذا دعوا ربهم أجابهم، وإذا استغفروه غفر لهم، فيا لشرف هؤلاء، ويا لسؤددهم، ويا لعظم حظهم.

ثم ليكن لنا في الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا قدوة حسنة في هذا الشأن، فلقد ضربوا أروع الأمثلة في بر الوالدين، فرفع الله منزلتهم في الدارين، وأعلى ذكرهم في الخالدين.

وإليك فيما يلي بعض النماذج العطرة والقصص الرائعة التي يتضوع عبيرها، ويفوح شذاها مع مر الأزمان عليها لأناس بررة أخيار وُفِّقوا لبر والديهم، لعلها تحرك في نفوسنا جوانب الخير، وتدفعها إلى الإحسان والبر.

نماذج من بر الأنبياء:

١- هذا نبي الله نوح عليه السلام يذكر لنا الله عز وجل نموذجًا من بره بوالديه حيث كان يدعو ويستغفر لهما كما في قوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح: ٢٨).

٢- وهذا إمام الموحدين إبراهيم الخليل عليه السلام يخاطب أباه بلطف شفاف، وإشفاق بالغ، وحرص أكيد؛ رغبةً في هدايته ونجاته، وخوفًا من غوايته وهلاكه، فيقول كما أخبر الله عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا

---

(١) «بر الوالدين» (صـ ١٨٨) للحافظ الطرطوشي. والبَيْن: الفراق

أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤١- ٤٥).

لقد خاطب والده بتلك الكلمات المؤثرة، والعبارات المشفقة التي تصل إلى الأعماق. ولولا أنها وجدت قلبًا قاسيًا عاصيًا أغلف أسود لأثَّرت به وكانت سببًا في هدايته ونجاته.

٣- وهذا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام يضرب أروع أمثلة البر في تاريخ البشرية، وذلك عندما قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢). فماذا كان رد ذلك الولد الصالح؟ هل تباطأ أو تكاسل أو تردد وتثاقل؟ لا بل قال كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقد ورد أن إبراهيم عليه السلام لما تيقن مما رأى في منامه قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا به في شعب (ثبير) أخبره بما أُمر به، فلما أراد ذبحه قال له: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا يصيبها الدم فتراه أمي، واشحذ شفرتك، وأسرع في السكين على حلقي؛ ليكون أهون عليّ، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني. قال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني، ثم أقبل عليه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه، فلم تَحُزَّ، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر فلم تقطع، فقال الابن عند ذلك: يا أبت كُبني على وجهي، فإنك إن نظرت إلى وجهي رحمتني، وأدركتك رقةٌ تحول بينك وبين أمر الله تعالى وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل إبراهيم عليه السلام ووضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ (الصافات: ١٠٤، ١٠٥).

٤- وهذا هو يحيى عليه السلام يقول فيه ربه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (مريم: ١٤).

٥- وهذا هو عيسى ابن مريم عليه وعلى أمه السلام يأتيه الثناء العطر، والتبجيل

العظيم من ربه وهو ما يزال في المهد بأنه بارٌّ بأمه، ويقرن هذا بعبوديته لربه عز وجل قال سبحانه عنه: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣٢).

*** من نماذج بر السلف بآبائهم وأمهاتهم:**

١- عن أبي مُرَّة مولى أم هانئ بنت أبي طالب: أنه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بالعقيق فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته:

عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أماه.

تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً.

فتقول: يا بني! وأنت فجزاك الله خيرًا ورضي عنك كما بررتني كبيراً(١).

٢- وهذا ابن عمر رضي الله عنهما لقيه رجل من الأعراب بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله بن عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير. فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أبرَّ البر صلةُ الولد أهل ودِّ أبيه»**(٢).

٣- وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البر كذلكم البر، وكان أبر الناس بأمه»**(٣).

٤- وعن أبي عبد الرحمن الحنفي قال: رأى كهمس بن الحسن عقربًا في البيت فأراد أن يقتلها أو يأخذها فسبقته فدخلت في جحر، فأدخل يده في الجحر ليأخذها، فجعلت تَضرُّ به، فقيل له: ما أردت إلى هذا؟ قال: خفت أن تخرج من الجحر فتجيء إلى أمي فتلدغها(٤).

---

(١) حسن الإسناد: حسنه الألباني (١٤) في «الأدب المفرد» للبخاري.

(٢) صحيح: مسلم (٢٥٥٢) في البر والصلة.

(٣) صحيح: الحاكم (٣/ ٢٠٨) في «المستدرك» وصححه.

(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٢١١)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣١٧).

٥- وهذا أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو المسمى بزين العابدين وكان من سادات التابعين، كان كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبرِّ الناس بأمك، ولا نراك تؤاكل أمك، فقال: أخاف أن تسير يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها[(١)].

٦- قال هشام بن حسان: حدثتني حفصة بنت سيرين قالت: كانت والدة محمد ابن سيرين حجازية، وكان يعجبها الصِّبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبًا اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد صبغ لها ثيابًا، وما رأيته رافعًا صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي[(٢)].

وعن بعض آل سيرين قال: ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع.

وعن ابن عون: أن محمدًا كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل ظن أن به مرضًا من خفض كلامه عندها[(٣)].

وعن ابن عون قال: دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه فقال: ما شأن محمد؟ أيشتكي شيئًا؟ قالوا: لا، ولكن هكذا يكون عند أمه[(٤)].

٧- روى جعفر بن سليمان عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خدَّه على الأرض ثم يقول لأمه: قومي ضعي قدمك على خدي[(٥)].

٨- وعن ابن عون المزني أن أمه نادته فأجابها فعلا صوتُه صوتَها فأعتق رقبتين[(٦)].

٩- وقيل لعمر بن ذر: كيف كان برُّ ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهارًا قط إلا

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٩٧) لابن قتيبة.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١٩).

(٣) «المحاسن والمساوئ» لإبراهيم البيهقي (صـ ٦١٤)، «حلية الأولياء» (٢/ ٢٧٣) لأبي نعيم.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٢٨).

(٥) السابق (٤/ ٦٢٠).

(٦) السابق (٦/ ٣٦٦).

مشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحًا وأنا تحته[١].

١٠- وحضر صالح العباسي مجلس المنصور، وكان يحدثه ويكثر من قوله: (أبي رحمه الله) فقال له الربيع: لا تكثر الترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين. فقال له: لا ألومك، فإنك لم تذق حلاوة الآباء. فتبسم المنصور، وقال: هذا جزاء من تعرض لبني هاشم[٢].

١١- ومن البارين بوالديهم بُندار المحدث، قال عنه الذهبي: جمع حديث البصرة، ولم يرحل، برًّا بأمه[٣].

قال عبد الله بن جعفر بن خاقان المروزي: سمعت بندارًا يقول: أردت الخروج يعني الرحلة لطلب العلم- فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي فيه[٤].

١٢- وقال الأصمعي: حدثني رجل من الأعراب قال: خرجت أطلب أعق الناس وأبر الناس، فكنت أطوف بالأحياء حتى انتهيت إلى شيخ في عنقه حبل يستقي بدلو لا تطيقه الإبل في الهاجرة والحر الشديد، وخلفه شاب في يده رشاء حبل- من قدٍّ [٥] ملويٍّ يَضْربه به، وقد شق ظهره بذلك الحبل. فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف؟ أما يكفيه ما هو فيه من مد هذا الحبل حتى تضربه؟ قال: إنه مع هذا أبي. قلت: فلا جزاك الله خيرًا. قال: اسكت فهكذا كان هو يصنع بأبيه، وكذا كان أبوه يصنع بجده. فقلت: هذا أعق الناس.

ثم جُلْتُ حتى انتهيت إلى شاب وفي عنقه زنبيل فيه شيخ كأنه فرخ، فكان يضعه بين يديه في كل ساعة فيزقه كما يُزَقُّ الفرخ، فقلت: ما هذا؟ قال: أبي وقد خرف وأنا أكفله، قلت: هذا أبر العرب[٦].

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٩٧).

(٢) «محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء» (١/ ٢٠٣).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٤٤).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٤٥).

(٥) القدّ: السوط.

(٦) «المحاسن والمساوئ» للبيهقي (صـ ٦١٤).

١٣- وكان طلق بن حبيب من العباد والعلماء، وكان يقبل رأس أمه، وكان لا يمشي فوق ظهر بيت وهي تحته إجلالاً لها[١].

١٤- وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: مات أبي فما سألت الله حولاً كاملاً إلا العفو عنه[٢].

✿ ✿ ✿

النهي عن عقوق الوالدين

*** تعريف عقوق الوالدين:**

العقوق ضد البر، قال ابن منظور رحمه الله: وعقَّ والده يَعَقُّه عقًّا وعقوقًا ومعقَّة: شق عصا طاعته، وعق والديه: قطعهما ولم يصل رحمه منهما[٣].

وقال: وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن عقوق الأمهات، وهو ضد البر، وأصله من العق: الشق والقطع[٤].

من مظاهر وصور لعقوق الوالدين:

عقوق الوالدين يأخذ مظاهر عديدة، وصورًا شتى منها ما يلي[٥]:

١- إبكاء الوالدين وتحزينهما: سواء بالقول أو الفعل أو بالتسبب في ذلك.

٢- نهرهما وزجرهما: وذلك برفع الصوت والإغلاظ عليهما بالقول. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

٣- التأفف والتضجر من أوامرهما: وهذا مما أدبنا الله عز وجل بتركه، فكم من الناس مَنْ إذا أمر عليه والداه صدَّر كلامه بكلمة «أف» ولو كان سيطعمهما. قال

(١) «بر الوالدين» (صـ ٧٨) للحافظ الطرطوشي.

(٢) السابق (صـ ٧٨).

(٣ ، ٤) «لسان العرب» (١٠/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٥) «السلوك الاجتماعي» للشيخ/ حسن أيوب (صـ ٢٥٧- ٢٥٩)، «بر الوالدين»، و«حقوق الآباء والأبناء والأرحام» لأحمد عيسى عاشور (صـ ٢٣- ٤٥)، «فيض الرحيم الرحمن» د/ عبد الله الطيار (صـ ٩٦).

تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣).

٤- العبوس وتقطيب الجبين أمامهما: فبعض الناس تجده في المجالس بشوشًا مبتسمًا حسن الخلق ينتقي من الكلام أطايبه، ومن الحديث أعذبه، فإذا ما دخل المنزل، وجلس بحضرة الوالدين انقلب ليثًا هصورًا لا يلوي على شيء، فتبدلت حاله، وذهبت وداعته، وتولت سماحته، وحلت غلظته وفظاظته وبذاءته، يصدق على هذا قول القائل:

من الناس من يصل الأبعدين ❁ ويشقى به الأقرب الأقرب

٥- النظر إلى الوالدين شزرًا: وذلك برمقهما بحنق، والنظر إليهما بازدراء واحتقار. قال معاوية بن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: ما برَّ والده من شدَّ الطرف إليه(١).

٦- الأمر عليهما: كمن يأمر والدته بكنس المنزل، أو غسل الثياب، أو إعداد الطعام، فهذا العمل لا يليق خصوصًا إذا كانت الأم عاجزة أو كبيرة أو مريضة. أما إذا قامت الأم بذلك بطوعها وبرغبة منها وهي نشطة غير عاجزة فلا بأس في ذلك مع مراعاة شكرها والدعاء لها.

٧- انتقاد الطعام الذي تعده الوالدة: وهذ العمل فيه محذوران أحدهما: عيب الطعام، وهذا لا يجوز، فرسول الله ﷺ ما عاب طعامًا قط، إن أعجبه أكل وإلا تركه. والثاني: أن فيه قلة أدب مع الأم وتكديرًا عليها.

٨- ترك مساعدتهما في عمل المنزل: سواء في الترتيب والتنظيم أو في إعداد الطعام أو غير ذلك. بل إن بعض الأبناء- هداهم الله- يعد ذلك نقصًا في حقه وهضمًا لرجولته. وبعض البنات- هداهن الله- ترى أمها تعاني وتكابد العمل داخل المنزل فلا تعينها، بل إن بعضهن تقضي الأوقات الطويلة في محادثة زميلاتها عبر الهاتف تاركةً أمها تعاني الأمرَّين.

٩- الإشاحة بالوجه عنهما إذا تحدثا: وذلك بترك الإصغاء إليهما، أو المبادرة إلى مقاطعتهما أو تكذيبهما أو مجادلتهما والاشتداد في الخصومة والملاحاة معهما. فكم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٤٣٣).

في هذا العمل من تحقير لشأن الوالدين، وكم فيه من إشعار لهما بقلة قدرهما.

١٠- قلة الاعتداد برأيهما: فبعض الناس لا يستشير والديه، ولا يستئذنهما في أي أمر من أموره سواء في زواجه أو طلاقه أو خروجه من المنزل والسكنى خارجه أو ذهابه مع زملائه لمكان معين أو نحو ذلك.

١١- ترك الاستئذان حال الدخول عليهما: وهذا مما ينافي الأدب معهما، فربما كانا أو أحدهما في حالة لا يرضى أن يراه أحد عليها.

١٢- إثارة المشكلات أمامهما: سواء مع الإخوان أو الزوجة أو الأولاد أو غيرهم. فبعض الناس لا يطيب لهم معاتبة أحد من أهل البيت على خطأ ما إلا أمام والديه، ولا شك أن هذا الصنيع مما يقلقهما ويُقِضُّ مضجعهما.

١٣- ذم الوالدين عند الناس والقدح فيهما وذكر معايبهما: فبعض الناس إذا أخفق في عمل ما كأن يخفق في دراسته مثلاً ألقى باللائمة والتبعة على والديه، ويبدأ يسوغ إخفاقه ويلتمس المعاذير لنفسه بأن والديه أهملاه ولم يربياه كما ينبغي، فأفسدا عليه حياته وحطما مستقبله إلى غير ذلك من ألوان القدح والعيب.

١٤- شتمهما ولعنهما: إما مباشرةً أو بالتسبب في ذلك، كأن يشتم الابن أبا أحد من الناس أو أمه فيرد عليه بشتم أبيه وأمه. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**». قيل: وهل يشتم الرجل والديه؟! قال: «**نعم! يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»(١).

١٥- إدخال المنكرات للمنزل: كإدخال آلات اللهو والفساد للبيت، مما يتسبب في فساد الشخص نفسه، وربما تعدى ذلك إلى فساد إخوته وأهل بيته عمومًا، فيشقى الوالدان بفساد الأولاد وانحراف الأسرة.

١٦- مزاولة المنكرات أمام الوالدين: كشرب الدخان أمامهما، أو استماع آلات اللهو بحضرتهما، أو النوم عن الصلاة المكتوبة ورفض الاستيقاظ لها إذا أوقظاه، وكذلك إدخال رفقة السوء للمنزل، فهذا كله دليل على التمادي في قلة الحياء مع الوالدين.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٩٧٣) في «الأدب»، مسلم (٩٠) في الإيمان.

١٧- تشويه سمعة الوالدين: وذلك باقتراف الأعمال السيئة والأفعال الدنيئة التي تخل بالشرف وتخرم المروءة، وربما قادت إلى السجن والفضيحة، فلا شك أن هذا من عقوق الوالدين لأنه يجلب لهما الهم والغم والخزي والعار.

١٨- إيقاعهما في الحرج: كحال من يستدين أموالاً ثم لا يسددها أو يقوم بالتفحيط، أو يسيء الأدب في المدرسة؛ فتضطر الجهات المسئولة إلى إحضار الوالد في حالة فقدان الولد أو إساءته للأدب. وربما قُبض على الوالد ريثما يسدد الولد دينه أو يحضر ويسلم نفسه.

١٩- المكث طويلاً خارج المنزل: وهذا مما يقلق الوالدين ويزعجهما على الولد، ثم إنهما قد يحتاجان للخدمة فإذا كان الولد خارج المنزل لم يجدا من يقوم على خدمتهما.

٢٠- الإثقال عليهما بكثرة الطلبات: فمن الناس من يثقل على والديه بكثرة طلباته مع أن الوالدين قد يكونان قليلي ذات اليد، ومع ذلك ترى الولد يُلِحُّ عليهما بشراء سيارة له، وبأن يزوجاه، ويوفرا له مسكنًا جديدًا، أو بأن يطلب منهما مالاً كثيرًا كي يساير زملاءه وأترابه.

٢١- إيثار الزوجة على الوالدين: فبعض الناس يقدم طاعة زوجته على طاعة والديه، ويؤثرها عليهما، فلو طلبت منه أن يطرد والديه لطردهما ولو كانا بلا مأوى. وترى بعض الأبناء يبالغ في إظهار المودة للزوجة أمام والديه، وتراه في الوقت نفسه يغلظ على والديه ولا يرعى حقهما. وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الصفحات التالية.

٢٢- التخلي عنهما وقت الحاجة أو الكبر: فبعض الأولاد إذا كبر وصار له عمل يتقاضى مقابله مالاً تخلى عن والديه واشتغل بخاصة نفسه.

٢٣- التبرؤ منهما والحياء من ذكرهما ونسبته إليهما: وهذا من أقبح مظاهر العقوق، فبعض الأولاد ما إن يرتفع مستواه الاجتماعي، أو يترقى في الوظائف الكبيرة إلا ويتنكر لوالديه ويتبرأ منهما ويخجل من وجودهما في بيته بأزيائهما القديمة، وربما لو سُئل عنهما لقال: هؤلاء خدم عندنا. وبعضهم يرفض أن يذكر

اسم والده في الولائم والمناسبات العامة خجلاً من ذلك. وهذا العمل بلا ريب دليل على ضعة النفس، وصغر العقل، وحقارة الشأن، وضيق العطن. وإلا فالنفس الكريمة الأبية تعتز بمنبتها وأرومتها وأصلها، والكرام لا ينسون الجميل.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ❁ من كان يألفهم في المنزل الخشن

٢٤- التعدي عليهما بالضرب: وهذا العمل لا يصدر إلا من غلاظ الأكباد وقساة القلوب الذين خلت قلوبهم من الرحمة والحياء، وخوت نفوسهم من أدنى مراتب المروءة والنخوة والشهامة.

٢٥- إيداعهم دور العجزة والملاحظة: وهذا الفعل غاية في البشاعة، ونهاية في القبح والشناعة، يقشعر لهوله البدن ويقف لخطبه شعر الرأس، والذي يفعله لا خير فيه البتة.

٢٦- هجرهما وترك برهما ونصحهما إذا كانا متلبسين ببعض المعاصي: وهذا خلل وخطل، فبر الوالدين واجب ولو كانا كافرين، فكيف إذا كانا مسلمين وعندهما بعض التقصير؟!

٢٧- البخل والتقتير عليهما: فمن الناس من يبخل على والديه ويقتر عليهما في النفقة وربما اشتدت حاجتهما إلى المال، ومع ذلك لا يعبأ بهما، ولا يبالي بما يبديانه من حاجة وفقر.

٢٨- المنة وتعداد الأيادي على الوالدين: فمن الناس من قد يبر والديه، ولكنه يفسد ذلك بالمن والأذى وتعداد الأيادي، وذكر ذلك البر بمناسبة وبدون مناسبة.

٢٩- السرقة من الوالدين: وهذا الأمر جمع بين محذورين السرقة والعقوق، فتجد من الناس من يحتاج للمال فيقوده ذلك إلى السرقة من والديه إما لكبرهما أو لغفلتهما. ومن صور السرقة أن يخدع أحد والديه فيطلب منه أن يوقع على إعطائه كذا وكذا من المال أو الأرض أو نحو ذلك. وقد يستدين منهما وهو مبيت النية على ألا يسدد.

٣٠- الأنين وإظهار التوجع أمامهما: وهذا الأمر من أدس صور العقوق؛ وذلك أن الوالدين- وخصوصًا الأم- يقلقان لمصاب الولد، ويتألمان لألمه بل ربما يتألمان أكثر منه.

٣١- **التغرب عن الوالدين دون إذنهما ودون الحاجة إلى ذلك**: فبعض الأبناء لا يدرك أثر بعده عن والديه؛ فتراه يسعى للغربة والبعد عن الوالدين دون أن يستئذنهما، ودون أن يحتاج إلى الغربة، فربما ترك البلد الذي يقطن فيه والداه دون سبب، وربما تغرب للدراسة في بلد آخر مع أن تلك الدراسة ممكنة في البلد الذي يسكن فيه والداه إلى غير ذلك من الأسباب التي لا تسوغ غربته. وما علم أن اغترابه عن والديه يسبب حسرتهما وقلقهما عليه، وما علم أنه ربما مات والداه أو أحدهما وهو بعيد عنهما باختياره فيخسر بذلك برهما والقيام عليهما. أما إذا احتاج الابن إلى الغربة، واستأذن والديه فيها فلا حرج عليه.

٣٢- **تمني زوالهما**: فبعض الأولاد يتمنى زوال والديه ليرثهما إن كانا غنيين، أو يتخلص منهما إن كانا مريضين أو فقيرين، أو لينجو من مراقبتهما ووقوفهما في وجهه كي يتمادى في غيه وجهله.

٣٣- **قتلهما والتخلص منهما**: فقد يحصل أن يشقى الولد فيقدم على قتل أحد والديه، إما لسَوْرَةَ جهل أو ثورة غضب أو أن يكون في حالة سكر أو طمعًا في الميراث أو غير ذلك. فيا لشؤم هذا، ويا لسواد وجهه، ويا لسوء مصيره وعاقبته إن لم يتداركه الله برحمته.

هذه بعض المظاهر والصور لعقوق الوالدين، ذلك العمل القبيح والمسلك الشائن الذي لا يليق بأولي الألباب، ولا يصدر من أهل التقى والصلاح والرشاد.

فما أبعد الخير عن عاق والديه، وما أقرب العقوبة منه، وما أسرع الشر إليه. وهذا أمر مشاهد محسوس يعرفه كثير من الناس، ويرونه بأم أعينهم، ويسمعون قصصًا متواترة لأناس خذلوا وعوقبوا بسبب عقوقهم لوالديهم.

*** من أسباب عقوق الوالدين:**

١- **الجهل**: فالجهل داء قاتل، والجاهل عدو نفسه، فإذا جهل المرء عواقب العقوق العاجلة والآجلة، وجهل ثمرات البر العاجلة والآجلة قاده ذلك إلى العقوق وصرفه عن البر.

٢- **سوء التربية**: فالوالدان إذا لم يربيا أولادهما على التقوى والبر والصلة

وتطلاب المعالي فإن ذلك سيقودهم إلى التمرد والعقوق.

٣- **التناقض**: وذلك إذا كان الوالدان يُعلِّمان الأولاد وهما لا يعملان بما يُعلِّمان، بل ربما يعملان نقيض ذلك، فهذا الأمر مدعاة للتمرد والعقوق.

٤- **الصحبة السيئة للأولاد**: فهي مما يفسد الأولاد، ومما يجرؤهم على العقوق كما أنها ترهق الوالدين وتضعف أثرهم في تربية الأولاد.

٥- **عقوق الوالدين لوالديهم**: فهذا من جملة الأسباب الموجبة للعقوق، فإذا كان الوالدان عاقين لوالديهم عوقبا بعقوق أولادهما في الغالب وذلك من جهتين:

أولاهما: أن الأولاد يقتدون بآبائهم في العقوق.

وآخرهما: أن الجزاء من جنس العمل.

٦- **قلة تقوى الله في حالة الطلاق**: فبعض الوالدين إذا حصل بينهما طلاق لا يتقيان الله في ذلك، ولا يحصل الطلاق بينهما بإحسان، بل تجد كل واحد منهما يغري الأولاد بالآخر، فإذا ذهبوا للأم قامت بذكر مثالب والدهم، وبدأت توصيهم بصرمه وهجره، وهكذا إذا ذهبوا إلى الوالد فعل كفعل الوالدة. والنتيجة أن الأولاد سيعقون الوالدين جميعًا، والوالدان هما السبب كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

فلا تغضبن في سيرةٍ أنت سرتها ❁ وأول راضٍ سُنَّةً من يسيرها

٧- **التفرقة بين الأولاد**: فهذا العمل يورث لدى الأولاد الشحناء والبغضاء، فتسود بينهم روح الكراهية، ويقودهم ذلك إلى بغض الوالدين وقطيعتهما.

٨- **إيثار الراحة والدعة**: فبعض الناس إذا كان لديه والدان كبيران أو مريضان رغب في التخلص منهما إما بإيداعهما دور العجزة، أو بترك المنزل والسكنى خارجه، أو غير ذلك إيثارًا للراحة- كما يزعم- وما علم أن راحته إنما هي بلزوم والديه وبرهما.

٩- **ضيق العطن**: فبعض الأبناء ضيق العطن، فلا يريد لأحد في المنزل أن يخطئ أبدًا، فإذا كسرت زجاجة، أو أفسد أثاث المنزل غضب لذلك أشد الغضب، وقلب المنزل رأسًا على عقب، فهذا مما يزعج الوالدين ويكدر صفوهما. كذلك قد تجد بعض الأبناء يأنف من أوامر والديه خصوصًا إذا كان الوالدان أو أحدهما فظًا غليظًا

فتجد الولد يضيق بهما ذرعًا ولا يتسع صدره لهما.

١٠- **قلة إعانة الوالدين لأولادهما على البر**: فبعض الوالدين لا يعين أولاده على البر، ولا يشجعهم على الإحسان إذا أحسنوا. فحق الوالدين عظيم وهو واجب بكل حال. لكن الأولاد إذا لم يجدوا التشجيع والدعاء والإعانة من الوالدين ربما ملُّوا وتركوا بر الوالدين أو قصروا في ذلك

١١- **سوء خلق الزوجة**: فقد يبتلى الإنسان بزوجة سيئة الخلق لا تخاف الله ولا ترعى الحقوق، فتكون شجىً في حلقه، فتجدها تغري الزوج بأن يتمرد على والديه أو يخرجهما من المنزل أو يقطع إحسانه عنهما؛ ليخلو لها الجو بزوجها وتستأثر به دون غيره.

١٢- **قلة الإحساس بمصاب الوالدين**: فبعض الأبناء لم يجرب الأُبوَّة، وبعض البنات لم تجرب الأمومة، فتجد من هذه حاله لا يأبه بوالديه سواء إذا تأخر بالليل، أو إذا ابتعد عنهما، أو أساء إليهما.

*** من قصص عقوق الوالدين:**

١- قال الأصمعي: أخبرني بعض العرب أن رجلاً كان في زمن عبد الملك بن مروان، وكان له أب كبير، وكان الشاب عاقًّا بأبيه، وكان يقال للشاب: «منازل»، فقال الشيخ:

جزت رحمٌ بيني وبين منازل ❁ جزاءً كما يستنجز الدين طالبه
تربَّت(١) حتى صار جعدًا(٢) شَمَرْدَلاً(٣) ❁ إذا قام ساوى غارب الفحل غاربه
تظلمني مالي كذا ولوى يدي ❁ لوى يده الله الذي لا يغالبه
وإني لداعٍ دعوةً لو دعوتها ❁ على جبل الريان لانهد جانبه

فبلغ ذلك أميرًا كان عليهم، فأرسل إلى الفتى ليأخذه، فقال له الشيخ: اخرج من خلف البيت، فسبق رسل الأمير، ثم ابتلي الفتى بابن عقَّه في آخر حياته،

---

(١) تربت: تربى.

(٢) الجعد: الطويل.

(٣) الشمردل: الفتى القوي.

فقال:

تظلَّمني مالي خليج[(١)] وعقني ❁ على حين كانت كالحنيِّ عظامي

تخيَّرته وازددته ليزيدني ❁ وما بعض ما يزداد غير عَرام[(٢)]

لعمري لقد ربيته فرحًا به ❁ فلا يفرحن بعدي امرؤ بغلام

فأراد الوالي ضربه، فقال الابن للوالي: لا تعجل عليَّ، هذا منازل ابن فرعان الذي يقول فيه أبوه:

جزت رحم بيني وبين منازل ❁ جزاءً كما يستنجز الدين طالبه

فقال الوالي: يا هذا عقَقْتَ وعُقِقْتَ[(٣)].

٢- وقال آخر يشكو بثه وحزنه ويعاتب ولده الذي عقه:

غذوتك مولودًا ومنتك يافعًا ❁ تُعَلُّ بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة نالتك بالشَّكْو لم أبت ❁ لشكواك إلا ساهرًا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي ❁ طُرقتَ به دوني وعيني تهملُ

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ❁ لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجلٌ

فلما بلغت السنَّ والغاية التي ❁ إليها مدى ما كنت فيك أؤملُ

جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً ❁ كأنك أنت المنعمُ المتفضلُ

فليتك إن لم ترع حقَّ أبوَّتي ❁ فعلتَ كما الجار المجاور يفعلُ

فأوليتني حق الجوار ولم تكن ❁ عليَّ بمالي دون مالك تبخلُ

تراه معدًا للخلاف كأنه ❁ بردٌ على أهل الصواب موكَّلُ[(٤)(*)]

---

(١) خليج: اسم الولد.

(٢) عرام: العرام: الشدة، والشراسة، والأذى.

(٣) «عيون الأخبار» (٣/ ٨٦، ٨٧) لابن قتيبة- كتاب: الإخوان.

(٤) السابق (٣/ ٨٧)، الطرطوشي (١٠٨، ١٠٩) في بر الوالدين، «كشف الخفا» (١/ ٢٠٧، ٢٠٨) للعجلوني.

(*) استعنا- بعد الله تعالى- برسالة: «عقوق الوالدين- أسبابه- مظاهره- سبل العلاج» لمحمد الحمد- ط الرياض.

[٢] حقوق الأبناء على الآباء

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عَلِّمُوا أولادَكُم الصَّلاة إذا بَلَغُوا سَبْعًا، واضْرِبُوهُمْ عليها إذا بَلَغُوا عَشْرًا، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في المضَاجِعِ**»(١).

وعن سبرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**عَلِّمُوا الصَّبي ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، واضْرِبُوه عَليها ابن عَشْرٍ**»(٢).

✿ ✿ ✿

* **تمهيد:**

بالماء تحيا الأرض الجدباء الميتة، وتمتلئ بالخضرة، وتكسو وجهها النضرة، وتنبت من كل زوج بهيج، وكذلك الإسلام: روح الأفئدة، وماء القلوب يحييها بالإيمان، ويملؤها بالأمل، وينزل عليها بردًا وسلامًا وسكينة، ولولاه لمات القلب وأقفر الوجدان، وأصبحت الحياة المطمئنة بعيدة المنال، فهو النور الذي يهدي به الله من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم.

وهكذا كانت عقيدة الإسلام وشريعته منذ البداية، الهدف دائمًا هو: إعزاز الإنسان وتكريمه والوقوف معه، والأخذ بيده، وحمايته من كل ما يهضمه حقه، أو يطغى على إنسانيته عن طريق غرس عقيدة سليمة إذا صحت صح معها العمل، وإذا تمكنت استقام السلوك الإنساني.

وبذلك صار للإسلام أربع مزايا لا توجد إلا فيه ألا وهي:

عقيدة صحيحة في الله الواحد الأحد، وتكريم الإنسان، وكون التشريع لله

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٥٠٨) في «صحيح أبي داود»، و(٤٠٢٦) في «صحيح الجامع».
(٢) صحيح: صححه الألباني (٤٠٢٥) في «صحيح الجامع».

وحده، وعالمية الإسلام بعد ذلك.

وهكذا صار الإسلام دينًا خالدًا، ونظام حياة كاملاً، يشرع للإنسان ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة.

وعلى أساس العقيدة السليمة شبَّ الإسلام عزيزًا لا يعرف الذل، كريمًا لا يقبل الضيم، يطلق صيحة الحرية وهتاف العقيدة؛ ليتجه الجميع نحو الإله الواحد الأحد، يتنزل القرآن فيعلم أتباعه الحكمة، ويزكيهم ويطهرهم؛ لأن وظيفة النبي ﷺ بعد البلاغ والتبيان كانت صياغة القلوب المؤمنة التي أسست بنيانها على تقوى من الله، فهم عباد الله على أرض الله يحتكمون إلى شرع الله؛ إخلاصًا لله تعالى.

ومنذ الصغر اعتنى الإسلام بتربية الصغار، وتنشئتهم على فضائل الأخلاق؛ ليصبح الصغار في المستقبل القريب سهامًا تصيب مراميها، ويصبح شرع الله يدب على الأرض في صورة رجال يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

وقد اهتم الإسلام بالصغار منذ أن كانوا في عالم الغيب، ثم لما ولدوا وبعد كبرهم ونشأتهم، فهناك حقوق للصغار من الأبناء على الكبار في مراحل أربع:

* مرحلة ما قبل الولادة.

* ومرحلة أثناء الحمل.

* وعند الولادة.

* وبعد الولادة.

وسنتناول بالتفصيل كل مرحلة من المراحل في الصفحات التالية:

(أ) مرحلة ما قبل الولادة:

لقد كرم الله تعالى ابن آدم قبل أن يولد، فاهتم بتوفير المناخ الطيب الذي يربى فيه، ويقدم عليه، فألزم الإسلام الرجل والمرأة بحدود لا يتعداها إلا عاصٍ، وشرع لهم ما يحفظ الأنساب ويمنع اختلاطها، ووضح للجميع كيف تهيئ الحياة السليمة للجميع حتى من كانوا في صلب آبائهم.

وهذه هي حقوق الصغار على آبائهم قبل الولادة:

*** تشريع الزواج والأمر بحسن اختيار الأب والأم:**

وقد سبق الحديث عن الزواج، إلا أن الأهم في هذا المضمار هو حسن اختيار الأب والأم كحق كامل للأبناء على الآباء في هذه المرحلة.

والحسن: ضد القبح ونقيضه، وهو نعت لما حسن(١).

والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخير(٢).

وقد حثت السنة المطهرة من توافرت عنده تكاليف الزواج المادية والجسدية على الزواج كما قال النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٣).

معايير اختيار الزوجة: وجه الإسلام من أراد الزواج أن يحسن اختيار شريك حياته، فبيَّن للرجل على أي أساس يختار شريكة حياته التي ستعينه على أمر دينه ودنياه، وبيَّن للمرأة ووليها المعايير التي على أساسها يُخْتَار الزوج الذي سيتملكها ويقود مسيرة الحياة معها.

وهذه القواعد التي بينَّها الإسلام تتلخص في هذه النقاط:

* الدين والخلق.

* سلامة البدن والنفس.

* الأصل والشرف.

* اللقاء على اسم الله تعالى وبركته.

*** الدين والخلق:**

إن الأم وعاءٌ فإما أن تكون صالحة أو غير صالحة، ولذا حث الإسلام على

---

(١) «لسان العرب» (صـ ٨٨٧).

(٢) «لسان العرب» (صـ ١٣٠٠).

(٣) صحيح: البخاري (١٩٠٥) في الصوم، مسلم (١٤٠٠) في النكاح. والباءة: القدرة علي تكاليف الزواج المادية، والجنسية. والوجاء: أصله من (وجأ): أي طعن، ويطلق على رض الخصيتين عند الفحل- ذكر البهائم- فلا يستطيع جماع الأنثى، فاستعيرت هنا للتعبير عن إضعاف الشهوة. والله أعلم.

الاقتران بالمرأة الصالحة ذات الدين وجعلها خير متاع الحياة الدنيا وخير كنز يدخره المرء، وضمن أربعة أمور لو تحققت للمرء لأصاب خيري الدارين، وخير ما يستفاد بعد تقوى الله عز وجل، بل وضمن له السعادة أيضًا.

* ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»**(١).

فالدين أَوْلى الأمور وأَوْلاها مراعاةً في اختيار الزوجة، وأولى الناس بالصحبة والرفقة والمعاشرة هم أهل الدين والتقوى، كما أن أهل الدين كلهم بعضهم لبعض أكفاء(٢).

* وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**(٣).

* ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاء: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»**(٤).

فإذا كان اختيار الرجل للمرأة على هذا الأساس فقد جنب أبناءه الرذائل والأخلاق المذمومة والصفات المعيبة التي ينقلونها عن أم السوء، وتصبح لازمة من لوازمهم فنهدم مجتمعاتنا بدلاً من بنائها.

أما الزوجة الصالحة فإن وجودها أدعى للاطمئنان على محصلة الزواج من الذرية، بل من دواعي فخر الآباء على الأبناء حين قال أبو الأسود الدؤلي- رحمه الله- مخاطبًا أبناءه:

وأول إحسانٍ إليكم تخيري ✿ لماجدة الأعراق بادٍ عفافها

ثم قال لهم: لقد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا وقبل أن تولدوا.

---

(١) صحيح: البخاري (٥٠٩٠) في النكاح، مسلم (١٤٦٦/٥٣) في النكاح.
(٢) «معالم السنن» (٢/ ٥٤٠) للخطابي نقلاً عن الإمام مالك رحمه الله.
(٣) صحيح: مسلم (١٤٦٧/٥٩) في الرضاع.
(٤) صحيح: صححه الألباني (٨٨٧) في «صحيح الجامع».

فقال أولاده: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟

قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها[١].

وتذكر قول الله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم: ٥).

وهكذا تصبح المرأة الصالحة مطمحًا ومطمعًا لكل مرتاد لطريق الآخرة، إذ كل غنى ناشئ عن الدنيا مصيره التراب، وكل جمال يزول، وكل حسب يتوارى في بطن الثرى.

فإياك من الثياب الشفافة، والمساحيق الرخيصة، وإياك من المرأة الإسفنجة الإمعة التي تمتص كل شيء، وتمسح كل شيء، وتقلد كل تقليعة، وابحث عن الدين، وما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا.

وأما معايير اختيار الزوج: فقد وضحها الإسلام للمرأة ووليها حين أطلقها القرآن كالقذيفة مدوية تقطع الطريق على كل متأول، فقال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[٢].

إن الزواج رقٌّ كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «فلينظر أحدكم أين يضع كريمته»[٣].

وجاء رجل يستشير الحسن مَنْ يزوج ابنته فقال له: «زوِّجها رجلاً يتقي الله فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها»[٤].

وكم من أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره، ومن

---

(١) نقلاً عن «أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية» للشيخ عمر عبد الله (صـ ٤٢).

(٢) حسن: الترمذي (١٠٨٥) في النكاح- باب (٣).

(٣) انظر تخريج العراقي (٢/ ٦٦) على «الإحياء».

(٤) البغوي (٩/ ١١) في «شرح السنة».

عباد الله من لا يسترعى الانتباه، ولا تشرئب إليه الأعناق، ولكنه خير الناس يجري الخير على يديه، خير من ملء الأرض ذهبًا.

وكم ممن يسترعون الانتباه لكنه خائر بائر لا خير فيه فإياك والاغترار به.

وقد دخل أعرابي في عباءة قديمة رثة بالية على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فاقتحمته عينه، فقال الأعرابي: «يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها».

وتكلم آخر محتقر عند عبد الملك بن مروان فقال كلامًا ذهب فيه كل مذهب حتى خَلِبَ به لُبَّ عبد الملك فقال: ابن من أنت يا أعرابي؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي أهلتني أن أتكلم بين يديك فأخلب لُبك. أَبَى الله أن أسمو بجد وأب. فقال عبد الملك: صدقت فما الفخر بالعظم الرميم.

وأهتف في الآباء والأمهات والنساء: إياكم والمظهر الخداع. فبالله عليكم ماذا لو مشي أعقل الناس وأذكاهم وأعلمهم حافيًا؟ هل يرد ذلك من علمه وعقله وذكائه شيئًا؟ وماذا لو لبس أغبى الناس أبهى ثوب، وانتعل أحسن النعال هل سيرد هذا له عقله؟ لا والذي لا خلد إلا لوجهه، فإن جودة الكفن لا تغني عن الميت شيئًا، والعبرة بصلاح القلوب والعقول، والتراب مكمن الذهب، والنسب لا يقدم شيئًا ولا يؤخر، وإنما الحسب التقوى، والدين هو الركيزة الأساسية التي يجب أن يختار عليها الزوج والزوجة، وتبنى عليه البيوت. ولكن: إياك وقوم يأكلون دنياهم بدينهم، فلا خير في دين تؤكل به الدنيا.

إن زوجًا وزوجة بنيا بيتهما على هذا الأساس سيصبح هذا البيت مسكنًا للمبادئ الربانية وآداب الإسلام، والنواة التي ستخرج ثمرًا طيبًا نافعًا.

إن الزواج هو الشكل الوحيد الذي ارتضاه الله تعالى أرضًا طيبة وخصبة، وكل ما عداه من صور أخرى للعلاقات الجنسية هو زنا منافٍ للتشريع، ومجلبًا لغضب الله تعالى.

ومن هنا كان تحريم نكاح المتعة، والزواج العرفي؛ ليضمن الله تعالى للجنين حياة مستقرة، ومن ثَمَّ لا يضيع الأبناء فيعيش أحدهم ناقص الأب أو الأم أو بعيدًا عن والديه لمجرد أنهما قضيا لحظة شيطانية تغلَّب فيها الهوى على العقول والقلوب، فإن

الزاني- كما في حديث مسلم-: «لا يزني حين يزني وهو مؤمن»، وإنما هو اختلاط للأنساب، مجلبة للعار، مغضبة للرب، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ولد الزنا شر الثلاثة»(١).

* **سلامة البدن والنفس:**

ليضمن الإسلام للصغير القادم إلى الحياة صحة جيدة يستطيع من خلالها أداء العبادات التي تحتاج إلى قوة بدنية كالوقوف في الصلاة، وتحمل الجوع والعطش في نهار رمضان، ومشقة الحج ثم الزواج وتكثير عدد أمة الإسلام.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أربع لا يجزن في البيع ولا الزواج: المجنونة، والمجذومة، والبرصاء، والعفلاء»(٢).

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «أيما امرأة غُرَّ بها رجل بها جنون، أو جذام، أو برص فلها مهرها بما أصاب، وصداق الرجل على من غرَّه»(٣).

وهنا يخرج من الاختيار كل هاتيك النساء، بل ويفسخ النكاح بكل داء عضال كما ذكر الزهري(٤). ويدخل في ذلك: الإيدز، والسل، والزهري، والأمراض النفسية؛ لأن الأولاد ثمرة الزواج وربما انتقلت هذه الأمراض إلى الأولاد عن طريق الجماع أو المحاكاة أو التعايش. وهذا لا يعارض قول النبي ﷺ: «لا عدوى»(٥).

فالمراد بنفي العدوى هنا اعتقاد أن الأمراض تعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله تعالى، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وأراد ﷺ إعادة السبب إلى المسبب، فالعدوى لا تستقل بذاتها ولا تؤثر، وإنما يتأتى ذلك بإذن الله الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئًا، وإن شاء أبقاها فأثرت(٦).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني (٧١٢٠) في «صحيح الجامع».

(٢) البيهقي (٧/ ٢١٥) في «السنن الكبرى». والعفلاء: العفل: لحم ينبت في قُبُل المرأة، وهو (القرن)، ولا يصيب المرأة إلا بعد ما تلد. «اللسان (صـ ٣٠١٧)».

(٣) رجاله ثقات: «بلوغ المرام» رقم (٩٤٩)، الشوكاني (٦/ ١٧٧) في «نيل الأوطار».

(٤) «نيل الأوطار» (٦/ ١٧٧).

(٥) صحيح: البخاري (٥٧٠٧) في الطب.

(٦) ابن حجر (١٠/ ١٧٠) في «فتح الباري» بتصرف يسير.

*** الأصل والشرف:**

وقد جاء في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: **«تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء، وانكحوا إليهم»**(١).

والمعنى هنا: اختيار المرأة النسيبة من أهل البيت المعروف بالدين والصلاح، فإنها ولا شك ستربي ذريتها على الخير الذي أُدبت ورُبيت عليه.

ومعلوم بالضرورة أن الطفل يكتسب صفات أبويه الخُلقية والعقلية والجسمية منذ الولادة، فإذا تم الاختيار على هذه الأسس من الدين والطهر والاستقامة والصلاح كانت سلالة صالحة وخلفًا طيبًا لسلف طيب.

*** اللقاء على اسم الله تعالى وبركته:**

فبعد إتمام عقد الزواج والدخول بالزوجة يكون اللقاء الذي يجمع بين الرجل والمرأة، وهو لقاء قد يكتب له الفشل إن لم يكن على شرع الله تعالى واسمه وبركته؛ لأن الجماع لا يعني نجاحه فقط قضاء الشهوة، وإنما يعني نجاحه الإثابة عليه، وعفة النفس، وإنجاب الولد وهي مقاصد شرعية كلها، ولكن كيف يكون هذا؟

أولاً: استحضار النية:

ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «...**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»**(٢).

ولكن ما هي النوايا التي يمكن استحضارها؟ يقول النووي رحمه الله(٣): «فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة».

---

(١) حسن: حسنه الألباني (١٩٦٨) في «سنن ابن ماجه»- كتاب النكاح، وفي «الصحيحة» (١٠٦٧).

(٢) صحيح: مسلم (٥٢/١٠٠٦) في الزكاة.

(٣) «شرح مسلم» (٧/ ٩٢) للنووي رحمه الله.

وهكذا يخرج الإسلام بالغريزة بعيدًا عن المتعة فقط فيضيف إليها ألوانًا من العمل الصالح فترتاح النفوس وتهدأ القلوب، وتتحول الغريزة البهيمية إلى عمل طاهر يثاب عليه المرء المسلم بلا كبت ولا استقذار بل حسب الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ثانيًا: ذكر الله عز وجل والتسمية:

كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله: بسم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قُدِّر بينهما في ذلك أو قُضي ولد لم يضره شيطان أبدًا**»(١).

ويجب الاستتار بعيدًا عن أعين الناس ساعة الجماع ليتحقق رقي الإنسان شكلاً ومضمونًا فلا يكون كالحيوان الذي لا يأبه في أي مكان جامع أنثاه.

وهكذا أحاط الإسلام طلب الولد بسياج رفيع من السلوك والقيم، فحدد معايير وأطر وضوابط للقاء الزوجين. كما نبا بالجماع وارتفع به عن السلوك البهيمي ووضعه في إطار الإنسانية الرفيعة التي لا يفعلها إلا إنسان كريم متزن.

وما من شك أن الولد الذي سينحدر في هذا الجو الإيماني الرباني سيكون ولدًا مباركًا طيبًا لا يعرف إلا الطهر الذي ولد منه وسيعيش فيه.

(٢) مرحلة أثناء الحمل:

وكفل الإسلام للجنين في بطن أمه أمورًا إذا تبين حملها، وهي:

* **الإنفاق عليه من الكسب الحلال الطيب:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** (المؤمنون: ٥١). **وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** (البقرة: ١٧٢). . .» الحديث(٢). واعلم أن كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به.

* **رعاية الجنين في كل الأحوال:** فالشرع قد حفظ الجنين حين أباح للمرأة الحامل أن

---

(١) صحيح: البخاري (١٤١) في الوضوء، مسلم (١٤٣٤/١١٦) في النكاح.

(٢) صحيح: مسلم (٦٥/ ١٠١٥) في الزكاة.

تفطر إذا خافت على نفسها الهلاك، أو خافت على جنينها كما في حديث أنس بن مالك القشيري رضي الله عنه قال عن رسول الله ﷺ: **«إن الله وضع عن المسافر والحامل والمرضع الصوم وشطر الصلاة»**[1].

ومن ثَمَّ أوجب على الزوج الإنفاق ورعاية الجنين، فقال تعالى: **﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾** (الطلاق: ٦). وهذه النفقة واجبة على الأب حتى في حالة الطلاق.

وكذلك أوجب الإسلام الإنفاق والرعاية للولد في بطن أمه ولو كان ثمرة الزنا، وأخر إقامة الحد بعد الوضع والفطام كما في حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: **«أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها»**، ففعل فأمر نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أُمر بها فرجمت[2].

فإذا مات الوالد أثناء فترة الحمل فقد لزمت النفقة أولياء الزوج، ثم يوقف الميراث والتركة إن كان الطفل من أهل الإرث حتى يخرج حيًّا ويستهل، ويورث بعد ذلك[3].

* **ووجه الإسلام الآباء إلى الدعاء للجنين وهو في بطن أمه**: كما فعلت أم مريم عليها السلام حين دعت الله تعالى ومريم عليها السلام في بطنها، فكان الدعاء مجابًا، فحمى مريم وعيسى عليهما السلام من مس الشيطان ونخسه، فقال تعالى: **﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾** (آل عمران: ٣٥- ٣٧).

* كما حرم الإسلام عمليات الإجهاض وقتل الجنين إلا في حالات حرجة يقدرها الطبيب كتسمم الرحم وغيرها، كما قال تعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾**

---

(١) صحيح: ابن ماجه (١٦٦٧) وصححه الألباني.

(٢) صحيح: مسلم (١٦٩٦/ ٢٤) في الحدود.

(٣) «معالم السنن» (٤/ ٥٨٨) للخطابي، القرطبي (٥/ ٦٥) في «الجامع لأحكام القرآن».

(الأنعام: ١٥١). وفي الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (الإسراء: ٣١). أي خوف الفقر. ومن أكبر الكبائر: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»**(١).

(٣) عند الولادة:

فإذا أقبل الجنين إلى الحياة وصار وليدًا فإن الإسلام يغدق عليه حقوقًا كثيرة، ويمنحه منائح عديدة، ومن هذه الحقوق التي منحها الله تعالى للأبناء عند الولادة:

* **الفرح به ذكرًا كان أم أنثى:** وشكر الله تعالى على هذه النعمة، فبعضهم لا زال يفعل فعل الجاهلية، فكان أحدهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩). وكفى بأب البنات أن رسول الله ﷺ كان ذريته من البنات فلم يعش له ولد، فما عابه إلا مشرك وصفه الله تعالى بـ «الأبتر» فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

وفي الحديث الذي رواه أحمد في المسند بسند صحيح عن أنس بن عبد الله رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن من جدته، كنَّ له حجابًا من النار يوم القيامة»**(٢). وخيركم من بكَّر بالأنثى.

* **التأذين والإقامة:** فمن حديث أبي رافع رضي الله عنه أنه ﷺ أذَّن في أذن الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة رضي الله عنها(٣).

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يؤذن في الأذن اليمنى ويقيم في اليسرى إذا ولد الصبي(٤).

ولكن لماذا الأذان والإقامة؟

أولاً: ليكون أول ما يقرع أذن الصغير كلمات فيها كبرياء الرب سبحانه وعظمته، وليكون أول ما فُتِّح عليه المولود: لا إله إلا الله. فيلقن كلمة التوحيد أول قدومه

---

(١) صحيح: البخاري (٧٥٢٠)، مسلم (٨٦/١٤١) في الإيمان.

(٢) صحيح: أحمد (٤/ ١٥٤) في «المسند»، وصححه الألباني (٢٩٤) في «الصحيحة».

(٣) صحيح: الترمذي (١٥٥٣) في الأضاحي.

(٤) عبد الرازق (٧٩٨٥) في المصنف.

الدنيا، ويلقنها إذا خرج من الدنيا.

ثانيًا: طرد الشيطان الذي يرصد قدوم ابن آدم لينخسه، فإذا سمع الأذان ولَّى وهرب. وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إن الشيطان إذا سمع النداء أحال له ضراط حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس»**[(١)].

ثالثًا: ليكون دعوته إلى الله وإلى الإسلام سابقة على دعوة الشيطان له للشرك، فيولد على الفطرة التي فطر الله الناس عليها[(٢)].

* **تحنيك الوليد**: ومعنى التحنيك: أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فمه[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يؤتى بالصبيان- يعني إلى رسول الله ﷺ- فيُبرِّك عليهم ويحنكهم»[(٤)].

ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «ولد لي غلام فأتيت النبي ﷺ فسمَّاه إبراهيم، فحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إليَّ وكان أكبر ولد أبي موسى»[(٥)].

والتحنيك يكون بالتمر، فإن لم يتيسر فرطب، وإلا فشيء حلو، وعسل النحل أولى من غيره، ثم ما لم تمسه النار، كما في نظيره مما يفطر الصائم عليه[(٦)].

ويستحب أن يكون المحنك من الصالحين رجلاً أو امرأة، فإن لم يكن حاضرًا عند المولود حُمِلَ إليه[(٧)].

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠٨) في الأذان، مسلم (١٦/ ٣٨٩) في الصلاة.
(٢) «تحفة المولود» (صـ ٢٦) لابن قيم الجوزية.
(٣) «لسان العرب» (١٠٢٨).
(٤) صحيح: مسلم (٢١٤٧).
(٥) صحيح: البخاري (٥٤٦٧)، مسلم (٢١٤٥/ ٣).
(٦) «فتح الباري» (٩/ ٥٠١، ٥٠٢).
(٧) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢٣) مختصرًا.

* **حلق الرأس:**

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى»**[١].

وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دمًا وأميطوا عنه الأذى»**[٢].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«يا فاطمة احلقي رأسه، وتصدقي بزنة شعره فضة»**[٣].

ولكن ما فائدة حلق الرأس؟

أولاً: فائدة صحية، فيتقوى رأس المولود وتفتح مسام الرأس، وتقوى حاستي السمع والبصر، ويزال عنه أذى شعر البطن.

ثانيًا: فائدة اجتماعية إنسانية: لأن الصدقة بوزن الشعر فضة تحقق التكافل والتراحم بين جموع المسلمين.

* **حسن تسمية المولود:**

وهذا باب عجيب من أبواب الدين وهو اختيار الأسماء الحسنة للمولود، فإذا ما أحسن الآباء والأمهات السير في ضوء التشريع في تسمية المولود بالاسم الحسن أسدوا معروفًا إلى المسلم المولود فإن بعض الأسماء قد تحط من القدر، وتمس الكرامة، وتكدر صفو العيش، وتحط من المعنويات حين يتخذ الاسم مادة للسخرية والاستهزاء، فيصبح الطفل مصابًا بالانزواء والانطواء خشية تعييره باسمه، ويورثه ذلك أحقاد وضغائن وعقدًا نفسية يطول علاجها.

وهنا كان النبي ﷺ يقول كما في حديث أنس: **«سموا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي»**[٤].

---

(١) صحيح: الترمذي (١٥٥٩) وقال: حسن صحيح.
(٢) صحيح: البخاري (٥٤٧٢).
(٣) صحيح: صححه الألباني (٧٩٦٠) في «صحيح الجامع».
(٤) صحيح: البخاري (٦١٨٨)، مسلم (٤/ ٢١٣٣) في الآداب من الألفاظ.

وقال كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرَّحمن**»[١].

ويلحق بهما ما كان مثلهما كعبد الصمد، وعبد الملك وغيرهما، وإنما كانت أحب إلى الله؛ لأنها تضمنت ما هو وصف واجب لله تعالى، وما هو وصف للإنسان وواجب له وهو العبودية ثم أضيف إلى الرب إضافة حقيقية فصدقت أفراد هذه الأسماء وشرفت بهذا التركيب فحصلت بها الفضيلة[٢].

وقيل: الحكمة في الاقتصار على الاسمين هذين لأنه تعالى لم يضف العبد إلى اسم من أسمائه إلا في هذين الاسمين فقال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ (الجن: ١٩). وقال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ**﴾ (الفرقان: ٦٣). وجمع بينهما في قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾ (الإسراء: ١١٠).

وكان من هديه ﷺ تغيير الأسماء المكروهة إلى أسماء حسنة، فغيَّر اسم بَرَّة إلى زينب، وحزن إلى سهل، وعاصية إلى جميلة، وأصرم إلى زرعة، وحربًا إلى سلمٍ، وسمى المضطجع المنبعث، وسمى بني الزنية بني الرشدة، وغير اسم أرض يقال لها: عفرة إلى خضرة[٣].

وهذا باب عجيب من أبواب الدين، وهو العدول عن الاسم الذي تستقبحه العقول وتنفر منه النفوس إلى الاسم الذي هو منه أحسن والنفوس إليه أميل.

ومن المستحب تسمية الأبناء باسم الأنبياء والصالحين، وعدم التشبه بأسماء الكفرة والمشركين كفعل بعض المسلمين ومن تشبه بقوم فهو منهم.

*** العقيقة:**

والعقيقة لغة: هو الشعر على رأس الصبي حين يولد، وإنما سميت تلك الشاة التي تذبح في تلك الحال عقيقة؛ لأنه يحلق عند ذلك الشعر عند الذبح[٤].

---

(١) صحيح: مسلم (٢١٣٢) في الآداب من الألفاظ وغيرها.

(٢) «تحفة الأحوذي» (٨/ ١٢٣).

(٣) ذكره أبو داود (٤٩٥٦) في الأدب، وقال: تركت أسانيدها للاختصار.

(٤) «لسان العرب» (٤٤ ٣٠).

وقد سبق حديث سمرة: **«الغلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى»**. وأجود ما في ذلك ما قاله الإمام أحمد رحمه الله: أن معنى **«مرتهن بعقيقته»**، أي: أنه إن مات طفلاً ولم يعق عنه لم يشفع في والديه، وقيل: يحرم شفاعتهم[١].

وسبق حديث البخاري: **«مع الغلام عقيقة»**.

والسُّنة- كما ذكر ابن قيم الجوزية- أن يعق عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة[٢]، ويجوز الاكتفاء بكبش واحد.

وفي مذهب الإمام أحمد- رحمه الله - أن العقيقة أحب من دفع ثمنها صدقة على المساكين، وأجاز الاستدانة بثمنها خشية حديث: **«كل غلام رهينة بعقيقته»**. وقال: وإني لأرجو إن استقرض أن يعجل الله الخلف لأنه أحيا سنة من سنن رسول الله ﷺ واتبع ما جاء عنه[٣].

*** ولكن ما هي فائدة العقيقة؟**

(١) التقرب إلى الله عن المولود في أولى لحظات حياته.

(٢) فدية من المصائب والآفات كما فدى الله تعالى إسماعيل بذبح عظيم.

(٣) طريق لبر الوالدين وشفاعة المولود.

(٤) إحياء سنة رسول الله ﷺ.

(٥) تحويل مناسبة قدوم مسلم إلى الوجود إلى موسم للتكافل بين المسلمين الأغنياء والفقراء وموسم للطاعة لله ولرسوله ﷺ.

*** الختان**: وهو قطع القلفة بالنسبة للرجل، والخفض بالنسبة للنساء.

وفي الختان طهارة وتخلص من المفرزات الدهنية والسيلان الشحمي، واستجابة للفطرة، وإحياء لسنة إبراهيم عليه السلام ولسنة رسول الله ﷺ.

*** الدعاء للمولود وشكر الواهب**: فقد قال معاوية بن قرة رضي الله عنه: «لما ولد

---

(١) البغوي (١١/ ٢٦٨) في «شرح السنة».

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٣٣١).

(٣) «تحفة المودود» (صـ ٥١).

لي إياس دعوت نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فأطعمتهم فدعوا، فقلت: إنكم قد دعوتم فبارك الله لكم فيما دعوتم، وإني إن أدعو بدعاء فأمنوا. قال: فدعوت له بدعاءٍ كثير في دينه وعقله وكذا. قال: فإني لأتعرف منه دعاء يومئذ!!»(١).

ونوصي هنا بالابتعاد عن البدع والمخالفات الشرعية التي توقع في غوائل الشرك كتعليق الرقى والتمائم والأحجبة فلا يفعلها إلا جاهل أو مشرك.

ولكن ماذا إن مات الغلام؟

اصبر واحتسب واعلم أن قدر الله تعالى كله لك خير، ولك في قصة قتل الخضر عليه السلام للصبي الذي لقيه مع موسى عليه السلام عبرة وعظة، فقد كان كافرًا يُخْشى منه على أبويه المؤمنين، فكان البدل خيرًا منه كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾ (الكهف: ٨٠، ٨١).

وأما عن جزاء الصابرين على فقد الولد:

فجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار، إلا تحلة القسم**». وفي رواية لمسلم أنه ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة**». فقالت امرأة منهن: أو اثنتين يا رسول الله؟ قال: «**أو اثنتين**»(٢).

* وعن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان. فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم: «**صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه- أو قال: أبويه- فيأخذ بثوبه- أو قال: بيده- كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٢٥٥) في كتاب «الأدب المفرد»- باب: الدعاء في الولادة.

(٢) صحيح: البخاري (٦٦٥٦) في الأيمان والنذور، مسلم (٢٦٣٢/ ١٥٠، ١٥١) في البر والصلة والآداب.

(٣) صحيح: مسلم (٢٦٣٥/ ١٥٤) في البر والصلة. ودعاميص: ج (دعموص)؛ وهي دويبة لا تفارق الماء، فالصغار لا يفارقون الجنة. وصنفة ثوبك: أي طرفه.

* وقال أبو هريرة: أتت امرأة إلى النبي ﷺ بصبي لها فقالت: يا نبي الله ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة. قال: «**دفنت ثلاثة؟**». قالت: نعم. فقال: «**لقد احتظرت بحظار شديد من النار**»(١). أي: امتنعت بمانع وثيق.

* وفي حديث آخر عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد**»(٢).

* وقد توفي ابن لأحد الصالحات فقالت: «الحمد لله على السراء والضراء، والعافية والبلاء، والله لا أحب تأخير ما عجل الله، ولا تعجيل ما أخَّره الله، وكل ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير».

* ومات ولد لأنس بن مالك رضي الله عنه فقال أنس: «الحمد لله، اللهم عبدك وابن عبدك وقد رُدَّ إليك فارأف به وارحمه، وجاف الأرض عن بدنه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبله بقبول حسن». ثم انصرف وعاد إلى أهله فأكل وادهن وأصاب من أهله.

* أما أبو ذر رضي الله عنه فكان لا يعيش له ولد، فقيل له في ذلك فقال: «الحمد لله كل ذلك في كتاب، الحمد لله الذي يأخذهم من دار الفناء ويدخرهم لدار البقاء».

(٣) مرحلة ما بعد الولادة:

وبعد قدوم المولود إلى الدنيا صار له حقوق على الآباء ألا وهي:

* **رعايته وحضانته ورضاعه**: والحضانة هي حفظ الصبي وتربيته. والرضاع: المص من ثدي أمه. وقد كفل القرآن هذا الحق للأبناء فقال تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**﴾ (البقرة: ٢٣٣).

---

(١) صحيح: مسلم (٢٦٣٦/ ١٥٥، ١٥٦) في البر والصلة.

(٢) حسن: حسنه الألباني (٧٩٥) في «صحيح الجامع»، و(١٤٠٨) في «الصحيحة». واسترجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فالرضاعة إذًا حق للابن على والده لأنه المطالب بالإنفاق عليه وعلى أمه لتأكل فيدر ثديها اللبن، وعلى الأم التي لا يجوز لها الامتناع عن الرضاع إلا لعذر قهري، لأن لبن الأم أصلح له من سائر الألبان من حيث شفقة الأم على ولدها أتم من شفقة غيرها[١].

ونحذر هنا من مجاملات الرضاع التي تؤدي إلى خراب البيوت وتفكيك الأسر، فتأتي الخالة أو العمة أو الجارة أو الصديقة لترضع المولود مجاملة، ثم إذا بلغ مبلغ الرجال وتزوج تذكرت أنها أرضعته فيحدث البلاء والبلبلة وقد تهدم البيوت، فمن باب أولى منع هذه المجاملات أو تسجيلها وتدوينها وإعلام الجميع بها ويراجع فيها أهل الفقه.

والعجيب أنه مع انتشار الألبان الاصطناعية المجففة بدأت أرقى مستشفيات العالم تنادي بأهمية العودة إلى حليب الأم في الرضاعة لأهميته في تكوين جهاز مناعي كفء، وقدرته على مقاومة الأمراض، بل ويؤثر لبن الأم نفسه في الحياة العاطفية للرضيع كما أثبتت ذلك الدراسات العلمية الحديثة والتي أثبتت سبق الإسلام لغيره في هذا المضمار[٢].

*** الإنفاق عليه:**

* فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله»**. وقال أبو قلابة: وبدأ بالعيال. ثم قال: **«وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيالٍ صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم»**[٣].

* ومن حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة»**[٤].

---

(١) الرازي (٦/ ١٢٦) في «مفاتيح الغيب».

(٢) انظر علي سبيل المثال: الإعجاز الطبي في القرآن- بحث: في إتمام الرضاعة لجهاز المناعة (ص ٥٢).

(٣) صحيح: مسلم (٣٨/ ٩٩٤) في الزكاة.

(٤) صحيح: البخاري (٥٣٥١)، مسلم (١٠٠٢/ ٤٨) في الزكاة.

* وهذا هو الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه يعبر عن حاجة الصغير إلى النفقة عليه فيقول رضي الله عنه: «تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني. ويقول العبد: أطعمني واستعملني. ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني؟!»(١).

*** وقايته ومداواته ورقيته من كل سوء:**

* فيحفظ الأبناء من حرارة الشمس حتى لا تؤذيهم. ففي حديث فاطمة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ أتاها يومًا فقال: **«أين ابناي؟»**. فقالت: ذهب بهما علي. فتوجه رسول الله ﷺ فوجدهما يلعبان في مشربة- أي الموضع الذي يشرب منه- وبين أيديهما فضلٌ من تمر. فقال: **«يا علي ألا تقلب ابني قبل الحر؟»**(٢). أي ألا ترجعهم إلى البيت وتصرفهم إلى المنزل».

وفي الحديث توجيه نبوي إلى حفظ الصغار من حر الشمس ولهيبها.

* ويحبس الصغار ساعة جنح الليل وغروب الشمس. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ، فإذا ذهبت ساعة من العشاء فخلُّوهم»**(٣).

* ثم من حق الصغار على آبائهم مداواتهم، وإن كان التداوي واجب على كل مسلم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»**(٤).

وفي رواية أبي داود من حديث أبي الدرداء أنه ﷺ قال: **«إن الله جعل لكل داءٍ دواء فتداووا ولا تداووا بحرام»**. وقد صححه الحافظ ابن حجر في الفتح. فدخل الصغار في عموم هذا الحديث وهم أولى لضعف حالهم.

* وأما رقيته من كل سوء: لأن الصغار يتعرضون للحسد في بعض الأوقات. والرقية الشرعية تكون بآيات سورة البقرة: الخمس الأوائل، وآية الكرسي،

---

(١) صحيح موقوفًا: البخاري (٥٣٥٥).

(٢) صحيح: الحاكم (٣/ ١٦٥) في «المستدرك»، وقال: رواته كلهم أشراف ثقات.

(٣) صحيح: البخاري (٣٣٠٤)، مسلم (٢٠١٢/ ٩٧).

(٤) صحيح: البخاري (٥٦٧٨) في الطب.

والخواتيم، وسورة الإخلاص، والمعوذتين. وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما- يعني إبراهيم عليه السلام- كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**»(١).

*** المداعبة واللين لهم والرحمة:**

* وقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم- وهو آخر أبناء رسول الله ﷺ- مسترضعًا في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت... فيأخذه فيقبله ثم يرجع»(٢).

* وكان ﷺ يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح على رءوسهم ويدعو لهم. ومن حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدان فجعل يمسح خَدَّي أحدهم واحدًا واحدًا. قال: أما أنا فمسح خدي فوجدت ليده بَرْدًا أو ريحًا كأنما خرجت من جونة عطار»(٣).

* وغني عن الذكر قصة الأقرع بن حابس الذي رأى النبي ﷺ يقبل الحسن بن علي رضي الله عنه فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرْحَم لا يُرْحَم**»(٤).

* ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولده في صغره، وأرعاه على زوجٍ في ذات يده**»(٥).

* وكان ﷺ يلاعب الحسن والحسين ويقبلهما، ويحملهما على ظهره كما حمل

---

(١) صحيح: البخاري (٣٣٧١) في أحاديث الأنبياء.

(٢) صحيح: مسلم (٦٣/ ٢٣١٦) في الفضائل.

(٣) صحيح: مسلم (٨٠/ ٢٣٢٩) في الفضائل. وجؤنة العطار: السفط- الوعاء الذي يضع فيه متاعه.

(٤) صحيح: البخاري (٥٩٩٧)، مسلم (٦٥/ ٢٣١٨) في الفضائل.

(٥) صحيح: البخاري (٥٠٨٢)، مسلم (٢٠٢/ ٢٥٢٧).

أمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب رضي الله عنها كبرى بناته ﷺ وهو يصلي فسجد بها وقام بها وكان يداعب زينب بنت أبي سلمة ويقول لها: «يا زوينب».

ولكن احذر من هذه الأمور:

* التدخين أمامه.

* أمره بسب أبيه أو أمه أو البصق عليهما.

* تكرار الألفاظ البذيئة أمامه.

والأفضل أن يكون أول ما تعلمه إياه: لا إله إلا الله، وأن تطلب منه الدعاء والاستغفار، فإن دعاء الصبي مقبول فهو لم يذنب ولم يفرق بين الحلال والحرام بعد.

*** العدالة بين الجميع ذكرانًا كانوا أم إناثًا:**

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «**أعطاني أبي عطيةً، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فردَّ عطيته**[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يُهنها ولم يُؤثِر ولده عليها- قال: يعني الذكور- أدخله الله الجنة**»[٢].

إن المنزل المليء بالمحبة والعدل لا يخرج إلا مسلمًا سوي الخلق مطمئنًا، عكس المنزل المشحون بالمنازعات ومحاباة البعض على حساب الآخر، والذي يؤدي إلى فقدان الطفل للاطمئنان والراحة.

*** تعليمه الإيمان وشرائع الإسلام:**

والدرس الأول الذي يجب أن يتعلمه الصغير هو الإيمان، فليكن أوله: (لا إله إلا

---

(١) صحيح: البخاري (٢٥٨٧) في الهبة، مسلم (١٦٢٣/ ١٣) في الهبة.

(٢) حسن: حسَّن العلامة شاكر إسناده (١٩٥٧) في «المسند».

الله) نشيد التوحيد الخالد ثم يعلم القرآن بعد ذلك.

فقد قال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حذاورة قاربنا البلوغ فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»(١).

ولذلك قال ابن خلدون في «المقدمة» : «فالمقدم في التعليم هو الإيمان ثم دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأن الولد ما دام في الحجر ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ صعب جبره»(٢).

إن أول صوت من أصوات الهزيمة الإيمانية هو انسحاب العقيدة من مجال التربية، لأن الإنسان بلا إيمان كريشة في مهب الريح لا تسكن على حال ولا تسكن إلى قرار، وما نراه الآن من انحراف إنما هو نتاج التأخير الإجباري للعقيدة من ميدان التربية، حتى صار الطعام والشراب همًّا أوحدًا للجميع، وكأن لسان الحال:

إذا تغديت وطابت نفسي ❁ فمن فتى في الحي مثلي

ومن زرع الريح في أرضه لا بد أن يحصد الزوابع.

أما تعليم الصغار للقرآن فهو شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الإسلام ودرجوا عليه من جميع أمصارهم؛ لأن آياته ترسخ الإيمان وعقائده، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخًا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للمكان، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه(٣).

وقديمًا قالوا: «التعليم في الصغر كالنقش على الحجر».

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم،**

---

(١) صحيح: ابن ماجه (٦١) في «المقدمة»، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا الحديث صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) ابن خلدون (صـ ٥٠٥، ٥٠٦) في «المقدمة».

(٣) «المقدمة» (صـ ٥٠٥، ٥٠٦) لابن خلدون.

وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[(١)].

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يقول لبنيه ولبني أخيه: «تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قومٍ تكونوا كبارهم غداً، فمن لم يحفظ فليكتب».

وكان الشافعي رحمه الله يقول: «إذا تصدر الحدث فإنه علم كثير».

وكان أبو عبيدة يقول: «تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأَنَفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالاً»[(٢)].

وقدم الأشعث بن قيس غلامًا يصلي بالناس فعابوا عليه فقال: «ما قدمته ولكن قدمه القرآن»[(٣)].

وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ وعظه في حديث صحيح رواه الترمذي وغيره فقال: **«احفظ الله يحفظك...»** الحديث.

*** ثم يُعلم الطفل شرائع دينه وأولها الطهارة والصلاة:**

فكما مر في الحديث: **«علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشرة»**.

وقيل للحسن بن علي رضي الله عنه: ما حفظت عن النبي ﷺ؟ قال: «الصلوات الخمس»[(٤)].

فمنذ السابعة يبدأ تعويد الطفل على الصلاة رغم أنه لم يقع التكليف بها إلا بعد سنوات ولكن لتكون هناك مساحة من الوقت لترسيخ عبادة الصلاة في نفسه وتعويده عليها، وإلا فضربٌ عند العاشرة كإجراء حاسم يضمن إنشاء هذه العادة وترسيخها.

وكذلك يعلم الصيام فقد قالت الربيع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنها عن تعليم الصغار الصيام: «...ونُصوِّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن- دمية من

---

(١) صحيح: مسلم (١٣٤/ ٥٩٠) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) «الفتح» (١/ ٢٥) لابن حجر.

(٣) صحيح: هكذا قال الحافظ ابن حجر (٨/ ٧٠٢) في «فتح الباري».

(٤) رجاله ثقات: ذكره الهيثمي (١/ ٣٠٠) في «مجمع الزوائد» وعزاه لأحمد والطبراني.

صوف أو قماش- فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم»[(١)].

وأباح الإسلام للصبي الحج ولكن تبقى عليه حجة الإسلام إذا بلغ.

*** تعليمه الآداب والفضائل وتخليصه من العادات السيئة:**

كما يعلم الطفل آداب الطعام والشراب، فلا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول: «بسم الله» عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وألا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وألا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وألا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وألا يوالي اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه. . .وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل، ويعود الخشونة في الفرش والملبس والمطعم، ويعود التواضع والإكرام لكل من عاشره، ويمنع مما يستقذر منه في المجلس فلا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ويمنع من كثرة الكلام ويمنع من اليمين صادقًا أو كاذبًا حتى لا يعتاد على ذلك[(٢)].

*** تعليمه آداب الاستئذان:**

وذلك لئلا تقع عين الصغير على ما يغتال براءته من أمور العري والجنس، واحفظ ولا تنس أن: «الجنس في مأمن ما دام في مكمن».

وعن عطاء قال: «سألت ابن عباس: أستأذن على أختي؟ فقال: نعم. فأعدت فقلت: أختاي في حجري، وأنا أمونهما وأنفق عليهما أستأذن عليهما؟ قال: نعم. أتحب أن تراهما عريانتين؟! ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٨).

فهذه أوقات ثلاث لا يدخل فيها إلا باستئذان لئلا تنكشف العورة وتغتال البراءة، والله تعالى قد نادى في الذين آمنوا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦).

---

(١) صحيح: البخاري (١٩٦٠) في الصوم، مسلم (١١٣٦/١٣٦، ١٣٧) في الصيام.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٧٠) وما بعدها.

* **الدعاء لهم وتجنب الدعاء عليهم:**

كما فعل إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠).

ودعا لإسماعيل فقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة: ١٢٨).

ودعا ليحيى عليه السلام أبوه زكريا فقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: ٦).

ومهما بلغ انحراف الابن ومهما كان الخطأ المرتكب من قِبَله إياك والدعاء عليه، بل ادع الله له بالهداية لئلا يشقى بدعوتك، ففي حديث جابر أنه ﷺ قال: **«لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم»**(١).

إن ما سبق كله سيورثك بعد مماتك ولدًا صالحًا يدعو لك فترفع لك الدرجة باستغفار ولدك لك، و **«كُلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**.

وإلا فاحذر فإن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

✿ ✿ ✿

---

(١) صحيح: مسلم (٧/٩٢٠) مختصرًا، أبو داود (١٥٣٢) في الصلاة.

[٣] حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها

عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وطلق بن علي، وعبد الله بن أبي أوفى، وسراقة بن مالك، وأم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنهم جميعًا أنه ﷺ قال: «**لو كُنت آمرًا أحدًا أن يَسْجُدَ لأحدٍ لأمَرْتُ المرأةَ أن تَسْجُد لِزَوجِهَا**»(١).

ومن حديث أبي الأحوص رضي الله عنه أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، فذكر في الحديث قصة فقال: «**ألا واسْتَوصوا بالنِّساء خَيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٌ عِنْدَكُم، ليس تَملكُون مِنْهُنَّ شَيئًا غير ذلك، إلاَّ أن يَأتين بفَاحشةٍ مُبينة، فإن فعلن فاهجُروهن في المَضَاجِع، واضْرِبُوهُن ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح، فإن أطعنكم فلا تَبْغُوا عَليهن سَبيلاً، ألاَّ إنَّ لكم على نِساءِكُم حَقًّا ولنسائكُم عليكم حَقًّا، فَأما حَقُّكُم على نسائكم فلا يُطِئن فُرُشَكُم مَنْ تَكْرَهُون، ولا يَأْذنَّ في بُيُوتِكُم لمن تَكْرَهُون، ألا وَحَقُهُنَّ عَليكم أن تُحسنوا إليهن في كِسْوتهنَّ وطَعامهنَّ**»(٢).

وقال الترمذي: عَوانٌ عِنْدكُم: يعني أسرى في أيديكم.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح: الترمذي (١١٥٩) في الرضاع، وصححه الألباني هناك.

(٢) حسن: حسنه الألباني (١١٦٣) في الرضاع، وله أصل من حديث جابر رضي الله عنه في «صحيح مسلم» برقم (١٤٧/١٢١٨) في الحج- باب (١٩)- باب: حجة النبي ﷺ.

* **تمهيد:**

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

فالزواج آية من آيات الله تعالى لا شك في ذلك. والزواج لغة: هو اقتران أحد الشيئين بالآخر ليصير به زوجًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير: ٧). أي اقترنت الأرواح بالأبدان.

وقد يعني الزواج: النكاح. ومعناه في اللغة: الوطء، والضم، والجمع.

وأما شرعًا: «فهو عقد يفيد حل استمتاع الرجل من امرأة لم يمنع من نكاحها مانع شرعي»[١].

وإتمامًا للنعمة جعل الله تعالى عقد الزواج خاليًا من كل تعقيد وشروط صعبة إلا موافقة الزوجين، والإشهار وبقية الأركان ليخلو الزواج من شبهة المتعة أو اتخاذ الأخدان.

وليس المقصود بعقد الزواج الإجراءات فقط بل ربط كل ما يقوم به الإنسان بالله سبحانه وتعالى ولو من خلال تعبيرات محددة لا يصح عقد الزواج إلا بها.

وهي نظرة الإسلام في كل الأعمال لا بد أن يتجه بها المسلم إلى ربه تعالى حتى لا تصبح نتائج العمل مهددة بالضياع والتلاشي، و«**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٢].

إن الصيغة الشرعية لعقد الزواج لا تجعل الزواج رباطًا مقدسًا فقط أو مجرد اتفاق بين طرفين بل تتعدى ذلك كله؛ لتصبح التزامًا بأمر الله تعالى، وهو سبحانه الذي حدد الحقوق والواجبات كما حدد الأدوار الأساسية بينهما قبل الانتقال إلى دار الزوجية.

---

(١) «لسان العرب» (١٨٨٦) مادة: زوج- ط دار المعارف، ابن كثير (٤/ ٤٧٧) ط الحلبي، «الدر المختار شرح تنوية الأبصار» للحصكفي (٣/ ٤) ط الحلبي.

(٢) صحيح: البخاري (١) في بدء الوحي، مسلم (١٩٠٧) في الإمارة.

لكن تُرى ما هي الحقوق التي أعطاها الله تعالى للزوج؟ وما هي الحقوق التي منحها للزوجة؟

❁ ❁ ❁

[أ] الحقوق المشتركة للزوجين

(١) حل الاستمتاع الجنسي بين الزوجين:

وقد قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾** (المؤمنون: ٥- ٧).

فلكل من الزوجين الحق في الاستمتاع بالآخر بموجب عقد الزواج بشرط ألا يكون هناك مانع مثل: (الحيض- النفاس- الإحرام بالحج أو العمرة- صوم الفريضة) أما صوم النفل فلا تصوم إلا بإذنه.

وأن يكون الاستمتاع في الموضع الذي أحله الله تعالى له لا فيما سواه (القبل لا الدبر) مع حرية الوضع الجنسي الذي يكون مراده الإدخال في القبل.

وإذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه راغبًا فيها ولا عذر لديها يمنع جماعها فيجب عليها أن تستجيب لطلبه ودعوته، ويحرم عليها أن تمتنع عليه، لأن امتناعها قد يؤدي بالزوج إلى سلوك طريق الحرمة الذي لم يحله الله تعالى، ويستوجب ذلك غضب الله تعالى على المرأة.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»**[١].

وقال الصنعاني: «في الحديث إخبار بأنه يجب على المرأة أن تجيب زوجها إذا دعاها للجماع؛ لأن قوله: **«إلى فراشه»** كناية عن الجماع، ودليل الوجوب لعن الملائكة لها إذ لا يلعنون إلا عن أمر الله، ولا يكون إلا عقوبة، ولا عقوبة إلا على

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥١٩٢) في النكاح، مسلم (١٤٣٦/ ١٢٠- ١٢٢) في النكاح.

ترك واجب»[١].

ولكن إذا امتنعت الزوجة فليس للزوج أن يغتر بذلك بل يحاول أن يجامع زوجته دون رغبة منها، إذ من المستحب أن يداعبها باللمس أو التقبيل ونحوه لتنهض شهوتها فتنال من لذة الجماع مثل ما ناله.

وقد يكون الامتناع من الزوجة لعلمها مرض الزوج المانع له عن الجماع والمسبب له بعض المتاعب إذ أن كثيرًا من الرجال عند إحساسه بعدم قدرته على الجماع يصاب بالإحباط فيحاول إثبات فحولته ورجولته للمرأة، وهنا تتلطف المرأة للزوج وتحاول رده ردًّا جميلاً.

أما الرجل فعليه أن يكون مستعدًّا دائمًا لإعفاف زوجته قدر الطاقة والاستطاعة، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: **«ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟»**. قال: بلى يا رسول الله. قال: **«فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينيك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا»**. وفي رواية: **«فأعط كل ذي حق حقه»**[٢].

وقد اختلف الفقهاء فيما يجب على الرجل من ذلك، وربما كان الاطمئنان إلى أنه يجب بمقدار قدرته ومقدار ما يعفها من ذلك، وهذا الأمر يختلف باختلاف كل منهما من حيث السن والطبيعة البشرية وغير ذلك من دواعي الجماع، ولذلك لو رفع الأمر للقضاء للفصل في النزاع حول ذلك لكان على القاضي أن يقدر تبعًا لحال الزوجين وقدرتهما الجنسية[٣].

فإذا كان هناك عجز جنسي مزمن للرجل لا يمكن علاجه فلها طلب الفُرقة.

(٢) حُسن العشرة:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩). ويدخل في ذلك كله أشياء عدة منها:

---

(١) «سبل السلام» (٣/ ١٤٣) للصنعاني.

(٢) صحيح: البخاري (١١٣١) في التهجد، مسلم (١١٥٩/ ١٨١- ١٩٣) في الصيام.

(٣) «فتاوى ابن تيمية» (٢/ ٢٣٤).

* أن يكون حالهما حال المودة والرحمة والمحبة.

* وأن تكون الحياة الزوجية قائمة على السكن النفسي.

* حفظ الأسرار المشتركة. ومنها:

(أ) الأسرار الجنسية الخاصة: وقد سبق الحديث عنها.

(ب) الأسرار عمومًا: وقد ورد في ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن من أشرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»**[(١)].

وفي رواية للحديث عن أبي سعيد أيضًا: **«إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»**[(٢)].

وقال الإمام النووي: «وفي هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل ذلك وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه».

فأما مجرد ذكر الجماع فإن لم تكن له فائدة ولا إليه حاجة فمكروه لأنه خلاف المروءة.

وقال ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[(٣)].

وإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة بأن ينكر عليه إعراضه عنها أو تدعي عليه العجز عن الجماع أو نحوه فلا كراهة في ذكره كما قال ﷺ: **«إني لأفعله أنا وهذه»**.

وقال لأبي طلحة: **«أعرستم الليلة؟»**.

وقال لجابر: **«الكيس الكيس»**[(٤)]. والله أعلم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٣/ ١٤٣٧) في النكاح- باب: تحريم إفشاء سر المرأة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢٤/ ١٤٣٧) في الكتاب والباب السابقين.

(٣) صحيح: متفق عليه: البخاري (٦٠١٨) في الأدب، مسلم (٤٧) في الإيمان.

(٤) صحيح: النووي (٥/ ٢٣٤) على «شرح صحيح مسلم».

* والمعاملة بالمعروف والإحسان كما قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩). وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

فالمعروف أمر الله به ووصف عباده المؤمنين بأنهم: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ١١٢).

وقد قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخيارهم خيارهم لنسائهم»(١).
وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله»(٢).

ويدخل في هذا الكلام الطيب بين الزوجين، فإن لم يكن فالسكوت أولى من الكلام، وفي إمساك اللسان عن الشر خيرٌ.

ومن المعاملة الحسنة المساعدة والعون في كل الأمور كمساعدة الزوج زوجته في أمور بيتها ولو لم يساعدها فليكن عاملاً مساعدًا لها، فلا يعمل على أن يكون سببًا في قذارة البيت وعدم نظافته، فمثلاً لا يرمي ملابسه في غير مواضعها، ولا يترك وراءه من الأعمال ما يستوجب نظافة تعضل الزوجة، فبعض الأزواج مُهمل في نظافته الشخصية تعود الإهمال مما يسبب ضيقًا للزوجة المسكينة.

وفي نفس الوقت على الزوجة أن تكون عامل سكينة وهدوء وأن تغير من زوجها بالمعروف.

ومن الأمور الهامة للغاية: أن يكون الزوجان في نظافة دائمة، فالزوج يغسل أسنانه وينظف إبطيه وعانته ويهتم بما ينبغي عليه الاهتمام به كالتطيب ووضع العطور وتغيير الرائحة (رائحة العرق) وكذلك الزوجة تهتم بما اهتم به الزوج لأجلها.

ومن المعاشرة الحسنة أن يصبر كل منهما على ما يرجو تغييره من الآخر من الصفات، فقد يكون الزوج عصبيًا والزوجة هادئة، فتصبر على هذه العصبية حتى يأذن الله تعالى بزوالها، وكذلك الزوج بالنسبة للزوجة. وفي هذا المضمار أذكر ما قاله علي رضي الله عنه: «شر خصال الرجال خير خصال النساء: البخل، والزهو، والجبن».

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٢٨٤) في «الصحيحة».
(٢) صحيح: صححه الألباني (٣٣١٤) في «صحيح الجامع»، و(٢٨٥) في «الصحيحة».

فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم على أحد بكلام لين مريب، وإذا كانت جبانة فرقت[1] من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفةً من زوجها.

ومن المعاشرة الحسنة صبر الزوجين كل على الآخر لحظة حاجته إليه، فالرجل يمر بظروف صعبة من جراء عمله فربما أصابته الضائقة المالية أو عانى في عمله قد يمرض وساعتها يقل اهتمامه بالأمور كلها ويصير بشدته عن غيرها أشغل، فعلى الزوجة أن تعين الزوج على المرور من هذه الظروف حتى يتجاوزها وحتى يتخطى المحن دائمًا.

وقد تمرض الزوجة وساعتها يقل اهتمامها بمظهرها، والمريض بنفسه عن غيره أشغل، وهنا على الزوج أن يتحمل زوجته وما تصل إليه من حالة نفسية سيئة، وهناك بعض النساء تصاحب العادة الشهرية عندهن آلام تجعل حالتهن المزاجية غير مستقرة، فعلى الزوج أيضًا تحمل هذه الظروف بالمعروف وبالإحسان.

ولا مانع من مشاورة النساء، فللمرأة في تدبير شئون بيت الزوجية باعٌ طويل من حُسن الرأي وإن لم يكن الرأي جيدًا فلا عليك. فقد جاء في الأثر: «شاوروهن وخالفوهن».

(٣) لا يفرك[2] مؤمن مؤمنة:

فلا بد من مجاملة كل منهما للآخر، والتغاضي عن الجوانب السيئة، وعدم مقارنته بطرف آخر في معرض الذم له أو التقليل من شأنه أو بيان مميزات الآخر عليه، وفي الحديث: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقًا رضي منها خُلقًا آخر»**[3].

قال النووي: «إن الزوج إن وجد في زوجته خُلقًا يُكْره، وجد فيها خُلقًا مرضيًا بأن تكون شرسة الخلق لكنها دينة أو جميلة أو عفيفة أو رقيقة به أو نحو ذلك»[4].

فعليك النظر دائمًا إلى نصف الكوب المملوء لا نصف الكوب الفارغ، ولقد أباح

---

(١) فرقت: خافت. والفَرَق (بفتحتين): الخوف.

(٢) يفرك: يبغض.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٣/ ١٤٦٩) في الرضاع- باب: الوصية بالنساء.

(٤) النووي (٥/ ٢٨٢) على شرح مسلم.

الله تعالى للزوج الكذب على زوجته من أجل الحفاظ على كيان الأسرة، ومن ذلك حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**».

قالت: «ولم أسمعه يُرخص في الكذب في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحرب والصلح بين الناس وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها»(١).

إذًا في الأمر سعة حتى الكذب، وليس من المعقول أن يقف الزوج عند كل خطأ، وأن تخطئ الزوجة كل وقت خطأ يستثير الزوج، وليس هناك مشكلة لا حل لها، وليس هناك طبع لا يتغير، فالإنسان إنما سُمي إنسانًا من النسيان، والطبع بالتطبع، والحلم بالتحلم، فلا يمل الرجل من إصلاح الزوجة، ولا تمل هي من الصبر على بعض عيوبه.

*** نموذج للصبر على الزوج والزوجة:**

ومن الروائع ما ذكر من أن ابن أبي عذرة الدؤلي أيام خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن، فلما علم عمر رضي الله عنه أرسل إليه عبد الله بن أرقم حتى وصل إلى منزل ابن أبي عذرة وأخبره أن عمر رضي الله عنه أرسله ليكلمه في خلع النساء فأحضر ابن أبي عذرة امرأته ثم قال لها:

أنشدك بالله هل تبغضيني؟

قالت: لا تنشدني بالله.

قال: فإني أنشدك بالله.

قالت: نعم.

فقال لابن أرقم: أتسمع؟

ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن أرقم، فسأله عمر فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها.

(١) متفق عليه: البخاري (٢٦٩٢) في الصلح، مسلم (٢٦٠٥/١٠١) في البر والصلة.

فقال عمر: أنت التي تحدثين زوجك أنك تُبغضينه؟

فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إن ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فإن أفضل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب[1].

ورُوي أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو إليه خُلق زوجته فوقف ببابه ينتظر فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل قائلاً: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالي؟

فخرج عمر فرآه موليًا فناداه: ما حاجتك؟

فقال: يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليك خُلق زوجتي واستطالتها عليَّ فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت: إن كان هذا هو حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟

فقال عمر: إني احتملتها لحقوق لها عليَّ إنها طباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسَّالة لثيابي، مرضعة لولدي وليس ذلك بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام فأنا أحتملها لذلك.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين وكذلك زوجتي.

فقال: فاحتملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة.

فلا ظلم، ولا سباب، ولا لعن، ولكن صبر من كل زوج على الآخر لتسير سفينة الحياة دون أن يصيبها خرق، ولتقف أمام أمواج الفتن والمشاكل.

(٤) أدب راقٍ:

ومن أجمل الآداب الإسلامية في هذا المقام أن النبي ﷺ نهى عن مفاجأة الرجل أهله بالعودة إليهم؛ لأن هذا يشعر بعدم الثقة فيهم، كما روى جابر بن عبد الله: «كنا مع النبي ﷺ في غزوة فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال: «**لا. أمهلوا حتى ندخل**

---

(١) «شرح السنة» (١٣/ ١٢٠) للبغوي.

ليلاً- أي عشاءً- لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة»[١].

وفي رواية: «نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً لئلا يتخونهم أو يطلب عثراتهم»[٢].

وذلك أن المسافر ربما وجد أهله مع الطروق وعدم شعورهن بالقدوم على غير أهبة من النظافة والزينة فيكون ذلك سبب نفرته منها، كما أن الذي يطرق أهله ليلاً يدفعه إلى ذلك سوء ظنه بهم أو محاولة التماس الأخطاء لهم.

(٥) حرمة المصاهرة:

ومن الحقوق المشتركة بينهما كذلك حرمة المصاهرة، لأن العقد قد ترتب عليه حرمة بعض أقارب الزوج كأبيه وابنه على الزوجة، وحرم بعض أقاربها على الزوج كأمها مطلقًا وابنتها إذا دخل بها وعمتها وخالتها طالما كانت في عصمته إلى غير ذلك مما يوجب حرمة المصاهرة.

(٦) التوارث:

فقد أصبح لكل من الزوجين بموجب الزوجية حق في مال الآخر ما دام قد عقد عليها ودخل بها أو توفي عنها قبل دخوله بها ما لم تكن كتابية (من اليهود والنصارى)؛ لأن الاتفاق في الدين أحد شروط وجوب الميراث والاختلاف في الدين مانع من موانعه.

ويستمر هذا الحق حتى لو طلقها رجعيًا ومات أحدهما أثناء العدة بل ويصل الميراث في بعض الأحوال إذا طلق الزوجة طلاقًا بائنًا وهو على فراش الموت إن كان يقصد الفرار من توريثها.

(٧) حسن الخلق:

فالزوجة لا حرج عليها في مداعبة زوجها وملاطفته ومناداته باللقب الذي يحبه، وكذلك يفعل هو كنوع من التدليل؛ ليحدث التوافق، ومنها الملاعبة: ملاعبة الزوجة للزوج، وملاعبة الزوج للزوجة.

- فملاعبة الزوجة للزوج:

(١ ، ٢) سبق تخريجهما. وتستحد: أي تزيل شعرها من فوق بشرتها تزينًا لزوجها.

كأن تعد له الألعاب غير المحرمة (النرد) وقد تيسر الآن في الكمبيوتر بعض الألعاب التي تتسم بالذكاء وتتسم بالإثارة والمتعة.

وهناك بعض المسابقات الإسلامية في بطاقات وموسوعات تنمي المعلومات الإسلامية ويمكن للزوجين استخدامها كنوع من أنواع المسامرة.

- وملاعبة الزوج لزوجته: يدخل فيها المسابقات الرياضية التي كان النبي ﷺ حريصًا عليها مع زوجاته كأم المؤمنين عائشة، فقد روت أم المؤمنين عائشة أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر وهي جارية- صغيرة- لم تحمل اللحم ولم تبدن فقال لأصحابه: **«تقدموا»** فتقدموا ثم قال: **«تعالي أسابقك»** قالت عائشة: فسابقته فسبقته على رجلي. قالت: فلما كان بعد خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: **«تقدموا»** ونسيت الذي كان وقد حملت اللحم وبدنت فقلت:

كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟

فقال: **«لتفعلن»**. فسابقته فسبقني.

فجعل يضحك وقال: **«هذه بتلك السبقة»**[1].

ويُستفاد من هذا الحديث:

جواز المسابقة مع المرأة (الزوجة) واللعب معها على أن يكون هذا بعيدًا عن أعين الناس، فقد أمرهم ﷺ أن يتقدموا بعيدًا حتى لا تنكشف عورة أم المؤمنين عائشة عليهم، أو تظهر مفاتنها أمام المسلمين.

وقد أعلى النبي ﷺ من القيمة المعنوية لملاعبة الزوجة كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين (الهدفين)، وتعليم الرجل السباحة»**[2].

- كما يجوز للرجل أيضًا مشاهدة اللهو المباح الذي لا حرج فيه، فقد روت

(١) ذكره الألباني (٢٧٦، ٢٧٧) في «آداب الزفاف» وصححه.

(٢) صحيح: صححه الألباني (٤٥٣٤) في «صحيح الجامع».

عائشة رضي الله عنها: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا عائشة أتحبين أن تنظري إليهم؟**».

فقلت: نعم.

فأتى مني وراءه فطأطأ لي منكبيه لأنظر إليهم فوضعت ذقني على عاتقه، وأسندت وجهي إلى خده فنظرت من فوق منكبيه.

وهو يقول: «**دونكم يا بني أرفدة**» وهم الحبشة.

فجعل يقول: «**يا عائشة أما شبعت؟**»(١).

فأقول: لا لأنظر منزلتي عنده حتى شبعت.

- ومن حسن الخلق مع الزوجة أن يتلمس الرجل موضع شرب الزوجة، وأن يضع اللقمة في فمها، ولقد جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك**»(٢).

وقد كان ﷺ رائعًا حينما أراد تخفيف آلام الحيض النفسية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فكان يؤتى بالإناء فتشرب منه وهي حائض، ثم قالت: ثم يأخذه فيضع فاه (فمه) على موضع فيَّ (فمي) وإن كنت لآخذ العرق فآكل منه ثم يأخذه فيضع فاه على موضع فيَّ.

وكان ﷺ يتكئ في حجرها وهي حائض فيقرأ القرآن(٣).

وكان ﷺ يضع رأسه في حجرها لتُرجِّل شعره (تمشطه)(٤).

وبعض الأزواج إذا حاضت المرأة فكأنما ارتكبت كبيرة من الكبائر مع أن حيضتها ليست بيديها كما في الحديث.

ولعل النبي ﷺ كان صاحب منهج يتسم بالروعة حينما وجد أم المؤمنين عائشة-

---

(١) صحيح: متفق عليه: البخاري (٤٥٤) في الصلاة، مسلم (١٦/ ٨٩٢) في العيدين.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٦) في الإيمان. و(فِي): فَم.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٩٧) في الحيض، مسلم (١٥/ ٣٠١).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠/ ٢٩٧) في الحيض.

وذلك بعد قدومه من غزوة تبوك أو خيبر- وجدها وفي سهوتها ستر فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة (لعب أو دُمى).

فقال: «ما هذا يا عائشة؟».

فقالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع.

فقال: «ما هذا الذي وسطهم؟».

قالت: فرس.

قال: «وما الذي عليه هذا؟».

قالت: جناحان.

قال: «فرس له جناحان؟».

قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟

قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ(١). فلم يسخر النبي ﷺ من قولها واكتفى بالضحك أو التبسم ولم يسفه لها رأيًا، وكذا كل زوج مهما رأى من زوجته.

[ب] حقوق الزوج على زوجته

(١) حق الطاعة في غير معصية الله تعالى:

فالقاعدة أنه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وحق الطاعة هو حق مستمد من الرياسة في الأسرة أعطاه الله تعالى له كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وهذه الدرجة التي ميز الله تعالى بها الرجل هي درجة الرئاسة أو القوامة(٢)، كما

---

(١) صحيح: أبو داود (٤٩٣٢) في الأدب- باب: اللعب بالبنات.

(٢) «تفسير المنار» (٣/ ٣٨١) للشيخ محمد رشيد رضا.

صرح القرآن الكريم بتسميتها في آية أخرى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤). وذلك لأن كل مجتمع حتى ولو كان مكونًا من شخصين فقط لابد أن تعقد فيه الرئاسة لأحدهما حتى يتحمل مسئولية اتخاذ القرار.

والرجل هو أقدر الطرفين وأحقهما بعقد الرئاسة له في أمور الأسرة، والقوامة عليها، إذ المرأة في الأصل مخلوقة للبيت وهي مشغولة بأمر الحمل والولادة وإرضاع الأطفال وتنشئتهم، ولا جَلَد (لا صبر) لها على مواجهة الأخطار- أخطار الحياة الخارجية ومشقاتها- بخلاف الرجل، فإن الله سبحانه وتعالى قد هيأه لتكبد المشاق مشاق الحياة- وتحمل أخطارها، ولأنه اعتاد تحكيم عقله لا عواطفه فيما يعرض له من مشكلات، ولأن مسئولية اتخاذ القرار ونتائجه تقع على عاتق الرجل[١].

إذن فلابد أن تكون له الرئاسة، وهي ليست رئاسة استبدادية، فليس على الرجل أن يأمر وينهى وعلى الزوجة أن تطيع دون تعقيب أو مناقشة، لا، بل عندما ترفرف راية الطمأنينة والسلام والأمن على جو العائلة فإن الزوج يشاور زوجته وقد يأخذ برأيها في كثير من الأمور[٢].

وقد حث النبي ﷺ على طاعة زوجها وجعل رضاه عن تصرفاتها سببًا في رضا الله عليها.

(٢) فلا تصوم النافلة إلا بإذنه:

ففي الحديث عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: **«لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدَّى إليه شطره»**[٣].

وإنما حُرِّم عليها صوم النفل بدون إذن زوجها لأنه قد يطلب الاستمتاع في أي وقت، وحقه أن تبادره بنفسها عند ذلك الوقت، فلا يفوته بالتطوع ولا بواجب على التراخي، وإذا أراد الاستمتاع بها جاز ويفسد صومها لأن العادة أن المسلم يهاب

---

(١) «الأحوال الشخصية» لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة (صـ ١٨٨).

(٢) «تفسير المنار» (٥/٦٨) للشيخ محمد رشيد رضا- ط (١٣٢٥هـ).

(٣) متفق عليه: البخاري (٥١٩٥) في النكاح، مسلم (١٠٢٦) في الزكاة.

انتهاك الصوم بالإفساد، ولا شك أن الأولى له خلاف ذلك إن لم يثبت دليل كراهته، ولو كان زوجها مسافراً فلو صامت وقدم أثناء الصيام فله إفساد صومها ذلك من غير كراهة، وفي هذا الحديث أن حق الزوج آكد على المرأة من التطوع بالخير لأن حقه واجب والقيام بالواجب مقدم على القيام بالتطوع[١].

وحكى الأصمعي عن تلك المرأة التي أمسكت بسبحة تسبح ربها وعليها قميص أحمر وقد اختضبت فقال:

- ما أبعد هذا من هذا!!

فقالت:

ولله جانب لا أضيعه ✿ وللهو مني والبطالة جانب

وروى أبو سعيد الخدري فقال: إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده فقالت: زوجي صفوان بن المعطل يضربني إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي الفجر حتى تطلع الشمس- وصفوان جالس عند رسول الله ﷺ- فسأله عما قالت. فقال صفوان: أما قولها: يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها.

فقال ﷺ: «**لو كانت سورة واحدة لكفت الناس**».

قال: وأما قولها: يفطرني إذا صمت، فإنها تنطلق فتصوم (صيام التطوع) وأنا رجل شاب فلا أصبر.

فقال ﷺ: «**لا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها**».

قال: أما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنَّا أهل بيت قد عرفت عنَّا ذلك (سهرهم لصنعة أو حرفة لهم) لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس.

فقال ﷺ: «**فإذا استيقظت يا صفوان فصل**»[٢].

وبعضهن يغالين في العبادة كالصوم والصلاة غير آبهات ولا مكترثات بما قد

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٠٧) لابن حجر.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٠- ٨٥) في «المسند».

يحدث لزوجها من النظر إلى خارج بيته لعله يجد من تطفئ شهوته، وتعينه على ذلك.

وقد جاء في الحديث: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»[١].

وفي رواية زاد: «**والذي نفسي بيده لو أن من قدمه (الزوج) إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم أقبلت تلحسه ما أدت حقه**»[٢].

ولقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٣٤).

إلا أن على الزوجة ألا تطيع زوجها إذا أمرها بما يغضب الله تعالى، فقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقد زوجت ابنتها فسقط شعرها فقالت: إن زوجها أمرني أن أصل شعرها، فقال: «**لا. إنه قد لُعِنَ الموصلات**»[٣]. (من تلبس الباروكة).

ومما يجب على الزوجة طاعة زوجها فيه:

* ألا تخالفه في نفسها فتمكنه منها وقتما أراد.

* أن تبر قسمه إذا حلف عليها.

* أن تطيع أمره فيما أمر أو طلب أو رجا.

إضافة إلى الصوم- صوم التطوع- وصلاة النافلة.

(٣) وإتمامًا لهذه النقطة نقول:

ومما ينعش الحياة الزوجية ويعمل على استقرارها أن تشكر الزوجة للزوج ما يقدمه لها مما يعمل على راحتها وسعادتها، ولا تنسى في لحظات الغضب إحسانه إليها، وحدبه عليها، وجهاده في سبيل سعادتها. وقد حذر ﷺ المرأة من ذلك عندما أخبر أن أكثر النساء اللاتي يدخلن النار إنما يدخلنها بسبب كُفران العشير كما في الحديث: «**لو أحسنت إلى إحداهن ثم رأت شيئًا قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»[٤].

(١، ٢) صحيح: صححه الألباني (٧٧٢٥) في «صحيح الجامع».

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٢٠٥) في النكاح، مسلم (٢١٢٢، ٢١٢٣) في اللباس والزينة.

(٤) متفق عليه: البخاري (٢٩) في الإيمان، مسلم (١٧/٩٠٧) في كتاب الكسوف.

فقد خص كفران العشير- وهو الزوج- من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهو قوله ﷺ: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**»، فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله، فإذا كفرت المرأة حق زوجها- وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية- كان ذلك دليلاً على تهاونها بحق الله، فلذلك يطلق عليه الكفر لكنه كفر لا يخرج من الملة(١).

وفي الحديث: «**لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه**»(٢).

(٤) ألا تهجر فراش زوجها:

وفي ذلك عدة أحاديث تحذر من وقوع المرأة في هذه الخطيئة الكبرى؛ لعظم العقاب عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح**»(٣).

وفي رواية: «**إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع**»(٤).

وفي رواية أخرى لمسلم: «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها**».

وفي حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ بن جبل من اليمن سجد للنبي ﷺ فقال ﷺ: «**ما هذا يا معاذ؟**». فقال: أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن أفعل ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تفعلوا فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها، ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه**»(٥).

والأمر في النهاية حدده ﷺ حين قال لعمة ابنة محصن وذكرت زوجها له:

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٨٣) لابن حجر العسقلاني.

(٢) صحيح: الحاكم (٢/ ١٩٠) في «المستدرك»، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥١٩٣) في النكاح، مسلم (١٤٣٦/١٢٢) في النكاح.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥١٩٤) في النكاح، مسلم (١٤٣٦م) في النكاح.

(٥) صحيح: أحمد (٤/ ٣٨١) في «المسند». والقتب: ما يوضع على البعير من الأخشاب ونحوها. «المصباح المنير (٢/ ٧٥٢)».

«انظري أين أنت منه فإنه جنتك ونارك»[(١)].

والرجل يقوى عنده داع الشهوة أكثر مما يقوى عند المرأة لاحتكاكه بالخارج دائمًا ووجود من تحرك شهوته إلى النساء خاصة متبرجات العصر، فامتناع الزوجة يجعله يولي وجهه شطر الخطأ، ثم إن اللعن لا يكون إلا على ذنب بل ربما كانت كبيرة، ولذلك فإنه ﷺ يقول: «**إذا دعا الرجل زوجته فلتأته وإن كانت على التنور**»[(٢)]. يعني على الفرن.

وهو والله لا يدعوها إلا على الفراش.

(٥) القرار في البيت وعدم الخروج من البيت إلا بإذن الزوج:

فلقد أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ فقال: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾ (الأحزاب: ٣٣). وهن موضع القدوة، وما ذلك إلا لكي تتأسى بهن بناتهن من المؤمنات. والغرض من قرارهن في البيت أن تقوم بشئونه، وليس الغرض حبسها فيه، ولقد قال الشيخ أبو زهرة: إن خروج المرأة من بيتها للعمل فاحشة كما قال تعالى: ﴿**وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ (الطلاق: ١).

فقال: إذا كان خروج المعتدات فاحشة مبينة فأولى بذلك خروج المتزوجات[(٣)].

ولكن للمرأة أن تخرج لمصلحة مشروعة مشروطة برضا الزوج، وليس من مصلحة المرأة الخروج للعمل حتى فيما يخص النساء فإن خروجها قد ضيع بالفعل حقوق الزوج والأبناء والبيت كما ضيع على الأسرة أوجهًا كثيرة للانتفاع.

فوجود المرأة في البيت هو البيت نفسه فإنها مصدر السعادة لزوجها وينبوع الحنان الذي لا ينضب ولا يغيض لأولادها، والمفروض أن تتعلم وتتثقف بكل ما يهيؤها لأداء وظيفتها كأم وزوجة فتؤديهما على خير أداء كما أن الزوجة المتعلمة أقدر على معاملة زوجها وأطفالها بما يليق بهم وهي المنوط بها إخراج الجيل النافع لوطنه ولدينه وأمته وهي القادرة اقتصاديًا على إدارة شئون البيت.

---

(١) حسن: أحمد (٤/ ٣٤١) في «المسند».

(٢) صحيح: الترمذي (١١٦٠) في الرضاع- باب (١٠).

(٣) «الأحوال الشخصية» لأبي زهرة (صـ ١٨٩).

(٦) التأديب:

من حقوق الزوج على زوجته تأديبها، وقد جعله الله تعالى على مراحل فقال سبحانه: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

فالنساء في هذه الآية نوعان:

النوع الأول: الصالحات القانتات- المطيعات لأزواجهن كما ذكر ابن عباس- الحافظات للغيب بما حفظ الله تعالى. وهؤلاء لا تثريب- لا لوم- عليهن بل هن من أعظم ما يكتنزه المؤمن بعد تقوى الله تعالى، وما من مسلم يهوى تأديب زوجته المستقيمة وهي من هذا الطراز الرفيع من النساء. فإن أذاها بسوء العشرة رغم طاعتها له واعتدى عليها فلها حق الطلاق والمطالبة به.

النوع الثاني: المرأة الناشز- العاصية- رغم عدل زوجها معها وحسن عشرته لها. وهذا النوع أمر الشرع أزواجهن بالتدريج في تأديبهن على النحو التالي:

أولاً: الموعظة الحسنة: والوعظ طبقات أحقها التنبيه الديني أو الخلقي من غير تنقيص أو تسفيه والتنبيه على العيوب ونتائجها، ولكل حال نوع من القول، وطريق في الخطاب، والعاقل من عرف لكل أمر علاجه ولكل داءٍ دواء[(١)].

ثانيًا: يهجرها هجرًا جميلاً إن لم تستجب للموعظة، والهجر الذي يليق بالمسلم يكون في داره لا بهجر داره بل لا يجامعها رغم كونه نائمًا معها فيعطيها جنبه أو ظهره. وقد قال القرطبي عن إعطائها جنبه: «وهذا قول حسن فإن الزوج إذا أعرض عن فراشها فإن كانت محبة للزوج فذلك يشق عليها فترجع للصلاح وإن كانت مبغضة له فيظهر النشوز منها»[(٢)].

وهذا اللون من التأديب له أثره الشديد على المرأة؛ لأنه يَفُلُّ أقوى أسلحتها وهو الأنوثة، فبالرغم من تزينها له يعرض عنها تعبيرًا عن غضبه عليها فإن كانت لا تزال

---

(١) السابق نفسه.

(٢) عبارة لابن العربي المالكي (١/ ٤١٨، ٤١٩) في «أحكام القرآن».

محبة له بادرت بالاعتذار إليه عما بدر منها وإلا ازدادت نشوزًا.

ثالثًا: وفي حالة عدم استجابة المرأة للعلاجين السابقين فله أن يضربها لكن ضربًا غير مبرح ولا يكسر فيه عظمًا ويتجنب الوجه؛ لأنه يظهر فيه الأثر سريعًا فقد وصى ﷺ بعدم ضرب الوجه، فقال: «**ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت**».

وقد كره عطاء الضرب حتى في هذه الحالة فقال ابن العربي: «هذا من فقه عطاء فإن من فهمه للشريعة ووقوفه على مظان الاجتهاد علم أن الأمر بالضرب هاهنا أمر إباحة أو وقف على الكراهية من طريق أخرى في قول النبي ﷺ في حديث عبد الله ابن زمعة: «**إني لأكره للرجل أن يضرب أمته عن غضبه ولعله أن يضاجعها من يومه**»(١).

ومن الثابت عدم تساوي الرجال مع النساء، والرجال والنساء يتفاوتون في ذلك فإن العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة.

ولكن الملاحظ أن هناك بعض النساء تستفز الواحدة منهن زوجها ليضربها ظنًّا منها أن هذه هي الرجولة ولقد قال ﷺ: «**أنفق على عيالك من طولك ولا ترفع عنهم عصاك وأخفهم في الله**»(٢).

وقد حدد بعض الفقهاء أن الزوجة تُضرب في بعض الحالات ومنها:

- ترك الزينة المباحة إذا أرادها دون التنمص، والتفلج، ووصل الشعر.
- وتأبيها عليه في طلب الجماع.
- وإذا خرجت بدون إذنه.
- وإذا تركت الصلاة.

ولكن: لقد كان للنبي ﷺ تسع نسوة أو يزيد تآمرن عليه، واختلفت طبائعهن، وطالبنه بزيادة النفقة فلم يضرب واحدة منهن فما ضرب شيئًا قط بيده لا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله.

كما نحذر من أن الزوج قد تكون له شخصيتان أو جانبان شرهما لأهله، فإذا

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، وله أصل عند مسلم في صحيحه.

(٢) رواه البيهقي (٧/ ٣٠٤) في «السنن الكبرى».

دخل على أهله كان أسوأ الناس خلقًا وأشحهم نفسًا وأقلهم خيرًا، وإذا لقي غير أهله من الأجانب لانت عريكته، وانبسطت أخلاقه، وجادت نفسه، وكثر خيره[١].

(٧) القيام على شئون البيت:

وهو أمر كثر الحديث عنه، وخلاصة القول فيه:

- إن كان زوجها معسرًا فلتستخدم بيتها.

- وإن كان موسرًا فليحضر لها من يخدمها وتقوم هي بالإشراف عليهن أو عليهم.

ولقد قسم ﷺ العمل بين علي وفاطمة فعلي كان يعمل خارج البيت وفاطمة بداخله، ولأنه لو وجب عليه أن يقوم بشئون البيت لكان ظلمًا واقعًا عليه، وعلى هذا (نرى أنه ليس من الشرع الإسلامي في شيء من يقول: إن المرأة ليست عليها خدمة بيتها أو القيام على شئونه وطهي طعامها وهو بعيد عن الإسلام بُعده عن المألوف المعروف)[٢].

ونقول: إعداد البيت حق واجب على الزوج، أما هي فعليها الاهتمام بشئون هذا البيت، وقال ابن قدامة: «ولنا أن المعقود عليها من جهتها الاستمتاع- في عقد النكاح- فلا يلزمها غيره كسقي دوابه وحصد زرعه، فأما قسم النبي ﷺ العمل بين علي وفاطمة فعلى ما تليق به الأخلاق المرضية وتجري العادة على سبيل الإيجاب، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها كانت تقوم بعلف فرس الزبير وتلتقط له النوى وتحمله على رأسها، ولم يكن ذلك واجبًا عليها، ولهذا لا يجب على الزوج القيام بمصالح خارج البيت ولا الزيادة على ما يجب لها من النفقة والكسوة، ولكن الأولى لها فعل ما جرت العادة بقيامها به- شئون البيت- لأنه العادة ولا تصح الحياة إلا به، ولا تنتظم المعيشة دونه»[٣].

وإن كان مساعدتها في أمور البيت هو الخير له كما كان النبي ﷺ في مهنة أهله

---

(١) «هدي الإسلام» (صـ ١٢١).

(٢) «الأحوال الشخصية» لأبي زهرة (صـ ١٩٢).

(٣) «المغني» (٧/ ٥٨٣) لابن قدامة المقدسي الحنبلي.

إحسانًا منه إليهن.

وكذلك يفعل الرجل مع نسائه اقتداءًا به ﷺ ولأن الإحسان تُستعبد به القلوب.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ✿ فلطالما استعبد الإنسان إحسانٌ

ومن جملة حقوق الزوج على الزوجة:

(٨) عدم الإنفاق من بيته إلا بإذنه.

(٩) السكن معه حيث سكن؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ (الطلاق: ٦).

(١٠) إكرام أهله وأقاربه وحسن معاشرتهم.

(١١) حُسن المعاشرة منها له والتزين له والتلطف بالقرب إليه.

(١٢) تربية أولاده ورعايتهم، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها.

(١٣) ألا تدخل أحدًا يكرهه إلى داره وإلا فله حق التأديب.

(١٤) حفظه في بيته عند سفره وابتعاده.

(١٥) تحري ما يحبه ويرضاه والابتعاد عما يؤذيه.

دعاء الحور العين:

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»**[١].

فاحذري- أمة الله- أن تدعو عليك إحدى ساكنات الملكوت الأعلى من المطهرات.

✿ ✿ ✿

(١) صحيح: صححه الألباني في «سنن الترمذي» (١١٧٤) في الرضاع- باب (١٩).

[جـ] حقوق الزوجة على زوجها

(١) الحق المالي (المهر):

نود أن نشير إلى نقطتين لإتمام الفائدة في هذا المضمار:

الأولى: ما رواه أحمد والأثرم بإسنادهما عن زرارة بن أوفى قال: «قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أن من أغلق بابًا أو أرخى سترًا فقد وجب المهر ووجبت العدة»[(١)].

الثانية: أن عرف زماننا الذي درج الناس عليه في معظم الأحوال هو أن يكون المهر مؤخرًا (مؤخر الصداق) فعلى الزوج المبادرة بدفع هذا المهر للزوجة من باب الاستحباب، وإن كان يلزم بدفعه إذا طلقها، وعلى الورثة دفعه عند وفاته أي بأقرب الأجلين.

(٢) من الذي يلزم بجهاز البيت؟

ذهب الأحناف إلى أن الزوج عليه تأثيث البيت وإحضار الجهاز؛ لأن المهر ما هو إلا نحلة- وهبة- وعطية للمرأة؛ ليستجلب محبتها، ولا يجب عليها أن تجهز البيت بشيء من المهر إلا إذا دفع الزوجٍ إليها مبلغًا آخر مخصصًا من المال منفصلاً عن المهر فإن لم تجهز به نفسها وبيتها ردّته إليه.

وذهب المالكية أن على الزوجة جهاز البيت إلا إذا اشترطت عليه تجهيز البيت، ويرى المالكية أيضًا أن على الزوجة تجهيز البيت من المهر، وهو العرف المعمول به في مصر، وإن كان رأي الأحنافِ هو الأقرب إلى الصواب والمعمول به قضائيًّا في مصر.

حكم متاع البيت:

وهو كل ما يتمتع به من أدوات البيت غير الجهاز، فإن حدث خلاف بين

---

(١) «المغني» لابن قدامة (٧/ ٢٤٩).

الزوجين أيهما صاحب هذا المتاع فالقول لصاحب البينة، فإن لم تكن هناك بينة فالحكم لمن يشهد له الظاهر من الأمور، فما يصلح للرجال يأخذه الرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، وإذا كان هناك ما يتمتع به ويصلح لاستعمال الرجل والمرأة فأولى الآراء رأي أبي يوسف: فالقول هو قول الزوجة فيما تجهز به عادة أمثالها كالكحل، والعطر، والمشط وما شابه ذلك وما زاد القول فيه قول الزوج مع يمينه.

(٣) حق النفقة:

والنفقة في اللغة مشتقة من النفوق وهو الهلاك، يقال: نفقت الدابة تنفق نفوقًا: أي ماتت. ونفقت الدراهم والزاد تنفق نفوقًا: أي نفدت.

وأنفق الرجل: أي افتقر وذهب ماله، وأنفقت الدراهم من النفقة، ونفقت السلعة: راجت، وأنفق القوم: أي نفقت سلعهم فكانت للهلاك والزوال(١).

والنفقة شرعًا: هي كل ما يلزم الزوجة لمعيشتها من طعام وكساء ومسكن وسائر أدوات البيت اللازمة للمعيشة، ويدخل في ذلك ما تحتاج إليه من أدوات الزينة التي تتزين بها له، ومصاريف العلاج(٢).

وهذه الأشياء التي حددناها للنفقة تلزم الزوج كحق عليه وواجبة للزوجة حتى ولو كانت موسرة (صاحبة مال) وكان هو فقيرًا جدًّا، ولا فرق في وجوبها لمن كانت مسلمة ومن كانت كتابية لأنه أثر من آثار العقد الذي تزوج بموجبه الرجل المرأة، ومقابل هذا كله تحبس المرأة نفسها على زوجها وتمكنه منها.

والدليل على ذلك من كتاب الله تعالى قوله عز وجل: **﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾** (الطلاق: ٧).

وقوله تعالى: **﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾** (البقرة: ٢٣٣).

ومن السنة المطهرة في هذا الحق قوله ﷺ: **«تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا**

---

(١) «القاموس المحيط» (٣/ ٣٩٦) مادة: نفق.

(٢) وقد جاء في القانون المصري- المادة رقم (٤٤)- السنة (١٩٧٩): أن النفقة تشمل الغذاء، والكسوة، والمسكن، ومصاريف العلاج، وغير ذلك مما يقضي به العرف.

اكتسيت»[١].

وقال لهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: **«خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»**.

وقد أجمع فقهاء المسلمين على وجوب النفقة للزوجة بشرط أن تطيعه، بأن تسلم نفسها له وهو البناء أو الدخول فتتهيأ له في بيته بالعقد الصحيح، وهو الذي يؤخر ذلك أو يتأخر الزفاف بسبب من قبله.

ولنفقة الزوج على زوجته شروط منها:

* أن يكون احتباس الزوجة على ذمة الزوج في ظل عقد صحيح لا فاسد.

* أن تكون صالحة للعشرة وللخدمة أو يرضى الزوج منها ما دون ذلك. فإذا مرضت قبل الدخول أو عجزت عن الانتقال من بيتها إلى بيت زوجها لم تكن لها نفقة.

* ألا يفوت حق الزوج في الاحتباس بسبب من جانبه، فإن كان السبب من جانبه وفات حق الزوج في الاحتباس بهذا السبب كما إذا حبست بسبب جناية فلا نفقة لها، أما إن كان السبب من جانبه فلها النفقة.

أما لو امتنعت عن معاشرة زوجها لها دون مبرر شرعي اعتبرت ناشزًا ولا نفقة لها. فالأصل في استحقاق النفقة هو تمكين المرأة الرجل من نفسها، فإذا نشزت الزوجة فلا حق لها في النفقة.

ولكن هل عمل الزوجة يسقط حقها في النفقة؟

- إذا خرجت بغير إذنه فلا حق لها.

- وإذا كان الخروج بإذنه فلها النفقة.

وللزوج بعد ذلك الخيار إذا كان قد تزوجها وهي تعمل بين أن يقعدها عن العمل أو يتركها.

وأغلبهم الآن يتركونها لتعمل!!

مقدار النفقة:

تقدر النفقة دائمًا بما يكفي الزوجة وولدها بالمعروف، على أن قول جمهور

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٢) في سننه.

العلماء بزيادة النفقة إذا كان الزوج موسرًا، وبتقليلها إذا كان معسرًا، والقاعدة: **«خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»**.

ومن قبل قول الله تعالى: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ**﴾ (الطلاق: ٧).

ونحن نقول في النهاية ما قاله الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ**﴾ (البقرة: ٢٨٠).

(٤) الحق المعنوي للزوجة: العدل والإحسان في المعاملة:

وهذا حق ثابت للزوجة إذا لم يوف لها به كان من حقها أن تطلب الطلاق لسوء العشرة، إذ من حقها أن يعاملها بحيث يراعي في معاملتها البُعد عن كل ما يؤذي شعورها أو يجرح كرامتها. هذا منطوق قوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (النساء: ١٩). وقوله: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا**﴾ (البقرة: ٢٣١).

وإذا كان له أكثر من زوجة عدل بينهن في المبيت والنفقة وحسن المعاشرة ولا يفرق بينهن في المعاملة فيثير غيرتهن.

وفي حديث حجة الوداع عن النبي ﷺ أنه قال: **«استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا، فحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن، وحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون»**(١).

وقد سبق حديث: **«خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي»**.

وحديث: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله»**.

ويبقى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»**(٢).

ومعنى هذا أن الإحسان إلى الزوجة ينقسم إلى ثلاثة أمور:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥١٨٥، ٥١٨٦) في النكاح، مسلم (١٤٦٨) في النكاح.

(١) إسداء المعروف إليها.

(٢) كف الأذى عنها.

(٣) احتمال أذاها فإنما هي مدة يسيرة.

وقد روى النسائي[١] عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة[٢] فيها طعام فضربت التي في بيتها النبي ﷺ- وهي عائشة- الخادم فسقطت الصحفة فانقلبت فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «غارت أمكم».

ثم حبس الخادم- أمره بالانتظار- حتى أتى بصحفة من عند عائشة فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه.

وقد سبق منا عرض قصة الأعرابي مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورؤيته لعمر الشديد يصبر على زوجته لأنها: (غسَّالة لثيابه، وخبازة لخبزه، وطباخة لطعامه، ومرضعة لأولاده).

أسد يخدم الزوجة:

ومن طريف ما يحكى أن بعض الصالحين كان له أخ في الله وكان من الصالحين، يزوره في كل سنة مرة فطرق الباب فقالت امرأته: مَنْ؟

فقال: أخو زوجك في الله جئت لزيارته.

فقالت: راح يحتطب لا رده الله ولا سلمه وفعل به وفعل، وجعلت تذمذم عليه، فبينما هو واقف على الباب وإذا بأخيه قد أقبل من نحو الجبل وقد حمل حزمة الحطب على ظهر أسد وهو يسوقه بين يديه فجاء فسلم على أخيه ورحب به، ودخل المنزل وأدخل الحطب، وقال للأسد: اذهب بارك الله فيك.

ثم أدخل أخاه والمرأة على حالها تذمذم وتأخذ بلسانها وزوجها لا يرد عليها، فأكل مع أخيه شيئًا ثم ودعه وانصرف وهو متعجب من صبر أخيه على تلك المرأة.

---

(١) «عشرة النساء» (٤) للنسائي.

(٢) صحفة: طبق.

قال: فلما كان العام الثاني جاء أخوه لزيارته على عادته فطرق الباب فقالت امرأته: مَنْ بالباب؟

قال: أخو زوجك في الله فلان.

فقالت: أهلاً ومرحبًا، وأهلاً وسهلاً اجلس فإنه سيأتي بخير وعافية إن شاء الله.

قال: فتعجبت من لطف كلامها وأدبها، وجاء أخوه وهو يحمل الحطب على ظهره فتعجب أيضًا من ذلك، فجاء فسلم عليه ودخل الدار وأدخله، وأحضرت المرأة طعامًا لهما، وجعلت تدعو لهما بدعاء لطيف، فلما أراد أن يفارقه قال:

يا أخي أخبرني عما أريد أن أسألك عنه.

قال: وما هو يا أخي؟

قال: عام أول أتيتك فسمعت كلام امرأة بذيئة اللسان قليلة الأدب تذم كثيرًا، ورأيتك قد أتيت من نحو الجبل والحطب على ظهر أسد وهو مسخر بين يديك. ورأيت العام كلام المرأة لطيفًا لا تذمذم، ورأيتك بالحطب على ظهرك فما السبب؟

قال: يا أخي توفيت المرأة الشرسة وكنت صابرًا عليها وعلى خلقها وعلى ما يبدو منها كنت معها في تعب وأنا أحتملها، فكان الله قد سخر لي الأسد الذي رأيت يحمل عني الحطب بصبري عليها واحتمالي لها، فلما توفيت تزوجت هذه المرأة الصالحة وأنا في راحة معها فانقطع عني الأسد فاحتجت أن أحمل الحطب على ظهري لأجل راحتي مع هذه المرأة المباركة الطائعة.

(٥) إحصان فرجها وإعفافها:

ومعناه الإشباع الجنسي للزوجة حتى يعفها ويحفظها من الوقوع في الزنا ويمنعها عن التطلع إلى غيره ليقضي لها وطرها، فعلى الزوج اتخاذ الوسائل اللازمة لمثل هذا العفاف في عصر الذئاب التي تنتظر لتوقع المؤمنات المسلمات في الخطيئة حين سيطر الجنس على العقول والقلوب.

وقد وصى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بإشباع رغبة زوجته التي اشتكت لأبيه عمرو بن العاص من أنه يقوم الليل ويصوم النهار ولا يقرب لها كنيفًا فاشتكى عمرو عبد الله لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لعبد الله: «**يا عبد الله ألم**

أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟».

قال: بلى يا رسول الله.

فقال: **«لا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا»**(١).

وقد كان المفسرون على قدر من الروعة حينما استنبطوا من قول الله تعالى: **﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾** (البقرة: ٢٢٢).

فقالوا: إنه يجب عليه الجماع بحد أدنى مرة في كل طهر وإلا فهو عاصٍ لله تعالى.

ولا يجوز للرجل أن يجهد نفسه في العبادة فلا يستطيع بعد ذلك جماع زوجته وإطفاء نار شهوتها.

وقد كان عمر رضي الله عنه ممن فهموا هذه النقطة، فرغم أن الجهاد هو الفريضة الأساسية في عهده على اعتبار انشغال المسلمين بنشر الإسلام في مختلف البلدان، وكان الجهاد هو الركيزة الأساسية لهذه الدولة الراشدة من جراء الخراج والجزية والغنائم، إلا أن حرص عمر على نقاء المجتمع واعتداله، ونفي الزنا والفاحشة عنه كان الحرص الأكبر، فقد سار عمر رضي الله عنه ليلاً في طرقات المدينة فاستمع إلى من تنشد:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ✿ وطال عليَّ أن لا خليل ألاعبه

والله لولا خشية الله وحده ✿ لحُرك من هذا السرير جوانبه

لكن ربّي والحياء يكفني ✿ وأُكْرم بعلي من أن توطأ مراكبه

فلما سأل عنها عمر عرف أن زوجها غاب للجهاد في سبيل الله، فدخل على حفصة رضي الله عنهما يسألها كم تصبر المرأة على زوجها؟

فقالت: ثلاثة أشهر، أو قالت: أربعة.

فأمر عمر ألاَّ يغيب مجاهد عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

وقال نسابة قريش الزبير بن بكّار: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) متفق عليه: سبق تخريجه.

فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل.

فقال عمر: نعم الزوج زوجك.

فقال كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه.

فقال عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما.

فقال كعب: عليَّ بزوجها، فأُتي به.

فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك.

قال: أفي طعام؟ أم في شراب؟

قال: لا.

فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده ✿ ألهى خليلي عن فراش مسجده
زهده في مضجعي تعبده ✿ فاقض القضا كعب ولا تردده
نهاره وليله ما يرقده ✿ فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

زهَّدني في فراشها وفي الحجل ✿ أني امرؤ أذهلني ما نزل(١)
في سورة النحل وفي السبع الطُّول ✿ وفي كتاب الله تخويف جلل(٢)

فقال كعب:

إن لها عليك حقًا يا رجل ✿ تصيبها في أربع لمن عقل(٣)
فأعطها ذاك ✿ ودع عنك العلل

(١) أي فراش الزوجة. وأذهلني: شغلني.
(٢) السبع الطوال: من البقرة حتى سورة الأعراف، ثم اختلف بعد الأنفال والتوبة بسورة واحدة، وقيل: يونس.
(٣) أي يجامعها كل أربع ليالٍ.

ثم قال: إن الله تعالى أحلَّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك.

فقال عمر: والله ما أدري من أي أمر أعجب؟ أمن فهمك أمرهما؟ أم من حكمك بينهما؟

ثم قال عمر: اذهب فقد وليتك قضاء البصرة.

وقد تحدثنا عن تأديب الزوجة وعن هجر الفراش بعد الضرب ومن قبله الموعظة.

وقيدنا الضرب بالابتعاد عن الوجه، وقد قال ﷺ: **«لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم»**(١).

(٦) صيانتها والاعتدال في غيرته عليها:

ولأن الزوجة قد صارت عرضًا للزوج استحل فرجها بكلمة الله تعالى وعهده فعليه أن يصونها من كل ما يدنس سمعتها ويسيء إلى سيرتها أو يمس شرفها بسوء ويمتهن كرامتها ويجعلها عرضة للقيل والقال ممن هو أقل منها، وعليه ألا يكون قوادًا لها مستحسنًا للسوء عليها، فقد قال ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء»**(٢).

والديوث: ذلك الأحمق الذي يقبل على أهله الفاحشة فلا يغار عليها، وإنما يتركها بلا حجاب عارٍ جسدها عارٍ لحمها عارٍ شعرها كأنما أعدت للتفرج عليها.

وبعضهم يتركها ترقص أمام الناس في مناسبة من المناسبات، وربما صعد ليرقص معها هو الآخر.

وقد تكون مهنة الرقص هي مهنتها وهو الذي يحافظ عليها دائمًا من الملائكة حتى لا تتوب.

وقد يستخدمها لتسهيل أموره في بعض المصالح أو مع بعض أصحابه.

والهلاك كل الهلاك فيمن يجلب أصدقاءه إلى داره للشرب- الخمور والمخدرات-

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٢٠٤) في النكاح.

(٢) صحيح: النسائي (٥/ ٨٠، ٨١) في سننه، أحمد (٢/ ٦٩) في «المسند».

فلا يفاجأ بعد هذا إلا وزوجته قد ارتمت في أحضان عشيق من جلسائه.

وآخر يترك زوجته لصديق ثمنًا للإنفاق على بيته، أو جلب المخدرات.

وآخر يتركها لمن يريد مقابل المال وهو القواد فعله من أفعال الجاهلية.

ولا خير فيمن لا غيرة له، فـ «**إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حُرِّم عليه**»(١).

وفي الحديث: «**ما أحد أغير من الله ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين**»(٢).

ولما قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لـضربته بالسيف غير مصفح، فتعجب الصـحابة فقال ﷺ: «**أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله تعالى حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٣).

ولكن ثق تمامًا أن الغيـرة في موضعها صحة وعـافية، وفي غير موضـعها مرض وبلاء، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إن من الغيـرة مـا يحبـه الله، ومنهـا مـا يكره الله، والغيـرة التي يحبها الله الغيرة في غير الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها الله عز وجل هي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة**»(٤).

فليس من حق الرجل أن يقف فوق رأس زوجـته فيكون لهـا كظلها، وأن يذهب متحسسًا مـتجسسًا عليها، فقد نهاه الله تعـالى من ذي قبل إذ قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا**﴾ (الحجرات: ١٢).

وفي حديث معاوية عن رسول الله ﷺ: «**إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم**»(٥).

وقال علي رضي الله عنه: «لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك».

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٢٢٣) في النكاح، مسلم (٣٦/ ٢٧٦١) في التوبة.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٢٢٠) في النكاح ،مسلم (٣٢/ ٢٦٦٠) في التوبة.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٦٣٤) في التفسير، مسلم (٢٧٦٠/ ٣٤) في التوبة.

(٤) صحيح: أبو داود (٤٨٨٨) في سننه.

(٥) صحيح: أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) في «المسند».

والحق أن الإسراف في الغيرة يؤدي إلى احتراق البيت بنارها الموقدة، وإلى فقدان الثقة المتبادلة بين الرجل وامرأته، وإلى اختناق الزوجة من جراء أفعال زوجها، وبعضهن يعملن على تطويع هذه النقطة لصالحهن بطريقة ملتوية.

وبالله عليك ماذا تقول في هذا الرجل؟

- منع زوجته من الخروج...
- منع زوجته من المكالمات التليفونية...
- منع زوجته من استقبال صديقاتها وقريباتها...
- أغلق نوافذ بيته وأبوابه...

ثم يبدأ في التجسس على أوراقها وخواصها من الأشياء، فما أراه إلا قد ارتكب حماقة تبيح لها طلب الطلاق.

وآخر كلما سمع كلمة هرع إلى زوجته فأحال بيته جحيمًا، وربه حذره فقال: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦).

ثم ما رأيك في هذا الخنزير البري المتخفي في مسلاخ بشري؟

دخل من دخل، وخرج من خرج، ولبست زوجته الحجاب أو خلعته، فلا جناح عليها والأهم نومه وطعامه ولباسه وانتهى الأمر.

والاعتدال في الأمر أن الغيرة شعور طبيعي كالحب والكراهية والجوع، فليرشد بدلاً من الإفراط أو التفريط.

(٧) العدل بين الزوجات:

هذا إن كان متزوجًا بأكثر من واحدة، وقد شاع وارتبط أمر الزواج بأكثر من واحدة أمر آخر وهو ميل الرجل إلى إحداهن ميلاً كاملاً يأباه الشرع، ولذلك كان التحذير مرتين في القرآن:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

وقد سوى النبي ﷺ بين نسائه في كل أموره المادية والحياتية حتى كان قلبه الذي لا يملكه ميالاً إلى عائشة رضي الله عنها فاعتذر إلى ربه: **«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك»**.

وقد جاء في الحديث: **«من كان عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»**. وفي رواية: **«ساقط»**[١].

والعدل هنا معناه:

- التسوية بينهما في المبيت ولا يشترط الجماع، ويعطي لكل واحدة منهن ليلة كل أربع ليال.

- الخروج معهن، فقد كان النبي ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد الخروج إلى الغزوة.

- التسوية في النفقة والكسوة والإطعام والجهاز إلا من احتاجت لزيادة النفقة كالمريضة.

- التسوية بينهما أو بينهن في الرعاية.

- ويجوز أن تهب المرأة يومها لضرتها كما فعلت سودة رضي الله عنها مع عائشة فكان لعائشة يومان يومها ويوم سودة كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (النساء: ١٢٨).

وقد نزلت هذه الآية في سودة لما أراد النبي ﷺ تطليقها فطالبته بالإبقاء عليها ووهبت يومها لعائشة فكان ذلك هو الصلح.

من جملة الحقوق التي يجب على الزوج أداؤها للزوجة:

(٨) تعليمها أمور دينها إن كانت بها جاهلة.

(٩) إعانتها على الطاعة والعبادة.

(١٠) المداعبة والملاعبة والملاطفة.

(١١) حسن الخلق معها.

(١٢) لا يمنعها المسجد إذا أرادت الخروج إليه.

---

(١) صحيح: الترمذي (١١٤١) في النكاح- باب (٤٢).

(١٣) لا يمنعها من زيارة أهلها، ويكرمهم إذا حضروا، ولا يذكرهم إلا بخير.

(١٤) عدم إفشاء سرها.

(١٥) التزين لها كما تتزين له.

(١٦) إقراره بذمتها المالية الخاصة دون التدخل في شئونها إلا بإذنها.

(١٧) مراعاة حالتها النفسية والمزاجية في بعض الأوقات.

(١٨) أن يكون عيبة نصح دائمة لها.

(١٩) أن يشاركها أعمال البيت وتربية الأولاد.

(٢٠) لا يستطيل عليها، ولا يمن عليها بما قد أنعم الله به عليهما من النعم، فإنه لا يعلم رزق من الذي يأكلان منه، رزقه أم رزقها؟

الخلافات الزوجية

أسبابها وطرق معالجتها

وإذا كان الإسلام قد وضع المبادئ والنظم التي تدعم الأسرة وتحفظها من الشوائب التي تسبب لها الضعف والاضطراب، ووضع سياجًا حول الزواج كعلاقة شرعية بين الرجل والمرأة بتوجيهاته الحكيمة لتدوم العشرة والمودة، فإنه- أي الإسلام- لم يفترض أن تسود المثالية في التطبيق فجعل مساحة لوقوع الخطأ في السلوك والتقدير.

فإن من شأن البشر أن يعرض بينهم الخلاف نتيجة تعارض الرغبات والأهواء، أو نفور الطباع، أو التفاوت في المستوى العلمي والثقافي، ومن ثَمَّ نجد الإسلام- وهو دين الواقع- لم يستبعد حدوث خلاف أو تصدع في مجال العلاقة بين الزوجين فاهتم بعلاجه عن طريق دراسة أسبابه ووصف الدواء الناجع في كل حال.

والمنهج الإسلامي لا ينتظر وقوع النشوز بالفعل ليعلن راية العصيان، وتسقط

مهابة القوامة، وتنقسم الأسرة إلى معسكرين، فالعلاج إلى هذا الحد ينتهي؛ لأنه قلما يجدي الحل، فلا بد من المبادرة في علاج مبادئ النشوز قبل استفحاله وقبل ألا يستقيم معه سكن ولا طمأنينة ولا تصلح معه تربية للأبناء ولا إعداد لهم على الإطلاق.

ولكن هل للخلافات الزوجية أسباب؟

أسباب الخلافات الزوجية:

والخلاف في الأسرة يكون بسبب واحد من هذه الأسباب:

(١) من جهة الزوج: الذي قد يتسبب بعصبيته أو غيرته أو إهماله أو تقصيره في شئون بيته بخروج المرأة عن رشدها وهدوئها فتحاول تحريكه نحو الأفضل إلا أنه يستمر على عيوبه، وقد يستطيل عليها بالإيذاء ضربًا وسبًّا، أو يهمل في حقوقها الجنسية أو المادية أو المعنوية، وقد يقصر دخله عن تلبية حاجات زوجته وأبنائه.

(٢) من جهة الزوجة: التي قد يشعر الرجل بفتورها أو انحرافها عن معاملتها له، وهو سبب وجيه لحدوث المشكلات والتشققات؛ نظرًا لأن معظم النساء يجعلن من آذانهن كانونًا على المتحدثين والمتحدثات اللاتي يفشين الأسرار على درج البيت أو بابه أو الموظفات اللاتي يتفاخرن بأنهن رجال البيوت لا أزواجهن، وكثير من هذه الأمراض قد وضحناها سلفًا.

(٣) من جهة الأولاد: لتقصير أحدهما في واجبه نحوهم خاصة الواجبات التربوية والدينية، ولا شك أن اهتمامات الوالدين قد صارت منصبة الآن على الكساء والطعام والشراب دون إخراج الجيل المسلم القادر على مواجهة محن الزمان وتحديات الدهر، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

(٤) من جهة الأقارب: لتدخلهم في ما لا يعنيهم، وويل لمن كانت لها (حماة) لا ترعى فيها ربها أو لا ترقب فيها إلاًّ ولا ذمة، وويل للرجل من أقارب الزوجة إن كانوا على نفس الوتيرة.

(٥) وقد يكون من جهة الجيران والأصدقاء: عن طريق تطبيع العلاقات، وتدخل كلٍّ فيما لا يعنيه، فتلتهب نيران الخلافات ويستعر أوارها ولا ينطفئ لهبها.

طرق حل الخلافات الزوجية:

وقد سلك الإسلام في علاج هذه الخلافات منهجًا فريدًا بأسلوب سهل ميسر، وهو كفيل بإحلال الوفاق محل الخلاف إذا خلصت النية لله سبحانه وتعالى.

فقد يحدث أحيانًا أن يشعر الرجل بفتور المرأة أو انحراف في معاملتها له، وواجب الزوج حينئذٍ أن يبادر فورًا بالبحث عن سر هذا الفتور وأن يتحرى سبب الانحراف في المعاملة، ولا يترك الأمر حتى يستفحل الخلاف ويشتد، بل يصارح الزوجة بما يأخذه عليها فلعلها تبدي سببًا لم يشعر به فيقلع عنه ويعتذر، أو تكون هي قد فهمت بعض الأمور خطأً فتصلح شأنها معه بعد إيضاحها وتعتذر عما بدر منها فيعود الود وتهدأ سحب الخلاف.

وقد رأينا هذا التحري اللطيف لسلوك الزوجة إذا فترت معاملتها وتغيرت لهجتها في حديث رسول الله ﷺ مع زوجه عائشة رضي الله عنها حين قال لها: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية أم كنت عليَّ غاضبة، أما إذا كنت عني راضية تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت عليَّ غاضبة تقولين: لا ورب إبراهيم**». فقالت: أجل والله ما أهجر إلا اسمك.

فليت كل زوج حين تتغير معاملة الزوجة يبحث في هدوء عن سر فتورها وما الذي بدَّل انقيادها إباء؟ وما الذي غيَّر لين قولها غلظة؟ إن وراء ذلك سببًا، فإن كان من قبله فعليه الإنصاف والترضية فلا مكان هنا للكبرياء والاستعلاء، فالعلاقة الزوجية لا تحتمل مثل هذا بل تحتاج إلى الإعفاء والترضي والمحبة وتأليف القلوب ومواساة الجروح.

أما إذا تبين أن النشوز من جانب الزوجة لعلَّة طرأت على سلوكها كأن تريد مثلاً أن تحمله قسرًا على تحقيق رغباتها أو حمله علَى الإنفاق فوق طاقته المالية متطلعة في ذلك إلى ما عند غيرها من قريباتها أو جيرانها أو غير ذلك من الأسباب التي تكون قد طرأت على حياتها... فالأمر إذًا ينذر بالخطر ولا بد من علاج لهذا النشوز قبل أن يستفحل خطره.

ومن أجل ذلك فقد أباح التشريع الإسلامي للمسئول عن الأسرة أن يتخذ بعض الإجراءات المتدرجة والتي تحتوي على نوع من التأديب للمرأة لا للانتقام والإهانة ولكن للإصلاح ورأب الصدع في هذه المرحلة المبكرة من النشوز إنقاذًا للأسرة من الفساد والدمار. وقد تناولناها وهي:

١- الموعظة.

٢- الهجر في المضجع.

٣- الضرب.

وإنما كان ذلك لكي تخضع النفوس، وتستجيب العقول، وتتبخر مشاعر البغي والانتقام.

وهكذا! فإن الإسلام لا يدعو إلى الاستسلام لبوادر النشوز ولا المسارعة إلى الطلاق وفصم عقدة النكاح وتحطيم الأسرة على رءوس أعضائها، فالأسرة عزيزة في الإسلام بقدر خطورتها في بناء المجتمع.

وأما إذا كان النشوز من جانب الزوج كأن يحدث اعوجاج في سلوكه أو ملل أو كراهية في معاملته فينبغي على الزوجة أن تتحرى مرضاته وأن تبحث عن مدخل إلى نفسه ولو أدى الأمر إلى التنازل عن بعض الحقوق التي منحها الله تبارك وتعالى لها إن رأت أن ذلك خيرٌ لها من طلاقها. وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (النساء: ١٢٨).

والزوج العاقل الكريم هو الذي يقدر لزوجته أنها حاولت تقريب المسافات بينه وبينها وسعت إلى الإصلاح ودبرت الحيلة لاسترجاع وده وكسب عاطفته.

أما إذا تبادل الزوجان الكيد واستحكم بينهما الخلاف ولم ينزل أحدهما للآخر عن شيء ولم يخط أحدهما خطوة للقرب والوئام فتلك حالة خطيرة تهدد حياة الزوجين والأسرة بالكامل وتتطلب أن تأتيهما المعونة من الغير: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥).

فإذا لم يفلح الحكمان في استرجاع الود ومحو الشقاق ورأيا من العوائق ما يحول

دون استمـرار الحياة الزوجية علـى وجه صالح فإن لهمـا أن يطلبا من الزوج تطليق الزوجة إذا كان النشوز من جانبه.

أما إذا كان الزوج هو المتضرر من كيد زوجته ونشوزها وهو آسف ما بذل لها من صداق نادم على مـا قام من سعي فـإن للحكمين أن يطلبا من الزوجـة أن ترد عليه صداقه مـقابل أن يطلقها وهو مـا يعرف في الإسلام بالخلع؛ لأنه لما فـات الإمساك تعين التسريح بإحسان!!

ألا وهو الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله.

[٤] حقوق المرأة في الإسلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليتيمِ والمرأةِ**»(١).

✿ ✿ ✿

وسنقتصر في شـرح هذه الوصية على الجزء الأول منها على أن نشرح بقـيتها في صفحات تالية إن شاء الله تعالى.

* **تمهيد:**

يتخذ أعداء الإســلام من قضية (حقوق المرأة) نقطة هامة للانطلاق نحـو مهاجمة الإسلام ووصـفه بالرجعـية والتخلف، فـيتهم الإسلام بـأنه دين الرجال، وأنه نظام أبوي ذكوري لا يعـترف بحق المرأة فـيصح وصـفه بالانعـزالية والتـقوقع والسلفـية الماضوية والاعتماد على الأفكار الغيـبية التواكلية التي تزج بالإنسان إلى وهم الماضي والعمل بالعـادات التي تضطهد المرأة ولا تعترف بحـقوقها، وهكذا يصـبح الإسلام مشوهًا عاجزًا عن مواكبة العصر وأفكاره الحديثة.

وقد ساهم في نشر هذه الأفكار عدة أفكار خاطئة تسود بعض المجتمعات التي لا تعترف بالمرأة ككائن له الحق في ممارسة حياته حسبما قدرها الله تعالى له متناسين أن الإسلام قد أعاد للمرأة كرامتها المسلوبة على مدى العصور المتعاقبة، كما ساعد على انتشار فكرة (اضطهـاد المرأة) تلك الحالة الدفاعية التـي ارتضاها بعض الذين تصدوا للرد على هذه الاتهامـات، فصاروا في دائرة ضيـقة منتظرين الجديد من الاتهـامات دون تقديم وعرض الصورة الحقيقية للمرأة في الإسلام.

والعجيب أن الذين هاجـموا أوضاع المرأة في الإسلام تناسوا عامـدين أن احتقار

---

(١) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألباني (٢٤٤٧) في «صحيح الجامع».

المرأة واضطهادها فكرة غير إسلامية، بل هي فكرة غربية صرف.

فالغرب الذي يزعم حماية المرأة ينظر إليها من جانبين:

الأول: أنها ذلك الشيطان الذي أوقع آدم في الخطيئة فكانت السر في خروج البشر من الفردوس فهي سبب الغواية وأساسها في الكون.

والثاني: المرأة الأنثى، أو المرأة الرغبة، أو المرأة الجسد، وهو ما يتوافق مع نظرة المجتمعات الغربية للقيم، ومع النزعة الاستهلاكية التي تستهلك كل شيء ولو كان جسد المرأة. والدليل على ذلك أن أكثر شركات الغرب رواجًا ونجاحًا هي شركات الإنتاج السينيمائي، وشركات الأزياء، وبيوت التجميل والعطور، والموسيقى، فهي حرية مشروطة بتلبية الرغبات الجامحة لجموع شواذ الفكر والشهوة.

فالأمر ليس مطالبة بحرية المرأة إذًا وإنما وراء الأكمة ما ورائها، وإلا لماذا تستخدم المرأة جسدًا وأنوثة في كل أنواع الإعلانات الغربية ولو كانت أمواس حلاقة للرجال؟!!

ومهما كان الجمهور الذي تتوجه إليه فالمرأة الحرة إذًا بمفهوم غير المسلمين من الغربيين: السلعة التي تزين وتعرض على وزن (وزيناها للناظرين).

لقد جاء الإسلام والعالم كله يحتقر المرأة ويجعلها كائنًا من الدرجة السفلى والدنيا، فهي الشيطان، والخطيئة، والغواية عند اليهود والنصارى!!

أما في شريعة الهند فهي الخادمة الجارية تلقي بنفسها في أتون النار بعد موت زوجها وحرقه.

ويطرد اليهودي زوجته إذا حاضت ولا يجامعها بحجة أنها نجس.

أما في بلاد الإغريق والتي راح فلاسفتها يؤرخون ويفكرون، فإنهم جعلوا المرأة سلعة تباع وتشترى كحلٍ لمشكلة الإفلاس المادي التي عاشها أفلاطون وأرسطو الفقيران عقلاً ومالاً!!

وأما في بلاد فارس حيث كانت نار المجوس تشتعل ألهبت نار فكرهم المرأة فأباحوا للرجل التزوج بمحارمه حتى أن يزدجرد الثاني الذي حكم بلاد فارس في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بابنته.

ويلمح الشهرستاني في «الملل والنحل» أن أصحاب الديانة (المزدكية) كانوا يشتركون في المرأة الواحدة اشتراكهم في الماء والهواء(١).

أما في بلاد الجزيرة العربية فلم يكن الوضع أفضل حالاً من هنا وهناك، فالمرأة توأد وهي وليدة لئلا تجلب العار، وتزوج بغير رغبتها ليتخلص الأب من مسئوليته وقلقه عليها، ثم تورث كبقية المتاع حتى لو كانت زوجة أب، ولا ميراث لها.

فقد تفرقت الأمم واختلفت أفكارها ولغاتها، ولكنها اجتمعت على مبدأ واحد ألا وهو ازدراء المرأة واحتقارها، وجعلها جنسًا ثانيًا للمتعة فقط، فلا حقوق من قريب أو من بعيد بل هي أصل الشرور في العالم.

وجاء الإسلام ليبدل هذه النظرة ويقر للمرأة حقوقًا كاملة يتهم من ضيعها وسلبها بأنه العاصي لله تعالى، المخالف لشريعته، الظالم لغيره ولنفسه، المستطيل على الضعفاء، وفوق هذا وذاك فقد باء بغضب من الله تعالى.

*** الإسلام والمرأة: الكرامة والبراءة:**

وأول ما فعله الإسلام أن أقر إنسانية المرأة قبل أي شيء آخر، وجعلها العضو الأساسي الثاني في المجتمع، فهي إنسان قبل أن تكون أنثى تتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات والاعتبار الإنساني فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

فالمرأة والرجل متساويان في الاعتبار الإنساني، وكلاهما ابن آدم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فإذا كان الكل من نفس واحدة فالمكرمة الممنوحة هنا على حد السواء بين الرجل والمرأة.

ومما يدعو إلى الفخر بشريعة الإسلام أن الله تعالى سوَّى بين الرجل والمرأة في العمل الصالح، ولم يفضل أحدهما على الآخر إن صحت النية فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

---

(١) «الملل والنحل» (٢/ ٨٦، ٨٧) للشهرستاني.

وفي سورة الأحزاب يُعلي الحق تعالى من شأن المرأة إن صلحت فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٣٥).

بل يقر القرآن صراحةً أن بعض النساء سبقن الرجال كما ذكر عن مريم عليها السلام فقال: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (المائدة: ٧٥).

فكان الفخر لها أنها تحملت اتهامات بالغة في الخطورة، وكانت وعاءً لكلمة من الله وروح منه، ومن قبلها امرأة فرعون التي صارت مضرب المثل في الصبر على ظلم الزوج، ومن قبلهما أم موسى عليه السلام أوحى الله إليها وألقى في روعها كلمات فائتمرت بأمر الله وألقت بوليدها في اليم. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي﴾ (القصص: ٧).

ويتجشم جبريل عليه السلام عناء النزول من فوق سبع سموات بأمر الله تعالى وهو القائل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم: ٦٤). ينزل من السماء لا لشيء إلا ليخبر النبي ﷺ قائلاً: «**بَشِّر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب**»(١).

ثم يلقي النبي ﷺ بكلمته الأخيرة في هذا المضمار حين قال: «**نعم، إن النساء شقائق الرجال**»(٢). هذا بالطبع مع مراعاة الاختلاف في التكوين والخلقة.

وهكذا تصبح المرأة أحد العمودين الأساسيين للبشر بعد أن كانت لا شيء في دنيا وعالم ما قبل الإسلام، بل وأقر الإسلام ببراءة المرأة من تهمة الغواية وإخراج بني البشر من الجنة فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٦). فوقعت الزلة من الاثنين معًا، والله أعلم.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

---

(١) صحيح: البخاري (٣٨١٩) في مناقب الأنصار، مسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣) في فضائل الصحابة. والقصب: اللؤلؤ المجوف.

(٢) صحيح: الترمذي (١١٣) في الطهارة، وصححه الألباني (٢٣٤) في «صحيح أبي داود».

فهي حقـوق تؤدى إليها بالمعروف دون منازعة بل بـطيب نفس ورضا ورجاء من الله تعالى أن يتقبل.

ومن هذه الحقوق التي فرضها الله تعالى للمرأة:

(١) **عدم وأدها أو قتلها مخافة العار**: وسبق الحديث في هذه النقطة عند حق الأبناء على الآباء في مرحلة الولادة. ثم الإنفـاق عليها ورعايتهـا وكفالتها وتأديبـها، فإذا فعل الإنسان ذلك كان سببًا في دخـوله الجنة. ففي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «مَن ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له ستراً من النار»[١].

ومن حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «مَنْ عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو- وضم أصابعه ﷺ»[٢]. وعالهمـا: أي قام عليهما بـالمؤنة والتربية ونحوهما.

وبالجملة لها نفس الحـقوق الواجبة للولد بلا فرقة بينهـما بل العدل في كل شيء حتى في الابتسامة.

(٢) **حق الميراث**: فقد أعطى الإسلام للمرأة حق الميراث، وقد كانت هي من ذي قبل (إرثًا) و (متاعًا) فقال الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

وحـذر سبـحانه من السطو علـى هذا الميراث والتـصرف فـيه دون الرجـوع إلى صاحبته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ١٩).

وللمرأة في الميراث أحوال عدة:

* فقد يعلوها الرجل بنصيبه كما إذا اجتمع ابن وابنة فللذكر مثل حظ الأنثيين.

* وقد يتساويا أحـيانًا، وهذه تقدر بعشرين حالة، ومنـها قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ (النساء: ١٢).

---

(١) صحيح: البخاري (١٤١٨)، مسلم (٢٦٢٩/ ١٤٧) في البر والصلة.

(٢) صحيح: مسلم (٢٦٣١/ ١٤٩) في البر والصلة.

* وقد تأخذ هي أكثر من الرجل إذا كان للميت الموروث بنت وأكثر من شقيق فلها النصف ويقسم الباقي على إخوته فيصبح نصيب البنت أكثر من الرجل. أو كان هناك بنتان فهما شريكتان في الثلثان، والثلث الباقي يوزع على الأشقاء.

* وفي بعض الحالات ترث المرأة ولا يرث الرجل، حتى أن الأقباط في مصر يلجأون إلى المحاكم الشرعية للفصل في قضايا المواريث الخاصة بهم، وحتى أن القوانين الأوربية أخذت الجزء الخاص بالمواريث داخل التشريع الإسلامي وأقرته ولا زالت تحكم به إلى الآن.

* ويبقى أن الرجل يزيد في أكثر الأحوال ميراثًا عن المرأة وهذا لأنه أكثر أعباءً وأولادًا ومسئولية، وعلى عاتقه تقع مسئولية النفقة بحكم القوامة، والعادة.

أما الحالات التي يسطو فيها الإخوة الذكور على حق الأخوات، والأعمام على حق البنات، والأزواج على ميراث الزوجات فهي حالات فردية تعتمد على العادات والتقاليد البالية التي لا يعترف بها الإسلام.

وإنما أقر الإسلام ذمة مالية خاصة للمرأة (زوجة- أختًا- أمًّا) تعطي من تشاء وتمنع من تشاء في حدود ما شرع الله تعالى بلا إسراف أو تقتير، والإلزام بالتدخل إذا خالفت المرأة القواعد الواجب اتباعها في الإنفاق كطغيانها في الإنفاق على زينتها، وتضييع أموالها هباءً، وهذا حق الدين والمجتمع عليها.

(٣) حق تربية الأبناء:

فمن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**»(١).

فعلى عاتق المرأة تقع مسئولية تربية الأبناء، وهي- أي الأم- مدرسة لتنشئة الرجال ومصنع لتخريج وصناعة الأمة الصالحة.

(٤) حق الخروج للعبادة:

فقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**إذا استأذنت أحدكم**

---

(١) صحيح: قطعة من حديث رواه البخاري (٨٩٣) في الجمعة، مسلم (١٨٢٩/ ٢٠) في الإمارة.

امرأته إلى المسجد فلا يمنعها»[١].

وفي رواية لمسلم أنه ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

والعجيب أن منع النساء من الدخول إلى المساجد فعلٌ يهودي صرف كما أخبر النبي ﷺ[٢].

واستئذان المرأة من زوجها للخروج لا يعني تسلطه، وإنما رجلٌ ينفق ويكد ويتعب ويغار على زوجته فمن حقه أن يعلم أين هي؟ ولا يسلب حقوقه البديهية بحجة حرية المرأة.

ولو أن موظفة أجنبية غربية خرجت من عملها بلا إذن لكان سببًا في فصلها من العمل واتهامها بالإهمال، وهو حق والله سلبوه من الزوج وأعطوه لمدير العمل. فأي فخر؟ وأي حرية؟

إلا أن خروج المرأة للمسجد مشروط بعدم تطيبها؛ لئلا تشغل المسلمين عن عبادتهم بطيبها أو زينتها كما ورد ذلك في أحاديث عدة.

إلا أن مما ننبه إليه أن بعضهن يتخذن المسجد ذريعة للخروج، ودروس العلم حجة للتملص من أعمال البيت. وهنا نقول: إن الخطأ بشري وليس إلهيًّا، فليراجع امرؤ نفسه بدلاً من اتهام شرع الله تعالى.

(٥) حق الاحتفاظ بشخصيتها:

وقد نسي دعاة الحرية وحقوق المرأة أن الغربيين يسقطون اسم عائلة المرأة لتصبح من عائلة الزوج، أما الإسلام فقد جعل للرجل حق القوامة، والجماع، والطاعة دون محو لهوية المرأة الأصلية، ولو كانت على دين قومها وتزوجها مسلم كأن تكون كتابية وهو مسلم فلا يمحو اسم أبيها بل يظل كما هو.

(٦) للمرأة الحق في طلب العلم:

بل هو فريضة عليها، ولقد امتدحت عائشة رضي الله عنها النساء من الأنصار

---

(١) صحيح: البخاري (٨١٤)، مسلم (٤٤١/ ١٣٣).

(٢) صحيح: البخاري (٨٦٩)، مسلم (١٤٤/ ٤٤٥).

حين قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[(١)].

وهي- أي عائشة رضي الله عنها- التي قال عنها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها علمًا»[(٢)].

وقال مسروق: «لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها- أي عائشة رضي الله عنها- عن الفرائض»[(٣)]، وهي التي روت عنه ﷺ عشرة ومائتان وألفان من الحديث، وكذلك فلتكن النساء.

(٧) عدم إجبارها على الزواج:

ولقد منح الإسلام هذا الحق للمرأة بكرًا كانت أم ثيبًا، كما جاء في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «**لا تنكح الأيم حتى تُسْتأمر، ولا البكر حتى تستأذن**». قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: «**أن تصمت**»[(٤)].

(والأيم أو الثيب): هي التى سبق لها الزواج، وهذه لا بد من موافقتها صراحةً بالتحقق وبالتأكد.

والبكر: هي التي لم يسبق لها التزوج والاقتران بزوج آخر، يكتفى بصمتها لكثرة حيائها، وموافقتها حق أصيل لها يعبر عن حفظ الإسلام كرامتها وتطييبًا لنفسها.

وسيظل التاريخ يذكر أن النبي ﷺ فرّق بين خنساء بنت خدام الأنصارية وزوجها لأن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك[(٥)].

ومن حديث أبي داود أن امرأة من الأنصار أجبرها أبوها على الزواج من ابن عمها ليرفع خسيسته وكان وضيعًا في قومه، فلجأت الابنة إلى رسول الله ﷺ فخيرها بين إمضاء الزواج أو رفضه فقالت: قبلت ولكني أردت أن أُعْلم النساء أن

(١) صحيح: البخاري (١/ ٤٤).

(٢) خبر صحيح: الترمذي (٣٨٨٢) في المناقب، وقال: حسن صحيح.

(٣) صحيح: الدارمي (٢/ ٣٤٢، ٣٤٣) في سننه، وصححه الحاكم (٤/ ١١) في المستدرك.

(٤) صحيح: البخاري (٥١٣٦) في النكاح، مسلم (١٤١٩/ ٦٤) في النكاح.

(٥) صحيح: البخاري (٥١٣٨) في النكاح.

ليس للآباء من الأمر شيء.

وحتى لا يستطيل الولي على الزوجة فقد حدد الإسلام عدة شروط لا بد من توافرها في الولي ذكرها الشافعي رحمه الله وهي:

(١) ألا يكون بينها وبينه عداوة ظاهرة.

(٢) أن يزوجها من كفء.

(٣) أن يزوجها بمهر مثلها.

(٤) أن يكون مهرها من نقد البلد.

(٥) ألا يزوجها معسرًا.

(٦) ألا يزوجها ممن تتضرر بمعيشته كالأعمى، والشيخ الهرم (العجوز)، أو العنين وهو العاجز عن أداء واجبه الجنسي(١).

فإذا فعل غير ذلك- أي طغى الولي- انتقلت الولاية لمن بعده من العصوبة، فإن لم تجد المرأة وليًّا فالسلطان ولي من لا ولي له.

غير أننا نلمح إلى أنه لا يجوز أن تتولى المرأة أمر نفسها أبدًا في الزواج، وفي الحديث الصحيح: «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل، وأيما امرأة تزوجت بغير ولي فنكاحها باطل**»(٢). أخرجه الترمذي من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ومن رواية عائشة رضي الله عنها: «**أيما امرأة نكحت بغير ولي فنكاحها باطل (ثلاثًا) فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له**»(٣).

وفي حديث أبي هريرة موقوفًا: «**فإن الزانية هي التي تزوج نفسها**»(٤).

وحتى من قال من الأحناف بجواز تولي المرأة عقد النكاح عاد عن قوله كأبي يوسف، ومحمد بن الحسن الذي قال: «ينعقد الزواج أي يصح العقد ولكن على

---

(١) الخطيب الشربيني (٣/ ١٤٩) في «مغني المحتاج».

(٢ ، ٣) صحيح: الترمذي، وصححه الألباني(١٨٤٠) في «صحيح الجامع».

(٤) البيهقي (٧/ ١١٠) في «السنن الكبرى».

شرط إجازة الولي»!! وهو قول يناقض نفسه به، وحتى من أجاز قال: «لا تلي المرأة العقد من باب الاحتشام وحفظ الحياء»[1].

وبالله هل زوجت واحدة من بنات رجال المذهب الحنفي نفسها بنفسها؟ بالطبع لا.

ولو رأى الأحناف مآسي الزواج العرفي والوهبي وغيرهما لعادوا عن آرائهم تمامًا.

إن الإسلام قدَّر طبيعة المرأة التي خلقت سريعة الاغترار سيئة الاختيار لاسيما عند التوقان[2].

إن كثيراً من النساء يعضضن بنان الندم بعد الزواج لأنهن ظنوا أن الحب سيهيئ لهن الحياة الكريمة، ولكن صدمن بأن الحب كموج البحر متقلب يومًا تراه هادئًا كأنه شيخ وقور بطيء الحركة، وآخر يزحف كالطفل، وثالث هائج ثائر لا يعرف السكون والسكوت.

من أجل ذلك لم يبن الإسلام الزواج على الحب وإنما أراد أساسًا آخر يتسم بالثبات والاستقرار وهو الأخلاق، وهكذا يصبح الأساس ثابتًا حين نقر قاعدة: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**».

وللمرأة أن ترى الزوج فربما أعجبها وربما لا، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «إن النساء شقائق الرجال فكما أن الرجل تعجبه المرأة كذلك الرجل يعجب المرأة».

(٨) أعطى الإسلام للمرأة ما لم يعط للرجل:

* فهي تلبس الحرير والذهب الذي حرم على الرجال.

* وأعطاها حق الشهادة، ففي أمور النساء يؤخذ بشهادة المرأة ولا يؤخذ بشهادة الرجل.

* أما شبهة الرجل والمرأتين التي أثارها أعداء الإسلام طعنًا في قول الله تعالى: ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ**

---

(١) «أصول السرخسي» (٢/ ٣-٥).

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٢٥٦) للكمال بن الهمام.

الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

إن طبيعة المرأة تجبرها أن تكون عصبية وغير صافية ذهنيًا وغير مستقرة في بعض أيام الشهر ولذلك يتطلب الأمر اثنتين لا واحدة.

ثم أليس في حد القذف نحتاج إلى أربعة شهداء من الرجال، فلماذا لم تقم قائمة الرجال وتثور ثائرتهم؟! إنه الطعن في القرآن والإسلام لا أكثر.

إن من طعن في هذا إنما يطعن في قدر المرأة وينازع الله تعالى في خلقه، وجلَّ الله وعلا علوًّا كبيرًا.

(٩) حقوق الطلاق:

وحينما تغرب شمس الزواج وتستحيل الحياة بين الزوجين لا يترك الإسلام المرأة هكذا نهبة لأمواج الحياة تتقاذفها ثم تلقيها كيف تشاء، بل الله أكرم من أن يضيع من آمن به والتزم بشرعه.

* فضمن لها إن كانت حاملاً أو مرضعًا حق النفقة والعلاج فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ (الطلاق: ٦).

* وحذر الرجال من إمساك النساء ضرارًا فلا يطلقها ولا يعاشرها فقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقال سبحانه: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

* بل العجب أنه ضمن سبحانه أن يغني المرأة ولا يضيعها إذا فارقت زوجها؛ لأن الزوج أكَّال والله رزاق ومن يتوكل على الله فهو حسبه، فقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٣٠).

(١٠) وضمن الإسلام للزوجة على زوجها حقوقًا وقد سبق الحديث عنها في باب سابق.

(١١) وجعل الإسلام الوصية بالأم ثلاثًا وبالأب واحدة، وأفاض القرآن في ذكر فضل الأم ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ

﴿لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤).

(١٢) وفي بعض الحالات ضمن الإسلام للمرأة حقوقًا عدة:

* فمن غاب عنها زوجها أكثر من سنوات ثلاث اعتبر مفقودًا وحق لها الطلاق إن أرادته، والحال ينطبق على الأسير.

* وجعل لها نفقة المتعة في أحوال أخرى كعقاب لرجل استحل الفرج بكلمة الله تعالى ثم كره المرأة.

* كما ضمن لها حق الرجعة إلى زوجها إن أرادت، وجعل لها العدة عند الطلاق، وجعل عدة الحامل وضع الحمل، وجعل الطلاق ثلاثًا، ولم يقض الإسلام على امرأة بالرهبنة وترك ما أحله لها من الطيبات.

* وجعل لها الحق في الخُلع، وأعطاها الحق في الرد على زوجها في اللعان، وعنّف الرجال وقضى عليهم بكفارات بالغة في الصعوبة في حالات الظهار، وهذا ما لا يمكن وجوده إلا في الإسلام؛ لأنه شريعة الله تعالى الذي أنزل الميزان والحق والعدل وهو سبحانه العدل والحق.

بل وكفل لها حق الجهاد إن أرادت كما فعلت أم سليط، وأم سليم، وأم شريك الدوسية، وأم عمارة وخولة بنت الأزور وغيرهن من نساء المؤمنين.

*** شبهتان والرد عليهما:**

(١) الحجاب:

وهي فضيلة لطالما اتهمنا الغربيون بها، فجعلوا الحق باطلاً، وزينوا بوسوستهم للغاويات طريق الشر، فاتهموا المسلمون بالتخلف والرجعية، وجعلوا الحجاب ساترًا للجمال، مانعًا من الانطلاق، رمزًا للاضطهاد والطغيان، فبينما الرجل يحق له الخروج حاسر الشعر كاشفًا وجهه وقدمه، يحرم ذلك على المرأة.

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ❁ أتاح لها لسان حسود

إن هذه الاتهامات تتفق ونظرة الغرب إلى المرأة الشهوة، الأنثى، الجسد، السلعة التي تُدر على من يديرها باقتدار أموالاً لا عد لها ولا حصر، أما الإسلام فهو دين

العفة أراد المرأة رمزاً للفضيلة لا الرذيلة، حتى لا تصبح سلعة تدار، ثم تفقد رونقها وجمالها فتلقى بعد ذلك كأي آلة انقضى عمرها الافتراضي.

ولكن لماذا فرض الإسلام الحجاب؟

* لأنه فرض الله تعالى على عباده، وهو أعلم بما يصلح لعباده، وقد علم سبحانه أن المرأة كبقية الخلق من بني آدم تمتلك الرغبة في المعصية والانحراف، وتأخذها أشواقها الروحية إلى التقوى والاستقامة، ولابد من طغيان أحد الجانبين على الآخر، فغلب الله التقوى على المعصية، والاستقامة على الانحراف.

* ثم يعلم الله تعالى أن المرأة دائمًا هي موضوع الإثارة والجنس، فعمد إلى القضاء على كل وسوسة من هذا القبيل بسرعة عن طريق الحجاب قبل أن ينحرف الزوجان: الذكر والأنثى فيقعان في هوة الزنا السحيقة.

* ولأن من طبيعة المرأة ومنذ صغرها حب الزينة ولفت الأنظار، فنظم الإسلام هذه الرغبة في إطار شرعي يسمح لها بإظهار مفاتنها لمن يتزوجها، فنظم ما يظهر وما لا يظهر، ولمن يظهر؟ وفي أي وقت يظهر؟ فسمح لها بالوجه ليتعرف عليها مريد الزواج، والكفين لئلا يعيقها ذلك عن ممارسة حياتها الطبيعية، وبهذا نكون قد قضينا على كل وسائل التحريض الجنسي، والإثارة الشهوانية، فيصبح الحجاب في صالح المرأة، وبالله عليكم هل سمعتم عن محجبة اغتصبها أحد؟!

إن أممًا غيرنا ترتدي الحجاب، كأمة الهند التي تلبس المرأة فيها (الصاري) والراهبات عند النصارى يرتدين الحجاب بشكله الإسلامي، والبابا كأكبر سلطة دينية مسيحية - لا يقبل لقاء مسئول وزوجته إلا إذا غطت رأسها، وحتى الإنجيل يعترف بالحجاب كما في الإصحاح الحادي عشر من رسالة بولس إلى أهل كورنتس، فلماذا مهاجمة الحجاب الإسلامي؟!

ومن قال: إن الحجاب يمنع عمل المرأة وتقدمها؟ فإن الفلاحة المصرية تعمل أكثر من الرجل ولا زالت ترتدي ثلاثة أو أربعة جلاليب تجر ذيلها وراءها أشباراً إلى الأرض، ولم يعقها ذلك عن العمل اليدوي فلماذا تخلع الطبيبة والمهندسة الحجاب لتتقدم؟ إنهم يريدون منّا التقدم مع العري، فكلما تقدمنا خطوة تعرى جزء من

الجسد!! ولو كان للحمير حجابًا للبسوه ففضحونا عند الله تعالى.

لقد كتبت إحدى الكاتبات الأمريكية تقول: (امنعوا الاختلاط وقيدوا حرية المرأة) والحق ما شهد به الأعداء، وإن الإسلام حريص على طهارة أتباعه، والحجاب أول دليل على تغلغل الإيمان في قلب المرأة، وقر في قلبها، فصدقه العمل فهو تلك الإشارة البيضاء المثيرة في الليل البهيم يميز المؤمنة عن غيرها، ويجعل من المرأة إنسانًا متوازنًا لا يطغى جانب فيها على آخر، بل هو العدل الذي قامت عليه السموات والأرض.

(٢) تعدد الزوجات:

وهي فضيلة أخرى يهاجم الإسلام من خلالها، والسؤال: هل التعدد شريعة إسلامية فقط؟

بالطبع لا، فإن المسيحية ومن قبلها اليهودية كانتا تجوزان الزواج بأكثر من واحدة، والمسيح نفسه لم يتزوج ولو صدق مهاجمو الإسلام من النصارى أنهم يتبعون المسيح لما تزوجوا، وإنما الذي حرم تعدد الزوجات هم البابوات بعد ثمانمائة عام من ميلاد المسيح عليه السلام.

ولكن هل للتعدد في الإسلام أسبابه؟ نعم منها:

* أن الرجل أكثر عرضة من المرأة للاحتكاك بنساء أخريات، كما أثبتت الدراسات أن الرجال أكثر خيانة من المرأة، فأراد الله تعالى القضاء على أي انحراف مبكر بالزواج من ثانية.

* ثم إن المسئولية غريزة في الرجل يتطلع إليها دائمًا ومن أشكال المسئولية: الزواج.

* والحروب يخوضها الرجال أكثر من النساء، فيكثر عددهن، ويقل عدد الرجال.

* أن يكون هناك عيب في المرأة يمنعها من الجماع، أو الولادة والحمل.

فماذا نفعل؟ هل نترك الرجل يزني ويتخذ صديقة؟ فتسوء سمعته، وسمعة هذه المرأة الرفيقة. أم نتركه ينجب من الزنى لتختلط الأنساب؟ أم نترك النساء ليزيد عدد

العانسات؟ فلا يجدن إلا الانحراف؟

إن الغرب فعل هذا تحديداً فصار للزوج زوجة وصديقة، وللزوجة زوج وصديق، فانتشر الزنا ومعه بقية المنكرات، والحال أظهر من أن يكتب عنه.

فهل أترك حلالاً طيبًا أحله الله لي أثاب عليه؟ أم أذهب إلى خبيث فأرتكبه وأدخل به النار؟

والسؤال الذي يغيظني حقًّا: لماذا يصر الغرب على فرض أسلوبه علينا في الوقت الذي يتخذ فيه الحرية كذريعة لسلب ونهب الثروات، وتدمير البناء؟!

وأقول للنساء:

لا تفسرن الزواج بامرأة ثانية على أنه عيب في الزوجة الأولى، ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩)، إن الذين منعوا الزواج بالثانية يقاسون الأمرين: أبناء الزنا، وانحراف المجتمع.

فماذا نفعل: نعطل شرع الله أم نعترف بالزنا؟ أرجو الإفادة من النساء المسلمات.

ولو كان للمرأة حق الزواج بألف لاستوفت حقها كاملاً، وهذا عهدنا بك يا أمة الله!!

ولكن اطمئني فإن الرجال - كثير منهم - لا يملك الشجاعة لاتخاذ قرار تعدد الزوجات!!

وفي النهاية:

أقول لكل امرأة مسلمة: اعلمي أن الله تعالى لم ولن يظلمك، وهو سبحانه الذي حرّم الظلم على نفسه، وإن ظُلمت من البشر فهو عيب فيهم لا في شرع الله، فبعضهم يرى متعته في الابتعاد عن شرع الله، وأكل حقوق الغير، فاصبري علّك أن ترافقي مريم ابنة عمران، وآسيا بنت مزاحم، وخديجة وأمهات المؤمنين في الجنة. ولك في هاتيك النساء قدوة وأسوة.

✿ ✿ ✿

[٥] الوصية باليتيم(*)

وقد سبق في حديث البـاب روينا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال عن رسول الله ﷺ: «**إني أُحـرج عليكـم حق الضعـيفين: اليـتـيم والمرأة**». حديث حسن.

❁ ❁ ❁

*** اليتيم، والمجتمع، والإسلام:**

يأتي الطفل كثمرة طبيعية للقاء بين الرجل وامـرأته، فيدخل إلى الحياة يعيش فيها بين أبوين، فيـتقلب في نعيم أبيـه، وبين أحضان أمـه، فهو كـالطائر جناحاه الأب والأم، يحلق بهما في سماء الحياة.

إلا أن بعضهم قد حُرم هذه النعمـة، فكثير من الأطفال يرحل أبوه عن الدنيا قبل ولادته، أو بعد ولادته ونشـأته بوقت قصير، وهـذا هو اليتيم: وهو من فقـد عائله الذي يقوم على تربيـته ورعايته، وهذا العائل في مـعظم الأحوال هو الأب، ولذلك اعتبر الفقهاء اليـتيم هو فاقد الأب لا فاقد الأم؛ لأن الأب ينفق، ويؤدب، ويرحم، ويعطف، أما الأم فإنها تعطف وتربي دون النفـقة في معظم الأحوال، ومن هنا تبدأ رحلة البحث عن عائلٍ جديد، وكافل آخر لليتيم بعد أن فقد كافله وعائله.

أما حـياة اليـتيم الاجتـماعيـة، فإنهـا حياة يغلـب عليها طابع الميـل إلى العزلة والوحدة، رغم شعوره بالحاجة الماسة إلى العطف عليـه لتعويضه ما افتقده من حنان والده وعطفه.

وكثيراً ما يشعر اليتامى بالانكسار، والضيق النفسي حين يرون غيرهم من الصغار

(*) اعتمدت كثيراً هنا على كتاب: «منهج الإسلام في تربية الشباب»، «سلسلة قضايا إسلامية» - العدد (٢٦) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- للمستشار/ حسن حسن منصور.

ينعمون بأب وأم بينما هم قد فقدوا هذه النعمة، ولأنهم صغار لا يدري أحدهم أن ما خبأه الله له من خير أبقى وأفضل مما أعطاه لغيرهم.

ويبقى أن اليتيم يعتمد في معيشته على غيره، وخاصة قبل أن يبلغ أشده فتدفع إليه أمواله؛ ليتصرف فيها كما يشاء.

واليتامى بهذا يمثلون قطاعًا لا يستهان به من المجتمع، وقد فرضت عليهم الأقدار هذه الظروف فكان لزامًا على الجميع أن يمد يد العون إليهم، ولذلك فإن كفالة اليتيم قبل أن تكون عملاً يثاب عليه المرء فإنها واجب تفرض العلاقات الإنسانية الراقية الرفيعة التي تأبى وجود طفل صغير غير قادر على إدارة شئونه أو غير قادرٍ على العمل وكسب قوته، فيبقى نهبة للجوع والانحراف والسرقة وأكل ماله، ولذا كان العرب - في الجاهلية - قد عرفوا كفالة اليتيم نظرًا لكثرة الحروب الناتج عنها فقدان العائل وهو الوالد فيبقى الصغار بدون عائل يعولهم إلا بقية من أهل المتوفى أو قتيل هذه الحروب، لكن هذه النزعة الإنسانية لم تكن راشدة في كثير من الأحوال فليس بعد الكفر ذنب، فتعرض الكثير من الصغار لنهب أموالهم وأكلها ظلمًا في بطون لطالما أدمنت أكل النار حتى كأنها الأتون المشتعل.

فجاء الإسلام رافعًا من قدر اليتامى، وراحمًا لهم، يوم أن جعل خير المرسلين ﷺ يتيمًا من اليتامى.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ✿ في الجاهلية والتأديب في اليُتم

ومع ذلك فعين الله ترعاه، وهو سبحانه الركن الشديد الذي كان يأوي إليه حتى قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (الضحى: ٦)، ثم كان العطاء الجزيل لليتامى، حين أمر سبحانه بالعطف عليهم وإتيانهم حقوقهم، والعطف عليهم وإكرامهم، ورفع درجة من أكرم اليتيم، واتهام آكل ماله بالظلم ومجافات الحق وتوعده بالعذاب الأليم، فهي مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام.

فمن المنح التي كرّم الله بها اليتيم ورفع بها درجته ما نذكره كالتالي:

(١) الإنفاق على اليتيم شعبة من شعب الإيمان والبر:

فقد قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ (البقرة: ١٧٧) فهي شعبة من الإيمان تعادل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإنما جعل ذلك حتى يضمن اليتيم مصدر الرزق مع عدم وجود العائل.

(٢) الحض على كفالة اليتيم، والترغيب في الإحسان إليه، وإجزال العطاء لمن فعل ذلك:

* ففي الحديث المشهور عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»** وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[١].

* ومن حديث صفوان بن سليم يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: **«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»**[٢].

* وجعل الإسلام كفالة اليتيم للقريب والبعيد على حد السواء، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«كافل اليتيم - له أو لغيره - أنا وهو كهاتين في الجنة»** وأشار مالك - أحد رواة الحديث - بالسبابة والوسطى (يعني من أصابعه)[٣].

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ في الفردوس الأعلى، فكافل اليتيم معه إن أصلح النية وابتغى وجه الله تعالى في هذا العمل.

وفي حديث عمرو بن مالك القشيري أنه ﷺ قال: **«من ضمّ يتيمًا من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه وجبت له الجنة»**[٤].

وإذا عزَّ على أقارب اليتيم أو أهل بلدته كفالته فإن الله تعالى بيده العطاء والمنع، يفيض على من يشاء من عباده برحمته، فيقيض لليتيم من يدير شئونه ويحفظ له حقه، فلليتيم المسلم أكرم على الله من أن يضيعه، فها هو الكليم موسى عليه السلام

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠٠٥) في الأدب.

(٢) صحيح: البخاري (٦٠٠٦) في الأدب، مسلم (٢٩٨٢/ ٤١) في الزهد والرقائق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: البخاري ، مسلم (٢٩٨٣/ ٤٢) في الزهد والرقائق.

(٤) حسن: حسنه العلامة شاكر (١٨٩٢٧) في «المسند».

يوم خرج مع نبي الله وعبده الصالح: الخضر في رحلتهما العلمية، أمرهما الله تعالى ببناء الجدار فوق الكنز المملوك ليتيمين حتى يبلغا أشدهما ويتمكنا من استخراج كنزهما، لأن أهل هذه القرية بخلاء أشحاء رفضوا ضيافة العبدين الصالحين ويبدو أنه من لؤمهم تركوا الصغيرين بلا كفالة، يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧).

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢).

(٣) ودعا الإسلام إلى إصلاح اليتامى ومخالطتهم:

فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠) فقد روى أحمد في مسنده وغيره بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٣٤) و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾ (النساء: ١٠) انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ الآية(١).

فإذا كانت المخالطة تجوز في الأكل والمال فإنها تعني مبادلة اليتيم مشاعر الحب والعطف حتى يخرج من عزلته ويمزق أثواب العزلة، ويتفاعل مع الآخرين، ويتناسى ألم اليتم حتى يزول فلا يشعر به بعد.

(٤) مراعاة الحالة النفسية لليتيم:

فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (الضحى: ٦)، وجعل العنف مع اليتيم من صفات المكذب بالدين كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ١ ، ٢) وكل هذا كي لا يشعر اليتيم بالضعف والاستكانة.

---

(١) صحيح: أحمد (١/ ٣٢٦) في «المسند».

(٥) ثم حذر الإسلام من هضم حق اليتيم، وتوعد من ضيعه بالعذاب الأليم:

فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (الإسراء: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ (النساء: ١٠).

ثم جعل النبي ﷺ أكل مال اليتيم من الموبقات - أي المهلكات - ومن أكبر الكبائر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»(١).

(٦) حماية أموال اليتامى وحفظها:

وهذا الحق متفرع من الحق السابق فقد وضع الإسلام نظامًا فريدًا لحماية أموال اليتامى وكيفية إدارتها والتصرف فيها، ثم ردها إليهم عند بلوغهم سن الرشد، وألزم القائمين على كفالة اليتيم بهذا النظام.

* فقد نزل قوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (النساء: ٦) فقالت أم المؤمنين عائشة: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجًا بقدر ماله بالمعروف(٢).

ومعنى الأكل - أي ما يشبه الراتب ولكن بقدر الحاجة وبدون إسراف كمقابل (إدارة) بلغة العصر، هذا في حق الولي الفقير، أما الولي الغني فعليه الاستعفاف، فإذا دعت الحاجة إلى الأخذ، أخذ على سبيل القرض ثم يرده تارة أخرى إن تيسر، وإلا فهو في حل، وفي كل الأحوال لابد من شرط (المعروف) أي على الوجه الأمثل بلا سرقة، أو نهب، أو إسراف(٣).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة

---

(١) صحيح: البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا، مسلم (٨٩/ ١٤٥) في الإيمان.

(٢) صحيح: البخاري (٢٧٦٥) في الوصايا، مسلم (٣٠١٩/ ١٠، ١١، ١١م) في التفسير.

(٣) مجموع آراء ذكرها الحافظ ابن حجر(٥/ ٣٩٢، ٣٩٣) في «فتح الباري».

ولي اليتيم فإن احتجت أكلت، وإن اغتنيت استعففت.

* وأما بالنسبة للإناث، فإذا كانت الفتاة المكفـولة قد أعجبت كفيلها فأراد الزواج بها، وجب عليه أن يعطيـها مهر المثل، من مثلها من البنات، فـإن خاف ألا يعطيها المهر عدل عن هذا الزواج وتزوج بأخرى، وما أكثر النساء، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)[1].

* وحذر سبحانه من أن يختص الولي والكفـيل بأفضل المال وأحسنه لنفسه، وأن يعطي اليتيم الرديء منه، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢).

ويرحم الله طاوس ذلك التـابعي الذي كان إذا سـئل عن اليتـيم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

(٧) ومن أروع الحقوق التي منحـها الله تعالى لليتيم أن قرر له رزقـًا من التركة التي تقسم على الورثة وهو ليس منهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨).

قال الإمـام مالك - رحمـه الله - في تفسيـر هذه الآية: «إن هذا الرزق هو حق واجب ما طابت به الأنفس»، إنها إذن الرعاية الإلهيـة لليتيم جعلها الله تعالى له في الدنيا مرغبـًا في العمل بها قبل أن تدك الأرض دكًا دكًا، ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر: ١٧).

*** هؤلاء أكرموا اليتيم فأكرمهم الله، وهؤلاء أهانوه فأذلهم الله:**

(١) قال بعض السلف: كنت في بدء أمـري سكيرًا مكبًا على المعـاصي فرأيت يومًا يتيـمًا فأكرمته كـما يكرم الولد بل أكثر، ثم نمت فرأيت الزبانيـة أخذوني أخذًا مزعجًا إلى جهنم وإذا باليتيم قد اعتـرضني فقال: دعوه حتى أراجع ربي فيه فأبوا. فإذا النداء، خلوا عنه فقد وهبنا له ما كان منه بإحـسانه إليه، فاستيقظت وبالغت في إكرام اليتامى من يومئذٍ.

---

(١) راجع حديث (٢٧٦٣) عند البخاري في الوصايا، مسلم (٣٠١٨/٦م) في التفسير عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) وكان لبعض مياسير العلويين بنات من علوية فمات واشتد بهن الفقر إلى أن رحلن عن وطنهن خوف الشماتة فدخلت مسجد بلد مجهوراً، فتركتهن أمهن فيه وخرجت تحتال لهن في القوت فمرت بكبير البلد وهو مسلم فشرحت له حالها فلم يصدقها، وقال: لا بد أن تقيمي عندي البينة بذلك، فقالت: أنا غريبة فأعرض عنها، ثم مرت بمجوسي فشرحت له ذلك فصدق وأرسل بعض نسائه فأتت بها وببناتها إلى داره فبالغ في إكرامهن، فلما مضى نصف الليل رأى ذلك المسلم القيامة قد قامت والنبي ﷺ معقوداً على رأسه لواء الحمد وعنده قصر عظيم، فقال النبي ﷺ: أقم عندي البينة بذلك، فتحير فقص له ﷺ خبر العلوية، فانتبه الرجل في غاية الحزن والكآبة إذ ردها ثم بالغ في الفحص عنها حتى دل عليها بدار المجوسي فطلبها منه فأبى، وقال: لقد لحقني من بركاتهن، فقال: خذ ألف دينار وسلمهن إلي فأبى، فأراد أن يكرهه، فقال: الذي تريده أنا أحق به والقصر الذي رأيته في النوم خلق لي أتفخر علي بإسلامك، فوالله ما نمت أنا وأهل داري حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية ورأيت مثل منامك، وقال لي رسول الله ﷺ: العلوية وبناتها عندك؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: القصر لك ولأهل دارك، فانصرف المسلم وبه من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

[٦] الأخوة حقوق وواجبات

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**خمسٌ تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز**»[(١)].

وفي رواية لمسلم عنه أيضًا أنه ﷺ قال: «**حق المسلم على المسلم ست**» قيل: ما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**»[(٢)].

وفي رواية عن البراء رضي الله عنه زاد فيها: «**ونصر المظلوم، وإبرارُ المقسم**»[(٣)].

✿ ✿ ✿

* **كلمات في الأخوة:**

بلغ من عظمة الإسلام أن دائرته لا تختص بجنس دون جنس، أو لون دون لون، فقد وسعت شتى الألسنة والألوان وانضم تحت لوائه عدد لا يحصى من المؤمنين من مختلف الأجناس والأقطار، فكان من الرعيل الأول: أبو بكر القرشي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي رضي الله عنهم جميعًا وصدق الله العظيم إذ قال سبحانه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ**

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٢٤٠) في الجنائز، مسلم (٢١٦٢/ ٤) في السلام.

(٢) صحيح: مسلم (٢١٦٢/ ٥) في السلام- باب (٣).

(٣) صحيح: البخاري (٦٢٢٢) في الأدب، مسلم (٢٠٦٦) في اللباس والزينة.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٥٨). لقد وحدت راية الإيمان بين هؤلاء جميعًا، وهي راية تظلل كل من ينطق بكلمة التوحيد وشهادة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، كما وحدت بينهم رابطة الأخوة - أخوة الإسلام التي تقفز فوق أخوة الدم والنسب، وفوق الأخوة المحدودة بالحدود الوطنية الضيقة.

وإذا كان الإسلام قد وحّد بين هذه الأجناس البشرية تحت لوائه، فقد رباها على الحب الخالص وعلى الإخاء الصادق، وسلامة الصدور من الأحقاد، وانتزع منها جذور العداوة والبغضاء.

وبهذه المشاعر الطيبة يشعر المسلم أنه بين إخوان له مهما اختلفت أفكارهم، وأن إخوانه هؤلاء ظهير له في السراء والضراء، ينصرونه ظالمًا ومظلومًا، ينصرونه ويتآزرون معه لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

ولن ينسى التاريخ أن أول مجتمع إسلامي قام في المدينة على الإخاء الكامل القائم على الحب في الله حتى أن أحدهم كان يحرم نفسه وولده وأهله ليطعم أخاه، فكانوا جميعًا على قلب رجل واحد، وحدة متماسكة لا تنال منها العواصف الهوج، أطاحوا بدولتي الفرس والروم، وزلزلوا عروشهما بإيمان وإخوة، وهم الذين كانوا قبل الإسلام قبائل متناحرة، وبطونًا متدابرة يضرب بعضهم رقاب بعض، فجاء الإسلام لينشئهم خلقًا جديداً، فيولدوا من جديد، فاستخرج الأضغان عن القلوب، وأزال الأحقاد من النفوس، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، مما يدل دلالة قاطعة على أن الأخوة مبدأ إيماني محض صرف لا فضل لأحد فيه إلا الله تعالى وهو القائل سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، فيخطئ من يظن أن غير الإيمان سيجمع أمة الإسلام؛ بل إن الإيمان هو الذي سيوثق عرى الأخوة والمحبة، ويحيي روح المودة بين هذه الأمة؛ لأن الإسلام لا يأمر بالحب في الله، والتآخي في الله فقط بل يحرم أشد التحريم إثارة العداوة والبغضاء، ويعد ذلك من أرذل

الرذائل، وأكبرها، وأخطرها على الإطلاق.

وتالله ما حلّت بالمسلمين نكبة، ولا انزوت لهم حضارة، ولا أصابتهم علة، إلا بسبب انفراط عقد الأخوة كنتيجة أساسية وبديهية لخفوت صوت الإيمان والعقيدة الصحيحة داخل القلوب حتى راح كل فردٍ ينساق وراء أهوائه في طريق منفصل دون الرجوع إلى طريق الحق والسعادة وهو سبيل الإيمان لا سواه، لأن الحق يجمع ولا يفرق، والهدى إذا صار هوى تفرقت الأمة وتشرذمت وصار الجميع كالثعابين تنفث سمومها على من حولها فتقتلهم، ويستحيل العيش بينهم.

ولا عذر لأحد عند الله فقد تركنا رسول الله ﷺ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[1]، فمن أراد العودة إلى الأخوة فعليه العودة إلى الإيمان أولاً؛ لنصبح أمة واحدة، بكلمة واحدة، برأي واحد، في صف واحد، فما أشد الحاجة إلى الإيمان لتوحيد الصفوف من جديد، والقضاء على الفرقة والفتنة والفشل والتنازع وذهاب الريح، وساعة يتمكن الإيمان ستتمكن الوحدة من القلوب حيث قال تعالى: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (الحجرات: ٧، ٨) فإذا تمكن الإيمان من القلوب كان له السلطان الذي سيوقف الخصومات والعداوات، ويزرع الحب بدل البغض، ويحل الوئام محل الخصام والنزاع؛ لأن الجميع سيتقيد بعقيدة واحدة، وسيعمل بها دون شك ألا وهي: **«كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**.

*** شروط يجب توافرها فيمن ستتخذه أخًا لك:**

والناس في هذه الدنيا لا يعيشون وحدهم، بل لا بد من صديق، وأخ محب، وعون لهم على أمر دينهم ودنياهم، والأخ والصديق إما أن يكون سفينة النجاة في خضم الحياة، أو سر الهلاك والضياع في زمان مليء بالمتغيرات، وعوامل الإفساد.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **«المرء على دين خليله**

---

(١) هذا مصداق حديث صحيح: رواه ابن ماجة (٤٣) في «المقدمة» بسنده عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني (٩٣٧) في «الصحيحة».

فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

وعن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ✿ فكل قرين بالمقارن يقتدي

فلابد من أعوان يشدون من أزرك، ولا بد لك من إخوان؛ لأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، قوي بإخوانه ضعيف بنفسه، وما المرء إلا بإخوانه كما تقبض بالكف المعصم وها هو نبي الله موسى عليه السلام الذي شهد له من رآه بأنه القوي الأمين ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ (القصص: ٢٦)، فلم تمنعه قوته وقدرته على القيام بأعباء الرسالة أن يدعو ربه تبارك وتعالى حينما كلفه بالرسالة ليعطيه أخاه هارون - عليه السلام - عونًا ومددًا فقال: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا**﴾ (طه: ٢٥ - ٣٥). فاحتاج إذن إلى المعين والمؤازر، فلما علم الله تعالى منه ذلك: ﴿**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ (طه: ٣٦).

وقال: ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ (القصص: ٣٥)، فالصاحب في الحق ضرورة يعين على أمر الله تعالى ويشد من الأزر.

إن الصاحب - كما يقولون - ساحب، والقرين بالقرين يقتدي، والناس كالطيور: والطيور على أشكالها تقع، فالحمام مع الحمام، والصقور مع الصقور، والغراب مع الغراب، والشيء ينجذب إلى شبيهه، وقل لي: من خليلك وأخاك؟ أقل لك: من أنت؟

لقد جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبًا، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحًا خبيثة»**(٢).

فعض بالنواجذ إذن على رفيق الصلاح، وأخي المروءة، وإياك من صاحب

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٤٨٤) في الزهد، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: البخاري (٥٥٣٤) في الذبائح، مسلم (١٤٦/٢٦٢٨) في البر والصلة. وتبتاع: تشتري.

السوء، فإنه إلى سوئه ساحب، وهو كالأجرب سيعديك ويقودك إلى جهنم فإذا العداوة قد بدت وظهرت إذ قال الله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

من أجل هذا نورد بعض الصفات المرجوة فيمن تتخذه أخًا ورفيقًا لك ومنها:

(١) أن يكون مؤمنًا تقيًا، صالحًا، عارفًا بأمور دينه كما جاء في الحديث: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[(١)]، وذلك لأن المؤاكلة والمطاعمة توقع المودة في القلوب، فكيف بالمصاحبة؟!

وهذا لقمان يقول لابنه: «ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يصحب الصاحب الصالح يغنم، فمجالسة الصالحين محمودة، ومرافقة الخبثاء مذمومة»[(٢)].

وكما قال الشاعر:

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته ✿ فالطبع مكتسب من كل مصحوب

كالريح آخذة مما تمر به ✿ نتنًا من النتن أو طيبًا من الطّيب

والمؤمن - كما في الحديث - عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إن ماشيته نفعك، وإن شاركته نفعك، وكل شيء من أمره منفعة»[(٣)]، فالصاحب المؤمن من إذا نسيت ذكّرك، وإذا جهلت علّمك، وإذا ضعفت قواك وأعانك على أمر دينك.

وعلى هذا يخرج هؤلاء من الأخوة والمرافقة:

(أ) **الكافر**: كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ (الممتحنة: ١)، وذلك لأنك ستتشبه به، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم.

(ب) **الفاسق والمبتدع**: لأنه سيجرك إلى فسقه لا محالة، والشبه خطّافة ولها بريق خدّاع كأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، وإلا يوم القيامة كان الأمر على غير ما ترجو: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

---

(١) حسن: الترمذي(٢٥٠٦) في «الزهد».

(٢) «الزهد» لابن المبارك- برقم (١٠٥٩) ط الدار السلفية- الإسكندرية.

(٣) أبو نعيم (٨/ ١٢٩) في «حلية الأولياء»، وقال: صحيح ثابت.

اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ (الفرقان: ٢٧ - ٢٩).

(جـ) لا تصحب المستهزئ بدين الله الطاعن فيه، الذي يتخذ من كلام الله ورسوله سخريًا، أو تارك الصلاة، ومفطر رمضان، وساب الدين، ومتبع غير سبيل المؤمنين.

(٢) أن يكون عاقلاً: فلا تصاحب الأحمق فإنه كالزجاج المكسور لا يلتئم أبدًا، يجني عليك وعلى نفسه، ويقعد بك عن مواصلة السير نحو الجنة، وقد أعيت الحماقة من يداويها.

وإياك وصحبة الغضوب الذي لا يتحكم في نفسه عند الغضب فهو متهور، أرعن، أهوج، سوف يجرك إلى مساحة تفقد فيها أنت الآخر أعصابك، وتمرض قلبك بما مرض هو به.

(٣) أن يكون حسن الخلق: فإياك والزاني، وشارب الخمر، والمصر على الكبيرة، وعاق والديه الملعون بلعنة الله ورسوله، أو المنافق.

(٤) واصحب الصادق: فعلى الإنسان أن يجالس من عرف عنه الصدق في قوله وعمله فـ «**إن الصدق يهدي إلى البر**»[(١)] و «**إن الكذب يهدي إلى الفجور**»[(٢)].

(٥) واصحب من يخلص لك النصيحة، وإن لم تطلبها منه، فقد ضرب الله تعالى مثلاً للأخ النصوح، وعدم سكوته على المنكر والباطل ولو كانوا إخوته من دمه، كما جاء في قصة أصحاب الجنة: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ**﴾ (القلم: ٢٨) فهذه نصيحة منه لهم فقالوا: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ (القلم: ٢٩)، فلقد نصحهم، وشدَّد في النصيحة عليهم، وهكذا كان الحال بين الصالحين وتباعدت البلاد والأمصار كما كان الحسن البصري يراسل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، وأبو الدرداء يكتب إلى سلمان رضي الله عنهما، فإذا كان الاختيار على هذا الأساس، صار لكلٍّ منكما على الآخر حق، وواجب.

(١ ، ٢) سبق تخريج الحديث.

*** آداب الأخوة وحقوقها وواجباتها:**

وهناك من الحقوق ما هو حق عام، وحق خاص:

(أ) **الحقوق العامة للأخوة:** وهي الحقوق المذكورة في الحديث عنوان هذه الوصية، وهذه الحقوق كالآتي:

(١) السلام، ورد السلام:

فإذا تلاقى المسلمان وجب عليهما إلقاء السلام بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيرد المسلم على أخيه؛ لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ (النساء: ٨٦).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير**»[١].

وقد أمر النبي ﷺ - كما في حديث البراء بن عازب- بإفشاء السلام[٢].

وجعل السلام حقًّا للمسلم على العموم لمن عرفت ولمن لم تعرف ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ سأله رجل فقال: أي الإسلام خير؟ فقال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف**»[٣].

وجعل ﷺ خير المُسلمين من يبدأ بالسلام، كما في الحديث عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٤]، وفي رواية: «**فيعرض هذا، ويعرض هذا**». وإفشاء السلام من أمور الإيمان كما جاء في الحديث: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[٥].

---

(١) صحيح: البخاري (٦٢٣١) في الاستئذان، مسلم (٢١٦٠/١) في السلام.

(٢) صحيح: البخاري (٦٢٣٥) في الاستئذان.

(٣) صحيح: البخاري (٦٢٣٦) في الاستئذان، مسلم (٣٩/٦٣) في الإيمان.

(٤) صحيح: البخاري (٦٢٣٧) في الاستئذان، مسلم (٢٥٦٠) في البر والصلة.

(٥) صحيح: مسلم (٩٣/ ٥٤) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بل وجعله سببًا لمغفرة الذنوب ففي حديث البراء رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«ما من مسلمين يلتقيان، فيسلم أحدهما على صاحبه، ويأخذ بيده، لا يأخذه بيده إلا لله، فلا يفترقا حتى يُغفَر لهما»**(١).

(٢) **تشميت العاطس**: وتنطق بالسين، والشين ومعنى التسميت (بالسين): جعلك الله على هيئة حسنة، وسمت حسن، لأن هيئته تنزعج من العطاس(٢).

ومعنى التشميت (بالشين): الدعاء بالثبات على طاعة الله تعالى.

وقيل: أبعدك الله عن الشماتة، وجنبك ما يُشمت به عليك(٣).

وقيل: معناه: التبريك(٤) أي دعاء بالبركة.

وقيل: معناه: جمع الله شملك(٥).

وقال النووي: قال الليث: التشميت ذكر الله تعالى على كل شيء، ومنه قوله للعاطس: يرحمك الله(٦).

ولكن هذا بشرط أن يحمد العاطس ربه سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمّت أحدهما، ولم يُشمت الآخر، فقيل له: (أي سُئل) فقال: **«هذا حمد الله، وهذا لم يحمد الله»**(٧).

ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإذا لم يحمد الله فلا تشمتوه»**(٨).

وأقل الحمد أنه يرفع صوته بحيث يسمع صاحبه.

---

(١) حسن: أحمد، وحسنه الألباني (٥٧٧٨) في «صحيح الجامع».

(٢) «النهاية» (٣/ ٣٥٧) لابن الأثير- ط دار الكتب العلمية.

(٣) السابق (٣/ ٤٤٦).

(٤، ٥) «الفتح» (١٠/ ٦٠١) لابن حجر العسقلاني.

(٦) شرح النووي على مسلم (٧/ ٢٥٩) ط دار الفجر للتراث.

(٧) صحيح: البخاري (٦٢٢١) في الأدب، مسلم (٢٢٩١) في الزهد والرقائق.

(٨) صحيح: مسلم (٢٩٩٢) في الزهد والرقائق.

ومن السنة أن إذا جاءه العطاس أن يضع يده أو ثوبه أو نحو ذلك على فمه كالمنديل- وأن يخفض صوته(١)، وهذا فعل النبي ﷺ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه فقال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فِيه - (فمه) وخفض أو غضّ بها صوته(٢).

وفي هذا إنذارٌ لمن إذا عطسوا اهتزت أرجاء المعمورة لعطاسهم، يقلقون بها الكبار، ويفزعون بها الصغار.

وتشميت العاطس سُنة عن رسول الله ﷺ، وفرض كفاية لو قاله بعض الحاضرين أجزأ عنهم، ولكن الأفضل أن يقوله كل واحد منهم(٣).

والدليل على ذلك من صحيح البخاري بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب العُطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وَحمِد الله تعالى كان حقًّا على كل مسلمٍ سمعه أن يقول له: يرحمك الله...**»(٤) الحديث.

* **صيغ للحمد، وأخرى للتشميت:**

* جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا عَطَس أحدكم فليقل: الحمد لله وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**»(٥).

* وعنه أيضًا أنه ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله على كل حالٍ، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، ويقول هو: يهديكم الله ويصلح بالكم**»(٦).

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما عطس رجلٌ فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله ﷺ. فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله ﷺ،

---

(١) «الأذكار» (صـ ٢٨٨، ٢٨٩) للنووي- ط دار الفجر للتراث.
(٢) حسن: حسنه الألباني (٢٧٤٥) في «سنن الترمذي»- كتاب الأدب.
(٣) «الأذكار» (صـ ٢٨٨).
(٤) صحيح: البخاري (٦٢٢٣) في «الأدب».
(٥) صحيح: البخاري (٦٢٢٤) في «الأدب».
(٦) صحيح: صححه النووي برقم (٦٨٢) في «الأذكار» (صـ ٢٨٧) ط دار الفجر للتراث.

وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ، علمنا أن نقول: «الحمد لله على كل حالٍ»(١).

وعن سالم بن عُبيد الأشجعي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله رب العالمين، وليقل له: يرحمك الله، وليقل هو: يغفر الله لنا ولكم»**(٢).

على هذا تكون الصيّغ كالآتي:

العاطس	المشمت	العاطس
الحمد لله	يرحمك الله	يهديكم الله ويصلح بالكم
الحمد لله رب العالمين	يرحمك الله	يغفر الله لنا ولكم
الحمد لله على كل حالٍ	يرحمك الله	يهديكم الله ويصلح بالكم

قال النووي: لو قال: الحمد لله رب العالمين كان أحسن، ولو قال: الحمد لله على كل حالٍ(٣) كان أفضل. قال ابن حجر: الكل مجزئ لكن ما كان أكثر ثناءً كان أفضل بشرط أن يكون مأثوراً(٤).

*** ولكن ماذا إذا تكرر العطاس في مجلس واحدٍ؟**

جاء في صحيح مسلم بسنده عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وعَطَس عنده رجلٌ فقال له: **«يرحمك الله»**، ثم عطس أخرى فقال له النبي ﷺ: **«الرجل مزكوم»**(٥).

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٢٧٣٨) في «سنن الترمذي».

(٢) صحيح: صححه الألباني (٦٨٦) في «صحيح الجامع».

(٣) النووي (صـ ٢٨٧) في «الأذكار».

(٤) «الفتح» (١٠/ ٦٠١).

(٥) صحيح: مسلم (٢٩٩٣) في الزهد والرقائق. ورواية الترمذي أنها ثلاث.

فالسنة أن يشمته حتى ثلاث فإذا زاد فلا يشمت، ولكن يدعو له بالعافية والشفاء والسلام لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإن زاد على ثلاثة فهو مزكوم، ولا يشمت بعد ثلاث»**(١).

*** فائدة:**

إذا عطس المسلم في الصلاة فماذا عليه؟

رأي الشافعية: يسمع نفسه قوله: الحمد لله.

وقال مالك وأصحابه برأي الشافعي.

وقالوا: يحمد الله في نفسه فقط.

وقالوا: لا يحمد جهرًا ولا في نفسه(٢).

*** أثر التشميت في زيادة روابط الأخوة وأواصرها:**

ولا يحسبن أن التشميت قد شُرِّع هباءً أو سُدًى، فإن النبي ﷺ ما كان له أن ينطق عن الهوى وإنما هو الوحي الذي أوحى الله تعالى به إليه ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (النجم: ٤)، إن في التشميت للعاطس فوائد عدة، فإن المشمت يدعو لأخيه بالرحمة، وهو يدعو له بالهداية وبالمغفرة، وهذا من شأنه أن يجعل مجالس المسلمين معمورة بذكر الله تعالى، وذكره سبحانه يطرد الشيطان فتصفو القلوب وترق ويسكنها الإيمان، فإذا دخل الإيمان حصل التآلف والمحبة، وصار حدوث الأخوة بين المسلمين المؤمنين متاحًا.

ثم إن الدعاء بالرحمة والمغفرة والهداية يمحو ما في النفس من أحقاد وضغائن وهذا من شأنه تأصيل الروابط بين المسلمين وقد يكون الدعاء في ساعة إجابة فيغفر الله تعالى ويرحم ويهدي.

وقال ابن دقيق العيد(٣): ومن فوائد التشميت:

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٩٧) في «صحيح الجامع».

(٢) «الأذكار» (صـ ٢٨٩).

(٣) ابن حجر (١٠/ ٦٠٢) في «الفتح».

* تحصيل المودة والتأليف بين المسلمين.

* وتأديب العاطس بكسر النفس عن الكبْر والحمل على التواضع، لما في ذكر الرحمة من الإشعار بالذنب الذي لا يعرى[١] عنه أكثر المكلفين.

(٣) إجابة الدعوة:

وهذا حق ثالث من حقوق المسلم على المسلم، أن إذا دعاه أن يجيب دعوته وقد حدد العلماء أن الدعوة تكون إلى (الوليمة) وهي كل طعام صنع لعرس وغيره.

وقال الشافعي: الوليمة تقع على كل دعوة تتخذ لسُرورٍ حادث من نكاح أو ختانٍ أو غيرهما، لكن الأشهر استعمالها عند الإطلاق في النكاح، وتقيد في غيره فيقال: وليمة الختان أو نحو ذلك[٢].

وللعلماء من أهل الحديث واللغة تعبيرات ومصطلحات طريفة لكل طعام فقالوا:

الطعام	المناسبة
١ - الإعذار	الختان
٢ - العقيقة	الوِلادة
٣ - الخُرْس	سلامة المرأة بعد الولادة
٤ - النقيعة	لقدوم المسافر وهي مشتقة من النقع وهو الغبار
٥ - الوكيرة	للسكن المتجدد من الوكْر: وهو المأوى والمستقر
٦ - الوضيمة	طعام المصيبة
٧ - المأدبة	دعوة بدون مناسبة
٨ - الإملاك أو الوليمة	العُرس[٣]

وإجابة الدعوة إلى وليمة العرس أو الإملاك (واجب) كما نقل ذلك ابن حجر عن ابن عبد البر، والقاضي عياض والنووي وبعض الشافعية، وهو المشهور بين العلماء.

---

(١) لا يعْرى: لا يخلو.

(٢ ، ٣) ابن حجر (٩/ ٢٤١، ٢٤٢) في «فتح الباري».

وقال بعض الشافعية، والحنابلة، ومـالك - رحمه الله -: إن إجابة الدعوة فرض عين.

قلت: تكون فرض عين إذا خُصّ بها مسلمٌ دون غيره، أما إذا عمت فهي واجبة(١).

وقد جاءت نصوص السُّنَّة المطهرة تؤكد على ضرورة إجابة دعوة الداعي:

* فـمن حديث ابن عـمر رضي الله عنهـما أنه ﷺ قـال: «**إذا دُعي أحـدكم إلى الوليمة فَليَأتِها**»(٢).

وفي رواية لمسلم: «**إذا دُعي أحدكم إلى وليمة عُرس فليجب**».

* ومن حديث أبي موسى أنه ﷺ قال: «**فكُّوا العاني -الأسير- وأجيبوا الداعي، وعودوا المريض**»(٣).

* وحذر ﷺ من عدم إجابة الدعوة كما في حديث أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «... **فمن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله**»(٤).

* وأوجب على الصائم حضور الدعوة وإن لم يأكل ويفطر، فقال ﷺ كما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**إذا دُعي أحدكم فليُجب، فإن كان صائمًا فليصلِّ، وإن كان مفطراً فليطعم**». والصلاة هنا بمعنى الدعاء لأهل الطعام بالمغفرة والبركة.

وقيل: الصلاة الشرعيـة بالركوع والسجود فيشتغل بها ليحـصل له فضلها ولتبرك أهل المكان الحاضرين. وإن كـان صومه نفلاً جاز الفطر وتركـه، فإن كان يشق على صاحب الطعام صومه فالأفضل الفطر(٥).

* وأنه ﷺ الذي علم أن من شـأن بعض المسلمين ألاّ يجـد طعـامًا يتـفاخـر به فقال- كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه: «**إذا دُعيتم إلى كُراع فأجيبوا**»(٦).

---

(١) «الفتح» (٩/ ٢٤٢).

(٢) صحيح: البخاري (٥١٧٣) في النكاح، مسلم (١٤٢٩/ ٩٦) في النكاح.

(٣) صحيح: البخاري (٥١٧٤) في النكاح.

(٤) صحيح: البخاري (٥١٧٧) في النكاح، مسلم (١٤٣٢/ ١٠٧- ١١٠) في النكاح.

(٥) النووي (٥/ ٢٢٦) في شرح مسلم.

(٦) صحيح: مسلم (١٤٢٩/ ١٠٤) في النكاح.

وهو كُراع الشاة وكلنا يعلمه، ويعلم أنه طعام البسطاء والفقراء، ومع ذلك فإنه ﷺ إنما يريد إقرار مبدأ المودة والتآلف والأخوة بين المسلمين كما ترجمها أهل الأمثال فقالوا: «بصلة المُحب خروف»، فليس الأمر في قيمته المادية، بل في قيمته المعنوية.

وفي رائعة من روائعه ﷺ وكأنها من أعلام نبوته، علم أن هناك من يمنعه مانع من الطعام والأكل في الولائم، كأن يكون يوم عطلته الذي يقضيه مع أهله، أو المرض المانع من الطعام، الدَّسم وغيره، فيقول - كما في حديث جابر رضي الله عنه: «**إذا دُعي أحدكم إلى طعامٍ فليُجِب فإن شاء طَعِم، وإن شاء ترك**»(١).

*** متى يسقط الوجوب في أمر إجابة الدعوة؟**

لا تجب الإجابة إلى الدعوة في هذه الأحوال:

(أ) أن يكون في الطعام شبهة؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأمر المؤمنين بالأكل من الطيب.

(ب) أن يخص الداعي الأغنياء بالدعوة دون الفقراء، فتكون الوليمة (شر الطعام) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**شر الطعام - وفي رواية: - بئس الطعام - طعام الوليمة يُدعى إليه الأغنياء ويُترك المساكين**»(٢)، وهذه من أعلام نبوته ﷺ فقد أخبر عما سيحدث من بعده فالناس يؤثرون الأغنياء بالدعوة وبطيب الطعام.

(جـ) أن يكون هناك من يتأذى بحضوره معه، أو لا تليق به مجالسته.

(د) أو أن يدعو الداعي أحدهم لخوف شره، أو الطمع في جاهه، أو لمعاونته على الباطل(٣).

(هـ) أن يكون في الوليمة خمر، أو لهو، أو فرش حرير، أو صور حيوان، أو آنية ذهب وفضة، فقد أبى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه دخول بيت رأى فيه

---

(١) صحيح: مسلم (١٤٣٠/ ١٠٥) في النكاح.
(٢) صحيح: البخاري (٥١٧٧)، مسلم (١٤٣٢).
(٣) النووي (٥/ ٢٢٥).

صورة[١]. ولن يفعل عبد الله بن مسعود مثل هذا إلا عن فعل للنبي ﷺ، وكان من أكثر الناس ملازمة له.

لماذا الدعوة ولماذا إجابتها؟

قال العلماء: الدافع إلى الطعام: صدق المحبة، وسرور الداعي إذا أكل المدعو من طعامه، والتحبب إليه بمؤاكلته وتوكيد عهوده معه بها.

ولذلك حضّ ﷺ على الإجابة ولو قلّ المدعو إليها.

فبإجابة الدعوة يكون التواصل والتحاب والتآلف[٢].

(٤) **عيادة المريض**: وهو الحق الرابع في وصية النبي ﷺ، ومعنى عيادة المريض: أي زيارته للاطمئنان عليه.

وأصل العائد، والعوّاد: الزائر والزوار، وكل من أتاك مرة بعد أخرى فهو عائد واشتهر ذلك في عيادة المريض حتى صار كأنه مختص به[٣].

وأراد النبي ﷺ الحث على التواصل والألفة حين أمر بعيادة المريض فقال: **«وعودوا المريض»**[٤].

وقال الطبري:

* تتأكد عيادة المريض فيمن ترجى بركته (كالعلماء).

* وتُسن فيمن يراعى حاله.

* وتباح فيما عدا ذلك.

وقال جمهور العلماء: قد تصل عيادة المريض إلى الوجوب في حق بعض دون بعض[٥].

---

(١) رواه البيهقي، وصحح إسناده ابن حجر (٩/ ٢٤٩).

(٢) «الفتح» (٩/ ٢٤٦).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والآثار» (٣/ ٢٨٦) لابن الأثير.

(٤) صحيح: سبق تخريجه.

(٥) ابن حجر (١٠/ ١١٣) في «فتح الباري».

*** فضل عيادة المريض:**

* **أنه لا يزال في خُرفة الجنة:** فقد روى ثوبان مولى النبي ﷺ عنه أنه قال: «**من عاد مريضًا لم يزل في خُرفة الجنة**» قيل: يا رسول الله! وما خُرفة الجنة؟ قال: «**جناها**»(١)، أي: يئول به إلى الجنة واجتناء ثمارها(٢) (أي: قطوفها وحصادها).

* **أنه مكتوب من أهل الجنة:** ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**خمسٌ من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضًا، وشهد جنازة، وصام يومًا، وراح إلى الجمعة، وأعتق رقبة**»(٣).

* **أنه ضامن على الله تعالى:** ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**خمسٌ مَن فعل واحدة منهن كان ضامنًا على الله عز وجل: من عاد مريضًا، أو خرج مع جنازة، أو خرج غازيًا، أو دخل على إمام يريد تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته، فسَلِم الناسُ منه، وسَلِمَ من الناس**»(٤).

* **صلاة الملائكة عليه:** وصلاة الملائكة تعني الاستغفار والدعاء له كا جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلمٍ يعود مسلمًا غدوة إلا صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريفٌ في الجنة**»(٥).

* وفي حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه منادٍ أن طِبْتَ وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**»(٦).

*** عتاب أخروي:**

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ (وهو حديث قدسي): «**إن الله عزّ وجلّ يقولُ يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعُدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مَرِضَ فلم تَعُده، أما علمت**

(١) صحيح: مسلم (٢٥٦٨/ ٤٢) في البر والصلة.

(٢) النووي (٨/ ٣٤١) ط دار الفجر للتراث.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٣٢٥٢) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: صححه الألباني (٣٢٥٣) في «صحيح الجامع».

(٥) صحيح: صححه الألباني (٥٧٦٧) في «صحيح الجامع».

(٦) حسن: حسنه الألباني (٥٠١٥) في «المشكاة».

أنك لو عُدته لوجدتني عنده..»[١] الحديث.

*** آداب عيادة المريض:**

(أ) عدم إطالة الزيارة والتخفيف فيها إلا لضرورة، كحب المريض له، أو إذا عرضت حاجة تطيل الزيارة.

(ب) أمره بالصبر والاحتساب وتبشيره، فقد عاد النبي ﷺ أم العلاء فقال لها: **«أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تُذهب النارُ خبث الذهب والفضة»**، ومن التبشير الدعاء بقوله: **«لا بأس طهورٌ إن شاء الله»**[٢].

(جـ) وأن يدعو له بالشفاء، كما فعل النبي ﷺ لما دعا لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: **«اللهم اشف سعداً»**[٣].

(د) ومن الأدعية المأثورة عند زيارة المريض نذكر هذه الأدعية:

«اللهم رب الناس، أذهب البأس، واشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا»[٤].

ويدعو فيقول بعد وضع إصبعه بالأرض ورفعها: **«بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفى به سقيمنا بإذن ربنا»**[٥].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: **«مَن عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسألُ الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك، إلا عافاه الله من ذلك المرض»**[٦].

(هـ) عدم التنطع بقوله: مات فلان بهذا المرض، فقد فعلها أحدهم فقال له عمر ابن عبد العزيز - رحمه الله -: «وإن خرجت عنا فلا تَعُد إلينا».

---

(١) صحيح: مسلم (٤٣/٢٥٦٩) في البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: البخاري (٣٦١٦) في المناقب.

(٣) صحيح: البخاري (٥٦٥٩) في المرضى.

(٤) صحيح: البخاري (١٠/١٧٦) في الطب، مسلم (٢١٩١) في السلام.

(٥) صحيح: البخاري (١٠/١٧٦، ١٧٧) في الطب، مسلم (٢١٩٤) في السلام.

(٦) صحيح: صححه الألباني (٦٣٨٨) في «صحيح الجامع».

(و) طلب الدعاء من المريض فإنه ممن يستجاب دعاءه خاصة إن كان من الصابرين.

(ز) اتباع آداب الزيارة فلا يتطلع إلى محارمه وأهل بيته، ولا ينظر إلى ما لا يحل له، إلى آخر آداب الزيارة.

(٥) اتباع الجنائز:

وسوف يأتي ذكرها في كتاب الجنائز إن شاء الله تعالى.

(٦) النصيحة:

لقوله ﷺ في حديث الباب: «**وإذا استنصحك فانصح له**»، وهذا الحق متفرعٌ عن أصل النصيحة، وهو أصل عظيم في الإسلام حيث روى تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» ثلاثًا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[(١)].

ولقد كانت النصيحة من بنود مبايعة النبي ﷺ كما في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[(٢)]، وأمر النبي ﷺ صراحة بالنصيحة فقال: «**إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له**»[(٣)].

والنصيحة للمسلمين هي: إرشادهم إلى مصالحهم.

وفي تفسير آخر: أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإن ضرّه ذلك في دنياه.. ويحب ما يصلحهم وألفتهم، ودوام النعم عليهم، ونصرهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم.

وفي تفسير ثالث: إرشاد المسلمين إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم وسد خلاتهم، ونصرتهم على أعدائهم، والذَّبّ عنهم ومجانبة الغش

---

(١) صحيح: مسلم (٥٥) في الإيمان.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٧) في الإيمان، مسلم (٥٦) في الإيمان.

(٣) صحيح: صححه الألباني (١٨٥٥) في «الصحيحة».

والحسد لهم، وإيثار فقيرهم، وتعليم جاهلهم، ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف، والرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحبة إزالة فسادهم ولو بحصول ضررٍ له في دنياه(١).

* كيف تكون النصيحة؟

لا بد أن تكون النصيحة مصحوبة بالرفق، ولا أقول: الرفق فقط، ولكن الرفق الكامل التام الذي لا يخرج إلا من قلب مخلصٍ في نصحه، يخشى على أخيه من فوات الخير وحصول النعم.

فما ترفق في نصيحة إلا مؤمن محب، وما غلّظ في النصيحة وتجهم إلا جاهل أو منافق.

* فلقد أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى طاغية الأرض الذي صاح في صلف وكبرياء ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤) فنازع الله ملكه، ومع ذلك قال تعالى لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٣، ٤٤)، فمع إقرار الحق عز وجل أن فرعون طاغٍ باغٍ عالٍ في الأرض مفسد فيها، إلا أنه وصّى الكليم ووزيره هارون عليهما السلام بالتلطف له في القول والنصح فإن في ذلك ترقيق لقلبه فلعله ساعتها أن يتذكر أو أن يخشى.

قال القرطبي(٢): «القول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه».

وقال يحيى بن معاذ الرازي: «هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله! فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله؟!

وقال ابن كثير(٣): «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي:

---

(١) من كلام لابن رجب الحنبلي عقب حديث رقم (٧) في «جامع العلوم والحكم» ط دار الفجر للتراث.

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٢١١، ٢١٢).

(٣) تفسير ابن كثير(٥/ ٢١٨).

يا من يتحبب إلى من يعاديه ✿ فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وحاصل القول: أنّ دعوتهما له تكون بكلامٍ رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع». اهـ.

* وكان عبد الله بن أبي بن سلول من هو في حربه للنبي ﷺ خطاياه ملأت ما بين السموات والأرض:

* نافق وخادع الله والذين آمنوا.

* افترى على أم المؤمنين (حادثة الإفك).

* وتولى يوم أُحد وانحاز بجيشه.

* وقال ما قال لما نطق بلسان شيطانه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ (المنافقين: ٨).

* واستهزأ من القرآن، والرسول، والمؤمنين.

ومع ذلك كله يقول ﷺ: «**بل نرفق به ونحسن صحبته**».

وفي موضع آخر: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

* ولما شرب رجلٌ الخمر على عهد النبي ﷺ فقال بعض الصحابة: أخزاك الله، فقال ﷺ: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**». وفي رواية: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»(١).

* ونصح عمر رضي الله عنه وأرضاه رجلاً شرب الخمر فلما جاءه الكتاب بتوبته قال: (زلّ أخوكم زلة فسددوه ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه).

وهكذا يفعل إخوان لنا كثيرون، فينقلب نصحهم فضحًا وخزيًا لمن يُنْصح فتضيق عليه الأرض بما رحبت ثم يولي وجهه شطر الشيطان وعمله وخطواته فيخسر المسلمون نفسًا تضاف إلى العصاة.

لقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه غاية في الحكمة يوم قال: (إذا تغيّر أخوك، وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة، ويستقيم أخرى).

ولقد وعظ السلف الوعاظ والناصحين فقالوا لهم:

---

(١) صحيح: البخاري (٦٧٧٨) في الحدود، مسلم (١٧٠٧/ ٣٩) في الحدود.

- من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

- من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رءوس الناس فإنما وبّخه.

- المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعيير. من قول الفضيل بن عياض.

- وكان عبد العزيز بن أبي رواد يقول: كان من كان قبلكم إذا رأى الرجلُ من أخيه شيئًا يأمره في رفق فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء - يقصد رجال عصره - يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه ويهتك ستره.

(٧) نصره ظالمًا أو مظلومًا:

وعمدة هذا الأصل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «**تأخذ فوق يديه**»(١)، يعني أن نحجزه عن الظلم ونرده عنه إن كان ظالمًا.

وقد أمر النبي ﷺ بنصرة المظلوم من المسلمين نصرة كاملة وتامة حيث إن المسلمين كما ذكر عليه الصلاة والسلام «**كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه ﷺ، وهم «**كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»، ثم إن «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه**»(٢).

وفي حديث حجة الوداع أنه نهى ﷺ عن الظلم وحرَّم دماء المسلمين وأعراضهم(٣).

ولكن إذا وقع الظلم على المسلم وجب نُصرته والدفاع عنه حتى يسترد حقه، ويُرفع عن الظلم؛ لأن الأُمة تأثم بذلك إثمًا عظيمًا، لأن الظلم منافٍ للإيمان مباعد له، والمؤمنون إخوة فيجب على الإخوة من المؤمنين رفع الظلم عن أخيهم فيتحقق أكثر من أمر:

- يرد الحق إلى أهله.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) في المظالم والغصب.

(٢) صحيح: البخاري (٢٤٤٦) في المظالم، مسلم (٢٥٨٥/ ٦٥) في البر والصلة.

(٣) قطعة من حديث رواه البخاري (٢٤٤٢) في المظالم، مسلم (٢٥٨٠/ ٥٨) في البر والصلة.

- ويعاد إلى الظالم رشده فينجو من عذاب الله تعالى.

- ويقترب الظالم من حديقة الإيمان بعد أن باعد الظلم بينه وبينها.

- ويرتفع غضب الله تعالى عن الأمة حيث جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟**»(١).

- ثم يسود الحب والتآلف أفراد المجتمع المسلم كافة، بعد أن ينصب ميزان العدل. فلا بد من نصرة المظلوم وإن كان ضعيفًا، وأخذ الحق له ممن ظلمه كحق للمسلم على المسلم.

(٨) إبرار قسمه:

أي: أن يفعل ما قد حلف عليه إذا حلف على شيء غير محظور شرعًا، حتى لا يحنث في يمينه فيكفر عنه، غير أننا نحذر المسلمين من التمادي في حلف بعضهم على بعض، أو إحراج الأخ أخيه بقسم يقسمه عليه فيتضرر به.

وهناك حقوق عامة أخرى نذكر منها:

(٩) كف الأذى عن المسلمين باللسان واليد كما جاء في حديث أسود بن أصرم المحاربي حين سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: «**هل تملك لسانك؟**» قلت: ما أملك إذا لم أملك لساني؟ قال: «**فهل تملك يدك؟**» قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي. قال: «**فلا تقل بلسانك إلا معروفًا ولا تبسط يدك إلا إلى خير**»(٢).

(١٠) ألا يهجر المسلم أخاه أكثر من ثلاثة أيام:

وهجر المسلم للمسلم ناتج عن الشحناء والتباغض، وهي أمور نبه الله تعالى على أن سببها الشيطان فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ**﴾ (المائدة: ٩١).

وأقر القرآن قاعدة: ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ (النساء: ١٢٨).

وجاء النهي عن التخاصم والتدابر صريحًا في حديث النبي ﷺ حيث قال: «ولا

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٤٥٩٨) في «صحيح الجامع».

(٢) حسن: حسنه الهيثمي (١٠/ ٣٠٣) في «مجمع الزوائد» وعزاه للطبراني.

تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا»[١]، وتأكد النهي برواية أخرى عن أنس رضي الله عنه حيث قال عليه السلام: «... **ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله تعالى»**[٢].

وجعل النبي ﷺ هجر المسلم سنة كسفك دمه كما روى أبو خراش السُّلمي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من هجر أخاه فهو كسفك دمه**»[٣].

*** الهجر ثلاثة أيام: لماذا؟**

ووقَّت النبي ﷺ للهجر أيامًا ثلاثة كما روى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٤].

ومعناه: تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليالٍ، فلا ينبغي لمسلم أن يقاطع أخاه فوق ثلاثة أيام، فترى المسلم يعرض عن أخيه ويصده أي: يقابله بجانب وجهه.

وقد عفا النبي ﷺ عن الهجر في الثلاث أيام الأُول؛ لأن الآدمي مجبول على الغضب ونحو ذلك[٥].

وإنما يجوز الهجر أكثر من ثلاث لمن خاف المسلم من مكالمته؛ لأنه يدخل ما يفسد عليه دينه، أو يدخل عليه في نفسه أو دنياه مضرّة، ورُبَّ هجر جميل خيرٌ من مخالطة مؤذية[٦].

وينقطع الهجران بأحد الأمرين:

* أن يلقي المسلم على المسلم السلام.

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠٦٥) في الأدب، مسلم (٢٥٥٩) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: له أصل في البخاري، وهو عند مسلم (٢٥٥٨) في البر والصلة.

(٣) صحيح: صححه الألباني (٤٩١٥) في «سنن أبي داود» ط الرياض.

(٤) صحيح: البخاري (٦٠٧٧) في الأدب، مسلم (٢٥٦٠) في البر والصلة.

(٥) النووي (٨/ ٣٣٣).

(٦) ابن حجر (١٠/ ٤٩٦) في «فتح الباري».

* وأما من كان له رحمٌ فلا يكتفي بالسلام وإنما لابد من إعادة المودة.

*** فضل التصالح والإصلاح بين المسلمين:**

وجاء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟**» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»(١).

*** عقوبة المتخاصمين والمتشاحنين:**

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أَنْظِرُوا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا**». وأنظروا: أمهلوا.

وفي رواية: «**تعرض أعمال النّاس كل جمعة مرتين يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد مؤمنٍ، إلا عبداً بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا، أو أركوا(٢) هذين حتى يفيئا(٣)**»(٤).

(١١) عدم التشهير به وتتبع عوراته، وفضحه وهتك ستره:

وقد نهى الله تعالى عن التجسس مطلقًا فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ (الحجرات: ١٢) إلا أن بعضهم يحاول التطلع إلى أسرار غيره واستكشافها، في محاولة لفضحه وهتك ستره، ليرضي فضولاً شيطانيًّا من الطراز الأول، ويبدو أن كثيرًا من المسلمين صارت مهنة هتك السِّتر والحُجب وكشف الأسرار وفضحها من أمتع المهن عندهم، وقد تحدث القرآن عن هذا الصنف الخبيث من البشر، فقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ (الأحزاب: ٥٨).

وقال: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ**

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٢٥٩٥) في «صحيح الجامع».

(٢) أركوا: أخِّروا.

(٣) يفيئا: يرجعا. والمقصود: يرجعا إلى الصلح والمودة.

(٤) صحيح: مسلم (٢٥٦٥/ ٣٥) في البر والصلة والآداب.

اللّه عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥). وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (النور: ٢٣).

إن محترفي مهنة التجسس والغيبة، وانتهاك الحرمات بإذاعة الأسرار وإفشائها صنف من الناس لا تراه إلا خبيث النفس، بغيض الوجه، حمل النفاق في قلبه كأنما صار القلب مسكنًا للنفاق لا يغادره، يتلطف، ويسير سير النملة على الصفا، ويتلمظ تلمظ الحية ليظفر بالنهاية المطلوبة، ثم يذهب مفشيًا سر مسلم جمعته وإياه كلمة التوحيد دون مراعاة لحقوق الأخوة أو الإيمان، أو حتى تقاليد الناس التي تعارفوا عليها.

وما قرأنا في التاريخ أو السير عن مثل هؤلاء إلا ووجدناه من حزب النفاق وشيعته حيث (عبد الله بن أبي بن سلول) ورفاقه من أهل النفاق وزمرته، فمن فعل فعلهم فهو على دربهم وعلى طريقهم، يتلمس خطاهم، ويتتبع آثارهم، كأنما تعود حادثة الإفك من جديد تخيم بظلالها البشعة على مجتمعات المسلمين تارة أخرى.

وقد جمع متتبع العورات بين خبائث لا حصر لها ولا عد ومنها:

* **خالف طريق الله، وطريق النبي ﷺ، وسبيل المؤمنين:**

فقد قال تعالى: **﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾** (الحجرات: ١٢).

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه**». وقد سبق تخريجه.

* **إنه اجترح حرمة المسلم** والتي هي عند الله أشد حرمة من الكعبة، وقد جاء في حديث حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**».

وفي الحديث: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**».

وقد نظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وما أعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[1].

---

(١) حسن: حسنه الألباني (١٦٥٥) في «صحيح الترمذي».

*** أنه عرّض نفسه للعقاب الأليم من الله تعالى:**

وهذا العقاب على أصناف منها:

(أ) اللعنة: لأنه تعالى قال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (النور: ٢٣).

(ب) احتمال البهتان والإثم العظيم: وقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾** (الأحزاب: ٥٨).

(جـ) وهو عرضة في أوقات عدة لأن يكون متعديًا لحدود الله تعالى؛ لأنه سيقذف المحصنات من المؤمنين والمؤمنات، وقد قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** (النور: ٤)، فالجلد وإسقاط الشهادة، والفسق هذه عقوبات ثلاث.

وبعضهم يظن أن القذف إنما يكون بقصة تحاك، أو افتراء بأنه أرى عينيه ما لم تريا، ولكن هذا شكل من أشكال القذف، إلا أن له أشكالاً أبسطها على الإطلاق ما ذكره الذهبي رحمه الله، فقال: «والقذف أن يقول لامرأة أجنبية حرة عفيفة مسلمة: يا زانية أو يا باغية، أو يا قحبة، أو يقول لزوجها: يا زوج القحبة، أو يقول لولدها: يا ولد الزانية، أو يا ابن القحبة، أو يقول لبنتها: يا بنت الزانية، أو: يا بنت القحبة، فإن القحبة عبارة عن الزانية، فإذا قال ذلك أحدٌ من رجلٍ أو امرأة لرجل، أو لامرأة كمن قال لرجل: يا زاني، أو قال لصبي حر: يا علق، أو منكوح وجب عليه الحد ثمانون جلدة إلا أن يقيم بينة بذلك، والبينة كما قال الله تعالى: **﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾** (النور: ٤٠) يشهدون على صدقه فيما قذف به تلك المرأة أو ذاك الرجل، فإن لم يقم بينة جلد إذا طالبته بذلك التي قذفها أو إذا طالبه بذلك الذي قذفه»[1].

(د) عقاب عجيب: وهذا من أعجب ما قرأت ورأيت من عقاب يمكن إنزاله بمثل هذا الصنف من الخبثاء، فقد روى أبو هريرة، وأبو برزة الأسلمي، والبراء رضي الله عنهم جميعًا من حديث النبي ﷺ أنه قال: **«يا معشر من أسلم بلسانه ولم**

---

(١) «الكبائر» (صـ ٨٤) بتحقيقي.

يدخل الإيمان في قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعيّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، يتتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»، وفي رواية: «ولو في جوف بيته»(١).

إن الله تعالى رقيب قريب، ورقابته وقربه سبحانه من كل العباد، كما أنه عز وجل سميع بصير، وعليم خبير، يسمع ويرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، وهو سبحانه القادر الجبار المنتقم، وهو عز وجل الذي أعلن الحرب ضروسًا على متتبعي عورات المسلمين، وتوعد بفضحهم وهتك سترهم، فإذا كان الله تعالى وله الأسماء الحسنى قد أعلن عن هذا، والعبد صغير حقير لا يملك من أمر نفسه شيئًا فالنتيجة معلومة مقدمًا، خزي، وعار، وفضيحة، وعذاب أليم يوم القيامة.

ومن يظن نفسه المغتاب ومتتبع عورات المسلمين؟! ملكًا من الملائكة هو؟! أم إله؟! إنه بشر يحمل الخراء في بطنه، بشر ناقص، كله عيوب وآفات، غفل عن عيوب نفسه لأنه أحمق، والأحمق يرى عيوب نفسه مزايا يفتخر بها.

ولله در القائل يوم قال: ما تفعلون لو أن أخًا لكم كشفت الريح ثوبه فأظهرت عورته؟

قالوا: نغطيه. قال: كذبتم بل تعرونه أكثر. قالوا: كيف؟ قال: يسمع أحدكم الكلمة في أخيه فيزيد عليها!!

وفي بعض الأوقات يكون من زيد هتك ستره وتتبع عورته عالمٌ من العلماء وعياذًا بالله من هذا!!

ورحم الله المحدث الثقة رجل الجرح والتعديل يحيى بن معين رحمه الله لما قال: «إنا لنطعن في أقوام قد يكونون حطّوا رحالهم في الجنة».

إذًا فليكن الحذر من مثل هذه المخالفات الشرعية فإن كل المسلم على المسلم حرام بدءًا من إساءة الظن به، ومرورًا بالتشهير به، وانتهاءً بقتله بغير حق، كما ينبغي الذب عن عرض المسلم وردّ غيبته كما سيأتي.

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٧٩٨٤، ٧٩٨٥) في «صحيح الجامع».

(١٢) مجموعة حقوق وواجبات :

- ففي الحديث أنه ﷺ قال - من رواية أبي هريرة رضي الله عنه -: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»**(١) .

وعنه أيضًا قال: **«المسلم أخو المسلم لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه، وماله، ودمه»**(٢) .

* فلا كذب ولا تكذيب، وقد سبق ذكره.

* ولا يبع المسلم على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبته(٣) .

* ولا نجش، والنجش هو: أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها إما لنفع البائع لزيادة الثمن له، أو بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه.

وعن ابن عمر أنه ﷺ نهى عن النجش. وقال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا(٤) .

* ولا حسد وقد سبق ذكره، ولا احتقار أو ازدراء للمسلم وقد سبق.

(١٣) أن لا يسبه بغير حق حيًّا كان أو ميتًا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**(٥) . وقوله: **«لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارتد عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»**. وقوله: **«المتسابان ما قالا، فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم»**(٦) . وقوله: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»**(٧) .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر والصلة.

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٩٢٧) في «سنن الترمذي»- كتاب البر والصلة.

(٣) وقد ورد ذلك عند البخاري (٢١٤٠) في البيوع، مسلم (١٤١٣) في النكاح عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) صحيح: البخاري (٢١٤٢)، مسلم (١٥١٦) في البيوع.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه البخاري.

(٧) متفق عليه.

وقوله: «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه، قيل: وهل يسب الرجل والديه؟ قال: نعم.. يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(١).

(١٤) أن يتواضع له، ولا يتكبر عليه، وأن لا يقيمه من مجلسه المباح ليجلس فيه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨)، وقوله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد»(٢). وقوله ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله تعالى»، ولما عرف عنه ﷺ من تواضعه لكل مسلم وهو سيد المرسلين، ومن أنه كان لا يأنف ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين، ويقضي حاجتهما، وأنه قال: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»(٣)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا»(٤).

(١٥) أن يخالقه بخلق حسن فيبذل له المعروف ويكف عنه الأذى، ويلاقيه بوجه طلق، يقبل منه إحسانه، ويعفو عن إساءته، ولا يكلفه ما ليس عنده، فلا يطلب العلم من جاهل، ولا البيان من عيي؛ لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٥).

(١٦) أن يوقره إن كان كبيرًا، ويرحمه إن كان صغيرًا لقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا»(٦). وقوله: «من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم»(٧)، وقوله: «كبر كبر»، أي: ابدأ بالكبير، ولما عرف عنه ﷺ من أنه كان يؤتى بالصبي ليدعو له بالبركة ويسميه فيضعه في حجره

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه.

(٣) رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه.

(٤) متفق عليه.

(٥) حسن: رواه الترمذي وحسنه.

(٦) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه.

(٧) رواه أبو داود بإسناد حسن.

فربما بال الصبي في حجره عليه الصلاة والسلام، وروي أنه كان إذا قدم من سفر تلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيجعل منهم بين يديه، ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم رحمة منه عليه الصلاة والسلام بالصبيان.

(١٧) أن لا يغتابه، أو يحتقره، أو يعيبه، أو يسخر منه، أو ينبزه بلقب سوء، أو ينم عنه حديثًا للإفساد، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ (الحجرات: ١٢).

وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الحجرات: ١١).

وقول الرسول ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[١]. وقوله في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم**»[٢]، وقوله: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[٣]، وقوله ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[٤]، وقوله: «**لا يدخل الجنة قتات**»[٥]. أي: نمام.

(ب) الحقوق الخاصة للأخوة:

وهذا إنما يكون لمن تآخى المسلم معه أخوة أقرب وأوثق من الآخرين.

(١) **العفو والوفاء**: فحق أخيك في قلبك العفو والوفاء.

فأما العفو فلأننا جميعًا بشر نخطئ ونصيب، ومن طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخٍ.

وقد جاء في بعض الآثار: «التمس لأخيك بضعًا وسبعين عذرًا، فإن لم تجد عذرًا، فاجعل له عذرًا». وقد سبق حديث: «**ولا تكونوا عونًا للشيطان عليه**».

وسبق قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «إذا تغيّر أخوك وحال عما كان عليه فلا

(١ - ٥) سبق تخريجهم جميعًا.

تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوّج مرة، ويستقيم أخرى».

وهو نفسه أبو الدرداء الذي كان حكيمًا ربانيًّا حين أدرك أن المعصية إنما هي من لوازم البشر، فقد روى التابعي الجليل أبو قلابة أن أبا الدرداء مرّ على رجلٍ قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه. فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب(١) ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله عزّ وجلّ الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي»(٢).

لقد فهم حكيم الأمة أن المذنب مثله كمثل الواقع في بئر يرجو من يخرجه منها، وهذا ما يحتاجه المذنب أو المخطئ عمومًا، فإنه يحتاج إلى من يسدده ليعيد حساباته من جديد بدلاً من السقوط في هوة المعاصي السحيقة، وهذا يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعل موسى عليه السلام وهو نبي الله وكليم الله يشد لحية أخيه هارون عليه السلام تواصيًا منه بالحق، وقد ذكر الشافعي رحمه الله قولاً سطرته الأيام على جبينها حين قال عن سورة العصر: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم(٣).

ومن حديث عبيد الله بن حصين قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها(٤).

فيظل التواصي بالحق وعلى الحق دائمًا هو دأب المسلم وديدنه مع أخيه الذي جعله أقرب الناس إليه متآخيًا معه على الإيمان، وهنا ستختفي أخطاء عديدة.

وليعفو المسلم عن أخيه، فلا بد من إدراك ثلاثة أمور هامة وهي:

* أن الأخوة لا بد أن تكون على الإيمان لا سواه، فالمصالح المادية والشخصية رابط قويٌّ في وقته سرعان ما يتلاشى هذا الرابط بانقضاء المصلحة وزوالها، وقد جعل النبي ﷺ من سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»**(٥).

---

(١) قليب: بئر.

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٢٤١).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٥).

(٤) صحيح: صححه الألباني (٢٦٤٨) في «الصحيحة».

(٥) متفق عليه: سبق تخريجه.

فالحب في الله أقوى الروابط والصلات على الإطلاق، وما سواها سرابٌ يحسبه الظمآن ماءً.

وأخوة الإيمان تبر[١]، وأخوة المصالح تراب فلا تبيعن التبر بالتراب، فالإيمان هو الشرط وهو السبب.

* أن الفجور في الخصومة من صفات المنافق لا من صفات المؤمن، كما عدّ النبي ﷺ من آيات المنافق: **«وإذا خاصم فجر»**[٢].

فإن المنافق يفجر في خصومته، فيخرج عن الحق عمداً حتى يصير الحق باطلاً، والباطل حقًّا، وهذا مما يدعو إليه الكذب كما قال ﷺ: **«إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»**[٣].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: **«إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم»**[٤]، أي: شديد الخصومة، ولن يتشدد في خصومته إلا فاجر، والفجور مرتبط بالكفر والفسوق والنفاق دائمًا.

* وأما الأخيرة فإن من لا خطأ له من بعد الرسل والأنبياء لا وجود له، وكما أن له خطأ فلك أنت خطأ، فما أحوجنا أن نتذكر الفضل في مقابل الخطأ، فنهب الخطأ للفضل وبهذا الشعور الإيماني الصادق ستزول خصومات وعداوات بين الأخوين وبعضهما البعض.

وأما الوفاء: فإنه علامة الحب الأكيدة، إنه الثبات على الحب والمودة، والإبقاء عليها ولو كانت ذكرى طيبة، فلقد ظلَّ النبي ﷺ يحمل وُدّ خديجة رضي الله عنها بعد مماتها ويقول: **«ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»**[٥]، وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «وإن كان ليذبح الشاة

---

(١) تبر: ذهب.

(٢) صحيح: قطعة من حديث رواه البخاري (٣٤) في الإيمان، مسلم (٥٨) في الإيمان.

(٣) صحيح: سبق تخريجة.

(٤) صحيح: البخاري (٢٤٥٧) في المظالم، مسلم (٢٦٦٨) في العلم.

(٥) حسن: أحمد (٦/ ١١٨) في «المسند».

فيهدي في خلائلها يسعهن»[١].

وظلّ ﷺ على وفائه لأبي بكر في حياته حين قال عنه أمام الجميع: «... **إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صَدَق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟....**»[٢] الحديث.

ويموت أبو بكر رضي الله عنه كمدًا وحزنًا على وفاة رسول الله ﷺ. ويبقى عمر رضي الله عنه على وفائه لرسول الله ﷺ، وأبي بكر رضي الله عنه فقد جاءت حفصة رضي الله عنها تقول: يا أمير المؤمنين لو لبست ثوبًا هو ألين من ثوبك وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك، فقد وسّع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير. فقال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش.. ثم ذكر أبا بكر رضي الله عنه، فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها: «إن قلت لك ذاك إني والله لقد استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعليّ أدرك معهما عيشهما الرّخي»[٣].

وقال الحسن البصري عن الصحابة رضي الله عنهم: لقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله أربعين عامًا[٤].

ورحم الله من قال يومًا:

آه لو كنت تعلم كم أحبك يا أخي ✿ لرأيت قتلي أن تكون بعيدًا

إن الوفاء والعفو ما اجتمعا إلا في قلب عبدٍ مؤمن، ولا فارقا إلا قلب المنافق الغادر بعهده الخائن له، الفاجر في خصومته، فأيّ الفريقين خيرٌ وأحسن نديًّا؟!

(٢) الإيثار بالمال وغيره من حُطام الدنيا:

وهذا ما يتضح جليًّا في مؤاخاة النبي ﷺ بين الأنصار والمهاجرين يوم أن هاجر إلى المدينة حتى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المهاجرون حين قدموا إلى

---

(١) صحيح: البخاري (٣٨١٦) في مناقب الأنصار.

(٢) صحيح: البخاري (٣٦٦١) في فضائل الصحابة عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) صحيح: صححه الحاكم (١/ ٢١١) في «المستدرك».

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (١٤٨٤) بتحقيقي وترتيبي- ط دار الحديث.

المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رَحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ (النساء: ٣٣) نُسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣٣) أي من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث[١].

لقد كان التآخي على أساس عقيدة تم اللقاء عليها والإيمان بها، ولذلك فاضت نماذج الإيثار كما ينحط السيل من علٍ، ولذلك يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) أي: إنهم إخوة في الدين والحرمة لا في النسب، فأخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[٢].

ولذلك قال الشيخ أبو بكر الجزائري: «إنها محبة في الله تخلو من شوائب الدنيا وعلائقها المادية بالكلية، ويكون الباعث عليها الإيمان بالله لا غير[٣].

ولن ينسى سجل البشرية ذكر هذه القصة التي تفيض روعة وجلالاً، يرويها أحد شهودها وهو أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: «قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين - نصفين - ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلّت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك[٤].

لقد سطّر القرآن هذا الفضل للأنصار فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وقد راع المهاجرين هذا الإيثار حتى خافوا على أنفسهم فوات الأجر، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا مثل قومٍ قدمنا عليهم أحسن بذلاً من كثير، ولا أحسن مواساة

---

(١) صحيح: البخاري (٤٥٨٠) في التفسير.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٧).

(٣) «منهاج المسلم» (١١٠) لأبي بكر الجزائري حفظه الله.

(٤) صحيح: البخاري (٣٧٨١).

في قليل، قد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ - الفرح والسرور - فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: «كلا؛ ما أثنيتم عليهم به، ودعوتم الله عز وجل لهم»(١).

وهكذا جعل الإيمان أخوة الدين أعمق وأعلى من أخوة الدم، فآثر الرجل أخاه بزوجته وماله وإنه للعجب العُجاب الذي لو تكرر في زماننا لاتهم صاحبه بالخبل والجنون.

ويرحم الله أبا هريرة رضي الله عنه لما جاءه رجل فقال: إني أريد أن أؤاخيك في الله، قال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني. قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد. قال: فاذهب عني(٢).

ونماذج الإيثار لا تحصى ولا تعد في تاريخ المسلمين، وأعجبها قصة عكرمة رضي الله عنه في اليرموك هو وأصحابه لما أثخنتهم الجراح فصرعوا، فاستسقوا ماءً فجيء إليهم بشربة ماء فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه فلما دفعها إليه نظر الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحدٍ إلى واحدٍ حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحدٌ منهم(٣).

إنه الإيثار حتى الموت، الإيثار بالحياة وبالعمر، لا بشربة ماء، فقد كان في هذه الشربة حياة أحدهم إلا أن الجميع آثر بها أخاه، فأبى الله تعالى إلا أن يجمعهم ليسقوا في الجنة من ماء السلسبيل، ومثل هذا لا يكون إلا من المؤمنين وبنيهم.

(٣) العون على الطاعة والعبادة:

ولقد صاح بها المؤمن الفقيه يوم قال وهو في طرقات المدينة يتلمس مؤمنًا: «هيا بنا نؤمن ساعة»، وخير الإخوان من إذا نسيت ذكّرك، وإذا ضعفت في الطاعة قوّاك وأيدك.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إخواننا أحب إلينا من أهلينا، أهلونا يذكروننا

(١) صحيح: أحمد (٣/ ٢٠٤) في «المسند».
(٢) «منهاج المسلم» صـ ١١٠.
(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٢).

بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة»[١].

وأولئك هم المتحابون بجلال الله حقًّا؛ لأنهم تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، استجابة لأمر الله تعالى حين قال: ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (سورة العصر).

وكلمتان وحسب من هذه السورة واقعتان حقًّا وهما التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، قال عنهما ابن قيم الجوزية رحمه الله: «لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا ويرشده إليه، ويحثه عليه، فإذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين»[٢]. ولذا كان الجزاء على قدر العمل، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[٣].

وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه عز وجل يقول: «**حقَّت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقَّت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقّت محبتي للمتزاورين فيّ، والمتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله**»[٤].

(٤) الدعاء له في حياته، والاستغفار له بعد موته:

فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**إذا دعا الغائب لغائب قال له الملك: ولك مثل ذلك**»[٥].

وقال أحد الصالحين: أين مثل الأخ الصالح؟ إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه، ويتمتعون بما خلّف، والأخ الصالح ينفرد بالحزن، مهتمًّا بما قدم أخوه عليه، وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى[٦].

---

(١) «الزهد» (صـ ٢٥٤) للإمام أحمد.

(٢) «الداء والدواء» (صـ ٧٣).

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٦٦) في البر والصلة.

(٤) صحيح: صححه الألباني (٤٣٢١) في «صحيح الجامع».

(٥) صحيح: صححه الألباني (٥٣٥) في «صحيح الجامع» وعزاه لمسلم، وأحمد وغيرهما.

(٦) «منهاج المسلم» (صـ ١١٢).

(٥) أن يعطيه من لسانه ما يحبه منه، فيدعوه بأحب أسمائه إليه، ويذكره بالخير في الغيبة والحضور، يبلغه ثناء الناس عليه، مظهراً اغتباطه بذلك، وفرحه به، لا يسترسل في نصحه فيقلقه، ولا ينصحه أمام الناس فيفضحه وقد سبق الحديث عن هذا.

(٦) أن يفي له في الأخوة فيثبت عليها ويديم عهدها، لأن قطعها محبط لأجرها، وإن مات نقل المودة إلى أولاده، ومن والاه من أصدقائه، وألاّ يصادق عدو صديقه إذ قال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أطاع صديقك عدوك، فقد اشتركا في عداوتك.

(٧) ألا يكلفه ما يشق عليه، وألا يحمله ما لا يرتاح معه، فيحاول أن يستمد منه شيئًا من جاهٍ أو سلطان، أو مال؛ لأن الأخوة: عطاء يقابله عفة، فكما أعطى سعد بن الربيع عفَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

وإذا كان العجب من إيثار سعد، فأعجب منه سمو نفس عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وعلو همته، وعفته؛ لأن الإيمان معقل الرجال.

(٨) وأن يسقط الكلفة بينه وبين أخيه، وقال الصالحون: من سقطت كلفته، دامت ألفته، ومن خفت مؤنته دامت مودته، وآية سقوط الكلفة الموجبة للأنس والمذهبة للوحشة أن يفعل الأخ في بيت أخيه أربع خصال: أن يأكل في بيته، ويدخل الخلاء عنده، ويصلي وينام معه، فإذا فعل هذه فقد تم الإخاء، وارتفعت الحشمة الموجبة للوحشة، ووجد الأنس وتأكد الانبساط.

(٩) وأن يخبره إذا أحبه بقوله: (إني أحبك في الله).

(١٠) وأن يهاديه ففي الحديث: «**تهادوا تحابوا**»[١].

وتلك أخلاق المؤمنين الذين تآخوا على غير أرحامٍ بينهم.

❁ ❁ ❁

(١) حسن: حسنه الألباني (٣٠٠٤) في «صحيح الجامع».

[٧] حقوق الجار، وإكرام الضيف

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَن كَانَ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُل خيراً أو ليَصمُتْ، ومَن كَانَ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُكرِمْ جَارَهُ، وَمَن كانَ يُؤمنُ بِاللهِ واليومِ الآخرِ فليُكرم ضيفهُ**»(١).

✿ ✿ ✿

وقد مضى الحديث عن آفات اللسان(٢) في أكثر من موضع ولذا فإن الحديث عن إكرام الجار والضيف هما الأهم في هذا المضمار.

* **تمهيد**: نقسم الحقوق في الإسلام إلى قسمين هامين:

القسم الأول: حقوق الله تعالى: وهي أداء ما افترضه سبحانه وشرّعه كالعبادات المحضة كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وما بنيت عليه هذه العبادات من الإيمان والإسلام، والعبادات التي فيها معنى المؤنة كصدقة الفطر، ثم العقوبات الكاملة كالحدود: حد الزنا، وحد السرقة، وغيرهما، أو العقوبات المتضمنة لمعنى العبادة كالكفارات في الأيمان، والإفطار العمد في رمضان وغير هذه الأصناف.

وهذه حقوق خالصة لله تعالى، وتشريعها لتحقيق مصالح الناس عامة، وليس للمكلف إسقاطها أو التقصير فيها.

والقسم الثاني: حقوق العباد: وهي حقوق عامة تتعلق بالمسلمين وغير المسلمين، منها مثلاً: تضمين من أتلف المال بمثله أو بقيمته، والأمر هنا راجع كله إلى صاحب الحق إن شاء اقتضى ماله، أو تجاوز، أو قبل الرهن، أو عفا عن المدين، فهو بالخيار فيها وهذه الحقوق شرعت أيضًا لحفظ مصالح العباد.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٠١٨) في الأدب، مسلم (٤٧) في الإيمان.

(٢) وانظر شرح وصية الصدق والنهي عن الكذب.

وهي تتفرع بذاتها إلى حقوق خاصة، وحقوق عامة، لكن يبقى أهمها على الإطلاق: حق الأخوة، وهو حق قرنه الله تعالى بالإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، حتى صاح صائح الإيمان: لا إيمان بغير أخوة، ولا أخوة بغير إيمان.

وعدّ الله تعالى الأخوة نعمة امتن بها على عباده الصالحين فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

بل وجعل الحق تعالى الأُلفة بين قلوب المؤمنين أمرًا من فعل الله تعالى، وفعله سبحانه كذاته غيب لا يطلع عليه أحد فقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣).

وفي لمحة رائعة من روائع النبي ﷺ جعل المتآخيين روحًا واحدة، وجسدًا واحدًا، وقلبًا واحدًا جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ حيث قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**(١).

وفي الحديث عدّ النبي ﷺ من السبعة: **«رجلان تحابا في الله»** فجعلهما واحدًا ولو جعلهما اثنين لكان العدد ثمانية إلا أنه من فرط اجتماعهما على الحب في الله صارا واحدًا، وهذا هو مكمن الروعة في قوله ﷺ السابق.

وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كان جناحا الإسلام الإيمان والأخوة حين آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار فضرب الأنصار أروع الأمثلة في يومها كقصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما، وغيرها من قصص الأخوة والإيثار حتى نزل القرآن يمتدح الأنصار فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(٢) وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

---

(١) صحيح: البخاري (١٤٢٣) في الزكاة، مسلم (١٠٣١/ ٩١) في الزكاة، واللفظ له.

(٢) الخصاصة: الفقر والشدة.

وفي الفتوحات كانت الأمثلة تضرب رائعة حين كان الجميع على قلب رجل واحد يفتدون إخوانهم ولو بأنفسهم حتى قال القائل لأخيه: «سهوت عني حتى ظننت أنك أني!!».

ويوم اليرموك سلْ أرض الشام عمّا رأته من مظاهر الأخوة التي حيرت الألبّاء في سر هذا الدين، وسر هذا الإيمان، فقد رأوا عجبًا من عكرمة رضي الله عنه وأصحابه بعد هذه المعركة، فقد سقط عكرمة رضي الله عنه مع فريق من الصحابة بعد المعركة من كثرة الجراح حتى استسقوا ماءً، فجيء إليهم بشربة ماء فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه فلما دفعت إليه، نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحدٍ إلى واحدٍ حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحدٌ منهم رضي الله عنهم أجمعين(١).

وهكذا ترى أنه لا حياة بلا أخوة، ولا أخوة بلا إيمان، فالأخوة حق عام تتفرع منه حقوق خاصة تنظم حياة المجتمع وتسعده، وتقضي مبكرًا على كل آفات يمكن ظهورها أو نجومها بدلاً من استشرائها وانتشارها وتفشيها فيصبح أمر القضاء عليها صعبًا غاية الصعوبة، ومن هذه الحقوق التي تفرعت من الأخوة حقوق الجوار، وإكرام الضيف، وهما عنوانا هذه الوصية.

(١) حقوق الجار:

وقد جاء في روايات هذا الحديث من طرق أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**فليحسن قرى ضيفه**» و«**فليصل رحمه**». ولكن الملاحظ منذ البداية أنه ﷺ يربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وهما عنصران هامان من عناصر عقيدتنا «الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»، فأراد ﷺ بقوله: الإيمان الكامل، وخصّ الإيمان بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧). فمن آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بفعله فليفعل هذه الخصال المذكورة(٢).

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ١٢) لابن كثير الدمشقي رحمه الله.

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٤٦) لابن حجر العسقلاني.

أو أن معنى الحديث: من التزم شرائع الإسلام لزمه إكرام جاره وضيفه وبرهما[١].

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجار فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦).

فجمع الله تعالى في هذه الآية بين ذكر حقه على العبد وحقوق العباد على العباد أيضًا، وجعل العباد الذين أمر بالإحسان إليهم خمسة أنواع:

الأول: من بينه وبين الإنسان قرابة وخص منهم الوالدين بالذكر لامتيازهما عن سائر الأقارب بما لا يشركونهما فيه.

والثاني: من هو ضعيف محتاج إلى الإحسان وهما نوعان: اليتيم، والمسكين.

والثالث: من له حق القرب والمخالطة وهم ثلاثة أنواع: الجار ذو القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب.

وقال المفسرون: الجار ذو القربى: الجار الذي له قرابة. والجار الجنب: الأجنبي. ومنهم من قال: الجار ذو القرى: الجار المسلم، والجار الجنب: الكافر[٢].

وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره[٣]: أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ، وكذلك هي في جميع الكتب، ولو لم يكن كذلك يعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم ينزل به الكتاب.. ثم قال - رحمه الله - الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: القريب. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، أي: الغريب. قاله ابن عباس... ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي ذي الناحية.

---

(١) «شرح مسلم» للنووي (١/ ٢٦٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٤)، وابن رجب الحنبلي في شرح الحديث رقم (١٥) من «جامع العلوم والحكم».

(٣) «تفسير القرطبي» (٥/ ١٨٥) وما بعدها ط دارالحديث بتصرف يسير.

وقال نوف البكالي: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المسلم. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني. اهـ.

وهكذا ترى الإسلام منذ البداية يعرف للجار حقه ولو كان مخالفًا في العقيدة والدين؛ لأنه بدون الإحسان إلى الجار وكف الأذى ستصبح الحياة كتلة ملتهبة من المشاعر الشيطانية الكفيلة بالقضاء على معاني الود والإخاء بين البشر، وتلك مكرمة عرفها الإسلام من يوم ﴿اقرأ﴾ فإن للإنسان كرامته التي كرمه الله تعالى بها، وقد قال سبحانه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨)، ولكن ما معنى الإحسان إلى الجار، والوصاة به؟

لقد حدده القرطبي في الموضع السابق بأنه: «المواساة، وحسن العشرة، وكف الأذى، والمحاماة دونه»... وروى البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: يا رسول الله، ومَن؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»، وهذا عامٌّ في كل جارٍ، وقد أكّد عليه السلام ترك أذيته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه(١).

* **حدود الجيران، والأولى بالحق منهم:**

الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقًّا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضلهم.

فالجار الذي له حق واحد: هو الجار المشرك الذي لا رحم له.

والجار الذي له حقان: هو الجار المسلم له حق الجوار، وحق الإسلام.

وأما الجار الذي له ثلاثة حقوق: فهو الجار ذو القربى والرحم، فله حق الجوار، والقرابة، والإسلام، وكان الزهري - رحمه الله - يقول عن حدود الجوار: أربعون دارًا هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، يعني من خلفه، وما بين يديه، وعن يمينه، وعن شماله، وهو ما فسره الأوزاعي رحمه الله فقال: أربعون

---

(١) القرطبي: السابق نفسه.

دارًا من كل ناحية[١].

وكان الإمام أحمد قد سُئل عـمن يطبخ قِدراً وهو في دار السبيل، ومعه في الدار نحو ثلاثين أو أربعين نفسًا: يعني أنهم سكان معه في الدار، فقال: يبدأ بنفسه وبمن يعول، فإن فَضَل فضلٌ أعطى الأقرب إليه.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: من سمع النداء فهو جار.

وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار المسجد.

وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهو جار[٢].

وقالت طائفة من السلف: حد الجوار أربعون دارًا.

قلت: فالنصـوص تتضافـر فيما بينهـا على أن الجوار لا يعتـرف بالحدود، وإنما الجوار ممتد ليظفر المسلم بالأجر، وتتوطد أركان الأخوة بين المسلمين.

إلا أن مـا نبـه عليـه النبي ﷺ أن الأقـرب من الجيـران هو الأحق بالإحسـان والوصية، جاء ذلك في حديثين.

الأول: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «**إلى أقربهما بابًا**»[٣].

والثاني: حديث أبي رافع مولى النبي ﷺ وفيه أنه قال: «**الجار أحق بسقبه**»[٤].

والسقب: بالسين والصاد: القرب والملاصقة، والمراد به هنا: الشفعة[٥].

إذن فالجار الأقرب هو الأحق بالإحسان إليه، والوصاة به من مجموع الحديثين.

*** كيفية إكرام الجار:**

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى**

---

(١) القرطبي في السابق، وابن رجب (صـ ١٨٩) حديث رقم (١٥).

(٢) القرطبي (٥/ ١٩٠).

(٣) صحيح: البخاري (٦٠٢٠) في الأدب.

(٤) صحيح: البخاري (٢٢٥٨) في الشفعة.

(٥) هكذا قال ابن الأثير (٣/ ٤١) في «النهاية».

ظننت أنه سيورثه»[١]، فالوصية بالجار وحي من الله تعالى أكد عليها النبي ﷺ مخبراً أن جبريل عليه السلام قد تنزل بها من عند الله تعالى.

وفي حديث رواه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[٢] عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، ومعاذ بن جبل، وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ما حق الجار على الجار؟ قال: **«إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن مرض عدته، وإن احتاج أعطيته، وإن افتقر عدت عليه، وإن أصابه خير هنيته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، وإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا تخرج بها ولدك لغيظ بها ولده»**، إنها إذاً هي مكارم الأخلاق ولا شك.

ومن خلال هذا الحديث نستطيع إجمال وتفصيل الحقوق كالآتي:

(١) **البدء بالسلام عليه**: ففي الحديث: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[٣].

(٢) **المشاركة في فرحه**: وأن يقوم معه في المصيبة، وفي الضراء.

(٣) **الهدية**: ولو من الطعام، فقد قال أبو ذر: إن النبي ﷺ قال له: **«يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»**[٤].

وقال القرطبي: فحض ﷺ على مكارم الأخلاق، لما يترتب عليه من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة، فإن الجار قد يتأذى بقُتار[٥] قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليها الألم والكلفة، لا سيما إن كان القائم ضعيفًا أو أرملة فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة..

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠١٤) في الأدب، مسلم (٢٦٢٤) في البر والصلة.

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٤٦) وقال: أسانيده واهية، ولكن اختلاف مخارجه يشعر بأن للحديث أصلاً.

(٣) صحيح: مسلم (٥٤/ ٩٣) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: مسلم (٢٦٢٥) في البر والصلة.

(٥) قتار: ريح القِدر والشواء ونحوهما كما في النهاية (٤/ ١٢).

ولهذا المعنى خص ﷺ الجار القريب بالهدية؛ لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منه، فإذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه(١).

وقد جعل النبي ﷺ الهدية للجار ولو من الشيء القليل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال ﷺ: **«يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة»**(٢)، والفرسن: بكسر الفاء: موضع الحافر للفرس، ويطلق على العظم قليل اللحم أيضًا.

قصد ﷺ الحض على الهدية ولو باليسير؛ لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا.

والهدية هنا سبب في زيادة المحبة والمودة، وإسقاط التكلف بين الجيران، لأنها ستسل السخيمة، وتثلج الصدر، وتزيل العداوات، وتثبت المودة في القلوب.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قد ذُبح في بيته شاة فوزعها على جيرانه إلا الرأس فقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ذهبت الشاة إلا الرأس»، فقال ﷺ: **«بل ذهبت الرأس وبقيت الشاة»**، وليس من المروءة أن يشبع المسلم دون جاره، وفي بعض الأحوال يكون المسلم على علم أن جاره قد يطوي الليالي هو وأهله لا طعام ولا شراب لهم، ولذلك قال ﷺ: **«ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائعٌ إلى جنبه»**(٣).

وكم من الأبواب تخفي وراءها بطونًا خاوية، وأنفسًا عزيزة ممن لا يسألون الناس إلحافًا يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، بينما في الجوار تنعم الكلاب بطعام شهي من بقايا موائد تمد إسرافًا وتبذيرًا، بينما الجوع يعض طفلاً مسلمًا يكاد يقتله!!

وقال المروزي - أحد تلامذة الإمام أحمد -: يا أبا عبد الله، إذا كان لي جار أعلم أنه يجوع قال: تواسيه، قلت: إذا كان قوتي رغيفين؟! قال: تطعمه شيئًا.

---

(١) القرطبي (٥/ ١٩٠) في التفسير.

(٢) صحيح: البخاري (٢٥٦٦) في الهبة، مسلم (١٠٣٠/ ٩٠) في الزكاة.

(٣) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني (٥٣٨٢) في «صحيح الجامع».

فإن لم تكن ستهديه فلا تجعل رائحة قدرك تفوح، ولا تخرج ولدك بفاكهة ليغيظ ولده بها.

والهدية لليهودي والنصراني فقد روي عن عمرو بن العاص أنه ذبح شاة وصاح في أهله: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات[1]. فدل على أن الهدية للمسلم وغير المسلم.

(٤) **لا تمنعه من غرز خشبة في جدارٍ بينك وبينه:** وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال عن النبي ﷺ: «**لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جدارة**»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم.

وكم من المشاجرات والمصائب التي ترتكب لأن جارًا استخدم جدارًا بينه وبين جاره.

وكم من المسلمين يمنع جاره من الهواء بإطالة البناء عليه!!

(٥) **المواساة بالمال والمساعدة:** فقد قال أحد السلف: «لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له».

وراح أخوان فسد كلٌّ منهما دين الآخر دون أن يدري!!

(٦) **عدم التجسس على عوراته، أو إفشاء سره وتعييره به:** وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (الحجرات: ١٢)، وبعضهم يُلقي بأُذنه على الأبواب يلتقم ما يدور بين الأهل من حديث فيفشيه ويطير به كما يطير الشيطان بالكذبة، كما يروح أحدهم ليستمع ما يدور بين الرجل وامرأته ثم يلقيه بين الناس كشيطان مريد، وثالث: يستأمن على سر فيعلنه، وقديمًا قالوا: صدور الأحرار قبور الأسرار. ورابع: يسمع الكلمة في أخيه فيزيد عليها.

وقد أراد أحد السلف: أن يعلم تلامذته فقال لهم: ماذا تفعلون لو أن أخًا لكم كشفت الريح ثوبه وهو نائم؟ قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته.

قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟

---

(١) صحيح: الترمذي (١٩٤٣) في البر والصلة، وصححه الألباني هناك.

قال: يسمع أحدكم بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»**(١).

وروى القرطبي في التذكرة أن رجلاً دفن أخته ثم عاد إلى داره، فوجد بعض متاعه قد سقط في القبر فعاد ليفتحه ليستخرج ما سقط منه، ففتحه فإذا بالقبر قد اشتعل نارًا، فعاد ليسأل أمه، فقالت: ما كنت أعلم عن أختك إلا أنها صوّامة قوّامة، لكن كانت إذا جاء الليل وضعت أذنها فالتقمت ما يقوله الجيران ثم نشرته بين الناس. وفي الحديث: **«من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبّ في أذنيه الآنك يوم القيامة»**(٢) والآنك: الرصاص المذاب.

(٧) إصلاح ذات البين وفض الخصومات، وعدم هجره وبغضه:

فقد قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ (المائدة: ١٣).

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ (النور: ٢٢).

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»**(٣).

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان فيُعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**(٤).

ومن العجب أن كثيرًا من المسلمين يطالعك بأعجب الأخبار فتجده يقول لك: فلان جاري منذ عشرين عامًا ولم نلتق أو يكلم بعضنا البعض إلا نزرًا يسيرًا!! فأي

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني (٧٩٨٤) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: البخاري (٢٢٢٥) في البيوع، مسلم (٢١١٠/ ١٠٠).

(٣) صحيح: البخاري (٦٠٧٦) في الأدب، مسلم (٢٥٥٩/ ٢٣) في البر والصلة.

(٤) صحيح: البخاري (٦٠٧٧) في الأدب، مسلم (٢٥٦٠/ ٢٥) في البر والصلة.

جوار وأي حقوق تلك؟!!

(٨) **ومن أعظم الواجبات والحقوق**: النصيحة وتعليمه دينه وتفقيهه فيه؛ لأن: «**الدين النصيحة**» والنصيحة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

(٩) **ثم للجار بقية الحقوق الأخرى التي تعد في الأخوة وهي**: (اتباع الجنائز، عيادة المريض، تشميت العاطس، وإجابة دعوته، وغيرها مما ذكر في حقوق الأخوة).

(١٠) **كف الأذى عن الجار**: وهو ما سنسهب فيه كثيرًا، ونحاول تفصيله.

* **خطورة إيذاء الجار**: وهذه طائفة من الأحاديث التي تبين خطورة إيذاء الجار:

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قيل: ثم أي: قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

* وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في الزنا؟**»، قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، قال: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»، ثم قال: «**فما تقولون في السرقة؟**»، قالو:ا حرام حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**»(٢).

* وقد تقدم حديث: «**والله لا يؤمن**» ثلاثًا، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**»، والبوائق: جمع بائقة، وهي المهلكة من الذنوب.

* ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله إن فلانة تصلي بالليل وتصوم النهار وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها- سليطة-، قال: «**لا خير فيها هي في النار**».

وقيل: إن فلانة تصلي المكتوبة وتصوم رمضان وتتصدق بالأتوار(٣) وليس لها

---

(١) صحيح: البخاري (٤٤٧٧) في التفسير، مسلم (٨٦) في الإيمان.

(٢) حسن: أحمد (٦/ ٨) في «المسند».

(٣) ج (تور) وهو إناء صغير للماء أو اللبن.

شيء غيره ولا تؤذي أحدًا. قال: «هي في الجنة»[1].

* وفي حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يشكو جاره فقال له: «**اطرح متاعك في الطريق**» قال: فجعل الناس يمرون به فيلعنونه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لقيت من الناس!! قال رسول الله ﷺ: «**وما لقيت؟**» قال: يلعنوني، قال: «**فقد لعنك الله قبل الناس**» فقال: يا رسول الله فإني لا أعود[2].

* وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**أول خصيمين يوم القيامة جاران**»[3]. فتلك هي النهاية التي تنتظر كل من يؤذي جاره:

* لعنة من الله وتعالى ورسوله والمؤمنين.
* الخصومة يوم القيامة.
* العذاب في النار.
* تغليظ العقوبة.
* النقص في الإيمان.
* أنه من الذنوب العظام والكبائر.

*** من صور إيذاء الجار:**

وتتعدد صور إيذاء الجار بتعدد المسلمين الخبثاء ممن لا يخشون الله تعالى:

(١) إلقاء سكان الأدوار العليا قمامتهم وفضلاتهم على سكان الدور الأرضي.

(٢) إقامة المظلات و(التندات) التي تنزل مياه المطر وغيرها على الجار الساكن في الأسفل.

(٣) تعلية الجدران والحوائط وحبس الشمس والهواء عن الجار.

---

(١) صحيح: الحاكم (٧٣٠٤، ٧٣٠٥) في «المستدرك» وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: الحاكم (٧٣٠٣) في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي بلفظه، وهو بنحوه عند أبي داود (٣١٥٣) في الأدب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) حسن: أحمد (٤/ ١٥١) وحسنه الألباني (٢٥٦٣) في «صحيح الجامع».

(٤) إفشاء السر، والتعيير، والتجسس، واتباع العورات والتنصت.

(٥) التشهير ببنات الجار أو زوجته أو أولاده.

(٦) إقامة حظائر الدجاج والعُشش الخشبية في (البلكونات) وجلب الحشرات الضارة التي تؤذي الصغار قبل الكبار.

(٧) رفع أصوات المسجل أثناء الليل أو النهار وعدم مراعاة المرضى، أو الطلبة الذين يذاكرون، أو النائمين، أو المشاعر عمومًا.

(٨) القيام بأعمال سحرية كربط الأزواج، وإلقاء الأحجبة ومياه السحرة على الأبواب.

(٩) افتعال المشاكل مع الجار، وإظهار الشماتة فيه.

(١٠) إخراج الصغار بالطعام والفاكهة، أو الجديد من الملابس لإغاظة صغار الجار وإثارتهم على آبائهم وأمهاتهم.

(١١) تدبير المؤامرات والمكائد بواسطة النساء، وما يعرف باسم (رمي الكلام والشتائم).

(١٢) قطع أشبار وأمتار من أرض الجار بالنسبة للمزارعين الذين تقوم الدنيا وتقعد عندهم بسبب أشبار من الأرض الزراعية، أو الدور في ري الأرض، وكلها أمور تافهة لو تدبر المسلم فيها لوجدها سرعان ما تمر.

ويرحم الله ذلك الرجل الذي كان يعاني من كثرة الفئران في داره فأمره بعضهم بشراء قط، فقال: أخشى أن يسمع الفئران صوته فيهربون إلى دار جاري[١].

(١٣) عدم مراعاة إحساس الجار في المصائب خاصة في المرض والموت.

(١٤) التعسف في استخدام الحقوق الشخصية الضارة بالغير كإقامة الحظائر والإسطبلات في المدن وفي شوارع ضيقة لا يتحمل الصغار فيها الأضرار المترتبة على هذه الأفعال.

(١٥) سرقة الجار، وعدم رد ما يقترض منه، أو الأخذ منه دائمًا بلا عطاء.

---

(١) وفي زماننا يشتري الجار الفئران لتؤذي جاره!!

(١٦) إقامة المقاهي، وصالات البليياردو، وأماكن تجمع الشباب في أسافل العمارات والدور.

ولكن... أليس في الصبر على أذى الجار خير؟

نعم فقد جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إن الله يحب الرجل أن يكون له الجار يؤذيه جواره فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما الموت أو ظعن»**[(١)]، والظعن: الرحيل.

وذهب رجل إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيق عليّ. قال: اذهب. فإن هو عصى الله فيك فأطع أنت الله فيه.

*** تحذير شديد اللهجة:**

وبعض الناس يحسن إليهم المسلمون اتقاء شرهم، وأولئك هم شر الخليقة، فقد جاء من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: استأذن رجل على النبي ﷺ فقال: **«ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»**، فلما دخل ألان له الكلام، فقالت عائشة: يا رسول الله قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام، فقال: **«إن شر الناس من تركه الناس - أو قال: ودَعهُ الناسُ اتقاء فحشه»**[(٢)]. وكم من مسلم تركه الناس اتقاء فحشه، فليتق امرؤ ربه.

*** فضل الإحسان إلى الجار:**

* جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**[(٣)].

* ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء»**[(٤)].

---

(١) صحيح: أحمد (٥/ ١٥١) في «المسند» وصححه العلامة شاكر، والألباني (٣٠٧٤) «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: البخاري (٦٠٥٤) في الأدب، مسلم (٢٥٩١) في البر، والصلة.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني (٣٢٧٠) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: رواه الحاكم وصححه الألباني (٨٨٧) في «صحيح الجامع».

مضافًا إلى السابق رضا الله تعالى، ورضا النبي ﷺ، وكل معروف صدقة، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، والمسلم في عمله بأمر الله ينال أجرين: أجر العمل، وأجر الانتهاء عما حرمه الله تعالى.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: فكل من حفظ الجيران، فقد أطاع الرحمن، وأسخط الشيطان، وعمل بالسنة والقرآن.. عباد الله من حفظ الجار نجا من النار، وجاز الصراط إلى دار القرار، ومن حفظ الجار فقد عمل بالسنة والكتاب، وأطاع الملك الوهاب، وأسخط الشيطان اللعين الكذاب.. حفظ الجار قربة ووسيلة ودرجة عند الله وفضيلة وأنشدوا:

يا حافظ الجار ترجو أن تنال به ❁ عفو الإله وعفو الله مذخور
الجار يشفع للجيران كلهم ❁ يوم الحساب وذنب الجار مغفور[(١)]

(٢) إكرام الضيف:

وأما إكرام الضيف فهو الوصية الثانية في هذا الحديث، وإكرام الضيف أن يكرمه لوجه الله وتكون ضيافته من حلال، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له[(٢)].

* وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» قالها ثلاثًا، قالوا: وما إكرام الضيف يا رسول الله؟ قال: «**ثلاثة أيام فما حبس بعد ذلك فهو صدقة**»[(٣)].

* وفي حديث المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليلة الضيف حق على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دين إن شاء اقتضى، وإن شاء ترك**»[(٤)].

* ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقروننا[(٥)] فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: «**إن نزلتم بقوم فأمروا**

---

(١) ابن الجوزي: «بستان الواعظين» صـ ٧٣، ٧٤

(٢) السابق صـ ٧١.

(٣) صحيح: أحمد (٣/ ٧٦) في «المسند».

(٤) صحيح: أبو داود (٣٧٥٠) في الأطعمة وصححه الألباني.

(٥) القرى: إكرام الضيف.

لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»[١]. فالضيافة إذًا من آداب الإسلام، وخلق النبيين والصالحين، وعامة الفقهاء على أنها من مكارم الأخلاق - كما ذكر النووي - رحمه الله[٢].

وقد عُرف عن إبراهيم عليه السلام أنه كان يقري الضيف حتى سمي بـ (أبي الضيفان» وقد قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (الذاريات: ٢٤ - ٢٧) ولذا قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: من لم يضيف فليس من محمد ﷺ ولا من إبراهيم عليه السلام[٣].

وقال عبد الله بن الحارث بن حزم: «من لم يكرم ضيفه فليس من محمد ﷺ ولا من إبراهيم عليه السلام».

وهذا لوط عليه السلام يهتف في قومه قائلاً: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ (هود: ٧٨). وكان رسول الله ﷺ كريمًا معروفًا بالكرم يجزل العطاء، ويقري الضيف، فقد قالت له أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[٤].

وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ولن يحوز هذه المنزلة إلا من جمع المكارم كلها، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه فعلمه الكرم من جملة ما علمه ﷺ وهو الذي كان يؤثر غيره بالثوب، والمال، والطعام، وهو يجوع يومًا ويشبع يومًا، يأتيه الأعرابي من البادية يغلظ له فيبسم في وجهه، ثم يعطيه من المال والزاد راضيًا، نفسه قد طابت بهذا العطاء.

* آداب الضيافة والزيارة:

وكما عودنا الإسلام فقد وضع لكل شيء أدبًا بما في ذلك الزيارة والضيافة.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٤٦١) في المظالم والغصب، مسلم (١٧٢٧) في اللقطة.
(٢) النووي (١/٢٦٦) على شرح مسلم.
(٣) «جامع العلوم والحكم» (صـ ٢٠٣) حديث رقم (١٥).
(٤) جزء من حديث صحيح: البخاري (٦٩٨٢) في التعبير.

(١) تقديم الجائزة في الليلة الأولى: فمن حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أنه قال: أبصرت عيناي رسول الله ﷺ وسمعته أذناي حين تكلم به قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته**»، قالوا: وما جائزته، قال: «**يوم وليلة**» وقال: «**والضيافة ثلاثة أيام، وما كان بعد ذلك فهو صدقة**»[١]، ومعنى هذا أن حق الضيف الجائزة: وهي المنحة والعطية، فيتحفه - أي يهديه ويزيده في البر على ما بحضرته - أي في بيته من طعام - يومًا وليلة، وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما يحضره، وبعد الثلاثة أيام يصبح ما يقدمه المضيف لضيفه صدقة من الصدقات.

فعلى سبيل المثال يذبح مثلاً للضيف في أول يوم وليلةٍ أو يقدم له طعامًا زائدًا على طعام أهل البيت الذي يضيفونه ثم يأكل من نفس طعامهم بعد ذلك.

على أنه لا يستحب للضيف البقاء أكثر من ثلاثة أيام، كما روي من حديث أبي شريح نفسه أنه ﷺ قال: «**الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يؤثمه**»، قيل: يا رسول الله كيف يؤثمه. قال: «**يقيم ولا شيء له يقريه به**»[٢]، وفي رواية البخاري: «**حتى يحرجه**»، أي يتسبب الضيف في الحرج للمضيف وهو «الضيق» لأن المضيف قد يغتابه لطول مقامه، أو يعرض له بما يؤذيه أو يظن به ظنًّا سيئًا، إلا في حالة واحدة ألا وهي: أن يرغب المضيف في طول إقامة ضيفه.

كما يتنبه هنا إلى أنه لا يتكلف المضيف لضيفه، أي يواسيه، ويبره ويكرمه بما عنده لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، مصداق حديث سلمان رضي الله عنه، وفيه: «نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا»[٣].

(٢) أن يأكل المضيف مع ضيفه ولا يقوم حتى يشبع ضيفه:

وذلك لئلا يحرجه، وقد يحدث أن يأتي الضيف في وقت صيام تطوع أو نافلة، وهنا يأكل المضيف مع ضيفه فيجني ثمرة الصيام بنيته، ويبلغ درجة إكرام الضيف

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠١٩) في الأدب، مسلم (٤٨/ ١٤- ١٦) في اللقطة.

(٢) صحيح: البخاري (٦٠١٩) في الأدب، مسلم (٤٨) في الإيمان واللقطة.

(٣) صحيح: الطبراني (٦/ ٢٣٥، ٢٧١) في «الكبير» بسند صحيح.

بفعله ونيته إن شاء الله.

ففي حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة - رثة الهيئة - فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُل فإني صائم.

فقال - أي سلمان -: ما أنا بآكل حتى تأكل - فأكل - أي أبو الدرداء رضي الله عنه. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال سلمان: نمْ. فنام. ثم ذهب يقوم فقال: نمْ، فلما كان آخر الليل، قال سلمان: قُم الآن، قال: فصلَّيا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه. فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«صدق سلمان»**(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: **«.. وإن لزورك عليك حقًّا...»**(٢)، أي: لزوارك.

وبالطبع يكون الطعام للضيف في مكان لا يطلع عليه فيه أحدٌ من أهل البيت لئلا يحرج، فيأكل حتى يشبع، ولا يرفع المضيف يده حتى يرفع الضيف يده حتى لا يوقعه في الحرج فيقوم قبل أن يتم طعامه خاصة أن السفر، والقدوم من مكان بعيد يعملان على زيادة الجوع، فيحتاج الضيف إلى سد جوعه، والأكل أكثر من أي فترة سابقة.

(٣) ويكره الغضب والجزع عند الضيف:

فالضيف لابد أن يكون بمعزل عن مشاكل أهل البيت وما بينهم من خصومات، وقد ورد عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: «إن أبا بكر تضيف رهطًا فقال لعبد الرحمن: دونك أضيافك فإني منطلق إلى النبي ﷺ فافرغ من قراهم قبل أن أجيء، فانطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده فقال: اطعموا. فقالوا: أين ربُّ منزلنا؟ قال: اطعموا، قالوا: ما نحن بآكلين حتى يجيء رب منزلنا، قال:

---

(١) صحيح: البخاري (١٩٦٨) في الصوم.

(٢) صحيح: البخاري (٦١٣٤) في الأدب، مسلم (١١٥٩/ ١٨١- ١٩٣) في الصيام.

اقبلوا عنا قراكم، فإنه إن جاء ولم تطعموا لنلقينّ منه - أي سيغضب عليهم ويوبخهم - . قال عبد الرحمن: فأبوا فعرفت أنه يَجدُ عليّ - أي يغضب - فلما جاء - أي أبو بكر - تنحيت عنه. فقال: ما صنعتم؟ فأخبروه. فقال: يا عبد الرحمن، فسكت، ثم قال: يا عبد الرحمن. فسكت. فقال: يا غُنثُر - وهو الجاهل أو الأحمق، أو اللئيم - أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي لما جئت، فخرجت فقلت: سَل أضيافك. فقالوا: صدق، أتانا به. قال: فإنما انتظرتموني، والله لا أطعمه الليلة، فقال الآخرون: والله لا نطعمه حتى تطعمه. قال: لم أر في الشر كالليلة، ويلكم! ما أنتم؟ لِمَ لا تقبلون عنا قراكم؟ هات طعامك فجاءه فوضع يده، فقال: باسم الله، الأولى للشيطان، فأكل وأكلوا»(١). فالخلاف، والغضب والجزع عند الضيف من الشيطان كما حكم الصديق رضي الله عنه وهو خير الأمة من بعد نبيها ﷺ، وهو مقتدى به، معمول بسنته إذ هو راشد، ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل منه بعد النبيين والمرسلين.

*** إيثارٌ... وإكرام!!**

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك، لا والذي بعثك بالحق!! ما عندي إلا ماء. فقال: **«من يُضيفُ هذا الليلة، رحمه الله»**، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك من شيء؟ قالت: لا، إلا قوت الصبيان، فقال لها: نوِّمي الصبية، وأطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك، فقعدوا، وأكل الضيف - ولم يأكلوا هم - فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: **«قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»**.

وفي رواية: فنزل فيهم قول الله تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**(٢) (الحشر: ٩).

---

(١) صحيح: البخاري (٦١٤٠) في الأدب، مسلم (٢٠٥٧/ ٢٧٦، ٢٧٧). والأولى للشيطان: أي الحالة التي غضب فيها وحلف.

(٢) صحيح: مسلم (٢٠٥٤/ ١٧٢، ١٧٣) في الأطعمة.

*** ضيف مؤمن!!**

وكان أحد السلف كلما مرّ بأخٍ له يملك بستانًا، قرّب إليه قطفًا من عنب فيأكله، فقالت زوجة صاحب البستان: أليس من إكرام ضيفك أن تشاركه طعامه؟ فإذا انتصف في أكل العنب فمُدّ يدك وشاركه الطعام.

فلما مرّ أخوه قدّم له العنب، ثم مدّ يده يشاركه طعامه، فإذا به يرى العنب حامضًا فقال: رحمك الله، أما أخبرتني أن هذا العنب حامض؟!!

فقال: رحمك الله، تلذذت به أيامًا مضت، وما رأيت منك إلا خيرًا أفأعيبه الآن؟! فما ضرني أن صبرت على مرارته كما ذقت حلاوته.

(٤) وأما الآداب التي يجب أن يتحلى بها الضيف:

* فلا يزور ضيفه في وقت حرج كالصباح الباكر، أو وقت راحته نهارًا، أو الليل المتأخر.

* ولا يزوره فجأة، بل يعلمه بالقدوم عن طريق الهاتف أو البريد؛ لئلا يفجأه دون استعداد منه.

* ألاّ يعيب طعامًا قُدم له وإلا تركه، ولا يتبجح في طلب طعام بعينه.

* أن يجلس في وقار وسكينة دون تحرك فوضوي داخل البيت.

* عدم تجوال البصر في الأشياء الخاصة بالضيف كالأوراق، والكتب، والملابس.

* ألا يتدخل فيما لا يعنيه من أمور الضيف الخاصة.

* عدم التطلع إلى محارم الضيف من النساء.

* الهدوء وعدم رفع الصوت.

* ألا يستكثر مما يستقذره الناس كالنخامة، والعطاس، والتثاؤب.

* عدم إطالة الإقامة أكثر من أيامٍ ثلاثة حتى لا يحرجه ويؤثمه، ويسبب له الإحراج أو تعطيل المصالح الدينية والدنيوية.

* اصطحاب هدية لأصحاب الدار فإن الهدية تُسل السخيمة، وتثلج الصدور.

* الائتمار بأمر صاحب الدار فلا خروج ولا دخول إلا بإذنه، فإن صاحب الدار

هو أميـره، كما لا يؤمه في بيـته إلا بإذنه كما جـاء في الحديث: **«لا يُؤمُّ الرجل في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته في بيته إلا بإذنه»**(١).

* عدم التعدِي على متاع صاحب الدار إلا بإذنه كما في الحديث عن السائب بن يزيد مرفوعًا: **«لا يأخذن أحدكم متاع صاحبه لاعبًا ولا جادًّا، وإن أخذ عصا صاحبه فليردها عليه»**(٢)، وعدم الإثقـال على المضيف في مـسألة الهـاتف تحديدًا فـإنها مما يغضب ويوقع العداوة والبغضاء في القلوب.

* عدم التخفف في الدار لئلا تطلع عليه النساء، أو الصغار.

* تقديم الدعاء له بعد الطعام: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة»(٣).

أو يقول له: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم، وارحمهم»(٤).

* والصلاة في داره، وتلاوة القـرآن، وتذكيره بالله تعـالى، ثم دعوته لرد الزيارة في العاجل القريب.

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن ابن مسعـود، ورواه مسلم بنحوه، وصححه الألباني (٧٥٨١) في «صحيح الجامع».

(٢) حسن: حسنه الألباني (٧٥٧٨) في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: صححه الألباني (صـ ٩١، ٩٢) في «آداب الزفاف».

(٤) صحيح: مسلم (٢٠٤٢) في الأشربة عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه.

الدعاء والذكر والتوبة

[١] الدعاء في مواجهة البلاء.

[٢] ذكر الله عز وجل.

[٣] التوبة والاستغفار.

[١] الدعاء في مواجهة البلاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(١).

❁ ❁ ❁

* **الدعاء في حياة المؤمن:**

يمثل الدعاء في حياة المؤمن أهمية كبرى، كجزء من عبادته لربه سبحانه وتعالى يحقق بها أرقى مراتب القرب من ربه سبحانه وتعالى وهي العبودية، فما من شك أن كثرة الدعاء والابتهال والتضرع لله عز وجل تحقق قربًا ودنوًا من حضرة الحق سبحانه وتعالى.

والدعاء هو الاستعانة بالله تعالى، وسؤاله عز وجل، والرغبة إليه، كما أن الدعاء هو العبادة، كما روي عن النبي ﷺ من حديث النعمان بن بشير، ثم تلا النبي عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)(٢).

وها هو الحق عز وجل يجعل الفاتحة - فاتحة الكتاب - متصدرة للقرآن مفتتح بها، لا تجوز الصلاة بغيرها، وفيها قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فترى ربنا سبحانه يعلمنا أن نلجأ إليه ونسأله وإن لم يكن هناك موضع للسؤال حتى تتحقق العبودية كاملة.

ولم يكن هذا فقط هو الأمر بالدعاء، ولكن تكرر الأمر بالدعاء في القرآن أكثر من مرة حيث قال عز وجل:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف: ٥٥).

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٣٣٧٣) في «سنن الترمذي»- كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: صححه الألباني (٣٣٧٢) في «سنن الترمذي»- كتاب الدعوات.

وقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ١٤).

وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وهذه الآية تعطي تصورًا كاملاً لأولئك الخلق من عباد الله الأتقياء، فهم الذين يدعون ربهم عز وجل رغبة في رحمته، ورهبة من عذابه، وهو الخوف ثم الرجاء جناحان يطير بهما المؤمن مُحلقًا في سماء الإيمان.

وإنما يستشعر الإنسان أهمية الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل عندما يشعر بحاجته الماسة إلى الله عز وجل، فيستيقن أن لا معين غيره، وألا رجاء إلا منه، فعندئذٍ يدعوه بقلب صادق، وشعور مستيقظ خاضع، وذلك كمن وقع في كرب أطبق عليه، وعجز جميع الناس عن تفريج كربه حتى يئس منهم، وعلم أن الله عز وجل وحده الذي إذا شاء فرَّج كربه، وأزال ضره، فرفع يديه إلى السماء مناديًا بملء فمه، قد تجاوبت أركان قلبه: يا رب.

وأما السابحون في بحر الهوى فقد زالت عنهم هذه اللذة، فقد راحوا يتقلبون في حمأة المحرمات وينغمسون في أمواج الأهواء، فسخروا من الدعاء لأنهم مماليك قنعوا بالجنات المخلوقة.

وانظر إلى رسول الله ﷺ يروي عنه أبو هريرة قوله: **«من لا يسأل الله يغضب عليه»**[(١)].

ثم تراه قائلاً: **«يسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»**[(٢)].

وهو ما يعني بالضرورة أن الله تعالى يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة، وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة، وذلك أنه عز وجل الذي تفرد بالخلق، والهداية، والرزق، والإحياء والإماتة في

---

(١) حسن: الترمذي (٣٣٧٣) في الدعوات، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح: ابن حبان (٨٦٦) في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، وهو عند مسلم بنحوه (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها.

الدنيا والآخرة فهو عز وجل مستحق أن يفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٤٠).

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه مفتقرًا إليه قائلاً يوضح نعمه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء: ٧٨ - ٨٢).

إن ما نقف عليه من معنى في هذه الآية هو أن الله عز وجل حرر البشر من عبادة الأوهام، وقرر أنه خالق الكون، والإنسان جزء من هذا الكون، فكيف لا يستعين بالخالق على خلقه مهما كانت ضخامة الخلق؟ بل إن الحق عز وجل ليرشدنا أنه إذا ضاق الحال فليلتجأ المؤمن إلى العبودية وتمامها وتحقيقها الدعاء والافتقار إليه عز وجل، فكل نعمة إنما هي من عنده عز وجل، وكل كفاية من الأذى أو الأقدار إنما كانت به تعالى، لأنه سبحانه عز وجل هو الكافي[(١)].

والدعاء يمثل أكرم الأشياء على الله عز وجل، وهو الكريم الأكرم سبحانه حيث قال ﷺ: «**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**»[(٢)].

وتزداد ضرورة الدعاء حين نعلم أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، وهو أيضًا الذي يرد القضاء: «**فلا يرد القضاء، إلا الدعاء**»[(٣)].

وقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - مقامات الدعاء مع البلاء فقال:

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن.

وللدعاء مع البلاء مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن

---

(١) انظر دراستنا: «الجامع لأسماء الله الحسنى» (صـ ٧٤) دار الفجر للتراث.

(٢) حسن: البخاري (٧١٢) في «الأدب المفرد»، أحمد (٢/ ٣٦٢) في «المسند».

(٣) حسن: الترمذي (٢١٣٩) في سننه، وحسنه الألباني.

قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كل واحد منهما صاحبه[(١)].

والأمر يتوقف إذن على قوة الدعاء وهي - أي قوة الدعاء - متوقفة على قوة القلب وتغلغل الإيمان فيه، وإقباله على ربه عز وجل. كما في الحديث: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»**[(٢)].

فقد صار الأمر إذن في الدعاء أكثر منه في الإجابة كما قال الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح[(٣)].

لقد كان عمر رضي الله عنه يحمل هَمَّ الدعاء لا الإجابة، فإذا ألهم الدعاء كانت معه الإجابة.

ولذلك كانت تلك الكلمة القوية التي ينبعث صداها من داخل قلوب المؤمنين: «لأن أُحرم الدعاء أشد عليّ من أن أُحرم الإجابة»، ولقد صدق فإن الدعاء مفتاح الحاجة، وهو مستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب.

وقد ذم الله تعالى قومًا تركوا الدعاء فقال: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧).

قيل: لا يمدونها إلينا في السؤال.

أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه!!

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢).

ومجيب المضطر سبحانه هو الذي ينيل سائله ما يريد، لا يقدر على ذلك غيره وهو سبحانه لا مسافة بين عبده وبينه، يسمع دعاءه ولا يخفى عليه حاله، قريب بعلمه من خلقه، قريب ممن يدعوه بالإجابة، أجاب من دعاه، واقترب منه حين توجه إليه يسأله[(٤)]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

---

(١) انظر: «الداء والدواء» لابن قيم الجوزية (صـ ١٢) بتحقيقنا.

(٢) حسن: الترمذي (٣٤٧٩) في الدعوات.

(٣) «الزهد» (صـ ٦٩) ط دار الريان.

(٤) انظر: «الجامع لأسماء الله الحسنى» صـ ٢٣٦.

وهناك لا يجد العبد مفرًّا من الافتقار إلى الله والاعتماد عليه، والعلم بأنه سامع لدعائه، عالم ببلائه، خابر للسراء والضراء[١].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٦٧). وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣). فهو سبحانه الذي لا يلجأ المضطرون إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

وفي هذا يروي الإمام أحمد بسنده أن رجلاً من بلهجيم قال: قلت يا رسول الله إلاَم تدعو؟

قال: «**أدعو إلى الله وحده الذي إن مسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر[٢] فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة[٣] فدعوته كشف عنك**»[٤].

وقال الإمام القرطبي: «ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢).

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه... والمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر، لأنه منقطع عن أهله ووطنه، منفرد عن الصديق والحميم لا يسكن قلبه إلى

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» (صـ ٩٣) للعز بن عبد السلام.

(٢) قفر: جدباء.

(٣) سنة: جدب وقحط.

(٤) صحيح: صححه الألباني (٧٣٠٩) في «صحيح الجامع»، وانظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٠).

مساعد ولا معين لغربته، فتصدق ضرورته إلى المولى، فيخلص إليه في اللجوء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي: الضر والجور[١].

أما المضطر فهو ذو الضرورة المجهود، لا حول له ولا قوة، قطعت عنه العلائق عما دون الله أو هو المفلس، أو هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعيًا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها.

وقال الشاعر:

وإني لأدعو الله والأمر ضَيِّقٌ ❁ عليَّ فما ينفك أن يتفرجا

وَرُبَّ أخٍ سُدَّت عليه وجوهه ❁ أصاب لها لما دعا الله مخرجا

قال سهل بن عبد الله: «أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال»[٢]، ودعاء الحال أن يكون صاحبه مضطرًّا لا بد له مما يدعو لأجله، ولعل خير الدعاء ما هيجته الأحزان، وتكالبت عليه المحن، والآلام، والتعب، والأوصاب، فلم يجد سوى باب ربه تعالى، فأظهر الحاجة بين يديه، وهو سبحانه الذي لا شريك له فيؤتى، ولا وزير فيُرشى، له الحجة على الجميع، كيف لا يدعوه العاصي، وكيف لا يدعوه وهو كريم سبحانه وتعالى؟!!

ذلك هو طاوس العابد الفقيه يعود مريضًا فقال له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال له: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه[٣].

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر، فقال مالك: إذن فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه[٤].

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «مجابي الدعوة»[٥] عن الحسن البصري قال:

---

(١) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٣١- ٢٣٣).

(٢) أي ما يمليه الوقت على القلب واللسان من دعاء.

(٣) ابن كثير (٦/ ٩١) في التفسير.

(٤) القرطبي (١٣/ ٢٣١) في التفسير.

(٥) انظره (صـ ٣٨، ٣٩)، و«الداء والدواء» (صـ ٢١) لابن القيم.

«كان رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يُكَنَّى أبا معلق، وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرة فلقيه لص مُقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك، قال: فما تريده من دمي؟ شأنك بالمال.

قال اللص: أما المال فمالي، ولست أريد إلا دمك.

فقال: أما إذ أبيت فذرني أصلي أربع ركعات.

فقال: صَلِّ ما بدا لك، فتوضأ فصلى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: «يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك: أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني (ثلاثًا)».

فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بَصُرَ باللص أقبل نحوه، فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه، فقال: قم. فقلت: من أنت بأبي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم؟

فقال: أنا مَلَكٌ من السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول، فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروب، فسألت الله أن يوليني قتله».

وما أروع ما جاء في بعض الكتب القديمة التي أنزلها الله عز وجل فيها عن وهب ابن منبه قال: قرأت في الكتاب الأول، أن الله تعالى يقول: «بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء فأكِلُهُ إلى نفسه».

ولقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»**[(١)].

---

(١) حسن: أبو داود (٥٠٩٠) في الأدب، البخاري (٧٠١) في «الأدب الفرد».

ويروى أن امرأة ذهبت إلى الجنيد[1] فقالت: ادع الله لي، فإن ابنًا لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت ثم عادت، فقالت مثل لك، فقال لها الجنيد: اذهبي واصبري، فمضت ثم عادت ففعلت ذلك مرات والجنيد يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري[2] ولم يبق لي طاقة فادع لي، فقال الجنيد: إن كان كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك، فمضت ثم عادت تشكر له، فقيل للجنيد: بم عرفت ذلك؟

فقال: قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢).

ونقل الإمام أحمد عن قتادة عن مورق قال: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب، لعل الله عز وجل أن ينجيه[3].

فالمضطر هو ذلك الذي انقطعت الأسباب لديه وغلقت الأبواب دونه، وصار كذلك الغارق في بحر لجي فيه ظلمات بعضها فوق بعض، تلاطمت الأمواج فيه حتى طغت فصارت عاتية، فلا ملجأ ولا منجا له من الله إلا إليه.

وها هو المضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلق، وتشتد الخنق، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة، وأسباب الخلاص، لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده، وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى، وكل ما كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى.

هنا تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق[4].

وهكذا ترى الناس يلتمسون القوة والنصرة من الله حين تلجئهم الشدة،

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد، كان يقال له: القواريري، كان فقيهًا على مذهب أبي ثور، وهو سيد الطائفة، صاحب خاله السري السقطي، والحارث المحاسبي، ت (٢٩٧هـ).

(٢) عيل صبري: نفد وذهب.

(٣) «الزهد» (صـ ٣٠٥).

(٤) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٥٨) للأستاذ سيد قطب.

ويضطرهم الكرب، فتزول عنهم غشاوة الغفلة ويرجعون إلى ربهم منيبين إليه مضطرين وإن كانوا من قبل غافلين.

وهكذا يصبح المضطر مهمومًا محزونًا، أو مريضًا، أو صاحب دَين يصعب قضاؤه، أو واقعًا في ورطة، خائفًا من سلطان، أصيب بالوحشة، أو الوسوسة، أصابه الضر، فعسرت معيشته وضاق رزقه، أو أصابته نكبة، أو انقطعت به السبل فتعسرت المعيشة عليه، وهو الضر الذي يكشفه ربنا عز وجل لم يجعل واقعًا فيه إلا وعلمنا دعاء ندعو به، أو هكذا فعل رسول الله ﷺ، حتى لا يكون للناس على الله حجة، فقد قامت الحجة ولم يبق إلا الدعاء عند الاضطرار وفي الرخاء.

❁ ❁ ❁

الدعاء....

آدابه، وأوقاته، وآفاته

١ ـ آداب الدعاء:

وحتى يستجاب الدعاء، وتفتح له أبواب السماء، ويقبله الله تعالى ﷺ فله آداب ينبغي أن يتأدب بها الداعي، حتى يقبل منه ربه عز وجل ما كان منه من دعاء، ويرفع عنه البلاء، ويمن عليه بالعطاء، ومنها:

آداب قبل الدعاء:

*** التعفف عن الحرام، وأكل الحلال:**

فإن الحرام يبطل قوة القلب ويضعفها، وفي الحديث: **«ولا يقبل الله إلا طيبًا»**[(١)]، وذلك لأن طيب المطعم يزكو به عمل المؤمن، وأكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ**

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٤١٠) في الزكاة، مسلم (١٠١٤) في الزكاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١).

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** (البقرة: ١٧٢).

-ثم ذكر- **الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب... يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»**[(١)].

فكيف يستجاب له؟ وهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد، فالتوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة[(٢)].

وقيل لسفيان الثوري: لو دعوت الله؟ قال: إن ترك الذنوب هو الدعاء.

وقال محمد بن واسع: يكفي مع الدعاء من الورع اليسير.

وقال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة، وقد سددت طرقها بالمعاصي وما أروع قول الشاعر:

نحن ندعو الإله في كل كرب ❁ ثم ننساهُ عند كشف الكروب

كيف نرجوا إجابة لدعاءٍ ❁ قد سددنا طريقها بالذنوب

*** الابتعاد عن الذنوب، وترك الغفلة واللهو:**

فقد روى الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»**[(٣)].

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد[(٤)] لأبيه: أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم:

إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفًّا قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم بالحرام، الآن اشتد غضبي عليكم!! ولن تزدادوا مني إلا بُعدًا.

---

(١) صحيح: مسلم (١٠١٥) في الزكاة.

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (صـ ١٧٥) بتحقيقنا ط دار الفجر للتراث.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «الزهد» (صـ ٦٩) للإمام أحمد بن حنبل.

ومن آداب ما قبل الدعاء أيضًا:

أن يكون الإنسان على وضوء، وأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يستقبل القبلة.

آداب أثناء الدعاء وبعده:

ومن هذه الآداب نذكر الآتي:

* حصول الافتقار والذل إلى الله تعالى، والتبذل في الهيئة والملبس:

كما جاء في الحديث: **«رب أشعث أغبر ذي طِمْرين لو أقسم على الله لأبَرَّه»**(١)، ولقد كانت القدوة في النبي ﷺ حين خرج للاستسقاء متبذلاً متواضعًا متضرعًا(٢).

وكان مطرف بن عبد الله إذا دعا استند إلى عكاز بيده، ولبس أثوابًا بالية، فقيل له: ما هذا؟ قال: أستكين لربي لعله أن يشفعني فيمن أدعو له.

*** رفع اليدين ومدهما إلى السماء:**

وهو أدب يرجى به استجابة الدعاء، وقد روى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى حَيِيٌ كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين»**(٣).

وقد روى البخاري ومسلم أنه ﷺ كان يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه، وكذلك روى مسلم أنه ﷺ يوم بدر رفع يديه في الدعاء يستنصر على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

وربما رفع ﷺ يده، أو إصبعه السبابة فقط كما روى مسلم، وروي بطريق صحيح أيضًا أنه ﷺ قلب يديه على ظهورهما ودعاه سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه: «استسقى هكذا - يعني النبي ﷺ مد يديه وجعل بطونهما مما يلي الأرض-»(٤).

---

(١) صحيح بشواهده: الحاكم (٧٩٣٢) في مستدركه. والطمرين: الثوبين الباليين.

(٢) حسن: الترمذي (٥٥٨) في الجمعة، ابن ماجة (١٢٦٦) في إقامة الصلاة.

(٣) صحيح: أبو داود (١٤٨٨) في الدعاء.

(٤) صحيح: أبو داود (١١٧١) في الصلاة.

*** الإلحاح على الله في الدعاء والثناء عليه عز وجل:**

وهو ما يكون بذكر الله عز وجل بتكرار ذكر ربوبيته، وهو أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء ولعلنا إن قرأنا سورة الفاتحة وجدنا في بدايتها الثناء عليه عز وجل ثم الدعاء، وهكذا أعطانا سبحانه وتعالى المفتاح: ثناء عليه عز وجل فاقترب العبد منه، وحضر بين يديه، فصار في ميدان الوحدانية خاضعًا ففتح الله تعالى له الباب وقربه، فلا دعاء بغير ثناء عليه سبحانه وتعالى، وإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، ولا يزال ناظرًا إلى عبده ما لم يلتفت.

*** ذكر الأعمال الصالحة:**

كما توسل أصحاب قصة الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فذكر كل واحد ربه بما قدم من عمل صالح أخلصوا فيه لربهم عز وجل، ثم دعوا بها فأجيبت دعوتهم[(١)]. وقال وهب بن منبه: «العمل الصالح يبلغ الدعاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

وقال أيضًا: مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر.

دعاء الله تعالى وهو موقن بالإجابة كما سبق في الحديث.

ومن هذه الآداب أيضًا:

* الدعاء ثلاثًا.

* الدعاء عند الاضطرار والشدائد.

* اللجوء إلى الله تعالى لا إلى سواه.

* التذلل بالبكاء وخشوع القلب، وخفض الصوت كما فعل زكريا عليه السلام ساعة دعا ربه سبحانه فقال سبحانه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣).

* رد العيب إلى النفس، وعدم نسبة الشر إليه سبحانه وتعالى.

* الصلاة على رسول الله ﷺ فكل دعاء موقوف بين السماء والأرض حتى يصلى عليه[(٢)].

---

(١) انظر القصة عند البخاري (٢٢١٥) في البيوع، مسلم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء.

(٢) حسن: حسنه الألباني (٢٠٣٥) في «الصحيحة» عن أنس رضي الله عنه.

* اختيار وقت الدعاء وهذه الأوقات منها الآتي:

*** الدعاء في الثلث الأخير من الليل:**

وفي الحديث: **«إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»**(١).

وفيه أيضًا حديث يوضح أن هذه الساعة هي الثلث الأخير من الليل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل، أو لثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يقول: من يقرض غير عديم ولا ظلوم»**(٢).

*** الدعاء عند الأذان، وعند التقاء الجيشين:**

كما في حديث سهل بن سعد يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«ثنتان لا تردان، أو قلما تردان: الدعاء عند النداء** - أي: الأذان - **وعند البأس، حين يلحم بعضهم بعضاً»**(٣).

*** بين الأذان والإقامة:**

كما روى أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»**، قالوا: فماذا نقول يا رسول الله؟ قال: **«سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة»**(٤).

*** يوم الجمعة:**

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: **«فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو يصلي، يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه»**، وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة: **«وهي ساعة خفيفة»**.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم:

- هي ساعة من بعد العصر إلى الغروب.

---

(١) رواه مسلم (٧٥٧) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) رواه مسلم (٧٥٧/ ١٧١) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: أبو داود (٢٥٤٠) في الجهاد.

(٤) صحيح: الترمذي (٢١٢) في الصلاة.

- أو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

- أو حين يجلس الإمام على المنبر حتى يفرغ من الصلاة.

- أو هي آخر ساعة من يوم الجمعة، وقيل: عند الزوال.

- وقيل: هي من حين تقام الصلاة حتى يفرغ.

- وقيل: هي مخفية في اليوم كله كليلة القدر(١).

*** حين السفر:**

كما جاء في الحديث: **«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده»**(٢).

وحينما يفطر الصائم، وآخر ساعة بعد العصر، وفي أدبار الصلوات المكتوبة، وفي ليلة القدر، وساعة نزول المطر، وبعد الانتهاء من التشهد، وساعة الفزع ليلاً من النوم، وحين الاضطرار، والدعاء للمسلم بظهر الغيب.

آفات الدعاء:

ونقصد بها الأسباب التي لا يستجاب بسببها الدعاء ومنها:

١ - أن يأكل العبد من حرام، وقد ذكرنا الأحاديث والآيات في ذلك.

٢ - استبطاء الإجابة ومعناها أن العبد يسرع ويستعجل فيدع الدعاء، وهذا بمنزلة من بذر بذرًا، أو غرس غرسًا، فجعل يتعهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإنباته تركه وأهمله. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»**(٣).

٣ - الدعاء بإثم أو قطعية رحم: كما جاء في الحديث: **«لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم»**(٤).

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» بشرح النووي (٣/ ٣٣٦).

(٢) حسن: الترمذي (١٩٠٥) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: البخاري (٥٩٨١) في الدعوات، مسلم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: مسلم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء.

٤ - الوقوع في الذنوب وعدم التوبة منها، والإصرار عليها.

٥ - لعنة الإنسان غيره بأن يقول: اللهم العن فلانًا.

٦ - الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا، أو الآخرة، أو الدعاء على النفس بالموت.

٧ - الإشراك في الدعاء: بمعنى أن يدعو المسلم غير الله معه، كزوار القبور والأضرحة، فتراهم يشركون صاحب القبر مع الله عز وجل، فيتوسلون به، ويتمرغون أمام الضريح، وينذرون الذبائح لغيره سبحانه، وهكذا لا يستجاب الدعاء، أو أن يقع المسلم في بدعة أخرى وهي مسح الوجه باليد وضمهما إلى الصدر، أو عدم التزام السنة المطهرة وآداب الدعاء.

*** كيف تكون هيئة داعي ربه سبحانه وتعالى؟**

يتخير العبد وقتًا مناسبًا للدعاء من الأوقات التي سبق وذكرناها، ويجتهد في أن يصادف قلبه خشوعًا لله عز وجل، وانكسارًا بين يديه، وذلاً له، وتضرعًا ورقة.

ثم يستقبل القبلة على أن يكون على طهارة.

ويرفع يديه إلى الله تعالى، ويبدأ بحمده عز وجل والثناء عليه.

ثم يثني بالصلاة والسلام على محمد ﷺ عبده ورسوله.

ثم يقدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار.

ثم يدخل على ربه عز وجل، ويلح عليه في المسألة، ويدعوه رغبة ورهبة ويتوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

ويقدم بين دعائه صدقة على أن يكون من الذين لا يأكلون الحرام، ولا يتصدقون به، عندئذ قلما تخطئ العبد الإجابة، خاصة إذا دعا بما هو مأثور عن النبي ﷺ من الأدعية، أو ما جاء به القرآن من جوامع الدعاء، غير متكلف في دعائه، وإذا تأخرت الإجابة فليلح على ربه سبحانه، فلعله عز وجل أن يؤخر إجابة الدعاء لحكمة لا يعلمها إلا هو، فهو سبحانه الذي يقدر، ويدبر، فهو المدبر سبحانه، خالق كل شيء بقدر، وقدَّر الأقدار والأقوات تقديرًا، وسبَّب الأسباب، وهو

سبحانه الحكيم لا فعل له إلا وفيه الحكمة الظاهرة، ولئن خفيت بعض الوقت فلابد من ظهورها.

ولربما اختبأ الله تعالى الدعوة لصاحبها يوم القيامة وعندئذٍ تمنى العبد أن لو ادخر ربه عز وجل كل دعائه لما يراه من الرفعة والخير.

وقد يكون الخشوع أقل، ويحتاج الأمر إلى خشوع أكثر.

وفي الآثار عن السلف: من رأى أن في إخلاصه إخلاص، فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

ولعل في هذه الكلمات كفاية لإخواننا حتى يقبلوا على الله بقلوب مؤمنة مخلصة، ملؤها الإيمان الراسخ، والعقيدة القوية؛ ليجدوا في الدعاء مستراحًا من هموم دنياهم.

اسم الله الأعظم:

لا يكاد كتاب من الكتب التي اهتمت بالأذكار والأدعية يخلو من الحديث عن اسم الله عز وجل الأعظم، وهو الاسم الذي يلهمه الله تبارك وتعالى عبدًا من عباده، وهو أيضًا الاسم الذي إذا سئل به الحق عز وجل أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

وحريٌّ بكل مسلم أن يتعلم هذه الأدعية، وأن يحفظ إياها، لعله إن وقع في شدة أو بأس، استغاث بها لربه سبحانه وتعالى فاستجاب له ربه عز وجل، ومن هذه الأحاديث نسوق الآتي:

* ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم»**(١).

* وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: **«اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه»**.

(١) رواه البخاري (٥٩٨٥) في الدعوات، مسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء.

قال القاسم: فالتمستها فإذا هي آية: الحي القيوم(١).

* وتروي أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:**
﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ (البقرة: ١٦٣).
وفاتحة آل عمران: ﴿**الٓمٓ ۞ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ (آل عمران: ١، ٢)»(٢).

* وروى عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «**لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب**».

وفي لفظ: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم**»(٣).

* وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ جالسًا، ورجل يصلي، ثم دعا فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»(٤).

* وكان النبي ﷺ يقول: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»(٥).

أي تعلقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

* وروى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون** - أي يونس عليه السلام - **إذ دعا وهو في بطن الحوت:** ﴿**أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الأنبياء: ٨٧)، **إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»(٦).

* وقد قيل: إن اسم الله الأعظم سبحانه هو: الله.

---

(١) حسن بشواهده: الحاكم (١/ ٥٠٥) في «المستدرك»، وصححه الألباني (٧٤٦) في «الصحيحة».
(٢) حسن: الترمذي (٣٤٧٨) في الدعوات، وقال: حسن صحيح.
(٣) صحيح: الترمذي (٣٤٧٥) في الدعوات.
(٤) صحيح: أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة، النسائي (٣/ ٥٢) في السهو.
(٥) صحيح: أحمد (٤/ ١٧٧) في «المسند».
(٦) صحيح: الحاكم (١/ ٥٠٥) وصححه ووافقه الذهبي.

* وقيل: هو في الفاتحة نظرًا لجمعها بين الحمد والثناء، والشكر والدعاء، والتقديس والتسبيح ولما فيها من فوائد كثيرة جمعها العلماء في أكثر من مكان من كتب التفاسير.

ومما يرجى أيضًا في هذا الأمر هو التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته العلى وهو من قبيل تجوال القلب داخل ميدان التوحيد يتعبد مولاه سبحانه وتعالى.

وهو القائل عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

فهي أسماء حسنة في الأسماء والقلوب، تدل على توحيد الله تعالى، ورحمته وأفضاله، وهي الدالة على الخير بلا نقصان.

والله عز وجل رب كل شيء ومليكه، رب الأولين والآخرين، رب المشرقين والمغربين، رب السموات والأرض وما بينهما، رب العالمين، رب الآخرة والأولى، مالك الملك فلا شريك له في ملكه، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ، ويصل من يشاء، ويقطع من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، ويخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثًا، ويهب لمن يشاء ذكورًا، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا، ويجعل من يشاء عقيمًا، إنه عليم قدير، أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون، ودبر فأحكم، وقضى فأبرم، لا رادَّ لقضائه، ولا مضاد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا شريك له في ملكه، ولا إله غيره، ولا رب سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١).

ومن علم هذا عن ربه عز وجل لجأ إليه، واستكان إليه، وخضع له، وذلَّ له، واقترب من حضرته، ورجا عفوه، ورحمته سبحانه وتعالى، فلا إله غيره ولا

(١) «معارج القبول» (١/ ٨٠، ٨١).

مجيب للدعاء سواه سبحانه وتعالى عما يشركون.

*** دعاء عند الكروب والهموم والأحزان:**

كثيرًا ما يتعرض الإنسان في حياته لبعض الأمور التي تجعل من الحياة أمرًا صعبًا، خاصة إذا تعلق الأمر بحدوث كرب أو شدة، وعجز الإنسان عن قضاء حاجته، وهنا تجد الأدوات البشرية كلها قد توقفت عن العمل، ولا راد لقضاء الله عز وجل، ولا يجد المسلم سوى باب الدعاء، حيث يوجه ناظريه إلى السماء ملتجئًا لمولاه عز وجل، يعينه في شدته، وينصره في حاجته فيقضيها له، ويمده بعونه ورعايته، ذلك أن رب السماء سبحانه هو ملجؤنا وهادينا، لا نلجأ إلا إليه، ولا ندعو إلا هو عز وجل، ولا نفزع في شأن إلا له هو سبحانه، فهو ولي المؤمنين، وهذا هو رسول الله ﷺ يقول: فيما يرويه ابن عباس - رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

ولقد سبق من ربنا عز وجل أنه قال: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ (النمل: ٦٢).

والواقع في الهم والكرب مضطر لا باب له إلا باب مولاه سبحانه وتعالى فيلجأ إليه داعيًا إياه، وراجيًا منه أن يرفع عنه البلاء والضر كما رفعه عن أيوب عليه السلام إذ قال: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ**﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

وهو سبحانه الذي رفع البلاء عن يونس إذ قال: ﴿**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الأنبياء: ٨٧).

وهذا هو يوسف عليه السلام يهتف: ﴿**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (يوسف: ٣٣).

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة، وقال الألباني: صحيح.

وهذا هو نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (الصافات: ٧٥).

فهي حياة الأنبياء: قوامها ومادتها البلاء، والنجاة فيها حسن الصلة بالله تعالى، فلا ترى النبي منهم إلا مداومًا على صلته بربه، ملحًّا عليه، سائلاً إياه وهذا هو الطريق إلى الفوز والاستعلاء.

لكنا قبل أن نذكر الأدعية المأثورة في هذا المضمار يجب أن نشير إلى أن الرضا بقضاء الله تعالى هو أحب الأمور إليه سبحانه.

ولقد جاء في الحديث عن صهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سرَّاء شكر، وكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، وكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**(١).

وفي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**(٢).

والرضا بالقضاء هو باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين، وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المُبتلي وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متهم في القضاء.

وتارة يلاحظون عظمة المُبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، ورحم الله من قال:

عذابه فيك عذب ❁ وبُعْده فيك قرب
وأنت عندي كروحي ❁ بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني ❁ لما تحب أحب

وإن لم يكن الرضا فليكن الصبر كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

---

(١) صحيح: مسلم (٢٩٩٩) في الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: الترمذي (٢٣٩٦) في «الزهد».

لكن لا مفر من الدعاء، واللجوء له سبحانه وتعالى لفك الكرب، ورفع البلاء، وهنا نلتقط حديثًا له ﷺ عن فضالة بن عبيد قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عَجِلَ هذا» ثم دعاه، فقال له أو لغيره: **«إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء»**(١).

*** الأدعية المأثورة في هذا الأمر:**

* عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»**(٢).

وقوله: **«إذا حزبه أمر»**: إذا نزل به أمر مهم أو أصابه غم.

* وعن أبي بَكْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال: **«دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»**(٣).

* وعن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: **«ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري - أو قال: بصري - وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا»**، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ قال: **«بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»**(٤).

* وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم»**(٥).

---

(١) صحيح: الترمذي (٣٤٧٧) في الدعوات.

(٢) حسن بشواهده: أحمد (١/ ٢٢٨)، ابن ماجة (٣٨٨٣) في الدعاء.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٩١) في «المسند»، وصححه الألباني (١٩٩) في «الصحيحة».

(٥) سبق تخريجه.

* وعن أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب - أو في الكرب - الله الله ربي لا أشرك به شيئًا»**(١).

* وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** (الأنبياء: ٨٧). **لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط، إلا استجاب الله له»**(٢).

* وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لقنني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها: **«لا إله إلا الله الكريم العظيم، سبحانه تبارك الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين»**.

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب -ينفث- بها على الموعوك ويعلمها المغتربة من بناته(٣).

والموعوك: هو الذي أصابته الحمى ﷺ، والمغتربة: من تزوجت من غير أقاربها.

* وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا أهمه رفع رأسه إلى السماء، فقال: **«سبحان الله العظيم»**.

وإذا اجتهد في الدعاء قال: **«يا حي يا قيوم»**(٤).

* ولقد كان أكثر دعائه ﷺ: **«اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»**(٥).

وزاد مسلم في روايته: «وكان أنس بن مالك - وهو راوي الحديث - إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيه».

ولعلنا إن عدنا إلى القرآن الكريم وجدنا دعاءً دعا به موسى عليه السلام يعبر فيه عن الرضا بقضائه سبحانه رغم ما كان فيه من الضيق والكرب عندما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي

---

(١) حسن: أبو داود (١٥٢٥) في الصلاة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: أحمد (١/ ٩٤) في «المسند».

(٤) صحيح: الترمذي (٣٤٣٦) في الدعوات.

(٥) صحيح: البخاري (٦٣٨٩) في الدعوات، مسلم (٢٦٨٨) في الذكر والدعاء.

لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤).

ولقد كان لم يذق طعامًا سبعة أيام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فما أن وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وكان قد بلغ به الجوع، واخضرَّ لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم خلق الله على الله، فإذا به يعرض بالدعاء، ولا يصرح بالسؤال(١).

فانظر إليه عليه السلام قال هذا الدعاء ودعا به، فما لبث أن: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥).

فلم يكن بين الدعاء والإجابة سوى حرف الفاء. دلالة على أن الرضا بالقضاء يسرع بالإجابة، فأبدله ربه بالجوع شبعًا، وبالعطش ريًّا، وبالخوف أمنًا، وأبعده عن الظالمين وجعله في رفقة نبي من الأنبياء، وصاهره، وأكرمه، وجعله راعيًا لماله.

وبعد... فإن الإنسان ضعيف القوة، ضعيف البنية، ضعيف الإرادة كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، ومع ذلك فالآفات أسرع إليه من أي كائن آخر، فلا بد من حافظ يعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد والمعين، فالهلاك أقرب إليه من نفسه!!

فكيف يستعين الضعيف بالضعيف مثله؟! أم كيف يشتكي الرحيم إلى عباده؟! إنه لا بأس من الاستعانة بالعباد في بعض الأمور، أما أن يظن أن الخلق هم مفاتيح الفرج فيتعلق بهم، ويتوكل عليهم نسيانًا لله تعالى فهذا هو القدح في التوحيد، والدخن والخلل في العقيدة، ولقد نادى سبحانه على عباده فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

فادفعوا عباد الله أمواج البلاء بالدعاء، وأقبلوا على باب لا يغلق ليلاً أو نهارًا، فإلى الله وحده لا إلى سواه الرجا والمشتكى، فسبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان من ابتلى عباده ليتضرعوا إليه ويسألوه، وسبحان من يثيب على السؤال، ويعطي قبل السؤال، ويفك الضيق والكرب، وبيده ملكوت كل شيء.

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ✿ ذرعًا وعند الله منها المخرج

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/١٠٩)، القرطبي (١٣/ ٢٨٠) والأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كملت فلما استحكمت حلقاتها ✿ فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فإذا علمت أن الله واحد. . . فلا تحني رأسك أمام العباد بالسؤال.

وإذا علمت أن الله واحد. . . فلا تتعب نفسك بمراجعة البشر.

وإذا علمت أن الله واحد. . . فلا تخف من أحدٍ من البشر.

لأن سلطان الكون واحد، عنده مفاتيح كل شيء، وبيده كل شيء، والقلوب بين إصبعين من أصابعه، فالشكوى إليه شكوى إلى ركن ركين شديد، والشكوى إلى عباده ركون إلى الذلة والمهانة والتبعية، وهل رأيت من تعلق بالله يومًا فشقي؟! ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤).

*** دعوا الله فأجابهم:**

* ذُكِر أن أحد السلف كان يعبث بالحصى يلقيه، فارتدت حصاة إلى أذنه فاستقرت فيها، وحار الأطباء في إخراجها فما استطاعوا، وجهدوا بكل حيلة لاستخراجها ولكن عجزوا جميعًا، فما كان منه إلا أن دعا الله تعالى ساعة سمع قارئًا يتلو قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢) فقال: اللهم أنت المجيب، وأنا المضطر فاكشف ما أنا فيه، فما هي إلا لحظات حتى سقطت الحصاة.

* ومن علماء القراءات رجل اسمه (عاصم بن أبي إسحاق) تعرض لفاقة وفقر إلا أنه لم يسأل أحدًا من البشر لعلمه أن الدّين همٌّ بالليل، أرق وذل بالنهار، صاحبه طريد الغرماء أو مع السجناء، ولعلمه أن الله تعالى سيعطيه إن عاجلاً أم آجلاً، فقالوا له: استقرض المال، فأبى وعرفوا في وجهه الكراهية، ثم قام فصلى ركعتين ومرّغ وجهه في التراب وقال: (يا مسبب الأسباب اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك)، فنظر فإذا صوت شيء يسقط بجواره، فإذا هي حدأة ألقت صرة فيها ثمانين دينارًا، وجوهرة حمراء، فباع الجوهرة وأغناه الله تعالى بها ولم يفقره إلى أحد من عباده.

لكن اعلم:

أن المضطر لا بد أن يكون كالصبي يشتهي على أبويه فإن لم يجيباه بكى عليهما حتى يجيباه، فكن مثله بين يدي مولاك.

[٢] ذكر الله عز وجل

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُنبئكُم بخيرِ أعمالِكُم، وأزكَاهَا عِندَ مَليككُم وأرفعُهَا في درَجَاتكُم، وخيرٌ لَكُم مِن إنفاقِ الذَّهب والفِضَّة، ومِن أنْ تَلْقَوا عدُوكُم فتضربُوا أعناقَهُم، ويَضربوا أعناقَكُم**». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذِكرُ الله عزَّ وجلَّ**»(١).

✿ ✿ ✿

* **الذاكرون والغافلون.. الأحياء والأموات:**

ودخل أبو مسلم الخولاني - التابعي الجليل- مسجدًا من المساجد، فنظر إلى نفرٍ قد اجتمعوا جلوسًا، فرجا أن يكونوا على ذكر خيرٍ، فجلس إليهم، فإذا بعضهم يقول: قدم غلامٌ لي فأصاب كذا وكذا، وقال الآخر: قد جهزت غلامي، فنظر إليهم فقال: سبحان الله، هل تدرون يا هؤلاء ما مثلي ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطرٌ غزيرٌ وابل، فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين، فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني أذى هذا المطر، فدخل فإذا بيت لا سقف له!! جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خيرٍ، على ذكرٍ فإذا أنتم أصحاب دنيا، ثم قام عنهم رحمه الله(٢).

إن بيتًا لا سقف له حريٌّ أن يكون مرتعًا للغبار والقاذورات، مأوىً للهوام والحشرات، وكذلك الغافل عن ذكر الله تعالى، بيتٌ هو ولا سقف، كأنما هو أرض خربة لا حياة لها، ذلك أن القلب كالأرض إن لم تُسكن خربت، فإن لم يحي القلب ذكر الله، أماتته الغفلة وذكر الشيطان، فصار حيًّا بعظم ميت يسير في الناس بلا قلب، لأن الناس في هذه الحياة على صنفين:

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٢٦٢٩) في «صحيح الجامع».

(٢) حسن الإسناد: ابن المبارك (٢/١٠٥) برقم (٨٩٤). والمصراعين: المصراع: هو أحد جزئي الباب (دلفة الباب)، والجمع: مصاريع.

* صنف ماتوا وواراهم الثرى.

* وآخرون قد ماتوا وهم في الناس أحياءٌ، وأولئك الغافلون عن ربهم عز وجل، لأن الحياة حياة القلب والغافل ميت القلب، وقد جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: **«مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثلُ الحي والميت»**[(١)]. وكم من حديث يظنه المرء نفعًا وبه لو درى البلاء، فهما اثنان لا ثالث لهما: حيٌّ بالذكر أو ميت بالغفلة!!

فالذكر جوادٌ، والغفلة حمار، فإياك من ركوب الحمار بعد الجواد ولا تكن ميتًا في مسلاخ حي، فحي على الحياة - حياة القلوب، وحي على الذِّكر، فإنه سفينة آمنة، مأمونة من الغرق، من ركبها كان في أمان من الرياح العاصفة العاتية، فما رأينا سفينة عمرت بذكر الله قد غرقت أبدًا.

والذكر حصن حصين، يتحصن به من عدو بني آدم الأول وهو الشيطان، وقد جاء في حديث يحيى بن زكريا عليه السلام لما أمر بني إسرائيل بخمس كلمات - كما هي رواية الحارث الأشعري فقال: **«... وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجلٍ خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى»**[(٢)]، ولو لم يكن للذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده ويراقبه فإن غفل وثب عليه وافترسه.

ولهذا سمي الوسواس الخناس الذي يوسوس في الصدور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس[(٣)] - أي: كف وانقبض-.

---

(١) صحيح: البخاري (١١/ ١٧٥، ١٧٦) في الدعوات (٦٤٠٧)، مسلم (٧٧٩) في صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: الترمذي (٢٨٦٧، ٢٨٦٨) وصححه الألباني (١٧٢٤) في «صحيح الجامع».

(٣) الطبري (٣٠/ ٢٨)، «مشكاة المصابيح» (٢٢٨١)، «الوابل الصيب» (صـ ٤٩، ٥٠) لابن قيم الجوزية ط دار الفجر للتراث.

فالذكر حصن حصين من الشيطان، وسفينة النجاة من أخطار الحياة، فهلم إلى الذكر والذاكرين، فقد حذر الله من قوم نسوه فأنساهم أنفسهم: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)، فلقد اتبعوا الهوى، وغفلوا فطمس نور القلب وعمي البصر، فإياك وصحبة الغافلين.

* **الذاكرون ولذة الذكر:**

كان الذكر - ولا زال - يمثل بلسم الحياة وإكسيرها لأهل الطاعة والتُّقى، فتلذذوا بذكر الله تعالى وعاشوا وزادهم الذكر، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث يحكي عنه تلميذه ابن قيم الجوزية فيقول: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

وقال لي مرة وهو في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وكان يقول: المحبوس من حُبِس قلبه عن ربه تعالى.

والمأسور: من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة قال بعد أن رأى أسوارها: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣).

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرَّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

* وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا

عليه بالسيوف.

* وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟

قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب(١).

*** منزلة الذكر كما وصفها ابن قيم الجوزية - رحمه الله:**

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون.

الذكر منشورُ الولاية، الذي من أُعطيه اتَّصل، ومن منعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي بينهم وبين علاّم الغيوب، وبه يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلّهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعُهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتَّجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بورٌ خرابٌ، وهو عمارتها وأساسها، وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا، ازداد المذكور محبةً إلى لقائه واشتياقًا.

وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيءٍ، وكان له عوضًا من كل شيء. به يزول الوقرُ عن الأسماع، والبكم عن

(١) «الوابل الصيب» (صـ ٦٣- ٦٤) بتصرف يسير جدًا.

الألسن، وتنقشع الظُّلمة عن الأبصار، زيَّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زيَّن بالنُّور أبصار الناظرين.

فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مُغلق».

وبالذِّكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرعُ الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف:

«إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّهُ الإنسيُّ»(١).

*** القرآن والذكر:**

وقد جعل القرآن للذكر والذاكرين مرتبة عظمى، فأمر به، وأجزل به العطاء وجعل له أحوالاً وهي كالآتي(٢):

* **فأمر الله تعالى به مطلقًا** فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢).

وقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

* **ونهى عن الغفلة عن ذكر الله تعالى** فقال: ﴿وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

وقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩).

* **وجعل الذكر سببًا للفلاح**: فقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٣).

(٢) مختصرًا عن «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٣- ٤٢٧) لابن قيم الجوزية.

* **وجعل الخاسرين من نسوا الذكر، وألهتهم الدنيا والأموال عنه: فقال:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩).

* **وذكر سبحانه من ذكره:** فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢).

* **وجعل الذكر أكبر الطاعات، وأكبر من كل الأمور:** فقال سبحانه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥) فذكر الله أكبر من كل شيء، وهو أفضل الطاعات، وأكبر من كل ذنب فيمحوه ويمحقه.

* **وجعل الصلاة طريقًا للذكر:** فقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤).

* **وختم الأعمال الصالحة بالذكر:**

فختم به الصيام فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وختم به الصلاة فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣).

وختم به الجمعة فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠).

وجعل خير خاتمة للعبد إن مات على أفضل الذكر (لا إله إلا الله) «**فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وقد سبق الحديث في باب الجنائز.

* **وخص سبحانه الذاكرين بالانتفاع بآياته في القرآن وفي خلقه.** فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

* **وقرنه بالجهاد:** فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥).

وهذا كله يدل على عظيم شأن الذكر لا في القرآن وحده، بل في حياة المسلم على وجه العموم.

*** فوائد الذكر وفضائله:**

وقد عدّ الإمام ابن قيم الجوزية للذكر أكثر من مائة فائدة، نذكر منها هذه الفوائد:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرحمن عز وجل.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة. والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سببًا وجعل سبب المحبة دوام الذكر.

فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه، وقبلة قلبه، ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يورثه ذكر الله تعالى له كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا، وقال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١).

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

السابعة عشرة: أنه قوت القلوب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي. أو كلامًا قريبًا من هذا، وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلامًا هذا معناه.

الثامنة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من صداه كما تقدم في الحديث، وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار وقد تقدم هذا المعنى.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر.

---

(١) صحيح: البخاري (١٣/ ٣٢٥، ٣٢٦) في التوحيد، مسلم (٢٦٧٥) في الذكر والتوبة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحادية والعشرون: أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة، فقد روى الإمام أحمد في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكرونه من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يُذكرون بصاحبهن، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به**»(١) . هذا الحديث أو معناه.

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة وقد جاء أثر معناه(٢) أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة قالت الملائكة: يا رب صوت معروف، من عبد معروف، والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله قالت الملائكة: يا رب، صوت منكر من عبد منكر.

الثالثة والعشرون: أنه ينجي من عذاب الله تعالى: كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه ورواه مرفوعًا: «**ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عزَّ وجل**»(٣) .

الرابعة والعشرون: أنه سبب تنزيل الرحمة، والسكينة، والملائكة، فالذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة، مجالس اللاهين، فيسعد الذاكر والذاكرون وجلساؤهم ويشقى الغافلون كما جاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدُوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قالوا: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشدَّ**

---

(١) صحيح: أحمد (٤/٢٦٨) في «المسند»، ابن ماجه (٣٨٠٩) في الأدب من حديث عون بن عبد الله بن عتبة، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) هذا الأثر يرويه أحمد في حديث صحيح في «المسند» (١/٣٠٧): «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». والأثر هنا عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٣) صحيح: وقد سبق تخريجه، وانظر «فيض القدير» (٥/٤٥٧).

لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبةً، قال: فممَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجةٍ، قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم»(١).

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمن عود لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السادسة والعشرون: أنه يؤمن من الحسرة يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: **«كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكرًا لله عزّ وجل»**(٢).

السابعة والعشرون: أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطي السائلين، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**(٣).

الثامنة والعشرون: أنه أيسر العبادات، وهو من أجلِّها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة؛ بل لا يمكنه ذلك.

---

(١) صحيح: البخاري (٦٤٠٨) في الدعوات، مسلم (٢٦٨٩).

(٢) حسن: ابن ماجة (٣٩٧٤) في الفتن.

(٣) حسن: البخاري (٢٠٥) في خلق أفعال العباد، وحسنه الترمذي (٢٩٢٧) في ثواب القرآن.

التاسعة والعشرون: أنه غِراس الجنة، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**». قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود(١)، وفي الترمذي من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»(٢)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الثلاثون: أن العطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال. ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»(٤).

وفي الترمذي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك، أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثًا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار. ومن قالها أربعًا أعتقه الله تعالى من النار**»(٥). وفيه عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين**

---

(١) حسن بشواهده: «الصحيحة» (١٠٦) للألباني.

(٢) صحيح: «الصحيحة» (٦٤) للألباني.

(٣) متفق عليه: البخاري (١١/ ١٦٨، ١٦٩) في الدعوات، مسلم (٢٦١١) في الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: مسلم (٢٦٩٥) في الذكر والدعاء.

(٥) صحيح بشواهده: «شرح الأذكار» (٣/ ١٠٥، ١٠٦) لابن علان.

يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، كان حقًا على الله أن يرضيه»[1]، وفي الترمذي: **«من دخل السوق وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»**[2].

الواحدة والثلاثون: معية الله تعالى والقرب منه: فالذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ (النحل: ١٢٨)، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

وللذاكرين من هذه المعية نصيب وافر كما في الحديث الإلهي: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»**[3].

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة، ولا تنالها الصفة وإنما تعلم بالذوق، وهي مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث. بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود، وإلا وقع في حلول يضاهي به النصارى، أو اتحاد يضاهي به القائلين بوحدة الوجود وأن وجود الرب عين وجود هذه الوجودات، بل ليس عندهم رب وعبد، ولا خلق وحق، بل الرب هو العبد والعبد هو الرب والخلق المشبه هو الحق المنزه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا، والمقصود أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه ولج في باب الحلول والاتحاد ولا بد.

الثانية والثلاثون: أن الذكر يعدل عتق الرقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل في سبيل الله عز وجل، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل، وقد تقدم

---

(١) حسن: حسنه الحافظ في تخريج الأذكار.

(٢) حسن بطرقه: الألباني (٣٤٢٤) عند الترمذي- كتاب الدعوات.

(٣) سبق تخريجه، ويضاف إليه حديث: «فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. . .الحديث».

أن من قال: « **في يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه حتى يمسي**»... الحديث، وذكر ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إن رجلاً أعتق مائة نسمة، قال: إن مائة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك وأفضل إيمان ملزوم بالليل والنهار، أن لا يزال لسان أحدكم رطبًا من ذكر الله عز وجل.

وقال ابن مسعود: لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عز وجل، وجلس عبد الله بن عمرو وعبد الله بن مسعود فقال عبد الله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عز وجل، فقال عبد الله بن عمرو: لأن أجد في طريق فأقولهن أحب إليّ من أن أحمل عددهن على الخيل في سبيل الله عز وجل، وقد تقدم حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الورِق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**اذكروا الله**»[١].

* وقال أبو برزة الأسلمي: «لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها، وآخر ذاكرًا لله لكان الذاكر أفضل»[٢].

* وعن عبيد بن عمير قال: «تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنانير معه ذهبًا»[٣].

الثالثة والثلاثون: والذاكرون هم السابقون:

فإن عمال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم

---

(١) هو حديث الباب. والورِق: الفضة.

(٢) «الزهد» (صـ ٢٣٨) رقم (١٠٤٦) للإمام أحمد.

(٣) ابن المبارك (٨٧٥) في «الزهد والرقائق».

الناس وقد حازوا قصب السبق، قال الوليد بن مسلم قال محمد بن عجلان سمعت عمر مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء (للناس) يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملاً أفضل ثوابًا من الذكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«سيروا سبق المُفرِّدون»**، قالوا: وما المفردون قال: **«الذين أهتروا**[١] **في ذكر الله تعالى يضع الذكر عنهم أوزارهم»**[٢]، أهتروا بالشيء وفيه: أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم، وفي بعض ألفاظ الحديث: **«المستهترون بذكر الله»**[٣] ومعناه الذين أولعوا به، يقال: استهتر فلان بكذا إذا ولع به وفيه تفسير آخر أن أهتروا في ذكر الله أي كبروا، وهلك أقرانهم وهم في ذكر الله تعالى، يقال: أهتر الرجل فهو مهتر إذا سقط في كلامه من الكبر، والهتر: السقط من الكلام، كأنه بقي في ذكر الله تعالى حتى خرف وأنكر عقله، والهتر: الباطل أيضًا، ورجل مستهتر إذا كان كثير الأباطيل، وفي حديث ابن عمر: أعوذ بالله أن أكون من المستهترين، وحقيقة اللفظة أن الاستهتار: الإكثار من الشيء والولوع به حقًّا كان أو باطلاً، وغلب استعماله على المبطل حتى إذا قيل: فلان مستهتر لا يفهم منه إلا الباطل، وإنما إذا قيد بشيء تقيد به نحو: هو مستهتر، وقد أهتر في ذكر الله تعالى، أي: أولع به وأغري به، ويقال: استهتر فيه وبه.

الرابعة والثلاثون: أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده، فإنه أخبر عن الله تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدقه ربه، ومن صدقه الله تعالى لم يحشر مع الكاذبين، ورجي له أن يحشر مع الصادقين، وروى أبو إسحاق عن الأغرّ أبي مسلم أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا قال العبد: لا إله إلا الله، والله أكبر، قال: يقول الله تبارك وتعالى: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده: قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له،**

---

(١) (أهتروا) من رواية أحمد والحاكم.

(٢) صحيح: مسلم (٢٦٧٦) في الذكر.

(٣) وهذه رواية الترمذي (٣٥٩٠).

قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي»(١).

الخامسة والثلاثون: أن الذكر شفاء للقلوب، وإذابة لقسوتها.

فقد قال رجلٌ للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذكر(٢).

وقال مكحول: ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

فذكر الله تعالى يذيب القسوة كلما اشتدت كما يذيب النار الرصاص(٣).

آداب يجب مراعاتها عند الذكر:

(١) استحضار النية: وهي جزء من كل عبادة لتقبل عند الله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥) وحديث: **«إنما الأعمال بالنيات».**

(٢) الخشوع والسكينة:

قال النووي رحمه الله: ينبغي أن يكون الذاكر على أكمل الصفات فإن كان جالسًا في موضع استقبل القبلة، وجلس متذللاً متخشعًا بسكينة ووقار، مطرقًا رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال ولا كراهة في حقه، لكن إن كان بغير عذر كان تاركًا للأفضل(٤).

(٣) نظافة المكان والفم:

فيجب أن يكون المكان الذي يُذكر فيه الله خاليًا نظيفًا، وقد قال الإمام الجليل أبو ميسرة: لا يذكر الله تعالى إلا في مكان طيب.

ويجب طهارة الفم بالسواك إن كان قد تغير، وقد جاء من حديث سمرة رضي

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٣٤٢٦) في «سنن الترمذي»- كتاب الدعوات.

(٢) جيد: البيهقي (١/ ٧٠٣) في «الشعب».

(٣) للاستزادة: راجع «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية ط دار الفجر للتراث.

(٤) «الأذكار» (صـ ١٨) للنووي.

الله عنه أنه ﷺ قال: «طيبوا أفواهكم، فإن أفواهكم طريق القرآن»[1].

(٤) خفض الصوت:

وما يقال في الدعاء يقال في الذكر، فقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣).

(٥) الثناء على الله تعالى بالمحامد والأسماء الحسنى والصفات العُلى.

(٦) التدبر والتعقل.

(٧) التوقف عن الذكر في الأوقات التي لا يصح فيها: كالخلاء، ووقت خطبة الجمعة، وفي القيام للصلاة، وفي حالة النعاس.

(٨) مراعاة اتباع ما ورد عن النبي ﷺ وأصحابه، والصحيح منها دون زيادة أو نقصان: مع جوامع الكلم كـ **«سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته».**

(٩) اجتناب البدع: كحلقات ذكر الصوفية، وعلو الصوت، وقراءة أوراد معينة في أيام معينة لا دليل على صحتها من الكتاب والسنة.

(١٠) ذكر الله تعالى على كل حالٍ: إلا ما سبق في الأوقات التي نبهنا عليها.

*** قالوا عن الذكر والذاكرين:**

* كان خليد العصري يصلي الغداة في نادي قومه حتى تطلع الشمس، ثم يأمر ببيته فيُقم - أي يكنس وينظف - ثم تلقى له وسادتان، ثم يغلق بابه فيقول: مرحبًا بملائكة ربي، أما والله لأشهدنكم اليوم من نفسي خيرًا، خذوا بسم الله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فلا يزال كذلك حتى تغلبه عينه أو يخرج للصلاة[2].

* وكان مطرف بن عبد الله يقول: اللهم لا تُنسِني ذكرك، فإذا دخل بيته سبَّح،

---

(١) صححه الألباني (٣٩٣٩) في «صحيح الجامع».

(٢) «الزهد» (١٣٣٢) لأحمد.

فسبحت آنيته معه[١].

* وقيل لمعروف بن هانئ: أرى لسانك لا يفتر عن ذكر الله عز وجل، فكم تسبح في اليوم؟ قال: مائتي ألف مرة إلا أن تخطئ الأصابع.

* وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الذين ألسنتهم رطبة بذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك، وقال: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل.

* وحضر سعيد بن المسيب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فسكت سكتة ثم قال: إنه قد قلت في سكتتي هذه خيرٌ مما يسقي الفرات والنيل؟ قيل له: وما قلت؟ قال: قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

* وقال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله تعالى.

* وقال كعب الأحبار: من أكثر ذكر الله بَرِئَ من النفاق.

* وقال ذو النون المصري: من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه.

* **عجيبتان:**

* قال عبد العزيز بن أبي رَوَّاد: كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة فماتت، فلما بلغت القبر، اختلست من أيدي الرجال.

* وكان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات وضع على سريره ليُغسَّل، فجعل يشير بأصبعه يحركها للتسبيح[٢].

وصية نبوية أخيرة:

عن عبد الله بن بسر قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فبابٌ نتمسك به جامعٌ، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٣].

---

(١) السابق (١٣٦٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» حديث (٥٠).

(٣) صحيح: صححه الألباني (٣٣٧٥) في الدعوات- «سنن الترمذي»، وهذا لفظ أحمد (٤/ ١٨٨) في «المسند».

[٣] التوبة والاستغفار

عن الأغرِّ المُزني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يا أيُّها النَّاسُ تُوبوا إلى اللهِ فإنِّي أتُوبُ في اليومِ إليه مائةَ مَرَّةٍ»**(١).

✿ ✿ ✿

* **بِعْ نفسك من الله، ولا تأمن عاقبة الذنب:**

حرص الإسلام على أن تكون حياة أتباعه قطعةً حيةً من الإيمان، وصفحة وضّاءة مشرقة من صفحاته، فجعل لهم القرآن هدى ورشادًا، ونورًا ينير غياهب الظُّلم، وتشرق به حُلَك المعاصي إذا أغطش ليلها، وحرص الإسلام على أن يروي القلب بماء الإيمان، فلم يجعله كقرب الساحل من البحر تتخبط عليه الأمواج فلا ريٌّ ولا نبات، وإنما جعل ماء الإيمان عذبًا زُلالاً ترتوي منه القلوب فتفيض بالطاعات.

ولقد علم الله تعالى - ولم يزل عالمًا - أن القلب سريع الغفلة، سريع التقلب، سريع النسيان، كما جاء من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«مثل القلب مثل الريشة، تقلبها الرياح بفلاة»**(٢).

ومن حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لقلبُ ابن آدم أشد انقلابًا من القِدر إذا استجمعت غليانًا»**(٣).

ولأن القلب سريع التقلب كما ترى فإن الله تعالى نادى في المؤمنين قبل أن تنطمس إشراقة قلبهم، وينطفئ نورها فقال تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** (الحديد: ١٦)، وهو عتاب مؤثر من رب رحيم بعث إليهم

(١) صحيح: مسلم (٢٧٠٢/ ٤٢) في الذكر والدعاء والتوبة.
(٢) صحيح: صححه الألباني (٥٨٣٣) في «صحيح الجامع».
(٣) صحيح: صححه الألباني (٥١٤٧) في «صحيح الجامع».

داعي الإيمان ومناديه يناديهم ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ١٩٣) فتارة يخوفهم العذاب الذي أُعد للعصاة، وهو عذاب لا نفاد له يوم الحسرة والندامة، وأخرى يرجيهم بالمغفرة والرضوان في جنة عرضها السموات والأرض، وما ذلك إلا لينفض المؤمنون عن قلوبهم غبار النوم، وران الرقدة التي امتدت أيامها ولياليها.

جاء من حديث الحارث الأشعري أنه ﷺ قال: «... **كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها**»[1].

فالناس في الدنيا على صنفين:

الأول: وهو من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت فحاسبها حسابًا شديدًا، فذاك أعتق رقبته من النار، وحررها حين عمل لما بعد الموت وأولئك من قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)، وتلك لعمري صفقة رابحة.

الثاني: وهو من نسي مصيره، وأقبل على الدنيا وآثر الهوى، ونسي الآخرة، فتراه من أجل الدنيا سابحًا في كل بحرٍ، ناطقًا بكل لغة، لابسًا كل ثوبٍ، راكبًا كل مركب وذاك هو الذي أوبق نفسه - أي أهلكها - وهذا صنف قال الله تعالى فيه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠) فقد سعى في معصية الله تعالى، وباع نفسه بالهوان، فأوقع نفسه في الهلاك كما يدس - أي يخفي - الطائر رأسه في الطين والتراب، وتلك في القيامة الحسرة ما بعدها حسرة يوم الموقف العظيم، إذ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

ومن هنا كانت الصفقة الرابحة والتجارة التي لن تبور، يوم أن قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حتى قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

وها هو ﷺ ينادي في أهله وآله يوم أعلن الرسالة فقال: «**أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئًا**»[2].

(١) صحيح: مسلم (٢٢٣) في الطهارة.

(٢) صحيح: مسلم (٢٠٤) في الإيمان.

وهو ما جعل الحسن البصري يقول: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله عز وجل.

* وقال محمد بن الحنفية: إن الله عزّ وجلّ جعل ثمَّن الجنة ثمنًا لأنفسكم فلا تبيعوها بغيرها، ومن كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر.

* وقال أبو بكر بن عياش: قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلّص رقبتك ما استطعت من الدنيا فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا. فوالله ما نسيتها بعد.

* واشترى بعض السلف نفسه من الله، فتصدق حبيب بن أبي محمد بماله كله.

وتصدق خالد بن الطحاوي بوزنه فضة ثلاث مرات.

وكان أحدهم يسبح كل يومٍ اثني عشر ألف تسبيحة بقدر ديته كأنه قد قتل نفسه!

* وهاكم الربيع بن خُثيم - رحمه الله - يوم كان يحاسب نفسه حسابًا شديدًا، فتقول أمه مشفقةً عليه: يا بني كأنك قتلت قتيلاً!! فيقول: نعم، قتلت نفسي يا أماه.

ورحم الله قائلاً يوم قال:

أتأمن بالنفس النفيسة ربها ✿ وليس لها في الخلق كلهم ثمنُ

بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها ✿ بشيء من الدنيا فذاك هو الغبنُ

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها ✿ لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمنُ

فأولئك أعتقوا أنفسهم من النار رغبة منهم في الجنة ورضوان الله تعالى، وكانوا على قلق دائمٍ من معصية الله تعالى، والموت على الخطيئة قبل التوبة.

وها هو ابن قيم الجوزية يهتف في العاصين فيقول: يا مغرورًا بالأماني: لُعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمر بها.

وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها.

فلا تأمن أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيك ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١٥)[1].

---

(١) «الفوائد» (صـ ٨٥) لابن قيم الجوزية.

إن آية من آيات الوعيد في كتاب الله كفيلة أن يطيش عقل من يقرأها ويفر إلى الله تعالى، فهذا هو التهديد والوعيد: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥).

وفي موطن آخر: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٧ - ٩٩).

وفي موطن ثالث: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ (الأنعام: ٤٦)، فهي إشارات ولمحات يكاد العقل منها أن يطيش، والسعيد من وُعظ بغيره.

فإلى حياض الطاعة بعد المعصية هلمَّ أيها المذنب، وإلى أشجار التوبة وظلالها فتعالى بعد أن ألهبت سياط المعاصي ظهراً طالما شكا إلى الله من طول البعاد، ولو داواك كل طبيب بغير كلام الله ما كان من دوائه نفعٌ.

لقد أهبط آدم إلى الأرض يوم أن أهبط فكتب بدموع الحزن والندم سطور التوبة في الأرض وأرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧).

ولم يكن قد نفعه عند المعصية عز ﴿اسْجُدُوا﴾ (البقرة: ٣٤)، ولا شرف ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ (البقرة: ٣١)، ولا خصيصة ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥)، ولا فخر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر: ٢٩) وإنما نفعه بذل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: ٢٣)، فلما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه في غير مقتلٍ فجرحه، وجبر الله كسره فقام واقفًا على الأرض كأن لم يكن به جرحٌ، فقم والبس درع التوبة، عساك أن تهزم شيطانك وقد ذهبت تطيعه فأضلك ضلالاً بعيداً.

*** كلنا ذوو خطأ!!**

روى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون**»(١).

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٤٥١٥) في «صحيح الجامع».

فليس العجب من إنسان أخطأ، وإنما العجب ممن أدرك أنه خطّاء ثم أقام على المعصية مصرًّا عليها آمنًا من مكر الله تعالى، مغرورًا بها ناسيًا أن الغفور الرحيم عذابه عذاب أليم كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠)، ولقد خلق الإنسان يوم خلق من عجل، ومن طين، ومن روح، وكلٌّ له نصيب من ابن آدم، وقد نسي الإنسان الأول (آدم عليه السلام) فأهبط إلى الأرض فغفر الله تعالى له على الأرض فصارت الأرض دار المغفرة، وقد توارث أبناؤه من بعده التوبة حتى يغلق بابها.

وقد سبق في علم الله تعالى أنه (توابٌ - غفار - حليم - عفو - رحمن - رحيم) فكيف يغفر ولا عاصٍ؟ وكيف يتوب ولا مذنب؟ وكيف يمحو ويحلم ولا ذنب؟ وكيف يرحم ولا خطيئة؟ من أجل هذا خلق الله تعالى خلقه؛ ليغفر لهم، وليتربحوا عليه سبحانه.

فاعلم أنه ليس على الأرض أحدٌ من بعد الأنبياء والرسل إلا وله ذنب، كبيرًا كان أم صغيرًا، فكل بني آدم خطّاء، وكلنا ذوو خطأ، إلا من عصم الله من الأنبياء والرسل.

وقد قالوا للحسن البصري يومًا: ألا يستحيي أحدنا أن يذنب ثم يتوب؟ ثم يذنب فيتوب وهكذا؟ فقال: ودّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من التوبة، فإن الله لا يمل حتى تملوا.

يحكي أبو الفرج ابن الجوزي، وابن قدامة في كتاب[1] التوابين عن الحسن البصري أنه قال: «كانت امرأة بغي، لها حسن وجمال لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار، وإنه أبصرها عابدٌ فأعجبته، فذهب وكدّ وتعب حتى جمع مائة دينار، ثم جاء إليها فقال:

- إنك أعجبتني فعملت حتى جمعت مائة دينار.

فقالت له: ادخل فدخل، فعلت على سرير من ذهب.

ثم قالت: هَلُم إليّ فجلس منها مجلس الخاتن، إلا أنه ذكر مقامه بين يدي الله

(١) كتاب «التوابين» (صـ ٤١) بتصرف يسير. والإسرائيليات هذه يُعتبر بها ولا يُعتمد عليها.

تعالى فأخذت أعضاءه رعشة ورعدة.

ثم قال: اتركيني ولك المائة دينار.

فقالت: ما بدا لك؟! وقد زعمت أنك جمعت المال من أجلي.

فقال: ذكرت وقوفي بين يدي الله، فلم تحملني أعضائي.

فارتعدت وخافت ثم قالت: إن كنت صادقًا فلا أتركك حتى تكون زوجي.

فقال: لا. فلا زالت به حتى قالت: إن أتيتك تتزوجني، فقال: لعلّ ثم مضى إلى بلده.

فأقلقت هذه البغي مرارة الكبيرة، وبشاعة الفاحشة، وآلمتها ذنوبها، وأوجعتها معاصيها وراحت إلى بلده تريده زوجًا ودليلاً لها إلى الله، فلما رآها ذكر ذنبه فَفَرِق - خاف - من الله فمات، فتزوجت من أخيه وهو فقير وظلّت على توبتها حتى نشر الله منها ومن زوجها سبعة من العابدين الصالحين.. فما أعظم شأن التوبة.

وهذا هو أبو خيثمة صحابي رسول الله ﷺ يحكي ابن إسحاق قصته:

تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم، عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماءً، وهيأت له طعامًا، فلما دخل، قام على باب العريش ينظر ثم قال رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر - يعني بالضح: الشمس - وأبو خيثمة في ظل وماء بارد وطعام مهيئ وامرأة حسناء، ما هذا بالنصف! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زادًا. ففعلتا، ثمَّ قدم ناضحه(١) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ فأدركه حين نزل تبوك.

قال: وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا فلا عليك أن تخلّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل، ثم سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك، فلما طلع قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله

(١) ناضحه: الناضح: الجمل يُسقى عليه.

ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فلما دنا قال الناس: يا رسول الله! هذا والله أبو خيثمة! فلما أناخ سلَّم على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أولى لك، أبا خيثمة» ثمَّ أخبره الخبر، فقال له خيرًا! ودعا له.

ولا يخفى على الكل قصة الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله تعالى عليهم، وقد قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ (التوبة: ١١٧، ١١٨).

فذكر سبحانه توبة من لم يذنب؛ لئلا يستوحش من أذنب؛ لأنه ذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا ثم قال: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، فلو قال أولاً: لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم.

وهذا هو الفضيل بن عياض ذلك المجاهد، المحدث، الورع، الزاهد، الذي ملأ طباق الأرض علمًا كان قبل أن يتوب على أمرٍ، ثم صار من أعظم الناس أمرًا بعد التوبة يحكي ابن الجوزي قصة توبته عمن عاصروه فيقول:

«كان الفضيل يقطع الطريق وحده، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يُقال له: الفضيل.

قال: فسمع الفضيل، فأُرعد، فقال: يا قوم! أنا الفضيل، جوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا! فرجع عما كان عليه.

ورُوي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل وخرج يرتاد لهم علفًا، ثمَّ رجع فسمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ١٦)».

قال: بلى والله قد آن، فكان هذا مبتدأ توبته.

وأما زاذان الكندي راوي الحديث فكان في مبدئه مغن يضرب العود، فمر عليه عبد الله بن مسعود، وكان لزاذان صوتٌ حسن فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما

أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله! وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله، فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ قال: وأيّ شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى، فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره ثم أسرع فأدركه وجعل المنديل في عنق نفسه وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحبّ من قد أحبه الله - عز وجلّ - فتاب إلى الله - عز وجل - من ذنوبه؛ ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وأخذ حظًّا من العلم حتى صار إمامًا في العلم، وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما.

فانظر إلى هؤلاء كيف كانوا، وإلامَ صاروا؟ واسلك طريقهم، وسر على هداهم.

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: «الدنيا حربٌ، والناس فيها صفوف، والشياطين يرمونهم بنبال الهوى، ويضربونهم بسيوف اللذة والشهوة - وذلك عن طريق الوسوسة - والمنافقون قتلى صرعى في أول الحرب من أول رمية ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩) وهو القتل بعينه.

أما المتقون فهم في جهدٍ جهيد من المجاهدة ولا بد مع طول الوقوف من جراح - أي زلل ووقوع في المعصية، فهم يُجرحُون، ويداوون، إلا أنهم من القتل محفوظون، بل الجراحة في الوجه عيب وشينٌ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (النور: ٦٣). اهـ. فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى من ليلك، وإذا أمسيت فتدبر ما مضى من يومك.

*** لا تقنط ولا تيأس:**

إن القنوط واليأس ليسا من دأب المؤمنين ولا من صفاتهم.

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦).

فالقنوط واليأس لغة الضعفاء ممن قتلتهم المعاصي فرضوا بالقعود عن مواصلة

الطريق إلى الله تعالى، فاستسلموا لنار المعصية التي أحرقت قلوبهم في الدنيا فأعمتها، ثم لتعمين قلوبهم وأبصارهم يوم القيامة.

أما المؤمن فإنه يطالع قول ربه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

ويطالع قول ربه عز وجل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠).

وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (الشورى: ٢٥).

وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠).

جلس الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يفسر قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦) فقال أعرابي: أمنها يحذرنا الله؟ قال ابن عباس: بلى. قال الأعرابي: والله ما كان ليوقعهم فيها بعد أن حذرهم منها.

فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه!!

إن الله تعالى بيده خزائن السموات والأرض ولا ينازعه في ملكه وسلطانه أحدٌ، فِممّ القنوط واليأس وقد علمت أنه سبحانه الغفور الرحيم.

وقد جاء في الحديث القدسي عن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما

كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة»[١].

وعنان السماء: السحاب.

وقُراب الأرض: ما يقارب ملأها ذنوبًا.

فهذا نداء علوي من الله تعالى لعباده العاصين لكي يتوبوا إليه، ومن دعا إلى التوبة سمّى نفسه الغفور.

* وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»**[٢].

* وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**[٣].

* وفي حديث آخر عن أبي هريرة أيضًا عن النبي ﷺ قال: حاكيًا عن رجل ممن كان قبلنا قد أسرف على نفسه لما حضرته الوفاة: **«إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذُرُّوني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلمَّا مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا ربِّ، خشيتك فغفر له، وقال غيره: مخافتك يا رب»**[٤].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم**

---

(١) صحيح: الترمذي (٣٥٤٠) في الدعوات، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٠٤) في «الصحيحة».

(٣) صحيح: البخاري (٦٣٢١) في الدعوات، مسلم في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: البخاري (٣٤٨١) في أحاديث الأنبياء.

أهل الأرض، فدلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي حكمًا - **فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسُوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»**(١).

إنه سبحانه من رحمته يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويمد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وهو سبحانه الذي يفرح بتوبة عبده كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرض دوِّية مهلكة** - أرض قفر خالية - **معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبه العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»**(٢).

ومن رحمته سبحانه أنه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - كما روى ابن عمر عن النبي ﷺ(٣). ومن رحمته سبحانه فتح بابًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه. إنه سبحانه الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه، وهو أرحم الراحمين، كما روى أبو هريرة عنه ﷺ فقال: **«جعل الله الرحمة مائة جزءٍ فأمسك عنده تسعة وتسعين** - وفي رواية سلمان- **كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض - فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الأم على ولدها، والوحشُ والطيرُ بعضها على بعضٍ، فإذا كان يوم القيامة أكمل هذه الرحمة»**(٤). ولله أرحم بعباده من الأم بولدها(٥).

---

(١) صحيح: البخاري (٣٤٧٠) في أحاديث الأنبياء (٢٧٦٦) في التوبة.

(٢) صحيح: البخاري (٦٣٠٨)، مسلم (٢٧٤٤/ ٣) في التوبة.

(٣) حديث حسن: الألباني (١٩٠٣) في «صحيح الجامع».

(٤) صحيح: البخاري (٣١٩٤) في بدء الخلق، مسلم (٢٧٥١/ ١٧)، (٢٧٥٣/ ٢١) في التوبة.

(٥) صحيح: البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤/ ٢٢) في التوبة.

هؤلاء والتوبة:

وللتوبة والرحمة مع هؤلاء شأن مع (المشرك، وقاتل أولياء الله، ومرتكب الكبيرة، والمنافق، ومن كتم العلم، ومع من قذف المؤمنات المحصنات، ومع من أفسدوا في الأرض).

فأما المشرك ومرتكب الكبيرة:

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨ - ٧٠).

وأما المنافق:

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٥، ١٤٦). فمن الدرك الأسفل من النار وفقدان النصير، والإفلاس من الأنصار والأعوان إلى الإخلاص، والاعتصام، والأجر العظيم، وهذا كله إنما يتأتى بالتوبة النصوح.

وأما من كتم العلم وحرف:

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٥٩، ١٦٠).

فمن زمرة الملعونين وديار أهل الجحيم، إلى الدخول في رحمة الله وتوبة الله تعالى عليهم.

وأما قتلة أهل الإيمان وأولياء الله:

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠).

قال الحسن: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[1].

وأما الذين قذفوا المحصنات الغافلات:

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٤، ٥).

فمن طردٍ من رحمة الله تعالى، وتفسيق، وإسقاط للعدالة، إلى عفو ومغفرة، وإعادة للثقة تارة أخرى حين يتوب صاحب هذه الكبيرة.

وأما الذين حاربوا الله ورسوله وأفسدوا في الأرض:

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣، ٣٤).

فحتى هذا تداركته رحمة الله بالتوبة إن تاب وإعادته لمصاف المؤمنين، فالتوبة تنقل من المحنة إلى المنحة، ومن الغضب إلى الرضوان، ومن ضيق المعصية وذلها إلى سعة رحمة الله تعالى فتشرق صفحة العبد وتنير بعد أن سودتها المعاصي.

فلا تستكثرن معاصيك، ولا تستعظمن ذنبك عند التوبة، فرحمة الله أوسع، وعفو الله أكبر، فإن لك ربًّا غفورًا رحيمًا، واسع المغفرة، قابلاً للتوب، غافرًا للذنب، كتب الرحمة لعباده التائبين، فإياك والإصرار بعد أن علمت أن الله تعالى غفور رحيم، فهو التواب وهو الذي يعينك على أمرك إن أردت التوبة، وقد سترك، ولم يفضحك، فلا تغترنّ بإمهاله، ولا تسيرنّ وراء شيطانك، واستعن بالله ولا تعجز.

*** الله تعالى المعين على التوبة:**

أراد أحد السلف أن يعلم تلميذه درسًا فقال: أرأيت إن سوّل لك الشيطان الخطايا

(١) ابن كثير (٨/ ٢٩٠) في التفسير.

ما كنت فاعلاً؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده.

قال: فإن عاد. قال: أجاهده. قال: الأمر بك يطول.

- أرأيت لو أنك مررت بغنم فيها كلب ينبحك ما كنت فاعلاً؟

قال: أجاهده.

قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده.

قال: الأمر بك يطول، استعن بصاحب الغنم يكفيك كلبه. واستعن بالله يكفيك الشيطان!! ألا ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦).

*** الأمر بالتوبة صريحٌ:**

لقد جاءت الآيات القرآنية آمرة بالتوبة صراحة:

*** فالتوبة فرض عين على كل مسلم ومسلمة:**

* فأمر الله تعالى المؤمنين بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١).

وذلك لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة.. ولا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة وهي الرجوع عما يكرهه الله تعالى ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. فدلّ هذا على أن كل مؤمنٍ محتاجٌ إلى التوبة؛ لأن الله هو خاطب المؤمنين جميعًا.. خاطبهم لتكون توبتهم إلى الله لا لمقصد غير وجهه من سلامة من آفات الدنيا[١]، أو رياء، أو سمعة أو نحو ذلك[٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحريم: ٨).

فالتوبة فرض عين على كل مسلم ومسلمة، لأن الجميع قد وقع في حقه الذنب ولو كان صغيرًا، أو ناسيًا ساهيًا، ولذا عاب سبحانه على من ترك الذنوب حتى

(١) قصد أن بعضهم يتوب من الخمر مثلاً لأنها ضارة بالصحة دون أن تكون توبة لله عز وجل.
(٢) تفسير السعدي صـ ١٦٣.

تراكمت فقست بها القلوب، فنسيت ربها فكان العقاب من نوع يخص القلوب فقال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩).

والعباد في حاجة إلى التوبة والاستغفار؛ لأنهم يتقلبون في آلاء الله ونعمائه ويعجزون عن شكرها:

فليست التوبة تكفيراً للذنوب قدر ما هي صلاح للقلوب وإعادة لصياغتها الإيمانية من جديد، إن النفوس تخطئ ويغرها ستر ربها المرخي عليها، وهو سبحانه الذي لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك الأستار، ولا يزال العبد يتقلب في نعم الله وآلائه، فلا يزال محتاجًا إلى التوبة والاستغفار، ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين ﷺ يستغفر في جميع الأحوال[١].

وقد قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (محمد: ١٩).

وهنا ندرك أن (قوام الدين إنما هو بالتوحيد والاستغفار)[٢].

لقد أمر الله تعالى عباده بالاستغفار الدائم المتواصل فقال تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠، والبقرة: ١٩٩).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٣).

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: ٦).

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (غافر: ٥٥).

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ١٠).

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ٣).

فاجتمعت الآيات تأمر بالاستغفار والتوبة، فالتوبة بالقلب والجوارح، والاستغفار باللسان لتكتمل التوبة كجزء من الإيمان، وجبر لعجز الإنسان عن شكر نعماء الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى.

فالنبي ﷺ في حديث الباب يهتف: **«توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»**.

(١، ٢) «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (صـ ٢١).

وهل أذنب ﷺ؟ لا والذي رفع السموات بلا عمدٍ، ولئن أذنب فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما علم عجزه عن شكرِ نعماء ربه عليه فراح يجبر النقص بالاستغفار.

*** وفي الاستغفار والتوبة تحقيق للعبودية:**

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»**(١).

فالله تعالى رحيم يريد نشر رحمته فرضي من عباده الاستغفار والتوبة فإن لم يفعلوا لاستبدل بهم غيرهم.

*** والاستغفار خير في الدنيا والآخرة:**

فالاستغفار هو مفتاح الفرج عند اشتداد الكروب، أوَ لم تسمع إلى الله عز وجل يقول على لسان نوح عليه السلام: **﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾** (نوح: ١٠ ، ١١).

وقوله عز وجل: **﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** (هود: ٣).

لقد رأى نوح عليه السلام قومه أهل حرص على الدنيا فأمرهم بالاستغفار فكأنه قال لهم: هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك للدنيا والآخرة(٢).

وكأنه أيضًا قال لهم: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه، وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بالأموال والبنين والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها(٣).

ولسنا ننسى ما كان قد فعله عمر كما روي عن الشعبي فقال: خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار، فقالوا: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت

---

(١) صحيح: مسلم (٢٧٤٩) في التوبة.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ١٨٢، ١٨٣).

الغيث بمجاديح(1) السماء التي يستنزلون بها المطر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (نوح: ١٠، ١١).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (هود: ٣).

وجاء رجل يشتكي إلى الحسن البصري الجدوبة فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه فقال له: استغفر الله.

فسأله الناس عن هذا فقال: ما قلت شيئًا من عندي، إن الله تعالى يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ . . . الآية.

إنه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

لقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك إذًا أن الاستغفار علاج فعال، ودواء سريع في إزالة الكرب والضيق، ولكنه استغفار مقرون بالصدق لا الكذب، فتوبة الكذابين لا ترفع بلاءً ولا تفرج كربًا كما قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

بعض صيغ الاستغفار:

ونذكر هنا بعض الصيغ التي وردت عن النبي ﷺ وعن صحابته ومنها:

* قوله تعالى: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

* **سيد الاستغفار**: وهو ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ يقول: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها بالنهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»(2).

---

(١) المجاديح: واحدها: مجداح؛ وهو نجم، قيل: الدبران دال على المطر.

(٢) صحيح: البخاري (٦٣٠٦) في الدعوات.

* وروى ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه، وإن كان قد فر من الزحف»(١).

* وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»(٢).

ومنه قوله تعالى على لسان آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وهي كلمات ندم وتوبة واستغفار، واعتراف بالذنب، وتفويض إليه سبحانه ليغفر ما تقدم من ذنبه.

* وعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة العفو لعجز، فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفّى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جُرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين.

* إياك وتسويف التوبة:

يقول سهل التُّستري: «الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصر هالك»، فهذه أحوال من أخّر التوبة وهو يريدها وقد نسي أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤).

فلا يفوته شيء، ولا يسبقه شيء، وإنما يمهل عبده ليتوب، فإذا لم يتب أخذه أخذ عزيز مقتدر. وبعضهم قد اغتر بـ (سوف) ونسي أنها أكبر جنود إبليس، فالتسويف وتأخير التوبة دعوى كاذبة أصلها الشيطان والنفس والهوى فكيف يتوب غدًا، وغدًا لا يملكه؟!

---

(١) حسن: أبو داود (١٥١٧) في الصلاة، وهو صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٤٣٤) في الدعوات، وقال: صحيح.

ومثل هؤلاء رأوا التوبة جهدًا جهيدًا، وطريقًا شاقًّا صعبًا، رغم أن التوبة ظل ظليل، والدنيا صحراء واسعة ولا نهر فيها إلا نهر التوبة والطاعة، يرتوي منه كل من يرده.

أرأيت لو أن شابًّا قويًّا شديد العزم أمامه شجرة كبيرة قوية، لكنه يؤخر قطعها ويقول: غدًا أقطعها، فيجيء الغد، فيقول: غدًا أقطعها، ولا يزال يؤجل قطعها حتى مرت سني عمره سريعًا فكبر وضعف وخارت قواه، وضربت الشجرة بجذورها في الأرض فلم يقو عليها!!

وكذا التوبة إن لم تقدر عليها اليوم فلن تقدر عليها غدًا، فربما جاء الغد وأنت فقيد الأحياء وما تعجز عنه وأنت شاب لن تكمله وقد لحقك الشيب، ومن أدراك أنك ستشيب؟!

يُعمر واحد فيغرُّ قومًا ✿ وينسى من يموت من الشباب

ورحم الله من قال:

وما أدري وإن أملت عمرًا ✿ لعلي حين أصبح لست أمسي

ألم تر أن كل صباح يومٍ ✿ وعمرك فيه أقصر منه أمسِ

والعود إن كان أخضر لا زال رطبًا يقبل أن ينثني فإن اشتد استعصى وانكسر.

ها هو شيخ الوُعّاظ من بعد النبي ﷺ ابن الجوزي يهتف قائلاً:

يا مقيمًا على الهوى وليس بمستقيم، يا مبذرًا في بضاعة العمر متى يؤنس منك رشد؟

يا أكمه البصر، العمر لا حيلة فيه لعيش.

يا طويل الرقاد ولا نوم أهل الكهف.

ازرع في ربيع حياتك قبل جدوبة أرض شخصك.

وادخر من وقت قدرتك لزمان عجزك.

واعتبر رحلك قبل رحيلك.

قبل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ (الزمر: ٥٦).

يا هذا جد واجتهد، فليس من سهر كمن رقد، والجنة تحتاج إلى وثبة أسد.

فلا تغتر بأغصان المنى وإن أورقت ورفت، فكأنك بها قد يبست وجفت.

أما رأيت عرائس الأجساد إلى الألحاد؟!

أما رأيت الأجسام قد لُفت في الأكفان؟!

من عرف تصرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد. اهـ.

إذًا عجل بالتوبة قبل نزول الموت، وقبل ضعف القوة والبدن.

وعجل بها قبل أن يسود القلب فقد قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤). والران، والرين، سوادٌ على القلب لا زال يغطيه حتى يصبح كالكوز مُجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

وعجل بالتوبة فالذنب يجر إلى ذنب، وتأخير التوبة ذنب يحتاج إلى توبة، ولا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

إن الذنوب نارٌ تحت الرماد توشك أن تشتعل فتحرق الجميع، فأطفئ نار الغضب بدمع عينك، وعبرة توبتك قبل أن يفصل الحاكم في حكمه يوم القيامة، ولقد تعجب سبحانه من هؤلاء الذين أخروا التوبة فقال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤)، وذلك هو العجب بعينه.

قلب عرف أن الله تواب ثم أخّر توبته.

* التوبة النصوح:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم: ٨).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يريد أن يعود فيه».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يتوب ثم لا يعود».

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : «أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته»[١].

---

(١) ابن كثير (٨/ ١٣٤، ١٣٥) في التفسير.

وقال غيرهم: «هي التوبة التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

وقال الكلبي: «التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على ألاّ يعود».

وقال سعيد بن المسيب: «توبة تنصحون بها أنفسكم».

وقال سعيد بن جبير: «هي التوبة المقبولة، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألاّ تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات».

وقال أبو بكر الدقاق: «التوبة النصوح هي رد المظالم، واستحلال الخصومات، وإدمان الطاعات».

وقال أبو بكر الوراق: «هو أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك، كالثلاثة الذين خلفوا».

وقال الجنيد: «التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدًا؛ لأن من صحة توبته صار محبًّا لله، ومن أحب الله نسي ما دون الله».

وقال فتح الموصلي: «علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ»(١).

إن الذنب جرثومة تسري فتفري، ومن هنا وجب الندم عليه، والإقلاع عنه، وإظهار الحزن على ارتكابه، والفرح بالتوبة، وبدء عهدٍ جديدٍ مع الله تعالى، لا تلوث صفحته الذنوب، فقد قال علماؤنا: «ومنزل (التّوبة) أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية»(٢).

إن معنى التوبة: رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين وذلك لا يحصل إلا بعون الله وهدايته، ولأنها أهم قواعد الإسلام على الإطلاق فقد حدد العلماء عدة شروط لقبولها وهي:

---

(١) القرطبي (١٨/ ١٨٩، ١٩٠) في تفسيره ط دار الحديث.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨) لابن قيم الجوزية.

١ - أن يقلع العبد عن المعصية.

٢ - وأن يندم على فعلها وقد روى ابن مسعود وأنس عنه ﷺ أنه قال: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١).

فيلزم العبد إظهار الندم والبكاء، والأسى والأسف أمام الله تعالى.

٣ - وأن يعزم العبد على ألاّ يعود إلى المعصية أبدًا.

٤ - وإذا كانت متعلقة بآدمي فليرد الظلامة إليه أو يحصل البراءة منها.

٥ - وأن يتوب العبد قبل الغرغرة - وهي حالة نزع الروح.

٦- وأن يتوب قبل طلوع الشمس من مغربها.

وهنا تكون التوبة حقيقية: الندم على ما سلف في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعود إلى المعصية أبدًا.

وأهم هذه الشروط - في رأينا - الندم على الخطيئة؛ لأنه اعتراف بالضعف، والذل، وإظهار للمسكنة، واعتراف لله تعالى بكل سوء، وتملص ممن جنى عليه من النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الغالب بالشهوة، والشهوة التي زينت بها النار، وهو ندم قلبي يظهره اللسان كأنما يكاد القلب يحترق منه، فتجد دمعة عينه حارة تتحدر على وجه لطالما تمرغ في المعاصي فينطق اللسان فيقول: (يا رب: لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكارًا لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك، وغرّني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء وسترك المرخيّ عليّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، اللهم لا عذر لي، لا بريء من ذنب فأعتذر، ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، فاغفر وارحم يا أرحم الراحمين)(٢).

---

(١) حسن: حسنه الألباني (٦٨٠٣) في «صحيح الجامع».

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٩) بتصرف يسير.

* **وللتوبة النصوح علامات:**

* فلا يزال التائب خائفًا يقلقه ذنبه، يسعى في فكاك رقبته حتى يأتيه ملك الموت وهو يبشره: **﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** (فصلت: ٣٠).

فلا انحراف عن التوبة إلى أن يلقى ربه عز وجل، فهل رأيت متوضئًا صح وضوؤه ولم يغسل قدميه؟!

أم هل رأيت مصليًا قُبلت صلاته وصحت ولم يجلس للتشهد؟!

أم هل يجزي صيام من أفطر قبل الغروب؟!

وهكذا من تاب ثم لم يقضه مضجعه، ولم يقلقه ذنبه، قريب هو من شفير المعصية دائمًا.

وليس معنى هذا أن تائبًا من التائبين لن يزلَّ ولن يخطئ، لا بل سيخطئ بعضهم ولكن فارق ما بين شهوة ونفس غلبتا العبد فضعف وبين إصرار على كبيرة أو صغيرة واستهانة بالذنب فتلك توبة كاذبة.

أما الصادقون فقد قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** (آل عمران: ١٣٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ قال: **«إن عبداً أصاب ذنبًا** - وربما قال: أذنب ذنبًا - **فقال: أصبتُ ذنبًا، فاغفر لي، فقال ربه: أعلمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء ثم أصاب ذنبًا أو أذنب ذنبًا فقال: رب أذنبت آخر فاغفره، فقال: أَعلمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبًا، وربما قال: أصاب ذنبًا، فقال: رب أصبت أو أذنبت آخر، فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي -ثلاثًا- فليعمل عبدي ما شاء»**(١).

إن الله يغفر لمثل هذا، أما من أصر على المعصية وهو يقول: اغفر لي، فمتجشأ

(١) صحيح: البخاري (٧٥٠٧) في التوحيد، مسلم (٢٧٥٨) في التوبة.

من غير شبع، توبته بصلة كلها قشور، كأنها ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع.

* وقال سفيان الثوري: علامات التوبة النصوح أربعة: القلة، والعلة، والزلة، والغربة.

* وقال محمد بن كعب القرظي: يجمع التوبة النصوح أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَود بالجنان، ومهاجرة سيء الخلان[١].

* **كثرة الاستغفار**: من علامات التوبة الصادقة، وهو استغفار يجمع بين القلب واللسان والجوارح، وكان الحسن البصري يقول: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم وفي مجالسكم، وأينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة.

* وقال رباح القيسي: لي نيف وأربعون ذنبًا قد استغفرت الله لكل ذنب ألف مرة.

* وقال لقمان لولده: يا بني عوِّد نفسك ولسانك: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً.

* وقالوا: ما جاور عبد في قبره أحب إليه من استغفارٍ كثير.

* **وهجران مكان المعصية ورفقاء السوء**: من علامات التوبة الصادقة كما في حديث قاتل المائة نفس، فكم من شاب يريد التوبة حجبه رفقاء السوء، وكم من فتاة تبتغي العفة وقد حجبها العاصيات أمثالها، وما جرّ إلى المعصية إلا عاصٍ.

* **هؤلاء عادوا إلى الله:**

* **توبة التابعي حبيب أبي محمد:**

كان سبب إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة حضوره مجلس الحسن. فوقعت موعظته في قلبه، فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله ومكتفيًا بضمانه؛ فاشترى نفسه من الله، فتصدق بأربعين ألف درهم في أربع دفعات، : تصدق بعشرة آلاف درهم في أول النهار، فقال: يا رب! قد اشتريت

(١) القرطبي (١٨/ ١٨٩) في تفسيره.

نفسي منك بهذا؛ ثم أتبعها بعشرة آلاف أُخرى، فقال: هذه شكرًا لما وفَّقتني له؛ ثم أخرج عشرة آلاف أخرى، فقال: يا رب! إن لم تقبل مني الأولى والثانية فاقبل مني هذه، ثم تصدق بعشرة آلاف أخرى، فقال: يا رب! إن قبلت مني الثالثة فهذه شكرًا لها.

* **أغواها الربيع بن خُثَيْم:**

أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرّض للربيع بن خثيم لعلها تفتنه، وجعلوا لها، إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها، فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيَّرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًّا عليها، فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها ما أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق، وكانوا يقولون: أردناها أن تغوي الربيع فأغواها.

وبعد...

إن الله تعالى لا يعجزه هارب، ولا يفوته ذاهب، فوجبت التوبة من قريب قبل العجز والمرض، وانكشاف الغيب، فالتوبة مبسوطة ممدودة ما لم ينزل بك سلطان الموت، فبادر قبل أن يحال بينك وبين التوبة فلا يجتمع عليك اثنان: سكرة الموت وحسرة الفوت، فبادر قبل أن تُبادر.

✿ ✿ ✿

[العلم]

[*] فضل العلم والعلماء

[*] فضل العلم والعلماء

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما وَرِثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(١).

✿ ✿ ✿

* **العلم وأهميته:**

يروي الشعبي - رحمه الله - أن ابن عباس رضي الله عنهما أمسك بركاب زيد ابن ثابت رضي الله عنه، فقال زيد: أتُمسِكُ لي، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟ قال: هكذا نصنع بالعلماء(٢).

فهكذا فعل العلم حين رفع من قدر زيد رضي الله عنه حتى جعل حبر الأمة وترجمان القرآن يسوق دابته، وإنها لكبيرة إلا على من أوتي فهمًا وعلمًا.

ويتحدث الإمام سليمان بن مهران الأعمش المحدث الثقة، والذي كان من الموالي، يتحدث عن رفع العلم لخسيسته فيقول: «لولا الحديث لكنت أحمل على عاتقي دنًّا من صَحنَاة»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وصححه الألباني (٦٢٩٧) في «صحيح الجامع».

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٨).

(٣) «تاريخ بغداد» (٩/ ٦) للخطيب البغدادي.

والدّن هو: الوعاء الكبير. والصحناة: طعام من سمك صغار مجفف يضاف إليه بعض المشهيات.

فالرجل هنا يعرف للعلم فضله، وشرفه، ويحمد الله تعالى على أن أعطاه العلم، وإلا صار كبقية الموالي يحمل الطعام كخادم من الخدام، أو يبيعه في حانوت من الحوانيت.

لقد كان قَدَرُ هذه الأمة: (العلم) فلقد كانت أول آي القرآن نزولاً: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** (العلق: ١ - ٥).

وقد أقسم سبحانه مرتين فقال: **﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾** (الطور: ١ - ٣).

وأقسم بالقلم منفردًا فقال: **﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾** (القلم: ١)، والله تعالى لا يقسم إلا بعظيم، فكأننا احتجنا إلى العلم **ولكن لماذا نحتاج إلى العلم؟**

١ ـ لقد تحدث الحق سبحانه عن العلم هنا بشكليه الأساسيين: القراءة، والتسطير وهي (الكتابة).

حتى صار تسجيل المعارف بالقلم، والتدوين بكل الأدوات والوسائل ما حدث منها وما سيحدث من أعظم نعم الله تعالى على عباده إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حسب المعاملات الواقعة بين الناس، ولولا الكتابة والتسجيل والتدوين، والقراءة، والتعليم، والتعلم، لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السُّنن، وتضاربت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، ولم يقف الأبناء على معارف الآباء وعلومهم وأمجادهم وأيامهم، ولجمدت الحياة وتوقف سعيها وتقدمها.

والناظر في حياة البشر، يروعه أن يجد أن أكثر ما يعتريهم من خللٍ واضطراب وفوضى في دينهم ودنياهم إنما بسبب النسيان، الذي يمحو صورة العلم من قلوبهم، فجعل الله تعالى الكتاب وعاءً حافظًا لما فيه كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والتلف والضياع.

ومن هنا كانت نعمة التعليم بالقراءة والكتـابة من أجلّ النعم التي لا تسبقها نعمة سوى نزول القرآن، وحتى هذه النعمة ذاتها إنما تتصل اتصالاً هو الأوثق بالعلم.

بل إن القرآن لا تظهر نعمته، ولا يبدو فضله، إلا بالتعليم والكتابة.

ولذلك فإنه لا توجد في الحياة لـذةٌ أو قيمة حقيقية يسـعى الإنسان في تحصيلها، ويبذل فيها قصارى جهده كـتحصيل العلم والسعي في طلبه، والحرص الشديد على تعلمه والاغتراف من مناهله، فهو الوسيلة، وهو الغـاية، وهو الحقيقة، وهو الحياة: حياة الروح، وحياة الجسد وبدونه لا يكون كمال الإنسان ولا عقله، ولا ذاته.

٢ ـ وإذا كنا نتحدث عن أهمية العلم الشرعي، فإننا نقول: إن أمة الإسلام تعيش اليوم واقعًا مـريراً وأزمات عديدة، وهنا يأتي دور العلماء حيث تكون الكلـمة غالية قد تطيح بالرؤوس، أو تورث الهـوان، لكنها ضرورة حين يشوش التـوحيد، وينطق الرويبضة، ويتكلم التافـه في أمور العامة، وساعتها لا بد من قـيام العلماء بالقسط، وأداء الشهادة لله ولو على النفس.

لأن العالم في أمته كالقلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله.

وكالحارس إن غفل تسلل اللص، وسرق محتوى البيت.

وكالنور ينشر الضياء فإن غاب عمّت الظلمة كل الناس.

وَكرُبَّان السفينة إن لم يحفظ الطريق غرقت السفينة.

وكالراعي إن غفل هجم الذئب على الغنم.

إن الأمة تحتاج اليوم إلى العلم؛ فساعة الفتن نحتاج إلى كلمة الفصل، ولن ينطق بها إلا علماء الحق الأثبات الثقات الذين يبـثون الروح من جديد في كلمات سلفهم وأفعالهم، ويجـددون شباب الأمة ويمحون العـار كما فعل ابن عـبد السلام سلطان العلماء، وابن تيمية وغيرهم ممن أحيوا أمتهم بعد موات، وطول ثُبات.

٣ ـ ثم هذا الجهل الرهيب الذي تحياه الأمـة لا بد له من علماء يمحونه؛ لأنه لن يسـتنقـذ الأمة من أسـر الجـهل إلا علمـاء الحق الذين حفـظوه، ووعوه، وراحـوا يترجمـونه واقعًا عمليًّا؛ لأن العلم أنقذ الأمة من الوقوع في عـدة هوات سحيقات كان الأعداء قد أعدوها.

فقد ذكروا[1] في حوادث سنة (٤٤٧هـ) أن بعض اليهود أظهروا كتابًا بإسقاط الجزية عن الخيابرة - يهود خيبر - وفيه شهادة الصحابة.

فعرضها الوزير أبو القاسم عَلِيٌّ وزير الخليفة القائم عَلَى الخطيب البغدادي فقال: هذا مزور.

قال: ومن أين قلت هذا؟

قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان وهو أسلم عام الفتح بعد خيبر.

وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خيبر بسنتين.

فبهت الذين كفروا من أهل الكتاب، وردّ الله كيدهم في نحورهم، وذاك بفضل العلم.

إن حياة العلماء غنيمة، وموتهم مصيبة، وزلاتهم كوارث تنذر بالخراب في الدنيا والآخرة.

ولذا فنحن في حاجة إلى العلم الشرعي الذي يجبر التقصير، ويزيل البدعة، ويقضي على علماء السوء الذين راجت كلمتهم في سوق البوار، فهم في الصورة مرشدون أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق أذلاء كمن قال الله فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥).

وما يغني الأعمى نور الشمس في يديه، فلقد ضلُّوا وأضلوا، ولو تواروا وراء الصفوف، وطأطأت رءوسهم لكان خيرًا لهم وأولى.

*** فضائل العلم والعلماء في الكتاب والسُّنة:**

١ - قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١١١).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام[2].

وقال القرطبي رحمه الله: في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (١١٤١) ، «طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٣٥).

(٢) ابن كثير (٢/ ١٩) في تفسيره.

وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء.

وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم... وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم في الدين خطير[١].

٢ ـ وقال الله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، فرفع الله الذين آمنوا بإيمانهم، ورفع الذين أوتوا العلم من الذين آمنوا درجات فوق إخوانهم

فقدّم عمر رضي الله عنه ابن عباس على الصحابة من أشياخ بدرٍ - فلما قيل له في ذلك اختبرهم في تفسير سورة النصر، فسكتوا، فلما أجاب ابن عباس قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٢].

وفي رواية أن نافع بن الحارث لقي عمر بعسفان - وادٍ بمكة - فقال له عمر وكان قد استخلفه على مكة -: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجلٌ من موالينا.

فقال عمر: استخلفت عليهم مولىً؟! فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاضٍ، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين**»[٣].

وقدّم الأشعث بن قيس غلامًا صغيرًا، فعابوا عليه ذلك فقال: ما قدمته ولكن قدَّمه القرآن[٤].

وكان عطاء بن أبي رباح أسود، أفطس، أشلّ، أعرج، ثم عمي بعد ذلك[٥]، ولكن رفعه الله تعالى بالعلم وشرفه حتى جلس الأكابر يتلقون عنه العلم.

---

(١) القرطبي (٤/ ٤٤، ٤٥) في تفسيره.

(٢) صحيح: البخاري (٣/ ٢٢٢) في التفسير- تفسير ﴿**إذا جاء نصر الله الفتح**﴾.

(٣) صحيح: مسلم (٨١٧) في صلاة المسافرين.

(٤) عزاه الحافظ في «الفتح» لابن أبي داود، وقال: إسناده صحيح (٨/ ٧٠٢).

(٥) «المعارف» (صـ ١٥٥) لابن قتيبة.

وجعل الله تعالى بالعلم النبي الكليم موسى عليه السلام يقف أمام الخضر يستأذنه ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦).

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، فمن كان بالله أعرف كان لله أخوف.

فالعلماء تحققت لهم المعرفة وهي أفضل المعارف: معرفة الله تعالى، فعرفوا أنه العظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، وكلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية».

وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نورٌ يجعله الله في القلب.

وكان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالمٍ بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود، ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله[(١)].

٤ ـ وفرق سبحانه بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون. فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: ١٩)، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

فبالعلم الشرعي يعرف الحلال من الحرام، وبه يعرف الله تعالى ويعبد، وبه توصل الأرحام، ولذا رفع الله تعالى به العلماء ولم يُسوِّهم بغيرهم وقال عن الأمثال المضروبة في القرآن: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

٥ ـ وفي حديث الباب ذكر النبي ﷺ للعلماء والعلم فضائل عدة وهي:

(أ) أن الله تعالى يسهل به طريقًا للجنة.

---

(١) ابن كثير (٦/ ٣٤٩، ٣٥٠) في تفسيره بتصرف يسير.

(ب) وأن الملائكة تضع أجنحتها له - رضًى بما يصنع -.

(جـ) وأن الكل يستغفر له حتى الأسماك في الماء.

(د) وأن للعالم على العابد من الفضل ما للقمر على الكواكب ليلة البدر.

(هـ) وأن العلماء ورثوا الأنبياء - أي العلم - فإن النبي لا يورث درهمًا ولا دينارًا.

(و) وأن العالم إن أخلص أعطى الله له العلم بحظ وافر.

٦ ـ وينال طالب العلم دعاء النبي ﷺ وهو القائل - كما في حديث جبير بن مطعم وابن مسعود وزيد بن ثابت أنه ﷺ قال: **«نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها، فَربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**.

وفي رواية: **«فربَّ مبلغ أوعى من سامع»**[(١)].

وهنا استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ فطالب العلم ممن نضَّر الله وجوههم يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢ ، ٢٣).

٧ ـ والخير لمن طلب العلم فقد روى معاوية رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**[(٢)] . . . الحديث.

قال النووي رحمه الله: «في هذا الحديث فضيلة العلم والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى الله»[(٣)].

٨ ـ وهذا مثل ضربه ﷺ للعالم وغيره كما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا أنه ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسَقَوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به»**[(٤)].

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٧٦٦) في «صحيح الجامع».
(٢) صحيح: البخاري (٧٠) في العلم، مسلم (١٠٣٧) في الزكاة.
(٣) النووي (٤/١٤٨) على «شرح مسلم».
(٤) صحيح: البخاري (٧٩) في العلم. مسلم (٢٢٨٢/ ١٥) في الفضائل.

والغيث: المطر. والأجادب: الأراضي الصلبة. وقيعان: الأرض الملساء المستوية التي لا تنبت.

وقد ضرب النبي ﷺ هنا المثل بالعلم الذي جاء به كمثل المطر الكثير، وأما الناس فهم أصناف هم:

(أ) العالم العامل المعلم وهو كالأرض الطيبة التي شربت الماء ونفعت به نفسها وغيرها.

(ب) ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه لكنه غير فقيه، فهو كالأرض التي تستقر فيها الماء الذي ينتفع به الناس.

(جـ) ومنهم من هو كالأرض السبخة - الملساء - لا تمسك الماء ولا تقبله بل تفسده[1]. والعلماء العاملون هم الصنف الأول كانت له أولى المراتب على الإطلاق.

٩ـ وجعلهم النبي ﷺ - أي العلماء - كالمجاهدين:

* وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من جاء إلى مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره»**[2].

١٠ـ وطلبة العلم وصية رسول الله ﷺ:

كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم»**[3].

*** العلم منذ نعومة الأظافر وحتى الموت:**

وقد رفع السلف عدة شعارات للعلم فقالوا:

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

«مع المحبرة إلى المقبرة».

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٧٧) لابن حجر العسقلاني.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألباني (٦٠٦٠) في «صحيح الجامع».

(٣) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني (٣٥٤٥) في «صحيح الجامع».

«التعليم في الصغر كالنقش على الحجر».

وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول: «أي شيء تعلموا، فإنكم اليوم صغارٌ، وتوشكون أن تكونوا كبارًا، وإنما تعلمنا صغارًا، وأصبحنا كبارًا، وصرنا اليوم نُساءل»(١).

وقال الزبير بن أبي بكر: «عليك بالعلم، فإن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً»(٢).

* وباع والد (علي بن عاصم) مُسند أهل العراق بيته وألقى في حجر ولده مائة ألف درهم ثم قال: - اذهب فلا أراك إلا بمائة ألف حديث(٣).

* وفي حلقة سفيان بن عيينة دخل صبي صغير قد تزيًّا بزي العلماء فضحك مَنْ في الحلقة منه، فقال سفيان بن عيينة لأحمد بن النضر راوي هذه القصة: «يا نضر لو رأيتني وطولي خمسة أشبار، وجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، أكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، كالزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، مقلمتي كاللَّوزة، فإذا دخلت قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، فضحكوا جميعًا».

* وكان النبي ﷺ قد حرص على تعليم صغار الأنصار الكتابة كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة(٤).

*** زِدْ في الضرب، وَزِدْ في التحديث:**

وهذا هو هشام بن عمار لما بلغ مبلغ الرجال جهزه أبوه للحج، ولسماع الحديث وباع داره وما يملك لا لشيء إلا ليتعلم ولده الحديث والسنة على يد الإمام مالك رحمه الله - فلما ذهب إلى المدينة بعد الحج، وجد مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٨٧).

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ٩).

(٣) «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٤٧- ٤٤٨).

(٤) صحيح: صحح العلامة شاكر إسناده (٦/ ٢٢) في «المسند» بترقيمه.

يحدث الناس فقال: حدثني يا إمام.

وظنه مالك صغيرًا يعبث، فقال: حصِّلنا على الصبيان، ثم أمر بجلده عشرة أسواط.

فلما ضُرب هشام بكى وهو جالس على دار الإمام مالك حتى رَقّ له قلب مالك، فقال هشام:

- والله يا إمام إنَّ أبي جهزني بعد أن باع داره وما يملك لسماع الحديث منك، وأنا طالب حديث، وجامع سنة، ولا أتركك والله حتى أقتص منك.

فتأثر مالك وقال: ما يرضيك؟

قال: حدثني بكل سوط ضربتنيه حديثًا عن رسول الله ﷺ.

فمضى مالك يحدثه وهو يكتب، فلما انتهى مالك قال هشام:

- زِدْ في الضرب، وَزِدْ في التحديث!!

* وهذا هو الإمام الطبري شيخ المؤرخين والمفسرين لما كان على فراش الموت سمع حديثًا، فقال: عليّ بالمحبرة والصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذا الحال؟

فقال: لا ينبغي للإنسان أن يدع اقتباس العلم حتى الممات(١).

* وقيل لعبد الله بن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الممات لعل الكلمة التي تنفعني عند الله لم تكتب بعد!!

* وقال حمدون بن حماد الكاتب: كتبت بيدي هذه (٣٥٠٠) كتاب ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم يكتب بعد!!

- متسول العلم!!

* أما (بَقِيٌّ بن مخلد) المحدث الأندلسي صاحب المسند فيحكي أنه ترك الأندلس حتى وصل إلى بغداد؛ ليسمع الحديث من الإمام أحمد، وكان الإمام في وقت المحنة، ولم يكن بَقِي يدرك أن الأقدار قد ساقته إلى بغداد في وقت عصيب، فلما علم اغتم لذلك غمًّا شديدًا، ثم استأجر بيتًا وألقى فيه متاعه، وراح يبحث عن دار

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء» (صـ ٢٠).

الإمام أحمد حتى وجدها، ثم طرق الباب فخرج أحمد - رحمه الله - فنظر إليه وهو لا يعرفه.

فقال بقي: يا أبا عبد الله رجلٌ غريب الدار وهذا أول دخولي البلد، وأنا طالب علم، ولم تكن رحلتي والله إلا إليك يا إمام.

فقال أحمد: ادخل الممر ولا تقع عليك عين- لأن المأمون قد حبس أحمد أيامها- فلما دخل قال أحمد: من أين؟ قال: من الأندلس.

قال: إن موضعك بعيد، وما كان من شيء أحبّ إلي من أن أُحسن عون مثلك، ولكني ممتحن كما ترى.

فقال بقي: يا أبا عبد الله هذا أول نزولي بغداد، وأنا مجهول عندكم، فهل أذنت لي أن آتيك في زي سائل - متسول - فأقول: الأجر رحمكم الله، فتخرج إليّ في هذا الممر وتحدثني ولو بحديث واحد في كل يوم.

فقال أحمد: نعم، ولكن على شرط وهو: ألا تظهر في الحِلق عند أصحاب الحديث.

قال بقي: فكنت آخذ عودًا بيدي، وألف رأسي بخرقة، وأجعل ورقتي في كمي هي ودواتي، ثم آتي بابه فأصيح: الأجر رحمكم الله.

فيخرج إليّ ويغلق الباب ويحدثني حتى اجتمع لي نحو ثلاثمائة حديث.

حتى زالت المحنة!!

إن ما فهمه هؤلاء أن العمر محدود نفيسٌ غالٍ فلا يضيع في غير العلم.

قال العلامة النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ١، ٢).

لا شيء أنفس من العمر.

وقال الفخر الرازي: إن الزمان أعلى وأشرف من المكان، فلما كان كذلك، كان القسم بالعصر، قسمًا بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته.. إنه تعالى ذكر العصر الذي يمضيه ينتقص عمرك، فإذا لم يكن في مقابله كسب، صار ذلك

النقصان عين الخسران[١].

فمن العبث إذن أذن يضاع الزمان من عمر الإنسان في العجز والتقصير، والتفريط، والفراغ والتبذير.

*** آداب طالب العلم:**

(١) إصلاح النية في طلب العلم:

فقد كان السلف يرى أن العلم قُربى إلى الله تعالى وزلفى، فكانوا يحفظونه من نوايا السوء، ويجردون نواياهم لله تعالى، فتحقق لهم إخلاص القصد لله تعالى وحده لا شريك له، بعد أن نقوا أنفسهم من حظوظها البشرية فلا مال، ولا جاه، ولا سلطان، وإنما هو الإخلاص الكامل لله تعالى.

* فكانوا على حذر من طلب المفاخرة والمباهاة في طلب العلم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة**»[٢].

وقوله ﷺ عن أبي هريرة أيضًا: «**من تعلَّم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم**»[٣].

وقد مرّ الشعبي - التابعي الجليل - فسمع أحدهم يقع في أعراض المسلمين، ويصنفهم حسبما يريد بعد أن نال بعض العلم فقال قولته الشهيرة: «هاهنا قومٌ قد فرغوا من القضاء فلانٌ في الجنة، وفلانٌ في النار»، قصد أنه قد نصب نفسه قاضيًا في الدنيا وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٨)، فأصدر الأحكام في الدنيا، قبل أن يفصل الله بين عباده.

وكان العلماء يحذرون من افتتان العالم بكثرة أتباعه فيقولون: «إنه فتنة للمتبوع، وذلة للتابع»، وعمدة ذلك كله: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وهو الحديث الذي استشعر المحدثون أهميته فافتتحوا به كتبهم؛ ليدلوا مَنْ وراءهم على أن النية الصالحة أول

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٢/ ٨٥، ٨٦).

(٢) صحيح: صححه الألباني (٦١٥٩) في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: صححه الألباني (٦١٥٨) في «صحيح الجامع».

صاحب في طريق العلم؛ ليكون السعي مباركًا، والأجر عظيمًا، والقصد موفقًا.

لقد فهم العلماء أن في طلبهم للعلم فضل لا يدرك إلا بالنية فلن يحصل طالب العلم على معية الله وحفظه، ووضع الملائكة لأجنحتها، واستغفار الملكوت، ولا كل هذه الفضائل إلا بالنية الصالحة.

ولن يحفظ طالب العلم في رحلاته الطويلة الخطيرة إلا الله تعالى، فمن باب أولى إخلاص النية له.

وفهموا أنه تعالى قال: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (الإسراء: ٨٥)، ففهموا أن مصدر العلم هو الله تعالى فأخلصوا له سبحانه النية؛ لينالوا ما يفتح به من الرحمات والعلوم لهم.

*** ملازمة ذكر الله تعالى:**

فلابد لطالب العلم من التسلح بالذكر من ساعة استيقاظه من نومه، ومرورًا بخروجه من داره، وأثناء جلوسه بين يدي شيخه، ثم إذا نام تارة أخرى، لأن الأذكار إنما هي أسلحة إيمانية، ورصيد لا ينضب، وحفظ من خطل الشيطان ووسوسته، وتعويد للسان طالب العلم على الطهارة، وتحمل الأذى، وسلاح يتقي به الإنسان ما يكره، وجَنة حصينة، وبركة تبقى في عقب الإنسان.

ولذا كان طلبة العلم وأساتذتهم في حرصٍ دائم على تربية هذه الحاسة في أنفسهم فأنتجوا أجيالاً وثيقة الصلة بالله تعالى، لا تعرف تضييع الوقت إلا فيما يفيد.

ومما هو جدير بالذكر أن طلبة العلم أثناء طلبهم للعلم ورحلاتهم كانوا يعجزون عن أداء عبادات كثيرة فكانوا يجبرون هذا بالذكر والصلاة، حتى قال عبد الرحمن ابن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا.

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حمّاد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً، إما أن يحدث، وإما أن يقرأ، أو يسبح، أو يصلي، وقد قسّم النهار على ذلك. فما كانت النتيجة؟ لقد مات وهو في الصلاة رحمه الله(١)!!

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٤٧).

● الاهتمام بالوقت وعدم تضييعه:

وكما سبق أن العمر أنفس وأغلى ما في الوجود، والوقت هو الحياة، ورأس مال الإنسان فيجب ملء الفراغ فيه بالنفع لا بالضر، لأن الزمن نعمة جُلّى ومنحة كبرى، لا يستفيد منها إلا الموفقون، ولا يضيعها إلا المخدوعون كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[١]، فالكثير من الناس مفرطٌ في هذه النعمة مخدوع مغبون.

وكان أهل العلم قد وصلوا الليل بالنهار؛ لسماع الحديث والفقه والتفسير، فكانوا يمضون أيامهم وأوقاتهم بين فرض يؤدى، ومجد يأثل، وحمد يهيل، وخير يؤسس، وعلم يقتبس، فإن ضاع اليوم عدّ أحدهم ذلك عقوقًا ليومه، وظلمًا لنفسه.

فطوبى لمن ملأ يومه بالخير والصلاح، وويل لمن ملأه بالشر والفساد.

ولك أن تعلم أن العلماء كانوا يستشفون بالعلم حتى قال أحدهم:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ● ونترك الذكر أحيانًا فننتكسُ

فكانوا يرون شفاءهم بالعلم.

وكانوا قد جزءوا الليل أجزاءً، فجعلوا للنوم جزءًا، وللصلاة جزءًا، وللمذاكرة الحديث جزءًا، وكان أحدهم يقول: حفظ الليل غالب على حفظ النهار[٢]!!

ويحكى شريك النَّخعي قاضي الكوفة أنه صلى مع أبي إسحاق السُّبيعي -المحدث- ألف صلاة صبح وهو يطلب العلم أي: ما يوازي ثلاث سنوات من عمره[٣].

ويحكي أبو حاتم الرازي - المحدث العلامة ورجل الجرح والتعديل - : أنه خرج من الرّي - شمال إيران - لتعلم الحديث حتى وصل إلى مصر، فيقول: كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل النّسخ والمقابلة، فأتينا يومًا أنا ورفيقٌ لي شيخًا، فاستأذنا عليه، فقالوا: هو عليل.

---

(١) صحيح: البخاري (٦٤١٢) في الرقاق.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٦٥).

(٣) الرامهرمزي (صـ ٢٠٢) في «المحدث الفاصل».

فانصرفنا وفي طريقنا رأينا سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس أحد المشايخ، فلما يمكنا إصلاحها - إعدادها للأكل - ومضينا إلى المجلس، فلم نزل على تلك الحالة حتى أتى عليها ثلاثة أيام، وكادت أن تتغير، فأكلناها نيئة، لم يكن لنا فراغٌ أن نعطيها من يشويها!! ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد[١].

وكان محمد بن القاسم من أهل مصر، قد تزوج بابنة عمه فحملت منه، ولكن شدة توقانه للعلم وشوقه إليه غلبه حتى خيّرها بين الطلاق أو البقاء، فاختارت البقاء، فقطع الرحلة من مصر إلى المدينة لسماع الحديث من الإمام مالك، وكان يجد مالك رحمه الله أنشط ما يكون في وقت السحر، فكان يلقاه في داره آنذاك. قال: وفي ليلة توسدت صخرة على بابه فغلبني النوم، وخرج مالك دون أن أشعر، فطرقت الباب، فخرجت جارية سوداء ركلتني بقدمها وقالت:

- إن الإمام قد خرج لصلاة الصبح، ليس يفعل كما تفعل أنت، إن له تسعًا وأربعين سنة يصلي الفجر بوضوء العَتَمة (العشاء).

قال: فلزمت باب مالك سبعة عشر عامًا ما اشتغلت فيها إلا بالعلم.

ثم جاء حُجَّاج مصر، فدخلوا على حلقة مالك، وجاء شاب ملثم، فسلَّم على مالك ثم قال:

- أفيكم محمد بن القاسم؟ فأُشِيرَ إليّ، فجاء يقبلني بين عينيَّ، وعلى يديّ، فشممت منه أطيب ريح، ريح الولد. فقد كان ابني الذي تركته في بطن أمه، قد صار شابًّا يافعًا!!

ألا فلا نامت أعين الكسالى!!

*** التأدب بأدب العلم:**

لأن العلم وحده لا يكفي، كما قال الشاعر:

لا تحسبن العلم ينفع وحده ۞ ما لم يُتوج ربه بخلاق

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٦٣) لابن عساكر.

ورحم الله طلبة الحديث حينما كانوا يتأدبون بأدب العلم حتى قال إبراهيم الحربي - المحدث -: ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به.

وقال الحسن البصري: كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره(١).

وعلى طالب العلم أن ينقي نفسه من الرذيلة؛ لأن التعلم والتعليم هما من الصلاة، فلا تصح العبادة إلا مع طهارة القلب، والتحلي بالأخلاق الكريمة كالصدق والإخلاص، وترك الصفات الذميمة كالحسد، والكبرياء، والغش، والخداع.

وطالب العلم عمّا قليل سيصير مرشدًا ودليلاً فعليه أن يكون كما قال الله تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢)، والقوة هنا عامة في كل شيء، فلا ينبغي للعالم أو طالب العلم أن يكون مصدر تعيير وخزي للعلماء بأفعاله القبيحة، وأخلاقه الذميمة، وهنا تكمن القوة في مدافعة الشيطان، والهوى، ولقد هتف سفيان بن عيينة فيمن حوله فقال: لا تكونوا كالمُنخُل يخرج الدقيق الطيب، ويمسك النُّخالة، تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم!!

إن من يعلم ولا يتأدب بعلمه كمن تجشأ بغير شبع، وقف على باب الجنة يدعو إليها بقوله، وينفر منها بفعله.

ومن هنا وجب على طالب العلم التحلي بالخلق الطيب، والآداب الرفيعة.

*** المثابرة، وتحمل المشاق!!**

وهو أصل من أعلى الأصول في طلب العلم، حيث إن طلبة العلم لا بد لهم من تحمل شظف العيش، ومخاطر طلب العلم، كما كان أهل الحديث يفعلون قديمًا، فقد كانوا يجوزون الفيافي والقفار، ويعرضون أنفسهم لقطع الطريق، والسلب، وهجوم السباع الضواري في صحراء وبِيدٌ يتيه فيها الذكي والبليد، فأثابهم الله بذلك خيرًا.

ومما ينبغي تحمله هنا، هو طبيعة الأستاذ أو الشيخ، كما كان الإمام أبو محمد بن سليمان بن مهران الأعمش والذي كان حريصًا على اصطفاء طلبته جيدًا،

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ١٤٢).

واختبارهم، فاشترى كلبًا وجعله على بابه، وكان طلبته إذا حضروا نبحهم الكلب حتى يردهم إلى الحدود، كل هذا إنما هو لاختبار صدقهم، واستكشاف مدى حرصهم على طلب الحديث، وتكرر الأمر مرة أخرى، فلم ييأس الطلبة، وفي الثالثة جاءوا دون يأس، فلما كانت المرة الرابعة، خرج إليهم الأعمش باكيًا يقول: مات الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر - الكلب - وتحقق هو من مثابرة طلبته وصدقهم.

- ومن طرائف ما يحكى في هذا المضمار أن الأعمش رحمه الله أيضًا لشدته كان طلبته يتحايلون عليه، حتى أن تلميذه عيسى بن يونس يقول: كنا في جنازة، والأعمش معنا - وكان أعمى - فأخذه عيسى ليعيده إلى داره ولكنه مضى به حتى وصل إلى الصحراء، ثم قال: أتدري أين نحن يا إمام؟ إننا في الصحراء، ووالله لا أعيدك يا إمام حتى تحدثني؟

فبدأ الأعمش - تحت حاجته - يملي ويعلمه، وعيسى يكتب في الألواح، ثم انتهى، فأخذه عيسى حتى أدخله البلد، وأعطى الألواح لطالب علمٍ آخر، لعلمه بما سيفعله الأعمش، فلما وصل إلى الدار صاح الأعمش: خذوا الألواح منه.

فقال عيسى: قد فاتت الألواح يا إمام.

فقال الأعمش: كلُّ ما حدثتك به كذب!!

فقال: أنت أعلم بالله من أن تكذب على رسول الله ﷺ.

فتركه الأعمش لما رأى حرصه ومثابرته.

لقد كان الأمر إذًا كسر شموخٍ في نفوس طلبة العلم، وتعليمهم التواضع، وتدريبهم على الصبر في طلب العلم، ومن لم يصبر على ذل العلم ساعة ظلّ في ذلٍّ إلى قيام الساعة.

* **ومن الآداب الأخرى**: احترام أستاذه كما كان الشافعي رحمه الله يترفق في قلب صفحة كتابه حتى لا يزعج شيخه الإمام مالك.

* وألاّ يضايق أستاذه بكثرة الأسئلة، ولا يبغته في الجواب، ولا يمشي أمامه، ولا يجلس في مكانه، ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له.

* وألا يفشي سر أستاذه، ولا يغتابنّ أحدًا عنده.

* وألاّ يطلبن عثرة أستاذه، وأن يقبل معذرته إن زلّ، فكثير من طلبة العلم حمقى، مسرفون في الثناء والمدح، مسرفون في الذم، إن أعجبهم شيخ من المشايخ طاروا به وبذكره وهوّلوا من أمره وجعلوه ابن حجر عصره، وبخاري زمانه، وابن تيمية يبعث من قبره.

فإن زلّ زلة - أيًّا كانت - نصبت المجانيق، وقلبت الأوراق، وأرسلت الصواعق، وقامت الدنيا ولم تقعد، ومن قمم الجبال وذراها إلى حضيض الأرض وباطنها مهونين من أمره فيالله!!

إن من لا عيب فيه بعد الأنبياء والرسل هو المستحيل الرابع يا هؤلاء، ومن رام عالمًا بغير خطأ إنما يروم أن يصطاد سمكًا يحلق بجناحيه في السماء، وذاك خلق غير موجود، وكذلك عالمٌ بلا خطأ: خلق لم ولن يولد بعد!!

* أن يوطن الطالب نفسه على التعلم حتى آخر عمره، ولا يستهين بشيء من العلوم، وها هو ابن الجوزي يهتف: يا ليت لي مثل عمر نوح فإن العمر قصير والعلم كثير.

وكان أديسون مخترع المصباح الكهربائي يقال له: - من شدة عمله - متى الإجازة. فيقول: عند الموت.

* ألا يكتم علمه، وأن يبسطه ويشرحه للناس متواضعًا لهم غير مستكبر.

* اختيار العالم الجيد الذي سيؤخذ العلم من على يديه كما قال محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم»(١).

*** من آداب المُعلم والشيخ والأستاذ:**

والمعلمون، والمشايخ هم حملة مشاعل النور، يبددون بها الجهل والظلمات، وينقلون المعارف ويردون بالناس حياض النجاة التي أمر الله تعالى المؤمنين بها، وهم ورثة الأنبياء، وأدلة الهدى والرشاد، لذا وجب عليهم التأدب ببعض الآداب ونذكر منها الآتي:

---

(١) صحيح: الإمام مسلم (١/ ٨٤) في المقدمة.

١ ـ عدم كتمان العلم:

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

فقد فعلها اليهود فكتموا العلم مقابل حطام الدنيا الفانية كالرياسة الكاذبة، والمال الزائل، فكانت تجارة كاسدة، وبوارًا حلّوا داره وأحلوه قومهم لما كتموا العلم ونبذوه وراءهم ظهريًّا، وفي حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**من كتم علمًا أُلجِمَ يوم القيامة لجامًا من نار**»(١).

٢ ـ وأن لا يكون علمه أجوف فلا ينتفع به وينسى نفسه:

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**مثل الذي يعلم الناس الخير، وينسى نفسه مثل السراج** - وفي رواية: **الفتيلة** - **تضيء للناس وتحرق نفسها**»(٢).

فالناس يقتدون بالمعلم، ويقدرونه حق قدره، وهو أكثر الخلق تأثيرًا في القلوب، ومن علمه ينهل الطلاب، فإذا فسد فسد كل شيء، فإنه كملح الطعام إذا فسد فسد الطعام، فلابد أن يتحرى الدقة في تصرفاته فإن لطخةً في الثوب الأبيض ليست كلطخة في غيره، وعيون الناس إليه ناظرة، وعليه مرتكزة، وفي أحواله باحثة، فإذا لم يكن مثلاً أعلى في التزام الحق وتحريه، والتحلي بمكارم الأخلاق سقط، وسقط معه العلم، وذهبت معه الهداية، وانصرف الناس؛ لا عنه فقط، بل عن العلم والدين كله، وكم من زلة زل بها عالم فزلّ وراءه خلق كثير، ولذا قالوا: زلة العالم لا تغتفر؛ لأن بزلته يضل خلق كثير فاحذر يا معلم الناس الخير!!

وقد قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤).

٣ ـ الشفقة على من يعلمهم، فهم وصية رسول الله ﷺ وهو أبو المؤمنين، كما كانت أزواجه أمهاتهم، فلا عنت، أو إهانة، أو إذلال، إنما هي دقة في الأداء

---

(١) صحيح: صححه الألباني (٦٥١٧) في «صحيح الجامع».

(٢) صحيح: صححه الألباني (٥٨٣٧) في «صحيح الجامع».

والخلق الفاضل .

٤ ـ ألا يدع من نصح المتعلم شيئًا إلا فعله، فلا يفوِّت فرصة لذلك أبدًا.

٥ ـ على أن يكون ذلك كله مندرجًا تحت الإخلاص فلا يريد بعمله جزاءً ولا شكورًا.

٦ ـ أن يزجر بطريقة التعريض، والتلميح لا التصريح، وبالرحمة لا التوبيخ.

٧ ـ مراعاة مستوى من أمامه فلا يعلم السفهاء الحكمة كمن ألقى الدُّر للخنازير، ولا يعلم الكبار علمًا يعلمه الصغار، فيكون في ذلك خبط عشواء.

٨ ـ وألا يقبح علمًا آخر من فروع العلم بل يُرغِّب في العلوم كلها، ولا يحتقر شيخًا آخر في مجلسه حتى لا يُعوِّد طلبته الخوض في سيرة غيرهم، وأكل لحومهم.

٩ ـ وقد لخصّ أبو شامة الشافعي هذه الآداب فقال للمعلم:

«يبدأ بإصلاح نفسه، فإن أعينهم - أي الطلبة - إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن، وما استقبحه عندهم فهو القبيح، ويلزم الصمت في جلسته، ويكون معظم تأديبه بالرهبة، ولا يكثر الضرب والتعذيب، ولا يمازح أحدًا بين أيديهم، ويقبح عندهم الغيبة، ويوحش عندهم الكذب والنميمة»[١]. اهـ.

✿ ✿ ✿

(١) نقلاً عن «التربية الإسلامية» للأستاذ/ محمد عطية الإبراشي (صـ ١٢٨، ١٢٩) بتصرف.

فهرس الوصايا النبوية

الموضــــوع | الصـفحـة

الإهداء. 3
المقدمة. 5
العقائد. 11
التوحيد سبيل النجاة. 13
التوحيد لماذا؟. 13
من أدلة التوحيد. 24
التوحيد والفطرة. 26
من فضائل كلمة التوحيد. 27
من معاني لا إله إلا الله. 30
الإيمان بالله تعالى. 39
الأدلة الشرعية والمادية على وجود الله تعالى. 41
الإيمان بالقضاء والقدر. 57
خطورة التكذيب بالقضاء والقدر. 58
تعريف القضاء والقدر. 62
مراتب الإيمان بالقضاء والقدر. 64
السلف والقدر. 70
ثمار الإيمان بالقضاء والقدر. 71
الإيمان بعذاب القبر ونعيمه. 73
يدفن العبد في الأرض التي خلق منها. 75
عذاب القبر حقيقة لا وهم. 78

أسباب عذاب القبر 86
بشرى لعباد الله المؤمنين في قبورهم 88
ما ينجي من عذاب القبر وفتنته 89
العبادات 93
كلمات في العبادات 95
العبادات وعقيدة المسلم 95
العبادات وإصلاح المجتمع 96
العبادات طريق إلى محبة الله تعالى وولايته 97
الصلاة . . . الصلاة 102
مكانة الصلاة في الإسلام 102
الصلاة والقرآن الكريم 104
من أسرار الصلاة 107
الصلاة مناجاة بين العبد وربه 107
الصلاة تعلم الثبات والكرم 109
وصية للخشوع في الصلاة 110
الصلاة تكفر الذنوب وترفع الدرجات 111
الصلاة أحب الأعمال إلى الله تعالى 112
الصلاة قرب من الله تعالى 112
الصلاة مفتاح الجنة 115
رضا الله تعالى والأجر الجزيل 116
شهود الملائكة لعباد الله المصلين 117
المصلي في حفظ الله تعالى وذمته 117
المصلي مرحوم برحمة الله تعالى 118
الصلاة خير من كل شيء 118
الصلاة تقوي روابط الأخوة 119
السلف وصلاة الجماعة 122
فضل الصلاة في جماعة 123
حكم تارك الصلاة 124

الزكاة والصدقات 128
أحكام الزكاة والصدقة 128
الزكاة والدليل عليها 129
حكم مانع الزكاة 133
على من تجب الزكاة 135
مصارف الزكاة 136
الذين لا تصرف لهم الزكاة 147
شروط المال الذي تجب فيه الزكاة 151
أنواع المال الذي تجب فيه الزكاة 153
الثروة الحيوانية 154
الذهب والفضة 161
الثروة التجارية 164
الزروع والثمار 167
مقدار النصاب 168
الثروة المعدنية والبحرية 176
زكاة الفطر 179
حكمها والدليل عليها 180
حكمة مشروعيتها 180
على من تجب زكاة الفطر 181
مقدار الواجب فيها 182
عن من يخرجها المزكي 182
وقت إخراجها 183
مقدار الصاع النبوي 183
مشكلة كل عام 183
الصدقات 184
شروط قبول الصدقة 186
حديث رائع 190
صور من حياة المتصدقين 194

رمضان والصيام.	195
الصيام عبادة وفريضة قديمة.	196
تشبيهان لرمضان.	197
تعريف الصيام.	198
معنى رمضان.	199
الاستبشار والتهنئة بقدوم رمضان.	199
من عجائب الصائمين.	201
من أسرار رمضان والصيام.	202
الصيام والتقوى.	202
كبح جماح النفس وتربية الإرادة.	203
تعلم مراقبة الله تعالى.	204
وفي ترك الشهوات فوائد وفوائد.	207
درجات الصائمين في رمضان.	211
من هدي النبي ﷺ في رمضان.	213
صلاة التراويح (القيام).	217
قيام ليلة القدر.	219
تحديد ليلة القدر.	220
الاعتكاف في العشر الأواخر.	222
تأخير السحور وتعجيل الإفطار.	225
دروس تستفاد من رمضان والصيام.	226
الحج والعمرة.	228
وصف حجة الرسول ﷺ.	228
كيف تحج وتعتمر.	232
أنواع الإحرام.	232
أخطاء تقع في الحج والعمرة.	239
أخطاء في الإحرام.	239
أخطاء في الطواف.	240
أخطاء في السعي.	241

أخطاء في عرفة. 241
أخطاء في مزدلفة. 242
أخطاء في رمي الجمار. 242
أخطاء في منى. 242
أخطاء عند الخروج من المسجد الحرام. 243
أخطاء عند زيارة المسجد النبوي. 243
من فضائل الحج والعمرة. 243
من أسرار الحج. 245
كتاب الجنائز. 247
ساعة الاحتضار. 249
من يعمل لمثل مصرعي هذا؟. 249
غُسل الميت. 267
هناك من لا يُغَسَّل. 267
من يُغَسِّل الميت؟. 268
مَنْ يُغَسِّل مَنْ؟ ومَنْ لا يُغسِّل مَنْ؟. 268
صفة غسل الميت. 270
تكفين الميت. 275
تكاليف الكفن على مَنْ تقع؟. 275
صفة الكفن. 277
(أ) كفن الرجل. 277
(ب) كفن المرأة. 279
(جـ) كفن الصبي الصغير. 279
(د) كفن السقط. 280
تكفين الرجل. 280
تكفين المرأة. 281
اتباع الجنائز وتشييع الميت والصلاة عليه. 282
فضل اتباع الجنائز. 282
الإسراع بالجنازة وحملها. 284

المشيعون في الجنازة. 286
آداب اتباع الجنائز. 287
الصلاة على الميت. 289
فضائل صلاة الجنازة. 289
كيفية صلاة الجنازة. 291
دفن الميت وما ينفعه بعد موته. 293
حكم الدفن. 293
الحكمة من الدفن. 294
حالة نادرة الحدوث. 294
أوقات لا يدفن فيها الميت إلا لضرورة. 295
الصفة الشرعية للقبر. 295
ما يستحب في القبر. 296
المكروه في القبر. 297
من يقوم بعملية الدفن؟. 298
من يدفن الرجل؟. 298
من يتولى دفن المرأة؟. 298
كيفية الدفن. 299
ما بعد الدفن. 300
الاستغفار للميت وسؤال التثبيت له. 300
العزاء. 300
المآتم والسرادقات. 301
فضيلة من عزّى أخاه في مصابه. 302
من لطائف التعازي. 302
ما ينتفع به الميت بعد موته. 303
تجنب النياحة عليه. 303
قضاء الدين عنه. 308
إنفاذ وصيته وعهده. 310
الصدقة عنه. 311

قضاء دين الله عز وجل. 312
زيارة قبره والدعاء له. 314
الحفاظ على حرمة قبره. 316
كتاب الأخلاق. 319
حُسن الخلق. 321
تعريف حُسن الخلق. 327
الحياء. 331
كلمات حول الحياء. 331
تعريف الحياء. 332
لماذا خُلق الحياء خاصة؟. 333
كيف نهيج الحياء داخل النفوس؟. 335
حياء النبي ﷺ. 341
معنى قوله ﷺ: **«إذا لم تستح فاصنع ما شئت»**. 341
نوعا الحياء. 342
حياء ممدوح وحياء مذموم. 342
الفارق بين الحياء والرياء. 343
خطورة ترك الحياء. 344
جزاء المستمسكين بالحياء. 346
الاستقامة قولاً وفعلاً وأثرها في حياة الأمة. 348
كلمات حول الاستقامة. 348
من معاني الاستقامة. 350
صعوبة أمر الاستقامة وشدته وخطورة ترك الاستقامة. 352
السبيل إلى الاستقامة. 356
الرفق والرحمة واللين. 368
حول الرفق والرحمة واللين. 368
تعريف الرفق وشرح الحديث. 371
نماذج من الرحمة والرفق واللين. 372
الرفق بالنفس عند الالتزام بالأمور الشرعية. 372

الرفق بعوام الناس. 375
الرفق بالعصاة. 376
الرفق بالجهال. 379
الرفق بالضعفاء من العيال والصبيان. 380
الرفق بالحيوان. 381
الرفق بالنساء. 382
الترفق بالأعداء. 383
الصدق والنهي عن الكذب. 385
معنى الصدق والكذب والبر والفجور. 385
خطورة الكلمة في الإسلام. 386
الصدق: كلمات وحقائق. 388
الصدق: مدخل ومخرج ولسان وقدم ومقعد. 390
الصدق: مظاهره وأمثلته. 392
الصدق في التوحيد. 392
الصدق في التوبة. 393
الصدق في الأقوال. 394
الصدق في الأفعال. 396
صدق الحال. 397
الصدق في الوعد. 397
وأما الكذب. 398
من أشكال الكذب وأنواعه. 399
الكذب على الله تعالى. 399
الكذب على رسول الله ﷺ. 399
شهادة الزور. 400
اليمين الغموس. 400
خلف الوعد والخيانة. 401
متى يجوز الكذب؟. 402
الحلم والصفح والعفو والنهي عن الغضب. 404

الغضب: تعريف وتطوافة حول معانيه. 404
نوعا الغضب. 404
الغضب المحمود. 404
الغضب المذموم. 405
قالوا عن الغضب. 406
عاقبة الغضب الوخيمة. 407
مساوئ الغضب على الفرد والمجتمع. 408
معالجة السنة النبوية للغضب. 410
وأما الحلم والعفو عن الجاهلين. 412
نماذج من حلم النبي ﷺ. 413
بين الحلم والاحتمال والعفو. 414
عمر رضي الله عنه الوقاف مع آيات القرآن. 416
قالوا عن الحلم والعفو. 417
كتاب الحقوق. 419
بر الوالدين والنهي عن عقوقهما. 421
تعريف بر الوالدين. 421
آداب تراعى مع الوالدين. 421
ما يعين على بر الوالدين. 425
من قصص بر الوالدين. 427
نماذج من بر الأنبياء. 427
نماذج من بر السلف بآبائهم وأمهاتهم. 429
النهي عن عقوق الوالدين. 432
تعريف عقوق الوالدين. 432
من مظاهر عقوق الوالدين. 432
من أسباب عقوق الوالدين. 437
من قصص عقوق الوالدين. 439
حقوق الأبناء على الآباء. 441
تمهيد. 441

مرحلة ما قبل الولادة. 442
تشريع الزواج والأمر بحسن اختيار الأب والأم. 443
معايير اختيار الزوجة. 443
الدين والخلق. 443
معايير اختيار الزوج. 445
سلامة البدن والنفس. 447
الأصل والشرف. 448
اللقاء على اسم الله وبركته. 448
أثناء الحمل. 449
عند الولادة. 451
مرحلة ما بعد الولادة. 457
رعايته وحضانته ورضاعه. 457
الإنفاق عليه. 458
وقايته ومداواته ورقيته من كل سوء. 459
المداعبة واللين. 460
العدالة بين الجميع ذكرانًا وإناثًا. 461
تعليمهم الإيمان وشرائع الإسلام. 461
تعليمهم آداب الاستئذان. 464
الدعاء لهم وتجنب الدعاء عليهم. 465
حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها. 466
تمهيد. 467
الحقوق المشتركة للزوجين. 468
حل الاستمتاع الجنسي بينهما. 468
حسن العشرة. 469
نموذج للصبر على الزوج والزوجة. 473
أدب راق. 474
حرمة المصاهرة. 475
التوارث. 475

حسن الخلق. 475
حقوق الزوج على زوجته. 478
حق الطاعة في غير معصية الله تعالى. 478
لا تصوم النافلة إلا بإذنه. 479
لا تهجر فراش زوجها. 482
القرار في البيت وعدم الخروج من البيت إلا بإذن الزوج. 483
التأديب. 484
القيام على شئون البيت. 486
حقوق الزوجة على زوجها. 488
الحق المالي (المهر). 488
حكم متاع البيت. 488
حق النفقة. 489
الحق المعنوي: العدل والإحسان في المعاملة. 491
إحصان فرجها وإعفافها. 493
صيانتها والاعتدال في الغيرة. 496
العدل بين الزوجات. 498
الخلافات الزوجية (أسبابها وطرق معالجتها). 500
حقوق المرأة في الإسلام. 505
تمهيد. 505
الإسلام والمرأة: الكرامة والبراءة. 507
حق الميراث. 509
حق تربية الأبناء. 510
حق الخروج للعبادة. 510
حق الاحتفاظ بشخصيتها. 511
للمرأة الحق في طلب العلم. 511
عدم إجبارها على الزواج. 512
أعطى الإسلام للمرأة ما لم يعط للرجل. 514
حقوق الطلاق. 515

شبهتان والرد عليهما 516

(١) الحجاب 516

(٢) تعدد الزوجات 518

الوصية باليتيم 520

اليتيم والمجتمع والإسلام 520

الإنفاق على اليتيم شعبة من شعب الإيمان والبر 521

الحض على كفالة اليتيم 522

مراعاة الحالة النفسية لليتيم 532

هؤلاء أكرموا اليتيم وهؤلاء أهانوه 525

الأخوة: حقوق وواجبات 527

كلمات في الأخوة 527

شروط يجب توافرها فيمن تتخذه أخًا لك 529

(أ) الحقوق العامة للأخوة 533

السلام ورد السلام 533

تشميت العاطس 534

إجابة الدعوة 538

لماذا الدعوة ولماذا إجابتها؟ 541

عيادة المريض 541

فضل عيادة المريض 542

عتاب أخروي 542

آداب عيادة المريض 543

اتباع الجنائز 544

النصيحة 544

كيف تكون النصيحة؟ 545

نصره ظالمًا أو مظلومًا 547

إبرار قسمه 548

ألا يهجر المسلم أخاه أكثر من ثلاثة أيام 548

فضل التصالح والإصلاح بين المسلمين 550

عقوبة المتخاصمين والمتشاحنين. 550
عدم التشهير به وتتبع عوراته وفضحه. 550
مجموعة حقوق وواجبات. 554
(ب) الحقوق الخاصة للأخوة. 556
حقوق الجار وإكرام الضيف. 564
حقوق الجار. 566
حدود الجيران والأولى بالحق منهم. 568
كيفية إكرام الجار. 569
كف الأذى عن الجار. 574
من صور إيذاء الجار. 575
تحذير شديد اللهجة. 577
فضل الإحسان إلى الجار. 557
إكرام الضيف. 578
آداب الضيافة والزيارة. 579
إيثار وإكرام. 582
ضيف مؤمن. 583
كتاب الذكر والدعاء والتوبة. 585
الدعاء في مواجهة البلاء. 587
أمن يجيب المضطر إذا دعاه. 590
الدعاء وأوقاته وآدابه وآفاته. 595
آداب الدعاء. 595
آداب قبل الدعاء. 595
آداب أثناء الدعاء وبعده. 597
آفات الدعاء. 600
اسم الله الأعظم. 602
دعاء عند الكروب والهموم والأحزان. 605
ذكر الله عز وجل. 611
الذاكرون والغافلون. .الأحياء والأموات. 611

الذاكرون ولذة الذكر.	613
منزلة الذكر كما وصفها ابن قيم الجوزية.	614
القرآن والذكر.	615
فوائد الذكر وفضائله.	716
آداب يجب مراعتها عند الذكر.	725
قالوا عن الذكر والذاكرين.	626
عجيبتان.	627
التوبة والاستغفار.	628
بع نفسك من الله، ولا تأمن عاقبة الذنب.	628
كلنا ذوو خطأ.	631
لا تقنط ولا تيأس.	635
هؤلاء والتوبة.	693
الله تعالى المعين على التوبة.	640
الأمر بالتوبة صريح.	641
بعض صيغ الاستغفار.	644
التسويف والتوبة.	645
التوبة النصوح.	647
هؤلاء عادوا إلى الله.	651
فضل العلم والعلماء.	654
العلم وأهميته.	654
فضل العلم والعلماء في الكتاب والسنة.	657
العلم منذ نعومة الأظافر وحتى الموت.	661
زد في الضرب وزد في التحديث.	662
متسول العلم.	663
آداب طالب العلم.	665
من آداب المعلم والشيخ والأستاذ.	671
فهرس الكتاب.	675